
Bibliotheca Alexandrina
0137866

اقرأ

حسين الشافعي
نائب رئيس الجمهورية

في مولد النبي





تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





حسين الشافعي
نائب رئيس الجمهورية

في مولد النبيّ

اقرأ ٣٤١
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤١ – مايو سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

فى أواخر القرن الخامس الميلادى كثرت أقوال الناس عن قرب ظهور نبي من بين العرب . وكان العرب يعملون بالتجارة ، ويسافرون إلى الشام وغيرها من البلاد المحيطة بشبه الجزيرة ، وكانت قريش قمة القبائل العربية ، ولابد أنها سمعت ما يتردد خلال أسفار سادتها ورحلاتهم. وكان أمية بن أبى الصلت من رواة هذه الأحاديث ، وسمعه أبو سفيان ابن حرب فقال له : « إن هؤلاء الرهبان، إنما يتحدثون من ذلك بما يتحدثون ، لأنهم فى جهل من أمر دينهم ، فهم فى حاجة إلى نبي يدلهم عليه ، أما ونحن نتخذ الأصنام ليقربونا إلى الله زلفى ، فلا حاجة بنا إلى شيء من هذا ، ويجب علينا أن نحارب كل حديث من مثله » .

كان عبد المطلب سادن الكعبة — أى المسئول عنها — وكانت مكاناً مقدساً عند العرب يحجون إليه ، وكان لايتولى هذا المنصب سوى القبائل والأسر الشريفة ، وكانت سدانة « الكعبة» تجعل القائم بها صاحب الأمر المطاع فى مكة كلها .

وكان عبد المطلب جد الرسول فى السبعينات من سنى حياته ، عندما حاول أبرهة الحبشي مهاجمة مكة وهدم بيت إبراهيم ، وكان ابنه عبد الله فى الرابعة والعشرين ، فاختار له زوجة هي آمنة بنت وهب بن عبد مناف ، وفى اليوم الذى تزوج فبه عبد الله ، تزوج أبوه عبد المطلب من هالة ابنة عم آمنة ، فأولدها حمزة عم النبي الذى كان فى مثل سنه .

وبعد أشهر قليلة توفى عبد الله . وعاشت آمنة فى بيت عبد المطلب حتى وضعت .

وكان مولد النبى ، كما تقول بعض الروايات ، مصحوباً بعلامات وإشارات ، تعلن مولد طفل عظيم ذلك أن أمه لم تتحمل أى مشقة فى حمله أو ولادته ، وانبعثت يوم مولده أنوار عظيمة أضاءت ما بين المشرق والمغرب . . .

وقيل إن السماء والأرض ارتجتا لمولده : وغاضت مياه بحيرة « ساوى » ، وجفت جوانبها ، وفاضت مياه دجلة ، واهتز عرش كسرى ، وسقط كثير من أبراج قصره . ورأى « الموبان » خادم النار الأول عند الفرس رؤيا فى منامه أن فرساً عربياً قد صرع جملا : وقص حلمه فى الصباح على كاهن فارس ، ففسره بأن بلاد فارس ستهدد بخطر قادم من بلاد العرب .

وفى تلك الليلة الخالدة ، انطفأت نيران زرادشت المقدسة التى ظلت تشتعل دون توقف منذ آلاف السنين ، وسقطت جميع أصنام العالم على الأرض . . . .

وكان عبد المطلب عند الكعبة ساعة مولد حفيده ، وإذ أبلغ النبأ فرح فرحاً عظيماً ، وهرع إلى الدار وحمل الوليد إلى الكعبة ، وهناك سماه « محمداً » ، ولم يكن هذا من أسماء العرب المتداولة ، وإن كان معروفاً . وكانت عادة أشراف العرب أن ترضع أطفالهن المراضع ، فرضع الوليد أولا من ثويبة جارية عمه أبى لهب ، ثم تسلمته حليمة بنت أبى ذؤيب من قبيلة بنى سعد ، ولهذا أطلق عليها « حليمة السعدية » .

ويقول كتاب السيرة العرب إن العناية الإلهية كانت ترعى حليمة طوال فترة بقاء الطفل فى رعايتها ، فلم تجف الآبار والعيون ، وظلت

المراعى دائماً خضراء ، وتضاعف عدد أغنامها ، وعم الخير أرضها . . .
قالت حليمة : « ثم قدمنا منازلنا ، من بلاد بنى سعد ، وما أعلم أن فى أرض الله ما هو أجدب منها ، فكانت غنمى تروح ترعى وتأتى شباعاً ، فنحلب ونشرب » .

ولد محمد قبل إشراق نجمة الصباح بلحظات يوم الاثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول عام الفيل (٢٩ أغسطس سنة ٥٧٠ ميلادية). وقد ولد نظيفاً مختوناً .

وهناك خلاف بين المؤرخين حول العام الذى ولد فيه الرسول ، ولكن أكثرهم أجمع على أنه عام الفيل ، أى سنة ٥٧٠ ميلادية ، واختلف المؤرخون أيضاً حول الشهر الذى ولد فيه ، وإن كانت الأغلبية قد أقرت أن مولده كان فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول .

يقول وشنطون إيرفينج المؤرخ المستشرق الأمريكى (١٧٨٣ — ١٨٥٩) إن محمداً ولد فى شهر أبريل عام ٥٦٩ ميلادية ، ويذكر ابن هشام أن مولده كان يوم الاثنين ١٢ من ربيع الأول من عام الفيل ، ويقول العلامة محمود الفلكى المصرى إن تاريخ المولد هو صباح اليوم التاسع من ربيع الأول .

وفى اليوم السابع لمولده أمر عبد المطلب بجزور فنحرت ، ودعا رجالا من العشيرة فجاءوا وأكلوا ، وإذ سألوا عبد المطلب عن سبب تسميته حفيده محمداً ، قال : « أردت أن يكون محموداً فى السماء لله وفى الأرض لخلق الله » .

بعد مولد محمد بأيام ، حضر إلى مكة نساء من بنى سعد ، يضرب لونهن إلى السمرة ، ويلوح عليهن أثر إقليمهن الصحى ، حضرن يلتمسن الأطفال عند الأشراف ، فنالت منهن حليمة السعدية شرف إرضاعه .

تقول حليمة : كانت سنة جدباء : لم تبق لنا شيئاً ، فصيرتني وزوجي في فقر مدقع فعزمنا على الخروج إلى مكة في رفقة نسوة من بني سعد ، نلتمس جميعاً الرضعاء ، ليساعدنا آباؤهم على ضرورات الحياة .

وكانت الأتان التي أركبها من الهزال والضعف حتى خشينا أن تنفق في الطريق : ولم نم ليلنا حتى صبينا الذي كان معنا ظل يبكي لما يجده من ألم الجوع . ولم يكن في ثديي ، ولا في أخلاف الناقة التي يقودها زوجي قطرة من لبن ، نهدئ بها من جوعه . . لقد استولى علي اليأس في أثناء الليل ، وتساءلت كيف يمكنني وأنا في تلك الحالة ، الزعم بأن في مقدوري القيام على تنشئة طفل ؟

ووصلنا أخيراً إلى مكة ، وقد سبقنا إليها النسوة ، فأخذن الأطفال ، ماعدا محمداً. كان والده قد مات قبل مولده ، وكانت أسرته قليلة اليسر ، برغم مكانتها العليا بين سادات قريش : وأبت النسوة الأخريات احتضانه.

وامتنعت أنا وزوجي عن احتضانه للأسباب نفسها ، أعني اليتم وعدم الثراء . غير أني في النهاية خجلت أن أرجع ولم آخذ رضيعاً فأكون — فضلا عن الإخفاق — موضع السخرية ، ثم إني شعرت بعطف متوقد نحو ذلك الطفل البارع الجمال ، الذي قدرت أن هواء مكة الفاسد سيؤذيه .

ملأت العاطفة جوانحي ، وشعرت — يا للمعجزة ! — باللبن يعود إلى ثديي متحفزاً . . . ! فقلت لزوجي :

— والله إني لأجد رغبة ملتهبة في أن آخذ هذا اليتيم ، مهما كان الأمل في الخير الذي يعود علينا من أسرته ضعيفاً .

— لا عليك أن تفعلي ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

وهكذا ، لم أتمالك نفسى ؛ فأسرعت مهرولة نحو الطفل الوسيم ، فوجدته وسنان ، فوضعت يدى على صدره اللطيف ؛ فابتسم ، وفتح عينيه اللتين تشعان نوراً ، فقبلته بينهما ، وأخذته ورجعت به إلى رجلى ، ثم وضعته فى حجرى ، وألقمته ثديى الأيمن ليتغذى منه بما شاء الله . فوجد فيه — على دهشة منى — ما يشبعه ، ثم منحته ثديى الأيسر ، فرفضه ، تاركاً إياه لأخيه من الرضاعة واتبع ذلك دائماً .

وأعجب من هذا أن زوجى قام إلى ناقتنا ليهدئ ثائرة الجوع التى تلتهب بين أحشائه ، فإذا أخلافها حافلة باللبن ، فحلب منها وشرب ؛ وشربت أنا معه حتى ارتوينا وشبعنا ، وبتنا بخير ليلة ، وما كنا ننام من قبل .

وواصلت حليمة الحديث عن غنمها وكيف كانت المرعى الخصيب ، كان النبات يترعرع لمقدم غنمها ويذبل عقب مرورها مباشرة . « فلم نزل نتعرف من الله الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفطمته » .

وتواصل حليمة الحديث قائلة : « كان يشب شباباً لايشبه الغلمان ، يبعد عن الأقذار ، لايبكى ولايصرخ . . . أما إذا قلق فى أثناء الليل ولم ينم ، فكنت أخرج به من الخيمة فلا يلبث أن ينظر فى إعجاب إلى النجوم ، فيستولى عليه السرور ، حتى إذا شبعت عيناه من هذا المنظر أطبقهما ، وأخذ النوم بمعاقد أجفانه » .

أقام محمد فى الصحراء سنتين ترضعه حليمة ويسرع بنموه الهواء النقى ، وبعد السنتين ذهبت به حليمة إلى أمه ، ولكن الأسرة اتفقت على أن يعود مرة أخرى إلى الصحراء خوفاً عليه من وباء كان يجتاح مكة وقتئذ ، فأقام فى البادية نحو سنتين أخريين .

وعندما أصبح محمد فى الثالثة من عمره ، وبينما كان يلعب مع أخيه فى الرضاعة ، ظهر له ملكان يشع منهما النور ، فأرقدا محمداً

فى رفق على الأرض . وشق أحدهما . وهو جبريل ، صدره : دون أن يسبب له ألماً ، ثم نزع قلبه وطهره من الحقد والشر اللذين زرعا فى القلوب منذ آدم . واللذين يدفعان البشر إلى ارتكاب الآثام ، ثم ملأ الملكان قلبه بالمعرفة والنور ؛ ثم أعاداه إلى مكانه فى صدر الطفل . ويستند القائلون بهذه الرواية إلى حرفية الآيات القائلة : (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ، وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ ، الَّذِى أَنْقَضَ ظَهْرَكَ) .. وإن كان بعض الأئمة يذهبون إلى أن ما يشير إليه القرآن إنما هو عمل روحى بحت ، الغاية منه تطهير هذا القلب ليتلقى الوحى خالصاً ، ويؤدى الرسالة مخلصاً ، ويحتمل عبئها المضنى .

ويذكر المؤرخون أنه كان بين كتفى الطفل « خاتم النبوة » ، وظل هناك طوال حياته دليلا على صدق نبوته. أما الكفار فقد اعتبروه خالا (حسنة أو وحمة) كبير الحجم ، إذ كان فى حجم بيضة الحمامة .

وحينما علمت حليمة وزوجها بقصة الملكين : شعرا بالخوف على الغلام . فقد ظنا أن هذين الزائرين من أشرار الجن الذين يجوبون — كما كانوا يعتقدون — الصحراوات الخالية ويوقعون الأذى بالأطفال ، ولذا عادت حليمة بمحمد إلى مكة وأعادته إلى أمه .

ويقول إيرفينج — نقلا عن رواة السيرة — إن محمداً ، بعد أن أعادته حليمة إلى أمه ، ظل فى رعاية والدته حتى السادسة من عمره ، وحينذاك صحبته أمه إلى « يثرب » — المدينة — لزيارة أقاربها من قبيلة عديج . ولكنها مرضت خلال عودتها إلى مكة ، ثم توفيت عند بلدة « الأبواء » ؛ وتقع على الطريق بين مكة والمدينة ، ودفنت هناك ، وحرص محمد طوال حياته على زيارة قبرها .

وكان لآمنة جارية حبشية تدعى « بركة » — وهى أم أيمن — فبعد

أن توفيت آمنة أصبحت بركة لمحمد فى مقام الأم . فعادت من هذه الرحلة ، وسلمته إلى جده عبد المطلب . فظل محمد فى رعايته نحو عامين ، حتى إذا شعر عبد المطلب بتقدمه فى السن واقتراب يومه ، نادى أبا طالب — وكان أكبر أولاده — وطلب منه أن يضع محمداً فى رعايته ، وضم أبو طالب محمداً إلى صدره ، وأصبح له كالأب . وظل محمد فى رعاية عمه الذى ورث سدانة الكعبة .

عاد محمد إلى مكة وهو فى الخامسة من عمره ، وقد كان أحب أحفدة عبد المطلب إليه، فقد مات أبوه عبد الله قبل مولده ، وماتت أمه بعد حين ، فزاد حب عبد المطلب له . ولما بلغ محمد الثامنة من عمره توفى عبد المطلب — الذى كان فى الثمانين — فكفله عمه أبو طالب الذى أحبه حتى كان يقدمه على أبنائه ، وكان يجد فيه من النجابة والذكاء وطيب النفس ما يزيده به تعلقاً .

ولما كان محمد فى الثانية عشرة ذهب مع عمه فى رحلة له إلى الشام، وكانت هذه أول مرة يخرج فيها محمد مع قافلة تجارية ، وتروى كتب السيرة أنه التقى فى هذه الرحلة براهب يدعى « بحيرى » ، وأن الراهب رأى فيه أمارات النبوة ، وتقول بعض الروايات إن الراهب نصح أهله أن يشددوا المحافظة عليه لئلا يكتشف فيه اليهود أمارات النبوة فيناله منهم أذى .

وفى الشام عرف محمد الكثير : عرف أخبار الروم، والنصارى وكتبهم، وسمع عن الفرس وعبادتهم النار ، وحروبهم مع الروم .

وعاد محمد إلى مكة مع عمه ، وكان يخرج إلى الأسواق المجاورة فى عكاظ ، حيث كانت تقام ندوات الشعراء ، وفى مجنة وذى المجاز ، حيث استمع لإنشاد أصحاب المذهبات والمعلقات ، وهى قصائد ألفها شعراء الجاهلية ، وكانوا يكتبونها بماء الذهب على أستار من حرير

ويعلقونها على جدران الكعبة وغيرها ، وكانت أذناه تلتهم البلاغة العربية الأصيلة فى مختلف فنون الشعر ، وكانت بصيرته تعى ما تستسيغ وتلفظ ما لاتراه خليقاً بالإعجاب . واستمع محمد كذلك إلى خطب اليهود والنصارى ، وكان هؤلاء يتحدثون عن التوراة والإنجيل ، ويدعون العرب إلى اعتناق اليهودية والمسيحية على اختلاف مذاهبها ، وكان يزن ذلك كله بميزان قلبه ، فيراه خيراً من الوثنية وعبادة الأصنام التى درجت عليها عشيرته .

وإلى جانب ذلك كله عرف محمد طرق القوافل فى الصحراء وحمل السلاح ، فقد وقف إلى جانب أعمامه فى حرب الفجار ، وهى حرب حدثت بين قريش وكنانة من جانب، وبين قبيلة هوازن من جانب آخر ، وقد سميت الفجار لأنها وقعت فى الأشهر الحرم ، وكان العرب — قبل الإسلام — يمتنعون خلالها عن القتال ، ويعقدون أسواق تجارتهم ، ويحجون عند أصنامهم حول الكعبة ، وهناك خلاف حول دور محمد فى تلك الحرب التى قيل إنها امتدت أربع سنوات ، فهناك من يقولون إنه كان يجمع السهام التى تقع من «هوازن» ويدفعها إلى أعمامه ليستخدموها ضد خصومهم ، وقال آخرون إنه اشترك فيها ورمى السهام بنفسه . ولعل الحقيقة هى ما ذكره رسول الله بعد سنوات من رسالته ، إذ قال : « قد حضرت حرب الفجار ، (والحرب تؤنث وتذكر) مع عمومتى ورميت فيه بأسهم ، وما أحب أنى لم أكن فعلت » .

وفى فترة الصبا هذه ظهرت على محمد مظاهر الكمال والرجولة والأمانة ، حتى دعاه أهل مكة « محمداً الأمين » . وفى هذه الفترة انصرف إلى التفكير والتأمل، وساعده على ذلك أنه كان يرعى الغنم ، وقد ذكر رعيه إياها بالفخر فأكثر الأنبياء رعوا الغنم ، وراعى الغنم الموهوب يجد فى الجو الطلق خلال النهار ، وفى صفاء السماء وبزوغ النجوم فى أفلاكها ليلا ،

مواضع لتفكيره وتأمله ، ومما لاشك فيه أن حياة راعى الغنم تستدعى قوة الملاحظة والانتباه واليقظة ، حتى لا تقترب الذئاب ، وحتى لا تضل إحدى أغنامه فى متاهات الصحراء ، فضلا عن أن ذلك التفكير والتأمل صرفاه عن التفكير فى الشهوات الدنيا ، وهكذا ارتفعت كل تصرفات محمد وأعماله عن كل ما يمس لقبه « الأمين » .

وحياة راعى الغنم ، الذى يقضى نهاره وليله فى عمله ، وفى التفكير والتأمل ، لايتيسر لصاحبها غنى ، وهكذا نشأ لايهتم بالمادة ولايعنى بها ، وكان لايحتاج إلا إلى ما يقيم أوده ، وهو القائل : « نحن قوم لانأكل حتى نجوع ، وإذا أكلنا لانشبع » .

ورأى أبو طالب ، أن يجد لمحمد سبيلا للرزق متسعاً ، فقد ناء بكثرة أولاده ، وإذ بلغه أن خديجة بنت خويلد لها تجارة واسعة — وكانت من بيوت بنى أسد الشرفاء — وأنها تجهز لخروج تجارتها إلى الشام ، سأل ابن أخيه ، وكان قد بلغ الخامسة والعشرين ، إذا كان يحب أن يعمل فى التجارة ، فوافقه ، وتحدث أبو طالب إلى خديجة فوافقت .

وذهب محمد إلى الشام وبرفقته « ميسرة » غلام خديجة ، واستطاع محمد بأمانته ومقدرته ، أن يزيد ربح أموال خديجة . ولما باع ما معه اشترى من تجارة الشام ما رغبت خديجة أن يأتيها به وعاد محمد ليبلغها أخبار رحلته وربح تجارته وما جاء به ، وجاء « ميسرة » مع باقى القافلة فحكى لها عن محمد وخلقه وحسن تصرفه وأمانته ، فزاد إعزازها له ، وكانت فى الأربعين من عمرها ، فاتصلت بصديقة لها وأبدت رغبتها فى الزواج من محمد ، وبوسيلة ما سألت الصديقة محمداً : ما يمنعك أن تتزوج ؟

قال : ما بيدي ما أتزوج به . .

وإذ يسرت له المطلب ، وذكرت له اسم خديجة ، استغرب أن تقبل

الزواج منه ،وهى التى سبق لها أن رفضت الطالبين من كبار رجال قريش، فقد كانت تعتقد أنهم يطمعون فى مالها . وتم الزواج بحضور عمها عمر بن أسد ، و بعض أعمام محمد .

وخلال عقد القرآن خطب أبو طالب ، فكان مما قال : « إن محمد ابن عبد الله ابن أخى ، لايوازن به فتى من قريش إلا رجح عليه براً وفضلا ، وكرماً وعقلا ، ومجداً ونبلا ، وإن كان المال قل ، فإنما المال ظل زائل وعارية مسترجعة . وله فيه مثل ذلك ، وما أحببتم من الصداق فعلى » .

زادت ثقة الناس فى محمد فكانوا يحتكمون إليه فى خصوماتهم ، وتروى قصة عن فطنة محمد وذكائه بعد أن تهدمت الكعبة نتيجة حريق شب بها ، واشترك الناس فى إعادة بنائها ، وبقى فى النهاية وضع الحجر الأسود فى مكانه ، فقام نزاع عنيف بين القبائل ، فقد أرادت كل قبيلة أن تنفرد بهذا الشرف ، وأخيراً اتفق زعماء القبائل على تحكيم أول من يدخل من باب الحرم ، وأراد الله أن يكون الرسول الكريم هو أول من يدخل ، فحكم محمد : فخلع رداءه الخارجى ووضع الحجر الأسود عليه ، وأمسك جميع رؤساء القبائل بأطراف الثوب ، ورفعوا الحجر وتسلمه محمد منهم ووضعه فى مكانه .

وقد حدثت هذه الواقعة بعد زواج محمد وقبل بعثته .

الناشر

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(قُلْ يَـأَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً ، الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ ، يُحْيِى ويُمِيت ، فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِىِّ الْأُمِّىِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ ، وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .)

(الأعراف: ١٥٨)

* * *

(وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ ، يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) (المائدة : ٨٣)

* * *

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِىَّ الأُمِّىَّ ، الَّذِى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ)

(الأعراف : ١٥٧)

هذه الخواطر وهذا الكتابُ

فى موكب الذكرى العطرة . لمولد نبى الرحمة المبعوث إلى الناس كافة ، ونحن فى معركة مع أعدائه وأعداء الله ، يلح سؤال :

. كيف نحيي المولد النبوى ؟ . .

فى يقينى أن إحياء ذكرى المولد النبوى ، لاينبغى أن يقف عند السيرة الزمنية فحسب ، وإنما يجب أن يتجاوزها إلى مستوى النفع بالقدوة الحسنة ، والدعوة للاقتداء بالمثل العليا المتجددة فى أخلاق وجهاد هذا النبى العظيم . . فيأخذ عنها كل عصر أمام كل حدث ما يواكبه ومايلائمه ، حتى لاتتكرر السيرة العطرة مجملة مكدسة . . فهذه السيرة ليست مجرد سرد تاريخى محبب إلى كل إنسان ، وليس إحياؤها موسم محاولات لرسم شخصية خاتم الأنبياء ، وإنما هى أولا ، وقبل كل شىء أيام وأحداث هزت كيان البشرية ، وأنقذتها من شهوات النفس ومزالق الهوى ، وأخرجت الناس — ذوى الألباب — إلى شريعة الرحمة والعدل والحق والخير والسلام .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ)

هكذا خاطب الله نبيه ومصطفاه ، ولوحاولنا أن نتخذ من هذه الآية الكريمة وحدها موضوع مؤتمر علمى يعقد فى ذكرى المولد النبوى ، لوجدنا بين أيدينا مادة فكرية تحتاج فى تسجيلها إلى مجلدات ، ولوجدنا فى أنفسنا طاقات مشعة تحيي فينا الموات . .

هى الرسالة إذن وهى الرحمة موضوع هذه الرسالة .. رسالة القرآن الذى أنزل على قلب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم آية فآية . . كل آية تنزل فى مناسبتها : ترتبط بالأحداث ، وتربط الأحداث بالآيات . . . حتى نشأ جيل من البشر انفعل بالوحى : فقويت عقيدته ،

ونبت فى قلبه الإيمان . . شجرة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

هكذا شاءت حكمة الله أن ينزل الوحى مبيناً للأحداث ، لاينفصل عن حياة الناس . . فأحس جيل الرسالة عظمة هذا الدين القيم ، وقد تمثلت فى الكتاب الأعظم منهاجاً وسلوكاً وعملا وحركة حياة .

ثم نأتى نحن اليوم فى مطلع القرن الخامس عشر على مولد سيد البشر . . فنقرأ رسالته ، ونتذاكر حياته ونضاله ، فلا تتجسم فى أذهاننا الأسوة الحسنة ، ولايتوافر لنا الانفعال بالأحداث التى نزل بها القرآن ، وهى متجددة على طول الشهور والأعوام ، ولانجد فى أنفسنا تلك المشاعر التى وجدها المسلمون الأوائل ، فجعلت منهم — وهم بدو الصحراء — قادة الدنيا ومعلمى الناس الحق والخير والحرية . . لماذا ؟ . .

لأن الاحتفال بحياة النبى ، لا يعنى إنشاد السيرة بالنغم العذب ، وإنما يعنى أولا استلهام رسالة النبى وكفاحه فى سبيلها دليلا إلى العمل الإيجابى . . وما رسالة النبى سوى القرآن الكريم القائل فى محكم آياته :

(مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ) .

لقد تناول هذا الكتاب المبين كل حياة الناس فى الدنيا والآخرة ، يقال بلسان من نزلت عليهم هذه الرسالة :

(مَا لِهٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا) .

هنا يبرز سؤال : كيف السبيل — مع شواغل الدنيا — إلى تدبر القرآن وفهمه وممارسة اتباعه والرجوع إليه عند كل شدة وأمام كل مشكلة ؟

الجواب أننا إذا لم نستطع أن نعيد ما حدث من أمجاد فى صدر الرسالة ، فلا أقل من أن نلجأ إلى ساحة القرآن ، نلتمس فى آياته نوراً يضيء ظلام أيامنا ، وحلولا لمشاكل عصرنا ، ونركز على فهم الآيات التى تطابق ما يمر بنا من أحداث ، ونبنى تفكيرنا وتدبيرنا على هذا الأساس .

بذلك يتكون الضمير الحى المدرك الذى يعيش الآية المناسبة ، فيزيد إحساسنا بفاعلية الرسالة ، وجلال تلك الآية . . فالقرآن الكريم فى رأيى يتجاوز حلاوة الكلمة ورقة الأسلوب وروعة التعبير وبلاغة المنطق . . إلى التأصيل الموضوعى لكل ما يمكن أن تتعرض له البشرية من أحداث . .

أما عن السيرة والسنة ، ففيهما الترجمة الحية المتجددة لتطبيق الرسالة . . هى السلوك والأخلاق والقيم التى يجب أن نحييها فى ذكرى مولد سيد البشر وكان خلقه القرآن .

ولنأخذ من الرسالة وتطبيقها ما ينفعنا فى حاضرنا ، ليقتدى بنا كل من يأتى بعدنا . .

نحن اليوم نعيش أحداثاً تزلزل أنفسنا . . نعيش أقسى وأصعب حياة عاشها المسلمون . .

لقد تجمع اليهود من فجاج الأرض وأخلاط الشعوب ، لينشئوا دولة باسم إسرائيل على أرض عربية اقتطعت بالسلاح . . ويقيمون فوقها كياناً يعتمد فى بقائه واتساعه على ما يمكن اقتطاعه أيضاً بالسلاح . . وهكذا يصبح وجودهم على حساب ضياع جزء منا نحن العرب . . وإنهم على هذه الصورة تجسيد لحال اللص الذى يدخل البيت سارقاً ، وقد استقر فى نفسه شعور بأنه قاتل أو مقتول !

نحن العرب أمام إسرائيل ، لايمكن أن نتصور أو يتصور أحد أننا نستطيع مسالمتها أومهادنتها ، إلا إذا ارتضينا أن تكون إسرائيل ولايكون العرب .



إذن كيف السبيل إلى الدفاع الشرعى عن النفس؟ . .

نعود إلى الرسالة التى لم تفرط فى شىء . . نعود إلى التركيز على الآيات التى تتصدى لمثل هذا الموقف . . نركز عليها ، ونؤصل تعرفنا على أساسها . بالمثل الأعلى والقدوة المثلى . . حتى نغرس فى جيلنا وفى أبنائنا عقيدة واقعية ، تعرف لكل هدف طريقه ، ولكل داء دواءه ، ولاتستغرقنا الكليات ، ونحن نعيش الحياة يوماً فيوماً . وحدثاً فحدثاً . ولكل يوم آية ، ولكل حدث آية . .

وقد يكون هذا هو الأساس الذى تقوم به وعليه خطة التربية والتعليم . . وأسلوب التثقيف على جميع المستويات . . ودليل الإعلام فى كل المناسبات . . حتى تصبح هذه القيم أسلوبنا المتميز فى المعارك وفى السياسة ، وفى البناء والتقدم .

نحن اليوم نعيش معركتنا المصيرية ، ولابد أن ننظر إلى إعجاز الرسالة فى مجال الحشد الحقيقى لقوانا العسكرية وقوانا الشعبية . . كل يتحرك من منطلق واحد أساسه التركيز على الهدف . . يصدر عن الآية . ويقتدى بالأسوة . .

نحن فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا ، وهو تاريخ رسالتنا وعقيدتنا ، لم يعد يشغلنا شاغل عن طرد اللص من ديارنا وتطهير أرضنا من أعدائنا ، أعداء الله وأعداء رسوله وأعداء دينه وكل العقائد السماوية .

وقد عرض لى فى ذكرى المولد النبوى طول سنوات النكسة العارضة التى وقعت فى عام ١٩٦٧ : أن أتبين معالم الطريق إلى الخلاص . . فى آى القرآن العظيم الذى لم يمنحنا الله إياه لنحمله كلاماً نحفظه ونردده فقط فى العبادات أو المناسبات ، أو لنجعله تمائم نتبرك بها ونستجلب بها الخيرات ، ولا يمكن أن يكون المصحف زينة للمكتبات . .

إننا إذا وعينا آى الذكر الحكيم ، نستطيع أن نجد فيها ونقتبس

منها نوراً يهدى ، وعلاجاً يشفى ، وطاقات تزيل من طريقنا كل الصعاب وكل العقبات .

لقد تجمع اليهود بأسلحتهم فوق أرض العرب ، طبقاً لمخطط صهيونى اعتمدوا فى تنفيذه على الولاء المتنقل لمن يساعدهم . . فمرة كان الولاء الصهيونى لبريطانيا . . ومرة يكون الولاء لأمريكا . . حيث يكون مصدر القوة . . ولايدرى أحد لمن يكون الولاء فى المرة الثالثة وما بعدها . .

إنهم يستدرون عطف الأقوياء بدعوى الظلم الذى وقع على اليهود فى كل العهود . . وخرافة العداء للسامية هى الشرك الذى وقعت فيه دول كبرى ودول صغرى .. وقد أراد اليهود بالترويج لهذه الخرافة أن يتجاوزوا نقطة الضعف التى بدءوا من عندها . . ولاريب فى أنهم تجاوزوها . .

لاجدال فى أن الصهيونية قد استطاعت أن تصنع من ضعف اليهود ومسكنتهم قوة تحتل فلسطين . . وصنعت من تشريد اليهود وطناً قومياً لايقنع بما اغتصبته إسرائيل بالعدوان ، وإنما ينظر بمطامعه إلى ما بين النيل والفرات ، وإلى ما وراء ذلك من أرض يريدون الاستيلاء عليها بقوة أعوانهم المضللين .

على هذه القاعدة يجب أن نستشعر الخطر بكل أبعاده . .

وإن حريق المسجد الأقصى ، وهدم القدس ، وتحويل « مسجد إبراهيم فى الخليل » إلى معبد لهم . . لم يكن ذلك وغيره من الجرائم سوى اختبار لوجود الأمة العربية بل الأمة الإسلامية . . اختبار قامت به إسرائيل على استحياء . . مخافة رد الفعل الذى تصوروه .

لكن رد الفعل لم يحدث . .

لأن عهود التخلف التى فرضت على المسلمين من داخلهم ومن خارجهم ، قد أفقدتهم الحمية التى كانت تقتضيهم ألا تمر هذه الجرائم بلا عقاب . . لكنها مرت وقد يمر غيرها بلا عقاب .

لقد أدركت إسرائيل من واقعنا أنها أمام موت حقيقى . . أو على أحسن الفروض أمام استرخاء مطلق . . أو ربما سبات عميق . . أو لعله كل ذلك .

وهذا هو ما أغرى إسرائيل وسوف يغريها بأن تقيم هيكل سليمان على أنقاض المسجد الأقصى . . وعندها ستكون القارعة التى تبعث الموتى وتوقظ النيام الغارقين فى الأحلام . . ثم يكون الشعور بالخطر أصلح مناخ لبعث القوة العارمة فى أصحاب هذه المقدسات . . وتنبت من جديد شجرة الإيمان التى تصنع المعجزات . . ترتوى بالرسالة وتقتدى بالرسول .

ماذا يقول القرآن الكريم فى هذه المحنة التى نعيشها اليوم نحن العرب؟..

ما هو حجم القوة التى نواجه بها هذا الخطر الداهم ؟

فى الرسالة دليل العمل . . وفى الرسول مثل القيادة . . وفى جيل الرسالة نموذج المجتمع المؤمن الصادق الذى يحرك بإيمانه الجبال .

من هذا المنطلق يجب أن نتبين معالم الطريق . . إلى مواجهة الخطر بكل أبعاده ، ثم نقوم إلى العمل الذى ينجينا وينجى البشرية من هذا الخطر . .

إن مخطط أعداء الله وأعدائنا قد أصبح أعمالا تجاوزت الكلام والأمانى إلى أرض اقتطعوها بالسلاح ، وإلى خرائط للتوسع بالسلاح .

حقيقة أن الخطر الصهيونى يهدد سلام العالم . . ولكنه قائم على أرضنا نحن العرب وفوق صدورنا . . أرض السلام أصبحت قاعدة للحرب ! والقاعدة العدوانية جاثمة على صدورنا نحن العرب ونحن المسلمين . . فكيف ننتزع أنفسنا من براثن هذا الخطر؟ . . .

إن القرآن يهدينا إلى مخطط نواجه به هذا الخطر المخطط . .

وقد يسأل سائل أو أكثر : أمازلنا نفكر فى التخطيط . . إننا نريد العاجلة . .

وذلك القول مردود بأن المسألة ليست مسألة زمن للتخطيط والتنفيذ يطول أو يقصر . . ليس هذا هو الأمر . . إن الأمر كل الأمر هو أن تشعر هذه الأمة المعتدى عليها بأن لديها تخطيطاً للنجاة من الأفعى : رأسها وأذنابها . . ونشعر جميعاً بأننا قد تجمعنا على الطريق وبدأنا نسير . . نسير . .

إن شعوب الإسلام اليوم تحس أنها تعيش حياة الضياع . . حتى فقد الناس ثقتهم فى أنفسهم ، وفى وجودهم ، وفى قياداتهم ، وأخشى أن يفقدوا القليل الباقى من إيمانهم .

لقد اتخذت من أيام ذكرى المولد النبوى الشريف ، والأعياد الإسلامية التى توالت بعد النكسة العارضة فى عام ١٩٦٧ ، مجالا للاجتهاد فى الدعوة إلى العمل بالرسالة ، وإلى اتباع الرسول ، جاعلا من حجم الأحداث وثقلها حافزاً إلى دعوة الناس إلى ما يحييهم . .

وكانت سورة « الحشر » فى القرآن الكريم . . هذه السورة وحدها . . هى موضوع خواطرى التى تحدثت بها إلى الناس كلما دعيت إلى الحديث . . .

ومن هذه الخواطر تجمعت فصول هذا الكتاب ، وهى ترتبط بوحدة فكرية تقوم على الاجتهاد فى تقدير الموقف .

ركزت على سورة الحشر ، وليس غيرها ، ففيها نفس الموقف : اليهود أمام الرسالة . . واليهود أمام الرسول . . وفى المدينة المنورة كانت المعارك الأولى . . وفى القدس وما حولها تدور المعارك القائمة . . أمام أهل الرسالة وأمام أتباع الرسول .

فإذا كان لكل مقام مقال ، فمقام المعركة المصيرية مقاله فى هذه السورة الكريمة . .

وإذا نحن اتخذنا — كما اتخذ المسلمون الأوائل — من آيات القرآن

ومن أعمال النبي مبدأ وقدوة . . فبذلك وحده ستكون نتائج الحربين واحدة.

إنني أعيش القرآن مع الأحداث . .

إن في سورة « الحشر » تجسيماً لموقفنا من نفس الأعداء . . أولئك الذين كفروا من أهل الكتاب وهم اليهود ، وهم أبغض الناس إلى الناس ، ومع ذلك نجد من يساندهم في أمريكا . . حيث يعيش شعب مسيحي مضلل يقف وراء اليهود وهو لايدرى ما يكنه له اليهود . إنهم يحلبون ذلك الشعب ويستذلونه ويمتصون دماءه ويمزقون مجتمعه ويستحلون أمواله ويستبدون بكل مرافق حياته ، وإذا حدث لأمريكا خراب عاجل فسيكون على أيديهم ، ولسوف يحدث ذلك في القريب ، وقد تنبأ به جورج وشنطن غداة النصر في حرب الاستقلال الأمريكي .

إن الشعب الأمريكي يبغض من أعماقه اليهود . . ولكنه ينافقهم . . ولهذا النفاق أصل قديم . . منذ عصر النهضة والثورة الصناعية ونظام البنوك . . وعن طريق نظام البنوك تسللت الأفعى الصهيونية فسيطرت على كثير من الدول .

ولم تصبح الصهيونية كما تدعى عنصراً ضعيفاً يعاني مرارة العداء للسامية ؛ بل أصبحت قوة مخربة مدمرة أخطر ما فيها أنها حولت كثيراً من الحكومات الواقعة تحت السيطرة المالية إلى أجهزة إدارية تأتمر بأمرهم وتلتزم بحكمهم فنافقهم الشعوب إلى حين . . .

ومهما بلغت قواهم ، فإن أسلحتهم لايمكن أن تهزم قوة الحق . . فكيف نعبئ قوة الحق ؟ . . كيف يكون إيماننا بحتمية النصر؟ . .

ماذا يقول القرآن الكريم ؟ وماذا فعل النبي العظيم باليهود في أول الحشر ؟ . .

لقد أتيحت لى فرص التأمل في الموقفين ، ورأيت النصر في الحربين ، واسترسل الخاطر بما يحتويه هذا الكتاب ، بل هذه المحاولة

فى اختيار منهج التخطيط للمعركة المصيرية . . تطبيقاً لما أنزل الله فى محكم كتابه ، فإذا كان ثمة تكرار فى الشرح وتشابه فى الفهم بين فصول هذا الكتاب ، فإنما يأتى ذلك عن قصد منى إلى التركيز فى الوعى بجلال الرسالة وعظمة الرسول . . وقد تشابهت الآيات فى القرآن الكريم ، زيادة فى التربية والتعليم ، وكذلك ينبغى أن نعنى دائماً بالتنبيه المستمر إلى ما يقول القرآن الكريم ، والتنبيه المستمر إلى أعمال النبى القائد ليكون الذكر الحكيم هو الطريق إلى النصر العظيم .

وذلك التخطيط محكم فى رسالتنا المحمدية ، وعلينا نحن تقع مسئولية التطبيق . . ولابد أن تستمر الدعوة حتى تحتشد خير أمة فى أشرف معركة .

وسيجد القراء فى الصفحات التالية من خواطرى فى مولد النبى خلاصة فكرى طوال ثلاثة أعوام مضت ونحن فى المعركة لم نزل . . وما النصر إلا من عند الله .

حسين الشافعى

الفصل الأول

إلى سيدى رسول الله

بسم الله الرحمن الرحيم . والحمد لله رب العالمين ؛ والصلاة والسلام على أول الخلق وخاتم الأنبياء والمرسلين .

الحمد لله حمداً يتكافأ مع نعمته ، ويتسامى إلى قدر معونته ، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده . سبحانك ربى ، بعثته بالهدى ودين الحق ، لتظهره على الدين كله ، بعد أن اصطفيته وأكرمته ، وأفضت عليه وعلى أمته من آيات التقدير ، ما لم يتح لنبى قبله أو رسول ، وما لم تتشرف به أمة غير أمته :

(وَلِلّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

أنعم بذكرى النبي العربى ، المبعوث إلى الناس كافة ، فإن للأمة الإسلامية من تكريمه نصيباً ، وإن لنا فى إعلاء ذكره شرفاً عزيزاً .

أنعم بذكرى مولد من قال فيه الحق تبارك وتعالى :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) . (بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ) .

بعد ذلك كله يقرر الله عز وجل :

(إِنَّ اللهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ، يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) .

نصلى ونسلم عليك سيدى يا رسول الله : منذ بعثك الله هدى ورحمة ، لنتذكر فى كل صلاة أنك الأسوة الحسنة : تجسدت فى حياتك رسالة الإسلام وأخلاق القرآن . جئت بالدين القيم . ليكون ميثاق الرحمة على الأرض . ودليل عمل من أجل الحق والعدل . . نتمثل فى ذكراك ، وفى دوام الصلاة عليك ، عبر حياتك وجهادك : منذ مولدك إلى انتقالك ، فنجد فى كل خطوة ، وعند كل مرحلة مثلا أعلى للحياة الإنسانية .

ونحن بالصلاة الدائمة عليك ، نؤكد أن حياتك يا رسول الله ، كانت معجزتها أنك بشر ، ونحن فى سعينا إلى الاقتداء بك ، أو بالاقتراب منك ، إنما نسعى للاقتداء والاقتراب من أعلى مثل ، وقد جعله الله فى متناول الإيمان والعمل ، لكل مؤمن بالله وبك يا صاحب الخلق العظيم .

سيدى يا رسول الله .

ليست كذكرى مولدك ، مناسبة نحس فيها مدى حاجتنا إليك ، نترسم خطاك ، ونسير على هداك ، ونتأسى بجهادك ، وما تحملت فى سبيل دعوتك ، من إنكار المنكرين ، وسخرية الساخرين ، ونفاق المنافقين ، وتعويق المعوقين ، وعداء الكافرين ، وطغيان الجبارين . . ولكنك يا محمد ، كنت أكبر من هذا كله ، وأقوى من هذا كله ، فحملت الأمانة ، وبلغت الرسالة ، ونصحت الأمة ، ومضيت فى طريق الله ، حتى نصرك الله ، وتركت فينا ما إن تمسكنا به ، فلن نضل بعده أبداً . كتاب الله وسنتك يا رسول الله .

فمن غيرك يا محمد يمكن أن يكون لنا هادياً إلى الله ، ويمكن أن يكون لنا شفيعاً عند الله ؟ . .

إننا حينما نلجأ إلى بابك ، إنما نستوحى سيرتك ، ونستلهم جهادك ، بما يعين أمتك على السير فوق ما يعترضها من تحديات . . وإننا فى سعينا إليك يا رسول الله ، إنما نتلمس فى نورك إشارة أو بشارة ، هى بالنسبة

إلينا القاعدة الوطيدة . وهى مرفأ الأمن والنجاة .

نقف الآن فى رحاب ذكراك : وكل منا يدعو الله ويتمنى أن يراك فى مجال الرؤيا . . فتكون له البشرى . ولقلبه السكينة .

لقد تصورت — وأنا أكتب —هذه الرؤيا . وقد جئت يا رسول الله لتشد من أزرنا . وتبشرنا بأنك معنا . وأننا نحارب تحت لوائك . . إن مجرد هذا التصور والتأمل فى معناه . يجعلنا لاتسعنا الدنيا ثقة وإيماناً بنصر الله . لأننا كما تعلم يا إمام المجاهدين . نؤمن بأن لاغالب إلا الله ، وندرك أن لا حول ولا قوة إلا بالله ، ثم نذكر فى قلب المعارك قولك لربك فى أشد لحظات الحرج : « إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى » . .

قلت هذا يا رسول الله . وأنت على قدرك العظيم عند ربك ، ولم يزدك التكريم والتشريف الإلهى إلا خشية منه ، وسعياً إلى مرضاته ، تخاف غضبه . وترجو رحمته . بعد أن فقدت الأهل والنصير ، وتنكر لك قومك . فلم يشغلك شاغل . ولم ترهبك قوة ، ولم تعد تبالى بشىء سوى رضاء الله عنك . . وأنت المصطفى المختار . وأنت الرحمة المهداة .

تقبل علينا هذه الذكرى لرابع مرة بعد العدوان : وإن جاز لنا أن نسمى هذه السنين كما عشناها . فإن الأولى كانت سنة الامتحان ، والثانية كانت سنة الإيمان . والثالثة سنة البشرى . والرابعة سنة الجهاد .

وإننا لنجد فى ذكراك يا رسول الله . فرصة نجدد فيها العهد . ونقدم تقريراً وحساباً نتذاكر فيه ما يمكن أن نلمسه من علامات تبشر بها الأحداث : ويتضح فيها الأمل . ويزيد الإيمان بوعد الله : وبشر الصابرين . وكان حقاً علينا نصر المؤمنين .

أما سنة الامتحان . فقد شهدت لأعدائنا نصراً عسكريًّا فاق كل تقدير وكل توقع . . . كانت تلك السنة فى حقيقتها بما جاءت به من أحداث . مؤامرة دبرت بليل ، فاستفاد العدو من واقعنا ومن طبيعته

الغادرة .. من كل درس تعلمه .. فهو فى تلك السنة لايكرر عدوان ١٩٥٦
وكان عدواناً ثلاثيا يمكن أن يختلف فيه المعتدون . ولكنه فى ١٩٦٧ ،
كان عدواناً منفرداً فى الظاهر . . . كان العدوان فى عام ١٩٥٦ من
وراء ظهر الولايات المتحدة . ولكنه فى عام ١٩٦٧ كان بتنسيق معها . .
كانت هى المخطط والمدبر ، وكانت الممول والمبارك ، بل كانت القاتل
والمحرض . . لقد أعلنت الولايات المتحدة الأمريكية مبدأ كنيدى الذى
يدعون فيه أنهم إلى جانب الحق ، وأنهم يريدون ضمان حدود دول
المنطقة ، ولكن عندما تكون النتائج فى جانب إسرائيل ، فسكوت ورضا
يفضح التآمر ، ويكشف أبعاد العدوان ، وأن أمريكا هى المحرض وهى القاتل.
وحينما تسير الأمور عكس ما يشتهون ، وتكون النتائج فى غير
مصلحة إسرائيل ، تنقلب المساعدات إلى تدخل صريح ، وتصبح
المساندة علنية ومفتوحة ، وكأن أمريكا لايكفيها ما تلقاه فى كمبوديا
ولاوس وفيتنام . !!

وفى سنة الامتحان ، اهتزت الأمة العربية من أعماقها ، وغلت فيها
دماء العزة . . اهتزت الأمة وتزلزلت ، ولكنها لم تستسلم ولم تركع لغير الله . .
نفضت عنها كل المعوقات ، وانطلقت منها كل الطاقات ، وانبعثت
بروحها الأصيلة ، تكشف ذاتها . وتبحث عن مصادر قوتها ، وتتلمس
عناصر وجودها ، فإذا هى — وعلى غير ما ينتظر الأعداء — تلتف
حول القائد ، وترفض الهزيمة ، وتؤكد الوحدة الوطنية ، وتصر على مواصلة
النضال ، على طريق العزة ، وعلى طريق التحرير ، وعلى طريق النصر .
فحمداً لك يارب . لقد صدق وعدك .. ونصرت عبدك .. وكان صمودنا
فى هذا الامتحان من حيث لم يحتسب العدو ، وأنزلت السكينة على قلوبنا
برغم شدة البلاء وقسوة الامتحان .
أما السنة الثانية ، فكانت سنة الإيمان ، بعد أن تأكد الصبر على

الامتحان . . كان ما تحقق فى العام الثانى من أهداف كبيرة ، ومهام ضخمة ، أساسه إيمان لايتزعزع بالله ورسوله ، وإيمان بالشعب وصلابته . . إيمان يدفع صاحبه إلى البذل والجهاد بالمال والنفس . . كان عام الصدق . . إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ، ثم لم يرتابوا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله ، أولئك هم الصادقون .

فى ذلك العام الثانى ، أعيد بناء القوات المسلحة ، واستكملت قدرتها على الدفاع ، وتأكد الصمود عسكريًّا ، والصمود اقتصاديًّا ، بالدعم العربى ، وبما قدم الشعب من مرتبات أفراده وتبرعاتهم . . وبما تقدمت به الدول الصديقة من معونات اقتصادية ومعونات عسكرية . . وبما أفاء الله علينا من محاصيل زراعية وافرة ، عوضتنا وساعدت على دعم اقتصادنا . . وكذلك الأمر فى مجال الصناعة ، بدأت مشروعات خطة ٦٠ — ٦٥ تحقق العائد ملموساً ومباركاً . وكذلك مشروعات الخطة الثانية . وجرى تنفيذها بما يعود على الوطن بالاكتفاء الذاتى ، والاستغناء عن كثير من الاستيراد . .

وقد بدأ بحمد الله سدنا العالى فى أسوان . يعطى ما أنفق فى بنائه ، خيراً وبركة ، من ماء وكهرباء ، وتوفير طاقات هائلة للتصنيع وإنارة القرى التى عاشت فى ظلام طويل قدر له أن ينتهى .

فى تلك السنة الثانية ، سنة الإيمان والصدق ، على رغم تكاليف المعركة والتزاماتها وصلت ميزانية الدفاع إلى ٥٥٠ مليون جنيه ، وكانت لاتزيد على ١٦٠ مليون جنيه قبل سنة ١٩٦٧ . . برغم ذلك كله ، لدينا فائض قد يزيد على ٣٠٠ مليون جنيه ، مكننا من الاستمرار فى التنمية لعام ٧٠/٧١ ، والاستمرار فى البناء ، برغم ظروف العدوان وتكاليف الحرب ، لم يتمكن أعداؤنا بحمد الله من القضاء على تجربتنا ، وهى تمثل الأمل والنموذج ، بما حققته وتحققه من أعمال ثورية ضخمة .

فمن كان يتصور أننا نبنى مجمع الحديد والصلب بتكاليف تقرب من تكاليف السد العالى . . ونحن فى قلب المعركة ؟ . .

نعلن ذلك فى ذكرى مولدك يا رسول الله ، عملا بما أنزل عليك :

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) . .

فإن المعركة كل لا يتجزأ . . لابد من الصمود الاقتصادى بقدر الصمود العسكرى . . مع التحرك السياسى الواعى ، فى كل اتجاه ، يصحح الصورة التى استغلتها إسرائيل نتيجة انتصارها العسكرى . . ولكن شيئاً فشيئاً أخذت إسرائيل تفقد أرضها فى مجال الإعلام والرأى العام العالمى ، وبدأت تدرك أن الزمن ليس فى مصلحتها ، وأن الأيام تدخر لها ما هو أقسى عليها من انسحابها . . فقد بلغ الأمر بمفكريها حد التنبيه إلى مغبة الأوضاع التى تعيشها إسرائيل تحت ضغط المؤسسة العسكرية . . ومن بين الكتب التى صدرت أخيراً ، كتاب لأحد زعمائها ، يحدد فيه أغراض إسرائيل فى ثلاثة :

١ — إقامة الدولة الصهيونية . . وهذا تم .

٢ — استقطاب يهود العالم ليعيشوا فى إسرائيل . . وهذا لم يتم .

٣ — الانفتاح على العالم العربى والسيطرة الاقتصادية الكاملة عليه . . وهذا لم يتم .

ويضيف كاتبهم إلى ذلك قوله :

« وبعد أن تستدرج إسرائيل فى حرب الاستنزاف التى دعا لها جمال عبد الناصر ، فلن تتمكن إسرائيل من تحقيق هدفها الثانى أو هدفها الثالث ، وهما الأساس لقيام الدولة » .

وينتهى الكاتبُ الصهيونى من ذلك إلى قوله :

« إنَّ من الأوفق لإسرائيل أن تقبل حتى بحدود تقسيم ١٩٤٨ ،

لكى تتاح لها الفرصة فى إقامة مجتمع يؤمن بالتعاليم اليهودية ، قبل أن يضيع فى بحر من المناطق التى يسكنها العرب » .

حمداً لك يارب ، فهذا شاهد من أهلها ، يكشف لنا حقيقة أعدائنا ، ونتائج صمودنا وصبرنا وإيماننا بأنك القاهر فوق عبادك .

سيدى يا رسول الله .

إنى إذ أكتب هذا فى ذكرى مولدك ، أشعر أن نجواك ألهمتنا حقائق المعركة التى تخوضها أمتك ، وهى التى كانت وحياً لى عند كتابة الفصل التالى عن « معادلة النصر » . . . عن قوانين ومعادلات الإيمان والعمل فى القرآن الكريم ، وتناولت فيه آيات جهادك ونصرك ، والدروس المستفادة من غزواتك ، لنقتدى بها فى معركتنا ، ونجد فيها نوراً يضىء طريقنا ، وأنت ترى وتسمع يارسول الله ، أننا نخوضها . . معارك من أجل السلام ، وليست بهدف التوسع بالعدوان والعنف والإرهاب . . نخوضها معارك ليست فقط للدفاع عن الحياة ، فما أرخصها عندما تكون التضحية فى سبيل حماية العقيدة ، وتحقيق رسالة الرحمة! . .

وكانت السنة الثالثة يا رسول الله هى سنة البشريات . . سنة نقترب فيها من موعد النصر بإذن الله .

وهذه هى السنة الرابعة ، سنة الجهاد ، (وَجَاهِدُوا فى اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ . .)

سيدى يانبى المرحمة والملحمة . . أستميحك عذراً إذا تمثلت هنا بقول خليفتك البطل عمر بن الخطاب ، عندما وقف يخاطب جند الله فقال : « إن عدوكم يفوقكم عدداً وعدة ، ولا تمتازون عليه إلا بإيمانكم ، فحافظوا على صلواتكم ، إن تركها أخوف عليكم من عدوكم » .

هذا هو منطق خليفتك يا رسول الله : تعلم على يديك ، وأخذ

عنك ، وعرف أنه بعد أن أعد واستعد : بكل ما يستطيع . أن الأمر قبل كل شيء معلق بالإيمان بالله ، ومعلق بالصلة بالله ، وعرف معنى المعادلة القرآنية (إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) ،وكان مؤمناً بما أنزل على قلبك يا رسول الله: (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) .

نعود إلى عام البشريات . . وما أحب الحديث عن البشرى فى مولد النور !

حينما بدأت أعد هذا الكتاب أو ذلك الحساب ، وقعت فى يدى مقالة لكاتب من أنصار الأعداء ، أتيح له أن ينقذ فكره من سجن الإعلام والتضليل الصهيونى فىالولايات المتحدة الأمريكية،فرأى جانب الحق فى القضية ، وأعلن رأيه قائلا :

« من المؤسف حقاً أن معظم الأمريكيين يعتقدون أن العرب قوم متواكلون، وأن الإسلام يعلمهم الاستسلام ، وبالتالى فإن العرب مستعدون لقبول مشيئة الله نصراً كانت أم هزيمة، فى حربهم مع إسرائيل » .

هذه هى الحقيقة التى كتبها الصحفى الأمريكى ستيفن بيلتير ، بعد مجيئه إلى القاهرة ، وبعد استماعه إلى خطاب المغفور له الرئيس القائد جمال عبد الناصر فى عيد أول مايوم ١٩٧٠ ، وهو يعلن باسم الأمة العربية ، حقائق موجهة إلى الشعب الأمريكى ، ثم إلى الرئيس الأمريكى ، لعل الله يهديه إلى قرار يحسم الصراع فى الشرق الأوسط ، أو يتحمل تبعة ما يحدث فى هذه المنطقة ، وقد تبدأ منها الحرب العالمية الثالثة ، إن لم تنسحب إسرائيل دون قيد أو شرط .

والسؤال الآن : كيف يفهم الشعب الأمريكى أن الإسلام يعلمنا

الاستسلام ، وأن العرب مستعدون لقبول مشيئة الله نصراً كانت أم هزيمة ، فى حربهم مع إسرائيل .

إن الأعوام التى مضت ، ونحن نحتفل سنويا بمولدك يا رسول الله ، قد سجلت أحداثاً تؤكد أن الأمة العربية — كما يعلن قادتها دائماً — ترفض الاستسلام ، ورفض الاستسلام معناه الاستعداد للقتال ، والاستعداد للتضحيات ، مهما بلغت التضحيات . . وأن الأمة العربية تريد السلام الحقيقى ، ولكنها تعتقد أن السلام يجب أن يبنى على العدل ، وأن تصميمنا على تحرير أرضنا هو أول حق لأى أمة تعرف أن لكرامتها قيمة . وكرامة الأمة من كرامة رسالتها . رسالة الرحمة وهى أعلى مراتب القوة . قوة السلام القائم على العدل .

نعود إلى البشريات المرفوعة إليك يا رسول الله فى ذكرى مولدك . . إنها تعنى أن أمتك على طريقك ، تصبر عند البلاء ، وتثبت عند اللقاء . . وقد قامت ثورة السودان فى الخامس والعشرين من مايو[؟] الأسبق تجسيماً لهذه الحقيقة .

قامت فى السودان ثورة مؤمنة واعية ، تؤكد للدنيا جميعاً أنها ثورة عربية حرة ، وأنها ثورة اشتراكية ديمقراطية ، وأنها ثورة وحدوية ، وأنها تحشد قوى السودان على جبهات المقاومة لأعداء الأمة العربية .

أيعنى ذلك أن العرب قوم متواكلون ؟ . . أيعنى ذلك أن الإسلام يعلم العرب الاستسلام؟ . .

لقد أتى الله أعداءك يا محمد وأعداءنا ، من حيث لم يحتسبوا ، عندما قالت ثورة الخرطوم : إنى مع المقاتلين فى خط النار .

وكانت البشرى الثانية ضربة أخرى فى صدور الأعداء . . قامت الثورة المعجزة فى ليبيا ، من أرض القواعد الإنجليزية والأمريكية ، التى ضربت منها مصر ، وضرب منها العرب ، فى عدوانى ٥٦ ، ٦٧ . .

جاءت ثورة الفاتح من سبتمبر ٦٩ ، وهى ترفع شعار « فلسطين لنا » ، وكانت كلمة السر ليلة الثورة هى « القدس » . . فى الليلة العاشرة بعد إحراق إسرائيل المسجد الأقصى . . وقد حسب الأعداء أنهم يوجهون بذلك أقصى أنواع التحدى لمشاعر العرب والمسلمين جميعاً ، فجاءت ثورة ليبيا ردفعل مباشراً لهذا التحدى ، جاءت لتقول للمحتلين الموالين لأعداء العرب ، ليس لكم مكان فى أرض العرب .

وقالت ثورة ليبيا لثورة السودان : ياجند الله ، موعدنا فى مصر ، لنبنى معاً قواعد الحرية والاشتراكية والوحدة ، على هدى من الله وبصيرة .

أيمكن أن يكون ذلك استسلاماً لإسرائيل التى أحرقت المسجد الأقصى ؟ . . أو استسلاماً لأعوان إسرائيل الذين يمدونها بأسلحة الهدم والحريق والخراب ؟

أستميحك يا رسول الله أن تأذن لى بنظرة إلى حال هذا العدو المغرور بنصره ، المغرور بقوته . . كيف حاله اليوم بعد مضى ثلاثة أعوام على انتصاره المزعوم ؟ . .

يجيب عن ذلك شاهد من أهلها . . جولدمان رئيس المؤتمر الصهيونى بقوله :

« إن الزمن ليس فى مصلحة إسرائيل . بل إنه يعمل ضدها . إن إسرائيل تسير فى طريق خطر . إن الساعات الفاصلة تقترب . من الضرورى أن يعرف الشعب فى إسرائيل أبعاد الحقيقة فيما يحيط به

ومن أبعاد الحقيقة التى يريدها جولد مان ، ما كشفت عنه رئيستهم جولدا مائير ، فى احتفال إسرائيل بالذكرى الثانية والعشرين على قيامها ، عندما قالت :

« إن الحزن والكآبة يخيمان على إسرائيل اليوم . . . إن فرحتنا لم تتم . . إن إسرائيل لم تتمتع بيوم واحد من أيام السلام ، خلال السنوات التى أعقبت حرب يونيو ١٩٦٧ ، لقد كسبنا الحرب فى ستة أيام ،

ولكن السلام لم يتحقق بالنسبة لنا ؛ وفوق ذلك يتضاعف عدد قتلانا فى كل يوم » .

ويضيف قائدهم موشى ديان إلى الصورة إيضاحاً ، فيعلن فى أحد تصريحاته الأخيرة : « أن القوات المصرية المسلحة قد أخذت زمام المبادأة ، وارتفعت نسبة قتلانا على جبهة القناة ؛ إلى حد يضعنا فى مواجهة الخطر . . إن هذا الموقف يدعونا إلى أن نقرر فوراً : هل نحارب ؛ أولا نحارب . . إذا لم نحارب فلن يفكر أحد فى عوننا . ولكننا عندما نحارب سنجد من يساعدنا » . .

ويضيف مندوب اتحاد الصحافة الأمريكية إلى هذه الحقيقة اعترافاً يقول فيه :

«إن مصر قفزت الآن إلى وضع يتيح لها أن تتحدى التفوق الحربى الإسرائيلى على جبهة قناة السويس بصورة لم تحدث منذ حرب يونيو ١٩٦٧ » .

ولست أدرى كيف يتفق هذا المنطق ، والشعب الأمريكى يفهم من خلال الإعلام الصهيونى أن العرب قوم متواكلون ، وأن الإسلام يعلمنا الاستسلام ؟

يجيب عن ذلك سكان مستعمرات الجليل من الإسرائيليين ، وهم يهاجرون منها إلى أى ملجأ يستطيعون الاعتصام به ، من ضربات الثورة الفلسطينية التى توحدت منظماتها . . ولجأت إسرائيل إلى استدعاء الاحتياطى من قواتها للعمل فى جبهة القناة ؛ ولكنها دفعت به إلى منطقة أريحا . وإلى جنوبى لبنان . . وفى أريحا كانت فى انتظارهم عملية بحر البقر التى قامت بها « العاصفة » من جنود « فتح » . . انتقاماً للغارة الإسرائيلية الأمريكية على مدرسة للأطفال فى بحر البقر ، وكانت خسائر العدو فى هذه العملية التى تمت ظهر الجمعة ٩ مايو عام ١٩٧٠

فوق ما كانوا يتصورون .

وأعلن ممثل منظمة فتح حينذاك : أن المقاتلين الفلسطينيين أقدر ما يكونون على نسف مدرسة لأطفال العدو ، ولكنهم رفضوا هذا النوع من الانتقام، وحرصوا على أن تكون ضرباتهم موجهة إلى الجيش الذى لايقهر ، وليس للأطفال الصغار ، لكى يعلموا الفرق بيننا وبينهم !

وأنذرت منظمة فتح إسرائيل من تكرار العدوان على المدنيين العرب فى أى مكان ، ولكن إسرائيل ركبت رأسها كعادتها ، وهاجمت جنوبى لبنان ، فتجسدت أمام العالم حقيقة تؤكد ما أعلنه قادة الأعداء وهو : أن إسرائيل الآن فى مواجهة الخطر .

ونتحدث بنعمة الله علينا فى معركتك يا رسول الله ، بما لقيه اللواء الإسرائيلى المدرع ، من نيران الثورة الفلسطينية ، المؤيدة بالطيران السورى ، وعرفت وحدة النضال الفلسطينى طريقها إلى العودة — لكى تقيم دولة فلسطين الديمقراطية — دولة تتعايش فيها كل الأديان ، وليست مباءة للعدوان، يهرب منها حتى اليهود، ليستطيعوا أداء طقوسهم الدينية :

أما كيف يحدث هذا ، فالجواب ينطق به شاهد من أهلها أيضاً .. الحاخام « عمرام بلوى» ، وهو يتزعم، باسم عدد من الحاخامات ، الدعوة إلى الهجرة اليهودية من إسرائيل ، إلى أى أرض فيها سلام ، حيث يستطيعون أداء طقوسهم الدينية . وهو يجهر بقوله :« لقد حول الصهاينة إسرائيل إلى دولة للفسق والفجور والفساد ، وإنهم باستيلائهم على كافة المصادر الاقتصادية والإعلام ، يستطيعون دفع شعب إسرائيل إلى الكفر والخطيئة ، مع التعرض لحرب دائمة مع العرب . ويا ليتهم اكتفوا بذلك، بل زادوا الموقف تدهوراً حينما أعلنوا أنهم مستعدون لمحاربة الاتحاد السوفييتى حتى آخر إسرائيلى ، من أجل جلب اليهود السوفييت إلى السجن المسمى إسرائيل ومن أجل منع الاتحاد السوفييتى من التأييد

الكامل للعرب » .

نشرت هذا صحيفة معاريف الإسرائيلية ، وإلى جواره أنباء مستعمرات الجليل ، وموشى ديان يصيح فى سكانها اليهود ألا يهاجروا من مساكنهم ، وهم لايكترثون بما يقول ، ويعلن حكام هذه المستعمرات الأسف لأنهم لم يستطيعوا الاحتفال بذكرى قيام إسرائيل ، لأن الناس كانوا يشيعون جنازات القتلى على امتداد يوم الاحتفال !

وهكذا تغيرت فجأة لهجة التفاخر المتغطرس بجيش إسرائيل الذى لايقهر . . لتبدأ نغمة حزينة باكية شاكية ، من الجراح العميقة التى سببها عمليات جبهة القناة ، ولم تحسب أنها ستلاقى مثل ذلك على الجبهات الأخرى .

ويرى المعلقون جانباً آخر من الصورة ، عندما يرجحون أن هجمات العاصفة على مستعمرات الجليل ، كانت السبب الظاهر للغارة الإسرائيلية الفاشلة على جنوبى لبنان ، وكان السبب الخفى ، هو نجاح الندوة المسيحية العالمية التى عقدت فى بيروت ، عندما قررت هذه الندوة بالإجماع عدم شرعية دولة إسرائيل ، ووصفتها بأنها دولة قامت على أساس الأمر الواقع ، وانتهاك الحقوق الدولية فى الخارج ، وانتهاك حقوق الإنسان فى الداخل ، وأعلنت الندوة أن حكومة إسرائيل قائمة على أيديولوجية سياسية عنصرية توسعية بالعدوان . إن الوجدان المسيحى لايمكن أن يقبل مثل هذا الظلم والإرهاب وهضم الحق الإنسانى . وقررت الندوة المسيحية العالمية من أجل فلسطين . إنشاء لجان وطنية مسيحية فى كل بلاد العالم ، لشرح قضية فلسطين العربية ، وعقد مؤتمر مسيحى دولى من أجل فلسطين المقدسة فى كل الأديان .

ويرتفع صراخ إسرائيل بلسان رئيستها « جولدا مائير » فى تصريحها القائل : « إذا لم تهب أمريكا لمساعدة إسرائيل ، فسيذكر لها التاريخ

أنها كانت صاحبة الفضل الأول فى القضاء على إسرائيل » .

ولكن صراخاً أعلى من صراخ إسرائيل قد تردد فى آذان أمريكا . . ثورة الغضب التى اجتاحت الجامعات الأمريكية ، ضد الحرب فى كمبوديا ، وضد تصاعد الحرب فى فيتنام . . لقد أضرب الشباب عن التعلم وزحف إلى البيت الأبيض من أنحاء الولايات المتحدة ، واستنجد الرئيس نيكسون بحكام الولايات الخمسين ، وتحرك الجيش الأمريكى لمواجهة مظاهرات الطلبة ، وسقط منهم فيما نعلم ثمانية قتلى ، فأعلن الشباب الأمريكى مواصلة الإضراب ، ودعوة العمال فى المصانع والمتاجر إلى شل الاقتصاد الأمريكى ، بمقاطعة الشركات التى تخدم المذبحة التى أنشأتها الحكومة للشباب الأمريكى فى الهند الصينية ، ويستقيل الوزير المسئول عن الاتصال بالجامعات ، ويبلغ وزير الداخلية الأمريكية الرئيس نيكسون أن الحكومة تساهم فى نشر حالة من الفوضى فى البلاد ، بتجاهلها مشاعر الشباب الأمريكى الذى تسوده موجة من خيبة الأمل . . وتنتقل غضبة الشباب من أمريكا إلى إنجلترا وإلى فرنسا ، وإلى السويد ، وإلى ألمانيا الغربية ، وإلى أستراليا ، وإلى كل البلاد المتحالفة مع أمريكا ، والتى يحس شبابها بنفس إحساس الشباب الأمريكى ، ضد الحرب فى كمبوديا ، وفى فيتنام ، وفى الشرق الأوسط.

وفى وسط هذه الأعاصير التى تزلزل الكيان الأمريكى بسبب سياسة حكومته العدوانية ، كشف قائد أمتنا العربية أمام الشعب الأمريكى حقائق كان يجهلها عن الصراع العربى الإسرائيلى ، وجه الرئيس الراحل النداء الأخير للسلام إلى الرئيس الأمريكى ، أن يأمر إسرائيل بالانسحاب ، أو يكف عن الدعم العسكرى للعدوان على الأمة العربية ، أو يكون من حق هذه الأمة أن تتخذ الموقف الملائم ضد العدوان وضد من يساندون العدوان .

سيدى يا رسول الله .

إننا يجب أن نحاسب أنفسنا أمامك ، فى ذكرى مولدك ، عما قمنا به من واجب يقابل حق الانتساب إليك .

فإذا تجلت نعمة الله علينا بالتفوق العسكرى الذى يتحدى قوة أعدائنا ، وباتحاد منظمات الثورة الفلسطينية ، وبصلابة جبهاتنا ، وبقيام الثورة فى السودان ، وقيام الثورة فى ليبيا ، وبالإصرار والتصميم على تحرير أرضنا شبراً شبراً . فقد زاد الله فى عطائنا ، بما آلت إليه أحوال أعدائنا ، وفتحت أبواب النصر أمامنا ، وتضاعف عون أصدقائنا لنا من أجل تحرير الأرض ومن أجل السلام .

أما المساعدات الأمريكية لإسرائيل فهى على حد تعبير صحفى أمريكى حر : تفيد العرب بطريقة غير مباشرة ، فإن الولايات المتحدة الأمريكية تمر بصعوبات اقتصادية شديدة ، وهناك أعداد متزايدة من الأمريكيين يطردون من أعمالهم ، ويتعرضون للبطالة ، ولايسعدهم أبداً أن تتدفق ملايين الدولارات على إسرائيل ، فى حين تحفى أقدامهم للحصول على لقمة العيش .

سيدى يا رسول الله .

إننا لانحصى ثناء على الله ، فنحن على الطريق إلى نصر الله ، وهو يتمثل فى اقتدائنا بك ، فلا نخوض الحرب من أجل الحرب ، ولكن حفاظاً على المبادئ والقيم ، ومن خلال العمل وفق ما أنزل إليك ، دفاعاً عن النفس وعن الأرض وعن رسالة أمتنا . . والصهيونية تحاربنا لتثبيت ما اغتصبت من أرضنا . . وسبيلنا هو سبيلك يا رسول الله فى معركة المصير .

إننا لانتعجل النتائج . ولكنا نؤدى الواجب نحو النفس ، والعقيدة ، وحق الحياة ، ملتزمين فى ذلك بالصبر والصلاة — صبر على الجهاد حتى النصر ، وصلاة تلتقى فيها الصلة بالله وأتباع رسول الله . . صلاة نستمد منها الأمل

والرجاء . فى أزمة وصفها قائد هذه الأمة الراحل بأنها أزمة لم تواجه أمة فى عصرنا الحديث . وأنها أزمة الضمير الإنسانى كله . هذا الضمير الغافل عن أننا أمة ذات رسالة إنسانية ، وهذه الرسالة تفرض علينا أن نقتدى برسولنا ، وأن ننظر فى قرآننا . فنجد دليل العمل فى معركة المصير ملخصاً فى خمس نقاط :

الأولى فى الإيمان بنصر الله . . وعلى هؤلاء الأعداء بالذات ، تأكيداً وتجديداً لما حدث فى صدر الرسالة ، عندما أبلغك الأمين جبريل قول الله تعالى :

(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا) .

والتاريخ يعيد نفسه الآن ، ليخرجوا من الأرض التى اغتصبوها وأقاموا عليها دولة الأمر الواقع ، بالتآمر الدولى ، وبالعنف الإرهابى .

فقد أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا : احتلوا فلسطين كلها ، فحولوا شعب اللاجئين إلى فرق للفدائيين ، تعرف طريقها إلى الموت العزيز فى سبيل العودة ، وليس الموت فى سبيل حفنة دقيق من وكالة الغوث . . وبعد عشرين عاماً من النكبة ، ينشق بطن الأرض عن قوة عارمة ، فى الشعب الفلسطينى الثائر ، وقد حسب أعداؤنا أنهم حكموا على هذا الشعب بالفناء ، فإذا هو يسقيهم اليوم الكأس التى ملأوها له .

إننا فى عيد ميلادك يا رسول الله ، نسأل الذى أنفسنا بيده ، أن يزيد الثورة الفلسطينية إيماناً وعزماً ونصراً من عندك أنت يا ناصر المظلوم . .

ونحمدك يارب بقدر عظمة ذاتك ، على أن قواتنا المسلحة قد أخذت

بزمام المبادأة فى جبهة القناة ، وتجسمت فيهم إرادة الله ، تأتى أعداءنا من حيث لم يحتسبوا.

وقذف فى قلوبهم الرعب ، واسألوا القوات العابرة للقناة ، واسألوا القوات المتمركزة فى القناة ، واسألوا قاذفاتنا الجوية ، واسألوا قواتنا البحرية ، ماذا صنعت قبل وقف إطلاق النيران بذلك الجيش الذى لايقهر ، كما تقول دعاياتهم ، والحقيقة أن هذا الجيش قد تعود الهرب من المعارك ، والفرار من نار سيناء ، لينضم الجنود إلى الشباب الإسرائيلى الهاتف بالنداء : لانريد الحرب . . . لانريد الموت فى جبهة سيناء.

صلوات الله وسلامه عليك يا من قلت فى حديثك الشريف : « إذا فتح الله عليكم بمصر فاتخذوا بها جنداً كثيفاً فإنهم خير أجناد الأرض» .

إنهم يؤكدون الآن عملياً صدق هذا الحديث ، ويوم تسجل البطولات المصرية فى هذه المعركة الضارية ، ستقوم الأدلة القاطعة على أنهم حقاً خير أجناد الأرض . . إليهم فى عيدك يا رسول الله نتجه بقلوبنا ، فنجدك هناك يداً لله تأتى أعداءه وأعداءنا من حيث لم يحتسبوا ، فلم تغنهم أسطورة التكنولوجيا ، ولا طائرات الفانتوم ، ولا القوات المرتزقة ، ولا الحصون المنيعة ، لأن صيحة « الله أكبر » من جند مصر تقذف الرعب فى قلوبهم ، ونحن نذكر كيف مات منهم جنود بالسكتة القلبية أمام تكبيرة الفدائيين ، فنذكر يا رسول الله معنى حديثك : « لقد نصرت بالرعب على مسيرة شهر » .

النقطة الثانية : تبدو أمامنا فى الرؤية الواضحة أن الذين يساندون الصهيونية يكرهونها فى أعماقهم ، ولكنه نفاق محترفى الحكم والاستغلال ، وزلفى الحالمين باستبعاد البشرية بذهب صهيون . . إن رسالتنا تفرض علينا مواجهتهم فى كل مكان من الأرض . . ونحن على يقين من أنهم أسرع الناس إلى التخلى عن هذا النفاق ، مصداقاً لما أنزل عليك يا رسول الله :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ ، وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) .

ذلكم هو أصدق تعبير عن سياسة أمريكا اليوم فى مساندة إسرائيل . . إن الشعب الأمريكى اليوم قد بدأ يدرك أن نفاق حكومته للصهيونية قد أفقده الاحترام أمام كل شعب وكل إنسان . . وتفقد أمريكا فى نفس الوقت أغلى ما يمكن أن يحققه التقدم الحضارى وهو محبة الشعوب وصداقة الإنسان للإنسان . . إن أمريكا تزرع لنفسها أشواك الحقد والكراهية فى كل مكان . . بسبب ارتباطها بعجلة صهيون . . . وعندما نستطيع بالإعلام المخطط المتقدم أن نصل بالحقيقة إلى المجتمع الأمريكى ، فلن يخرج فرد منه مع إسرائيل ، ولن يقاتل معها أحد ، لأن الهاربين من الميدان لن يعاونهم أحد ، كان ذلك فى الكتاب مسطوراً .

النقطة الثالثة : هى متطلبات المعركة :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ) .

ونشهدك يا رسول الله على أننا قد أعددنا كل ما نستطيع من قوة، وأنها قوة نرهب بها أعداء الله وأعداءك ، فليست العبرة فى الحرب المشروعة بما يراق فيها من دماء ، ولكن العبرة بما تقذف به القوة من رعب فى نفوس الأعداء . . . هذه هى عدتنا ، وهذا هو سلاحنا ، لأننا لانخوض الحرب عدواناً ، ولكنها تفرض علينا فرضاً ، ثم نخوضها دفاعاً عن الأرض والمبدأ والعقيدة .

لذلك أتى الله أعداءنا من حيث لم يحتسبوا . .

جمع من حولنا الأمة العربية جميعاً ، لتدرك الخطر الداهم عليها وعلى البشرية ، فتقوم إلى أداء واجبها ، بقدر ماتتحمل أو تطيق حسب الخطوط الأمامية فى جبهات القتال ، أن تستشعر هذه المساندة ، ليس فقط بالرأى والتأييد ، ولكن بالدعم الاقتصادى والعسكرى ، وتتحد كلمة الأمة الواحدة على تحرير فلسطين ، بعد أن تفرقت يوم احتلال فلسطين . . .

أبداً لن تذل هذه الأمة أو تهون ، وهى تحمل فى المعركة شعار القائد الراحل : « إما أن تكون هذه الأمة أولا تكون » .

وكذلك أتى الله أعداء هذه الأمة من حيث لم يحتسبوا فى مجال إعدادنا للقوة : فإذا بأنصار حقوق الإنسان وحرية الشعوب فى الاتحاد السوفييتى والجبهة الاشتراكية ، يقدمون للعرب أوفر وأحدث السلاح ، لاستخدامه فى سبيل الحق المشروع . . حق تحرير الأرض . . وحق الدفاع عن النفس والأرض والمبدأ والعقيدة .

إن إيمان هذه الشعوب بكرامة الإنسان ، يا نبى الإنسانية ، كان بجوارنا فى المعركة ، قوة أفزعت أعداء الله وأعداء الإنسانية . ومن عجب أن تنطلق أصوات من بطن الحكومة الأمريكية ، لتملأ الدنيا ضجة وعويلا حول الدعم السوفييتى للعرب ، ولاتذكر الحكومة الأمريكية وهى



تتحدث بلسان إسرائيل أن الدعم السوفييتى ، ليس من أجل الحرب ، بل من أجل السلام ، وليس من أجل العرب فقط ، بل من أجل مواجهة الخطر الصهيونى على الشعوب الاشتراكية ، وعلى حرية كل إنسان .

إن ذلك موقف لايمكن أن ينساه العرب ، فالوفاء فى أخلاق العرب جوهر أصيل ، ولن تستطيع قوة فى الأرض أن تتخذ من أرضنا قواعد للعدوان على أصدقاء ساعدونا على محو قواعد العدوان . فليس من الإسلام أن نجحد فضل العاملين من أجل السلام .

النقطة الرابعة فى دليل عملنا ضد الخطر الصهيونى هى : تعريف الشعوب المخدوعة فى إسرائيل بأى مجتمع يساندون .. مجتمع مملوء بالمناقضات يمزقه طول سنوات الحصار فى الدائرة العربية ، وتفرقه فى داخله طبقات يهدم بعضها بعضاً .. بأسهم بينهم شديد .. نظامهم سادة وعبيد .. تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ..

أما أنتم يا جند الله فى المعركة ، فأنتم أمام أعداء لايقاتلونكم جميعاً إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر ... إنهم أجبن من لقائكم فى معارك المواجهة على الأرض المكشوفة .. ولأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله ، وآية ذلك حوادث الفرار التى يحققها أطباء إسرائيل النفسيون فى جبهة سيناء ، وهم لايدركون أنها طبيعة الأشياء ، عندما يرى جنود العدو أنفسهم فى قبضة خير أجناد الأرض ، تؤيدهم أمة قضى الله أن تكون أمة واحدة ، ولن تستطيع قوة أن تفرض فيها غير حكم الله ، وهو القاهر فوق عباده .

النقطة الخامسة : أن هذه الأمة التى تحمل أعباء الدفاع عن السلام القائم على العدل ، تعرف طريقها أولا إلى الدفاع عن وجودها ، والدفاع عن رسالتها . فلابد للقوة من عقيدة تدفعها ولابد للعقيدة من قوة تحميها .

إننا لنؤمن إيماناً راسخاً بأن إسرائيل وعدوانها المتواصل علينا ، يرسل النابالم من الفانتوم الأمريكية على المدن والقرى والمصانع والمدارس والمستشفيات والمساجد والكنائس ، كل ذلك فى ميزان الحق ليس شرا كله ، فهو من ناحية أهم وأعظم ، أكبر دفع لهذه الأمة إلى النظر فى رسالتها ، فتجد القتال ركناً من أركان العقيدة : (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ) وتجد النصر حقا للمؤمنين على الله ، وتجدك يا رسول الله نورها وهداها إلى قوله تعالى : (وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصرِ اللهِ . .) إنهم يرونه بعيداً ، ونراه قريباً ، فيما تأتى به الأحداث من بشريات .

سيدى يا رسول الله :

إن كل مسلم وكل مؤمن يذوق اليوم طعم السعادة والأمل فى نصر الله ، عندما تمتد البصيرة إلى الاحتفال بمولدك سيدى عبر القارات والمحيطات . . . وإننى لأجدها فرصة سانحة ، لكى أرفع فى هذه الكلمات ، إلى إلى كل مسلم فى العالم ، تهنئة من الجمهورية العربية المتحدة ، تهنئة شعبها وقادته ، بذكرى مولد النبى العربى المبعوث إلى الناس كافة . داعياً الله أن يقبل موعد الذكرى القادمة ، على مولد رسول الرحمة ، ويكون موعدنا مع النصر بإذن الله .

الفصل الثانى

معادلة النصر

الحمد لله الذى وفقنا للصمود ، معتصمين بحبل الله ، فهو الأمل وهو الرجاء ، لاملجأ منه إلا إليه . . سبحانه يخاطبنا بقوله :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) :

قانون إلهى ، فى تعبير الحكيم الخبير عن مقومات الصمود ، أعلى ما يكون الصمود . . بالصبر على الشدائد . . والصبر على تحمل المكاره . . والصبر على الحرمان . . والصبر على الجهاد ضد النفس . . والصبر على تبجح الأعداء . . والصبر على اليائسين . . والصبر على دعاة الهزيمة . . والصبر على أوهام الضعفاء .

ألا إن الصبر نصف الإيمان ، ثم تكمله الصلاة . . والصلاة صلة بالله . . واهب الحياة . . واهب النصر . . الصلاة ضمان للأمل !! . الصلاة وثيقة الرجاء .

إننا قد نصبر . . فإذا لم يكن صبرنا مقترناً بالصلاة . . فهو صبر على المذلة . . صبر على الهوان .

الصلاة والصبر معاً ، ركيزة العزة بأسمى معانيها . . العزة التى لا تخضع إلا لله ، والعزة المستمدة من عزته سبحانه ، وبأمر من عنده :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) .

أصلى وأسلم وأبارك عليك سيدى صاحب هذا اليوم ، نبينا العربى المرسل رحمة للعالمين : بعثه الله ليكمل به الدين . . وليتم به النعمة :

(اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

رسالة كاملة ، أبلغها الأمين ، فى جيل كامل من الزمان . . وأمانة عقلية ، أداها محمد لكل إنسان، ما بقى على هذه الأرض حياة . . ليستطيع من يأتى بعده ، أن يحمل أمانته ، ويتأسى بسيرته ، ويسير على مناهجه . . وإذا قلت الرسالة الكاملة ، والأمانة العقلية ، فإنما أعنى أن القرآن هو الرسالة ، والقرآن هو الأمانة . . بغير خوارق ولامعجزات مادية . . بل كان منطق الحكيم العليم القاهر فوق عباده . . أنزله بالحق . . آيات بينات ، فى قوانين ومعادلات .

ونحن فى منطق العصر ، قد يستهوينا التأمل فى أى قانون وضعى كالقانون القائل : لكل فعل رد فعل مساو له فى القوة ، ومضاد له فى الاتجاه . . ثم نرتب على هذا القانون استنتاجات ومسائل ومشاكل لاحصر لها ولاعد . . وإذا نحن نظرنا إلى ما بين أيدينا ، وجدنا الإعجاز الحقيقى الشامل فى القرآن العظيم .

إنه بمنطق العلم المتقدم ، سلسلة من القوانين والمعادلات ، تتحقق فيها النتائج ، وتلمع فى مقدماتها الأسباب .

ولننظر ما يقول القرآن فى مثل موقفنا اليوم . . إنه سبحانه عندما يقرر فى قول فصل :

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)

إنه قانون الحركة والدفع . . نلمسه فى الماء الراكد حين يفسد ، والماء

الجارى وهو يصفو ويتحرك ويتجدد ، كذلك الأفراد والأمم .

وحينما يقنن الحكيم العادل :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ) معادلة صريحة . ترتبط النتيجة فيها بأسبابها .

أو حينما يصفنا ويكرمنا بقوله :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) فهى . . ليس تفضيلا عنصرياً يعتمد على النسب أو الحسب أو المال أو نوع الدم أو الجنس، ولكنها معادلة ترتبط أيضاً بالسبب والنتيجة .

إنه جلت حكمته يدعونا إلى الأسباب ، ويوضح لنا النتائج . . إنه يريد أن توضع هذه القوانين وهذه المعادلات موضع التنفيذ من أصحاب اليقين . . أو موضع الاختبار من أهل الشك والريبة . . فلهم الحق فى أن يتشككوا حتى يتبينوا ، وأن يرتابوا حتى يؤمنوا . .

ولكنا نريد النصر . . دون أن نراجع المعادلة . . دون أن نكتشف فى أنفسنا متطلبات النصر .

نريد أن نكون خير أمة ، دون أن نلتزم بالأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله .

وقس على ذلك ما احتواه الكتاب الأعظم ، من قوانين ومعادلات ، لاتقبل الشك ، ولايأتيها الباطل . . شأن كل قانون يثبت بالتجربة ، ومعادلات تجسمت فى التطبيق أربعة عشر قرناً : (كِتَابٌ أُحْكِمَتْ

آيَاتُهُ) . (لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) .
(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيراً) .

أسباب محسوبة ، ونتائج مؤكدة . . يجب أن يوضحها ويبلغها الذين يتصدون للدعوة والخطابة . . فنحن عندما نسمع من يقول : إننا لمنتصرون . . محال أن ينتصر اليهود على المسلمين . . لابد أن يتحقق وعد الله . . عندما يقال هذا دون توضيح الأسباب ، يكون هذا كلاماً أجوف . . ضرره أكثر من نفعه . . بل إنه قد يصيب القوم بالتخاذل ، وقد يضرب عليهم الغفلة ، ويقعد بهم مع القاعدين .

حاشا لله أن يدعو إلى ذلك . . وهنا تتضح المسئولية فى إعلان الالتزام والتكاليف ، قبل أن نمنى الناس بالوعود والآمال .

بذلك يكون للقانون الإلهى منطقه الخالد المتجدد ، وأثره الفعال فى إحياء الأمة . . فنحن فى موقف الحشد ، أحوج ما نكون إلى جلاء البصيرة ، حتى نرى أبعاد المعركة ، ويعرف كل فرد وكل مسئول ، أن نصر الله وقف على من ينصره . وأن خير الأمم ، مرهون بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله .

إذا كنا من أصحاب اليقين . . يكفينا أن نعمل . . وليبنتظر المتشككون النتائج . . . إنهم سيرون الإعجاز الذى يقلب شكهم إلى يقين .

وإنى إذ عكفت على الكتابة فى هذه المناسبة العظيمة ، تذكرت يوم دعيت لأتكلم فى مناسبة عظيمة سابقة ، هى الاحتفال بمضى أربعة عشر قرناً على بدء نزول القرآن ، فقد انتابتنى يومها رهبة بلغت منى درجة الخشية ، فى لقاء عام أتحدث فيه عن القرآن . . . وإنى لأحس الآن الإحساس نفسه ، فالحديث عن مولد النبى المصطفى ، صاحب الدعوة ، ورسول الرحمة ، يملؤنى كذلك خشية ورهبة . . لكنها

خشية طيبة : ورهبة محببة : فهي فى هذه الأيام . . مطلوبة ومرغوبة . . فكلما اشتد الأمر على المسلم . . هرع إلى سيرة هذا الرسول العظيم ، فيجد عندها المنطلق إلى الأمل ، والمنطلق إلى الرجاء . .

وإننا حينما نتذكر سقوط القدس فى أيدى أعداء الله ، ونحن نحتفل بمولد النبي ، يعتصر قلوبنا الألم : لأن اقتحام مسرى النبي ، سيظل يؤرق كل مسلم . وكل صاحب عقيدة سماوية ، حتى تعود القدس — كما أرادها الله — لمن يعرفون لكل دين قدسيته ، ولكل عقيدة حرمتها ، ولكل نبي كرامته ، فإيمان المسلم لايصح بغير الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله . . لانفرق بين أحد من رسله . . من أجل هذا كان المسلمون أبر الناس بالقدس . . وأحفظ الناس للقدس . . وأحق الناس بالقدس .

على طول التاريخ ، وعبر القرون ، وجد المسيحي واليهودى فيها الأمن والأمانة والأمان . . لأن مفاتيح القدس كانت بأيدى المؤمنين بكل دين سماوى . . كانت بأيدى المسلمين ، ودينهم دين السلام ، فعاش السلام فى أرض السلام .

أما عندما يتحكم فى القدس ، من لايؤمنون إلا بالصهيونية ديناً ، وبأرض المعاد — كما يدعون — منطلقاً للتوسع والعدوان وسفك الدماء فكيف يمكن أن يستقر أمن أو يكون سلام ؟ . .

إن القدس لم تسقط فى عام ١٩٦٧ : بل سقطت فى عام ١٩١٧ ، حين دخلتها القوات البريطانية وقال «الجنرال اللنبي» قائدهم المعروف كلمته المشهورة : « اليوم انتهت الحروب الصليبية » .

إن هذا القائد لم يكن صادقاً فيما ادعى ، فالحق أن الحروب الصليبية لم تنته فى ذلك الوقت : بل سقط عنها القناع . . وانكشفت حقيقتها المختفية وراء الصليب . . وعرف من لم يعرف أنها كانت حرباً

استعمارية ذات مطامع احتكارية . غايتها استنزاف خيرات الشعوب وخامات الشرق . . والدليل قائم فى أن تلك الحروب قد فتحت الطريق إلى المؤامرة الكبرى على فلسطين ، بإقامة وطن لليهود ، ثمناً للذهب الذى مولوا به الحرب العالمية الأولى ، وكل حرب قامت بعدها . . كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله .

قد يحسب البعض أن تواطؤ الاستعمار مع الصهيونية : على احتلال فلسطين : وعدوانهم المتواصل على العرب ، استعداداً لتنفيذ مخططهم : من الفرات إلى النيل — قد يحسب البعض أن ذلك هو قمة التحدى للعالم العربى والعالم الإسلامى . . حينما يقتحمون عليه أرضه ، ويقيمون فى القدس وعلى أرض السلام معسكراً إسرائيلياً يصبون فيه قواهم وأسلحتهم . . وهم يظنون أنهم بذلك يدقون المسمار الأخير فى الكيان العربى الإسلامى ، فيفصلون مشرقه عن مغربه ، ويمزقون ذلك النسيج المتكامل ، على الخط العريض ، من باندونج إلى الدار البيضاء . . لايتصور هؤلاء لحظة أنهم مسخرون لذلك ، من أجل غاية عظمى ، وغرض أسمى . . لا يتصورون أن إرادة الله تستخدمهم لدفع هذه الأمة ، لكى تنهض من غفلتها ، وتنبعث من مرقدها ، وتقوم لتؤدى رسالتها من جديد ، تنفيذاً للقانون الإلهى ، والمعادلة الحكيمة :

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)

مسخرون ورب الكعبة ، لدفع الأمة المحمدية ، إلى مركزها الذى قدره الله ؛ وإلى مكانها الذى اختاره الله ، فقد بلغ رد الفعل بالظلم الدولى أقصاه ، وانتهكت الصهيونية وأعوانها كل الحرمات ، وداسوا كل المقدسات . . ولايمكن أن يحدث هذا دون أن يتجلى عدل الله .·.

فنجد على الطرف المقابل من المعادلة هذا السؤال :

من ذا الذى كان يتخيل أن يقوم شعب فلسطين ، لهباً من تحت الرماد فى ثورة تتحدى كل مقاييس العقل ؟

سبحان من يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى . .

من كان يتصور أن يحدث ما نرى ونلمس من تضامن عربى وإسلامى ، يتجاوز القول إلى العمل ، وإلى البذل يوماً بعد يوم ؟

إن من خلال دماء المعركة ، ومن خلال الضحايا والمآسى ، ومن واقع القدس الأليم ، تلوح بشائر مولد فجر جديد ، بكل ما يحيط عملية الميلاد من مشاق ومتاعب وتضحيات .

لقد أسموها حرب الأيام الستة ، ولا أدرى كيف نظرت إسرائيل إلى ما بعد هذه الأيام الستة وقد ظنتها نهاية المطاف ؟ لقد وجدت نفسها فى أول طريق شاق . . انفتحت عليها كل الجبهات المحسوبة وغير المحسوبة . . والتى كانت فى التقدير وفى غير التقدير لحساب المعركة .

ومع الأيام . . ومع الصمود . . ومع الصبر . . ومع الصلاة . . نستطيع أن ننظر إلى ضوء الفجر الحقيقى .

إننا فى موكب الذكرى المحمدية العطرة ، ونحن فى قلب المعركة ، نستطيع الثقة بنصر الله ، ما دمنا نعتصم بحبل الله ، ونقتدى برسول الله ، جاءنا بالوعد الحق ، ولكنه يأتى من خلال المعادلة الربانية :

(إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ)

قد تسمعون ونسمع من يقولون : أين نحن من هذه القوى الهائلة ؟ . . هل للدول الصغرى مكان أو مجال فى الصراع ؟ . .

إن إسرائيل تستند إلى قوى الاستعمار مجتمعة . . فما دورنا نحن ؟ . . وماذا نستطيع ؟ . .

ثم يذهب بهم التفكير السقيم إلى التشكيك فى قيمة التسليح ، وفى

جدوى الإنفاق عليه ، أمام عدو يتحدث عن القنابل الذرية ، والحرب الكيماوية . . فى مجال الحرب النفسية .

ونحن أيها الإخوة ، لانجد مناسبة أفضل للرد على مثل هذه الأوهام ، من هذه المناسبة الكريمة ، مناسبة مولد سيدنا محمد . . مولد اليتيم الفقير ، فى صحراء قاحلة ، جعل من بدوها الذين يربطون الأحجار على البطون ، قادة هزموا أكبر قوتين فى عصرهم : قوة الفرس وقوة الرومان . . لقد كانوا على الحدود المباشرة للجزيرة العربية . . والسؤال هنا : كيف انتصر عليهم محمد والذين آمنوا معه ؟ . .

هل تساءل أحدهم : هل نستطيع الوقوف أمام كسرى فى فارس وأمام هرقل فى الشام ؟ . . هل كان النصر بكثرة الحشد ووفرة السلاح ؟ إن تشريع القتال كما أنزل يقول :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّة) .

فأعد النبى ما استطاع من الرجال والسلاح ، ولايكلف الله نفساً إلا وسعها ، لكن الإعداد لم يقتصر على السلاح والتدريب عليه ، بل تجاوزه إلى إعداد الروح المبشرة بإحدى الحسنيين .

أعد النبى لأعداء العقيدة كل ما استطاع ، وفى جميع غزواته ما كانت قوته من الرجال والسلاح تزيد على ثلث قوة أعدائه على أحسن الفروض . . ولكنه كان يسأل الكتائب الخضر دائما :

« أتصبرون عند البلاء ؟» . . قالوا : نعم .

« أتشكرون عند الرخاء ؟ » . . قالوا : نعم .

« أتثبتون عند الحرب واللقاء ؟ » . . قالوا : نعم .

فقال النبى : « مؤمنون ورب الكعبة » .

وصدق الله وعده

(وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ) .

لم يسأله أحد منهم كيف نقف غداً أمام جحافل كسرى فى فارس .. وجحافل هرقل فى الشام ؟ .. فإن أحداً منهم لم يتشكك لحظة فى وعد الله .

كذلك نحن اليوم ، نحذف من حساب المعركة كل من يشك فى نصر الله ، بعد أن اقتدينا برسول الله .

فإننا بحمد الله ، من حيث الإعداد المادى ، نمثل فى المعركة العربية ، مهما طال أمدها قاعدة النضال القادرة على الصمود .. القادرة على الردع .. القادرة على الرد .. هذا الصمود الذى نراه فى الجبهة الداخلية أبلغ من كل وصف .. ونلمسه على خط المواجهة فى قواتنا الباسلة ، وقد أعيد بناؤها فى سرعة مذهلة ، فأصبحت بشهادة الأعداء أقوى مما كانت عليه قبل ٥ يونيو سنة ١٩٦٧ .

وهؤلاء قادة إسرائيل يعدون قوة مصر عدوهم الأول ، وفى كل معركة يضعون فى تقديرهم القضاء على قوة مصر ، حتى ينفتح أمامهم الطريق إلى ما يريدون .. وما يريدون إلا الفساد فى الأرض .. يسخرون من أجله قوى الاستعمار .. وهى ماضية فى تزويد إسرائيل بالسلاح والعتاد .. تحت ضغط الصهيونية ، تلك الحكومة الخفية ، التى تتحكم فى مقادير دول كبرى ، وتزرع من حولها الحقد فى كل مكان .

أما نحن ، فقد وقفت إلى جانبنا فى التسليح — بعد أن فقدنا معظم سلاحنا فى عام ١٩٦٧ — الدول الاشتراكية ، وعلى رأسها الاتحاد السوفييتى ، بغير ضغط ولاتحكم ، بغير قيد ولاشرط .. سوى شرط الضمير الإنسانى الذى يقف بجانب حق العرب بغير حدود .

وعندما نذكر الحق العربى ، يجب أن نذكر إلى جواره أن الحق



وحده قوة ، وليس لأعدائنا من هذه القوة نصيب . . وهى اليوم قوة ليست عزلاء بحمد الله .

وإننى أقول فى هذه المناسبة لأولئك المتشككين : لو كانت إرادة الله قد شاءت أن تبنى هذه الأمة . . ألا يكون للبناء بداية ؟ . . وهل يكون من عملنا نحن هذه البداية؟ . . أم هى مشيئة الله ؟ . .

(سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ) .

محمد اليتيم الفقير ، يقوم فى صحراء قاحلة ، فى بلد غير ذى زرع ، ليحمل النور والرحمة والخير إلى البشرية ، مؤكداً للعالم أجمع أن الأمر يعتمد أولا وآخراً على بناء الفرد ، وعلى بناء الأمة بمجموع أفرادها ، الأفراد الذين قالوا لهم إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً .

فعندما قضى الله لهذه الأمة أن تبعث . . وجدنا أنفسنا ، بقيادة الزعيم الملهم جمال عبد الناصر ، طيب الله ثراه ، نستعد ونتحرك ، لإعلان هذه الثورة .

ومنذ كانت الثورة سرًّا فى ضمير الغيب . . لم نسأله مرة قبل ٢٣ يوليو ١٩٥٢ كيف نستطيع الوقوف أمام قوات الإمبراطورية البريطانية ، وكانت تعسكر فى القناة وفى سيناء . .

لم نتساءل فى أمر القوى الخفية التى كان يمكن أن تتدخل لتقمع هذه الثورة . . كنا نؤمن بقدرة الله ، ونثق بنصر الله . . كنا مسلحين بقوة الحق . . حق هذا الشعب فى أن يعيش حرًّا سيداً ، يصنع حياته على أرضه وفق مشيئته . . ويحقق بإيمانه وعزائمه ما يشبه المعجزات .

وكان الله قائد هذه الثورة فانتصرت ، وطهرت أرض الوطن من الأعداء الواغلين مرتين ، وتصور البعض أننا قد تخلصنا من الاستعمار

وأعوانه : ولكننا نجد حروباً تفرض علينا : حروباً تقف من إرادة الله ـلا موقف التحدى ـ بل موقف الدفع لهذه الأمة إلى الحياة الجادة . لكى تكون جديرة بالانتساب إلى هذا النبى ، وجديرة بنعمة الإسلام ، فلا بد أن يهيئ لها أسباب اليقظة العارمة ، فتقوم وهى تستشعر الخطر ، لتبنى بيد، وتحمل السلاح بالأخرى ، فتقيم الصناعة ، وتؤكد معانى القوة : القوة المادية والقوة الروحية . .

تأخذ بالأسباب وهى تضمن النتائج ، تاكيداً لمعادلة النصر ، وتحقيقاً لقوانين القرآن ، فإن الله لم ينزله ليكون زينة المكتبات ، ولكنه نور يستقر فى الصدور ، ويشع منه برنامج العمل . . فيكون القرآن هو الخطة ، ويكون الرسول هو القائد ، لنستطيع أن نقف أمام أعداء الله ، الذين غضب عليهم ولعنهم ، بما قتلوا الأنبياء بغير حق ، وكانوا دائماً يعتدون .

وإنى أعتقد يقيناً أننا حين نحتفل بذكرى مولد النبى صلى الله عليه وسلم ، إنما نحتفل بمولد قوة عظمى ، يحسب لها أعداؤنا ألف حساب ، فهم يعلمون جيداً مدى هذه القوة ، عندما تدفع أو تستفز .

وقد يسأل سائل : متى هذا الوعد ؟ . .

والجواب أن الله حينما بشر بالنصر ، بشر به أناساً صقلتهم التجربة ، واستقر فى قلوبهم الإيمان ، وأصبح اليقين أقوى لديهم من كل نتيجة . . حينما باعوا أنفسهم وأموالهم لله . . كان هدفهم الأكبر هو الاستشهاد فى سبيل الله . . وكان النصر عندهم يأتى كنتيجة مؤكدة وبشرى للمؤمنين . . بدليل أن الله حينما بشرهم بالنصر ، قال لهم :

(وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ).

أمر آخر سوف تؤكده الأحداث فى القريب . . أن الذين يساندون

أعداءكم ، لن يصبروا على صمودكم . . فهذا الصمود يكلفهم الكثير . وقد بدأت الكفة تتأرجح . . وبدأت المصالح الاستراتيجية تتدخل فى الموقف . . وسيكون عدوكم على استعداد للتسليم ، بقدر ما فى نفوسكم من تصميم :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ ، وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ، ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ . لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِى صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ)

إن صمود شعبنا المناضل ، وإن وقفة جيشنا الباسل ، قد أمدا الزعيم القائد الراحل بقوة من عندالله ، تؤيده فى تدبير التكاليف ، وتعينه على واجب الالتزام ، لايشغله عن ذلك شاغل ، فكل وقته كان للمعركة ، يعيش فيها ولها ، كما يعيش شعبنا اليوم بكل ما وهبه الله من عزم وتصميم على تحرير الأرض وتحقيق النصر .

لقد أعددنا لهم بعون الله كل ما نستطيع من قوة ، وهذه بشائرها فى طلائع الفدائيين ، تقذف الرعب فى قلوب (المنتصرين!) فى القدس وجولان وسيناء . . وهذه هى القوات العربية المسلحة ، التى حولت خط دفاعهم الحصين إلى رماد . . وهرولت قواتهم مذعورة ، هرباً من وطأة النيران المصرية ، إلى مسافة بعيدة داخل سيناء ، ليقيموا خطا آخر

يحميهم من جيش مؤمن ، جعل شعاره : النصر أو الاستشهاد .

وإنني فى هذه المناسبة ، أتجه إلى قواتنا الضاربة على طول الجبهة المصرية ، والجبهات العربية ، وأذكر الزعيم القائد الشهيد جمال عبدالناصر ، ومن قبله الشهيد عبد المنعم رياض وغيرهما من الشهداء ، لا لأستثير الأسى والعبرات ، ولكن لأقول لأعدائنا ، أعداء الله : كل فرد فى القوات العربية اليوم ، هو طراز أولئك القادة الذين انطلقت أرواحهم إلى السماء ، إلى الجنة ، بعد أن تركوا لجنودهم وضباطهم المثل فى التضحية ، والمثل فى الفداء ، وكان استشهادهم بداية مرحلة جديدة فى المعركة.

(يَٰأَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ) .

قلوبهم غلف . تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . لايقاتلونكم جميعاً . بأسهم بينهم شديد . كل جندى مؤمن بعشرة منهم . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى .

(هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ، مَا ظَنَنْتُمْ أَنْ يَخْرُجُوا ، وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَانِعَتُهُمْ حُصُونُهُمْ مِنَ اللهِ ، فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ ، يخربُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى الْمُؤْمِنِينَ ، فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِى الْأَبْصَارِ) .

ما ظننتم أن يخرجوا من المدينة ، بعد مؤمراتهم ضد النبى ومحاولاتهم قتله ، وبعد أن نقضوا عهودهم معه ، وحرضوا حلفاءهم عليه ، وقد حسبوا أيضاً أن حصونهم سوف تحميهم ، وأن قوتهم المادية سوف تعصمهم من أمر الله ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا ، فكانوا يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين، حتى خرجوا من المدينة أذلة صاغرين، فاعتبروا يا أولى الأبصار .

اعتبروا يا من تتساءلون اليوم : إلى متى يبقى حفدة يهود المدينة فى سيناء ، والضفة الغربية ، وهضبة جولان السورية . . وقد يظن البعض أنهم لايخرجون . . كما ظنوا هم أن خط بارليف فى سيناء سيحميهم من هجمات الفدائيين المصريين ، فإذا هم يأتونهم من خلف ، وتمطرهم المدفعية المصرية من أمام ، فإذا القوة التى لاتغلب ، كما تذيع أبواقهم ، يموت الجندى فيها بالسكتة القلبية لمجرد رؤية فدائى مصرى يصيح فى وجهه : هذه أرضنا .

أعود فأقول إن سقوط القدس على هذه الصورة ، يعد الشرارة الأولى لقوة الدفع ، فلا تكون قضية فلسطين قضية عربية أو إسلامية فحسب ، بل تكون قضية الإنسانية جمعاء .

والبدء هنا فى القوة المذهلة التى انبعثت فى حركة تحرير فلسطين . . لقد اكتشف الشعب الفلسطينى قوته الذاتية فى جحيم المحنة . . لقد قالوا عنه إن هذا الشعب قد انتهى وذاب . . ولكنه أجابهم بالمدفع . . واللغم . . والفداء . . قام إليهم كإشارة القدر الذى غفلوا عنه . .

ومن صحفهم نأتى الآن بالدليل . . فقد نشرت «الإيكومنست» فى أحد أعدادها الأخيرة هذا التعليق على عمليات فتح ، قيادة منظمات المقاومة الفلسطينية :

« إن الدول العربية التى وجدت نفسها عقب حرب الأيام الستة ،

تحت ضغوط سياسية تطالبها بالكثير من التنازلات . . قد وجدت نفسها الآن فى المركز الأقوى على مجابهة هذه الضغوط . بسبب الورقة الرابحة التى أصبحت فى أيدى العرب . وهى تتمثل فى تصاعد حركة الفدائيين العرب داخل الأراضى المحتلة » .

ومع انتصارات أبطال التحرير فى الجبهات العربية ، تأتى وحدة الصف فى تعاون عربى وبذل للصمود فى المعركة . وإحساس يزيد بالشعور بالخطر ، والاستعداد لتحقيق الأمل .

والأمل هنا فى نصر الله . لأننا ندافع عن حق الله . . فعن أى حق يحاربنا الأعداء ؟ . .

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فى سَبيلِ اللهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فى سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَولِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً) . كان ضعيفاً أمام قوة الإيمان . . أمام الذين لايتخلى عنهم الله طرفة عين . . أمام الذين قالوا ربنا الله ، ثم استقاموا .

سيدى يا رسول الله

فى احتفالنا بذكرى مولدك الشريف هذا العام ، نبتهل إلى الله ، أن يدوم فى قلوبنا هذا الاحتفال ، حتى نرى مصارع المفسدين فى الأرض . وحتى تعود مفاتيح القدس إلى الأمناء عليها من أتباعك ، أيها الرحمة المهداة .

أما أولئك الذين يتساءلون عن مصير الحق أمام جبروت القوة ، فإننا ندعوهم ونكرر ما دعوتنا إليه :

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ) .

والصبر نصف الإيمان ؛ ونحن فى حاجة إلى كل الإيمان ، وهو يأتينا بالصلاة ، بالصلة الدائمة بالقوى القادر . . القوى فوق كل قوى ، والقادر على هلاك كل ظالم . .

قال تعالى فى حديث قدسى :

[من كان لى مطيعاً ؛ كنت له وليـّاً ، وعزتى لو سألنى إزالة الدنيا لأزلتها له] .

ونحن يا رسول الرحمة ، لا نطلب زوال الدنيا ، وإنما نطالب أن تسود الرحمة بين الناس كافة ، وإننا لصابرون على البلاء . . ثابتون عند اللقاء . . نعاهدك فى ذكرى مولدك ؛ أن نقاتل على طريقتك ، دفاعاً عن كل عقيدة سماوية ، ضد عدو يحارب كل عقيدة ، ويوشك أن يورد البشرية موارد الهلاك ، ومسئولية الأمة المحمدية ، هى إشاعة الرحمة فى العالمين .

وأنت . . أنت لها يا رسول الله . . وإننى أراك . . أراك القائد المنتصر والبطل الرحيم . . مولدك نور ، وحياتك جهاد ، وقوتك الغالبة ، ورسالتك الرحمة ، وأمتك خير أمة ، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وتؤمن بالله . وتخوض النار من أجل أن يعبد الله وحده ، ولينصرن الله من ينصره ؛ إنه لقوى عزيز .

الفصل الثالث

إسلامنا عقيدة شاملة تحتوى الاشتراكية

لقد شاء الله أن يضع بين أيدى العلماء مسئولية دعوة الإسلام التى هى دعوة اشتراكيتنا.. إنها مسئولية الرسالة، مسئولية إعلاء كلمة الله، ولا جدال فى أن هذه المسئولية ذات جوانب عدة، وأنها تقتضى مفهوماً موحداً.

فلو انطلق كل داعية على سجيته، لكانت الموضوعات التى يتناولها ذات انفعال خاص. وقد لا تصيب الهدف العام. فنحن جميعاً بشر. وكل منا يتأثر ويؤثر. فإذا انفعل بما يسمع. وكان ما سمعه ضاراً. فضرر انفعال الداعية لا يقع عليه وحده. بل يصيب المجتمع الذى يستمع إليه.

ومن هنا يتضح أن مسئولية الدعوة ليست مسئولية فردية، وأن الأمر يتطلب منا وحدة فكرية، حول المفاهيم العامة، حتى تكون دعوتنا هادفة، ولا نسبح فى خضم العلم بلا هدف.

أكتب هذا، ولست أعلم منكم بأن الرسالة الإسلامية عندما بدأت كانت الأحداث التى تمر بالمسلمين هى موضوع الوحى آية فآية، وكان نزول الآيات مرتبطاً بأحداث الحياة كل الارتباط.. وإلا فتصوروا معى لو كان المسلمون يخوضون معركة حربية مثلا، ثم نزل الوحى فى تنظيم الزواج والطلاق والميراث.. ماذا يكون الموقف إذن؟..

أعتقد أنه لو كان الأمر كذلك، لما آمن الناس بالقرآن، ولما انفعلوا بالإسلام.

إننى حينما أدعوكم أن تتفاعلوا مع الأحداث، أربأبكم أن

تناقفوا الأحداث . ثم أدعوكم أن تؤثروا فى الأحداث : أدعوكم إلى دفع الناس إلى الخير . ولكم فى كتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ، المعين الذى لا ينضب ، والذخيرة التى لا تنفد .

(قُلْ لَوْ كانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّى لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا) .

وإذا أردنا أن نتخذ سبيلنا فى دعوة الناس إلى الخير ، وجب أن نعرف أين مكاننا . ومن نحن : وإلى أين نسير ، وأى هدف نحقق ، وباسم من نتكلم ، ولمن نعمل ؟

مكاننا يا دعاة الإسلام هو قاعدة التحرر .

مكاننا هو مركز الدعوة إلى العزة

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ)

مكاننا فى موقعنا أيضاً وهو مصدر قوة : مكان الأمة الوسط ، والوسط هو الاعتدال . . الوسط هو المكان المتوسط الذى يسهل الانتقال منه . والإشعاع منه ، والتأثير منه . .

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ : وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

فإذا أردنا أن نتبين خطانا ، ونعرف إلى أين نسير نتجه دائماً إلى الله عزوجل ؛ فقد سمى المسلم مسلماً ، لأنه أسلم وجهه لله ، ومن يسلم وجهه إلى الله : لايخشى فى الحق لومة لائم ؛ فهو دائماً قوى بهذا الحق ، مستقيم على الطريق .

أما الهدف فهو الرحمة .. الرحمة هدف الإسلام فى كل قول وكل

عمل (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) . جاءت الآية بنفى النفى للتخصيص والتحديد، ليثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت . وإليه سبحانه يصعد الكلم الطيب ، والعمل الصالح يرفعه .

وإننا جميعاً حين نعمل . فإننا نبدأ كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم تذكيراً بالهدف ، حتى لا ننحرف ، وتأكيداً للرحمة . حتى لا نضل .

اللهم هب لنا من لدنك رحمة . وهيئ لنا من أمرنا رشداً .

وأنتم تعلمون أن رحمة الله لا تعنى معنى الشفقة ، ولكنها رحمة القدرة ، أعلى مراحل القدرة ، فإنه لايقوى على الرحمة إلا القادر عليها . وإن الرحمن الرحيم سبحانه هو القوى القادر . وهو الذى يرشدنا دائماً إلى أن قوته وقدرته تهدفان إلى الرحمة ، الرحمة التى عنيها الخليفة أبو بكر بقوله : « إن الضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له ، وإن القوى فيكم عندى هو الضعيف حتى آخذ الحق منه » .

باسم من نتكلم ، باسم من نتحدث ؟

(وَلَا تَعْدُ عَيناكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

نتكلم باسم هؤلاء الذين وجه الله رسوله إليهم ، وأمره بألا يتخلى عن صحبتهم ، ولا يتحول نظره عنهم ، ولايعمل إلا لهم ، ولو تخلى النبى عنهم وعمل لغيرهم ممن اتبعوا هواهم ، لانحرفت الدعوة ، وانفض الناس عن الرسالة ، وأصبحت المسألة مسألة مصالح خاصة ، ولما كانت الرحمة للناس كافة .

ولكن الله حفظ رسوله ، وحفظ عليه استقامة القصد ، واستقامة

الغاية مهما كلفه الأمر ، ومهما أصابه في سبيله من عنت ، وتعب ، وأذى. وكلنا يعلم ماذا قال لعمه وقد جاء يقول له ما قال المشركون : إن كان محمد يريد مالا أعطيناه ما لدينا ، وإن كان يريد ملكاً ، ملكناه علينا ، ليكف عن دعوته .

فأجاب صلى الله عليه وسلم بقوله :

« والله يا عم ، لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ، حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه ، ما تركته ».

هذا هو مثلنا فى تحقيق الاشتراكية على أنها وسيلة الرحمة ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة .

وها نحن أولاء ننادى بالعدالة الاجتماعية من أول يوم فى هذه الثورة، لم ولن تتحول أعيننا أبداً عن أولئك الذين نتحدث باسمهم ، ونعمل من أجلهم .

قلت وسأقول دائماً إن الرحمة هدف هذه الثورة .

هدف الثورة عندما قامت لتحرير الوطن من حكم الأجنبى ، وتحكم المستغل وظلم الإقطاعى ، وحبس المال فى أيدى فئة قليلة : لاتعرف حق الله فيما تملك ، ولا تؤدى حق الجماعة فيما تكتنز ، ويحسب كل منهم أنه لا يراه أحد ، ولن يقدر عليه أحد ، ويسخر الناس فى خدمته ، ثم لا ينالون منه ما يسد الرمق ، أبسط حق لأى مخلوق حى .. فهل يمكن أن تتحقق الرحمة فى مجتمع كهذا ؟ . .

هل لنا أن نتدبر هذه الآيات البينات :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فى كَبَدٍ . أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ . يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَدًا . أَيَحْسَبُ أَنْ

لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ . أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ . فَلاَ اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ . فَكُّ رَقَبَةٍ ، أَوْ إِطْعَامٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ . يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ . أَوْ مِسكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ) .

وهكذا نجد أن العقبة فى بناء المجتمع هى الأثرة : وهى الأنانية ، وهى الحرص على جمع المال ، والتحكم فى الثروة ، واحتكار أرزاق الناس ويقول أهلكت مالا لبداً ، ولايذكر نعم الله عليه ، وقد جعل الله له عينين ليرى ، ولسانا يفصح ويبين ، وعقلا يدرك ، وقلباً يحس بشقاء الملايين .

وحسبنا أن نتابع حقائق الدخل القومى فى بلدنا ، لنرى الظلم البين فى توزيع هذا الدخل . إن ٦٠٪ منه كانت تذهب إلى خزائن الذين لا عمل لهم سوى انتظار نصيب الأسد . . و٤٠٪ من هذا الدخل هى مجموع ما كان ينفق فى الأجور وتكاليف الإنتاج .

كيف يمكن أن يستقيم الوضع ؟
كيف يمكن أن يقوم البناء ؟
كيف يمكن أن تتحقق الكفاية والعدل ؟ . .

والبناء هو بناء الأمة . بناء البشر . . لم يعد هذا البناء مجرد نية طيبة أو شعار براق . . لكن لدينا خطة عامة للتنمية لنبنى فى مجال الإنتاج ، وفى مجال الخدمات ، ليتمتع كل فرد فى هذا المجتمع بحقه فى العلم ، وحقه فى العمل ، وحقه فى العلاج ، وحقه فى الرعاية ، وتأمينه على ذلك كله . . وتأمين أسرته من بعده .

فهل كان ممكناً أن يتحقق شيء من ذلك ، والثروة كلها فى أيدى فئة قليلة استبد بها الطمع ، وتحكمت فى مقادير الناس بغير رحمة ؟

فيم إذن قامت الثورة ؟

ولمن ننادى بالعدالة الاجتماعية ؟

إن مدادكم يوزن يوم القيامة بدماء الشهداء . وعلى كل منا واجب تبصرة هذه الأمة بحقها فى الحياة الكريمة . وإننا لم نصدر القوانين الاشتراكية لنجعل أموال البلد ، ولا أرض البلد ، ملكاً لجماعة أو لفرد . .

هذا الوطن وطننا جميعاً ، ولم نعرف فى الإسلام حقاً لا يرتبط بمصلحة الجماعة ، فإن جهل البعض بأحكام الدين ، وإن أنكر البعض أن الملكية وظيفة اجتماعية ، فقد فرض الله على الحاكم أن يقف بجانب الضعيف حتى يأخذ الحق له . . وفرض على الحاكم أن يستخدم المال لمصلحة الجماعة .

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ، (وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ) .

وإن قوانين الإصلاح الزراعى ، وتحديد الملكية ، والتأميم ، وتحديد الدخل وتخصيص ربع الأرباح للعمال ، وتمليك المعدمين ، والتأمين الاجتماعى . . كلها قوانين مستمدة من أحكام الإسلام . لانتزاع الأثرة من قلوب المستغلين . . من نفوس المتكالبين على جمع المال . . لا تطاوعهم نفوسهم على التضحية بشيء مما يتحكمون فيه ، ومع ذلك كله فإن الثورة لم تصادر ما يملكون ، فعوضتهم عن جزء من الأرض وجزء من المال بسندات على الدولة . وحررت الأموال الحبيسة لتتحرك ،

وتكفل لقمة العيش الكريمة للملايين المكدودة ؛ وها هى ذى قد رفعت الحراسة أخيراً مما يدل على أننا نعمل لمصلحة الجميع كما تقرر تقنين الثورة لمصلحة الملايين .

إننا نتجه إليك يا رسول الله فى كل عمل .. نرد إليك كل شىء . . هدفنا تحقيق رسالتك الرحمة بكل مواطن . سبيلنا أن يعطى الأجير أجره قبل أن يجف عرقه ، وأن يجد العمل كل طالب عمل ، وأن يؤمن كل عامل على يومه وعلى غده ؛ وأن تسود فى هذا البلد شريعة العدل شريعة الله .

ما أردت بهذه الخواطر أن أعامكم درساً ، فأنتم أعلم منى بآفاق الرسالة . . ولكنى أردت أن أنقل إليكم صورة من المعركة الكبرى التى نخوضها الآن . . معركة بناء الأمة من جديد . . وليس هذا بالأمر اليسير .

إننا دعاة رحمة بالمجتمع كله . ولنا فى أحكام ديننا عصمة من ذلك كله ، ولنا فى رسول الله الذى نحتفل بمولده فى هذه الأيام أسمى قدوة فى الدعوة إلى الرحمة ، وإلى التكافل ؛ وإلى الاشتراكية التى تجعل المال فى خدمة الإنسان ، وليس أداة لإذلال الإنسان .

إننا فى هذه الفترة الحاسمة من تاريخنا ، نعتز بأننا نعيش الثورة الاجتماعية . . ثورة من أجل الخير للوطن كله . . ثورة للمواطنين جميعاً . . ثورة تمثل المبادئ التى يستهدفها العدوان الذى نقوم إليه الآن .

إننا نعيش فى هذه البقعة الطاهرة من الشرق ، الذى اختاره الله سبحانه ، ليكون مهبط الوحى ، ومنزل النبوة ، ومنبع العلم ، ومبعث الرسالة . . وهذا فضل تفضل الله به علينا ، ولن نستطيع الاحتفاظ به ، إلا إذا أصلحنا ما فسد من أنفسنا ، وقومنا ما اعوج من أخلاقنا ، وسبيلنا إلى ذلك هو التعاون على البر ، والتواصى بالحق والخير ، وأن

نتبى عن كل ما تنكره ديانات الله ورسالات الأنبياء . . فنحن لا نريد أن نعتدى على أحد ، ولا نريد أن ننكر على إنسان حقًّا من حقوقه ، فعلاقاتنا كأمة واحدة ، وعلاقاتنا بأمم الأرض وشعوب العالم ، نحرص أن تقوم على هذا الأساس الكريم العزيز ، الذى يرفع قدر البشرية ، ويرسى قواعد الحق والعدل والسلام والحرية والوحدة الأخوية .

وأذكر أن الرسول المختار صلوات الله عليه وسلامه ، كان يكثر من ترديد قوله تعالى: (وفى أنفسكم أفلا تبصرون)، وكان يتبع هذه الآية بالحديث الشريف : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام أعلم بقدر نفسه كإنسان ، وأنه هو أشرف الخلق عند الله . . كان يطيل العبادة والسجود ، ويطيل التأمل والقيام بالليل حتى تتورم قدماه ، وحتى أشفق عليه صحابته من شدة الإرهاق فى العبادة ، فقالوا له :

« لم كل هذا الجهد يا رسول الله وقد فضلك سبحانه على جميع العالمين ، وغفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، وأعطاك وحدك حق الشفاعة ؟ »

فكان المصطفى الحبيب لمولاه يجيب عن ذلك بقوله دائماً : « أفلا أكون عبداً شكوراً » .

فلنتدبر فى أنفسنا . ولتكن لنا فى رسول الله أسوة حسنة ، لنعرف قدر أنفسنا ، وإن مقياس هذا القدر العظيم هو الروح التى نفخها فينا الله ، فربطنا إليه ، وأباح لنا الاتصال به ، والشكوى إليه ، وأذن لنا بالدعاء كما أذن لنا بالإجابة .

ولكن وصول الشكوى واستجابة الدعاء يتوقفان على قوة الصلة بيننا وبين الله ، وتأتى الصلة بما يقدم الإنسان من عمل ، يطهر به نفسه ، ويزكيها ، ويرفعها ، ويقربها من ربها ، ليحتل الإنسان مركزه الذى ارتضاه له ربه ، وقد كرمه وفضله على كثير ممن خلق .

أو يكون ضعف الصلة ، إذا جهل الإنسان قدر نفسه ، وانحدر إلى عنصره الترابى ، أى عاد إلى الطين مجرداً من الروح ، لاقدر له ولامكان عند ربه ، واتبع هواه فكان أمره فرطاً . ذلكم هو شأن الإنسان عندما يخرج عن أمر ربه .

كذلك شأن الأمم ، إذا تنكرت للمعروف واستباحت المنكر ، فإنها لابد منحدرة فى ميزان الإنسانية ، وبذلك تفقد ما أراد الله لها من تكريم ، فيحق عليها القول ، كما حق علينا من قبل . لولا أن تدارك الله مصر برحمته . فهيأ لها من بنيها من قاموا فى وجه الظلم ، وغضبوا لكرامة الإنسان فى هذا البلد ، فثاروا من أجل الحق ، وتنادوا بالجهاد ، متمثلين فى ذلك بقول الصحابة فى غزوة الخندق :

« نحن الذين بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً »

هل نسيتم قول الله فى أمتكم :

(كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) ؟

وقد آن الأوان لكى نعلم أن ديننا إيمان وقوة ، وأن تاريخنا فتح وحضارة ، وأن شرعنا دين ودنيا ، وأن حربنا جهاد وشهادة ، وزعامتنا أمانة وقيادة .

إن عزكم فى اتحادكم ، واجتماعكم على عبادة الله ، وليست صوماً وصلاة فحسب ، ولكنها جهاد العبد فى الاتصال بمولاه ، والجهاد يبدأ بالضعف أمام الله والقوة على من عاداه ، وسبحان من يحب الأقوياء ويجعلهم دائماً خيراً من الضعفاء . إن العبادة رياضة للنفس والقلب والروح ، إنها الإرادة الصادقة معززة بالإيمان واليقين .

لقد حارب الاستعمار عبادة الله بشتى الحيل والأساليب ، فأورثنا ضعفاً فى الوازع والضمير ، وترك لنا عوامل الشر والفساد ، فقمنا على

قلب رجل واحد ، لنطهر أرضنا من الشر ومن الفساد ومن ضعف الوازع وضعف الضمير ، ونضع فى ذهن كل مواطن ما لحق بنا جميعاً من استبداد المستعمر :

العلم فى المدارس كان ظلاماً . .
والحكم فى الناس كان طغياناً . .
وكان الدين غريباً فى وطنه .

قل جاء الحق ، وانتفضت مصر ، وانتفضت معها أخواتها من البلاد العربية ، وقررت أن تركب الصعب لإدراك عزتها ، وقررت أن تخترق النار إلى الحرية وإلى الكرامة . فلامكان بيننا اليوم لخائن متحايل ، أو خائف متخاذل ، أو ضعيف متواكل ، أو مرجف بالزور والباطل . .

إننا جميعاً اليوم فى ثورة اشتراكية إسلامية ، وقادة هذه الثورة أول المؤمنين بحق العرب فى الحرية ، وبأن هذا الحق يؤخذ ، وأن هذا العدو يجب أن يطرد ، وأن بلادنا لابد أن تسترد مكانها تحت الشمس .

* * *

صلوات الله وسلامه عليك يا من نفخر بأننا من أتباعه ، يا من علمت الناس الدين على حقيقته ، وكنت أعلم الناس بربك وبرسالته ، وتقدمت الصفوف فى كل ميدان ، فكنت الإمام فى العلم وفى الصلاة ، وأنت القائد فى الحرب والنضال . . ويكفيه صلوات الله عليه أن ربه هو معلمه ومربيه : ثم يقول فيه سبحانه :

(وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

هذا النبى العربى الأمى ، أرسله الله رحمة للعالمين ، فصدع بأمر ربه ، متوكلا عليه . بعد امتلاء قلبه بالإيمان ، فجاهد فى سبيل الله ،

لا يخشى عدواً . فالله أحق بالخشية . . وقد اطمأن الرسول إلى حماية الله . إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين : إذ هما فى الغار . إذ يقول لصاحبه : لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم يرها أعداؤه . فانتصرت الدعوة . وانتشرت الرسالة : رسالة الرحمة .

هذا هو نبيكم يا أتباع محمد عليه الصلاة والسلام . . بل هذا هو قائدكم ومثلكم الأعلى ، فإن قلتم إن عدوكم أكثر منكم عدداً وعدة ، فإن نبيكم لم يقل هذا عندما كان ثانى اثنين فى الغار ، ولكنه قال : إن الله معنا . . فكانت السكينة وكان تأييد الله الذى وعد بنصره المؤمنين ، فما باله بنبى المؤمنين .

(قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وجِهَادٍ فى سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) .

الفصل الرابع

« إنّ الله لا ينظرُ إلى صُورِكم »

حديث شريف

(قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِى اللهِ ، وهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا ولَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لهُ مُخْلِصُون) .

قال عليه الصلاة والسلام : « أول من يسأل يوم القيامة رجل آتاه الله العلم فيقول له الله تعالى : ماذا صنعت فيما علمت ؟ فيقول : يارب كنت أقوم به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله تعالى : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان عالم ، ألا فقد قيل ذلك .

ورجل أتاه الله مالا ، فيقول له الله تعالى : لقد أنعمت عليك ، فماذا صنعت ؟ فيقول : يارب كنت أتصدق به آناء الليل وأطراف النهار . فيقول الله : كذبت ، وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان جواد ، ألا فقد قيل ذلك .

ورجل قتل فى سبيل الله ، فيقول الله تعالى : ماذا صنعت ؟ فيقول : يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت . فيقول الله تعالى : كذبت . وتقول الملائكة : كذبت ، بل أردت أن يقال فلان شجاع ، ألا فقد قيل ذلك . أولئك تسعر بهم نار جهنم يوم القيامة » .

وجاء فى الحديث الشريف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« يقول الله عز وجل: الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادى » .

وقال عليه الصلاة والسلام: « إن الله لاينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم». فاستغفروا ربكم يغفر لكم . وادعوه مخلصين له الدين .

(لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حسْبِيَ اللهُ ، لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عليْهِ تَوَكَّلْتُ وهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعظِيمِ) .

ألا ترون معى ، معشر المسلمين ، أن نبيكم الذى نحتفل بمولده الآن قد جاء ليرحم البشرية مما تعانيه ، ويرحم النفس مما تقاسيه ، فيشيع فى الناس استقراراً نفسياً ، واطمئناناً روحياً ، وعدلا اجتماعياً ، يقوم على قاعدة واحدة هى الرحمة أول الأمر وآخر الأمر؟

إن الرحمة التى كتبها الله على نفسه ، لخير البشرية ، وكثيراً ما تجهل البشرية ما فيه خيرها ؛ ويبحث أهل الضلالات جاهدين أنفسهم مبتدعين ما يزيد فى ضررهم وشقائهم . أفلا نتدبر رسالة الرحمة التى ما جاءت إلا لتبدل خوف الناس أمناً ، وضلالهم هدى ، وذلهم عزة ، وعداوتهم أخوة ، وضعفهم قوة — فيكونوا أشداء على الكفار رحماء فيما بينهم — وهذا شأن محمد والذين آمنوا معه ؛ رضى الله عنهم ورضوا عنه .

أذكر أننى بعد أن عدت من منزل الوحى منذ سنوات ، حيث تجاذبتنى فى رحلة الحج خواطر وأحاسيس طغت على نفسى ومشاعرى ،

أردت ألا أستأثر بها لنفسى : بل فضلت أن أنقلها لكم : لننتقل معاً إلى تلك البقاع المقدسة ، التى كانت مهبط رسالة الرحمة .. وإنى لأذكر وقفة المسلمين فى عرفة ، وهم يبتهلون إلى الله العلى القدير ، يرجون الرحمة ويشفقون على أنفسهم من العذاب .. هناك وهم وقوف يلتمسون ذلك فى سفح جبل الرحمة ، الذى سمى كذلك : ليذكر الله كل ساع إلى رحمة الله ، فيدعوه فى وقفته هذه فيستجيب إليه ، ويسترحمه فيرحم ، على أن تكون الدعوة صادرة من قلب مؤمن ، موصول بربه : فإنه تعالى قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه .

إلى هذه البقعة الطاهرة دعينا ، فقلنا : لبيك اللهم لبيك . ومررنا فى طريقنا بجبل النور حيث كان يتعبد الرسول فى غار حراء ليتهيأ للرسالة : رسالة النور والرحمة .

(ونَزَّلْنَا علَيْكَ الْكِتَاب تِبْيَاناً لِكُلِّ شَىْءٍ وهُدًى ورَحْمةً وبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

وبينما أنا مستغرق فى معنى هذه الآية الكريمة ، ألح على سؤال ما صبرت على كتمانه . فألقيته على صحبى قائلا :

ـــ ماذا تظنون أن يعمل محمد بن عبد الله ، عليه أفضل الصلاة والسلام : لو بعث اليوم ؟ ماذا تظنون أن يصنع بالمسلمين ، وهم من الضعف والهوان والاستكانة كما نعلم ، أترونه يبدأ الطريق بجمع حكام المسلمين فى مؤتمر فيخطبهم مثلا ويوجههم ؟ . . أم ترونه يطوف بأرجاء العالم الإسلامى على اتساعه وامتداد رقعته من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب ، ليبشر برسالة الرحمة والنور من جديد ؟

ألقيت السؤال ، فعجب صحبى ، ولم أنتظر منهم جواباً ، بل تصورت

أن صلوات الله وسلامه عليه ، لن يعمل غير ما عمل فى بدء دعوته . . هذه الدعوة التى كانت ، وما تزال ، وستظل ، أروع انقلاب ، وأخلد ثورة تحريرية فى تاريخ البشرية .. أعتقد أنه لو بعث الآن ، لبدأ الكفاح من أول الطريق : سيبحث له عن أبى بكر يطمئن إليه ، ويصدقه القول والعمل والتضحية . . سيبحث عن عمر ليحارب به أعداء الدعوة إلى الحق والقوة والرحمة ، وسيسعى إليه على، ليقود الشباب ويعلمه إنكار الذات والفداء فى أسمى صوره ، وسيأتى إليه عثمان ليكون مثلا للإنفاق فى سبيل الله .. سيبحث النبى الكريم عن أمثال هؤلاء الرواد وعن صحابة يطمئن إليهم ويطمئنون إليه : فيكونون لسانه فى الدعوة يتعلمون منه الكتاب والحكمة ، مصداقاً لقوله تعالى :

(هُوَ الَّذِى بعَثَ فى الأُمِّيِّينَ رسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو علَيْهِمْ آياتِهِ ويُزَكِّيهِمْ ويُعلِّمُهُمُ الْكِتَابَ والْحِكْمَةَ) ، (ويُزَكِّيكُمْ ويُعلِّمكُمُ الْكِتَاب والْحِكْمَةَ ويُعلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ) .

وبهؤلاء النفر القليل ، وبحسب النبى ربه ومن اتبعه ، سيبدأ عمله فى القضاء مرة أخرى على الجاهلية التى نعيش فيها اليوم ، ونشقى بها ونهون على أنفسنا وعلى الناس .

إن الجاهلية فى عصرنا هذا ، لهى أشد وأنكى وأمر من الجاهلية الأولى ، ففى المسلمين كثير أعرضوا عن ذكر ربهم ، فجعل معيشتهم ضنكاً ، وسيحشر كلا منهم يوم القيامة أعمى .

(قَال ربِّ لِم حَشَرْتَنِى أَعْمَى وقَدْ كُنْتُ بصِيرًا ،

قَالَ كَذٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذٰلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى) .

إنى لمشفق على كل مصلح يقوم ليبدأ كفاحه فى هذه المحن التى نقاسيها من أنفسنا ، فإن أمام هذا المصلح جبهات متعددة يجب أن يستعد لها فى عزم وإصرار ، لاتقذف به الأهواء، ولاتندفع به العواطف، ولا يتطرق إلى نفسه اليأس ، لأنها رسالة يجب أن تتحقق مهما كانت التضحية ومهما كان الفداء ؛ وإن البناء اليوم يحتاج إلى عناء مضاعف فإنه ليس بناء فحسب بل إزالة وبناء وتطهير وإقامة . . يجب أن تزول الأنقاض ، حتى يقوم الصرح الجديد ، ولايعوقه عائق ، بل ينطلق انطلاقاً على أساس صلب متين دعامته الإيمان ؛ وسنده القوة .

(أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ)

يا عباد الرحمن . .
قال تعالى :

(أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ ، لِيُنْذِرَكُمْ ، وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ) .

سبحانك يارب ! وما أعظم حكمتك ! لقد رأى البعض فى هزيمة فلسطين نقمة ، وإننا لنراها نقمة أريد بها نعمة ، وشدة أريد بها رحمة، لأننا نذكر قولك الحكيم :

(وَأَنَّا لا نَدْرِى أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فى الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا) .

إن تعاليم ديننا تقضى بأن الوقاية خير من العلاج . وأن الإسلام ليصف الدواء قبل وجود الداء . ولكننا لم نأخذ بهذا الأمر ، فقد كان ينقصنا الإعداد والتنظيم . ومن بين ذلك الظلام تجلى نور الله فنشر رحمته بين قلوب نفر من ضباطنا الأحرار تواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ، وقرروا أن أساس العلة والداء هو الاستعمار الرابض فى مصر ، والمتمثل فى كل ذنب من أذنابه ، وتحدد بهذا القرار ميدان المعركة . كان هنا فى الداخل . . إنه الجهاد الأكبر ، جهاد مصر ضد كل نفس أمارة بالسوء وضد الشر الذى كان مسيطراً على رقاب العباد . . حتى تتحرر البلاد ، من ذل حاكميها ومستعبديها . وهكذا قام الأحرار يحاربون دفاعاً عن رحمة الله بعباده . . قمنا نطبق أمر الله بقوة الله ، الذى هدانا إلى رحمته (وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللهُ) فانطلقنا فى ثورتنا المقدسة ، عسى أن نحقق لإخواننا فى الله والوطن الأمل فى الرحمة التى طالما انتظرناها جميعاً .

لقد عقدنا النية والعزم على أن نهتدى بهدى الرسول الكريم وأن نعمل بما أمرنا به رب العالمين ؛ ولنا بطاعة الأوامر وبهدى الرسول، فى الماضى القريب نصر مبين ؛ فاللهم إنا نحمدك ونشكرك على الفضل الذى هو منك وإليك ، ونتوب إليك ونستغفرك . . فيارب هيئ لمصر من أمرها رشداً ؛ واهدها الصراط المستقيم وطهر أرضها من الخونة ونفوسها من الضعف ، لتستحق النصر الذى وعدت به عبادك المؤمنين . اللهم إنا نستعينك ونستهديك ، ونستغفرك ونتوب إليك ، ونخلص فى

طاعتك ونتوكل عليك . ونؤمن بك ونسألك الصواب . ونثنى عليك الخير كله . اللهم اشمل بعنايتك ورضوانك وتوفيقك هذه الثورة التى قامت من أجلك وفى سبيلك وباركها .. فقد قامت لإعلاء كلمتك. اللهم حمداً لك أن هديتها إلى الجمهورية التى يقوم الحكم فيها بأمر منك ، فارحم ضعفنا بين يديك ، وارحم بقوتك جمهوريتنا ، وهيئ شعبها لحكم الشورى. وارشد كل مصرى وكل مسلم إلى ما فيه الخير والنصر .

اللهم اهدم صرح الدخيل فى بلاد المسلمين ، اللهم وحد قلوبنا ، وانزع الأحقاد من صدورنا ، وطهر نفوسنا من رجسها ، واربط أرواحنا وعقولنا بطاعتك ، ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به . واقبل فينا شفاعة محمد فى يوم الدين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ، واجعل لنا من إيمان الصحابة والتابعين قدوة ، ومن جهادهم مثلا ، ومن هداهم نوراً يوصلنا إلياك .

إلهى إن مصر ترجو أن تجيب سؤلها ، وتحقق حريتها ، وترد إليها كرامتها ، وتحرز لها النصر ، فانصرها على أعدائك وأعدائها ؛ إنك يارب سميع مجيب .

(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رحمَةً لِلْعَالَمِينَ)

هذا النبي يا أهل السماء والأرض نبينا ، وفى اتباعنا إياه عزّنا فى الدنيا والآخرة ، وسوف نتبعه كما شاء منا أن نتبعه . وإذا كانت أضاليل المدنية الكاذبة قد حجبت عنا النور زمناً ، فاتجهنا إلى الضعف والتردد فى مجال تكوين شخصيتنا القومية الصريحة الواضحة ، فقد انتهى ذلك الضعف والتردد ، وبدأنا نجتاز مرحلة جديدة فى تاريخنا ، ولسوف تشدنا دائماً أمجاد لنا ضاربة فى أعماق الزمن ، ونحن فى هذه الدوامة الطاغية ، نحس بالرغبة الجامحة إلى التوقف ، لنستمع إلى نداء الفَجْر ، ونتأمل أن الله أكبر ، ونتدبر فى سكينة وهدوء ، أين كنا ، وأين نحن ، وفى أى طريق نسير . . يجب أن نحدد الطريق :

لا يمكن أن تفصل قوة بين ما ضينا ومستقبلنا . .

هل تستطيع الأحداث أن تطمس معالم شخصيتنا الضاربة فى أعماق التاريخ ؟

إن شخصيتنا العربية الإسلامية هى التى تملى علينا اقتفاء الآثار ، لنمسك بالخيط من أوله ، فنعرف الأساس الذى سيقوم عليه البناء ، بناء الأمة الواثقة من نفسها ، الواثقة بشخصيتها ، المعتزة بأساسها المؤملة فى مستقبلها العزيز .

حينذاك نؤمن ونلمس معنى قول الله عز وجل :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) .

يا أمة الإسلام . . متى عرفنا الطريق ، تحددت الشخصية ، وتبين لنا أساس البناء ، وينبغى أن نعرف كيف السبيل إلى البناء ، وإلى السلام ، وإلى القوة ، وإلى الحرية ، وإلى العدالة ؛ وإلى المساواة . .

إن السبيل واضحة وإن الرسالة محددة . وإن المسئولية ممتدة ، من صاحب الرسالة والرحمة . رسالة نبينا . والرحمة معنى قرآننا ، والرحمة هدف ثورتنا .

ألا فلنسأل عند وضع أى تشريع . وعند تدبير كل أمر ، كيف تتحقق الرحمة عن طريقه أولا . . فإن كان هذا التشريع أو ذلك الأمر وسيلة إلى الرحمة فهو الحق وهو الرأى ، فلنمض فى الطريق ، وحسبنا أن نمضى إلى أشرف هدف . ولنطبق غاية الإسلام . . أى الرحمة التى نؤمن بها ونعمل فى سبيلها ما وسعنا العمل ، فالراحمون يرحمهم الرحمن .

إن الإسلام قوامه الشهادة بالتوحيد وقيادة نبى التوحيد . ترفع هذه الشهادة قوائم عتيدة : هى الصلاة والزكاة والصوم والحج . فإن تدبرنا هذه العمد الرواسخ ، وجدنا نصفها للاتصال بالله ونصفها للاتصال بالناس فى سبيل الله ، وكلها من الجلاء والوضوح بحيث لاتطغى صلة على صلة ، ليكون المسلم متوازن العقيدة ، فلله حقوق ، وللناس حقوق ، ومن أدى حق الله ولم يؤد حق الناس فلن يقبل منه ، ومن أدى حق الناس وأهمل حق الله فقد أحبط عمله ، ولا مكان له فى قائمة المسلمين .

* * *

نزل جبريل إلى سيدنا محمد وقال له : أتريد يا محمد أن أجعل لك فى مثل جبل أحد ذهباً ؟ فقال : « لا يا رب ، أجوع يوماً فأسألك ، وأشبع يوماً فأحمدك ، اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكناً ، واحشرنى يوم القيامة فى زمرة المساكين » .

وكان عليه الصلاة والسلام يكثر من هذا الدعاء فى صلواته ؛ حتى استكثر عليه ذلك تابعه أنس بن مالك ، وقال يا رسول الله هذا جبريل يستأذنك فى أن يجعل لك جبل أحد ذهباً ؛ وقد رفع الله ذكرك ، وشرف قدرك ؛ وتدعوه أن يحشرك مع المساكين . . .لماذا تكثر من هذا الدعاء ؟

فابتسم رسول الله ثم قال : « ألا تعلم يا أنس أن رحمة الله لا تفارقهم طرفة عين » .

اسألوا الله من فضله أن يملأ قلوبكم وقلبي رحمة وعدلا وإحساناً .

* * *

جاء فى الحديث الشريف : [إن روح القدس نفث فى روعى أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها . فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب . ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله ، فإن ما عند الله لا يطلب إلا بطاعته] .

عباد الله إذا أعطاكم الله فحصنوا أموالكم بالزكاة . فقد كان من قبلكم قوم يعطيهم الله فيمنعون الزكاة . .

كان أبو ثعلبة فقيراً مسكيناً يحافظ على الصلوات الخمس ، يسبق الناس إلى المسجد ، ويقوم على قضاء حوائج الناس ؛ فى سرعة ونشاط ، حتى لقبوه بحمامة المسجد . .

كان لايصلى إلا خلف النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان يعرف يوم يغيب ، فتقدم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يوماً وقال :

أريد أن يرزقنى الله رزقاً كثيراً بدعوة منك ، وأعاهدك على أن أقوم لله فيه بما يجب . فوهبه الله رزقاً كثيراً وسعة . فبدأت حماسته

للصلاة تفتر . . لقد شغلته إبله وماشيته فأخذ يحضر الجماعة وقتاً ويتخلف وقتاً ، حتى اكتفى بصلاة الجمعة . .

ثم ذهب ولم يعد !

لقد شغلته الدنيا . فسئل فيه رسول الله فابتسم ثم نزلت الآية :

(ومِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ولَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ . فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ . فَأَعْقَبَهُمْ نفَاقاً فى قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللهَ مَا وعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ) إلى قوله تعالى: (اسْتَغْفِرْ لَهُم أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فلَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ. فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُول اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ . فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيراً جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) .

هم الأخسرون أعمالا . منهم : أبو ثعلبة هذا ، صلى وصام لأمر كان يطلبه ، فلما آتاه الله من فضله رفض دعوة النبي إلى دفع الزكاة ، وكثير من الناس منع الزكاة بعد وفاة الرسول ، فجمع أبو بكر رضى الله عنه

الصحابة للتشاور فى الحرب ، وقال لهم : « والله لو منعونى عقال بعير مما كانوا يؤدونه إلى رسول الله لقاتلتهم فيه » .

فقال له عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله : «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فمن قالها عصم منى ماله ودمه إلا بحقها وحسابهم على الله » .

فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ، فالزكاة حق المال .

قال عمر : إنه الرأى ، وما رأيت الله شرح صدر أبى بكر للقتال ، حتى عرفت أنه الحق .

قال أبو بكر : من ترك شيئاً من الدين وجب قتاله عليه كما لو ترك الدين كله .

الفصل الخامس

الحربُ في سبيل السلام

الحمد لله والصلاة والسلام على من أحبه ربه فاصطفاه . . اصطفاه لعظيم خلقه . وقوة بأسه ، وثبات عقيدته ، فبعثه برسالته ، واختصه بنشر دعوته . وهل دعا محمد إلى غير السلام ؟ . .

من أجل السلام حمل محمد السيف لإقرار السلام وتأمين الأمة . . حمل سيفه للدفاع عن الدعوة ، فكان تجييشه الجيوش ، وكان تسليحه لها بالعقيدة ، وكانت غزواته عليه السلام لهدف واحد وغرض واحد هو أن يشيع السلام فى الضمير ، والسلام فى البيت ، والسلام فى المجتمع ، فلم يترك أمته حتى أدى الأمانة وأبلغ الرسالة ، ورضى لنا الإسلام دينا ، ودعانا لقول الله تعالى : (الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) . وأراد الإسلام بهذه الآية تذكيراً وتحذيراً ، تذكيراً للكافرين بيأسهم من كمال هذا الدين القيم ، وأراد تحذيراً لنا حتى لا نخشاهم بل نخشاه هو وحده . فإن هذه الخشية هى القاعدة الإسلامية الأولى يتحرر بها العبد من كل ما فى الدنيا من فتنة وخوف . ويكون الدين والتسليم خالصاً لله ، وبذلك وضع حجر الأساس فى بناء العالم على السلام .

وكان عليه الصلاة والسلام يجهر بختام دعوته هذه ، ثم يقول : ألا هل بلغت ؟ اللهم فاشهد .

نعم لقد أبرأ ذمته بينه وبين خالقه ، ويشهده تعالى ويشهد الناس

على أنه أدى الأمانة وأبلغ الرسالة : فلا نلومن إلا أنفسنا إذا كان فينا ضعف فى العقيدة وتخاذل فى الإيمان ونقص فى الهمة وفتور فى العزيمة .

لقد أتى أمر الله فلاتستعجلوه . إذ كان لابد من إعداد العدة ، وتجنيد الشعب للمعركة . وغرس بذرة التحرير فى قلب كل مواطن، لتصبح الحرية عقيدة وهدفاً ، ولتكون الحرب المقدسة وسيلة وسبيلا . . نرحب بالموت العزيز فى سبيل الله وفى سبيل الوطن ؛ ومن مات دون ماله فهو شهيد ، ومن مات دون أرضه فهو شهيد ، ومن مات دون عرضه فهو شهيد .

وإننا لن نقنع بتحطيم هذا العدو وسحقه حتى يغرب عن بلادنا ، ولكننا نعلن العالم أجمع أننا نحب السلام ، ونعلم أنه الحق ، ونعمل على تحقيقه بكل ما أوتينا من قوة — ولو قدر لغاصب محتل أن يجور على حدودنا أو يغتصب بضعة من جسم بلادنا ، فليكن على بينة من أمره . فإن كل قرية ستقاتله ، وكل مدينة ستقف فى سبيله ، ومن كل شبر فى أرضنا تندلع نار تحرقه ، فإن هذا أمر الله :

(وَقَاتِلُوا فِى سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) .

وإنه — سبحانه — لقريب يرى ويسمع أننا إذ نريد الجلاء والسلام، لانعتدى على أحد ، ولا نفكر فى الجور على أحد ، بل نحن المعتدى علينا فى وطننا ، ونحن المعذبون فى أرضنا، ونحن الذين أريد بنا الذلة — أريد بنا الذلة ونحن الأعزة — أعزة بحكم الشرع وحكم الدين وحكم المنطق وحكم التاريخ وحكم القانون السماوى الذى أنزل الإسلام ديناً للسلام .

ولكن هل تتحقق العزة والسيادة بالكلام ؟

وهل يكون الجهاد كلاماً ؟

إن الأمر جد ، والكلام لغو وعبث ، وإن هذه الثورة عمل خالص لوجه الله ، وجهاد صادق فى سبيل الله – وهذا العمل يقتضى أن نتسلح بالإيمان ، وأن نتسلح بالاتحاد ، وأن نتحرر من الخوف ، وأن نعمل فى نظام حتى نشعر بأننا نتقدم فى كل ساعة وفى كل يوم ، فتكون المعركة الفاصلة ، وتكون الضربة القاضية ، ويكون الشعب والجيش هما سبيل الخلاص .

ألا فلنذكر جميعاً قول العلى العظيم : (إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِين أَنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ) ؛ وإن لجان المواطنين من أجل المعركة التى يتدافع الشباب والشيوخ والنساء ألوفاً للانضمام إليها ، لتقيم الدليل القاطع على أن شعب مصر كله قد باع نفسه لله ، فحقق بذلك الشطر الأول وبقى الشطر الثانى ، بقى الجهاد بالمال ، بقى البذل فى سبيل الله والوطن ، وما تنفقوا من شىء يوف إليكم وأنتم لاتظلمون .

فياأهل مصر جميعاً – أجيبوا داعى الله إذا دعاكم لما يحييكم ، وكفانا ما نرى من خسف وهوان للمسلمين ، وضياع لأوطانهم ، وحسبنا فلسطين – هذه الجارة العزيزة الشهيدة التى لم تجد لنفسها قيادة ، وحرمها هذا المستعمر نفسه من كل توجيه وهداية ، فقد أخذ على نفسه عهداً بأن ينشئ لصهيون وطناً ؛ وإنى لأعجب كيف وفّى بعهده هذه المرة – ولكنه نفذ العهد وأقام إسرائيل لأن له فيها مصلحة ، وتبدأ هذه المصلحة بأن هذا المستعمر لم يقوعلى عداء إسرائيل ، وتهدف هذ المصلحة إلى القضاء على وحدة الدول العربية وتماسكها ، هذه الدول التى بدأ فيها الوعى ، وبدأ فيها الشعور بالمسئولية ، وبدأ فيها الشعور بالخطر ، ونبتت فيها بذرة الوحدة الروحية ، فأراد الاستعمار تحطيم هذه الوحدة ،

فسمح لهذه الدويلة بأن تقوم . وهو يعلم فيما بينه وبين نفسه أنها مهما وصلت من قوة فلن ترفع رأسها فى وجهه ، ولن تهدد مصالحه فى الشرق . ولكن يكفيه أن تبقى هذه الدويلة غصة فى الحلق وشوكة فى جنب العرب تسهر على قطع صلات الجوار ، وتقضى على روابط العمومة .. وأعجب من ذلك أن هذا العدو قد وجد من ينافسه فى ذلك التحبب الرخيص ، وهذا التدليل وتلك المساندة لإسرائيل ، حتى أصبحت مركزاً لتنافس المحبين على حساب المسلمين أجمعين .

وإنى لأدهش كل الدهشة حين أذكر أن هذه المساعدة كلها من دول مسيحية كان الأجدر بها أن تكون أكثر حرباً وأكثر عداوة لإسرائيل ، فقد عانت المسيحية من آل صهيون أكثر مما عانى المسلمون .. إنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور !

وإذا كنا ننادى فى مصر بالتحرر ، فإن دعوة التحرر يجب أن ندعو بها لهذه الدول حتى تتحرر من سلطان أفعى صهيون ، فقد استعبدتهم باحتكار الأسواق الدولية ، هذا الاحتكار الذى جعل ساسة هذه الدول لا يبرمون أمراً ولا يقطعون برأى إلا بما تقضى به مصلحة إسرائيل ومن ورائها خزائن الصهيونية . . وياضيعة الدول العظمى إذا كانت قد هانت إلى هذا الحد من المادية الذليلة !

إن هذه الثورة ، أيها المسلمون ، امتداد لثورة سيدنا محمد ضد الظلم والطغيان على أية صورة ، وهى حرب على الفساد والضعف والاستكانة فى كل بلد عربى وفى كل بلد إسلامى .

هكذا قلت فى الظهران على شاطئ الخليج العربى ، وقلت هذا على ضفة القنال بعد عودتى من الحج منذ سنوات . . . قلته بإحساس ملايين المسلمين الذين رأينا منهم فى مكة نحو ٣/٤ مليون ،

وسمعنا منهم أن ثورة مصر لاتقيدها حدود ، فهى انتفاضة الإسلام وانبعاث العروبة ، وهى ربط لهذا الشرق الذى تتابعت عليه المحن ، لالقوة أعدائه ، ولكن لتخاذل أبنائه وتفكك جماعاته ، وجهل المسلمين بقدر أنفسهم .

لقد ثار النبي بأمر ربه ثورة قوية مؤمنة ، على الجاهلية وتقاليدها وعلى أوضاعها المقلوبة . وعلى أصنامها المعبودة . . وكانت ثورته على الفساد فى كل ميدان ، وكانت رسالته رحمة للبشرية فى كل زمان ؛ فهدانا إلى عبادة الله وحده ، ونظم حياتنا على قواعد الحق والعدل والحرية والمساواة .

ثم قال سبحانه لنبيه ورسوله :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ)

جرت عادة الأمم الراغبة فى التقدم ، أن تبحث لها عن أمة ذات حضارة ، فتقلدها ، ثم تهضم هذا التقليد فى عصبيتها ، ثم تمضى بما اقتبست وما قلدت فى الطريق إلى الأمام .

ولكن الأمة المحمدية قد خرجت على هذه القاعدة ، ولم تقبل أن تتدرج فى هذه المراحل ، فإن رسالتها جاءت متحررة ، وكانت شريعتها لها خاصة ، شريعة لخير أمة أخرجت للناس ، أمة دينها قيم ، وصراطها مستقيم ، وعقيدتها ربانية ، لاشرقية ولاغربية ، وعنها أخذت هذه الثورة ، وفى أضوائها تتقدم مصر الجمهورية العربية المتحدة . .

إننا — أتباع محمد — من هذا النبع نلتمس المدد ، وعلى هدى هذا النبي تمضى الثورة ، عاملة بالكتاب والسنة ، واعية لأحكام الله وتعاليمه

لمصطفاه ، ترى كيف أراد سبحانه أن يدخل الطمأنينة فى قلب رسوله ، وبالطمأنينة يدعم ثقته ، وثقته إيمانه بالنجاح ، نجاح الثورة والدعوة .

قال تعالى : (وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى . فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) .

لهذا كان المصطفى يطيل القيام ويطيل السجود ، وكان يطيل التهجد ويطيل البكاء ، بين يدى ربه . . حتى أشفق عليه صحابته ، وسألوه أن يترفق ، فقد فضله الله على خلقه ، وما أنت يا رسول الله بحاجة إلى مزيد من فضله .

فكان يجيبهم بقوله عليه الصلاة والسلام :

« أفلا أكون عبداً شكوراً » ؟ . .

هل يعنى محمد بهذا السؤال نفسه ؟ . .

وهل كان الخطاب القدسى له وحده ؟

وهل كان الأمر الإلهى لشخصه فحسب ؟

إنه مبعوث للناس كافة ، وجبريل ينزل عليه بالوحى آية بعد آية .

ولكن الوحى انقطع فجأة . وطال انتظار النبى للوحى . وأجمع الكفار على أن رب محمد قد ودّعه ، وأنه لن يستطيع مواصلة دعوته . .

وحزن الرسول لذلك حزناً شديداً ، فقد كان يأتى من قومه العذاب ولكنه لم يكترث بما كان يلاقيه ، بل كان حزنه الأليم حرصاً على شرف الوحى وأمانة الرسالة : لاحرصاً على نفسه أو على الدنيا جميعاً .

لقد هيأ الله لنبيه امتحاناً يختبر به صبره ويقيس مدى احتماله لأعباء الرسالة ، ويزيده ثباتاً فى الموقف الصعب .

ثم أقسم له سبحانه بالضحى ، أى بالنور ، وبالليل أى بالظلام . . أنه سبحانه لم يودعه ولم يكرهه . ولم يهجره . فإنما الأعمال بخواتيمها . وللآخرة خير لك من الأولى . ولسوف يعطيك ربك فترضى .

فاذكرنى يا محمد وأنت تحمى اليتيم . واذكرنى وأنت تجيب السائلين . واذكرنى متحدثاً بنعمتى ، تحقيقاً لآيتى :

(لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ) .

لماذا لا نتدبر هذه الآيات ؟

إننى أرى فيها الخطة الحكيمة لبناء المجتمع ، على أساس التكافل والبر ، والتسليم لله ، والصبر على المكروه . وحاشا لله أن يمن على رسوله ، بأنه كان يتيماً فأكرمه أو كان ضالاً فهداه أو كان عائلا فأغناه ، لم يكن هذا منًّا ولكن الله جلت مشيئته ، أراد أن يضع لنا دستوراً عملياً فى الرحمة ، الرحمة الشاملة التى يجب أن نحيط بها اليتيم ومن فى حكمه ، والفقير ومن يعول . . ولاسبيل إلى تجاهل هذه الأوامر الإلهية : فإن الله لايرضى أن ننسى مسئوليتنا فى هذه الأمة ، ولايسمح لنا بأن نغفل عن التحدث بنعمته لحظة واحدة .

فإن أردتم مزيداً من النور . فدونكم تنظيم شريعتكم لعلاقات الخلق ، ووضوح الواجب والحق ، بين أفراد الأسرة ، وبين سائر الأمة .

لقد جعلت هذه الشريعة أساس عبادة الله التعاون والتراحم ،

وأوضحت مسئولية الفرد في عنق الجماعة ، وأن الفرد مع الجماعة تأخذ منه وتعطيه ، وتحميه وتحتمي فيه.وأقامت رسالة محمد بناءها على قاعدتي : الإيمان والإحسان . وأعلنت أن الله لايكفيه من عبده المخلص صلاة ونسك، فقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . إن المنبتّ لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » . وحكمته في ذلك أن ينصرف الناس بعد العبادة لمسئولياتهم ، لا تلهيهم تجارة ولابيع عن ذكر الله . فعليهم أن يصونوا أمانة الحياة ، بالعمل المنتج كأفراد . فتنهض الأمة كمجموعة ، وتشتد سواعدها قوة ، ويتوافر لها من الوعي ما يمنع من احتكار النعمة ، فلا تكون وقفاً على الأغنياء . . ويكون لهذه الأمة من مقومات الشخصية ما يمنع فرعون وأمثاله من ادعاء الألوهية ، مستنداً إلى جاهه وثرائه وأجناده ، والجاه لله ، وهو أغنى وأعظم ، وجنده دائماً هم الغالبون .

ألا إن الله قد أنعم على الأغنياء بالمال ، وأقام الفقراء على هذه الحال ، ثم يقول سبحانه في حديث قدسي :

[الفقراء عيالي والأغنياء وكلائي . ولا أحب أن يستبد وكلائي بعيالي] .

وكان الحديث القدسي من مرادفات بعض معاني الآية الكريمة :

(وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ) .

فالمسلم الصادق يحب لأخيه ما يحب لنفسه، والمسلم الصادق لا يخطر بباله أن يتميز على خادمه ، والمسلم الصادق مسئول عن المسلمين جميعاً. والمسلم الصادق لايكسل ولايتعطل بل يكدح ويعمل ، فإذا عاقه حائل فالوطن كله فى عونه ، يؤمنه ، ويتواصى به خيراً ، والدولة تبذل له ما يحفظ عليه كرامته وعزته ، فلا فضل اليوم لأحد على أحد ، فهذا بلدنا جميعاً، وما الذى أعطى عن سعة ، بأفضل أجراً ممن أخذ عن حاجة .

وإذا أردتم أن تعرفوا المثل الأعلى لقادة ثورتكم ، فإنى أرجو أن تذكروا معى كيف بعث محمد النبى الأمى فى أمة متفرقة تقتلها الحروب والأحقاد والضغائن فى أرض صحراء جرداء ، ولكنه استطاع أن يجمع شمل أمته ، وأن يبنى منها أمة قوية متماسكة كان لها النصر ، وكانت لها السيادة بقوة الإيمان وعظمة الجهاد ، هذا مثل الجماعة . أما مثل الفرد فى الرسول نفسه، لقد كان أمياً، وكان فقيراً ، وكان يتيماً ، وهذه كلها لو تجمعت فى فرد لما كان له أى أمل فى أى نجاح ، ولكنه عليه الصلاة والسلام كان مثلا فى الصبر والكفاح وقوة الاحتمال ، ونذكر الآن قوله لعمه أبى طالب وهو يذكر له ما يتوعده به الكافرون . . قال صلوات الله وسلامه عليه : « والله يا عم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه» .

يجب أن نقتدى بهذه التعاليم التى اتبعها السلف الصالح، فكان لهم العز ، وكان النصر حليفهم . ولن يتيسر لنا ذلك إلا إذا عرف كل منا واجبه نحو ربه فأداه . إنها الصلاة التى تصل بين العبد وربه ، وتصل قلب المؤمن بالمؤمن وتنهى عن الفحشاء والمنكر .

إنى أدعو لأن يحاسب كل منا نفسه آخر يومه ، فيم أنفق هذا اليوم ؟ وأى خدمة أداها لوطنه ؟ فإذا استطعنا هذا أمكننا أن نكون قوة مؤمنة تستحق النصر والحرية .

الفصل السادس

الإسلام يأبى السلبية

« من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ،
فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع
فبقلبه ، وذلك أضعف الأيمان »

[حديث شريف]

عندما نقول إن الإسلام يأبى السلبية فذلك يعنى أننا نشعر بحساسية مرهفة إزاء اتهام باطل موجه إلى الإسلام ، فنقف لندافع عنه .

وفى موقف الدفاع ، يفقد الإنسان قوة المبادأة ، وينتظر دائماً الهجوم ، ثم يقف دائماً موقف الدفاع ، مستشعراً ضعفاً لايحسه إلا ضعيف . فإذا نحن آمنا بالإسلام حق الإيمان ، وإذا نحن آمنا بقوة مبادئ هذا الدين القيم ، وإذا نحن عشنا الحياة الإسلامية الصحيحة بكل ما فيها من قيم إنسانية خالدة ، فسنقف دائماً موقف القوة ، ويجد الذين يتقولون على الإسلام أنفسهم فى موقف الدفاع . . . وعندما تعود إلينا قوة المبادأة . . هذه القوة التى فقدناها فى غفلة من الزمن حين قامت الصناعة فى الغرب ، وحين تمكن الغرب من الشرق ، وتسلل إلى أرضنا من خلال ضعف العقيدة والتحلل من الدين ، والغرور بالحياة الدنيا .

إننا حين نؤمن بهذا الدين المتين ، ونزن بفطنة العرب إمكانيات هذه المنطقة . ثم نعمل على تصنيعها بقوة مبادئنا . . يوم ندرك هذا فتأكدوا أن القوة المادية والقوة الروحية الكامنة فى هذه البقعة ، سوف تضعف بجانبها

كل قوة ، ثم تعود عجلة الزمن إلى دورتها الطبيعة ، وتعود إلى هذه الأمة وحدتها ، وتستأنف رسالتها فى هداية البشرية إلى أعز حياة ، وعندها لايتقول عنا الصهاينة وغيرهم من أعداء ديننا الكفار والمشركين حينما يتهمون المسلمين بأنهم قوم سلبيون أو متواكلون أو متخلفون ، أو كل هذا جميعاً .

إن من يقف موقف المدافع ، إنما يحاول دائماً تبرير موقفه إزاء تهجم الآخرين ، وعليه بهذا الوضع أن يتقبل اللوم أو يتعرض للهجوم ، وهو فى منطقه دائماً ضعيف ، وما يقوله الضعيف لايسمعه أحد . أما حديث الأقوياء ، أما حديث المؤمنين ، أما حديث العاملين المخلصين ، فهو يجد دائماً الأذن الصاغية . وهذه مصر الجمهورية العربية المتحدة ، قد أخذت بقوة المبادأة ، وملكت زمام القوة المادية مرتبطة بالقوة الروحية ، فأصبحت كلمتها تنطلق من القاهرة فتجد العالم كله آذاناً صاغية .

ولقد حاولنا كثيراً فى الماضى أن ندافع عن عناصر القوة والحق فى الإسلام ، وكان المدافع يلتمس أن يصدقه الآخرون ، وهو يدعو إلى دين إيجابى يقول فيه أعداؤه إنه دين سلبى .

وإنى لأذكر فى هذا المقام أن العلامة جمال الدين الأفغانى عندما نفى من مصر إلى تركيا ، بسبب دعوته القوية المؤمنة إلى هذا الدين المتين . أذكر أنه عندما قابل السلطان عبد الحميد — خليفة المسلمين فى ذلك الحين — وقد استشعر السلطان فى نفسه خيفة منه ، وخشى أن يقول العالم الأفغانى قولة حق فى حكم السلطان المتداعى ، قال السلطان للعالم :

لماذا ياشيخنا لاتذهب إلى اليابان مثلا لتدعو أهلها إلى الإسلام ، والقوم هناك يبحثون عن دين ؟

فأجاب العالم الثائر بقوله :

هل أذهب إلى اليابان أدعو أهلها إلى الإسلام كما يجب أن يكون ، أو أدعوهم إلى الإسلام الذى يطبق فى البلاد الإسلامية ؟

فعجب السلطان لهذا السؤال ثم قال :

حدثنى ياشيخنا عن الفرق . . حدثنى عن العلاقة بين هذا القول وبين دعوة أهل اليابان إلى الإسلام .

فأجاب الأفغانى قائلا :

لو دعوتهم إلى الإسلام كما يجب أن يكون ، فسوف يقولون اذهب يا رجل وادع قومك إلى هذه المبادئ ، فإن اتبعوك فتعال وادعنا إلى هذا الدين .. وإذا أنا دعوتهم إلى الإسلام المطبق فى بلادنا قالوا إنهم فى غير ما حاجة إلى هذا الدين ، وخير لهم أن يبقوا كما هم . . بغير دين ! .

وإننى لأتساءل الآن . . لماذا قال الأفغانى هذا القول فى ذلك الحين ؟

لقد كان العالم الثائر يترجم عن واقع المسلمين ، وعن حال التطبيق لمبادئ الإسلام ، وما انتهت إليه فى عهد خلافة السلطان عبد الحميد . . عندما بدأت الخلافة الإسلامية تنحدر إلى الهوان ، وتسير من سئ إلى أسوأ ، حين أفلح الغرب فى زعزعة العقيدة من قلوب المسلمين ، وحين سلط الغرب عليهم الشهوات . . بعدها خارت العزائم ، فخفت صوت المسلمين ومن ذا الذى يستمع إلى ضعيف ؟ . .

من هنا نبدأ الحديث . .

أنت حين تكون حراً عزيزاً ، ثم تدعو إلى الحرية والعزة . . وحين تكون قوياً ثم تدعو إلى القوة .. سوف يسعى الناس إلى سماعك ، ويفتحون قلوبهم لدعوتك .لاتحاول أبداً أن تدعو إلى حق وعدل وقوة وعزة ، وأنت تعيش الباطل وتتجرع الظلم ضعيفاً ذليلا . إن ذلك تناقض ليس بعده تناقض . .

فإذا قلت إن الإسلام يأبى السلبية ، فلست أقف موقف المدافع ، فإن إيجابية الإسلام أقوى من كل دفاع ، وقد أظهره الله على الدين كله، وحسبه أنه الدين عند الله ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، ويوم يغلب أتباعه على أمرهم ، فليس هذا سلبية فى الإسلام ، وإنما هى سلبية فى المسلمين ، تداعت عليهم الأمم ، وهانوا على أنفسهم ، وهانوا على الناس، لأنهم غفلوا عن إيجابية دينهم ، واتبعوا سادتهم وكبراءهم ، فأضلوهم السبيل . . وإلا فكيف يغلب قوم نزلت فيهم وعليهم الآية الكريمة :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) .

إنى أتحدث عن تفاصيل إيجابية الإسلام . . هذه الإيجابية الكاملة الشاملة التى كانت وستظل سببا فى وجود أعداء للإسلام .

لقد كان للإسلام دائماً أعداء فى العلانية ، وكان كفيلا بهم ، فقام أجدادكم فى صدر الرسالة ينشرون النور ، ولم يقبع الإسلام فى الجزيرة العربية ، ولكنه انطلق على الخط العريض من الصين حتى فرنسا ، فهل هناك حقيقة أروع للدعوة الإيجابية من هذه الحقيقة الخالدة ؟

من قال إن الإسلام كان أو سيكون سلبياً فى أى زمان وفى أى مكان ؟

إنه الدين الوحيد المنزل لهداية البشر كافة ، وبناء حياة الإنسان على الإيمان والعمل . إنه لايرضى بالإيمان وحده ، فما من آية نزلت فى القرآن الكريم داعية إلى الإيمان إلا كان العمل ، والعمل الصالح بالذات ، مرادفاً فى اللفظ والمعنى للإيمان، وحسب الإسلام إيجابية أنه لا رهبانية فيه ، وأن العمل فى شريعة محمد عبادة ، وأن فلسفة الثورة الإسلامية على البطالة والتواكل قد اتخذت شعارها من الآية الكريمة :

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ) .

ومن قوله تعالى فى الحديث القدسي : [عبدى حرك يدك أرزقك] .
وقوله صلوات الله عليه : « ما أكل أحد طعاماً أفضل من عمل يده » .

وفى القرآن ، وفى الحديث ، كثير من الحض على العمل ، والتنفير من الكسل ، والتحريض على الكفاح . . والجهد . . والعرق .

ثم يرحم الله عبداً نام ويداه كالتان من التعب كما يقول نبينا ، نبى العمل .

كيف يكون الإسلام ديناً سلبيًّا ، وهو الذى وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ؟

إن الإسلام لو ترك أهله على إيمانهم فقط لما تجاوز هذا الدين حدود البقعة التى نزل فيها ، ولكنه انطلق كما أنزل فى المعمورة كلها ، فدخل الناس فيه أفواجاً ، لأنهم وجدوه دين إيمان وعمل .

وتحضرنى الآن عبارة قالها الكاتب الإيرلندى برناردشو : « لقد وضعت دين محمد دائماً موضع التقدير والإجلال ، فإنه أفضل دين متطور قادر على هضم جميع المدنيات ، وهو الدين الوحيد الذى ساوى بين الناس . إننى أرى كثيراً من بنى وطنى يدخلون هذا الدين ، وأرى أوربا داخلة فى هذا الدين ، شاءت أولم تشأ . فما أحوج العالم اليوم إلى رجل فى مثل شخصية محمد ، لينقذه من الحرب ، ويغذيه بالإيمان ، ويحييه بالعمل ، وينصفه بالعدل ، ويبدل خوفه أمناً ، ولايفرق بين الأبيض والأسود ، ويجعل الفرصة المتكافئة أساساً للحياة » .

أية سلبية يمكن أن تلحق بمثل هذا الدين ؟

إن الفيلسوف الإيرلندى قد تحدث عن إيجابية الإسلام أفضل مما يتحدث علماء المسلمين . . لقد كشفت بصيرة هذا الكاتب عن جوهر الإسلام ، فاعترف . . ثم تمنى أن يوجد رجل يقتدى بمحمد ، لينشر السلام ، والإيمان ، والعمل ، والعدل ، والمساواة بين الناس ، وأن الله لاينظر إلى صوركم ولكنه ينظر إلى قلوبكم وإلى أعمالكم .

« بدأ الإسلام غريباً وسيعود كما بدأ » . . أى ظهر الإسلام على كل دين قوياً سريع الانتشار بالحق والعدل والمساواة والخير ، ليس بالسيف كما يدعون ، وكانت إيجابيته التى أذهلت العالم سبباً فى وجود أعداء لهذا الدين فى العلن والسر ، أما الذين ناصبوا هذا الدين العداء علانية ، فقد تصدى لهم الأجداد شرقاً وغرباً حتى رفعوا راية التوحيد فى المنطقة الممتدة من الصين حتى فرنسا ، عندما كانت إيجابية المؤمنين قائمة على جوهر هذا الدين ، فأعطاهم القدرة على المبادأة ، أمدهم الله بنصر من عنده . فدخل الناس فى دين الله أفواجاً .

أما أعداء الإسلام فى السر ، وهم الذين يحاربون الإسلام من وراء جدر ، فهم الذين يعنيهم القرآن الكريم بقول الله تعالى :

(لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا) .

هؤلاء هم الذين كانوا ولا يزالون يعملون فى الظلام لهدم هذا الدين ، فقد سعوا سعيهم إلى اختلاق أحاديث الرسول العربى الأمين ، وعمدوا إلى تأويل التفاسير إلى المعانى التى تسىء إلى جوهر الإسلام . إنهم لايعلمون عمق الحكمة الربانية فى القول الحكيم :

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ) .

ولكنهم ظلوا فى غيهم :

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلَّا أَنْ)

يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

ما هى الإسرائيليات التى أضيفت إلى معانى القرآن ؟ وما هى الدسائس الفكرية التى أدخلت على التفاسير فأشاعوا عن الإسلام ... دين العمل والجهاد والتقدم والرحمة والنور — أنه دين سلبى ، والله من ورائهم محيط ، ويوجه إليهم القول الحكيم :

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) .

إن هذه الحرب الخفية هى التى جعلتنا نأتى اليوم لنقدم البراهين التى تنفى عن الإسلام السلبية ، وهو الدين الوحيد الذى جمع كل الأديان ، وتميز عليها بأنه دين الله الذى أراده رحمة للبشرية ، فنزل للناس كافة ، وذلك أعلى مثل فى الإيجابية .

ويكفى أن نعلم قبل ذلك ، أو بعد ذلك أن « لارهبانية فى الإسلام» فالإسلام الذى يقدم السعى فى طلب الرزق على الصلاة والصوم ليس ديناً سلبياً .

والإسلام الذى يبدأ بحرية الفكر وحرية العقيدة ليس ديناً سلبياً .

والإسلام الذى ينادى بالعزة لله ورسوله والمؤمنين ليس ديناً سلبياً .

فالعزة لايمكن أن تكون للسلبيين ، لأنها لاتقوم إلا بالقوة والعمل والحرية والذود عن شرف الوطن وكرامة المجتمع الإسلامى ، ليكون مجتمع الأمة التى كرمها الله بقوله الحكيم :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

هذا الدين الذى يقول نبيه العربى الأمين : « كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » ليس ديناً سلبياً .

ثم يقول الرسول الكريم : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان » . . فماذا فى ذلك من سلبية ؟

هذا الدين قد خلق أمة من العدم ، ورفع رايتها فوق الأمم ، وجعل المستضعفين أئمة ، يوم سادوا بمبادئهم الأرض . ولم تكن سيادة العرب — كما قدمنا — بحد السيف ، أو بالجيوش والقنابل الذرية ، وإنما كانت سيادة تقوم على مبادئ ، وعلى أخلاق ، تلزم كل فرد بمسئوليته الأولى عن العمل بهذه المبادئ ، والسلوك على نهج هذه الأخلاق ، بعد أن يدربه الله سبحانه على طريقته وبأسلوبه ، فيصبح قوة تشعر بالمسئولية ، وتحس اليقين ، وتؤمن بالله ورسوله ، وتعمل بما أمر به الله ، وما أمر الله رسوله إلا بأن يكون رحمة للناس كافة . . لم يقل للمسلمين فقط ، وإنما جعل الرحمة شاملة كل إنسان ، فأين السلبية فى رسالة أشرف المرسلين ؟

ونحن فى مجال الرسالة ، أيها العرب ، يجب أن نسأل أنفسنا أسئلة بسيطة سهلة : ما جوهر هذه الرسالة؟ .. ما هى أهدافها القريبة والبعيدة؟.. ومن الأجوبة البسيطة أيضاً نستطيع التعرف على إيجابية الإسلام .

إن بنى إسرائيل ، قاتلهم الله ، قد حاولوا أن يدسوا على الإسلام مبادئ التواكل ، وهم يجهلون قوله تعالى :

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى ، وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى ، ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى) .

ولكن محاولاتهم لم تستطع أن تفت فى عضدنا ، ولم تستطع أن تشيع الانحلال بين الشعوب الإسلامية، التى آمنت بدين الحق والقوة والحرية الفكرية والسياسية والاجتماعية معاً .

وفى مناسبة الأسئلة البسيطة والأجوبة البسيطة أذكر حديثاً لعمر ابن الخطاب يقول :

كنا جلوساً فى حضرة النبى الكريم ، فأقبل رجل وجهه أشد بياضا من اللبن ، وشعره أشد سواداً من الليل ، يرتدى ثوباً ناصع البياض ، وجلس أمام النبى ، حتى التصقت ركبتاهما وسأله : ما الإسلام يا محمد ؟

قال عليه الصلاة والسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وأن تؤدى الصلاة والزكاة ، وأن تصوم رمضان ، والحج لمن استطاع إليه سبيلا .

قال الرجل : صدقت يا محمد ، وما هو الإحسان ؟

فأجاب عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

قال : صدقت يا محمد .

قال عمر : وانصرف الرجل، ونحن نعجب للسائل المصدق ، فقال لى رسول الله : أتعلم من هذا ياعمر ؟ . . قلت : الله ورسوله أعلم .

قال : هذا جبريل جاءكم يعلمكم أمور دينكم .

يجب أن نذكر هذه التعاليم وأمثالها ، لنعرف ما الإسلام ، وما الإحسان ؟ وما الطريق إلى أن أعبد الله كأنى أراه ، فإن لم أكن أراه فهو يرانى ؟

إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، وهو دستور الإسلام الذى لا تبديل فيه ، فمن وضعه أمامه سار به إلى عز الدارين ، ومن تركه

ألقى نفسه فى النار ، ذلك لأنه دين يحمل مبادئ العزة والكرامة والعدل والرحمة والمساواة ، وهى مبادئ لايمكن تحقيقها غيبيا ، وإنما هى عين الإيجابية ، وطريق الإيمان والعمل .

يجب أن نعرف الغرض الحقيقى من دعوة الإسلام . . أهى دعوة إلى التعصب ؟

لا إنه دين الرحمة للبشرية جميعاً .

أهى دعوة لسيادة مخلوق على مخلوق ؟ . .

أبداً . إن العبودية لله وحده ولاشريك له . إنه فى المجال العالمى ـــ ذلك المجال المضطرب لأنه لم يسلم كلهُ بعد ـــ يقول الإسلام فى دستوره الأعلى :

(يَـٰٓأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

وليس أغناكم ، وليس أقواكم ، وليس أكثركم تسلحاً بالذرة .

إنه دين السلام الحقيقى . . دين حرية الفرد ، وحرية الفكر ، ولايقبل مطلقاً أن يفرض إنسان رأيه على إنسان ، فقد كفل لكل مخلوق حريته وكرامته ووجوده .

يجب أن نعرف أن التربية الأساسية الحقيقية هى التربية الإسلامية ، التربية التى تجعل من كل فرد إنساناً لايمكن أن يتحول عن عقيدته ، لأنه آمن بمبادئ وقيم لايمكن لأى مبدأ أو قانون بشرى أن يرتقى إليها كائنة ما كانت هذه المبادئ أو تلك القوانين ، مستوردة من هنا أو من هناك . . فإذا عرفتم أننا لايمكن أن نهزم أبداً إذا نشأنا على تربية إسلامية ، فإننا لايمكن أن نخشى على الفرد المسلم ولو كان فى عقر دار أولئك الذين

يتقولون على الإسلام . . ولكن الذى نخافه هو مصير المنحرفين الذين اتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، والذين يستعدون أعداء الإسلام على المسلمين . أما الذين تربوا ونشأوا على المبادئ العليا ، فلا يمكن أن يخشى عليهم .

فليكن من واجبنا إذن أن نبنى كما بنى سيدنا محمد — صلى الله عليه وسلم — بناء لم يقم على رمال ، وإنما قام على أساس قوى متين ؛ لاينفذ إليه الباطل ، ولا يرتقى الشك إلى قوته ، بناء قال فيه سبحانه وتعالى :

(اَلْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ) .

ثم قال جلت حكمته :

(اَلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسلاَمَ دِيناً) .

قال النبي هذه الآية الكريمة فى حجة الوداع ، ثم سأل أتباعه المؤتمرين فى عرفة : ألا هل بلغت ؟ . . قالوا : نعم ، يا رسول الله . قال اللهم فاشهد ، وكررها النبي ثلاثاً ، ثم قال بعد الثلاث : ألا فليبلغ الحاضر منكم الغائب .

وهكذا أشهد النبي علينا الله ، وأشهد الملائكة ، وترك لنا أمانة الدعوة إلى هذا الدين القيم ، حتى ينتهى هذا العالم .

تصوروا هذه الرسالة ، وهذه الدعوة ، وهذه الأمانة ، وهذه التربية الأساسية الحقيقية للمجتمع الإسلامى الذى يجب أن يستأنف حياة الآباء والأجداد ، إنكم لن تجدوا فى ذلك كله أو بعضه أقل القليل من السلبية . مرة أخرى أؤكد لكم أنى لن أخشى على ابنى ما دمت أنشئه

على مبادئ الإسلام . . فإن من يريد أن يحوله عن عقيدته لابد أن يأتى له بمبادئ أقوى من مبادئ الإسلام . . وهيهات !

حاشا لله أن تكون على أرضه مبادئ أقوى من دينه ولا أحكم من رسالته التى أنزلها رحمة للعالمين .

ماذا يريد الإسلام ؟

كيف نستطيع أن نلمس أن الإسلام هو التربية الإنسانية المثلى للفرد ، والمجتمع ، والأمة . . والعالم أجمع ؟

إن الإسلام يريد شيئاً واحداً ، هو الرحمة بكل هؤلاء ، لأن الله قد اختار لنفسه صفة الرحمن الرحيم . . واهب الرحمة لكل قلب ، وهو الذى وسعت رحمته كل شىء ، وهو الذى يربط بينه تعالى وبين عباده القائلين :

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا) .

فبغير رحمتك يا رحمن سنضل الطريق . . نعم ، فهذه الرحمة متى دخلت إلى قلب الإنسان عرف الطريق وكما أن الرحمة مصدر النور . . . هى فى الوقت نفسه مصدر القوة ، فالرحمة لاتصدر إلا من القوى . . والعاجز الضعيف هو الذى يستحق الرحمة ، وهو الذى نزلت من أجله رحمة الرحمن .

وإننا حين نبدأ كل عمل باسم الله ، لايغيب عن بالنا أن الله قد بدأ باسمه كل سورة من كتابه الأعظم ، ولم تحرم سورة من البدء باسم الله سوى سورة التوبة ، لأنها نزلت حرباً على المشركين والمنافقين والمفسدين فى الأرض فأولئك لايستحقون الرحمة : (إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ

يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِى الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ) .

والآن ، تعالوا بنا نبحث كيف تحقق التربية الإسلامية الرحمة بالفرد والمجتمع والبشرية . .

إننى لن أتكلم فى التفاصيل فمجالها لايحد ، ولكننا سنتحدث فى الإطار العام ، فى الفلسفة والمبادئ . . والخطوط العريضة فى أركان الإسلام . . فهى مصابيح على الطريق إلى التفاصيل

قد يثير بعض الناس مسائل جانبية فى الموضوع كالزواج بأربع أو الطلاق ولماذا يباح وهو يؤدى إلى ما لاتحمد عقباه ؟ . . إلى غير ذلك من المسائل التى لايثيرها سوى الذين لايعرفون الهدف الأعلى من التربية الإسلامية .

إنهم يحاولون زعزعة العقيدة فى هذه الرسالة البناءة الإيجابية القوية ، ويحاولون تلفيق مظهر سلبى للإسلام ، حتى هذا المظهر يدل على أنهم لابصيرة لهم ، وأنهم يجهلون حقيقة المبدأ كما أنزل .

ومن الناس من فسر الإيمان بأن الموت حق ، وأن يعفو عن كثير ، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ، فسر ذلك بأنه التواكل ، وأن المسلمين يقولون دائماً « كله على الله » . . هؤلاء الناس يفهمون الإسلام فهماً خاطئاً ، وليس الإسلام هنا هو المخطئ ، ولكن الإنسان هو الذى خرج على العقيدة السليمة .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) .

فإذا تغير ما بأنفسهم ، عرفوا أن إيمانى بأن الموت حق ، يدفعنى إلى الشجاعة والإقدام ، يدفعنى إلى العدو فلا أبالى ، لأنه لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا . ليس معنى ذلك أن أمشى إلى العدو بلا سلاح . وأقول إن الله سيقوينى على لقاء العدو ، كهؤلاء الإخوة الذين ذهبوا إلى لقاء الدبابات الإسرائيلية فى فلسطين عام ١٩٤٨ بالعصى . . إن علينا أن نرجع أولاً إلى قوله تعالى :

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ) .

ونرى هنا أنه تعالى ينظم لقاء الأعداء بأن نرهبهم . . وبعد ذلك نهجم عليهم ونتقدم إلى صفوفهم ونحن مؤمنون بأن الله لن يكتب لنا إلا إحدى الحسنيين : الجنة بالشهادة أو الفوز بالنصر ، فأين السلبية فى ذلك يا قوم ؟

ليس هناك فى الدنيا إيجابية أقوى ولا أروع من هذه الإيجابية . . فإن كان هناك من يهمل معانى وأهداف دينه القويم من المسلمين ، فليس ذلك ذنب الدين . فالإسلام دين كامل ، يئس الكافرون من مقاومته أو الحد من انتشاره ، لأنه دين رحمة فى أوله وفى أوسطه وفى آخره . . كذلك حددت الآية الشريفة الموجهة إلى نبى الرحمة فى قول الله الرحيم الرحمن :

(وَما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ) .

ثم انظروا معى إلى قوله تعالى :

«لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ»

فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هٰذَا الْبَيْتِ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) .

انظروا الإيجابية فى هذه السورة القصيرة التى تعد أبلغ وأعرق دستور لتحرير الفرد والمجتمع من الخوف ومن الحاجة ، ولتحقيق الألفة فى السعى والعمل ، ثم لعبادة رب الكعبة الذى ألف بين قلوبهم ونظم عملهم الجماعى ، وأمرهم بعبادته لأنه سبحانه قد أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف .

ومن أجل ذلك قامت ثورتنا . . وكثيراً ما سمعتم على لسان المغفور له الرئيس جمال عبد الناصر :

« إن تحرير لقمة العيش هدف سياسى من أهداف ثورتنا ، فتحرير لقمة العيش من المهانة والمرارة . . هو الأساس لبناء فرد متحرر ومجتمع متحرر . . وشعوب حرة من كل ضغط ، ومن كل عذاب ، ومن كل استغلال »

العملية كلها تبدأ بحرية الفرد . . وكل شىء يبدأ بالإنسان .

وهذا يذكرنى بعمل إيجابى شرعته الثورة فى قوانينها لتحرير لقمة العيش ، وهو منع الفصل التعسفى للعمال .

وقلنا إنه يجب أن يكون مفهوماً أن حماية العامل من الفصل التعسفى ليس تحدياً لإرادة صاحب العمل ، ولايمكن أن يكون باباً يدخل منه التهاون والإهمال إلى سلوك العامل . . وإنما هو تأمين له على مصدر رزقه ، وتحرير لقمة عيشه ، حتى لا يصبح ألعوبة فى يد انتهازى أو مستغل . . فإن تحرير لقمة العيش هو أصل الحرية ، والإنسان العبد لايمكن الاعتماد عليه ، ولا يمكن أن نبنى من أمثاله مجتمعاً ذا قيمة أو وزن فمثل هذا العبد لم تتحقق الرحمة فى حياته . . ومجتمع يتكون

منه لايمكن أن يكون رحيماً أو متراحماً أو قويًّا أو متماسكاً .

ولنرجع البصر كرتين إلى الأمر الإلهي لكل إنسان بأن يحرر نفسه عندما ينطق الإنسان المسلم بشهادة أن لا إله إلا الله ، أى أنه لايعترف بإله غير الله ولايشرك به أحداً ، فليس معنى الشرك هنا هو فقط الزعم بأن الله ثالث ثلاثة ، وإنما يعنى أولاً الإيمان بأنه ليست هناك قوة يمكن أن تنال منى إلا بما قدر الله . . فلا سيد لى إلا الله . . ولا عبودية لمخلوق مهما كان هذا المخلوق . لا إله إلا الله . . إننى بها أشهد بحريتى . . وإننى لن أكون حرًّا إلا بالسيادة لله وحده ، ومن هذه السيادة أستطيع أن أكون سيداً ، وأن أكون حرًّا ، وأن أكون قويًّا . وأن أعى قول الرسول الكريم : « رحم الله امرأ عرف قدر نفسه » .

إننا من نسل آدم الذى سجدت له الملائكة . . وإن الله قد كرم بنى آدم وحملهم فى البر والبحر ورزقهم من الطيبات . . وجعل آدم خليفة فى أرضه ، وكرم أبناءه وأمرهم بطاعته ، وأوضح لهم عز هذه الطاعة فى الحديث القدسي الشريف : « عبدى أطعنى تكن عبداً ربانيًّا تقول للشيء كن فيكون » .

وحسب المسلم إيجابية أن يكون من أمة لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . . ثم يبنى حياته على هذه القاعدة . .

ولكن كيف نبنيها ؟

إن ديننا أساسه الإيجابية مهما حاول أعداء الإسلام التقول على مبادئه ، وتحريف الكلم عن مواضعه ، ونتنقل الآن إلى طريقة الإسلام فى بناء الفرد على أمتن قواعد الإيجابية .

هناك أسلوبان للتفكير : أسلوب من يتعجل النتائج كيفما تكن . . وأسلوب من يتعجل النتائج ، ولكنه يريد البناء على قاعدة وطيدة وأساس مكين ، حتى يضمن فى النهاية النجاح الحقيقى .

بالنسبة لمن يتعجلون النتائج كيفما تكن نجدهم يرون فى البداية الطبيعية ودون الطفرة — وسنة الحياة التطور والتدرج — استغراقاً لوقت طويل. فهم فى لهفتهم على الإسراع فى البناء لايؤمنون بالتدرج إلا فى مجال الحديث العابر ، فهم يتكلمون عن بناء الإنسان بطريقة لاتسمح للتربية والتكوين بفرصة الإصرار على البحث . . وإصرار على العمل ، وتدبير محكم ومتابعة مستمرة . . مهما طال الوقت ومهما طال الزمن فإن كل ما نراه من أبنية ضخمة هى فى الأصل مجموعة لبنات ، وكل ما نرى من أعمال ضخمة وفى الأصل مجهود أفراد ، وإن بناء الفرد لهو الصعب العسير .

بناء الفرد هو العمل الوحيد الذى لايحسب بالسنين ولكنه يحسب بالأجيال . . لابد أن ينقضى جيل حتى نتأكد من أن روح الثورة ، وروح الإصلاح ، وروح التغيير إلى أفضل . . قد وجدت المجال والمناخ الطبيعى لتثبيت مبادئها وقيمها .

وها نحن أولاء نرى قصة بنى إسرائيل مع سيدنا موسى — عليه السلام — لقد تطلب الأمر أن ينقضى جيل بعقليته وتفكيره . . تطلب الأمر أن تمضى ٤٠ سنة كاملة وهم مقيدون بعقلياتهم الوثنية والعجل الذهبى الذى صنعوه ثم عبدوه . . وما يزالون .

ومن قبل موسى نتأمل قصة سيدنا نوح ، وكيف مكث فى قومه تسعمائة وخمسين عاماً يدعوهم إلى الله ، فلم يستجب منهم سوى خمسين فرداً ، حتى استغاث من الكفر ، ونادى ربه :

(رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارا) فكان الطوفان.

وكذلك كان الإسلام غريباً فى مكة . . لقد انقضى على الرسالة ٢٣ عاماً حتى انتصرت دعوة الحق فى منزلها الأول ، بعد أن اقتلعت الضلال من الجذور ، ومن الماضى الرهيب . . ثم كان البناء قوياً

ثائراً مندفعاً متجدداً . . وكان لابد أن يبنى الإسلام الفرد أول ما يبنى .

ونحن لكى ننشئ الفرد على أسس ومبادئ لابد أن نتعرف على الأسلوب الأصيل فى صورته المبسطة التى أراد الله أن تكون أسلوباً خاصاً بنا حتى لانجهد أنفسنا بالاختراع أو الاختلاق .. فالإسلام لايبنى فى فراغ .

إننا نرى الشجرة الصغيرة تنمو وحدها فى مهب الرياح ، فتكون عرضة لأن تنشأ معوجة ثم تكبر كذلك . . ولهذا فإننا فى مراحل قيامها ونموها نلجأ إلى جريدة نخل أو قطعة من خشب ، لتقوية الشجرة ومساندتها حتى يشتد عودها على الاستقامة ، فتصبح فى غنى عن الدعامة أو المساندة . . وتضحى قادرة على مواجهة الرياح الهوج شامخة صامدة ، تستطيع فى المستقبل أن تعطينا الدعامات لكى تسند غيرها من الشجيرات من الجيل الصاعد .

وهكذا درج الإسلام بأسلوبه الفطرى فى بناء الفرد ، فقد أعد له الدعائم القوية الثابتة على الاستقامة حتى يشتد عوده وتصبح الاستقامة جزءاً لايتجزأ من حياته . . ومن طبيعته . . ومن غريزته .

أولى هذه الدعائم الصلاة :

ويقفز إلى ذهنى فى هذه اللحظات حديث جرى بينى وبين أحد أولئك الذين لايكتفون بعدم الصلاة . . وإنما يناقشون على الملأ تبريرهم لهذا الخروج على طاعة الله ، وأنهم يريدون أن يشيعوا موجات التردد والتشكيك . . واحد من هؤلاء سألنى فى ملأ من الناس قائلا :

أليس الغرض من الصلاة هو النهى عن الفحشاء والمنكر ؟ . . فإذا كنا قد انتهينا عن الفحشاء والمنكر ، فما حاجتنا بعد ذلك إلى الصلاة ؟

فقلت له :

بهذا المنطق المقلوب قد يأتيني جندي في الجيش – وهو مفروض عليه أن يواصل التدريب – حتى يكون دائماً محارباً ومقاتلا ومستعداً ، يأتي فيقول : إنني محارب ومقاتل ولا حاجة إلى التزام الأوامر . . مثل هذا الفرد لايمكن أن يقبله الجيش ، أو يكون جندياً عاملا . . له أن يسمى نفسه متطوعاً أو مناضلاً في وقت الحرب ، ولايمكن أن نسميه جندياً . .

كذلك الذي يمتنع عن الصلاة ، وهي فريضة وأمر لايمكن أن يستقيم بغيره الدين والفرد الذي يبنيه الدين ، لايمكن أن نسميه مسلماً إن ترك الصلاة .

إن الصلاة يا أخي هي الوسيلة المثلى لتدريب الفرد على الاتصال بربه ، حتى تزيد وتقوى وتثبت هذه الصلة .. وسرعان ما تصبح عاملا أساسياً لبناء الإنسان على خشية من غضب الله ثم العمل على رضائه ، ومن بين الخشية – وهي عصب التقوى – والعمل وهو شرط الإيمان ، ويتكون الإنسان الصالح لنفسه – ولأهله – وللمجتمع الذي نعيش فيه . .

استمع صاحبي إلى هذا ، ولكنه لم يقتنع ، فعاد يسائلني : هل أحاسب على ترك الصلاة ؟ إذا فاضلنا بين اثنين أحدهما يصلي ويفسق والثاني يتصدق ولا يصلي ، فهل تريد إقناعي بأن الأول مصيره الجنة ، والثاني مصيره النار؟

قلت : إن حساب الناس ليس من شأن الناس إنه من اختصاص الله وحده ، ولا أحسبك تريدني على التدخل في شئون الله . . وأنت لاتعلم ببواطن الأمور ، ولاتعلم ما يكمن في النفوس ، وحكمك أنت قائم على الصورة التي تراها .

فلماذا نجهد أنفسنا بأسئلة لاتؤدي إلى غاية ؟ . .

ولماذا لانلتزم بأوامر الله ونواهيه إن كنا مسلمين ؟
لماذا لانحمد الله على أن منّ علينا بالإسلام ؟
والحمد هنا ليس معناه الكلام أو تقبيل اليد ظهراً وبطناً ، بل هو العمل بأوامر الله واجتناب نواهيه . قال تعالى :

(قُلْ إِنَّ صَلاَتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ).

وانتهت جلستنا ، ومضى كل إلى شأنه ، وعدت إلى مراحل التدريب الإلهى للفرد حتى يسلم . . وحتى يصبح جديراً بالصلة بربه والصلة بالمجتمع ، والصلة العالمية بالبشرية جمعاء . إن الله أراد أن ينشئ عبده بالأسلوب الربانى ، ففرض عليه الصلاة خمس مرات فى اليوم ، يقابل فيها العبد ربه ، ويجدد عهده ، ويجأر إلى مولاه بالدعاء ، ويخشع إليه وتمتلئ نفسه هيبة له فيزداد قرباً من ربه وتسليماً له ، وتمسكاً به واعتماداً عليه . . رغبة فى ثوابه ، ورهبة من عقابه.. وحبًّا مخلصاً لخالقه . وتوفيقاً فى عبادته ، وتحقيقاً لرسالته — سبحانه — وتطبيقاً لأوامره التى لاتحتمل جدلا ولا مناقشة . . أفى الله شك ؟

إن الإنسان منا إذا صادق أخاً له ، وكان مخلصاً فى الصداقة ، حرص على دوامها ونأى فى كل تصرفاته عما يهدد الصداقة أو يغضب صديقه . . فما بالنا والصلة هنا بالله والصداقة لله ؟ . ماذا يكون موقف العبد من ربه إذا عصاه ، وإذا أغضبه ، وإذا أهمل واجبه ؟ كيف يلقاه؟ كيف تكون الصلة بينهما ؟ . .

اتجهوا ياقوم إلى ربكم خمس مرات فى اليوم . . هذا الاتجاه يهديكم إلى التى هى أقوم . وما يزال الفرد جاهداً فى دعم الصلة بربه . عاملاً على مرضاته ، حتى تتأثر أعماله جميعاً بهذه الخشية . . وهذه الصلة . .

فتبدو فى المجتمع على الوجه الذى يرضى الله .

هذه هى الصلاة فى جانبها الفردى . أما الجانب الجماعى ، فقد فضل الله جزاء صلاة الجماعة على جزاء صلاة الفرد بسبعين درجة ؛ ترغيباً للمسلمين على اللقاء فى المساجد ، عند كل صلاة مكتوبة فى وقتها المعلوم . .وعلى الطريقة التى لاتتبدل ، من إمام واحد يؤم الجميع متجهاً بهم إلى قبلة واحدة، فى صفوف مستقيمة متراصة، فى تكبير موحد ، فى حركات منظمة متناسقة .

ليس من شك فى أن ذلك تدريب على النظام ، وتقدير الوقت ، والوفاء بالموعد . . والتعارف والألفة والتعاون والتغلب على المشكلات ، وتكوين النسق الأمثل للديمقراطية فى الجماعة ، فنتواصى بالحق ، ونتكاتف على بناء المجتمع المتراحم . . وهو هدف صلاة الجماعة ، تلك الجلسات التمهيدية لصلوات العيدين ، والحلقة الأولى من التدريب للمؤتمر الأكبر فى ركن الحج .

وثانية الدعائم هى فريضة الصيام :

لكن الله لم يفرض صلاة الجماعة والصلاة الجامعة تمهيداً لمؤتمر الحج الأكبر مباشرة . . فقد لاتستطيع إليه سبيلا . . بل أراد بطريقته الرحيمة فى البناء التدرج بالإنسان . . ففرض عليه الصوم بعد الصلاة . . فرض عليه الحرمان ، وحبب إليه جزاء هذا الحرمان وأغراه به ، ليختبر الصلة التى ربطها العبد بربه ، وليشعره بحاجة الجائعين ، وليدربه على تحمل المشاق ، وليحسن إعداده لطاعة أوامره — سبحانه — فى السر أو فى العلن ، فإذا نجح فى ذلك الامتحان وكان أميناً على عبادته ، فأدى الصيام كما يجب أن يؤدى . . أى صوم المعدة وصوم اللسان وصوم الفكر . . ودوام الذكر . . أصبح بعد ذلك مستجيباً لشروط الإنسان

الاجتماعى الذى يصلح لبنة فى بناء المجتمع . . ذلك عندما يتطور التدريب من التزامات الفرد . . نحو ربه ويقوم بها ويؤديها وحده إلى تدريب أشد وأقسى . . التدريب على البذل من ذات النفس . . وهو الدخول فى حلبة ثالثة من التدريب والإعداد الإيجابى .

والزكاة هى الدعامة الثالثة لبناء الفرد المؤمن :

قال تعالى :

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) أى تعطوا الزكاة والصدقة من أحب ما تملكون وهو المال — وذكره فى القرآن مقدم على الجهاد بالنفس (وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ) .

فليس من السهل على امرئ فى مراحل التدريب الأولى أن ينفذ الزكاة إلا بعد النجاح فى توثيق الصلة بربه أى بعد الصلاة ثم الأمانة على هذه الصلة باجتياز تدريب الصوم . . والصوم يهدى إلى عون المحتاج . . فالمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً .

أين السلبية فى هذا الدين يا قوم ؟

فإذا استمع القوم إلى أوامر ربهم فأطاعوا وصلوا وصاموا وزكوا وتصدقوا ، فحدثونى بعد ذلك عن المجتمع الذى يتألف من أفراد فيهم كل هذه الميزات . .

إنهم يحسنون الصلة بربهم ، ويحسنون الصلة بجماعتهم ويحسنون القيام على أموالهم وأرزاقهم ويقضون حق الله فيها : (إِنْ تُقْرِضُوا

الله قَرْضاً حَسَناً يُضَاعِفْهُ لَكُمْ) وهكذا حكمه الذى لا يرد .

إن مجتمعاً كهذا لايمكن أن يكون سلبيًّا . . إنه مجتمع تستحب التضحية من أجله والفداء فى سبيله ، فلا تنفذ إليه حاجة ، فالناس بعضهم لبعض ، والغنى مستخدم للسعى فى رزق الفقير . . ولاتنفذ إلى هذا المجتمع تفرقة . . فليس كعطاء القادر للضعيف وسيلة تربط بين القلوب ، وتوحد بين الجهود . . وتجمع الناس على المحبة والتعاون ، ابتغاء مرضاة الله . . وحسن جزائه .

ورابعة دعائم بناء الفرد فريضة الحج :

وقد كلف الله بها من يستطيع إليها سبيلا . . .

وليست السبيل إلى الحج هى القدرة على دفع نفقاته ، وإنما هى استعداد المجتمع المحلى للدخول فى المجتمع العالمى . .

فقد فرض الحج مؤتمراً دوليًّا للمجتمع الإسلامى . .

إنه صورة الأمة الواحدة المتحررة . . أمة التوحيد التى اختارها الله لتلقى رسالته ، واختار الله منها أنبياءه ورسله . . كيف يمكن أن تبدو للعالم هذه الأمة فى مؤتمرها الأكبر ؟

لابد أن تلتقى شعوب الأمة المحمدية على خير ما تلتقى عليه الأمة فى حشد ضخم يتكون من مجتمعات متماسكة . . تتألف من أفراد أقوياء البدن والروح ، فليس الحج نزهة أو رياضة . . وإنما هو تدريب على الحشد ، وهو حقيقة عريضة لما ينبغى أن يكون تجمع المسلمين حول الكعبة ، وتجمعهم فى عرفة وأداؤهم مناسك الحج متجردين من كل شىء . ناسين كل شىء إلا الله . . وفدوا على بيته تائبين مستعدين للجهاد فى سبيله .. بعد أن يتموا أركان دينه ، فيبدو اجتماعهم قوة يفاخر بها الله ورسوله

الملائكة ، وتتحقق فيها المنافع الإسلامية الدولية ، حيث يأتمر المسلمون ويتباحثون فى مشكلات دينهم ودنياهم ، ويكونون يداً على من عاداهم، أوفياء لمن يسالمهم . . داعين إلى الله فى العالمين . . مبشرين ومنذرين مبلغين رسالة نبيهم الذى بعثه الله هدى ورحمة للبشرية كلها . .

هذه لمحات سريعة عن إيجابية هذا الدين القيم المتطور المتجدد أردت أن تكون واضحة أمام الجيل الصاعد من شباب العرب ، ليعرفوا حقائق دينهم وجوهره الأصيل ، حتى لاتؤثر فيهم الأباطيل ، وحتى يتبين لهم الرشد من الغى ، وحتى يسلكوا بها طريق العزة التى قضى الله بها لذاته ولرسوله وللمؤمنين .

إن شهادة لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله تخرج بمن ينطق بها من معسكر العبيد إلى معسكر الأحرار الذين لايعبدون إلا الله وحده لا شريك له .

إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له . . والصلاة عماد الدين فمن أقامها فقد أقام الدين ، ومن هدمها فقد هدم الدين .

إن الصيام تدريب للفرد على تحمل المشاق وترويض النفس الأمارة بالسوء ، وكل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لله ، وهو سبحانه هو الذى يجزى به . . ولابد للفرد المسلم من اجتياز تدريب الصلاة والصوم حتى يدخل مرحلة أشد ، وهى الزكاة أى البذل ، وهو أقسى على صاحبه من أى شىء . وكلنا يعرف كيف أمضى الخليفة الأول أبو بكر الصديق مدة حكمه فى الحرب من أجل الزكاة ، فقد قبل أهل الردة الصلاة والصيام ولكن الزكاة عندهم صعبة فمنعوها ، فقام إليهم أبو بكر قائلا : والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله لحاربتهم عليه .

ثم الحج ، هذا المؤتمر الدولى العظيم الذى فرضه الله على كل مسلم يستطيع إليه سبيلا .

ونحن إذا وضعنا هذه الدعائم بجانب الإنسان الفرد فى تربيته ونشأته فلابد أن يكون إنساناً إيجابياً بكل ما تحتمل هذه الكلمة من معنى . . ينشأ قوياً . . فلا تهزه الرياح ولا تزعزع عقيدته قوة مهما بلغت هذه القوة .

هذه صورة مبسطة لإيجابية الإسلام فى بناء الفرد والجماعة والوطن والبشرية ، وهى قبل ذلك تحتاج إلى التأمل والتفكير والمتابعة لتبقى الصلة بين العبد وربه ، فتصبح الطاعة شيئاً أصيلاً فى خلقه ، ويمسى ثم يصبح عند الحديث القدسى : [عبدى أطعنى تكن عبداً ربانياً تقول للشىء كن فيكون] .

فهل بعد ذلك يستطيع العبد الربانى أن يستمع إلى من يتقول على دينه بأنه سلبى أو دعوة إلى التواكل ؟

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً !

إن دينكم دين الرحمة للناس كافة . . والرحمة هى الصفة الأولى للرحمن الرحيم ، ترونها فى فاتحة كل سور القرآن الكريم ، ومن تقاليد الإسلام العريقة أن يبدأ المسلم كل عمل باسم الله الرحمن الرحيم . .

هكذا يبنى الإسلام أتباعه ليكونوا رحماء ، ويقول الحديث الشريف : « لن تؤمنوا حتى تراحموا » و « الراحمون يرحمهم الرحمن » ، و « ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء » .

والرحمة لاتصدر من ضعيف . . فالضعيف لايهب الرحمة . . لأنه فى حاجة إليها . . أما القوى فهو الذى يستطيع أن يرحم من يستحق الرحمة . .

فكيف يمكن أن نلصق تهمة السلبية بهذا الدين الحنيف . . الذى أنزله الله رحمة للعالمين ؟ . .

وقد قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى حديث شريف : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » . « ولايكتمل إيمان أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

فكيف نسمى مثل هذه العلاقات الرحيمة تواكلا أو سلبية ؟

ألا فليتقول المتقولون على الإسلام ما شاءوا ، فإنهم ينطحون الصخر ، ولن يشاد هذا الدين أحد إلا غلبه ، فكيف نتصور هذه القوة التى تتسم بها الرسالة المحمدية تواكلية أو سلبية ؟

إذا جئنا اليوم لنعلن أن الإسلام يأبى السلبية ، ففى ذلك اعتراف غير مباشر بادعاء من ينسبون السلبية للإسلام . . إننا لايمكن أن نعترف بهذا الادعاء ، وعلينا أن نتعرف على جوهر ديننا ونتأمل فيه بعمق ، وسندرك أنه لا إيجابية فى أية شريعة سماوية أو قوانين وضعية بقدر ما فى هذا الدين القيم من إيجابية فى صلة العبد بربه ، وصلة الفرد بالمجتمع ، وصلة المجتمع بالوطن . . وصلة الوطن بالبشرية .

ويكفى أن نذكر فى هذا المقام قول الله العلى العظيم :

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلَامُ) .

وحاشا أن يكون دين الله على شىء من السلبية . ومعاذ الله أن يكون دينكم سلبيًّا . . بل على العكس ، فإن قوة الإيجابية فى هذا الدين هى السبب الأساسى فى خوف أعدائه منه إلى حد اليأس :

(الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ) .

إن يأسهم هذا معناه فى أول الأمر وآخره أن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على هضم جميع المدنيات . والتطور مع كل عصر . . والإيمان بالإنسان من كل جنس وكل ملة وكل دين . حسب هذا الدين أن ينهى عن التعصب تحقيقاً لقول الله عز وجل :

(لَا إِكْرَاهَ فِى الدِّينِ) .

حسب هذا الدين أن يضمن لكل مخلوق حرية العقيدة ، وفريضة العلم ، وحق العمل ، وحق التأمين . . وحق العدل وحق المساواة . . سوف ترتد دائماً سهام أعداء الإسلام إلى نحورهم ، لأنهم يحاولون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون .

الفصل السابع

صوت اليقين

«وَلاَ تَقْفُ مَا ليْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً » .

(الإسراء : ٣٦)

معنى ذلك أنه يتعين على كل منا ، لكى يصل به الفهم والوعى إلى مرحلة الثقة ، ولكى يصل إلى مرحلة اليقين ، ألا يكتفى بما يسمع أو يرى ، بل لا بد له أن يلمس بفؤاده الذى يجمع حصيلة حواسه وفكره وشعوره . . فإن الله عز وجل ، حينما أنزل هذه الآية ، أراد أن يجمع العقل والقلب والحواس فى كلمة واحدة هى الفؤاد ، لأنه سبحانه يريد أن تكون إرادة الآدمى إرادة إنسانية كاملة ، لاترتبط إلا بماتعرف ، ولا تتحرك إلا بقدر ما تقتنع ، ولا تقتنع إلا بما تعلم أنه الحق ، ولاتقف ماليس لك به علم . . حتى تتخلص من كل شك ، وحتى تدخل مرحلة اليقين .

أذكر إلى جوار هذه الآية ، آية كريمة أخرى تحدد فى بساطة ما يجب أن نقتنع به ، ونلمسه بأفئدتنا . . أذكر قوله تعالى :

(خذِ الْعَفْوَ وأْمُرْ بالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ)
(الأعراف ١٩٩)

لقد نزلت هذه الآية فى مجال البذل ، ولا يحول الاجتهاد من تفسيرها

فى مجال الرأى ، فقد يحول الرأى دون البذل ، ويمنع الرأى وحدة الكلمة ، ونحن فى حياتنا كثيراً ما نسمع الرأى الخاص فنحسبه رأياً عامًّا . وندخل فى متاهات ما ليس لنا به علم ، ولابد للمؤمن الحق أن يفكر ويتدبر ، ويفرق بين الرأى الشخصى ، والرأى العام ، ليعرف الطريق إلى اليقين . . يرى الحق حقًّا فيتبعه ويرى الباطل باطلاً فيجتنبه .

فى ٥ يونيو ١٩٦٧ أذكر أننى قد صحبت الوفد العراقى من القاهرة إلى الجبهة ، لزيارة إحدى الوحدات العسكرية الجوية ، وهبطت بنا الطائرة أرض المطار فى الساعة التاسعة إلا ربعاً ؛ فى حين كانت قنابل العدو تدك مدرج الطائرات ، ونحن نغادر الطائرة فى سرعة ، واندفعنا نحمى أنفسنا ولكننا فى الوقت نفسه كنا نشاهد بدء المعركة ، ونرى آثارها ، ولم تكد تبلغ الساعة الثانية عشرة ظهراً حتى كانت الكارثة قد وقعت ، وانتهى كل شىء بالنسبة للمعركة الجوية . . وشهدنا الطائرة التى كنا نركبها وهى تحترق بقنابل العدو وعدت بالسيارة إلى القاهرة ، ورأيت فى ذلك اليوم الحقيقة كاملة ، حقيقة الغدر ، وهول المفاجأة . .

إننا لابد أن نتصور كل ماحدث يوم ٥ يونيو وما بعده ، حتى نعيش ساعات الهزيمة لشعب عبأ نفسه تعبئة كاملة ، وصولاً إلى شرف النصر . لكن إرادة الله وحكمته فوق كل حكمة وكل إرادة . . وكل ما يأتى من عنده تعالى هو الخير مهما تصورناه شرًّا . .

إن الله قد اختص هذه الأمة بكثير من الخير . .

أرنى بلداً فى العالم كانت له ما لمصر من علاقة بالأديان السماوية . . لقد جاء اسم مصر صريحاً فى القرآن الكريم خمس مرات ، تكريماً لهذا الوادى الطيب وإعزازاً لهذا الشعب الكريم ، الذى عاش تاريخه العريق ، وسيبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قبلة العلم والإيمان ، والأصالة ، والنضال ، والصمود .

لقد تعرضت هذه المنطقة من العالم لأطماع الغزاة ، وغارات الطامعين، فلم يجدوا أمامهم مثلا فى الصمود بحق ، ولم يجدوا قاعدة للنضال بحق ، أكثر من مصرنا العزيزة ، بقوة إيمانها وبطولة شعبها . . فعاشت وستبقى دائماً الصخرة التى يتحطم عليها كل معتد يريد القضاء على إيمان هذا الشعب ، ويريد تحطيم مبادئه، ويريد أن ينال من القيم والمثل العليا له .

وعندما نذكر القيم والمثل والمبادئ ، يندفع إلى خاطرى أننا حينما قامت الثورة فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وحينما وقفنا جميعاً حول جمال عبد الناصر ، مناضلا وقائداً يعلى المبادئ التى سرنا على طريقها ، كنا نقف من حول المبادئ، وكانت المبادئ هى التى تكرم الأشخاص، تكرم المؤمنين بها ، فنحن لم نكرم فرداً لذاته ، ولكن نكرم المبادئ والقيم والمثل ، وما زلنا نعتز بهذه المعانى جميعاً وقد تجسدت فى هذا القائد . . هذا المناضل الذى أعلن مبادئ الثورة الستة المشهورة . . المبادئ التى تحولت إلى أعمال ثورية ومجيدة . . نذكر جميعاً أول هذه المبادئ .

القضاء على الاستعمار :

لقد تصورنا هذا المبدأ ، بعد تحقيق الجلاء مرتين حتى عام ١٩٥٦ ، قد استنفد أغراضه . . لماذا ؟ . . لأنه قد تحقق . .

الواقع يؤكد العكس ، فإن الاستعمار قد أنشأ له فوق أرضنا قاعدة تريد أن تخطف الخبز من أفواه الكادحين ، والرزق من أيدى العاملين، والإيمان من عقيدة المؤمنين .

ويحضرنى الآن مثل رأيته فى زامبيا الشقيقة . . كنت فى زيارة رسمية لها فى عام ١٩٦٥ ودعيت إلى رحلة فى منطقة حزام النحاس . منطقة تمتد من زامبيا إلى داخل إقليم كاتنجا فى الكونغو . . سألت العاملين فى الشركة المستغلة لحزام النحاس عن إيراد مناجمه كل عام . .

وكان الجواب أن حزام النحاس ينتج سنويًّا قرابة سبعمائة ألف طن من النحاس الخالص . . ويبلغ سعر الطن منه مايتراوح بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جنيه وأحياناً يقفز إلى ٧٠٠ جنيه . . لقد رأيت ما أدهشنى وسمعت ما أذهلنى . . وتذكرت على الفور أننا كنا نعيش حقيقة كهذه فى أرضنا . . الأرض التى أجزل الله عطاءها من الثروات والخيرات . . ذكرتها وأنا أزور حزام النحاس فى زامبيا . . وقلت لنفسى : إن قضية الاستعمار لا يمكن أن تنتهى بالسهولة التى يتصورها البعض . . ومن أجل ذلك يدبر الاستعمار مؤامراته من حولنا ، ولا ييأس . . كيف يمكن أن يضحى بمثل هذه الخيرات ، وهذه المنافع ، ويترك للثورات الوطنية الحرة الصادقة تقضى على آماله فى هذه المنطقة من العالم ؟ . .

إننا نسمع فى بعض الأحيان من أعداء العدالة الاجتماعية من يقولون إنه لولا الاشتراكية لما هاجمنا الاستعمار ، وخاض ضدنا المعارك . . مثل هذا الرأى الخاص يعبر عن خطأ فكرى والدراسة الموضوعية تقتضى منا أن نجيب عن الأسئلة الآتية :

هل كانت فى مصر اشتراكية عندما أغار عليها الهكسوس والمغول والتتار والاستعمار المستتر باسم الصليب ؟

هل كانت هنا اشتراكية عندما تصارعت فرنسا وإنجلترا فى معارك أبى قير البرية والبحرية لاحتلال مصر ؟

وحينما تكاتفت جميع أساطيل أوربا وجيوشها ضد الأسطول المصرى فى معركة نفارين عام ١٨٢٧ ؟

هل كانت عندنا اشتراكية ؟

لقد كان الهدف من ضرب الأسطول المصرى فى تلك المعركة هو أن تنطوى مصر داخل حدودها ، ولا تحاول أن تترابط ترابطاً عضويا مع بقية أجزاء الوطن العربى ، أو تكون قاعدة قوية فى المنطقة .. هكذا كان

شأن الاستعمار معنا دائماً ، يهاجم فينا أى بادرة من بوادر القوة .. يهاجم المبادئ والقيم والمثل التى تحمى خيرات هذا البلد ، وتحرس عقيدة هذا البلد . .

إن بيان ٣٠ مارس ١٩٦٨ حينما يتكلم عن أبعاد المعركة ، لا يخص بالذكر الحادث العارض الذى وقع فى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، ولكنه يعنى هذه الأمة العربية الممتدة إسلاماً وإخاء ومودة إلى كثير من بلاد العالم عبر القارات والمحيطات .

لقد استمعنا جميعاً إلى خطاب المغفور له الرئيس جمال عبد الناصر إلى المثقفين بجامعة القاهرة يوم الخميس فى ٢٥ أبريل ١٩٦٨ وهو يقول فى يقين :

« إن الموضوع ليس هو الجلاء عن سيناء وحدها . الموضوع أكبر من هذا بكثير . . الموضوع أن نكون . . أو لا نكون » .

عندما أذكر الآن أننا حينما ارتبطنا بجمال عبد الناصر القائد فى عام ١٩٥٢ ، كنا وما زلنا نرتبط بمن يحمل المبادئ ويسير بنا ، ونسير معه ، لكى نحقق هذه المبادئ أو نفنى دونها .

لماذا ؟ . . لأن هذه المبادئ تعنى حرية الوطن ، وتعنى حرية المواطن ، وتعنى العزة التى نحسها تطبيقاً لقول الله عز وجل :

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ) (المنافقون ٨)

وهذه العزة لايمكن تحقيقها بالأقوال أو بالشعارات . . وإنما تتحقق بقدر ما نناضل ، وبقدر ما يكون فى نفوسنا من تصميم ، سيكون عدونا على استعداد للتسليم .

إننا حينما نستشعر الحرية بجناحيها : الاشتراكية والديمقراطية . . نجد أننا قد ضربنا فى الديمقراطية بسهم وافر ، ونحن نتدارس مبادئ

الثورة فى مجال التطبيق : ونناقش برنامج العمل للنصر فى قلب المعركة ، حتى أحس كل مواطن بأنه قادر على التعبير ، ولكنه حينما يستمع إلى الرأى ، لا بد أن يفرّق بين الرأى العام والرأى الخاص ، لكى يصغى إلى ما يسمع ، ولكى يدرك معنى الآية :

(وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ) (الإسراء ٣٦)

حتى تعرف ما هو الحق ، وتعرف ما هو الصواب ، وماهو الشك ، وما هو اليقين . إننى حينما تمثلت الآية :

«خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ »

إننى لاأردد هذه الآيات بلا رأى ولا هدى . . وإنما أريد أن أقول إننى حينما أستمع إلى قول لابد أن أعى ما أسمع .. ثم أنظر أبعاد المعركة، فألمس بفؤادى أن معركتنا كانت وستظل دائماً هى تثبيت الاشتراكية ؛ طريقاً وأسلوباً إلى الكفاية والعدل . . ولكن من هم أصحاب المصلحة الحقيقة فى الكفاية والعدل ؟ . .

هنا تحضرنى صورة أمجادنا . . فى هذا المجال :

أن نقرأ أن بعض الأغنياء جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يارسول الله : إنك لو جلست فى صدر المجلس ونحيت عنا هؤلاء الفقراء — وكانوا يقصدون أبا ذر الغفارى وسلمان الفارسى وفقراء المسلمين — جلسنا إليك وحادثناك وأخذنا عنك .

يقول سلمان الفارسى راوى الحديث : فأنزل الله تعالى :

(وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِه مُلْتَحَدًا . « أى ملجأ » وَاصْبِرْ

نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ ، وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً) .

أى يا محمد لا تتجاوز عيناك إلى غيرهم من أبناء الدنيا طلباً لزينتها . لاتتزين يا محمد بمجالسة هؤلاء الأغنياء الذين اقترحوا أبعاد الفقراء عن مجلسك .

ولم يرد النبي عليه الصلاة والسلام أن يفعل ذلك . ولكن نهاه عن أن يفعله ، وليس هذا بأكثر من قوله تعالى :

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ) .

كانت هذه دعوة أغنياء مكة أن يتخلى النبي عن الفقراء .. الفقراء أصحاب الحق الأكبر فى المجتمع والمصلحة الحقيقية فى التغيير .

فماذا كان رد النبي على قول أغنياء مكة حينما أرادوا منه إبعاد للفقراء ؟ . يقول سلمان الفارسى رضى الله عنه : فقام النبي عليه الصلاة والسلام يلتمسهم حتى أصابهم فى آخر المسجد يذكرون الله قال : «الحمد لله الذى لم يمتنى حتى أمرنى أن أصبر نفسى مع رجال من أمتى . معكم المحيا ومعكم الممات » ..

صلى الله عليك يا رسول الله .. ويا من صرفت نظرك عن قول الأغنياء وقمت من مكانك وسعيت بنفسك إلى فقراء أمتك الصالحين .

أنت القائد والرسول تسعى إليهم فى مجلسهم وتجلس إليهم حامداً ربك على هذه الصحبة الطاهرة .

بغير هذا المنهج لا يمكن أن يقوم عدل حقيقى فى المجتمع . ذلك لأن الفقراء هم أصحاب المصلحة الأولى فى إقامة العدالة الاجتماعية وإليهم تتجه عين القيادة وقلبها .

ولننظر إلى أنفسنا نحن : إن كل واحد منا قد نال فرصته فى الحياة . . هذه الفرصة كانت من عرق الملايين وجهد الكادحين . ومع ذلك نحن لم نذكر بعد الآية الكريمة :

﴿ ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾ (التكاثر : ٨)

ولقد روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة فى تفسير هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج ذات يوم أو ليلة ، فإذا هو بأبى بكر وعمر :

فقال : ما أخرجكما من بيوتكما هذه الساعة ؟

قالا : الجوع يا رسول الله .

قال : وأنا والذى نفسي بيده لأخرجنى الذى أخرجكما ، قوما. فقاما معه حتى أتى داراً من الأنصار .

وسعد الأنصارى بهذا المجيء الكريم وقال فرحاً : الحمد لله .. ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى .

وقدم إليهم الأنصارى شاة وتمراً وماء عذباً فلما شبعوا ورووا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر :

«والذى نفسى بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم يوم القيامة .. أخرجكم من بيوتكم الجوع ثم لم ترجعوا حتى أصابكم هذا النعيم . . ظل بارد ورطب طيب وماء بارد » .

والله إن بدنى ليقشعر كلما ذكرت هذه الآية ، وأحس بثقل المسئولية الملقاة عاتق الثوار نحو جماهير الفلاحين والعمال . . وأذكر

على سبيل المثال أننى من قرية بمركز قويسنا كل زمامها خمسمائة فدان ، وليس بين أهل قريتنا مالك واحد ، كل ملاكها من الوافدين ، وأهل القرية ، من المستأجرين ، كل ثمانية أفراد يعيشون على فدان واحد . . هؤلاء الأهل عندما أذكر حديثهم وتطلعاتهم أذكر أن الواحد منهم يتخيل أحياناً أنه يملك فداناً ، فلا تكاد تسعه الدنيا . .

والآن وقد اتسعت بالثورة آمالهم . . وامتدت إلى تعليم الأبناء إلى أعلى المستويات ووفرت لهم الثورة ذلك ما داموا عاملين مجدين قادرين .

إننا يجب أن نفكر فى هؤلاء المواطنين وفى مصائر أبنائهم . . فى المستقبل الأفضل الذى يحاربنا عليه أعداؤنا .

والله إذا لم نتكاتف ولم نصمم على استمرار الثورة الاجتماعية ، وعلى وعى بحقيقة أبعاد المعركة ، وتتسع صدور بعضنا للبعض الآخر ، ويلتزم المثقفون بواجباتهم إزاء الملايين ، لا نكون جديرين بالحياة فى هذا البلد ، ولا نكون جديرين بشرف تحقيق العدالة الاجتماعية .

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلاَ تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ) .

إن أروع معانى الثورية هى الالتزام بحوائج الناس . . هذه أصدق حقيقة لفهم أبعاد معركتنا الآن . . معركة العدل الاجتماعى .

لننظر إلى قوله تعالى : « فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ » (الحج ٤٥)

حقت كلمة الله بالهلاك لمجتمع يظلم بعضه بعضاً ، حتى بلغ

التناقض فيه أن نرى قصراً مشيداً وإلى جواره بئر معطلة لاتجود على ظمآن بجرعة ماء . . تجسيد حي للظلم الاجتماعي الذي يستوجب الهلاك .

ومن هنا كانت أهداف الإسلام كلها مجتمعة في كلمة واحدة هي الرحمة . . والرحمة قمة العدل الاجتماعي في مجال التطبيق . .

خذ العفو — أي ما يفيض — وأمر بالعرف — أي ما تعارف عليه الناس ، وأعرض عن الجاهلين ، عن المشككين ، عن المضللين ، حتى لا تضيع في دوامة الرأي الخاص ، الرأي الشخصي ، الرأي الأناني ، الذي لايحس بالالتزام ، وإنه جزء من كل . . فرد في أمة قال الله فيها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ) (آل عمران ١١٠) .

ويوم يختلف الرأي ، ويصبح المعروف منكراً ، ويصبح المنكر معروفاً تكون المصيبة العظمى . . إننا في مجال التطبيق يجب أن نلتزم بما تعارف عليه الناس ، وما تتوازن به حياة الناس ، وبما يمليه الضمير الحي ، والعقيدة السمحة ، والاهتمام أولا بصالح المجتمع ، على أسس من الأخلاق ، ومن القدوة الحسنة التي قدمها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . وإلى هؤلاء الذين يتحدثون عن الاشتراكية في كل زمان ومكان أتجه بالسؤال : هل وجدوا بينهم إنساناً يموت مديناً ، وقد عرض عليه أن يكون له مثل الجبل ذهباً فيرفض ، ، لا يجدون يوم وفاته سوى درعه ليباع من أجل سداد دينه ؟

إن هذا الأمر لايقوى على احتماله أو فهمه المتشدقون بالاشتراكية قولاً لافعلا . . ولا من يقولون عن أنفسهم نحن مسلمون . بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم .. إن السعي إلى الاقتراب من هذا المثل يصل بك إلى قمة

المجد . . ولكن تحقيقه عملية صعبة . . تدريب عنيف لطبيعة الإنسان عندما يبيع دنياه بدينه ، ويهاجر بدينه ومبادئه . .

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

(الرعد ١١)

إذا غيرنا ما بأنفسنا ، فسيأخذ الإيمان مكان الشك ، وعندما يتوافر الإيمان فلن يكون هناك تساؤل عن الضمان .

إن الرئيس الخالد عندما نادى بالتغيير ، وكان أول من أعلن حتمية التغيير ، كان يعنى تغيير ما بالنفس ، حتى نشعر بوجودنا ، وبقيمنا ، وبعبادتنا ، وبمكانتنا ، وأن ليس هناك ما يفصل بين ماضينا ومستقبلنا ، وسيكون إصرارنا هو الضمان الوحيد للتقدم إلى ما نريد وليس إلا ما نريد . فلنجعل من النكسة العارضة فى ٥ يونيو مشعلاً يضىء أمامنا الطريق ، ويزكى شعورنا بحقنا فى أن نملك زمام أمورنا فى كل موقع . . لكى تبقى الثورة ، وتثبت المبادئ ، وترتفع القيم ، ويكون النصر من عند الله سبيلاً إلى تحقيق الكفاية والعدالة ، فى مجتمع متكافل متراحم ، ينتسب إلى خير أمة أخرجت للناس .

الفصل الثامن

محمد قدوة الدعاة

إننى أشعر الآن ، أكثر من أى وقت مضى ، بأن مسئولية الدعاة فى توعية الجماهير ، مسئولية ضخمة ، تشترط فيمن يحملها أن يعرف هذه المسئولية وكيف آلت إليه ، وماهو موضوعها ، وماهى وسيلتها ، وما هى الغاية منها فإن هذه الأمة ، كما قال محررها الزعيم الخالد جمال عبد الناصر : «تقف الآن على نقطة من نقط التاريخ الحاسمة .. نقطة يمكن أن يتحدد فيها المصير ، وأن يتشكل القدر بإرادة الله التى تلهم إرادة هذه الأمة ، وتوجه خطانا جميعاً إلى سواء السبيل » .

إن مسئولية الدعاة قد بدأت منذ وقف سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، يلقى خطبة الوداع ، فقال فى ختامها ما قال الله تعالى :

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً) .

ثم سأل الجماهير المؤمنة المحتشدة فى مؤتمر حجة الوداع : ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : اللهم فاشهد . ثم كررها ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : اللهم فاشهد .

وفى المرة الثالثة سألهم : ألا هل بلغت ؟ قالوا بلى يا رسول الله . قال : فليبلغ الحاضر منكم الغائب . اللهم فاشهد .

صدق رسول الله . وأشهد الله أنه أبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وكلف المؤمنين الحاضرين بتبليغ الناس دعوته ، ما بقيت الحياة . . فإذا كان هذا التكليف موجهاً إلى المؤمنين ، فما بالكم بالدعاة ؟ . . ما بالكم بالأئمة ؟ . . ما بالكم بالمرشدين ؟ . . ما بالكم بمن قال فيهم رسول الله « العلماء ورثة الأنبياء » ؟

يا دعاة الإسلام .

هل تستجيبون لتكليف الرسول ؟ . .

هل تحملون حقاً مسئولية الدعوة ؟ . .

هل تقدرون على تبليغ هذه الرسالة ؟ . .

هل يستطيع المسجد أن يتفاعل مع الأحداث ؟ . .

هل تستطيعون توعية الجماهير بأحكام الدين ؟ . .

هل تستطيعون هذا ، أم أن هناك ما يحول بينكم وبين أداء هذه الرسالة ؟ . .

إنى أعترف بأنه ما من عمل لا تعترضه عقبات .. وما من مسئولية لا تقف فى سبيلها مصاعب .. ولو أضعنا كل الوقت فى بحث العقبات، وفى تذليل المصاعب ، لكان ذلك اعترافاً منا بوهن العزيمة ، وضعف العقيدة . . وإن أردنا النجاح ، وجب أن نكون أكبر من كل عقبة ، وفوق كل صعوبة ، واستعينوا بالصبر والصلاة ، وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين .

لذلك ، فإنى أفضل فى مجال الدعوة ألا أناقش الصعاب ، بل أناقش الدوافع ، ولا أعترف بالعقبات ولكنى أتفق معكم على الأهداف، وبقدر ما فى نفوسكم من عزم ، سنحقق ما نريد ، وبقدر ما فى قلوبكم من إخلاص ، سيكون لكم التوفيق .

ألا فخبرونى بربكم ، أية أعباء ألقيت على رسول الله صلى الله عليه

وسلم ، وكان يتيماً ، وكان عائلاً ، وكان ضالا ، ولكنه استقام كما أمر ، وحمل العبء وحده . . لم تهزه الأحداث . . لم يكترث للصعاب . . لم يسلم بالعقبات . . لأنه آمن بربه . . لم يشرك بعبادته أحداً ، فإن الشرك لظلم عظيم .

الشرك أيها الدعاة من أكبر الكبائر . . إنه يقعد بالناس عن العمل . يورثهم التحلل والتفكك . يثبط العزائم .. يكل أمر الناس إلى الناس . إلى ضعف وذلة وهوان .

فإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس ، قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ، ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون .

وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقناكم ، ولوا وهم معرضون . يخشون الفقر ، ويحسبون أنهم بالشح سيؤمنون حياتهم ، وهم لا يشعرون بأنهم يشركون بمن عنده خزائن السماء والأرض ، وأنه الرزاق ذو القوة المتين .

إن مسئوليتكم محددة واضحة ، وأنتم أول المكلفين بتبليغ ما أمركم به وما دعاكم إليه الرسول .

وليس من شك فى أن ظروفكم اليوم أيسر بكثير من الأهوال التى تعرض لها هذا الرسول الكريم . . وليس مطلوباً منكم أن تكونوا يتامى فقراء كما نشأ . . وليس مطلوباً منكم أن تربطوا الأحجار على البطون كما فعل !

كل ما يرجى منكم هو تبليغ رسالته ، وحمل أمانته ، ودعوة الناس بدعوته . فإذا عرفتم مسئوليتكم ، وإذا اتجهتم إلى الواجب مخلصين ، فلن تقف أمامكم عقبة ، ولن تعترض سبيلكم مصاعب . . سيدفعكم الإيمان إلى الاقتداء برسول الله ، وإلى التمسك بالهدف من رسالته ، لتكونوا حقاً ورثة الأنبياء .

(فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ) .

(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرآنَ. خَلَقَ الإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

فهل لنا أن نتدبر النور الإلهي حين يهجم الظلام ؟ . . هل لنا أن نعود إلى الكتاب المبين لنهتدى يوم تتفرق بنا السبل؟

الرحمن علم القرآن . . كيف علمه ؟

خلق ابن آدم وعلمه كيف يفصح ، وكيف يبين ، وكيف يتدرب على الاتصال بخالقه ، وكيف يرى الحق حقًا فيتبعه ، والباطل باطلا فيجتنبه .

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ)

إن أرحم الراحمين قد بعث رسوله هدى ورحمة للعالمين .

فما هي الرحمة التي بعث بها النبي العربي الكريم ؟

أهي تلك العاطفة البلهاء التي تضطر العاجز إلى العفو عن ظالمه لأنه أقوى منه ؟

لو كان الأمر كذلك لرحم سيدنا محمد أعداءه ، وكانوا ذوى قوة وسطوة وأكثر عددا وعدة ، ومع ذلك فقد أمره ربه بقتالهم ، يوم غرتهم أموالهم وأولادهم وظنوا أن فى استطاعتهم القضاء على الرسالة والرسول ، ولكنه الإيمان متى استقر فى القلوب ، فلن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا .

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) .

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ)

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ) .

(وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ)

وهكذا أمر الله رسوله بأن يؤلف جيوشه من المؤمنين ، وأن ينظم صفوفهم للجهاد ، وأن يجعلهم عدته فى الحرب لإعلاء كلمة الله . لنشر رسالة الرحمة . الرحمة الشاملة الواعية . الرحمة التى تبرز فى كل معنى من معانى القرآن ، والتى كانت ولا تزال وستظل الهدف الأسمى من رسالة الإسلام .

وما كان طريق هذه الرسالة ، منذ البدء ، سهلاً ميسوراً ، فقد لقى الرسول والذين آمنوا معه كثيراً من أذى الكفار والمشركين والمنافقين ، ولكنهم صبروا ، وصابروا ، واعتصموا بحبل الله ، فأيدهم بنصر من عنده ، لأنهم لم يتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين . ولأنهم يوفون بعهدهم ، ولا ينقضون الميثاق ، ولأنهم يصلون ما أمر الله أن يوصل . يخشون ربهم ، ويخافون سوء الحساب .

هؤلاء هم المؤمنون حقاً . هؤلاء هم جنود الرحمة . هؤلاء هم قاعدة البناء . هؤلاء هم الذين يعوّل عليهم فى تحقيق الرسالة ، وإشاعة الرحمة ، وتحقيق العدالة ، وإقامة خير أمة ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر .

وإننا لنعجب الآن ممن يطلبون الرحمة ممن لم يرحموا الأمة . .

كيف يمكن أن يكون هذا ؟

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ، وَلَوْ كَانُوا أُولِى قُرْبَى ، مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الجَحِيمِ . وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ ، إلاَّ عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ، فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ للهِ تَبَرَّأَ مِنْه) .

هذه هى القدوة يا دعاة الإسلام فى مجال التفرقة بين المؤمنين ، وبين الكافرين والمشركين .

إننا ننادى الآن بثورة اجتماعية .. ننادى بالعدالة لمن فقدوا العدالة . ننادى بالحياة لمن تقطعت بهم أسباب الحياة . ننادى بالرحمة الشاملة الواعية للمعذبين فى هذا الوطن . ننادى بتطبيق شريعة الله .

(هُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِى الأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَر فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ) .

سوف يسأل كل منكم عن علمه كيف عمل به . سوف يسأل كل منكم عن رسالته كيف أبلغها . سوف يسأل كل منكم عن النور الذى يحمله كم من الناس استضاء به .

إننا الآن فى مجال تنظيم الصفوف ، وما كانت دعوة الرحمة إلا دعوة اتحاد وتعاون ، ومن خرج على هذه الدعوة ، فهو أنانى مشكك وظالم لنفسه وللناس ، ولا يأكل الذئب من الغنم إلا القاصية .

فلا عجب إذا وجدنا بين الصفوف من يرون فى تطبيق العدالة خطراً عليهم ، ولاعجب إذا وجدنا فى مجموع الأمة نفراً كارهين لتحقيق الرحمة ، فهكذا كان شأن الكفار والمنافقين مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ... وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا ، وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ ، قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ) .

ليس هذا فقط ، بل كانوا يبعثرون الأموال لشراء ذوى النفوس الضعيفة .

(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، فَسَيُنْفِقُونَهَا ، ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبُونَ) .

(إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا ، فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ، ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِى كُلِّ مَرَّةٍ) .

(سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ.

خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ، وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ، وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ) .

تلك حدود الله ، كشف بها أعداء دينه ، والخارجين على شريعته ، وجعلهم شر الدواب ، يؤمنون بالباطل . ويكفرون بالله ، لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم .

أيها الإخوة الدعاة .

إن الله قد امتحن المؤمنين ، منذ بعث فيهم رسولا منهم . ابتلاهم بالكفار والمشركين ، وأمرهم بحربهم ، ونصرهم عليهم .

ثم ابتلاهم بطائفة المنافقين . أولئك الذين كانوا أخطر على الأمة من الكفار ومن المشركين .

وما تزال الأمة حتى اليوم مصابة بمثل هؤلاء .

(وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ، كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ . يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ، هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .

وكلنا يذكر أيها الإخوة قصة عبد الله بن أبىّ كبير المنافقين فى المدينة .

لقد كان هذا الرجل سيداً فى قومه ، بل كان ملكاً على المدينة قبل أن يدخلها الإسلام . قام فى وجه الدعوة أول الأمر ، فلما هاجر النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، ووجد ابن أبىّ نفسه أمام قوة لا تغلب ، أعلن إسلامه ، واعتزم أن يهدم من الداخل .

رأى المسلمين جمهرة قوية عزيزة مؤمنة ، تؤدى الفرائض ، وتتحرك للفتح من مسجد قباء بالمدينة .

وقد أقام عبد الله بن أبىّ وجماعة المنافقين مسجداً بجواره ، وبعثوا بنفر منهم إلى رسول الله يقولون له : إننا قد بنينا مسجداً يرعى ذى العلة ، ويساعد صاحب الحاجة ، ويأوى شريد الليلة المظلمة ، والمستجير من برد الشتاء . ونحب أن تصلى لنا فيه وتباركه .

فقال النبي : إنى على جناح سفر ، وحال شغل ، وإذا قدمنا إن شاء الله صلينا فيه .

فلما رجع النبي من غزوة تبوك ، هم بفتح المسجد . فناداه جبريل بالآيات البينات :

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلاَّ الْحُسْنَى وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لاَ تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ، لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى « يعنى مسجد قباء » مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ ، أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا ، وَاللهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ . أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوانٍ خَيْرٌ ، أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِى نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

هنا دعا النبي بعض صحابته من المجاهدين ، وقال انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدموه ، ثم أحرقوه .

فانطلق الرجال المؤمنون إلى مسجد المؤامرات والفتن ، فهدموه ، وأحرقوه ، وفر أهله منه . وانكشف عبد الله بن أبيّ وأتباعه ، وتطهرت صفوف المؤمنين من المنافقين الذين قضى عليهم بأن يكونوا فى الدرك الأسفل من النار .

وهكذا أيها الإخوة . يوضح لنا الإسلام معادن الناس فى ثلاثة :

المؤمن وهو المواطن الصالح الذى يعرف ربه ، ويعرف وطنه ، ويعرف أنه يستمد عزته من عزة الله .

والكافر هو العدو لذلك كله ، الخارج على الدين والقانون والنظام . يستوى فى ذلك المقيم والوافد .

والمنافق وهو أشد خطراً من الكافر ، لأنه ينتسب إلى الدين رياء ، ويتمسح بالإيمان خداعاً

(وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ) .

وهكذا ترون معى أن انتشار دعوة الرحمة لم يكن بالأمر السهل ، وأن العقبات والصعوبات لم تكن فى الإمكانيات ، بقدر ما كانت فى النفوس . كانت صراعاً بين الحق والباطل . كانت حرباً بين الإيمان والكفر والشرك والنفاق . ثم نصر الله عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

انتصرت عقيدة الإيمان ، وتخطت جميع العقبات ، وحطمت جميع الصعاب ، لأن الرحمة كانت الهدف ، ولأن الرحمة كانت الغاية ، هدف الدعوة ، وغاية الرسالة ، الرسالة التى هى أمانتكم . والدعوة التى هى عملكم .

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً) .

أكتب هذا وأدعوكم إلى أن تزيدوا الناس معرفة بدينهم ، وبقوة عقيدتهم ، وبكل حقوقهم . أدعوكم أن تنشطوا إلى تحويل المساجد إلى مراكز للإشعاع ، ولا يكفى فقط أن تقام فيها صلاة ، فقد شرعت الجماعة لتوحيد الصفوف ، وتنقية الصدور ، وتوعية المؤمنين بكيد الكافرين والمنافقين ومن يسعون بينهم بالدس ، والهمس الجبان .

إن دعوة الثورة الاجتماعية هى الدعوة إلى الرحمة .

ومن يخرج على هذه الدعوة ، أو يحاول التشكيك فيها ، فهو خارج على وحدة الأمة . فاكشفوهم حيث وجدتموهم ، إنهم أعداء الشعب وأعداء الدين . فإن من يقف فى سبيل العدل يدافع عن الظلم . ومن يقف فى سبيل الكفاية إنما يعمل على إشاعة الفقر . ومن يحاول تفرقة الكلمة ، فإنما يفتح الطريق أمام الحزبية ، والرجعية ، والانتهازية ، والأنانية ، وكلها مرادفات للشرك والنفاق والضلال .

لقد أردت بهذه الخواطر أن أضع أمامكم صورة لتنظيم القوى الشعبية فى مفهوم الإسلام . فقد انتشر هذا الدين القيم بقوة الإيمان ، وداس فى طريقه قوى الكفر والشرك والنفاق ، لكى تسود الرحمة فى هذه الأرض . والرحمة كما قدمت هى جوهر الرسالة ، فاجعلوها قبلة أعينكم . ولتكن المساجد منذ اليوم أوعية للنور ، وأدوات لترجيح كفة المؤمنين ، وعزل الكفار والمنافقين ، حتى لاتكون فى بناء هذه الأمة ثغرة ، وحتى يستقيم الأمر فى حياتنا ، على شريعة العدل شريعة الله .

هذا هو دعاء الثورة منذ قامت . أسست بنيانها على تقوى من الله . تعمل ما وسعها العمل على تخليص هذا الشعب ممن أفسدوا عليه إيمانه ، وممن زلزلوا عقيدته ، وممن حكموه بالباطل ، وممن حرموه حق الحياة ، وممن أذلوه وهو العزيز بأمر الله .

تحت راية القرآن

إنه الشوق إلى البيت العتيق . . والشوق إلى زيارة الروضة الشريفة . . شوق يأخذ بقلب كل من حج واعتمر وزار . . كلما أقبل موسم الحج كل عام . . وتكاد تنقله الذكريات إلى الكعبة وعرفات والمناسك . . وذلك المرعى الخصيب لكل قلب مضىء .

وسط هذه الموجة من الذكريات التى جرفتنى طول موسم الحج الأخير ، عدت مع الأحداث إلى موسم عام ١٩٥٤ ، وقد كنت فيه من حجاج بيت الله الحرام ، وأذكر أننى قد رأيت فى طريقى بين مكة ومنى ، جبلا عظيماً استحوذ على كل مشاعرى، وكلما سرت بجواره شعرت بأنه يجذبنى إليه . . حتى جاء اليوم الذى صعدت فيه هذا الجبل الشاهق (جبل النور) هذا الجبل الذى طالما تشرف بصعود سيد البشر وخاتم الأنبياء . . صعدته لكى أستوحى هذا المكان الطاهر — غار حراء القائم حتى الآن فى قمة جبل النور — صعدت إلى هذا الغار أستوحيه فكراً يقربنى من ربى ويحببه .

فلما كنت فى داخل الغار المبارك . رأيت مكة على سطح الأرض صغيرة كأنها خريطة ، وتصورت حينما كانت تشرق الشمس على مكة ، كانت تشرق أولا على هذا الغار العالى ، تبشر أم القرى بمولد فجر جديد ودين جديد .

وطافت بذهنى يومها صور اعتكاف رسول الله وتعبده الأيام والليالى الطوال ، حتى صفت روحه ، وأشرقت نفسه ، وجعله التأمل لروحى على الموجة المناسبة للاستقبال العظيم . .

استقبال رسالة الرحمة للعالمين .

وذكرت يومها كيف ترددت فوق جبل النور أصداء الوحي الأول ، حينما جاء به جبريل إلى محمد فى هذا الغار ، وأخذه بكل شدة وعنف ، وراح يضمه إلى صدره ويضغطه حتى كاد قاب النبي أن ينخلع . . ذلك لكى يحس بأنه أمام حدث كبير وخطير ، حدث ليس بالهين أو اليسير ، وإنما هو القرآن العظيم ، دستور بناء البشرية وميثاق الرحمة للعالمين .

إن هذا الحدث الضخم الذى هز مشاعر النبي وارتجف له قلبه ، ليطرح نفسه بيننا اليوم . ونحن نعيش هذه الشدة ، نعيش أحداثاً هزتنا هزاً عنيفاً ، وزلزلتنا زلزالا شديداً ، لكى نتأسى برسول الله ولكى نشعر بحاجتنا إلى صدق الإيمان بالله ، ولكى نذكر موقفنا فى المعركة ، يوم خرجنا فى العاشر من يونيو ١٩٦٧ وقلنا لجمال عبد الناصر رحمه الله : إنك أنت القائد . . أنت الرائد . . لا أحد غيرك ، ونحن من خلفك. والله غايتك وغايتنا ، فهو الذى جمع من حولنا كل الخلائق ليس فى الوطن العربى فحسب ، بل فى الوطن الإسلامى كله .

لقد أحسسنا منذ وقوع العدوان الصهيونى الاستعمارى على أرضنا المقدسة فى الخامس من يونيو ١٩٦٧ ، أننا مطالبون بالثبات فى الشدة ، مطالبون بحشد كل قوانا السياسية والاقتصادية والعسكرية . . وأحسسنا أكثر من هذا كله ، وقبل هذا كله ، بحاجتنا إلى تعبئة قوانا الروحية ، فإن قوانا الروحية لا يمكن أبداً أن تغلب ، وإن عزتنا الإسلامية – بحق القرآن – لا يمكن أبداً أن تهون .

كل ما نحتاج إليه هو أن نتدبر أمرنا مع القرآن ، هذه الثروة التى لا تعد لها ثروة ، نريد أن نتدبر ماذا يمكن للقرآن أن يصنعه ، وهو بين أيدينا رسالة ، وهو فى أعناقنا أمانة .

كل ما نحتاج إليه هو أن نعرف كيف نجنى ثمرات القرآن ، وهى ليست فى الترتيل والتطريب ، ولكنه التشريع الأمثل ، وهو التصميم المنزل لقواعد راسخة من العلم ، يبنى بها أمة القرآن ، صامدة لاتلين ، جادة لاتهزل ، أمة تعرف طريقها إلى الله ، فلا تضل أبداً .

(الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ) .

والقرآن ميثاق الرحمة للعالمين ، أنزله على قلب نبى الرحمة ، نوراً وهدى وشفاء ، وهو كتاب الله سبحانه القائل لنبيه .

(إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً) .

وهو سبحانه القائل للناس :

(لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآن عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ) .

وهو جلت حكمته الذى علم القرآن لمحمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وانتقل صلوات الله وسلامه عليه إلى الرفيق الأعلى ، بعد أن أبلغ الرسالة وأدى الأمانة . . فكيف الطريق إلى مواصلة التبليغ وأداء الأمانة ؟ يجيب القرآن :

(خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ) .

وما دامت للإنسان قدرة على البيان والإفصاح فرسالة الرحمة ستجد من يبلغها ، وأمانة القرآن ستجد من يؤديها . حتى يرث الله الأرض ومن عليها . .

ولكن هذا الإنسان مطالب بمعرفة دوره فى الحياة . . مطالب بمعرفة

واجبه كمسلم ومؤمن . . مطالب بأن يعرف أن دينه دين الجهاد . . الجهاد المتواصل من أجل تحقيق الرحمة بالفرد ، والرحمة بالمجتمع والرحمة بالبشرية .

والجهاد من أجل تحقيق الرحمة للناس كافة ، يتطلب إعداد الأفراد المجاهدين ، والمجتمعات الصادقة الإيمان ، والبشر الذين باعوا أنفسهم وأموالهم له .

إنني ما ادعيت يوماً أنني من علماء الإسلام ، ولا من فقهاء هذا الدين ، ولكنى أتحدث كمسلم من واقع حى ، ألمسه فى عقيدتى وتصورى .

إننى أومن بأن الجهاد هو الركن السادس فى الإسلام . . فقد كتب الله علينا القتال كما كتب علينا الصيام ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والحج ، وكلها فرائض تعد الأجيال لحمل الرسالة وأداء الأمانة .

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

كيف نسمع أو نقرأ هذه الآية ثم لانخشع ، ثم لانشعر بالرهبة ، هذه المسئولية ، مسئولية القرآن التى تتصدع أمامها الجبال ؟

لنتدبر أمرنا مع القرآن الكريم فى موقف نجعله مثلا . . لننظر موقف القرآن من المجتمعات الظالمة . . إنه يقول :

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا) .

لماذا ؟

إنه سبحانه يجسم معنى الظلم والتناقض فى نفس الآية :

(وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ) .

كيف تكون هناك عدالة أو رحمة ، وهناك قصر مشيد ، وبجانبه بئر معطلة ؟

الماء . . ألزم ما يكون لحياة الإنسان . . نضب معينه . . وأين ؟ . بجواره هذا القصر المشيد . . كيف يستقيم الأمر ؟

إن الله تعالى يريد أن يبين لأمة القرآن أن الإسلام فى حقيقته وجوهره دين اجتماعى . فإن تصور أحد أنه بصلاته وصيامه قد وجد طريقه إلى الجنة ، فهذا إسلام ناقص ، وإسلام عاجز ، ولابد أن يكتمل هذا الدين بتطبيقه الاجتماعى ، وذلك الذى يجعل من الفرد المسلم قوة وسنداً لأخيه المسلم ، فإذا كانت الحرب فكلهم إخوة فى الميدان ، وإن كان الجهاد فكلهم صف واحد ، لايتصورون الجهاد وقفاً على فرد أو جماعة ، وإنما يعنى جميع المسلمين فى ديار الإسلام . . وبهذا لاتستطيع أية قوة مهما كبرت ، أن تفت فى عضد المسلمين ، أو تنال من عزة العرب ، فإذا عز العرب عز الإسلام . وإذا ذل العرب ذل الإسلام .

وإننا لنعلنها من هنا ، من قاهرة المعز ، عالية مدوية ، أنه لن تقف فى طريقنا قوة ، إذا نحن أعلينا راية القرآن ، وتخلقنا بخلق القرآن ، ودعونا العالمين إلى القرآن ، وكنا جديرين بحمل رسالة القرآن .

علينا فقط أن نعود إلى قرآننا ، وإلى أحكام ديننا لندرك أنه خطة البناء لافضل مجتمع . . أمة الصدارة خير أمة أخرجت للناس .

ولذلك أعتقد أن علينا فى الأزهر مهمة كبرى ، هى قيادة الدعوة إلى القرآن ، وتنسيق جهود المنظمات الإسلامية فى هذا الميدان ، على الأزهر أن ينقل إلى الناس أحداث وأسباب نزول القرآن . . لكى

ننفعل فى كل موقف الانفعال الواجب ، الذى دعاه المسلمون الأوائل ، حينما نزل عليهم القرآن ، مجيباً على كل سؤال ، ومقدماً الحل لكل مشكلة ، فكان ذلك الانفعال . بل كان الإيمان الذى هد الجبال .

كان ذلك الإيمان الذى جعل فئة قليلة من المؤمنين ، تنطلق انطلاقاً الصواريخ ، فتفتح الأمصار وتمد رقعة الإسلام إلى أطراف الأرض ، حتى ارتفعت من الأندلس إلى الصين راية التوحيد ، وحتى أصبح تعداد المسلمين اليوم سبعمائة مليون أو يزيدون .

كلهم سيكونون معنا فى المعركة ، لو أعلينا ذكر القرآن ، وتخلقنا بخلق القرآن ، وكنا جديرين بحمل أمانة القرآن .

خاتمة

دعـاء النصـر

(سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِى بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .

إن حادث الإسراء والمعراج ، ليس أمراً عادياً ينحصر أثره فى زمان أو مكان ، ولكنه قبس يهتدى به الإنسان على مر العصور والأجيال ، فقد ربط بين الإسلام وبين الرسالات السابقة ، فى وحدة عقائدية لاتنفصم عراها أبداً . فقد كان إيذاناً بأن رسل الله جميعاً إخوة صدق ، أقاموا فى الأرض موازين الحق ، ونشروا فى دنيا الناس العدل والخير والمحبة والسلام .

(رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ ، لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

حادث الإسراء والمعراج يؤكد أن الأنبياء جميعاً بناة بيت واحد ، يضع آخر لبنة فيه أشرف وخاتم الأنبياء ، صاحب هذه الذكرى . . وهذه الذكرى تجدد ، فينا حكمة الله فى الرسالات — وإن اختلفت الأزمان وتعددت الرسل — فهى واحدة فى دعوتها وغايتها ، جاء الرسل

لتبليغها ، وليرفعوا جميعاً علم التوحيد والإيمان ، فوق بيوت أذن الله أن ترفع ليذكر فيها اسمه ، ومنازل للوحي لا بد من تطهيرها من بذور الشرك والوثنية والفساد والطغيان .

وإذا كان على المسلمين تطهير المسجد الحرام ، فإن المسجد الأقصى كذلك واجب تطهيره من كل ما تأباه الرسالات الإلهية ولا يرضى عنه الله، ولقد كان لذلك أثره فى قلوب المسلمين فامتلأت بحبه ، وامتد ذلك إلى جميع الآثار الدينية من حوله .

فعمر بن الخطاب خليفة المسلمين ، كتب لأهل « القدس » من النصارى عهداً يلزم به من يخلفه من بعده ، وهو ألا تمس كنائسهم، ولا ينتقص منها ، كما يقضى بالمحافظة على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم.

وحينما أدركته الصلاة وهو فى الكنيسة قال : أين أصلى ؟ فقيل له « صل مكانك »، فقال رضى الله عنه : « ما كان لى أن أصلى ههنا فيتخذ المسلمون من بعدى هذا المكان مسجداً » .

والتاريخ لم يعرف عن العرب تعصباً ، وإنما كان شعارهم التسامح والمحبة إلا إذا اعتدى عليهم معتد، أوعدا على أرضهم غاصب ، فحينئذ يحتم عليهم الشرف الإنسانى وقضية: الدفاع عن السلام والحرية ، أن يردوا الاعتداء، ولا يتركوا لسياسة القوة أن تعيث فى الأرض فساداً ، أو تقلب الباطل حقاً ، وتحيل الظلم عدلا :

(فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ) .

هذه دعوة الإيمان التى تتمثل فى حياة الأفراد والأمم : سلوكاً وعملا ، وقولا وفعلا ، وقوة فى الحق وتضحية وبذلا .

والمؤمنون حقاً هم أصحاب الهمم العالية ، والعزائم القوية والأيدى البناءة، هم أصحاب القلوب الواثقة. هم الذين يحملون أعباء الحياة بشرف وأمانة ، فلا يعتورهم ضعف ، ولا يتطرق إليهم وهن :

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) .

والمسلمون اليوم تكتوى قلوبهم بأنباء ما يجرى فى المسجد الأقصى ، وكيف استباح الصهاينة حماه ، وانتهكوا حرماته ، وعبثوا بمقدساته ، وسفكوا من حوله الدماء ، وقتلوا الأبرياء ، كما قتلوا من قبلهم الأنبياء ، ونكلوا بالأطفال والشيوخ والنساء بغياً وعدواناً وزوراً وبهتاناً .

كما يؤمن المسلمون تمام الإيمان أنه أمانة فى أعناقهم وجوهرة غالية فى تاريخهم ، تربط الماضى بالحاضر والأمس باليوم ، وهم مسئولون عنه ، وعن تطهيره من رجس الآثمين .

والأمة التى تحمى مقدساتها وتذود عنها ، أمة ذات عقيدة ومبادئ ، تحيا من أجلها ، وتجاهد فى سبيلها على هدى من ربها ، وثقة فى عون الله لها .

قال تعالى :

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) .

والرسول صلى الله عليه وسلم يعلن : « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف » .

والعدو الذى يواجهه المسلمون والعرب عدو ماكر غادر حاقد فاجر، عاش على مر التاريخ متنكراً لكل المبادئ والقيم ، كافراً بجميع العهود والمواثيق ، لاتجمعه جامعة ، ولا تضمه رابطة ، ومن أجل ذلك يصطنع المبادئ التى يجتمع من حولها ، ويغرى بالخديعة والتآمر على مساعدتها ومساندتها .

لقد عاش دهراً طويلا ينشد الاستقرار حتى وجده فى فلسطين فى ظل سماحة الإسلام والمسلمين ، فهل حفظ الجميل ، وشكر المعروف، لقد كان كالأفعى، متى شعرت بالدفء ودبت فى أوصالها الحركة ، أسرعت تنفث السم لتهلك من حولها ، وتفتك بأقرب الناس منها ، وكانت الضحية فى ذلك كله فلسطين بمساندة قوى المستعمر الأثيم !.

إن القوى التى تساند إسرائيل لاتساندها إيمانا بها أو اقتناعاً بمبادئها ، وإنما تساندها طمعاً فى أصواتها ، وتطلعاً إلى دعاياتها ومالها ، واستخداماً لها فى مخططاتهم الاستعمارية الباغية ، والمال والدعاية هما وسيلتا الصهيونية العالمية فى التأثير على القوى المتخاذلة التى لا تملك من أمرها شيئاً ، ولاسبيل لها إلا أن تنافق الصهاينة فى مخططاتهم وفى وسائلهم السرية التى تعتمد على جمع المال سيطرة ، وعلى التحكم فى الدعاية سبيلا لطمس الحقيقة والحق .

وإننا لانتصور أبداً أن القوى المساندة لإسرائيل تنتصر لكل ذلك إلا نفاقاً ورياء وتصوراً قاصراً عن إدراك حقيقة .

وفى هذا يصور الله سبحانه وتعالى موقف المساندة والنفاق عندما يقرر فى سورة الحشر فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا

نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ) .

فى هذا اليوم المبارك نبشر بأن نصر الله قريب ، وهذه البشرى لاتستند إلى عاطفة متفائلة ، ولا إلى وعد من الله فحسب ، ولكن يؤكدها الواقع حين نتجه فى كفاحنا ونضالنا إلى الله عزوجل ، نعده وعداً بأننا سنكون عند عهده : المؤمنين به ، الواثقين فيه ، المتوكلين عليه ، نعمل العمل الصالح ، ونعد ونستعد كما أمر ، وننصره كما أمر ، ونعمل بإيمان كما أمر ، وبذلك وحده يكون نصره بأسبابه ، ومساندته لقاء عملنا ، ووعده بقدر التزامنا .

وهذه البشرى عندما نبشر بها يتضح لأولئك الذين يساندون إسرائيل ضلال سعيهم وإفك مسعاهم ، لما يلمسون من تضامن العرب والمسلمين ، والتزامهم بالصبر والصلاة ، وعملهم الدائب من أجل تحرير أرضهم ، واستعادة حقهم وإعادة مسجدهم ، لتعلو من فوقه شهادة أن لا إله الله ، ويولى المنافقون الأدبار ، وتلقى إسرائيل حسابها العادل ، وعندئذ يفرح المؤمنون بنصر الله .

« يارب . . يا من نتوكل عليك ، ويا من نثق فيك ونتجه إليك . . بحق هذه الذكرى وبحقك ، يا من أسريت بعبدك ليلا إلى المسجد الأقصى ، نستعين بذاتك العلية ونتجه إلى عزتك وقدرتك المتعالية ، فأنت القاهر فوق عبادك ، وأنت الرحمن الرحيم .

أنت إلهنا لا إله إلا أنت إذا قضيت أمراً فإنما تقول له كن فيكون فلمن تكلنا ونحن عبادك وحملة قرآنك وأمتك التى قلت فيها :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ) .

لمن تكلنا، ألأولئك الذين قتلوا الأنبياء بغير حق، وكفروا بكتابك وأنبيائك : فإليك نلجأ أن توفقنا لطاعتك والعمل والجهاد فى سبيلك ، حتى نكون أهلا لنصرك ، وأن ترفع عنا الغمة ، وأن تنصر هذه الأمة ، وأن تكون ولينا ، فأنت نعم المولى ونعم النصير .

* * *

وإنى إذ أختتم هذه الخواطر التى عنت لى بمناسبة مولد الرسول أعود فأذكر الآية الكريمة :

(... وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ ، تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ) .

* * *

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . . وأدعوه سبحانه أن يهب لنا من لدنه رحمة ، ويهيئ لنا من أمرنا رشداً ، وأرجو الله لنا ولكم التوفيق والسداد والعمل الإيجابى فى خدمة الإسلام دين القوة البناءة ، ودستور الرحمة للعالمين .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ٣٠٨٧ / ١٩٧١

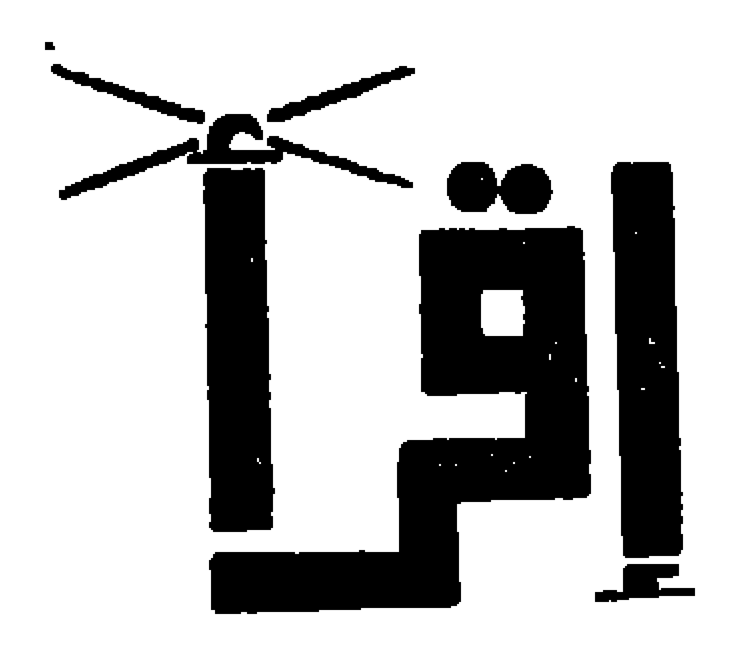
مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١



غالي شكري

صراع الأجيال في الأدب المعاصر

لبنان ١٠٠ ق . ل	سوريا ١٠٠ ق . س	الأردن ١٠٠ ف . أ
العراق ـ الكويت ١٠٠ ف .ع	الخليج العربي ١٥٠ ف	السعودية ٢ ريال
عدن ٣,٥ شلن	السودان ١٢٠ مليما	ليبيا ١٥ قرشاً
تونس ٢٠٠ مليم	الجزائر ٢,٢٥ دينار	المغرب ٢,٢٥ درهم



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان



بأسلوب اليوم وتفكير الغد

غالي شكري

صراع الأجيال
في الأدب المعاصر

اقرأ ٣٤٢
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٢ — يونيه سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

القسم الأول

الموجة الجديدة . . وصراع الأجيال

لو أن الآداب والفنون توقفت عند حدود التسجيل التاريخي لما يجرى فى العالم من أحداث ، لما تجاوزت كونها مجموعة من « الوثائق » الاجتماعية التى يرجع إليها المؤرخون فى شيء كبير من الحذر ذلك أنها لا تقوم بحال مكان الوثائق العلمية الممحصة ، وإنما أقصى ما تستطيعه هو أن تقدم « المناخ » التاريخى للحدث برائحته التى يجيد الفنان بحاسة الشم الإبداعية أن يشيعها بين جنبات « الوثيقة الفنية » التى عكس فيها المجتمع والإنسان والتاريخ . ولكن الآداب والفنون لا تتوقف لحسن الحظ عند حدود التسجيل التاريخى ، ولا تكتفى بأن تعكس الواقع الاجتماعى ، وإنما هى فى أحيان كثيرة ، وبخاصة عند نقاط التحول الخطيرة فى حياة الإنسان ترتفع إلى مستوى النبوءة ، أو على أقل تقدير يتحول العمل الفنى إلى ما يشبه الرادار يلتقط الظواهر البعيدة عن مستوى البصر المألوف . هكذا كان دور شكسبير عندما حطم الوحدات الأرسطية الثلاث ، وهكذا كان دور سرفانتس عندما أبدع الشكل الروائى الحديث . . لم يكن هذا الدور أو ذاك مجرد ثورة تكنيكية ، بل كان يرهص بثورة إنسان عصر النهضة على أغلال القرون الوسطى . وهكذا أيضا أقبلت الثورة الرومانتيكية تعبيراً عن الأزمة الحادة بين الفرد والمجتمع فى ظل الرأسمالية الوليدة . وكذلك أقبلت الثورة الواقعية توجز فى شكلها ومضمونها أزمة المجتمع الرأسمالى ، فجاءت القتامة التى عرفناها فى بلزاك وفلوبير وزولا على اختلاف اتجاهاتهم « الواقعية » بمثابة المؤشر الذى لا يخطئ إلى « الطريق المسدود » الذى انتهت إليه الحضارة

البرجوازية . وعندما أقبلت التعبيرية والرمزية والدادية والسوريالية والمستقبلية لم تكن سوى جولات يائسة فى دهاليز الطريق المسدود ومنعطفاته المظلمة مؤكدة من جديد أن لابد من « طريق جديد » . وكانت الحرب الأولى قد لخصت بعمق دام تجربة الإنسان الرأسمالى ، وجاءت الحرب الثانية لتفسح الطريق أمام الإنسان الجديد ، إنسان ما بين الحربين الذى أعلنت ميلاده ثورة أكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧ ، سواء كان هذا الإنسان يعيش فى ظل دولة الثورة أو خارجها . على أن الحرب إذا كانت قد أفسحت الطريق أمام الإنسان الجديد ، فإنها فى الوقت نفسه قد تمخضت عن الكثير من المشكلات التى لم تجسمها بحار الدم وملايين القبور المجهولة .

وتعد الوجودية سواء كانت فلسفة كما يحب أن يسميها المؤيدون أو حالة نفسية كما يرغب فى تسميتها المعارضون ، أبرز تيارات الفكر الأوربى التى صاغت « المصير الإنسانى » بعد الحرب على ضوء — أو ظلام — الدمار الذى شهده الجيل الغربى فيما بين الثلاثينات والأربعينات من هذا القرن . ويميل الكاتب الأمريكى والتركوفمان إلى أن جذور الوجودية تمتد إلى تلك الأعمال « العبقرية » التى كتبها دستويفسكى [١] . ذلك أن « الجريمة والعقاب » و « الإخوة كارامازوف » وغيرهما من روايات الكاتب الروسى تحمل بذور التمزق الذى عانت منه الحضارة الروسية قبل الثورة ، وهو التمزق الروحى العميق الذى عرفته روسيا بدخولها المفاجئ خضم الحضارة الغربية . . فقد أدى شيوع الأفكار الفوضوية والثورية إلى ذلك الاضطراب الهائل الذى التقط دوستويفسكى ذبذباته معلنا بالرغم من كل شىء « بداية عصر جديد » ، ولم تكن

---

(١) راجع كتاب « الوجودية من دستويفسكى إلى سارتر » — الطبعة الإنجليزية — الطبعة السادسة — ١٩٥٨ .

أعماله سوى « روح هذا العصر » . على أن الثورة الاشتراكية قد هيأت للروح الروسية مساراً مختلفا عن مسار الروح الغربية فى أوربا وأمريكا .. ويكاد مارسيل بروست أن يكون فى «بحثه عن الزمان الضائع » صاحب الرؤيا الأولى التى تكاملت على نحو من الأنحاء فى « يولسيز » لجيمس جويس ، رؤيا « انهيار الغرب » كما أسماها شبنجلر . وهى « القضية » التى تخصص لها فرانز كافكا فى روايته الرائدة « المحاكمة » ، فقد اتسمت هذه الرواية بالشمول الذى أصبح فيما بعد من أهم سمات « الرواية الجديدة » . وكانت الخلاصة المركزة التى أتى بها كافكا هى أنه على الرغم من أن الإنسان قد جاء إلى هذه الدنيا بغير أن يستشيره أحد فى هذا المجىء ، فإنه يعيش حياته « متهماً » بوجوده نفسه ، متهما فى قضية لا يعرف عنها شيئا . ولم تخرج قصة «الغثيان » لسارتر ولا كتاباته النظرية عن هذا المعنى ، وبخاصة فى كتابه المبكر « الوجود والعدم » . . حتى إذا جاء ألبير كامى فى روايته « الغريب » كان الشكل الوجودى للرواية — إن جاز التعبير — قد استنفد أغراضه فى تجسيد عبث الوجود الإنسانى ، فبالرغم من المكتسبات التكنيكية التى أدخلها هذا الشكل منذ توغل دستويفسكى فى طوايا النفس البشرية ، وتمكن بروست من خلخلة الزمن الروائى التقليدى ، واستطاع جويس وفرجينا وولف أن يدخلا تيار الشعور إلى نسيج الشخصية الروائية — بالرغم من ذلك كله لم تفلت الرواية الغربية من قيود البناء الكلاسيكى العامة ، لأنها لم تفلت أصلا من قيود الرؤيا السائدة على الإنسان الغربى آنذاك . . وهى القيود التى تستلزم وجود شخصية وحدث وجوداً حتميا لا فرار منه .

حقاً لقد تغيرت « الشخصية » فى أدب القرن العشرين عما كانت عليه فى القرن السابق ، فأصبحت شخصية لها بعدها الداخلى والخارجى معاً وكذلك الحدث لم يعد ذلك الواقع الموضوعى المحدد بالزمان والمكان ، بل هناك إلى جانب ذلك الحدث النفسى ومآزق روحية وعذابات مريرة

تعانيها الذات البشرية من هول فقدانها « الإيمان» الذى هزه من الأعماق سقوط الأعمدة الفكرية التى حملت البناء البرجوازى أمداً طويلا . . فلما هبت رياح الحرب « ولم يكن هذا البيت مؤسساً على الصخر سقط ، وكان سقوطه عظيما » كما يصف بعض النقاد — بهذه الاستعارة من الإنجيل — ماحدث لأوربا غداة الحرب العالمية الثانية . فإذا كانت ألمانيا قد منيت بهزيمة عسكرية ماحقة ، فإن أوربا الغربية بأسرها قد منيت بهزيمة « روحية » بعيدة المدى . . إذ لم تكن الفاشية أو النازية إلا تتويجا طبيعيا للنظام الرأسمالى بأكمله . هذه الحقيقة المرة هى التى شكلت رؤيا جيل ما بعد الحرب بأحلك الظلمات سواداً .

ولما تسنى لقطاع من هذا الجيل أن يرى فى إنسان ثورة أكتوبر بديلا للإنسان النيتشوى المهزوم — والذى يمكن أن يبعث من جديد إذا ترك الثور الرأسمالى طليقاً — فإن هذا القطاع انقسم بدورة إلى شطرين: أحدهما تبنى الرؤيا الاشتراكية فى بكارتها الأولى بتحفظ كبير على التطبيق الستالينى ، والآخر عاد مهرولا خائب الأمل يائساً على إثر رؤيته معسكرات الاعتقال ، فلم يعد يميز بين الاشتراكية والنازية مثل ألبير كامى . لهذا كان الجيل الجديد من كتاب الغرب أقرب إلى «غثيان» سارتر و « غريب » كامى من ناحية المضمون ، وهما من بواكير الأعمال التى « جردت » الوجود الاجتماعى فى منطوق نظرى محدد هو العبث واللامعقول ، عبث الوجود الأشمل ولا معقولية الكينونة المحكوم عليها مقدماً بالزوال . على أن المصدر الاجتماعى المباشر لهذا الإحساس العميق بالعبث ظل قائماً فى أعمال المدرسة الجديدة يعكس الأصول الموضوعية البعيدة لهذا الاتجاه فى الفكر والفن . وهى اليأس التام من النظام الذى يستظلون به ، والأمل الغامض فى نظام آخر لا يجدون له مثيلا فى العالم الواقعى ، فبالرغم من اليأس المخيم على الرؤيا الجديدة فإن « البديل » لا يلتمسونه فى مثال محدد .

ومن الضرورى القول بأن أدباء الرؤيا الجديدة الذين بدأت أسماؤهم تلمع فى الخمسينات لا ينتظمهم « تيار » موحد بالمعنى التقليدى ، فالرؤيا الجديدة نفسها تصل بهم إلى ذروة التفرد والتنوع الذى لا يتيح لهم الاجتماع حول مائدة واحدة . وإذا جاز لنا من قبيل « الإيضاح » أن نجمع بينهم تحت عناوين مثل « العبث » و « التجريبية » و « الطليعية » و « الموجة الجديدة » فإنه يتعين علينا أن نضع فى اعتبارنا هذه النقطة الرئيسية ، وهى أن هذه العناوين تبلغ من العمومية والتجريد حداً ينبغى الاعتراف معه بأنها إلى « المجاز » أقرب منها إلى التصوير الدقيق لتفاصيل هذه « الاتجاهات » الجديدة . وفى حدود هذا « المجاز » نقول إن الإطار الذى تتحرك فيه هذه « الموجات » الجديدة هو ما يمكن تسميته بصراع الأجيال . وفى هذا الإطار تختلف المدرسة الإنجليزية عن المدرسة الفرنسية ، وهما معا يختلفان عن المدرستين الأمريكية والألمانية. غير أن بداية الخمسينات لا تؤرخ لموجة جديدة فى الغرب وحده ، وإنما هى تؤرخ فى الوقت نفسه لموجة جديدة فى شرق أوربا والصين والاتحاد السوفييتى كذلك . فقد كان المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفييتى بمثابة نقطة التحول التاريخية بين عصرين فى تطور الفكر الاشتراكى انعكس بدوره بل تنبأت به « موجات جديدة » فى الآداب والفنون الاشتراكية . إن هذه الموجات الفكرية والفنية ، سواء فى الشرق أو الغرب كانت الإرهاصات الأولى التى تنبأت منذ حوالى عشرين عاماً بما تمور به الأرض هذه الأيام — شرقا وغربا — من أحداث جسام يقودها الشباب الذى تغذى روحيا بالفعل ورد الفعل على أفكار أدباء الطليعة على مدى جيل ، هذه الأحداث التى تؤثر بصورة مباشرة على خريطة العالم المعاصر ، فكرياً وسياسياً . ولعل التقارب الزمنى الذى يصل أحيانا إلى درجة المطابقة فى ظهور الموجات الأدبية الجديدة مع بداية الخمسينات بالشرق والغرب ، وفى اشتعال ثورات الشباب الراهنة بالشرق والغرب

يؤكد معنى الإطار الذى آثرنا صياغته منذ البداية فى تعبير « صراع الأجيال » . وحان لنا أن نضيف أنه « صراع عالمى » يكتسب هنا أسباباً تختلف عن أسبابه هناك ، ولكنه فى الجوهر ظاهرة عالمية خاصة بالعصر الذى نعيش فيه . وهكذا الأمر فى الأدب والفن ، فإن موجاته الجديدة هى فى الأصل موجة عالمية تعبر عن صراع الأجيال وروح العصر سواء عبر عنها « إدوارد ألبى » فى أمريكا متسائلا : « من يخاف فرجينيا ولف » ، أو عبر عنها « جون أوزبورن » فى إنجلترا آمراً : « انظر خلفك فى غضب » ، أو عبر عنها « دودنتسيف » فى الاتحاد السوفييتى نافياً : « ليس بالخبز وحده » .

اللوحة الغربية :

بالرغم من أن أكثر أدباء الطليعة الذين يكتبون بالفرنسية ليسوا فرنسيين ، فإن فرنسا تعد فى نظر الكثير من النقاد « البلد الأم » للاتجاهات التجريبية الحديثة . ذلك أنها كانت بلامنازع أولى المعامل الفنية للتجارب الطليعية ، وأنها كذلك صاحبة تراث عريق فى ثورات الأدب والفن . . فالشعر الفرنسى الذى كان خاضعا لمقولة فاليرى : « إن القصيدة ينبغى أن تكون عيداً من أعياد العقل » هو نفسه الذى ثار على هذه القاعدة حين قال بريتون : « ينبغى أن تكون القصيدة حطام العقل » ، أو كما عبر عن المعنى نفسه أراجون بصورة أفضل حين قال : « إن الشعر لا وجود له إلا بفضل الخلق الجديد المستمر للغة ، وذلك بتحطيم النسق اللغوى ، وتكسير قواعدها ، وتغيير ترتيبها المعتاد فى الكلام » . وتصل هذه الثورة إلى ذروتها المعاصرة فى « قصيدة النثر »

عند سان جون بيرس (١) .

والمسرح الفرنسي الذي كانت تتوزعه أصداء كورني وراسين وموليير من ناحية والمسرحيات الواقعية والرومانتيكية من ناحية أخرى هو نفسه المسرح الذي أثمر كاتباً مثل ألفريد جارى يكتب عند نهاية القرن التاسع عشر قائلا : « أردت أن تكون المنصة منذ رفع الستار عبارة عن مرآة أمام النظارة .. يرى فيها الرذيل نفسه وله قرنا ثور وجسم تنين بمقدار إفراطه فى رذائله » ؛ ثم يقول ليونارد كابل برونكو مؤرخ مسرح الطليعة بأنه ليس من المستغرب أن يستولى الذهول على الجمهور وهو يشاهد باطنه الدنىء الذى لم يكن قد تم عرضه أمامه كاملا . وهى مسرحية تتنبأ بالمستقبل ليس فقط لأنها تكهنت بمذبحة القرن العشرين وبعالم اليوم المقلوب رأسا على عقب ، وإنما أيضا لفقدان القيم كل معنى مطلق بحيث يمكن أن يؤخذ ظهر الشىء على أنه وجهه. والمسرح الفرنسى هو الذى أنبت كاتبا مثل أبولنير الذى يرى أن المسرح ينبغى ألا يكون فى خداع وتمويه ، فالكاتب المسرحى فى رأى أبولنير له حرية مطلقة إذ هو خالق عالمه وسيده :

« من العدل أن يجعل الجموع والأشياء الجامدة تتكلم
إذا راق له
وأن يغفل الزمان
وكذا المكان
إن عالمه هو مسرحيته
وفى داخلها هو الإله الخالق
الذى يرتب كما يشاء

---

(١) راجع مقال الدكتور عبد الغفار مكاوى « ثورة الشعر الحديث » بمجلة الفكر المعاصر — العدد ٢٧ مارس ١٩٦٨ .

الأصوات والإيماءات والحركات والكتل والألوان
لا فى سبيل غرض أوحد
هو تصوير ما يسمى شريحة من الحياة
بل ليتمكن من بعث الحياة نفسها بكل حقيقتها
لأن المسرحية يجب أن تكون عالما بأكمله مع خالقها
أى الطبيعة نفسها ، لا تمثيلا لجزء صغير فقط
مما يحيط بنا أو مما حدث ذات مرة » .

والمسرح الفرنسي أخيراً هو الذى أتاح لأنونتان أرتو أن يكتب ما عناه « بمسرح القسوة » الذى شرحه قائلا : « .. فبدون عنصر من عناصر القسوة فى أساس كل مشهد ، لا يمكن أن يكون هناك مسرح . وفى حالة الانحلال التى انحدرنا الآن إليها لا سبيل إلى إعادة إدخال الميتافيزيقا إلى أرواح الناس إلا عن طريق جلودهم » . ويعتقد أرتو أن الحوار هيهات أن يؤدى أغراض الميتافيزيقا لأن لغة الكلام كما تستخدم فى الغالب الأعم تقصر عن أى شىء أعمق من مجرد التشبيه ، وتختزل السر إلى مادة والمعنى إلى منطق . ويتخذ أرتو من مسرح جزيرة بالى الشعبي الصادر عن الشعائر مثله الأعلى فى التجسيد المسرحى ، وعن ذلك يقول : « مشهد مسرح بالى الذى يعتمد على الرقص والغناء والتمثيل الإيمائى — وقليل من لوازم المسرح كما نفهمه فى الغرب — يرد المسرح إلى قصده البدائى ، بمقتضى وسائل موغلة فى القدم أثبتت التجربة فاعليتها ، هذا المسرح الذى تعرضه كمزيج من تلك العناصر كلها وقد انصهرت معاً فى ضوء من الهذيان والخوف » (١) .

كان هذا التراث فى واقع الأمر يشكل مناخاً خصباً لتجربة الاتجاهات

---

(١) راجع كتاب « مسرح الطليعة » — ليونارد كابل برونكو - ترجمة يوسف إسكندر - دار الكتاب العربى بالقاهرة .

الجديدة التي بزغت في أوائل الخمسينات مع بواكير إنتاج يونسكو وبيكيت .
وقد أطلق يونسكو على مسرحيته الأولى « المغنية الصلعاء » (١٩٤٩)
اسم « المسرحية المضادة » ، وتحت هذا الاسم كتب « مأساة اللغة » .
والحق أن يونسكو قد اختار منذ الوهلة الأولى باباً خاصاً إلى عالم
« اللامعقول » : (ضلفته) الأولى هي اللغة ، و(ضلفته) الثانية هي
المسرح . فاللغة عنده لم تعد موصلا جيدا لحرارة التفاهم بين البشر ، بل
هي تنتصب جداراً عاليا يحسن هدمه بالصمت . وإذا كان قد مال في
« المغنية الصلعاء » إلى التصوير الكاريكاتوري لبشاعة « الكلمة المنطوقة »
التي تجمد السلوك البشري في كليشهات محفوظة ، فإنه في « الدرس »
(١٩٥٠) يصل بمأساة اللغة إلى حافة الجريمة . هذا من ناحية اللغة ،
أما من ناحية المسرح فقد رأى يونسكو في الأشكال الدرامية السائدة
مثالا حياً على « الزيف » باسم الواقعية « فالمسرح هو المسرح » أولا وقبل كل شيء
أي أنه لا يستطيع بحال أن يكون تصويراً أو محاكاة للحياة إلا إذا شاء أن
يكون « مؤسسة للنفاق الاجتماعي » حيث يتحول الممثلون إلى مهرجين
وظيفتهم التسلية ، أما حين يدرك المتفرج أنه « أمام تمثيل في تمثيل »
فإنه حينئذ يعيد النظر على الأقل عبر المسافة الموضوعية بينه وبين الممثل ؛
وهي المسافة التي تباعد بينه وبين « الاندماج » فينسى نفسه . إن المسرح
عند يونسكو أداة تذكير دائمة لمن أصابهم داء النسيان وليس مكاناً
مسليا « يقضي فيه البرجوازي وقت فراغ يريد أن يقتله » . لهذا يميل
يونسكو إلى مزج الكاريكاتور القريب من مسرح العرائس بالجو
الشعائري والأسطوري القريب من الطقوس البدائية . ولعل هذا ما يفسر
لنا ازدواج الملهاة والمأساة في هذا المسرح . إنه من ناحية يميل إلى
التضخيم والمبالغة التي من شأنها أن تعطي المتفرج صورة أشد صدقا من
الحياة نفسها « صورة مكبرة ومسرحية للحياة ، صورة تغوص بعمق
تحت سطح الواقع » ومن ناحية أخرى يميل إلى التجريد الأسطوري الذي

يضيف إلى الصورة بعداً ميتافيزيقياً ، لأن البشر « ليسوا حيوانات اجتماعية فحسب ، بل هم أيضا ضحايا هذا الكون الذى يحارب الروح ويسحقهم تحت وطأة كتلة ثقيلة من المادة الميتة » ويتضح لنا هذان المعنيان فى « الكراسى » (١٩٥١) و « الخرتيت » (١٩٥٨) . فالضحكات التى نطلقها على المقاعد الخالية والخراتيت البشرية ضحكات أليمة تخرج كالسكين من حلوقنا، نظل بعدها ننزف دما حتى الموت. ولكن المضمون العام الذى يمكن رصده بشق النفس من مسرح يونسكو ليس ليبراليًا بالمعنى التقليدى كما يميل بعض نقاده المعادين للاشتراكية زاعمين أن « الخرتتة » لا تحدث إلا فى المجتمع الاشتراكى. فالحق أن الخيط الذى ينتظم أعمال يونسكو هو عداؤه الذى لا حد له للمطلقات، فى الدين أو السياسة أو المجتمع . وإذا كان من اليسير القول بأن دولة « المطلق » الشمولية فى ظل الاشتراكية أو النازية هى ما يقصد إليه يونسكو فإنه من العسير على نقاد الغرب فيما يبدو أن يبحثوا بعمق أكثر نفاذاً فى الخامة البشرية والاجتماعية التى يتخذها يونسكو مادة لفنه إذن لاكتشفوا أنها خامة برجوازية فى جوهرها وتفاصيلها، ولاكشفوا أن الحضارة التى قامت فى مهدها على التفرد والتنوع قد آلت فى النهاية إلى نوع جديد من « الشمولية » ودولة المطلق . إن صرخة يونسكو لا يقصد بها « عالما آخر » غير العالم الذى يعيش فيه حيث يتحول الإنسان والفكر والمجتمع إلى نظام حديدى صارم تحكمه أزرار غير مرئية فى مكاتب الاحتكاريين من تجار الحروب فى عالم اليوم . . وهى الصرخة التى قد نسميها بلغة السياسيين « فوضوية » ولكنها فوضوية متمايزة فى الكثير عن فوضوية القرن الماضى ، كما تجسدت عمليا فى ثورات الشباب الراهنة ، فهى تستمد مضمونها من روح العصر فى القرن العشرين .

المناخ التراجيدى للعصر :

ويرجح الكثيرون أن يونسكو يتمتع بشعبية « تجارية » تفوق الشعبية التى يتمتع بها صامويل بيكيت . ولكن معظم النقاد فى الوقت نفسه يرجحون الكفة الفكرية والفنية لإنتاج بيكيت الذى يتخاطفه مؤرخو الأدبين الإنجليزى والفرنسى ، وهو الكاتب الأيرلندى المولد . . كأستاذه جيمس جويس! ولقد بدأ بيكيت حياته الأدبية روائياً باللغة الإنجليزية فكتب « وخزات أكثر منها رفسات » و « مورفى » و « وات » بهذه اللغة . ثم كتب ثلاثية « مولوى — مالون يموت — الذى لاتمكن تسميته » من ١٩٥١ إلى ١٩٥٢ باللغة الفرنسية . وبعدئذ انخرط فى كتابة المسرح بالفرنسية التى كان يترجمها بنفسه إلى الإنجليزية ، فكتب « فى انتظار جودو » و « لعبة النهاية » و « شريط كراب الأخير » و « الأيام السعيدة » من ١٩٥٢ إلى ١٩٦١ . وروايات بيكيت فى الإنجليزية والفرنسية هى عودة مفاجئة إلى أسلوب جويس وفرجينيا وولف حيث الانكباب التام على عالم الذات الداخلى واستخدام تيار الشعور فى تشريح النفس البشرية . ولعل رواية « كيف هى » (١٩٦٣) وحدها هى القريبة من روح المسرح الجديد الذى أبدعه بيكيت ، أو لعلها أقرب إلى روح « الرواية الجديدة » — أو اللارواية ، كما يصفها سارتر فى مقدمة إحدى روايات ناتالى ساروت — التى يكتبها فريق من الروائيين الشباب فى خط مواز لمسرح الطليعة .

وتروى لنا قصة « كيف هى » أن رجلا مسناً لا اسم له يزحف فى حمأة قذرة بصعوبة كبيرة . ويجر العجوز من خلفه جوالا مملوءاً بعلبات السمك المحفوظ ليمسك به رمقه . ولهذا كان معه فتاحة للعلب لا يدعها تغيب عن ناظريه وهو فى قلق دائم خشية ضياعها . ولا يدرى العجوز ماذا أتى به إلى هذا الوحل القذر ، ولكنه يزحف وئيداً آملا أن تحرز خطواته

تقدماً ما. ويشعر الرجل فجأة بجسد آخر يجاوره فى الزحف هو جسم ناحل مثله يزحف بجانبه . وبعد قليل من الوقت الصامت بينهما يرى العجوز الأول أنه باستطاعته أن يرغم الآخر على الكلام، وذلك بنخسه بفتاحة العلب وأن باستطاعته أن يرغمه على الصمت بدفن رأسه فى القذر المحيط بهما . وتنجح حيلته فيتحدث « بيم » — وهذا اسمه — عن ذكرياته وحبه لزوجته « بام » التى تبادله الحب عندما كان يعيش فى عالم النور وقبل أن يأتى إلى هذا العالم الموحل المظلم. وتجرى العلاقة بينهما على نحو يثير الدهشة ، فهو يعذبه بالرغم مما يشعر به نحوه من تعاطف . وقرب الخاتمة يفكر العجوز طويلا فيما يحكم عالمه من قوانين، ويهديه تفكيره إلى أنه ربما لم يكن وحيداً فى رحلة القذارة الموحلة هذه الشبيهة بالبراز ، فقد يكون هناك مئات الألوف من الزاحفين الذين يلتقون مصادفة بعضهم ببعض ثم يفترقون ، كما حدث له مع « بيم » الذى أرغمه البعوض على أن يفترق عنه ويتركه وراءه ، وربما كان الآخرون يمضون فى اتجاه عكسى .

وهذا هو المناخ التراجيدى السائد على عالم بيكيت المسرحى : وحدة الإنسان فى وجود « قذر » لا معنى له . . إنه يبدو أكثر تجريداً من جميع كتاب المسرح الجديد أو اللامسرح . . هو يشترك مع يونسكو وغيره فى أن اللغة ليست موصلا جيداً للحرارة ، وأن المسرح الواقعى يزيف الواقع ، ولكنه لا « يباشر » هذه المعانى بممارستها مبالغة وتضخيما أو بالعودة إلى المسرح الشعائرى ، وإنما هو « يستلهم » هذه المعانى بتجريدها من ملابسات الحيات اليومية والارتفاع بها إلى مستوى الكائن الإنسانى المطلق فى هذا الكون المطلق أيضا . . فليس من المهم أن تؤدى مأساة اللغة إلى جريمة قتل ، وإنما هى تؤدى إلى الانفصام التام بين الأب والأم والابن والخادم فى « لعبة النهاية » حيث نرى الأب والأم فى صندوق قمامة لا يظهر منهما سوى الرأسين ، تماماً كالعجوزين فى بحر الوحل

القذر ، والابن مشلول على مقعده طول الوقت يعذب خادمه الذى لا يدرى أيبقى أم يذهب . ويصل تجريد بيكيت حده الأقصى فى أعظم أعماله على الإطلاق كما يجمع نقاده ، وهى مسرحية « فى انتظار جودو » وفيها نلتقى بصعلوكين من المتشردين إلى جانب شجرة جرداء فى طريق ريفى موحش ، ينتظران شخصاً غامضاً ضرب لهما موعداً غامضاً مثله فى زمان غير محدد ومكان لم يعينه . وإذ هما فى هذا الموقف المبلبل يلتقيان بعابرين على نفس الطريق فى حالة تثير الرثاء . ثم يدخل طفل معلناً أن جودو لن يأتى هذه الليلة ، ولكنه سيأتى الليلة التالية . ويكرر الفصل الثانى أحداث الفصل الأول بطريقة مختلفة دون أن يصل جودو ، وإن كانت الشجرة الجرداء قد أورقت شيئاً ما . ولكن المسرحية لا تخرج عما قالته إحدى الشخصيات فى مرارة قاسية : « لا شىء يحدث ، لا أحد يجىء ، ولا أحد يذهب . هذا فظيع » . وبالرغم من هذا التجريد الذى يدفع ببعض النقاد إلى تقديم اجتهادات ميتافيزيقية فى تفسيره، فإن هناك من يرى فى أعمال بيكيت امتداداً — من ناحية المضمون — لأعمال كافكا ، وإن كان بيكيت فى رأى هذا الفريق من النقاد قد مضى فى الشوط حتى نهايته . فالإنسان الذى تحول إلى صرصور فى محاكمة كافكا تحول إلى مخلوق زاحف فى البراز أو غارق فى صندوق قمامة حتى أذنيه فى أدب صامويل بيكيت ، ذلك أنه لم يعد محكوماً عليه فى قضية لا يدرى عنها شيئا فحسب ، بل أصبح الحكم سارى المفعول مشمولا بالنفاذ . . فإنسان القرن العشرين لا يتمتع حتى ببطولة الإغريق التراجيدية ليناطح الآلهة الجديدة فى عالمنا المعاصر والأقدار المهيمنة على مصاير البشر ، وهو كذلك لا يتمتع بهزيمة مشرفة كتلك التى حاقت بهاملت أو دون كيخوته . وإنما إنساننا بين حجرى الرحى ولا مفر له من المصير المحتوم ، ولكنه كثيراً ما ينسى فى ضجيج الحياة اليومية وذهولها هذه الحقيقة المرة « وذلك أقصى ما استطاعت حضارتنا أن

تقدمه من وهم فى عصر العلم . . ليست مفارقة وإنما عبث فى عبث »
وهى صيحة الدمار بين جدران البيت الآيل للسقوط .
غير أن « القديس جينه ممثلا وشهيداً » كما يصف سارتر جان جينيه ثالث الثالوث الذى هز أركان المسرح الفرنسى هو الذى امتلك معولا إيجابياً يهدم به الأسوار القديمة ويبنى فوق الأنقاض ما يدعوه برونكو مسرحاً شرقياً مؤسسا على الفرائض والطقوس والإيحاءات والرموز تتحول شخصياته إلى استعارات مجازية أكثر منها كائنات حية ، وعالمه أبداً هو عالم المنبوذين أو المنفيين والمجرمين والخدم والعبيد ، أى هؤلاء الذين لم ينالوا حظوة لدى طبقة أصحاب « الفضيلة » الحاكمين ، كما لم ينلها هو نفسه كلص معروف بشذوذه الجنسى وعليه وصمة المنبوذ « إن عالم المجرمين ومضاجعى الذكور الذى يغمرنا فيه شعره الخالب ليس دولة فوضوية ، وإنما هو دولة فى مثل صرامة النظام الذى نعيش فيه غالبا وعلى قمة التنظيم يقف القاتل ، وهو فى معظم الأحيان شخص غير ظاهر ، على صورة إله ، قد مسته روح الإجرام » . ومسرحية جينيه الأولى « الرقابة القصوى » تجرى أحداثها فى إحدى زنازين سجن الشواذ حيث نرى ثلاثة سجناء يتسلقون أكتاف بعضهم البعض فى شكل هرمى ، وهناك سجين رابع خفى ، هو سفاح زنجى يقف أعلى الشكل الهرمى فى عظمة وكبرياء . وأطول قاماتهم جميعا هو ذو العيون الخضراء الذى قتل إحدى المومسات ويعلم يقيناً أنه سيعدم جزاء ذلك ، ولكنه ينسى نفسه وهو يصف مشهد القتل ، ويشع من عينيه بريق التفاخر بارتكابه الجريمة وروعة المصير الذى ينتظره . هذا الإحساس بالتفوق هو الذى يمنحه فرصة السيادة على السجين الآخر الذى يسيطر بدوره على ثالث ليس إلا لصا . وكلاهما يقتتلان على إظهار الولاء لذى العيون الخضراء فيقدم لهما امتحاناً عملياً هو أن يقتل أحدهما زوجته بعد الإفراج عنهما . وتتبلور هنا المشكلة فى وضوح : من يسبق الآخر إلى

قتلها ؟ ويحاول اللص أن يثبت أنه ليس مجرمًا تافهاً فيقتل غريمه ومنافسه في الولاء لذى العيون الخضراء . . ولكن هذا يتخلى عنه نهائيًّا فيدرك فجأة الوحدة المفجعة التي صار إليها . ويوجه جينيه النظر في الإرشادات المسرحية إلى أن أحداث المسرحية تجرى كما لو كانت حلما « مثل ومضات البرق » مشيراً بذلك إلى أنها لا تصور أحداثاً واقعية. وإنما هي أحلام يقظة في رأس محموم لسجين خرج توًّا من خلف الأسوار . وهذا ما يربط بينه وبين مسرح القسوة عند أرتو من ناحية وبينه وبين خيال كافكا من ناحية أخرى . أو هذا ما يميل سارتر إلى تفسيره برغبة المنبوذ في الانتماء ، لذلك يقدم على « الفعل » ولكن هذا الفعل يؤدى إلى رفض الآخرين له ، فلا حياة — من ثم — للضائعين في هذا المجتمع .

وفي مسرحية « الخادمات » نرى الخادمتين تمقتان سيدتهما التي لا ترى فيهما أكثر من متاع مثل مقعدها الأنيق أمام حوض اغتسالها . ولكي تثأرا منها كتبتا إلى الشرطة باسم عشيق السيدة فأدخلوه السجن ، ولما خرج خافتا افتضاح سرهما فحاولتا دس السم له ، ولكنهما أخفقتا في ذلك فانتحرت إحداهما بهذا السم وأعدمت الأخرى بقبولها مسئولية موتها . وفي مسرحية « السود » قصد جينيه أن تمثل أمام « البيض » فإذا لم يكن هناك جمهور أبيض فلا بد من إخلاء أحد المقاعد لشخص أبيض . ويمثل السود مقتل امرأة بيضاء يتوسط تابوتها خشبة المسرح ملفوفاً بنسيج أبيض ، تراقبهم وتحكم عليهم . وبعد تمثيل الجريمة ينزل أعضاء المحكمة من شرفتهم ويقومون برحلة خيالية في قلب الأحراش الإفريقية حيث يتوون عقاب الزنوج . ولكن الملكة السوداء تغلب الملكة البيضاء ، ويخلع أعضاء المحكمة أقنعتهم ليؤدى الجميع الرقصة القديمة التي بدأت بها المسرحية . ولعل جينيه لم يكن واضحاً بهذا القدر من قبل فهو يرى في الزنوج عالمًا من المنفيين الذين يفرض عليهم الآخرون عالما آخر . لقد قرر الزنجي في هذه المسرحية كبقية مجرمي جينيه ، ومثل

جينيه نفسه أن « يمثل » حتى النهاية ذلك الدور المطلوب منه . وحينئذ يتضح — كما يقول بيير ماركا برو — « أن هؤلاء الزنوج ليسوا سوى رموز ، سوى أشباح خلقها ازدراء وغضب ونفور هى مشاعر جان جينيه إزاء نظام يرفضه بكل كيانه » . وهى المشاعر التى شطرت الرأى العام الفرنسى إلى قسمين حين عرضت مسرحيته « الحواجز » عن ثورة الجزائر ، فبينما قفز بعض النظارة إلى المسرح يضربون الممثلين نظم فريق آخر المظاهرات الهاتفة بحياة جينيه وثورة الجزائر .

رواية جديدة . . ورؤيا جديدة :

ولم تكن الرواية بمعزل عن المسرح الجديد فى فرنسا ، إذ كان تطورهما موازيا لظهور « الرؤيا الجديدة » للإنسان والعالم كما يقول الآن روب جرييه [١] . فقد كان « الإنسان مركز الكون » محور التصور القديم للأدب السابق على ظهور الرواية الجديدة . كان جميع الروائيين — مهما تباينت أساليبهم الفنية — يصوغون إنسانهم ومشكلاته على أنه الحقيقة الوحيدة فى هذا العالم . . فى حين أن الإنسان ليس إلا إحدى الظواهر التى لا حصر لها فى هذا الوجود ، وبالتالى يؤدى الاقتصار عليه إلى تضخيم مزيف ومبالغة من شأنها ترسيخ « عمى الألوان » و « داء الكذب » عند المتسلقين من القراء . كذلك قد أدى هذا التصور إلى « أنسنة الأشياء » من حولنا بحيث إننا نرى من خلال الروائى التقليدى أى شىء ممزوجاً بإنسانيتنا ، أى من وجهة نظرنا ، من ذاتيتنا . وهذا

---

(١) راجع له مقالة « أسلوب الحقيقة وحقيقة الأسلوب » بالمجلة المجرية الفصيلة الجديدة — العدد ٢٢ — المجلد السابع — صيف ١٩٦٦ الطبعة الإنجليزية . و كذلك كتاب « نحو رواية جديدة » ترجمة مصطفى إبراهيم — دار المعارف بالقاهرة .



من شأنه أن يفقدنا « البصيرة الموضوعية » التي تباعد بين الشعور الإنسانى و « الشيء الكائن » مباعدة تمنح كافة الكائنات ذاتيتها المستقلة هى الأخرى . من هنا يمكن القول بأن الرواية الجديدة « لا رواية » بمعنى أنها لا تخضع للتصور التقليدى عند الروائيين السابقين ، كما يمكن القول بأنها رواية « لا إنسانية » بمعنى أنها تنكر محورية مركز الإنسان من الكون، وتنكر إنسانية الكون فى الوقت نفسه .لهذا يتغير « البناء » الروائى فى الرواية الجديدة تغيراً جذرياً ، ولا يعود المونولوج الداخلى أحدث منجزات التكنيك كما عرفناه عند جويس ، ولا يعود الزمن الداخلى شريحة موضوعية فى قطاع بشرى كما عرفناه عند بروست ، ولا يعود الوجود غير المبرر والمنفى الاضطرارى والسجن الذى لا نهاية له ، هو رؤيا الفنان كما عرفناها عند كافكا وكامى . إن الرواية الحديثة عند هؤلاء شيء مختلف كل الاختلاف عن « الرواية الجديدة » لأن الرواية الحديثة فى حقيقتها تطوير للرواية التقليدية وليست ثورة عليها . هى تطوير يستفيد كثيراً من معطيات العلم الحديث ، ولكن من أجل فهم أعمق « للإنسان » . أما الرواية الجديدة فتضع الإنسان فى مكانه الصحيح من أجل فهم أعمق « للكون » . وهكذا يصبح الاغتراب فى الرواية الحديثة شيئا مختلفاً كل الاختلاف عن الغربة فى الرواية الجديدة لأن الاغتراب عند الروائى الحديث هو الإحساس بعبثية الوجود « الإنسانى » أما « الغربة » عند الروائى الجديد فهى الإحساس بعزلة الإنسان وانفصاله عن بقية العناصر اللاإنسانية فى الكون . معنى هذا أننا لن نجد فى الرواية الجديدة ما كان يدعوه النقاد بالموقف والحدث والشخصيات وغير ذلك ، بل قد لا نجد « البناء » إذا تصورنا الأمر تصوراً تقليدياً . ولكننا سنجد « وصفاً » موضوعياً أميناً « للأشياء » من خارجها بلا أية محاولات « للتدخل» فيما يشغل مناطق « الغيب» والبحث عن المجهول . وفى معرض الحديث عن أعمال ناتالى ساروت يقول الناقد الإنجليزى جون ويمان إن الفرد عندها

هو كتلة مفعمة من الحركات الأصيلة — من الانعطافات — التى يختار من بينها العرف أو العادة أو القصور الذاتى نمطا مبسطا ، ويؤخذ هذا النمط على أنه هو « الحقيقة » فى حين أنه لا يعدو فى الواقع أن يكون راسبًا أو تحجراً . وهى — مدام ساروت — لا ترتاح إلى نزعة التعمم الكامنة فى التعبير اللغوى (والموقف أمعن سوءاً فى حالة الألفاظ الدالة على الأحاسيس الوجدانية . فمن الصعب أن تتخيل أية شخصية فى قصة لساروت تقول لشخصية أخرى « أحبك » لأن لفظ « الحب » اختزال ثقيل على السمع إلى حد يبعث على اليأس . وكيف يتأتى إطلاقا لشخص مرهف الحس أن يحمل كل التنوعات المتقلبة لعلاقة عميقة فى كلمة واحدة كثيرة الاستعمال) .

أما الوضع الأدبى فى بريطانيا الذى يتخذ لنفسه تسمية « الغضب والسخط » فإن ريتشارد هوجرت يقوم بتحليله على ضوء الوضع الاجتماعى الذى أثمر الأعمال الغاضبة والساخطة . يقول الناقد الإنجليزى إن قرناً كاملا من محاولات الإصلاح الإنجليزية بدأت فى إنجلترا منذ منتصف القرن التاسع عشر يتوجها الآن — فى منتصف القرن العشرين — ظهور طبقة جديدة يدعوها « الميروتوكراسى » أى الطبقة المتميزة عن جدارة واستحقاق . وهى الطبقة التى تكونت من أبناء الطبقة العاملة الذين دخلوا الجامعات ، وأبناء البرجوازية الصغيرة الذين اجتهدوا فى الوقوف على أقدامهم دون الانحدار إلى « حضيض » الطبقة العاملة . وهى الآن طبقة عريضة تتسع لهاتين الشريحتين ، وتضيق عن استقبال الوفود الجديده سواء كانت قوى اجتماعية أو أفكاراً سياسية فهى بالتالى تتحول إلى طبقة محافظة ، بل لقد بدأت حياتها بأسلوب محافظ . هذه الطبقة فيما يرى هوجرت هى التى أثمرت أدب الغاضبين لأن أبناءها هم أبطال مدرسة الغضب . أما زميله الناقد ستانلى هايمن فيذهب إلى أن انهيار الأسطورة الاشتراكية فى بريطانيا — مجتمعا وفكراً — هى التى أدت

إلى ظهور الغاضبين الساخطين . فروايات « كنجسلى إميس » و « جون وين» و «جون برين» تعالج التحولات الاجتماعية الخطيرة لجيل بريطانى جديد أقبل من « أحط الطبقات شأنا» ويلهث فى اللحاق « بأكثر الطبقات حظاً » مادامت الاشتراكية فى إنجلترا لا تتجاوز يوتوبيا توماس مور . ويستكمل مورتون كرول هذه الفكرة قائلا إن « اللاانتماء » الطبقى هو العمود الفقرى للأدب الغاضب ، فالضياع الاجتماعى وانعدام القدرة على تحقيق الذات هما النغمتان الرئيسيتان فى كتابات الغاضبين جميعا(١) . والنغمة الثالثة هى رفض العلاقات الرسمية والروابط التنظيمية . والنغمة الرابعة هى غياب الارتباط بالماضى أو ما عبر عنه جيمى بورتر فى مسرحية أوزبورن بقوله إنه لم تعد هناك قضايا يناضلون من أجلها . ومن الناحية الفكرية تكاد الفكرة الليبرالية أن تتكامل مع الفكرة الاشتراكية فى معظم أعمال الأدب الغاضب ، وإن طغت الليبرالية على الحماس للاشتراكية تحت وطأة الإحساس المفاجئ بغياب التقاليد الديمقراطية فى أساليب الحكم الغربى. وتتعدد الاتجاهات بين الأدباء الغاضبين تعدداً يكاد ينفى عنهم إمكانيا الاشتراك فى تسمية واحدة ، فمن بينهم الاتجاه الدينى ويمثله كولن ولسون وستيوارت وهولرويد ، والاتجاه الإصلاحى ويمثله جون وين وكنجسلى إميس ، والاتجاه الثورى ويمثله جون أوزبورن . ولكن هذه الاتجاهات جميعها تعود فتلتقى فى « الغضب والسخط » على ماهو قائم ، دينيًّا وسياسيًّا واجتماعيًّا . وتختلف الموجة الجديدة فى بريطانيا — من هذه الزاوية — عن مثيلتها فى فرنسا حيث تميل الموجة الإنجليزية إلى النقد الاجتماعى الصريح ، أو ما يعبر عنه بعض النقاد الإنجليز أنفسهم « بالمواجهة الشجاعة » لما يتسم به مجتمعهم من ثبات واستقرار شبيه

(١) راجع كتاب « دراسات تمهيدية فى الرواية الإنجليزية المعاصرة» للدكتور رمسيس عوض - دار المعارف بالقاهرة — الطبعة الأولى - ١٩٦٨ .

بالموت . ويلتفت جيمس جندن فى مقال نشره عام ١٩٥٨ تحت عنوان « تأكيد ما هو شخصى » إلى النهايات السعيدة التى تميز الكوميديا البريطانية المعاصرة فيقول إنها لا تدل بحال على « التفاؤل السهل » فالبطل الروائى الإنجليزى المعاصر تعترض حياته صعوبات ضخمة وعليه أن يجتاز السدود ويحطم العوائق قبل أن تتأكد لنا جدارته واستحقاقه ، ولا يعدو أن يكون نجاحه فى نهاية الرواية رمزاً لانتصار وجهة نظره على مايحيط به من زيف وادعاء . وهذا ما يفسر اهتمام الشباب الغاضب بالفرد لشكه فى صلاحية أى حل جماعى على نطاق واسع . ولكن هذا الشباب الغاضب لا يقيم وزنا لسائر الأفراد بل يحتفل فقط بالفرد الذى يثبت جدارته واستحقاقه ، الفرد البصير الذكى الذى لا ينطلى عليه زيف القيم الاجتماعية الباطلة التى تحيط به وتحاصره من كل جانب . . الفرد الذى يستطيع بعرقه وكدحه أن يشق طريقه وسط كل هذا الزحام المتلاطم وكل هذا الزيف . ويذهب جون راسل تايلور فى كتابه « الغضب وما بعده » إلى أن مسرحية « انظر خلفك فى غضب » لجون أوزبورن تعد وثيقة الاحتجاج الأولى على المجتمع البريطانى المحافظ ، وأن كتاب « اللامنتمى » لكولن ولسن هو الصياغة النظرية المقبولة عند جيل الغضب الإنجليزى . . وقد توالت بعد ذلك أعمال أوزبورن وكولن ولسن ، ولكن العمل الأول لكل منهما يبقى مؤشرا حساساً لا يخيب لكافة ألوان العنف والتمرد التى أصابت الشباب الإنجليزى سواء هذه التى عبر عنها فى صورة صارخة الخنافس ومؤلفو الموسيقى الإلكترونية ، أو تلك التى عبر عنها طلبة الجامعة فى استقلالهم عن الجامعات الرسمية وإقامة ما يسمى « باللاجامعة » حيث يضعون بأنفسهم مناهج التعلم التى لاتخرج عن أصول حرب العصابات وعلم النفس الاجتماعى وكتابات جيفارا ودبريه . ومسرح الغضب البريطانى يتخلص من جميع القيود والأوضاع المسرحية التقليدية وإحلال الصورة محل الكلمة فى الإنتاج المسرحى والاعتماد

على ارتجال الممثلين إلى حد يجعلهم يكادون أن يستغنوا عن نص المسرحية أو الحوار الذى وضعه المؤلف . فالمهم هو ما يسمونه مسرح الحدث أو الحوادث أى المسرح الذى تحدث فيه التجربة المسرحية بأسلوب تلقائى حى ، ويشارك فيه النظارة كل المشاركة ، وإدخال الرقص التعبيرى والتمثيل الصامت كما نرى فى مسرحيتة أرنولد ويسكر « بطاطس مع كل صنف » ومسرحية شيلادلينى « طعم الشهد » ، وإدخال الغناء كما نراه فى مسرحية « الرهينة » لبرندان بين ، وفى « رقصة النفر مسجراف » لآردن ، وفى إنتاج برنارد كوبس ، وفى مسرحية « المهرج — أو المطرب » لأزبورن . والتخلى عن الستار التقليدى الذى يرفع مع بداية المسرحية كما نجد فى مسرحية « سأغنى لك المرة القادمة » لجيمز سوندرز حيث لا يوجد ديكور على الإطلاق . وفى إنتاج هؤلاء جميعاً يستبدل الكاتب بالعقدة المسرحية الكلاسيكية موقفا ، أو مجموعة مواقف لا تتسلسل تسلسلا زمنيا أو منطقياً . ولعل آردن من أكثر الغاضبين الإنجليز احتجاجا على ما يجرى فى العالم كله لا فى إنجلترا وحدها ، ففى مسرحية « النفر مسجراف » يدير أحداثها فى عام ١٨٨٠ بإحدى بلدان الجنوب يعمل سكانها فى منجم ويصل إلى البلدة عدد من الجنود بقيادة الشاويش مسجراف متظاهرين بأنهم فى حملة تجنيد وهم فى الواقع قد تخلوا عن الحرب وجاءوا إلى هذه البلدة ليعلموا الناس درساً عن أهوالها ، فهذه هى مهمتهم الحقيقية . ولكن المنجم به إضرابات ، ويشتبه العمال المضربون فى الجنود خشية أن يتدخلوا لإفساد الإضراب . ويحاول مسجراف أن يقضى على هذا الشك ويدعو العمال إلى قدح من البيرة ويتم بين الجنود والعمال نوع من الألفة والتفاهم وإن لم يندحر الشك نهائياً . وكذلك يصل الشاويش إلى التفاهم مع مدير المصنع وعمدة البلدة ، وهما يرحبان بوجود الجنود إذ يجدان فى هذا الوجود ما من شأنه أن يصرف العمال عن مطالبهم ، وهكذا يتهيأ الجو ، ويأتى يوم

الاجتماع الذى حدده الشاويش ليدلى إلى السكان برسالته . وفى الاجتماع يعلن أن عظام فتى من فتيان البلدة فى صندوق معه ، وأن الفتى قتل فى بلد محتل وقد عوقب أهالى البلد المحتل على قتله بتنفيذ حكم الإعدام فى خمسة أبرياء منهم . ولما كان المنطق العسكرى يقتضى مضاعفة العدد فقد قرر الشاويش قتل عشرة من المسئولين فى البلدة التى ينتمى إليها الفتى المقتول ! وما يكاد الشاويش يعلن هذا القرار حتى يحدث انقسام فى صفوفه فما ظن الجنود أن هذه رسالتهم وما أرادوا سوى وقف القتل نهائياً . . وفى أثناء الضجة تقتحم الخيالة المكان، ويلقون القبض على الجنود ويجردونهم من أسلحتهم ، ويصطفون بثيابهم الحمراء صفاً طويلا . ويرقص عمال المصانع : يرقص بعضهم فرحا ويرقص البعض الآخر رهبة من الصف الأحمر الذى يخيم عليه . واللون القانى فى مسرحية آردن يشير إلى القتل إذ تنتهى الرواية والقتل يجثم على المكان فالمشكلة لم تحل ، ولا يدرى أحد أين الصواب : مع الشاويش أم مع الجنود . وكل ما فى الأمر أن العمال والجنود — الذين هم فى الأصل عمال — قد انقسموا على أنفسهم ووقفوا جميعا : البعض مقبوضا عليه ، والبعض يرقص فرحا فى ظل حائط من الدم [١].

وربما كان الأدب الأمريكى من الآداب التى اتصلت بالموجة الأدبية الجديدة فى وقت متأخر نسبيا ، ولكن حين لفحته رياحها كان من أكثر هذه الآداب غضبا وعنفاً . وقد اتخذ الغاضبون الأمريكيون الشعر وسيلة رئيسية للتعبير عن أنفسهم ، وتتكون جماعة « البيتس » الأمريكية من الشعراء « الفوضويين » أمثال الآن جينزبرج وجاك كيرواك وجريجورى كورسو وكينيث ريكس ورث . ولكن ظهور الكاتب المسرحى إدوارد ألبى

---

(١) راجع مقال د . لطيفة الزيات – العدد الأول من مجلة المسرح – يناير ١٩٦٤ .

غيَّر مسار رحلة الغضب الأمريكى من مجرد كونها « عاصفة هوجاء توشك أن تكون زوبعة فى فنجان » إلى أنه « إذا كان الجنون والعنف يحكمان هذا العالم الذى يسوده القمع والكبت » فإنه لا مفر أمام كل فنان لا يملك سوى ضميره إلا أن يتصدى لهذا العنف بعنف مماثل ، وإلا أن يمرغ الوجه الملون بالأصباغ المتخفى وراء العديد من الأقنعة فى الوحل الذى صنعته الأصابع الرقيقة خلف القفازات الحريرية . هذا ما يصرح به ألبى منذ كتب مسرحيته الأولى « قصة حديقة الحيوان » ذات الفصل الواحد . وفيها يتصادف وجود المتشرد الصعلوك جيرى جنباً إلى جنب مع البرجوازى الأنيق الناعم بيتر . ويحاول جيرى أن يصل ما بينه وبين بيتر ، بذوق شديد أول الأمر وبلهجة تخلو من الود فى النهاية ، إلا أن بيتر يتظاهر بالاستغراق فى القراءة حريصا على مسافة الصمت بينه وبين جيرى. حينئذ لا يرى جيرى بداً من أن يستل مديته ويغرزها فى جسم بيتر ، مهما كانت النتائج . وفى مسرحيته التالية « وفاة بيسى سميث » المغنية الزنجية التى أصيبت فى حادث سيارة ونقلت إلى المستشفى اعتذر الأطباء فى لهجة مهذبة عن محاولة إنقاذها لأن المستشفى مخصص بعلاج البيض . وتموت سميث بعد أن ترسم دماؤها وهى تنزف على الطرقات علامة استفهام كبرى أمام الضمير الأمريكى المخدر . وفى مسرحية « الحلم الأمريكى» يعالج ألبى مأساة الفصام العقلى والروحى بين الأجيال الأمريكية المعاصرة ، فيستلهم تكنيك مسرح العبث فى تشريح أسرة مكونة من الجدة والأبوين اللذين مات ابنهما بالتبنى ، فهما يبحثان عن بديل له . ويصل شاب وسيم شبيه بالابن الميت ، يقول إنه يتمتع حقًا بمظهر خارجى طيب ولكنه فى الواقع ميت من الداخل ، ويبدى استعداده لقبول عضوية هذه الأسرة . وفى « من يخاف فرجينيا وولف » يزدوج الصراع بين الأجيال فلا يعود صراعا بين جيل وجيل فحسب ، بل بين أفراد الجيل الواحد أيضا . فهنالك ابن وهمى لجورج ومارتا

اللذين تزوجا لتحقيق مصلحة متبادلة لا عن ود صادق ، وهما يشتجران حول الابن الوهمى أو الأمل الوحيد فى سماء حياتهما المظلمة . والآن إذ يستعدان للاحتفال بعيد ميلاده الواحد والعشرين يجب أن يشرعا فى إخفاء الأمر عن الأصدقاء . ولكن مارتا تندفع بغريزة المرأة التواقة إلى إشهار خصوبتها على الملأ فتعلن عن وجوده ، ومن ثم يتحول الابن إلى عدم فيتبدد الوهم الجميل حين يكتشفان أنهما أيضا عقيمان . . هذا العقم الذى يرمز به إدوارد ألبي فى نظر أغلب النقاد إلى بوار الحضارة الأمريكية وجدبها .

أدب ضد النازية :

ولعله قريب غاية القرب من هذه « الثيمات » الأمريكية ما يحدث لأدب ألمانيا الغربية ، وبخاصة فى روايات « جونتر جراس » وشعر « هانز أنزنسبرجر » . . وهذا الأخير هو الذى يطلقون عليه فى ألمانيا اليوم « فتى ألمانيا الثائر » ، فهو منذ ١٩٦٥ راح يصدر مجلة « كورسبوخ » المعادية لانبعاث الشوفينية النازية ، وشعاره فى الفن « أن أعظم الجرائم قاطبة أن يصمت الشاعر إزاء الفظائع الكثيرة التى ترتكب » (١) ، و« الأدب العظيم هو دائمًا وأبداً أدب سياسى » ، وفى قصيدة من أحدث ما كتب يقول :

انظروا فى المرآة أيها الجبناء
أيها المنهزمون من قسوة الحقيقة
يا من تكرهون المعرفة وتسلمون الفكر للذئاب
أنتم تفقأون عيون بعضكم بعضاً

---

(١) راجع « تقارير الشهر » بالطليعة عدد مايو ١٩٦٨ ، وكذلك العدد ٣٥ من مجلة « شعر » اللبنانية — السنة التاسعة — صيف ١٩٦٧ .

الأخوة مستحكمة بين الذئاب
إنها تسير زمراً
فليعش اللصوص : أنتم ،
يا من توجهون الدعوة لا غتصابكم
وترتمون على فراش الطاعة العاجز . باكين تكذبون ، وممزقين
تريدون أن تصبروا .
أنتم لن تغيروا العالم

وفي قصيدة أخرى تتميز ببساطة تركيبها يقول في أحد مقاطعها :

من خلال باب المطبخ المفتوح .
أرى حليباً مسكوباً
وحروباً دامت ثلاثين سنة
ودموعاً على رفوف البصل
وصواريخ ضد الصواريخ
وسلالا للخبز
وصراع الطبقات
وشمالا هناك فى الزاوية
أرى صحناً للقطة

والشاعر « هانز أنز نسبرجر » هو المفكر الألمانى الذى دعته جامعة وسيليان الأمريكية ليحاضر طلبتها ، وبعد ثلاثة أشهر فقط قدم خطاباً مفتوحاً إلى رئيس الجامعة نشرته صحف العالم يحذر فيه من أن الولايات المتحدة تقود العالم كله والحضارة بأسرها نحو الدمار الشامل كما اتضح له ذلك خلال الفترة القصيرة التى أمضاها بين المثقفين هناك . . فهو لم ير بداً من الاستقالة حتى يتواءم فكره وسلوكه فى وحدة واحدة كما يقول ريجيس دبريه مفضلا أن يقضى ما تبقى له من العمرين أفراد شعب مثل الشعب الكوبى ، الشعب القادر على أن يعطيه أشياء افتقدها طوال

إقامته فى الولايات المتحدة .

وربما كان الرصد الرقيق لمنابع الغضب واللاجدوى والعنف فى الآداب الغربية المعاصرة – فى إطار صراع الأجيال – يؤدى بنا إلى ثلاثة منابع رئيسية :

أولا : ما تستشفه العين البصيرة الخيالية من الأهواء – وهذه يتمتع بنورها الشباب أكثر من غيرهم – من أن تحولا عميقا يجرى للأبنية السياسية فى الغرب يزحزح من تحتها التقاليد الديمقراطية الغائرة فى الوجدان الأوربى ، ويؤسس مكانها أشكالا حديثة للديكتاتورية المحكمة البناء . وربما كانت صرخة الحرية القريبة من شعار الفوضيين القدامى هى نتاج هذه الطعنة الدامية لأعز ما كان يمتلك المثقف الغربى من ضمانات تقليدية .

ثانيا : أقبلت حرب فيتنام وثورات الزنوج من ناحية ، والاغتيالات الفردية المتلاحقة من ناحية أخرى ، تقدم دليلا قاطعا على أن « الحلم الأمريكى » لم يعد حلا لمشكلة « الفقراء » داخل الولايات المتحدة أو خارجها . . وبانهيار هذا الحلم البديل فيما سبق للنازية الهتلرية ، لم يكن فى انتظار المثقفين سوى المكارثية التى أعدمت شرف الكثيرين من عمالقة الأدب الأمريكى ، وأصبح قيام جيل جديد يشهد على الكارثة من داخل أمريكا وخارجها أمراً طبيعياً .

ثالثاً : لم يتزحزح شبح هيروشيما وناجازاكى من مكانه الثابت فى مخيلة الأجيال المعاصرة فى الغرب ، ولا من ضميرهم . لذلك كان الدمار النووى فى حرب ثالثة من أبشع المسلمات التى تنطوى عليها قلوب المثقفين الشباب فى عصرنا الراهن ، ومن أبرز سمات القلق العالمى الذى يطحن عقولهم .

اللوحة الشرقية :

أشرفت بنهاية الستالينية آفاق عصر جديد فى تاريخ الفكر الاشتراكى العلمى ، فقد آذنت هذه النهاية بخاتمة مرحلة الجمود العقائدى الذى ساد الفكر الاشتراكى طيلة ربع قرن أو يزيد قليلا ، عانت خلالها روح الخلق والإبداع كثيراً من ويلات الاختناق والموت . على أن هذا لاينفى أن ثمة نماذج أدبية رائعة قد أفلتت من العهد الزدانوفى بالرغم من كل قيوده ونظرته الأحادية الجانب . ولكن الطابع السائد للمرحلة كان العقم والبوار ، وتدمير أعرق التقاليد الروسية فى الأدب والفن . إن غياب دستويفسكى وتولستوى وتشيكوف عن مخيلة الأدباء المعاصرين للثورة كاد أن يجعل من الآداب السوفييتية فى بداية ظهورها نبتاً بلا جذور تمد أغصانه وفروعه بماء الحياة . وبينما كان المتوقع من نقاد الثورة أن يقيموا الجسور بين التراث والحاضر ، وبين جدلية الحياة وما تعكسه من أدب وفن ، ألفينا أنفسنا أمام إنتاج تنقطع الوشائج بينه وبين تاريخه وبينه وبين حاضره . ولم يعد أمامنا فى الأغلب الأعم سوى تماثيل مجوفة لشعارات قصيرة الأمد هى فى أحسن الأحوال واقعية فوتوغرافية تقف عند حدود السطح ولا تنفذ إلى الأعماق ، أو هى على نحو آخر مجرد يوتوبيات خيالية جميلة تشيد المدن الفاضلة فوق كثبان من الرمال . ولقد كان الجيل الذى عاصر زدانوف وستالين — فى السياسة والثقافة — هو أكثر الأجيال إحساسا ببشاعة ماحدث . ومن هنا لم يكن غريباً على الإطلاق أن تنبعث أولى صيحات « ذوبان الثلوج » من حنجرة فنان عجوز عانى الأمرين من هول ما جرى ، هو إليا أهرنبورج الذى جعل عنوان روايته إشارة البدء لمرحلة جديدة فى تاريخ الحياة السوفييتية والآداب الاشتراكية جميعها . وكان جوهر « ذوبان الثلوج » هو الصراع الخفى بين نمطين من أنماط الحياة فى ظل الثورة : أحدهما يرى الفن

« بوقاً » للثورة وسرعان ما يتحول صاحب هذا المفهوم إلى « فنان الدولة » والآخر يرى الفن « ثورة » لها نوعيتها الخاصة التى تتكامل مع الثورة السياسية والاجتماعية والاقتصادية ولكن طبيعتها تنأى بها عن أن تكون بوقا لشيء . هذا الصراع فى الفن له نظيره فى الحياة ، فالزوج الذى يعيش حياته « موظفاً محترماً » ينفذ بدقة روتينية ما يكفل له الترقية فى الحزب والدولة ، غير الرجل الذى يرى فى الوظيفة وسيلة لا غاية ، وجزءاً من كل ، هو الحياة بكل ما تشتمل عليه من تطلعات النفس واكتشافات العقل ونبضات القلب . ويسجل أهرنبورج الهزيمة المريرة التى يمنى بها الفنان الحقيقى الذى يكابد بكل ذرات دمه موهبة الخلق والإبداع ، فى حين يرى بكلتا عينيه كيف يصل الأدعياء المزيفون من حملة الشعارات إلى أعلى المراتب والمراكز والمناصب . هو — الأصيل — ينضور جوعا حتى الموت ، والآخر — المزيف — تنفتح له الأبواب السحرية دون قيد أو شرط . وفى موازاة هذا الخط يسجل أهرنبورج خطاً آخر للزوج الذى يحرز النجاحات الاجتماعية المتوالية بغير أن يحس أو يشعر بهذه المخلوقة إلى جانبه ، على حين يحترق شوقا إليها عاشق صامت تهزمه خسائر الحياة بلا رحمة الواحدة بعد الأخرى .

ولكن أهرنبورج الذى عاش أيامه يرتعد من جبال الثلج التى لا تتحرك كان يؤمن حتى الأعماق أنه سوف يأتى يوم تشرق فيه الشمس بوهج لا مثيل له فتذيب بحرارة أشعتها هذه الجبال الثلجية . ولا تعد قصة « ذوبان الثلوج » من أدب الطليعة السوفييتى فبناؤها أقرب إلى الروح الكلاسيكية ، ولكنها بغير شك كانت الإرهاص الفنى الذى يرتفع إلى مستوى النبوءة ، إذ بعد كتابتها بثلاثة أعوام ، وبعد نشرها بعامين انعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفييتى عام ١٩٥٦ ليؤكد رسمياً صدق النبوءة التى انطلقت ذات يوم من وجدان كاتب تجاوز إيمانه بحتمية التطور إيمانه بالأشخاص والنظم . ولذلك كان للعجوز

أهرنبورج شرف الريادة لأخطر مراحل التطور الأدبى والفنى ، لا فى روسيا وحدها وإنما فى مختلف بقاع العالم الاشتراكى ، مرحلة ذوبان الثلوج . وهى المرحلة التى يمكن أن ندعوها بعصر « النهضة » فى تاريخ الأدب السوفييتى ، والاشتراكى عامة . . حيث بدأت عمليات التنقيب عن الجذور من ناحية ، وفتح النوافذ على العالم الخارجى من ناحية أخرى. لقد تمت النهضة الأولى فى تاريخ الأدب الروسى حين فتح بطرس الأكبر والإمبراطورة كاترين النافذة الغربية ليطل المثقفون الروس على أوربا ، فأثمرت هذه النهضة عمالقة الأدب الروسى فى القرن التاسع عشر . . وكان لابد للنهضة الثانية أن تزاوج بين تراث النهضة الأولى والانفتاح من جديد على نافذة العالم المعاصر . بالإضافة إلى الرؤيا الجديدة للفلسفة الاشتراكية العلمية ، وهى الرؤيا البعيدة بجوهرها كل البعد عن أن تكون أحادية الجانب . هذه العناصر مجتمعة أطلقت العنان « لنهضة » جديدة — لا لموجة جديدة — فى حياة الآداب الاشتراكية ، خلقا ونقداً وتذوقا . هذه النقطة فى غاية الأهمية لأنها تحمينا من زلل الوقوع بين براثن التسميات غير العلمية التى قد يطلقها الأدباء أو النقاد أنفسهم على « ظواهر» مختلفة كيفياً عن ظواهر الأدب الغربى التى درجنا على تسميتها بالطليعية والتجريبية والجديدة . وسوف نلاحظ أن دورة « الفعل ورد الفعل » بين الفنان والدولة فى ظل المجتمع الاشتراكى من أهم معالم الطريق إلى فهم الظواهر الجديدة فى الآداب الاشتراكية ، لا فهمها فحسب بل فى تحديدها وتقييمها . إن حركة أدبية تقوم على بعث دستويفسكى وتشيكوف وتورجنيف فى الرواية والمسرح ، وبلوك وما يكوفسكى وآنا أخماتوفا فى الشعر ، وتشرنشفسكى ودوبرليوبوف وبيلنسكى وهرزن فى النقد الأدبى ، وسارتر ودى بوفوار وكامى وكافكا فى الترجمة عن الأدب الغربى ، لهى حركة إحياء لأرض طال جفافها أكثر منها حركة تجارب طليعية .

الأدب بين الكاتب والسلطة :

وبالرغم من أن الأدب كان سباقا إلى التنبؤ بمرحلة التفتح السياسي ، فإن السلطة السياسية التي قررت رسميا بدء عمليات التحرير من الستالينية في الفكر السياسي لم تكن تملك الوجدان الأدبي والفني الذي يقرر في نفس الوقت بدء عمليات التحرير في مجال الفكر الأدبي . وإنما قامت طلائع الأدباء والفنانين « باستغلال » المناخ الجديد دون أية ضمانات من الدولة بحمايتهم من التيار الستاليني الذي ما يزال يتنفس في اتحاد الكتاب والصحف ودور النشر ، وإن توارى عن العيون في المؤسسات السياسية . ولقد كانت رواية دودنتسيف « ليس بالخبز وحده » من بواكير أعمال « جس النبض » التي قام بها الجيل الجديد . وبالرغم من أنها لقيت موجة شديدة من النقد والمعارضة فإن صاحبها لم يتعرض للقهر أو المصادرة ، مع أنه كان يمس في روايته موضوعاً غير مطروق في أدب المرحلة السابقة ، أدب « السنوات الخمس » و« المزارع الجماعية » و« مشاريع الكهرباء » و« مناسبات كبار رجال الدولة » . كانت الرواية تناقش ازدواج الفكر والسلوك في حياة موظف رسمي كبير . ومن الطبيعي للأدباء الجدد أن « يستغلوا » الفرصة المتاحة سياسياً فيقيموا الديكور الستاليني في أعمالهم ويحطموه رمزاً إلى الكثير من الأثقال الراسبة في البناء الاجتماعي ، وتحتاج إلى إزالة عنيفة وعاجلة . وجاءت قصة « يوم واحد في حياة إيفان دنيسوفيتش » لألكسندر سولز هنتسين تصف معسكرات الاعتقال أيام ستالين وصفا تقشعر له الضمائر التي تتربع على عرش السلطة في أي زمان ومكان . على أن الأجيال الجديدة لم تكن تتربع على عرش السلطة الأدبية في الاتحاد السوفييتي ، وإنما كان الزادنوفيون يفرقون أمام السلطة السياسية بين الاشتراكية العلمية في عهدها الجديد والواقعية الاشتراكية التي ينبغي ألا تحيد عن مخططات السابقين « حتى

لا نقع فى انحرافات قومية باسم التراث أو انحرافات برجوازية باسم الانفتاح على الغرب » كما جاء فى تقرير رسمى لاتحاد الكتاب على أثر الحوار الحاد بين خروشوف والأجيال الجديدة . فقد « استغل » الزادنوفيون بدورهم أن القيادة السياسية المسئولة عن مرحلة التفتح السياسى ، ليست على نفس المستوى من التفتح الأدبى والفنى ، وبخاصة عندما وقف خروشوف أمام بعض اللوحات التجريدية فى أحد معارض الشباب وقال : « هذه الرسوم لم ترسم بيد إنسان وإنما بذيل حمار » . حينئذ ابتسم المحافظون فى دهاء ، فهاهو ذا « بطل المؤتمر العشرين » يصب جام غضبه على « أبطال ذوبان الجليد » . . ولكن خروشوف كان يدلى برأى شخصى لم يصحبه بأى إجراء تنفيذى مهما كانت الكلمات المتبادلة بينه وبين الشباب ، جارحة ومهينة أحيانا . حقًّا هذا لا يعفيه كرئيس للحكومة وسكرتير عام للحزب أن يعرف يقيناً أن الفواصل تكاد تكون غير قائمة بين رأيه الشخصى ورأيه كرجل دولة . من هنا كان لا بد من المبادرة التى اتخذها الشباب وفى مقدمتهم الشاعر يفتوشنكو باحتجاجهم على ما وجه إلى أرنست نايزفستنى أشهر نحاتى روسيا من أن إنتاجه الفنى « شكلى » . وكان خروشوف قد قال : « من الأمثال الشائعة ألا يقوم ظهر الأحدب غير القبر » ، فأجابه يفتوشنكو : « أرجو أن نكون قد تخطينا الزمن الذى كان يستعمل فيه القبر كوسيلة للتقويم » ثم وصلت إلى اللجنة المركزية للحزب رسالة موجهة إلى خروشوف وموقعة من أبرز الشخصيات الأدبية والفنية فى روسيا وفى طليعتها أهرنبورج والموسيقار شوستاكوفيتش والمخرج السينمائى روم ، تقول الرسالة : « . . إذا لم يكن هناك تنوع فى وجهات النظر الفنية ، قضى على الفن . إننا نرى الآن كيف أن الفنانين الذين سلكوا خطًّا واحداً — الخط الوحيد الذى ازدهر أيام ستالين والذى لم يسمح للآخرين أن ينتجوا أو حتى أن يعيشوا — قد بدءوا يفسرون ما قلته فى المعرض تفسيراً

يلائم أغراضهم . . إننا نطلب إليك إيقاف هذه الرجعة إلى الأساليب القديمة المخالفة لروح العصر الذى نعيش فيه » . ولكن الحكومة السوفييتة من جانبها لم تتخذ أى إجراء مضاد للجيل الجديد ، بل سمحت ليفتوشنكو بالتجوال فى العالم شرقا وغربًا يلقى قصائده التى غيرت مذاق الشعر الروسى فى أفواه الكثيرين ، وإن تسببت بعض التصريحات الصحفية المنسوبة إلى يفتوشنكو فى اشتعال لهيب الجدل من جديد مثل قوله : « جميع الطغاة فى روسيا اعتقدوا أن الشعراء شر أعدائهم » وفى نقده الذاتى الذى أدلى به بعدئذ قال إن المحرر قد أضاف من عنده عبارة « فى روسيا » . ولكن أكثر أقواله استفزازاً للسلطة ، تلك التى جاء فيها : « . . حينما أتذكر الفترة الستالينية لا أفكر فى ستالين وحسب . إننى أفكر أيضا فى شركائه الذين ساعدوه والذين أحيانا دفعوه ، والذين لم يحركوا ساكنًا » . وحينئذ كان لا بد من محاسبته هو أيضا على « الفواصل غير القائمة » بين اشتغاله بالسياسة وحرفته الأدبية ، فهو لم يكن مبعوثا سياسياً إلى باريس ولندن ونيويورك ، وإنما كان « شاعراً روسياً » أولا وقبل كل شىء .

ويفتوشنكو ليس إلا واحداً من أبناء الجيل الجديد ، وهو بالقطع ليس أكبرهم موهبة ، وإنما كان أكثرهم تصديا للحوار بين الدولة والفن الجديد . فالكثيرون من النقاد السوفييت والغربيين يضعون أندريا فوزنسنسكى فى مقدمة الشعراء الجدد الذين غيروا ألوان الحياة وألحانها. وفى إحدى قصائده التى يعدها البعض « مانيفستو شعرى » يتخذ جوجان رمزاً للحركة الفنية ، فهو الذى :

كى يصل إلى اللوفر الملكى
من مونمارتر
شق طريقه
دائراً حول جاوة وسومطرة

أقلع ناسياً جنون المـــال
وثرثرة الزوجات والجو الأكاديمى الخانق
تغلب على قوة جاذبية الأرض
وحملق كهنة القرابين فى كؤوسهم الملأى بالجعة :
« الخط المستقيم هو الأقصر ، والقطع هو الأكثر انحداراً .
أليس من الأفضل أن ننسخ خضرة الجنة ؟ »
بينما انطلق هو هادراً كالقذيفة يخترق الرياح التى تمزق الأذن.
وتخلع المعاطف ،
ودخل اللوفر ، لا من البوابات الرسمية ، بل كقطع غاضب
يخرق السقف

يقول الناقد بيير فورج فى دراسة له حول « الجيل الطالع فى الشعر الروسى » إن الرمز بالنسبة لفوزنسنسكى « ليس حيلة أدبية بسيطة ، فالمسألة ليست مسألة تقديم فكرة بواسطة موضوع يشير إليها مداورة، وإنما هى فى إيحاء العلاقات بين مظاهر الواقع المختلفة التى تحجبها العادة عنا . والشاعر يرينا الواقع بأسلوب يجعل عناصره المتباينة تتوحد ثانية خلال الوعى . . إن الرغبة فى الإطاحة بجميع المظاهر التقليدية للواقع تجعل تجربة فوزنسنسكى قريبة إلى التجارب السوريالية . ومما يذكرنا بالشبه بينه وبين السورياليين فى ترتيب الكلمات واللعب بها ، أن أبيات قصائده تسيطر عليها نشوة الكلمات ، وحبه مجانبة الأحرف فى الكلمات المتتابعة ، مما يؤدى إلى تجزئة إيقاع البيت نتيجة حركته وسرعته . وهو يعشق التلاعب بالشكل الخارجى للكلمات فيمنح شعره جواً غريبا خاصاً به » .

أما يفتوشنكو فله شأن آخر فى قيادة الأجيال الشعرية الجديدة ، إنه بمثابة « الدوى الهائل » الذى يذكرهم دائماً برسالتهم نحو « الحرية » حرية الفرد والمجتمع على السواء . وهو يعترف :

حقًّا ، إن أعوامى العشرين هذه
أقل من أن تحملنى إلى النضج
لكنها تكفينى كى أعيد النظر والتقدير
وأرى أننى قلت أشياء لم يكن واجبا قولها
وصمت حين كان الواجب أن أتكلم .

وما سبق أن قاله نثراً يقوله شعراً هكذا :

تشربون نخب طيف فيرلين ،
أنتم ياذوى الكروش المتخمة .
تودون لو تفتكون بالشعراء جميعًا
لكيما تقرءوا شعرهم فيما بعد . .

ويقول عنه فورج : « إن الشعر السوفييتى الآن يتضمن بعض الخصائص التى تشبه خصائص الحركة الرومانتيكية الأوربية من توكيد للذات وقصائد لها طابع السيرة الذاتية إلى محبة للبلاغة والحماس الخلاق وتطور شعر الحب الغنائى . . ويفتوشنكو يجسد هذه الصفات جميعها أروع تجسيد » .

الوجه النظرى للقضية :

ولم تكن النهضة الأدبية الجديدة فى الاتحاد السوفييتى مقصورة على الخلق الفنى بل صاحبتها نهضة مماثلة فى النقد الأدبى والصياغة النظرية للواقعية الاشتراكية ، فأصبح ناقد كليونيد نوفتشنكو يقول[1] : « إن الواقعية الاشتراكية ليست لها سلطات فكرية على الفنان إلا فى

---

(١) راجع مجلة الأدب السوفييتى — الطبعة الإنجليزية — العدد ١٢ — ١٩٦٦ .

حدود المنهج العام . لأن مشكلات كل مجتمع على حدة هي التي تضيف إلى الخطوط العامة للمنهج تفاصيله الدقيقة وملامحه الذاتية » ، ويذهب ناقد آخر هو « إيجور تشير نوتسان »[١] إلى أن محور النقد الأدبي ينبغي أن يكون « معايشة العمل الفني من الداخل كمجموعة من العلاقات الجمالية والقيم الاجتماعية معاً دون الانشغال بمحاولة التصنيف الأكاديمي أو ملء الخانات المعدة سلفاً أو الحديث المعاد حول وظيفة الأدب » ، ويتغير الموقف من الأدب والفن في المجتمعات الغربية فيقول ناقد مثل فاديم كوزينوف : « ليس هناك عمل أدبي جيد في الغرب لا يدين بصورة أو بأخرى المجتمع الرأسمالي »[٢] ؛ ولا ريب أن الفهم العميق للقاعدة الفلسفية للاشتراكية العلمية لا يؤدي إلى صنع البطولات الإيجابية المجوفة وإنما جدلية الحياة تخلق السلب والإيجاب معاً وفي وقت واحد وفي حركة دائمة لا تتوقف بحيث تضفي على الشخصية الفنية حيوية دافقة لا علاقة لها بالتماثيل الشمعية ، وكذلك تجعل من الحدث الفني عالماً مستقلاً بذاته له قوانينه النوعية الخاصة به والتي تختلف من زوايا كثيرة عن الحدث الواقعي والحقيقة الواقعية[٣] .

ولقد كان هذا التطور النظري حصيلة مؤتمرات جماعية ومحاورات ثنائية في جميع أنحاء العالم الاشتراكي والرأسمالي على السواء . بل إن نقاد الغرب من المفكرين الاشتراكيين أمثال جورج لوكاتش وهنري لوفافر وروجيه جارودي ورالف فوكس وجورج طومسون وإرنست فيشر قد أسهموا إسهاماً فعالاً في تطوير أساليب الواقعية الاشتراكية خلقا

---

(١) المصدر السابق .

(٢) راجع مجلة الأدب السوفييتي - الطبعة الانجليزية - العدد ٣ - ١٩٦٠ .

(٣) راجع « المناقشات الجديدة حول الواقعية الاشتراكية » - د . سعاد محمد خضر - مجلة الطليعة - العدد الثاني - السنة الثالثة - ١٩٦٧ .

ونقداً . ولقد كان للمساهمات العظيمة التى قدمها فنانون ونقاد من بلدان أخرى خارج الاتحاد السوفييتى أثرها الكبير والمباشر فى « النهضة الأدبية الجديدة » التى تجتاح الأدب «الاشتراكى» فى كل مكان . وتأتى مساهمة « برتولت بريخت » فى مقدمة هذه المساهمات النظرية والتطبيقية على السواء ، فقد كان مسرحه الملحى بمثابة « الإبداع الاشتراكى لفن الدراما » وهى الضربة التى يعدها الكثيرون من مؤرخى المسرح العالمى « علامة الطريق التالية لضربة شكسبير» فى العصر الحديث، كما يقول جون ويليت فى كتابه « مسرح برتولت بريخت »فبالرغم من المضمون الاشتراكى الواضح والمباشر عند بريخت ، فإن مسرحه قد ترك « أثراً عالميا » على الدراما المعاصرة ابتداء من تجارب بيتر فايس فى المسرح السياسى إلى تجارب أوزبورن وبنتر ويونسكو وجينيه فى مسرح الغضب واللامعقول .

ويحاول نقاد الغرب أن يفسروا التجارب الجديدة فى آداب البلدان الاشتراكية من وجهة نظر أحادية الجانب لا تقل خطورة عن وجهة النظر الستالينية ، فكل « غضبة » يصرخ بها كاتب من هنا أو هناك فى أرجاء العالم الاشتراكى هى فى نظرهم « صيحة العودة إلى الرأسمالية » وبذلك يلتقون مع أكثر الاتجاهات المحافظة تطرفا فى البلدان الاشتراكية نفسها . ومثال ذلك مسرحية « تانجو » التى قدمها المسرح البولندى للكاتب سلافومير مروجيك ، وهى تهاجم أوضاعاً خاطئة فى المجتمع البولندى ، وتنتقد بلهجة عنيفة بقاء هذه الأوضاع استقرارها . ولكن هذا الهجوم والنقد لا يخرج بالكاتب عن حدود الاشتراكية كنظام . وإنما هو من أجل الاشتراكية نفسها يحذر من السلبيات الكامنة فى أجهزة الحكم والمترسبة فى السلوك البيروقراطى لبعض المسؤلين . ومن الممكن — كما حدث بالفعل — أن تستغل بعض الجهات المعادية للاشتراكية فى بولندا نفسها هذه المسرحية أو تلك لتقود حملة ضارية ،

ضد النظام البولندى بأكمله . ولكن المسئول هنا ليس « تانجو » أو غيرها من المسرحيات ، وإنما هى الجيوب الصهيونية والاستعمارية الخفية .
« إن المسرحية لا شك ذات مدلول سياسى ، ويمكن فعلا لأول وهلة أن تفسر على أنها هجوم على النظام . ولكن الواقع أن النظرة المدققة ترى أن الهجوم لا ينصب على النظام بل على الانتهازية التى تتعاون مع الرجعية فى سبيل تحقيق مطامعها البرجوازية باسم الاشتراكية »[١] .

وكذلك يحلو لنقاد الغرب بنفس المنهج الأحادى النظرة إغفال بعض الجوانب الهامة فى « الثورة الثقافية » الصينية ، فإنه إذا كانت هذه الثورة لم تنبت بعد أزهارها الأدبية والفنية فإن الحوار الذى اشتعل طويلا « على الجبهة الأدبية » كما يقول شويانج قد أثمر مفهوماً حياً متجدداً للأدب والفن[٢] ، هو امتداد لما قال به ما وتسى تونج منذ أكثر من عشر سنوات « السياسة القائلة دع مائة زهرة تتفتح ومائة مدرسة فكرية تتبارى إنما تحفز انطلاق الفن وتقدم العلم ، وتحفز ازدهار الثقافة الاشتراكية فى بلادنا . فى ميدان الفكر يمكن أن تنمو بحرية أشكال وأساليب متنوعة ، وفى مجال العلم يمكن أن تتناظر بحرية مدارس مختلفة . إذ أننا نعد الترويج قسراً لهذا الأسلوب أو لهذه المدرسة ، بقوة السلطة الإدارية ، عملا يضر بنمو الفن والعلم . إن مسألة الصواب والخطأ فى الفن وفى العلم ينبغى أن تحل عن طريق نقاش حر بين أوساط الفنانين والعلماء وعن طريق ممارسة الفن والعلم ، ولا يجوز أن تحل بأساليب خشنة » كما جاء فى كتابه « حول المعالجة الصحيحة للمتناقضات فى صفوف الشعب » عام ١٩٥٧ وهو استكمال منطقى لما كان يقول به ماو خارج السلطة

---

(١) راجع مقال الدكتورة هدى حبيشة بالعدد ٢٨ – يوليو ١٩٦٧ – مجلة الفكر المعاصر .

(٢) راجع مكتبة « الطليعة » بالعدد التاسع – السنة الثالثة – ١٩٦٧ .

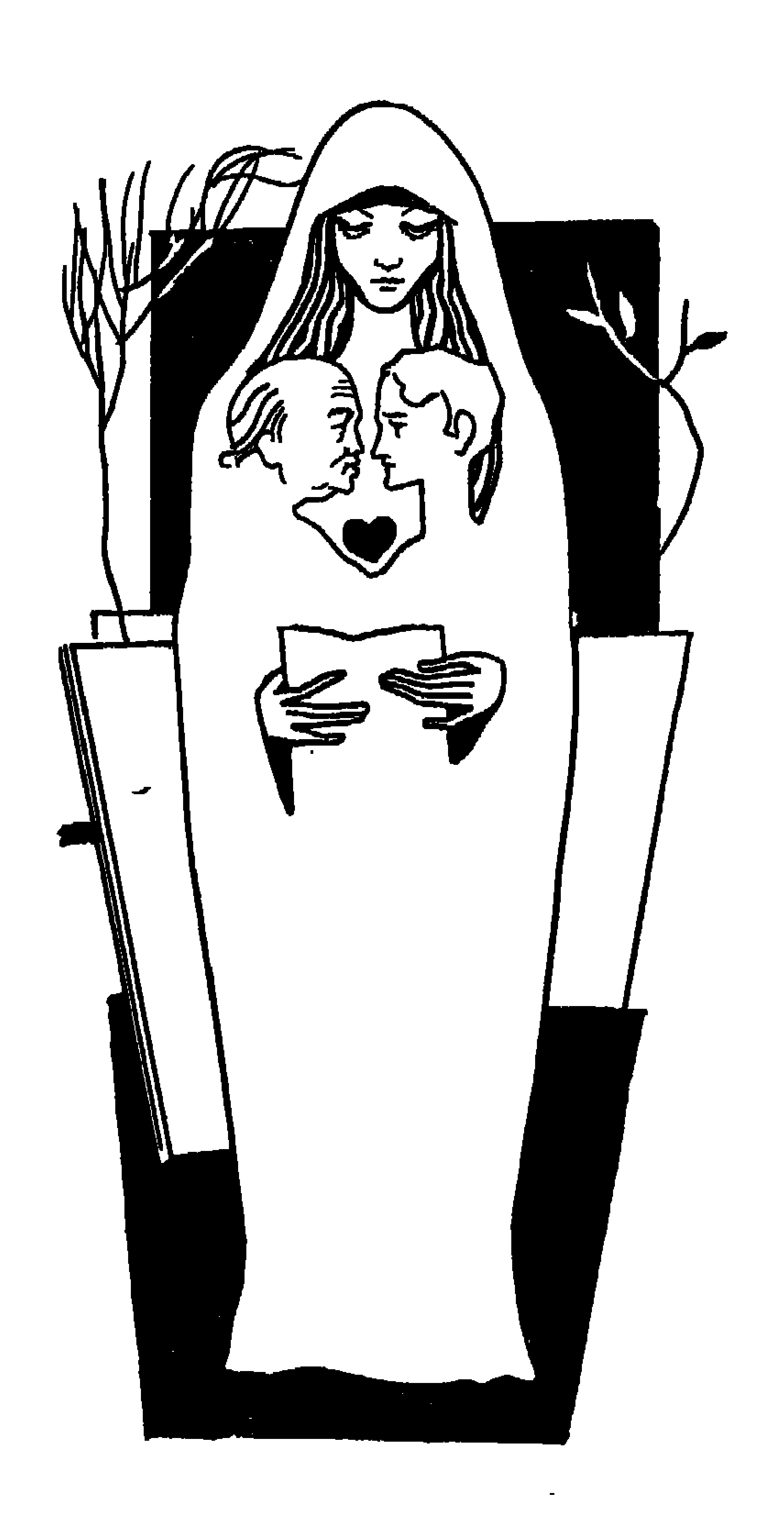
عام ١٩٤٢ فى « أحاديث حول الأدب والفن » بيينان ، كان يقول : « نحن نطالب بالوحدة بين السياسة والفن ، والوحدة بين المحتوى والشكل ، أى الوحدة بين المحتوى السياسى والثورة وبين أعلى مستوى ممكن من الشكل الفنى . فالأعمال الفنية الحالية من الجودة الفنية لا أثر لها مهما كانت تقدمية من الناحية السياسية . وهكذا لا نعارض الأعمال الفنية ذات وجهات النظر السياسية الخاطئة وحدها بل نعارض أيضا النزعة التى تدعو إلى أعمال فنية من طراز الإعلانات والشعارات تحمل وجهات نظر سياسية صحيحة دون أن يكون لها أثر فنى . لهذا يجب علينا فى مجال الأدب والفن أن نخوض الصراع فى جبهتين . ولا شك أن هذه التراث من الوعى النظرى قد أسهم فى تكوين شباب الثورة الثقافية الصينية ، وهو الشباب الذى كانت له المبادرة — مهما اختلفت موازين التقييم — فى ثورة شباب العالم .

القسم الثانى

ثورة العقاد الأولى

كان الجزء الخاص بالعقاد من كتاب « الديوان : فى النقد والأدب » – وقد صدر فى يناير وفبراير على التوالى من عام ١٩٢١ – بمثابة المقدمة التمهيدية التى تحمل فى ثناياها معظم سمات المنهج الذى اختطه لنفسه فى تلك المرحلة الباكرة من حياته النقدية . ولم يكن هذا الجزء هو أول ماكتب العقاد فى النقد الأدبى ، ولكنه كان أولى محاولاته فى بلورة مجموعة من القيم الأدبية تخلق فيما بينها منهجا قريبا من التماسك وعلى درجة ما من الاتساق . ولعل المحاولات « المنهجية » التى تميز بها جيل الرواد فى أوائل العشرينات من هذا القرن تعد من بواكير النظرة الثورية إلى كل من الأداب والحياة . ذلك أن إيجاد إطار منظم من العلاقات الأدبية أو الإنسانية – وهو ما ندعوه منهجا فى الفكر أو الحياة – هو خطوة متقدمة فى تاريخنا الحديث تتسم بها بدايات عصر النهضة . وربما كانت هذه الرابطة المنهجية بين أبناء جيل الطليعة هى التى تؤكد طبيعة العلاقة الفكرية بين طه حسين والعقاد وسلامة موسى وغيرهم . وهى علاقة الثوار فى عصر النهضة الوطنية الديموقراطية . ومن هنا ليس غريبا أن نعثر على همزات الوصل الفكرية بين أعمال الرواد جميعاً ، كما أنه ليس غريباً أن نلحظ التفاوت الكمى والنوعى فى إمكانياتهم ومحصلات تكوينهم . كذلك نلاحظ أن ثمة عناصر سياسية واجتماعية كانت تلون نظرتهم للأدب والحياة ، انعكست بصورة أو بأخرى ، على أعمالهم فى النقد الأدبى .

ونحن نستطيع أن نرصد للعقاد قبيل صدور الديوان مجموعة من



الآراء الهامة المتناثرة فى مقدمات دواوينه الشعرية أو فى الكتيبات التى أصدرها حوالى ذلك التاريخ . فإذا نحن تصفحنا مقدمة ديوانه « يقظة الصباح » — ١٩١٦ — فسوف نضع أيدينا على بواكير لقائه الحميم بالأدب. ومن هذه البواكير ماقال به من أن الأدب مرآة النفس الإنسانية ، فى مستواها الفردى ، ومستواها الاجتماعى على السواء . وهى إحدى الأفكار الرئيسية التى لازمته فيما بعد ، كما سنرى ، طول العمر . غير أن اكتشافه هذه الفكرة فى ذلك الوقت المبكر — مهما كان مصدر الاكتشاف ومهما كانت وسائله — إنما يعبر عن جذور الاتجاه النقدى عند العقاد ، ويومئ بالظروف التاريخية التى مهدت له ورافقته وتأثرت به. فهو يقول إن الشعر « مرآة يتصفح فيها الناس صور نفوسهم فى كل عصر وطور ، فهو التاريخ الصحيح الذى لا تكذب أسانيده ولا تختلف أرقامه » . وهو يستخدم لفظة الشعر حينا والأدب فى أكثر الأحيان عندما يتحدث عن هذه العموميات . لهذا نستشف « أصول » وجهة النظر التى تبناها تاريخياً ، من قراءاته فى النقد والأدب الأوربيين ، ومن تكوينه الذاتى كمحصلة ثقافية دائبة التفاعل مع المحيط المعاصر له ، ومن المستوى الحضارى الذى آذنت به مرحلة النهضة فى مجال النقد والأدب المصرى حينذاك . هكذا كان الأدب عند العقاد صورة عاكسة للذات الفردية والجماعية . ولما كانت الذات فى جميع مستوياتها هى الخلاصة الإنسانية التى يتجسد خلالها تاريخ الفرد والمجتمع ، كان الفن هو خلاصة أشكال التعبير الإنسانى عن خصائص العصر وتاريخ الشعوب . هذه النقطة الجوهرية — الأولى — تقود العقاد بالضرورة إلى إحدى القضايا المعلقة فى نظرية الأدب . أى أنه لا يجد مفراً من مواجهة التساؤل الخطير : إذا كان الأدب تعبيراً ذاتياً عن موضوعية المجتمع والتاريخ ، فهل هو تعبير ديناميكى يتفاعل مع الأصل والجذور ، يأخذ منها ويعطيها ، وبالتالى يصبح له دور فى الحياة وموقف من المجتمع ؟ . . أو أنه مجرد صدى

الصوت ، وصورة للأصل ينتهى كل ما بينهما من تأثرات فور انتهاء علاقتهما المباشرة المحسوسة ؟ يجيب العقاد أن « الآداب مطلوبة لمنافعها بأوسع معانى المنفعة » ، وهى إجابة هامة بالرغم من سرعتها أو التعجل فى تسجيلها . لأن المنفعة هنا كما يقصدها العقاد ليست شبيها لما تقصده البراجماتية فى مجال الفلسفة . ولكنها قريبة الشبه من الاتجاهات الواقعية فى الأدب والفن حين تؤكد أن لهما دوراً فى الحياة ، وموقفا من المجتمع .

على أنه ينبغى أن نكون شديدى الحرص ، ونحن نلتقط هذا الإيماءات الحيية المنبثة هنا وهناك فيما كتبه هذا الرائد من مقدمات أو كتيبات أقرب إلى المذكرات كما نلاحظ فى « خلاصة اليومية » ١٩١٢ — و« الشذور » ١٩١٥ — و «الفصول» ١٩٢٢ . وأعنى بالحرص ألا نبالغ فى التقليل أو التضخيم من قيمة هذه العبارات المتفرقة . فالتقليل من شأنها يؤدى بنا إلى تيه مظلم لا نكاد نضع يداً على أحد معالم الطريق حتى نصطدم بجدار صلب من أدوات النفى التى تصل بنا إلى زيف هذا المعلم أو ذاك . كذلك فإن التضخيم من شأن هذه العبارات يتسلل بنا إلى مجالات مفتعلة لم يفكر العقاد يوماً أن يطرقها . وربما كانت وسيلتنا الموضوعية الوحيدة هى أن نعتمد على ركيزة واقعية هى الصورة الشاملة لإنتاج العقاد فى النقد الأدبى ، فهى بمثابة الفرض النظرى الذى نبحث له عما يؤيده فى أرض الواقع التطبيقى . لذلك سوف نجمع بين رأى العقاد فى طبيعة الفن كمرآة نفسية لأعماق الضمير الإنسانى ، إلى أن هذه المرآة تمتلك قدراً من الفعالية والتأثير والنفع ، إلى أن نقف أمام ما يقرره العقاد من أن من يرتاب فى هذا القول « فليراجع التاريخ ، وليذكر أمة واحدة نهضت نهضة اجتماعية فلم تكن نهضتها هذه مسبوقة أو مقرونة بنهضة عالية فى آدابها » هنا لا نرى بدّاً من التأكيد على أن العقاد كان يهدف فيما سبق من فقرات خاصة بدور الأدب ، إلى أن هذا الدور

فى صميمه دور اجتماعى . إن ثمة فرقاً بين الذين يقولون بدور الأدب فى صورة ضبابية تدعو إلى الشك كأن يقيموا الصلة بين الفن والارتفاع بمستوى الذوق البشرى أو الحضارة الإنسانية ، وبين كلمات العقاد التى يبلغ بها العنف والصراحة أن يبدأها بطريقة مباشرة حين يقول : «لست من القائلين بأن الآداب مطلوبة لذاتها» . وهذا لا يعنى على وجه اليقين أن قضية الفن للفن والفن للمجتمع كانت مطروحة على الصعيد المحلى — أدبا ونقداً — فلعل أولئك الذين يشير إليهم العقاد هم نقاد الغرب . ولكن اهتمامه بالقضية فى ذاتها يوضح لنا أكثر فأكثر طبيعة الدور الذى لعبه فى ذلك الوقت ، وقواعد المنهج الذى اختاره بعناء وجهد عظيمين . بل إن اهتمام العقاد بمعنى الشعر كمرآة نفسية ، وبدور الأدب كرسالة اجتماعية إنما يهيئ لنا التفسير السلم لموقفه من المعارك « الأدبية » التى كان طرفاً خطيراً فيها ، فقد كانت معارك اجتماعية وأيدولوجية بنفس القدر الذى كانت عليه فى إطار النقد الأدبى . هذا لا ينفى أن العقاد ألح على نوعية الفن وخصائصه المستقلة . أى أنه حين يشير إلى أن النهضة الاجتماعية للشعوب لا بد أن تسبقها أو ترافقها نهضة أدبية ؛ لا تفوته — على سبيل المثال — ظاهرة الرواج المفتعل لبعض الآداب فى عصور الانحطاط . ومن ثم يدعو الناقد لأن يفرق بين آداب « الذكاء » وآداب « الطبائع » . فالأولى تصوغ قرائح الزخارف التى تتصيد الخواطر وتلفق الأوهام ، أما الثانية فهى إيمان وشعور وعمل يتحول إلى كلمات نابضة من اللحم الحى والدم الجارى . وبغض النظر عن هذا التصنيف فإننا نصل إلى أن العقاد انطلق فى بناء منهجه النقدى من الركيزة الاجتماعية العامة ، ولكنه ما إن يصل إلى تخوم العمل الفنى حتى يتخصص فى اكتشاف عالمه الخاص ، وبين العام والخاص فى خلق العمل الفنى وتذوقه صلة وثيقة بين الفنان والحياة هى التى تسوغ فى نظر العقاد كيف أن الشعر يعمق الإحساس بالحياة « فيجعل الساعة

من العمر ساعات » . ولهذا السبب يخاطب القارئ « . . . فإذا قلنا لك أحبب الشعر فكأننا نقول لك عش ، وإذا قلنا لك إن الأمة أخذت تطرب للشعر فكأننا نقول إنها أخذت تطرب للحياة » .

علينا إذن أن نتوغل داخل « العالم الخاص » للشعر برفقة العقاد حتى نرى بعينيه عناصر هذا العالم الساحر . إنه يراه « صناعة توليد العواطف بواسطة الكلام » كما جاء فى خلاصة اليومية (ص ٩ ، ١٥) ذلك أن مهمة الشاعر هى تكوين الصورة الذهنية المتخيلة ، والتى يقوم هو بتجسيدها بأدوات الصناعة الشعرية من ألفاظ وقوالب واستعارات . ومجموعة الألفاظ الدالة على الصورة المتخيلة ، هى فى اللحظة نفسها مجموعة من الرموز التى تومئ بمعنى ما يختلف من حيث الجوهر مع أى معنى آخر ينوب عنه نفس اللفظ « فالمترادفات لا تتشابه فى المدلول تماماً » . ولا يحتاج الأمر فى الشعر — يقول العقاد — إلى الجلاء والإبانة كما هو فى النثر . ذلك أن أدوات التوصيل الشعرى تتبلور فى التأثير لا فى الإقناع . ولذلك لا يعتمد الشعر العظيم على البناء المنطقى المسلسل ، وإنما نلاحظ ذلك فى شعر المقلدين من صغار الشعراء . لقد كان العقاد بهذه الأفكار يلج عالم الشعر الحديث دون أن تكون التربة المصرية قد مهدت بعد لاستنبات هذا الشعر ، كما لم يكن المناخ الحضارى فى مصر ليسمح بازدهار مفهوم الحداثة فى الشعر . غير أن العقاد كان رائداً بصيراً بمستقبل الحركة الشعرية فى بلادنا حين أثار كل هذه الموجة الزاخرة بالتساؤلات والقضايا .

فى مقدمة ديوانه « وهج الظهيرة » — ١٩١٧ — كتب يعارض زعم القائلين بأن نهاية الشعر اقتربت مع ميلاد « العصر المادى » مؤكداً أن المدنية لا تقتل النفس الإنسانية ، ولكنه لم يلبث أن هاجم دعاة « العصرية فى الشعر » الذين يتصورون أن « وصف » الطائرة من سمات الشعر « العصرى » وقال : « ليس المعول فى معرفة عصرية الشاعر على وصفه الاختراعات

العصرية ، ولكن على كيفية الوصف ووجهة النظر » ، كما جاء فى « الفصول » عام ١٩٢٢ . وهى تتمه طبيعية لما قال به فى خلاصة اليومية (ص ١٠٥) من أن الشاعر ليس هو « من يزن التفاعيل ، ذلك ناظم أو غير ناثر . وليس الشاعر بصاحب الكلام الفخم واللفظ الجزل ، ذلك ليس بشاعر أكثر مما هو كاتب أو خطيب ، وليس الشاعر من يأتى برائع المجازات وبعيد التصورات ، ذلك رجل ثاقب الذهن حديد الخيال ، إنما الشاعر من يشعر ويشعر » .

هذا هو الجانب النظرى من رؤية العقاد الباكرة للشعر ، وقد مارسه من قبل ومن بعد شاعراً وناقداً . فإذا أضفنا أنه لا يطلب إلى الشاعر أن أن يكون عالما أو مؤرخا ولكنه لا يعادى العلم أو التاريخ فى نفس الوقت (الفصول ص ٢٨١ ، ٢٩٠) فإننا نستطيع أن نتصور مجموعة الفروض الفنية التى استخدمها كمدخل منهجى إلى دراسة شعر شوقى كنموذج للمدرسة الكلاسيكية فى الشعر إبان عصر النهضة . بل إننا نستطيع أن نلمح آثار الرؤية النقدية للشعر عند العقاد ، وانعكاسها على تقييمه لشعر شوقى فيما كتبه عام ١٩١٢ بخلاصة اليومية حول قصيدة شوقى فى رثاء بطرس غالى حيث يتهكم على الراثى والمرثى (ص ٩١) . وفى المقابل (ص ٨٦) يسجل إعجابه — المتحفظ — بشعر حافظ إبراهيم . والتقابل بين التهكم والإعجاب يقصد به الناقد أن يهيئ الأسماع والأذهان والبصائر إلى « الزائر الجديد » فى حياتنا النقدية ، وهو المنهج الجامع بين النظرة الاجتماعية بكل ما تحمله من دلالات والنظرة الجمالية التى تتخصص فى تحليل البناء الفنى للعمل الشعرى .

وهكذا نحن نستطيع أن نحصل على الجذور المنهجية فى تاريخ النقد عند العقاد من خلال آثاره السريعة المتفرقة بين عامى ١٩١٢ و ١٩٢٢ فقد كانت هذه السنوات العشر بين خلاصة اليومية والفصول بمثابة الإرهاصات التى أشار إليها العقاد حين كتب الجزء الخاص به من

«الديوان» حول شعر شوقى فقال إنه قد بشر بما أسماه « مذهبه الجديد » فى الشعر والنقد والكتابة فى بضع السنوات الأخيرة ، أى السابقة على عام ١٩٢١ « فنحن بهذا الكتاب نتمم عملا مبدوءاً » على حد تعبيره .

وقد كتب العقاد فى مقدمة الديوان أنه مادامت « دواعى السكوت » قد زالت ، فقد آن الأوان لأن يحفر اتجاه الشبان الجدد فى الحقل الأدبى حدابين عهدين . ولو أننا بحثنا عن عوامل السكوت هذه لما عثرنا على تلك العوامل المباشرة المحسوسة التى تحول بين الكاتب وقرائه . وإنما نحس أننا بصدد ذلك السبب العام الذى كان له أكبر الأثر فى تفتح الآفاق والنوافذ أمام رجال الفكر فى مصر عند نشوب ثورة ١٩١٩ وعلى أثرها. فقد بلغت البلاد قبيل الثورة حدا من الاختناق الفكرى كان تعبيراً أصيلا عما تأثرت به خيوط فجر النهضة من غياب نور الحرية ، إذ تعقدت هذه الخيوط وتشابكت فى غياهب الظلام المحيط ، بحيث إن كل داعية للنور والتجديد سرعان ما يسجل اسمه فى القائمة السوداء . سواء أكانت هذه القائمة تصل بالأحرار إلى زنزانات السجن وأسواره الحديدية ، أم كانت تكمم الأفواه بقيود ثقيلة على الفكر والتعبير . ومنذ هبت رياح الحرية مع نيران الثورة الشعبية الوطنية ، ثارت بين ضلوع المفكرين الوطنيين شهوة البحث الحر فى كافة مجالات الفكر والفن والأدب . من هنا فيما أعتقد ، يسجل العقاد أنه قد زالت دواعى السكوت . فالمعروف أنه لم يسكت قط فيما سبق من أيام . ولكن ما أشبه « كلام » تلك الأيام بالصمت . ولربما كانت السطور العاجلة التى خطها فى الخلاصة والشذور أبلغ دليل على أن الكلام حينذاك يرادف الصمت .

أما الديوان فقد كانت مقدمته بمثابة النذير العاصف بأن شباب الاتجاهات الجديدة سوف يتكلم بعد طول صمت ، سوف يتحرر بعد طول كبت . ومن هنا كانت الصفحات تتتالى كالانفجارات الصاعقة لا يضبط حركتها فى الإقناع والاقتناع وتبادل التأثير والاستجابة سوى

ذلك الفيضان المخزون منذ بعيد . لهذا تصور العقاد أن الديوان سيصدر فى عشرة أجزاء متوالية . ولا سبيل أمامنا إلا أن نتحمل هذا السيل الجارف من الاتهامات والأحكام حتى نصل إلى الجوهر العميق الهادئ لهذه الافتتاحية الرائدة فى حياة العقاد الأدبية وتاريخنا النقدى على السواء . علينا أن نستكشف معالم الخطة التى انتهجها العقاد فى عريضة الاتهام التى حكم فيها على « أمير الشعراء » — كما سمى شوقى حينذاك — بالزيف . إن هذه المعالم وحدها كفيلة بأن تضع كلتا يدينا على مواضع القوة والضعف فى الاتجاه الجديد القائد ، ومصادر القوة والضعف معاً فنحن منذ البداية مع دليل يقول إنه :

- صاحب مذهب جديد .
- يقم حداً بين عهدين .

ولن نناقش الآن المعنى التاريخى لكلمة المذهب ، ولامعناها الحديث ، وسنكتفى مؤقتا باستخدام لفظة المنهج دلالة على مجموعة القواعد التى يرتكز عليها الناقد فى رؤياه النقدية لتقويم الشعر . كما أننا لن نتصور الحد المقام بين عهدين وكأنه سور حديدى وإنما سنحاول أن نفترض هذا الحد على أنه صفحة جديدة فى تراثنا النقدى يخطو أدبنا وفننا على نسقها .

حينئذ فلنستمع إلى العقاد وهو يقدم حديثه عن مذهبه الإنسانى الذى يترجم عن طبع الإنسان خالصا من تقليد الصناعة المشوهة ، كما أنه ثمرة لقاح القرائح الإنسانية عامة ، ومظهر الوجدان بين النفوس قاطبة . وهو مذهب مصرى ، دعاته مصريون ، تؤثر فيهم الحياة المصرية . كما أنه مذهب عربى ، لغته عربية . فقد كان أدبنا الموروث — عند أصحاب هذا المذهب كما يقول العقاد — عربياً بحتا يدير بصره إلى عصر الجاهلية . غير أن أصحاب المذهب يرون من سرعة حركة التاريخ ، أنه بات أمراً محتماً ، أن تدفعهم ريح الحرية إلى تحطيم الأصنام .

من الضرورى إذن أن نهجر كلمة المذهب ونستخدم عوضا عنها

لفظة المنهج حتى يستقيم أمامنا الضوء الذى يؤدى بنا إلى رؤية العقاد النقدية للشعر . فالمذهب حصيلة تاريخية لمجموعة من التيارات المتبلورة فى اتجاه واحد قد تتعدد مناهجه ويختلف تلامذته ، ولكنهم فى غمرة النضال من أجل إرساء المذهب وأصوله تتكون تحت أقدامهم أرض صلبة وقاعدة ضخمة من الفكر والقدرات البشرية جميعا . وليس هذا بالضبط ما حدث مع « الديوان » وكاتبيه فنحن لم نكن قد تجاوزنا بعد فجر النهضة حيث كنا ما نزال أسرى التأثر والاقتباس المباشر عن الآخرين، وحيث لم نكوّن بعد حصيلة كبرى من تصارع الآراء والتيارات المتعارضة ، وحيث لم نرث مفهوماً حديثاً فى النقد الأدبى يتمشى مع إنجازات الحضارة المادية فى عالمنا . أى أن المرحلة المتخلفة حضاريا ، التى كنا نجتاز أولى عتباتها فى ذلك الحين ما كانت لتسمح بنشأة المذاهب الفكرية والفنية والأدبية . . وإنما كانت تسمح بالمحاولات المنهجية . وهى خطوه تقدمية باهرة فى ذلك الوقت ، لأن التصور الذهنى الشامل لمجموعة من الفروض الأولية كان غائبا إلى حد كبير عن وعينا الفكرى والنقدى .

شوقى فى الميزان :

يذكر العقاد تلك الكتابات التى أحاطت شعر شوقى منذ البداية بهالات الثناء والتمجيد على صفحات المؤيد واللواء والظاهر ، على أنها من العوامل التى ضاعفت من « غروره » . ويركز ناقدنا على هذا الجانب الأخلاقى ويقارن بينه وبين ما يحدث فى أوربا حيث إن أحداً لا يجرؤ على ما جرؤ عليه شوقى ، وإلا ما استطاع « أن يمكث أسبوعا واحداً فى بيئة محترمة » . لذلك كان شوقى فى عرف العقاد أشبه بملحق أدبى فى بلاط أمير مصر السابق . ولا يستثنى العقاد من صحف أوائل العشرينات سوى « مصباح الشرق » التى كتب فيها المويلحى بضع مقالات لا تسبح مع التيار ، ولكنه سرعان ما انقطع نشر هذه السلسلة

« وهذا أدعى إلى الريبة » كما يقول العقاد .

أى أن المناخ النفسى الذى عاش فيه شوقى كان عاملا خطيراً فى تهيئة ذهنه ووجدانه لقبول المديح المتطرف إن لم يكن المزيف الذى تبلور آنذاك فى تلك التسميات التى خلعوها عليه فى سخاء عجيب ، فهو شاعر الشرق والغرب ، والعرب والعجم ، وأمير الشعراء وسيد الأدباء . ولا سبيل فيما يبدو إلى إنكار الدور الفعّال للانتهازيين والوصوليين من بطانة شاعر الأمير ، كما لا سبيل إلى إنكار ما تتلبس به نظرة العقاد إلى شعر شوقى من مشاعر اجتماعية معادية للطبقة الرجعية الحاكمة حيث يتحصن شوقى بين أحضانها . ولكن ما لا سبيل إليه أيضا ـ قبل أن نصاحب العقاد فى جزء من رحلته الطويلة ـ هو أن شوقى كان استجابة واعية أو غير واعية لدواعى مقتضيات الشعر الكلاسيكى الجديد فى عصر النهضة ، فمرحلة البعث التى قادها البارودى فى الشعر المصرى الحديث ، كانت مرحلة البداية فى إعادة الحياة إلى الصورة التراثية للشعر العربى القديم . وإذا كان الشيخ حسين المرصفى هو الناقد الكلاسيكى الأول منذ أواخر القرن التاسع عشر ، فإن شعر البارودى ونثر عبد الله فكرى قد تطابقا مع مقاييسه الكلاسيكية فى تقويم الأدب . لهذا السبب لم تحدث الجفوة بل الفجوة بين الفنان والناقد . أما العلاقة بين شوقى والعقاد ، فإنها علاقة الشاعر الكلاسيكى الجديد بالناقد المصرى « الحديث » . فلقد كانت مفاهيم العقاد الأدبية تتناقض كيفيا مع مفاهيم الاتجاه الكلاسيكى فى الأدب ، مهما بالغ فى استخدام موازين النقد العروضى واللغوى فى تحليل شعر شوقى . فقد كان هذا الاستخدام بمثابة التعريض بكل ما يفاخر به شوقى وعشاقه ويزهون ، كان بمثابة التحدى السافر لأية « تحفظات » يمكن لقارئ الشعر الكلاسيكى أن يصون بها شاعره التقليدى من سهام الناقد الحديث . أى أن العقاد أراد أن يستخدم « نفس السلاح » الذى قد يتعرض بواسطته لتحديات الخصم . فإذا كان

البارودى يمثل مرحله البداية فى البعث الشعرى الكلاسيكى ، فإن شوقى هو أحد الامتدادات الرئيسية له . أما العقاد فليس امتداداً للمرصفى ، ولا لغيره من المعاصرين له ، وإنما هو مزيج فريد من بعض ألوان الثقافة الغربية ، والتراث العربى القديم ، والفكر المصرى الحديث . ومعنى ذلك أن الهوة التى نستشعرها فى المسافة التى تفصل شوقى عن العقاد لها أسبابها الموضوعية الكامنة فى التكوين الكلاسيكى لشعر شوقى والتكوين الحديث لنقد العقاد. أما مايمكن أن يقال عن الوسط الأدبى المملىء بالزيف الذى نشأ فيه الشاعر المترف ، ومايمكن أن يقال عن نفسية شوقى التواقة إلى المديح — مهما بلغت به المغالاة حدها الأقصى الذى ينقلب إلى الضد فى أغلب الأحيان — فإنها وغيرها ليست إلا عوامل ثانوية فى تلك المعركة الهامة التى اشتعل أوارها بين الشاعر الكلاسيكى والناقد الحديث ، تعبيراً أصيلا عن أزمة التناقض الحاد بين القديم والجديد فى بدايات عصر النهضة . هذه الأزمة التى اتخذت عند كتاب المرحلة الجديدة تعبيرات مختلفة ، فكانت ثورة طه حسين على ما ينسب إلى الجاهلية من الشعر المنتحل ، وثورة سلامه موسى على المناهج السلفية فى تفهم علاقة الأدب بالحياة ، وثورة العقاد على الاتجاه التقليدى فى خلق الشعر وتذوقه .

* * *

وقبل أن يتصدى العقاد لتقييم رثاء شوقى لمحمد فريد، فإنه يحدد أولا المستوى الأدبى للجيل الماضى من الشعراء ، والمستوى الذوقى لنفس الجيل من القراء . يصف ذلك الجيل وعهده بأنه كان « عهد ركاكة فى الأسلوب وتعثر فى الصياغة تنبو به الأذن ، وكان آية الآيات على نبوغ الكاتب أو الشاعر أن يوفق إلى جملة مستوية التسوية ، أو بيت سائغ الجرس ، فيسير مسير الأمثال ، وتستعذبه الأفواه لسهولة مجراه على اللسان» ومن ثم كان القارىء يتلو هذه القصيدة أو تلك « كالماء الجارى » ويصبح مقياس الإجادة الشعرية عند مثل هذا القارىء هو مقدرة الشاعر على

الإتيان « بالكلام النحوى الحلو » .

هذا هو المدخل الذى يخطط به العقاد هجومه العنيف على شوقى وشعره . قلت « شوقى » لأن الناقد لم يخف مطلقاً أن شخصية شوقى كشاعر للقصور قد أسهمت فى إفساد شعره وذوقه . ذلك أن العقاد ، أولا ، يؤمن بتأثير الشخصية الإنسانية فى الشخصية الفنية إيمانا عميقا . كما أن العقاد ، ثانيا ، يحمل عداء اجتماعياً واضحا ومباشراً لشخصية الشاعر الاجتماعية ، فى المستوى الطبقى والقومى والوطنى . فالعقاد ينتمى إلى تلك الفئات المناضلة من الجماهير الشعبية فى حين ينتمى شوقى إلى الطبقة الحاكمة . والعقاد ينتمى إلى القومية المصرية بأصالة حقيقية فى حين يفتقر شوقى إلى الإحساس المصرى الأصيل لعراقة نسبه التركى والشركسى . كما أن العقاد ينتمى إلى الثورة الوطنية الديمقراطية فى قتالها الذى لا يكل مع الاستعمار ، فى حين يحتمى شوقى بأسوار القصور العميلة للاستعمار .

ولهذه الأسباب مجتمعة يتحرز العقاد كثيراً إذا ما كتب شوقى قصيدة رثاء فى زعيم وطنى يدين له الشعب المصرى بالكثير من آيات النضال الثورى . يتحرز العقاد لا قتناعه شبه المطلق بأن هذا الشاعر الملكى غير المصرى لايمكن أن تطابق مشاعره أحاسيس المصريين إزاء فقد أحد زعمائهم الوطنيين . هذا الشك يقود العقاد إلى تلمس مدى الصدق الذى تنطوى عليه القصيدة فى الترحم على محمد فريد وبكائه . والصدق هو همزة الوصل بين الشخصية الإنسانية للشاعر وشخصيته الفنية . فإذا كان الجانب الإنسانى مشكوكاً فيه،وجب الالتفات اليقظ إلى الجانب الفنى . والمعايير الفنية الدقيقة تكشف لنا مدى الصدق الذى يعتمل فى وجدان الشاعر ، أو الزيف الذى يغلف كلماته .

ويبدو أن بعض المريدين لشعر شوقى ، بدأ الاستغراب أو التململ يتسرب إلى قلوبهم وعقولهم حين أخذت تتوالى قصائده الأخيرة ، السابقة

على هجوم العقاد . ومن ثم راح ناقدنا فى البداية يحلل هذه الظاهرة بمصادرة تقول إن شوقى الأمس هو شوقى اليوم « ولكنهم هم الذين تغيروا » فالقارئ المعاصر يأخذ سبيله إلى الارتقاء فى الذوق والشعور بحيث يسبق شاعره المفضل إذا مضى فى خط سيره الطبيعى » وقلما يرتقى الشاعر بعد الأربعين فإن أخصب أيام الشعر أيام الشباب » . هو يستلهم إذن بصيرة قارئ الشعر الواعية التى أعلنت ماطراً على الشعور المصرى من تغير ، حتى يستند على هذه البصيرة فيما إذا كان ثمة طارئ عابر قد ألم بشعر شوقى ، أم أن هذا الشعر يحمل فى طياته ما يحول دونه والبقاء الطويل . من هذه النقطة يركز العقاد على الثقافة والتجربة كعماد لتطور الشاعر فى ملاحقته لتطور القارئ . فهو يثير أول ما يثير من قضايا فى قصيدة شوقى عن محمد فريد ، قضية الشعر ولغة الشارع . هل يمكن على سبيل المثال أن يستعير الشاعر تعبيرات الشحاذين الاستجدائية فى صياغة معانى الموت التى يمكن استلهامها من هذه التعبيرات ببساطة ويسر؟ أى أننا نستمع إلى الشحاذ يتوكأ على عكازه متمتماً فى نغم حزين: « دنيا غرور ، كله فان ، من قدم شيء التقاه ، ياما داست جبابرة تحت التراب ، اللى عنده باق » إلى آخر هذه القائمة من الدعاءات فى استرحامها لقلوب الناس عن طريق تذكيرهم بالآخرة .. فإذا جاء شاعر وصاغ نفس هذه العبارات شعراً ، فماذا يمكن أن نلاحظ ؟

إن العقاد لا يناقش فكرة المأثورات الشعبية كنداءات الباعة والشحاذين والندب والردح ، وما إذا كان فى الإمكان أن يقيم بناء أعمال فنية ناجحة . . ذلك أن شوقى فى قصيدته لم يستلهم المعنى الفنى العميق للفولكلور المصرى حتى تصبح قصيدته تمثلا واعيا بشحنات فنوننا الشعبية وما تتضمنه من دفقات الروح والتراث المصريين ، شحنات اللفظ والدلالة والتاريخ والشعور . إن شوقى يكتفى بتحويل الحكمة الشعبية المتداولة برنينها العذب المألوف إلى بناء فصيح مؤسس على

الهندسة الكلاسيكية للشعر العربى ، فلا هو يعطى الكلمات المألوفة معنى غير مألوف ، ولا هو يجزل فى العطاء فيسخو على الحكمة القديمة ببناء حديث . وإنما نراه قد استدرج اللفظ من مخبئه الشعبى الدافئ إلى قصر من الرخام البارد يزهو برصف الكلمات على نحو عروضى موزون غير مختل ، وقافية وقورة غير لعوب . هكذا يتم تكفين المأثورات الشعبية على يدى شوقى فى أردية من حرير فضفاض ؛ لهذا يثور العقاد على « ابتذال » شوقى فى استخدام لغة الشارع ، ولا ينبغى — من ثم — أن نفهم ثورته على أنها احتقار للغة الشارع فى ذاتها . فإذا نحن قرأنا لشوقى فى رثاء فريد :

كل حى على المنية غاد   تتوالى الركاب والموت حاد
ذهب الأولون قرناً فقرنا   لم يدم حاضر ولم يبق باد
هل ترى منهم وتسمع عنهم   غير باقى مآثر وأيادى

أحسسنا على الفور أن العقاد لم يكن يهزل فى تفضيل أدعية الشحاذين على هذا « النظم » الخالى من حرارة الخلق العفوى والإبداع الذاتى . ثم نكاد نوقن بأن إحدى أدوات « الصدق » الفنى الأساسية قد غابت عن صياغة شوقى لهذه الأبيات تلك هى توظيف الصورة الشعبية المألوفة فى احتواء مضمون جديد ، ينتقل بالحكمة العامة التى يمكن أن تقال فى رثاء أى إنسان إلى العبرة الخاصة بإنسان محدد . لهذا أيضا ، يتوقف العقاد كثيراً عند الأبيات التى تصف موقع القبر أو استخدام الأمثال الدارجة فى مقام الوعظ والإرشاد لكى يقرر بعدئذ أن شوقى يهتم أشد الاهتمام بالعرض دون الماهية ، بالمظهر دون الجوهر . . ومن هنا تتفتت القصيدة إلى منثورات متفرقة لا يجمع بينها سوى البحر الواحد والقافية الموحدة . والتجربة النقدية التى أقدم عليها العقاد بتحويل أحد الأبيات إلى نثر خال من الوزن هى تجربة ذات حدين فالعقاد يؤمن فيما يبدو ، بأن الشعر يمكن ترجمته إلى أية لغة إنسانية دون أن يفقد شيئا من جوهره

إذا كان شعراً عظيما بحق . وهذا هو الجانب السلبي في المنهج التجريبي عند العقاد بشكل عام ، وفي رأيه بصدد ترجمة الشعر على وجه خاص. فأن يصل بنا التجريب إلى أن نفترض صورة للعمل الفني تختلف عما هي عليه بالفعل ، يفقد الدراسة الموضوعية عنصراً خطيراً هو ما ندعوه بالموضعية في النقد . وهو أن ندرس النص الأدبي الذى أمامنا كما هو ، فلا نحاول أن نتحقق من فساده بأن نراه من منظور يستهوينا ، وييسر لنا سبل الحكم العاجل . ويشتد الخطأ فداحة إذا عممنا هذا الحكم ، أو – على أقل تقدير – إذا أغرانا هذا الحكم بالتعميم . فإذا جاء العقاد ولاحظ أن هذه القصيدة أو تلك تشوبها النثرية أو التفكك لا يتعين عليه أن يلجأ إلى سرد القصيدة نثراً أو تغيير أبياتها من مكان إلى مكان، حتى يثبت لنا – بأسلوب تجريبي – ما آلت إليه القصيدة على يد الشاعر من نثرية وتهافت . ومن ثم نرث حكماً عاماً إلى جانب هذا الحكم الخاص ، وهو أن الشعر يمكن ترجمته محتفظا بقيمته من ناحية ، وأن إسقاط عناصر الشعر الوزنية لا تفقد الشعر شاعريته ولا عظمته . وهي مقولات لا يوافق عليها العقاد نفسه كما سنرى في أعماله القادمة ، وإن كانت نتيجة حتمية للمقدمات الجزئية التي تبناها على طول هذا البحث . ومع هذا يتبقى للعقاد من هذه الزاوية إحدى القيم الإيجابية الهامة التي أرساها في مشقة وإصرار حتى أصبحت من تقاليد النقد المصري ، وهي أن أدوات النظم ليست من جوهر الشعر . ذلك أن شاعراً كلاسيكياً كأحمد شوقي يستطيع أن ينظم بمهارة وتظل قصائده – في نظر العقاد على الأقل – نثراً ، ويستتبع هذه النقطة أن جوهر الشعر لا يتطلب من الشاعر عناية بالأعراض والمظاهر ، وأن هذا الجوهر هو روح حية مندفعة لا سبيل إلى الإلمام بأطرافها الشكلية ، فهي دائبة التطور والتفاعل ، دائبة الخلق والإبداع إلى ما لا نهاية .

وهكذا ينتهي العقاد من مناقشة مضمون قصيدة شوقي في رثاء

محمد فريد مقرراً أن هذا المضمون خال من الصدق فى المستوى الانفعالى المحض للقصيدة لأن الشاعر لم يعكس لنا فى أدوات تعبيره ما تمثل بواسطته هول الكارثة التى وقعت بوفاة محمد فريد . إنه يواجهنا لأول وهلة فى تصويره لبشاعة الموت بالمعانى العامة ، والعظات المنبرية التى نلتقى بها فى تحليله لموقف الإنسان من النهاية والمصير ، والتهالك على مجموعة من الكليشهات التى ابتذلت لطول الاستعمال ، والانصياع إلى تجسيد الجزئيات غير الدالة فى مشاهد الموت من الوفاة إلى تشييع الجنازة إلى الدفن . . كل ذلك يؤدى بنا إلى حقيقة جاية واضحة ، هى أن محمد فريد كزعيم وطنى لم يتوسد قطّ مكاناً فى ضمير شوقى . أما الجانب الإنسانى فى حياة الراحل العظم فلم ينل إشارة واحدة من الشاعر ، مما يؤكد غياب الصدق وحرارة الانفعال من أبيات هذه القصيدة .

ولكن العقاد لم يناقش المضمون إلا كمقدمة إلى مناقشة الشكل ومعنى ذلك — منذ البداية — أن العقاد يأخذ بذلك التصنيف الموضوعى للأدب إلى شكل ومضمون ، كما أنه يأخذ بالفكرة النقدية القائلة بأن المضمون هو الذى يحدد الشكل وينسجه ويتجسد خلاله . فها هو ذا يفتتح حديثه عن الشكل فى قصيدة شوقى هذه ، قائلا : « ألا إن شعراً يسف إلى هذا المحال لجريرة لم يجنها على لغة العرب إلا زغل الصناعة لا جزى الله صانعيها خيراً » . وهو يستشهد بأبيات من ابن المعتز وأبى العتاهية ليدلل على مدى الأذى الفنى الذى يلحق بإحدى القصائد حين يركز الشاعر جل انتباهه على الجانب السطحى من الشكل كالاعتماد على التشبيه البعيد المنال . هكذا يبحث عن المعنى الذى يمكن أن يدل عليه اللفظ فى قصيدة شوقى . ومن ثم يضحك العقاد كثيراً حين يحدد ألفاظ شوقى بهذه المعانى : إن نعش فريد لو لم يحمله ناقلوه إلى مصر لسعى إليها وحده :

لو تركتم لها الزمام لجاءت وحدها بالشهيد دار الرشاد

حينئذ ينجح العقاد فى تعرية القصيدة من رواء اللفظ الخادع ببريق القديم ، فليس ذلك البيت من القصيدة الشوقية إلا محاكاة لبيت البحترى :

ولو أن مشتاقا تكلف فوق ما   فى وسعه لسعى إليك المنبر

فالفرق بين البيتين هو الفرق بين الأصل المبدع والصورة المصنوعة . بعبارة أخرى هو الفرق بين الشعر العظيم والنظم الكلاسيكى على منواله . وهذا هو دور الجانب السلبى فى الموروث الأدبى من ناحية ، وتلك هى الاستجابة الكلاسيكية فى مرحلة حضارية متخلفة تنادى بالبعث من ناحية أخرى . فتلك الحلقة المفرغة من التشبيهات التى ذكر العقاد أن القدماء أسرفوا فى تضخيمها بحيث إن العلاقة بين التشبيه والمشبه به أضحت مع الزمن علاقة طلسمية ، لأنهم جعلوا من التشبيه غاية فانصرفوا إليه « ولم يتوسلوا به إلى جلاء معنى أو تقريب صورة ثم تمادوا فأوجبوا على الناظم أن يلصق بالمشبه كل صفات المشبه به ، كأن الأشياء فقدت علاقاتها الطبيعية ، وكأن الناس فقدوا قدرة الإحساس بها على ظواهرها ». هذا هو الشق الأول من الجانب السلبى — على سبيل المثال — أما الشق الثانى فهو استجابة المرحلة الكلاسيكية لمثالب التراث فى صياغته الشكلية دون استلهام روحه الخلاقة فى صياغة عصره .

كان العقاد يتقدم باتجاهه الجديد فى النقد الأدبى ، وهو يعلم أنه يشق أرضا بكراً فى أمس الحاجة إلى الحصيلة النظرية ، بنفس القدر من حاجتها إلى الواقع التطبيقى . لذلك يضطر كثيراً إلى أن يتوقف بين الحين والحين — فى غمرة تحليل شوقى ونقده — ليتصدى لتحليل فكرة نظرية عن الشعر ونقده . فإذا تصدى لأداة التشبيه فى الشعر العربى ، فإنما ليركز على مسألة تبدو بديهية وإن كانت بحاجة دائمة إلى التأكيد ، هى أن أداة التشبيه أداة توصيل وجدانية من عقل الشاعر وضميره إلى عقل القارئ وضميره . وإذا كان الشاعر الحقيقى هو من يشعر بجوهر

الأشياء ، لا من يعددها ويحصى أشكالها وألوانها ، وإذا كانت مزية الشاعر ليست هى أن يقول لك عن الشىء ماذا يشبه وإنما مزيته أن يقول ماهو ويكشف لك عن لبابه وصلة الحياة به ، فإن التشبيه « إنما ابتدع لنقل الشعور بهذه الأشكال والألوان من نفس إلى نفس . وبقوة الشعور وتيقظه وعمقه واتساع مداه ونفاذه إلى صمیم الأشياء يمتاز الشاعر عن سواه . لأنه يزيد الحياة حياة كما تزيد المرآة النور نوراً » .
هذه إذن إحدى الأفكار النظرية حول الشعر عند العقاد . ومن بوادر الاتساق فى تفكير العقاد أنه يوائم — أو يحاول ذلك — بين نظرية الشعر ونظرية النقد . فالفكرة السابقة عن جوهر الشعر تقوده إلى القول: « إن المحك الذى لا يخطئ فى نقد الشعر هو إرجاعه إلى مصدره ، فإن كان لا يرجع إلى مصدر أعمق من الحواس فذلك شعر القشور والطلاء ، وإن كنت تلمح وراء الحواس شعوراً حيّاً ووجدانا تعود إليه المحسوسات كما تعود الأغذية إلى الدم ونفحات الزهر إلى عنصر العطر . فذلك شعر الطبع القوى والحقيقة الجوهرية » . هذا التصور النظرى للنقد هو الذى يقوده بالضرورة إلى المقارنة بين قصيدة شوقى التى تعارض المعرّى فى أحد أجزائها وبين قصيدة المعرى . . وهو بهذه المقارنة فى ذاتها يدلل على أهمية الملاحظة التى ألمحت إليها ، وهى أن العقاد كان يلج عالم الأدب الحديث قبل أن تكون التربة المصرية ممهدة لذلك . فالتحليل والمقارنة هما عماد النقد الحديث . وقد استخدمها العقاد — فيما رأينا — استخداماً حاذقا هو جزء خصب من تراثنا المحلى فى مفهوم الحداثة فى كل من الأدب والنقد .

وأعود إلى القول بأن العقاد كاتب الشعب الوطنى آنذاك ، ما كان يستطيع — مخلصا — أن يلتقى بشاعر السراى ، حتى إذا مدّ الشاعر الملكى أحد الجسور المغرية للعبور واللقاء ، كما رأينا فى رثائه لمحمد فريد . إن الوضعية الاجتماعية للعقاد ، وتقدم الفكرة السياسية عنده فى ذلك الوقت؛

كلاهما دفعه لأن يمجد محمد فريد ويفضله على مصطفى كامل (راجع التذييل بالديوان) بل يضعه فى مصاف شهداء الإنسانية فى العالم كله ، كما جاء فى مقاله بمجلة المصور قبل ذلك التاريخ بعامين . هذا الكاتب المناضل — فى المستوى السياسى والاجتماعى — كان لا بد أن يتبنى أكثر الاتجاهات الثورية نضجا فى النقد الأوربى الحديث ، كمدخل لدراسة أكثر الاتجاهات الكلاسيكية نضجا فى الشعر المصرى الحديث . وهو بهذا الاختيار الناضج كان يشارك فى وضع حجر الأساس فى بناء عصر النهضة الأدبية بتاريخ الفكر المصرى الحديث .

معالم الثورة الأولى :

لربما كانت الثورة الأولى للعقاد ، هى التى كانت تدفعه بين الحين والآخر إلى التطرف إن لم يكن الشطط فى « لغة الهجوم » التى استخدمها مع شوقى . بل لعل هذا الاندفاع فى استخدام هذه اللغة كان يؤدى به إلى تجاهل بعض العناصر الهامة فى ميزانه النقدى البالغ الصرامة والتحديد . فعندما يحاول شوقى أن يرثى عثمان غالب بقوله إن مملكة « النبات » ضجت لمصرعه ، وأن الزهر فى أكمامه « يبكى » الفقيد الراحل ، إلى آخر هذه التشبيهات التى تفيد بلا جدال مشاركة الطبيعة فى اليوم الحزين. يلتقط العقاد هذه الفكرة للتندر بما تصوغه من افتعال الحزن فيما يرى . لأن تفصيل حلة من أحزان الطبيعة على واحد من البشر ، إنما هو تعنت وعسف من المخيلة الشعرية الفقيرة فى ارتجال الرثاء . وليس من شك فى أن شوقى قد أخفق تماماً فى إسقاط العناصر الذاتية على العناصر الموضوعية كإخفاقه السابق فى صياغة المأثورات الشعبية ، ولكن هذا الإخفاق كان مقصوراً على زاويتين هما « التطبيق الشعرى » وحرارة « الانفعال » بالتجربة . فمحاولة المطابقة بين التجربة الشخصية وصياغتها الموضوعية فى معطيات حسية مباشرة ، كانت تفلت عند شوقى من بين

يدى التوفيق . كذلك يبدو أن قصائد « المناسبات » لم تستحوذ على انفعاله وإن استحوذت على اهتمامه . فجاءت الصورة العقلية للقصيدة مفروضة من أعلى قمة باردة فى المخ ، خالية من أى وهج لحرارة الشعور . غير أن العقاد لم يعالج القضية من هذا المستوى بل استطرد فى محاكاة الشاعر ساخراً من قصوره الفنى بغير استناد على حجج منطقية بل ربما بلغ به الحماس أن يصيب نفسه بالحجارة التى قذف بها شوقى حين تصور الخيال الشعرى موقوفاً على مقاييس العقل وصوره الذهنية . لذلك وقع فريسة سهلة للتناقض بين قوله النظرى « إن الحياة هى التى تنشىء الشعور » ومن يجهل الفرق بين التفكير والإحساس ، حرى به أن يجهل « الفرق بين مقام السخرية ومقام التعزية » وبين اصطياده لتشبيهات الزهر الباكى والنبات الحزين ، على أنها قفشات لشاعر « يخرف » !

وعلى غير هذا النحو جاء تحليله لقصيدة شوقى فى استقبال الوفد ؛ فقد بدأ حديثه عنها بمصادرة تقول إنها نكسة أدبرت بقائلها ثمانية قرون ، وكان فيها مقلداً للمقلدين فى استهلاله وغزله ومعانيه . وقدم العقاد لهذا التحليل بما يشبه المانفست للشعر المصرى الحديث ، فقال إن المطلوب من الشاعر المصرى الحديث ، أن يكون شاعراً ومصرياً وحديثاً ، أى أن يعرف « كيف يكون التعبير عن النفس المصرية » ، وأن يعرف « المعانى والمثل العليا والخيالات التى إذا نطق بها الشاعر وجد فى مصر من يمنحه تلك الأوصاف المستحيلة ، وأن يستوضح من ذلك كله مبلغ ما تنطوى عليه نهضة البلد من اليقظة الروحية والتقدم الاجتماعى » .

إن العقاد بهذه الكلمات إنما يرسى تقاليد النقد « المصرى » للشعر ، وهو فى ذلك أحد رسل الدعوة إلى الفكرة « المصرية » التى عرفت طريقها إلى الوجدان الثورى فى بلادنا منذ بداية القرن العشرين وإرهاصات ثورة ١٩١٩ إلى أن تبلورت نهائياً فى كتابات جيل الرواد الثوريين :

طه حسين والعقاد وسلامة موسى وهيكل . وبالرغم من أن العقاد عالج الفكرة المصرية فى مختلف مستوياتها السياسية والاجتماعية والأدبية ، فإن مستواها الأكثر عمقا اتضحت أبعاده الحقيقية فى النقد الأدبى إذ كانت المهمة الأولى أمام « النقد المصرى » هى تحديد ملامح الشخصية المصرية فى الفن ، وتغليب الروح المصرية فى عملية الخلق . أى أن المصرية هنا لم تكن مجرد التناقض الحاد بين « الوطنية» و « الاستعمار الأجنبى » ، أو بين الوطنية والهيمنة العثمانية . كلا ، إن أمثال هذه التناقضات لم تشكل سوى المظهر الخارجى للفكرة المصرية فى المستوى السياسى . كذلك لم تكن الدعوة المصرية مجرد الرغبة فى إيجاد مجتمع متحرر من ربقة المركبات والعقد النفسية التى تولدت خلال أجيال طويلة من الذل والعبودية . . فإن أمثال هذه الرغبة لم تجسد سوى المظهر الخارجى للفكرة المصرية فى مستواها الاجتماعى . وكذلك أيضا لم تكن « مصر للمصريين » شعاراً اقتصاديا مقصوراً على الدعوة إلى تمصير الشركات الأجنبية ، وإنشاء بنك مصر ، فليس هذا الشعار إلا تحديداً للفكرة المصرية فى مستواها الاقتصادى .

كانت أمام العقاد وطه حسين وسلامة موسى وهيكل ، وبقية أبناء الجيل الرائد للفكرة المصرية ، مهام أخرى أكثر غوراً وعمقاً فى وجداننا الروحى ، كانت أمامهم الفكرة المصرية فى مستواها الروحى ، عليهم أن يخلقوها ، ويجسموها ، إبداعا جماليًّا خالصا . فإذا اتجه سلامة نحو « الحضارة » ، واتجه طه نحو « المنهج » ، واتجه هيكل نحو « الفن الروائى » ، واتجه سليم حسن نحو « التاريخ » . . فإن العقاد اتجه مباشرة إلى النقد الأدبى فى أكثر مجالاته حساسية وتعقيداً ، وهو الشعر . فلا شك أن البحث الحضارى والمنهج الحديث والرواية الرومانسية والتاريخ ، كلها أدوات ضرورية فى استلهام الفكرة المصرية من باطنها الروحى الأصيل ، ولكن النقد الأدبى إذا عالج فنًّا كالشعر ، يستلهم تراثا

عربيًا عريقًا ، فإن المسألة تصبح أقل سهولة ويسراً . فإذا تصدى هذا النقد إلى قمة المرحلة الكلاسيكية التى تستمد أهميتها من محاكاة القديم واجترار قيمه ، فإن المسألة تصبح أكثر صعوبة ومشقة .

لذلك أقول إن العقاد بلغ فى معاناته للرسالة التى قام بها وهو بصدد شعر شوقى ، درجة عالية من الصلابة الإيمان ، والوعى العميق الحر . كان مؤمنا صلبا بالشعب المصرى كخامة أساسية تقوم عليها الفكرة المصرية . إن روح هذا الشعب كامنة فى الأرض والكادحين من أبنائها ، كامنة فى ذلك الفلاح الذى تترسب فى كيانه آلاف السنين من الحضارة . ومن هنا كانت المظاهر الخارجية للفكرة المصرية فى مستواها السياسى والاقتصادى والاجتماعى مجرد قشرة خارجية سرعان ماتتهاوى لتفسح المجال واسعا أمام بعض زعماء هذه المظاهر ، إلى طريق الخيانة . فليس الاستقلال الشكلى ، ولا بناء الشركات المصرية ، بعاصم للذين يقفون عند هذه الحدود من التردى فى هوة الخيانة للفكرة المصرية . فما أسرع ما تتناقض مصالح الأغلبية الساحقة من الشعب الكادح ، مع زعماء هذا الاستقلال وبناة هذه الشركات . فالأولى إذن أن نبحث عن « الروح » التى تستمد قيمتها من « الجوهر » الكامن فى شخصية « مصر » ولم يكن هذا الجوهر سوى الشعب فى واقع حياته اليومية وما تخفى من أصالة الجذور .

آمن العقاد إذن بالشعب المصرى ، وكان على وعى عميق بأن الكلاسيكية الشعرية فى مصر ، تتناقض شكلا ومضمونا مع حياة المصريين وحضارتهم . كان واعيا أمينا ، بأن الكلاسيكية الشعرية فى بلادنا لا تقوم بذلك الدور الباهر الذى قامت به الكلاسيكية إبان عصر النهضة الأوربية . كان يعى أن معنى النهضة عندنا يختلف عن معنى النهضة فى أوربا ، كان يبحث عن « المسار الخاص » للأدب المصرى الحديث .

من هذه الزاوية على وجه التحديد نتعرف على معالم الثورة الأولى فى حياة العقاد النقدية . الثورة التى كانت تشتط به أحيانا وتتطرف ، ولكنها فى النهاية كانت ترسى تقاليد النقد « المصرى » الحديث . وأولى هذه التقاليد هو مدى القرب أو البعد من الروح المصرية فى هذا الشعر أو ذاك . لم يغفل العقاد الدور الهائل الذى يقوم به التراث لا شعورياً فى تكوين الشاعر المصرى — ولكنه أضاف أن هذا الدور من الممكن أن يتحول إلى حركة إيجابية تزيد من قرب الشاعر نحو الأصالة ، كما أنه من الممكن أن يتحول إلى صخرة ضخمة تعوق حركة السير إلى أمام . التراث العربى قادر على أن يكسب الشاعر المصرى السمات « الإنسانية » التى يشترك فيها الشعر الإنسانى جميعاً . ولأن هذا التراث قريب منا غاية القرب ، فإنه قادر أكثر من غيره على إمدادنا بالوهج الإنسانى الصادق ، وحرارة التجربة المعاشة ، والانفعال الأمين . غير أن هذه القدرة من طرف واحد لا قيمة لها . ولا بد من أن يكون الطرف الآخر — الشاعر المصرى المعاصر — على استعداد كامل لأن يستلهم هذا الجانب فقط من التراث العربى القديم . وهو استعداد لا يتأتى إلا للشاعر الكبير الموهبة والعميق الأصالة . أما الشاعر الصغير العاجز ، فهو الذى يضعف أمام شكليات التراث من تراكيب مضامين ولغويات . هنا تصبح الكلاسيكية جريمة ضد روح مصر . ولعل هذه هى نقطة الابتداء الأولى فى التناقض الحاد بين نقد العقاد وشعر شوقى . جاء العقاد مسلحاً بهذه الروح — الروح المصرية — وكان شوقى مجرداً من هذا السلاح الروحى الخطير ، فلم تكن المشكلة مجرد جزئيات رديئة هنا أو هناك ، فى الوزن أو الخيال أو أدوات التعبير . . إن مناقشة هذه الجزئيات جرت قلم العقاد إلى الشطط فى أحيان كثيرة . أما المشكلة الكبرى فكانت افتقاد شعر شوقى الروح المصرية ، وبالتالى افتقاده الروح عموماً . فنحن إذا جاوزنا شطط العقاد فى التقاط الهنات الجزئية ، فسوف نعثر عند

شوقى على « ديباجة » عربية شامخة ، ندر بين معاصريه من استطاع محاكاتها . كان شوقى يملك طاقة تراثية هائلة استدرجت العقاد إلى أكثر جوانبه سلبًا ، وهو محاولة محاكاتها ساخراً منها . . غير أن هذه الطاقة لم تحصل من التراث على وجهه الإنسانى الرحيب ، بل استلهمت هياكل عظمية ميتة . ومن جديد أقول إنه إذا تجاوزنا شطط العقاد من ناحية وطاقة شوقى التراثية من ناحية أخرى ، فإننا سوف نعثر على القوسين الكبيرين اللذين يحوطان غياب الروح المصرية ، والروح عمومًا ، من هذا الشعر . القوس الأول هو الظروف الموضوعية ، والقوس الآخر هو العوامل الذاتية . وقبل أن نجوس فيما بين القوسين الكبيرين ، علينا أن نتلمس خطوات العقاد مع أقدام شوقى وإيقاعاته عند نهاية الجزء الأول من الديوان حين استهدف الشاعر أن يكتب الشعر ويستقبل الوفد فى آن .

منذ البداية لست أوافق العقاد على ذلك المنهج التعبيرى فى النقد الذى كان يجنح به من حيث الشكل إلى السخرية ، ومن حيث الموضوع إلى اتهام شوقى باللاشاعرية . هذا المنهج الذى يقوم على عدة حركات أقرب إلى المزاج والمداعبة ، كأن يترجم أبيات شوقى إلى قالب النثر حتى يدلل على افتعال شاعريتها واقتصارها على النظم فحسب . فلعل الطريق السليم إلى إثبات « النثرية » فى الشعر لا يتأتى من باب « الشكل » التركيبى للكلمات ، برصفها جنبا إلى جنب ، أو باصطناع المتوازيات والمتقابلات بين صفوفها المتساوية الأشطر والتفاعيل . فليس صحيحا أن شوقى أراد أن يقول : « تحول بقلبك عن الطريق ، وانج من جماعة الظباء السائرة فى الرمل » حين استهل قصيدته بقوله :

اثن عنان القلب واسلم به   من ربرب الرمل ومن سربه

إن اقتناص الأحرف والكلمات هنا فى مستواها اللفظى ، وإعادة رصفها فى قوالب النثر ، ليس منهجا صحيحاً للتدليل على فقدان الشعر

فى قصيدة شوقى . فكأن الناقد هنا لا يرى سوى المعانى المعجمية للألفاظ ، ويسقط بالتالى فى مهاوى الشكلية . ثمة أدوات نقدية رشيدة يعرفها العقاد جيداً لأنه علمنا إياها على مر السنين ، هى المعيار الحقيقى لشاعرية الشاعر أو زيفه وافتعاله . أما الانسياق وراء عاطفة الغضب إلى الطرف الأقصى من الانفعال الذاتى ، فإنه يؤدى بالناقد إلى هجران شاطئ الموضوعية ، والتماس «الألاعيب» الشخصية كترجمة الشعر إلى نثر أو صياغة الرأى النقدى فى قوالب الحكايات الفكاهية والنوادر ، أو التهكم على الشاعر باستحداث طرق أخرى لمنح شعره الحياة من جديد . إن هذه الأمثلة من انحرافات النقد عند العقاد ، أفقدته الكثير من سمات موضوعيته الصارمة ، كما أفقدته الكثير من تجاوب معاصريه وتعاطفهم . وليس التجاوب أو التعاطف ، عنصراً ذاتياً ، وإنما قصدت به العنصر الوحيد لبلورة «حركة» أدبية موحدة ، تقف فى الجانب الآخر لمعسكر الرجعية الأدبية . لا ريب أنه كانت هناك «جبهة» من الكتاب المجددين ، ولكن العشوائية والانفرادية ، واللاتخطيط ، حال بين هذه الجبهة والنمو التقدمى المتعاظم فى خط سيرها للأمام . بل إن رد الفعل بالنسبة لشعر شوقى ، أن عثر من بين المجددين على من «يرد له الاعتبار» . حقاً ، هذا لم يكن سوى «رد فعل» متضخم ومبالغ فيه إلى درجة بعيدة ، ولكن أثره فى جماهير القراء والكثرة الغالبة ، كان بالغ السوء .

أؤكد على هذه النقطة الخاصة بالانحرافات ، حتى أتجه مباشرة إلى المضمون الحقيقى الثورى لنقد العقاد . كان هذا المضمون كما قلت هو تشخيص الفكرة المصرية فى مستوى الفن . لذلك يتجه العقاد مباشرة فى تقويمه لقصيدة شوقى فى استقبال الوفد ، إلى قضية الموروث من الحياة القديمة فى الشعر المعاصر ، فيتساءل ما إذا كان الشرقيون ركبت قلوبهم «بحيث إذا أحبّ السلف العربى أتى الخلف المصرى متغزلا

بعد عدة قرون » . وهو أمر مستحيل كما يقول العقاد . من هذه الفكرة التى ترفض « الانخداع بالتكرار » وتخلع « ربقة التقليد » يكتشف العقاد التناقض الصارخ بين استقبال شوقى للوفد وبين التركيب العربى القديم ، المعد سلفاً لاستقبال الخليفة والحبيبة والكارثة فى تقاليد التراث العريقة . من هذه الفكرة اللامعة ، كان العقاد يكتشف كنزاً نقدياً باهراً هو المعيار الثمين القائل بأن ثمة تناقضاً غير قابل للحل السلمى بين الشاعرية التقولب ، أو بين الفطرة البدائية والرؤيا الحديثة من ناحية وبين الثبات والتقولب والمحدودية من الناجية الأخرى . بل إن الرؤيا الحديثة كثيراً ما تهرول إلى الفطرة البدائية تنهل من عفويتها وبكارتها وبراءتها التى لا تخضع لأى تحديد مسبق ، أو شكل جاهز . من هذه النقطة ترتفع قامة العقاد السامقة فى حقل النقد الشعرى حينذاك ، غير أن هذه الفكرة اللامعة ، لم تختط لنفسها نظاماً تفصيلياً شاملا يحميها من التبدد والتدهور والضياع . لا شك أنها « مرحلة » تفصيلية نابعة من المحاولة الريادية الأولى لإيجاد نقد « مصرى » ولكنها ظلت فى حدود العام دون الخاص لا ترسخ فى جوف أرض صلبة عميقة الأغوار ، متماسكة الجذور. وبينما نجد أن الموروث من الحياة القديمة، لم يفد الشعر المعاصر — ممثلا فى شوقى — فإن هذا الموروث على وجهه الآخر — الإنسانى — قد أفاد العقاد إلى أبعد مدى . لم يفد العقاد أية قيمة فنية أو فكرية من النقد أو الشعر فى التراث العربى القديم ، فلعله أقرب إلى القيم الأوربية فى الأدب ، مع التأكيد على جوهر الرسالة التى كان يقوم بها ، وهى إيجاد « نقد مصرى أصيل » يلعب دوره فى نطاق الفكرة المصرية ضمن إطار نهضتنا الحضارية الشاملة . إن ما أفاده العقاد من التراث هو المطابقة بين الأشكال التراثية ، والأشكال الكلاسيكية فى عصرنا ، وكيف أن كلاسيكيتنا ليست من عناصر « النهضة » كمثيلاتها فى الغرب . هذا هو الاكتشاف الأول للعقاد ، كخطوة للتعرف على «مسارنا الخاص» فى الأدب ،

عن طريق التراث ومعارضة محاكاته ، وعن طريق الغرب ورفض التبعية ، وضع العقاد لبنة رائعة فى البناء الشامخ للنقد الحديث . هذه اللبنة تقول :

● إنه لما تعود العرب على التكسب بشعرهم ، هجروا الصحراء إلى الملوك والأمراء ، يقدّمون لهم المدائح فى مقابل الذهب وكانت مدائحهم تبدأ بوصف المشاق التى عانوها فى سبيل الوصول إلى الممدوح تعظيماً له وإجلالا « فكان الابتداء بالغزل ووصف المطى فى قصائد نظمت فى المديح وما شاكله من أغراض حياتهم المتشابهة . . لا يعد من باب اللغو والتقليد » .

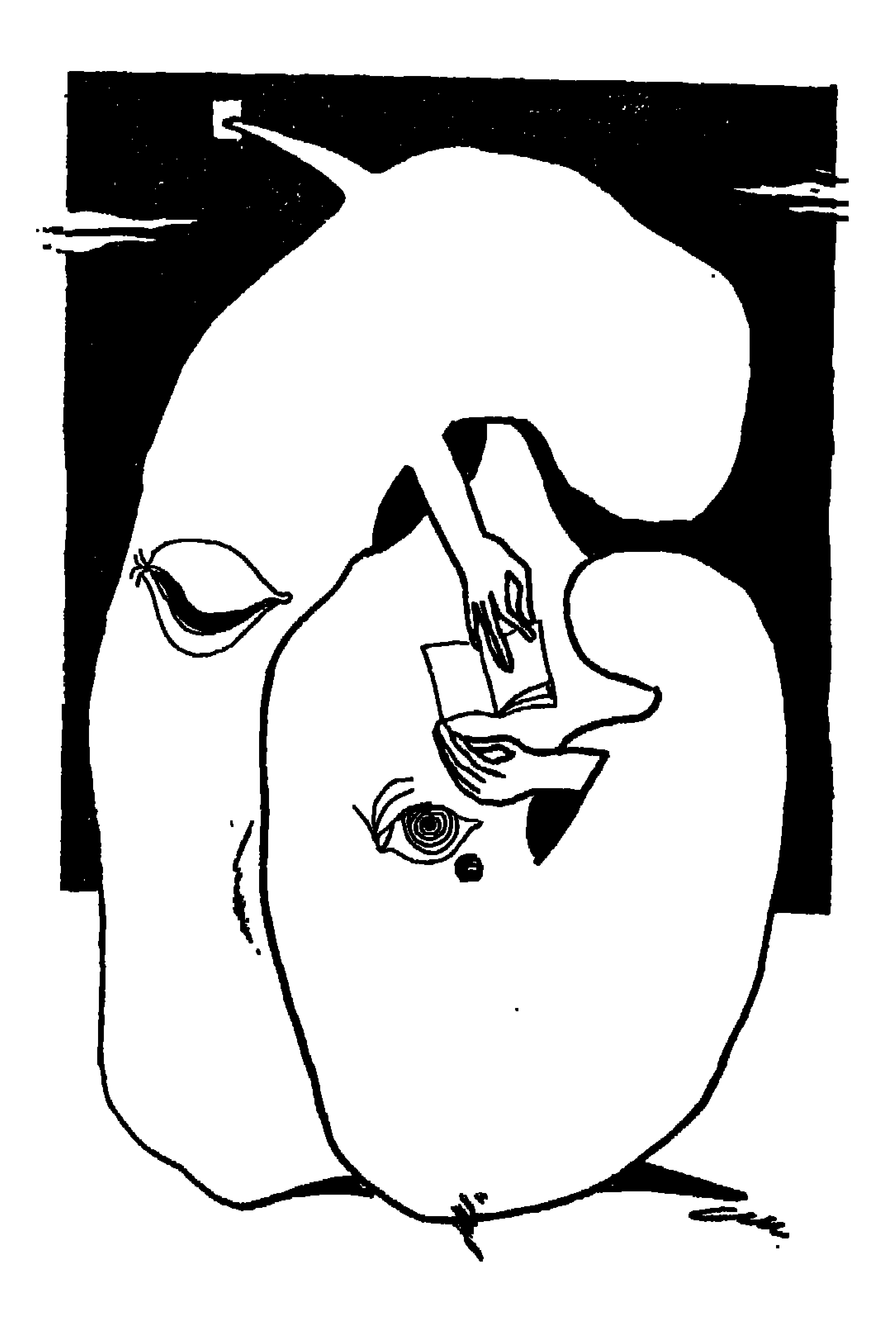
● ثم نشأت الصناعة فيمن نشأ بعد هؤلاء . . ومن عادة الصانع أن يحتاج إلى النموذج والأستاذ ، فأقاموا من المتقدمين أساتذة « واتخذوا طرائقهم نماذج لا يبدلون فيها » .

● ونشأ من شعراء الحضر جيل كان أحدهم يقصد الأمير فى المدينة وإنه لعلى خطوات من داره ، فكأنما قدم عليه من تخوم الصين لكثرة ما يذكره من الفلوات التى اجتازها ، وكان الواحد من هؤلاء يزج بغزله فى مطلع كل قصيدة حتى فى الكوارث المدلهمة « هؤلاء المقلدون الجامدون » .

إن العقاد بذلك ، يعيد الاعتبار إلى الشاعر العربى القديم عند الذين تطرفوا فاتهموه ظلما بأنه السبب فيما ابتلى به شعرنا المعاصر . فقد كانت الأصالة تعيش فى الماضى جنبا إلى جنب مع التقليد والمحاكاة ، تماماً كما هو حالها الآن . غير أن «الآن» هذه التى نعنى بها عصر النهضة الأدبية الحديثة فى بلادنا عند بدايات القرن العشرين تختلف عن مراحل التاريخ القديم فى أنها « نقطة تحوّل » يتعين علينا إزاءها مراجعة كل القيم التى انحدرت إلينا مع التاريخ القديم ، والتى ما تزال تنحدر إلينا مع التاريخ المعاصر . فالآن الحالية ليس لديها الوقت لأن يتعايش فى ظلها سلمياً ، السلب والإيجاب فى التراث . الآنية المعاصرة

تتطلب رفض « الغزل الرث الذى ليكت معانيه وأوصافه ولم يكن للنظامين والشعارير بضاعة غير ترجيعة منذ عشرة قرون » كما يقول العقاد . ثم يستطرد بصوت عال « . . تلك الكناسة الشعرية المنبوذة ، وهذه هى روح العصر فيما يحدسون » . أما نحن فنقول : وتلك هى المسألة الثانية التى يضيفها العقاد إلى مسألة « القالبية » ، وأقصد بها« روح العصر»..
فإذا كان الجانب السلبى فى اجترار الأشكال التراثية هو القالبية ، فإن الجانب الأكثر سلبا هو اغتيال « روح العصر » فى الشعر الذى نفترض معاصرته . وكما أن فكرة التناقض بين الشاعرية والقالبية هى إحدى التفصيلات المتفرعة عن « تمصير الأدب » أو الفكرة المصرية فى الفن ، فإن روح العصر هى الأخرى لا يقصد بها العقاد آنذاك ما نقصده اليوم من التجريد والمطلق بل إن روح العصر عنده هى المرادف الشعورى والحضارى للروح المصرية ، هذه الروح فى المستوى الفنى ، يعنى افتقادها أن تتحول قصيدة «استقبال الوفد إلى «مقالة منظومة كسائر المقالات التى نشرتها الصحف يومئذ » كما قال العقاد . إن « روح العصر » بمثابة التعبير الجامع للوجه الإنسانى العام . لذلك يشترط العقاد فى النشيد القومى — الذى فاز شوقى بجائزة أجود صياغة شعرية له — ألا يكون وعظا « بل حماسة ونخوة » وأن يلهج به لسان الشعب « وموافقا لكل زمان » .

إن العقاد من زاوية التكنيك النقدى ، يرتكب العديد من الأخطاء الجانبية ، كصياغة بعض آرائه فى رداء الأمثلة الشعبية والحواديت والقصص وترجمة الشعر إلى نثر والنثر إلى الشعر ، إلى غير ذلك من « الألاعيب » التى تهبط إلى مستوى الهذر البعيد عن وقار النقد العلمى الحديث ، والذى يأخذ به العقاد ، أساساً ، ومن حيث الجوهر . ولكن تكنيك العقاد فى ثورته النقدية الأولى يتسم بخاصتين رئيسيتين ، إحداهما سلبية ، والأخرى إيجابية . الخاصة السلبية ، أنه لا يحيط



برؤيته النقدية الظروف الموضوعية والعوامل الذاتية التى شاركت بصورة معقدة فى صنع الظاهرة المطروحة للبحث ، وهى هنا ، شعر شوقى . العقاد يكتفى برصد الظاهرة وتحليلها والتدليل على صحة وجودها ، ولكنه لا يتجاوز هذه الخطوة الهامة إلى الخطوة التى لا تقل عنها أهمية ، وهى البحث عن مصادر الظاهرة وأسبابها من الخارج والداخل . إن الاستقصاء البطىء لهذه المصادر وتلك الأسباب ، كان جديراً بأن يضع العقاد كلتا يديه على الأصول العميقة لفقدان « الروح » فى شعر شوقى ، وفقدان همزة الوصل بين هذا الشعر وعصرنا ، وفقدان مساهمة هذا الشعر فى مرحلة النهضة التى كنا بصدد بشائرها الأولى . ولعل الظرف الموضوعى الأول فى تعليل هذه الظاهرة يجمع بين جناحيه، غير شوقى ، محمود سامى البارودى رائد الكلاسيكية المصرية فى الشعر ، وحافظ إبراهيم أكبر معاصرى شوقى من شعراء المرحلة الكلاسيكية كلها . هذا الظرف الموضوعى يقرر :

● أن الثقافة العربية فيما قبل أواسط القرن التاسع عشر ، كانت تعانى انحطاطاً رهيبا يضع الشاعر — والمثقف عموماً — فى مأزق حرج ، بين الانضواء تحت راية التخلف الحضارى المرعب بتجميد كل قيمة حية فى التراث ورفض أى وجه إنسانى له والتركيز على الحواشى والذيول والهوامش وأثقالها بالمزيد من عيون الفقه اللغوى . أى بالتأكيد على الشكل دون « الحياة » . . وبين البحث عن المجهول فى الثقافات الأخرى لتطعيم التراث بزاد لا غنى عنه يشفع للعقول الجائعة إلى المعرفة ، أن تعرض محصولها المخزون للشمس والهواء . وهو فى هذه الحال يعرض نفسه لأقل بادرة يعلنها ، للاستشهاد العاجل .

● كذلك جاء الاستقطاب بين التراث العربى والحضارة الغربية منذ الحملة الفرنسية على مصر إلى الاحتلال البريطانى، تصنيفا

حادا متعسفاً للذين أرادوا صياغة الروح المصرية فى إطار التقدم الحضارى أو فى إطار الجمود المذهبى . بل إن هذا الاستقطاب الذى أحدثته فجوات التخلف بين الفرد والسلطة الدينية، وبين الفرد والسلطة المدنية ، كان من نتائجه الأولى ، بلورة تناقض مفتعل بين التراث والحضارة الوافدة . وأضحت الأصالة تعنى التراث ، والزيف يعنى التحضر الغربى . . ولقد ظهرت حينذاك محاولات ساذجة « للتوفيق » بين النقيضين ، تبدأ جهودها بالاعتراف الرسمى ، بأنهما نقيضان . ولم تظهر المحاولات الجادة لتبين العلاقة الجدلية العميقة بين التراث العربى والتراث « الإنسانى » الأشمل ، إلا فى مرحلة متأخرة نسبياً ، إذ أقبلت بعد الحرب العالمية الأولى .

● كانت الحياة السياسية فى مصر تحت سلطان الإنجليز والوالى التركى والعميل المصرى ، تمزق كيان أية تجربة وطنية أصيلة فى مجال العلوم الإنسانية . لذلك كانت الشخصية المصرية فى المستوى الحضارى شخصية « غائبة » ، وفى المستوى الفنى شخصية « ضائعة » . وكان الشاعر المصرى — والمثقف عموماً — أمام أحد اختيارين حاسمين : إما التمزق الملتاع بين أطراف النزاع على اغتيال كياننا القومى فى الثقافة ، وإما الانصياع المطلق للقوى السائدة . أما محاولة التجاوز والتخطى إلى ما هو أكثر ارتباطاً بالروح المصرية فى رفضها للسلطات الرجعية الثلاث ، فكان شيئاً قريباً من الاستشهاد ، إذا لم يكن ضرباً من ضروب المستحيل .

هذه هى الخطوط العريضة للظروف المحيطة بعصر شوقى ، قبله بقليل وبعده بقليل . غير أنه إذا كان التكوين الذاتى المستقل للبارودى قد رماه فى أحضان الثورة العرابية كواحد من قوادها العسكريين ، وإذا كان التكوين الشخصى المستقل لحافظ قد رماه فى أحضان الشعب كواحد من أبنائه البؤساء ، فإن التكوين الخاص لشوقى قد رماه بين

أحضان القصر الملكى كواحد من بنيه المخلصين . وتلك هى مأساة شوقى الأولى : أن تكوينه الذاتى لم يساعده على الثورة كالبارودى أو التمرد كحافظ ، وإنما فتح له باباً واسعاً للانتماء إلى العرش الممثل للسلطات الرجعية الثلاث فى وقت واحد .

إن ارتباط البارودى بالثورة ، هو الذى أثمر روائع شعره ، كذلك فإن ارتباط حافظ بالشعب هو الذى صاغ أجمل قصائده — وعندما انفصل البارودى عن تيار الثورة ، انحدرت القيمة الحقيقية لشعره . وعندما كان حافظ يتردد فى الارتباط بالشعب ، ويضطر للالتصاق الساذج المفتعل ببعض الفئات العليا كان شعره يتردى فى هاوية الزيف والافتعال .

ليس معنى ذلك أن ثمة ارتباطا آليًّا بين قيمة المضمون وقيمة الشكل فى المستويين الفكرى والجمالى . وإنما كان الارتباط بالثورة العرابية فى حينها من جانب أحد ضباطها الشعراء ، بمثابة الارتباط بالانفجار الحضارى الأول فى حياتنا الاجتماعية كلها إبان العصر الحديث. لم يكن قط ارتباطا عسكريًّا أو سياسيًّا ، بل كان ارتباطا عضويًّا شاملا بين مختلف التناقضات السابقة على عصر النهضة . كذلك لم يكن الارتباط بالشعب فى زمن حافظ إبراهيم ، ارتباطاً ميكانيكيًّا ، يستهدف من الشاعر أن يكون بوقاً نحاسيًّا يخطب فى الجماهير و يهتف فى المظاهرات ويهيج الرأى العام . كلا ، وإنما كان الارتباط بالشعب ، يعنى فى المقام الأول ، الارتباط بجوهر عصر النهضة . وهو التأكيد على ميلاد الشخصية المصرية ، وكيانها الفنى الخاص . . من هنا كانت ثورية المضمون تعنى فى نفس الوقت ثورية الشكل ، بل لم يكن فى ذلك الحين أية فروق نقدية بين الشكل والمضمون تتيح التفرقة المجازية بينهما .

هكذا أيضاً ، كان شوقى فى ارتباطه بالقصر . لم يكن ارتباطاً شكليًّا لصلته بالارستقراطية . وإنما كانت هناك « رابطة دم » بينه

بين كل ما يمثله الحديو من قيم حضارية . والمظهر الأول لهذه القيم ، هو التخلف عن مستوى العصر فى كافة مجالات الحياة الفكرية ، حتى إذا سافر شوقى إلى باريس لم يجئ منها بأى محصول ثقافى يذكر . والمظهر الثانى هو الاستناد على أكثر الركائز الرجعية رسوخا فى قواعد المجتمع . والمظهر الثالث هو الاتصال الحميم بأكثر الجوانب سلبا فى الاستعمار الأجنبى والباب العالى .

هذه كلها ، عثرت فى شوقى على تربة خصبة ، كإنسان طموح إلى الجاه الطبقى الممتاز ، فليس الشعر — من هنا — إلا إحدى الوسائل (الشرعية !) للوصول إلى غاية هذا الطموح . ومن الطبيعى إذن أن يجيء هذا الشعر فى حدود هذا المعنى ، مثقلا بتراث القدامى من السائلين والواصلين والطموحين . من الطبيعى أن يتجه شوقى إلى كافة القيم التى يمثلها القصر ، بالضراعة والابتهال . وأن يقف عمره كاملا للبحث عن أشكال هذه القيم فى التراث . ومن الطبيعى حينذاك ، أن تكون هذه الأشكال هى الوجه السالب للتراث ، هذا من ناحية المضمون . ومن الطبيعى كذلك أن يضطر شوقى إلى اجترار الشكل الجاهز الموضوع والمستهلك منذ عشرات القرون . حتى إذا جاء شوقى فى القرن العشرين ليرثى محمد فريد أو يستقبل الوفد أو يؤلف النشيد القومى ، فإنه لن يستطيع — صادقا — أن يتزحزح قيد أنملة عن (أصالته !) فى الاجترار والانتحال .

تلك هى الجذور الغائرة فى وجدان شوقى ، التى تتناقض كيفياً مع الجذور الغائرة فى وجدان العقاد . فالعقاد لا يجمع بين ثورية البارودى الأولى وتمرد حافظ إبراهيم بغير تحفظ ، وإنما هو يستبصر — كرجل فكر — بمعنى النهضة التى تغلى بها بلاده فى المستوى الحضارى الشامل . وإذا كان العقاد لم يتمكن فى حدود أدواته النقدية آنذاك من اكتشاف المصادر الأساسية لعجز شوقى عن اللحاق بركب

النهضة ــ حتى فى صورتها الكلاسيكية ــ فإنه قد نجح بغير شك فى رصد « الظاهرة » وتحليلها إلى عناصرها الأولية. وإذا كان فى كثير من الأحيان ، قد جنح إلى الشطط والتطرف إلى رد الفعل ، فإن هذا لا ينفى القيمة النقدية الرائعة التى دفعته لأن يقف فى شجاعة أخلاقية رائدة فى وجه أعتى القمم الكلاسيكية فى مصر .

إن شوقى فى الطرف النقيض للعقاد ، لا ينى عن الحصول على معجبين ومؤيدين من بعض التلامذة والمعلمين الذين تلقوا العلم فى أكثر صوره تخلفا . إنهم يعجبون مثلا بالنشيد القومى ، وأحيانا برثاء مصطفى كامل ، لا لشىء إلا لهذه « الجزالة » و « الفخامة » التى تنهب من عقولهم الوعى بقيمتها الحقيقية . هناك « شيزوفرينيا روحية » إن جاز التعبير عن الازدواج العقلى والانفصال الشعورى عند هؤلاء الذين يلتقطون ألفاظا محنطة لن تخفى بحال رائحة الرم التى تنطوى عليها . لقد أصيبت أجيال كاملة بفقدان حاسة الشم حتى إنها لم تعد تميز بين الحياة والموت فى الشعر وهذه هى القضية التى يتصدى لها العقاد فى الجزء الثانى من « الديوان ». ولكن قبل أن يودع الجزء الأول يقوم بما يمكن تسميته بعملية التصوير الكلى فى العمل النقدى كتكملة ضرورية للتصور الجزئى المفصل . حينئذ يقول « . . ودعاء شوقى ونشيده كلاهما معيار لتعبيره عن المعارف القومية ، فلا هو فى الشعر ولا فى النثر شاعر قومى موفق العبارة ، وقد قرناهما لتشابه الخطأ فيهما ، وربما كان خطؤه فى النشيد أخف وأهون ، من حيث إن الأناشيد لا يصلى بها فى المساجد والكنائس لا من حيث المزية الفنية والفضيلة المعنوية . بيد أنا لا نرى معنى لزج الأديان فى الأناشيد الوطنية . . . » .

من كافة الزوايا يقف العقاد على الطرف النقيض من شوقى . ولكن هذه الزوايا تتجمع فى بؤرة واضحة هى القومية . لم يكن ولاء شوقى لمصر . هذا هو الفيصل فى تخطيط المعركة . وبالتالى لم يكن شعره

مصرياً فى روحه وقيمه الفنية والفكرية . كان ناطقا باللغة العربية فى مستواها التراثى الموغل فى القدم . كان مترنما بالبحور العربية فى المستوى الاجترارى العاجز . كان محافظا على قيم وأخلاقيات وتقاليد ، ترسخ القواعد العثمانية ، وتؤصل لكل ما هو غير مصرى . لم يكن على الطرف النقيض من العقاد ، بل كان على الطرف النقيض من مصر . مصر الشعب ، ومصر الحضارة ، ومصر الروح ، ومصر الثورة .

الديوان يستمر :

عندما يقول العقاد «. . وإن المرء ليزهى بآدميته حين يلقى بنفسه فى غمار الآداب الغربية » — فى صدر الجزء الثانى من الديوان — إنما يقرر إحدى الحقائق الهامة التى كان لها أثر بعيد فى تكوين عصر النهضة الأدبية الحديثة فى بلادنا . تلك الحقيقة هى أن الوجه الأدبى للغرب ، كان من العوامل الرئيسية التى أضافت إلى نهضتنا وقوداً أشعل فيلها روح التوثب . فلقد كان الأدب الأوربى « رؤيا » جديدة للعالم ، تواكب الرؤيا الحضارية الحديثة التى يقودها الغرب ، ولكنها تتجاوز رؤيا القرون الوسطى التى سادت آدابنا منذ عصور الانحطاط إلى ما قبل نهاية القرن التاسع عشر . ولقد كانت المسافة الحضارية الشاسعة بيننا وبين الغرب ، منعكسة فى المستوى الأدبى على هيئة « رؤى » فنية عميقة الأغوار تتبدى فى الآداب الغربية ورؤى سطحية متشبثة بالقشور تتبدى فى الآداب العربية . الرؤيا الأوربية مزدحمة بالكشوف العلمية والاقتحامات الفلسفية والتجارب الأدبية والفنية ، لا يهمها أن تتلمس مواقع أقدام الإنسان الغربى المعاصر لها فحسب ، بل يعنيها فى الكثير أن تتبع هذه الأقدام على مدى التاريخ . ولا تهمها أن تتلمس مواقع أقدامها على هذه الأرض فحسب ، بل يعنيها فى الكثير أن تصل أقدامها إلى أبعد وأعمق ما فى الكون — بينما كانت الرؤية العربية مثقلة

بمفاتيح ملكوت السموات التى تعرف ما فى البحر والجو والبر ، ولكنها تحافظ على أسرارها فى المواثيق المطلسمة حتى لا يجرؤ أحد على قطف الثمار من شجرة الحياة أو شجرة المعرفة ، تلك الشجرة المحرمة على « المؤمنين » أن يجازفوا بلمسها فضلا عن قطف ثمارها .

كانت أوربا قد تطاولت على شجرة المعرفة منذ القرن الخامس عشر وراحت تلتهم وحدها ثمار شجرة الحياة طيلة أربعة قرون أوشكت أن تنتهى عند عصر الثورة الحضارية العظيمة التى شارفت القرن التاسع عشر حيث اكتشفت رؤياها الباهرة على أيدى داروين وماركس وبلزاك ودستويفسكى وغيرهم . ولم يكد يطل القرن العشرون على دنيانا ، حتى كانت جيوش العلماء والفلاسفة والأدباء والفنانين ، تسطو على القلب الإنسانى والعقل الإنسانى والنفس الإنسانية فى شجاعة لم يعرفها أحد قبل فرويد ولينين وجيمس جويس وسبنسر وبقية الركب العظيم .

أما نحن فقد توافقت رؤانا المطمئنة إلى أننا الألف والياء ، البداية والنهاية ، مصدر كل الأشياء ، ومصير كل الأشياء ، المنبع والمصب .. توافقت هذه الرؤى مع الأشكال التراثية المطلقة فى الأدب ، التى تجعل من نفسها « خاتمة أبدية » لكل إبداع وخلق . وليس « على الآتين من بعدى » إلا التمسك بأهداب السلف ، وتقبيل الثرى المتراكم فوق الكنز الموروث . فما أعنف الهزة أو اللطمة التى أفاقت الكثيرين عند نهاية القرن الماضى ، سواء أولئك الذين فروا مذعورين إلى المغارات والكهوف ، أو أولئك الذين فقدوا النطق لتوهم وصمتوا إلى الأبد بالسكتة القلبية ، أو أولئك الذين جرفهم التيار نهائياً إلى ماوراء البحار ، أو أولئك الذين ثبتوا على أرضهم يتأملون ما يحدث ويحاولون « الفهم » و « الإدارك » .

كانت الصدمة الأولى هى الأساطيل الفرنسية المعبأة — إلى جانب الأسلحة النارية — بالمطابع والمعاجم وجمهرة العلماء والباحثين . ولم

ترس أساطيل نابليون طويلا على الشواطئ المصرية ، فقد رحلت بعد ثلاث سنوات ولكنها تركت بصمات ثلاثة قرون . لقد لفظت أرضنا كل ماهو سلبي من فرنسا ولكنها لم تغفل قط كل ما يلبى احتياجاتها الظامئة إلى أضواء الحضارة الجديدة . ثم رست أساطيل نابليون طويلا على بعض الشواطئ العربية الأخرى ، فاختلفت الأصداء وردود الفعل ، بحسب ما كانت تحتويه رمال هذه الشواطئ من طبقات حضارية متنوعة . منها ماذاب مع الحضارة الوافدة ، ومنها ما ارتد عن هذه الحضارة وانتكس بمركبات النقص المتجرثمة ، ومنها ما تفاعل معها تفاعلا صحياً بعيد المدى .

ولم تكن نيران الحملة الفرنسية قد بردت حين أقبل الأسطول البريطانى يحمل أعلام الاتفاق مع فرنسا ، أن تدع « مصر » ضمن منطقة النفوذ البريطانية تطبيقا لميثاق تبادل مناطق النفوذ الذى تم إبرامه أولا بين شركات الاحتكار الإمبريالى ، ووافقت عليه سلطات الاحتكار الممثلة سياسياً فى الحكم ، وقامت بتنفيذه والتعهد بحمايته وزارات الدفاع - أو الحرب! - الفرنسية والإنجليزية .

وكان الطريق مفتوحا أمام الاحتلال البريطانى ، بالرغم من كافة أشكال المقاومة الشعبية . لم تكن جراحنا من الحملة الفرنسية هى التى مهدت الطريق وإن شكلت أحد العوامل التى أدمت كياننا الدفاعى بثغرات يصعب ترميمها والتئامها فى فترة قصيرة . ولم تكن الخيانة الخديوية لهبة عرابى الثورية هى التىأعطت المستعمر الجديد المفتاح ، وإن كانت هذه الخيانة هى الدقة الأولى من دقات فتح الستار على فصول المسرحية الاستعمارية الوافدة . وإنما كان الطريق ممهداً أمام الاحتلال البريطانى بفاعلية الانهيار الاقتصادى والاجتماعى والسياسى فى « داخل » البلاد بواسطة التحالف غير المقدس بين الآستانة والقاهرة ، بين الخلافة والولاية ، بالرغم من زوال الشكل الرسمى ، فقد كان هذا هو المضمون

الفعلى الذى مزّق كياننا الحضارى أمداً طويلا . وبات ممكنا لحضارة أقوى أن تغزونا من الباب الخلفى ، لا أن تتفاعل معنا — كأصدقاء وأنداد — من الباب الأمامى .

لهذا كانت الصدمة عنيفة غاية العنف هذه المرة ، فسكت البارودى — صوت الثورة العرابية — سكوته الأبدى . ولم تفلح جهود الأدب الشعبى المتوالية فى أن يصل صوتها العظيم إلى الآذان . لقد كان الباب الأمامى للحضارة الوافدة ، بابا رائعا ، قدمت منه أوربا العديد من النماذج الممتازة فى الأدب والفن .

وإذا كان فرح أنطون وشبلى شميل ويعقوب صروف ، قادوا الحملة الثورية الضارية على « جوهر » تخلفنا الحضارى المرعب ، وقام الأفغانى ومحمد عبده بدور مضاد أحيانًا عندما اقتصر همهم على الجوانب الجزئية ، وبدور فعال أحيانا أخرى عندما تجاوزوا هذه الخطوة اليسيرة إلى خلق تيار مستنير من الفكر الدينى المتفتح ، فإن الجيل التالى — طه ، سلامة ، العقاد ، هيكل ، المازنى ، شكرى — كان أكثر معاناة للمسافات الحضارية الشاسعة بين الرؤيا الفنية الحديثة عند الغرب ، والرؤيا الكهنوتية عندنا . ومن ثم لم يحاولوا « نقل » الغرب إلينا وينتهى الأمر ، كما حاول شميل وأنطون وصروف ، ولم يحاولوا « الإصلاح » كما حاول الأفغانى ومحمد عبده . وإنما كانت محاولة جيل الرواد الثورية ، هى المزاوجة الحية العميقة بين رؤيتنا المتخلفة والرؤيا الغربية المتقدمة ، على اختلاف بين أبناء الجيل حول السبل والوسائل حينا ، والغاية والأهداف حينا آخر .

فعندما يقول العقاد فى صدر الجزء الثانى من الديوان « وإن المرء ليزهى بآدميته حين يلقى بنفسه فى غمار الآداب الغربية ، وتجيش أعماق ضميره لتدافع تياراتها وتعارض مذاهبها ومتجهاتها وتجاوب أصدائها وأصواتها » فإنه يعلن إدراكه التام للدور الثورى الخلاق الذى قام به

الفكر الأوربى فى حياتنا الثقافية المعاصرة ، بل تحولنا الحضارى كله. ولهذا السبب بالذات ، أعلن العقاد فى السطور التالية لهذه المصادرة — إن جاز التعبير — أن خلافه مع أنصار شوقى ليس خلافاً على « درجات الإجادة وخطوات السبق » ، وإنما الاختلاف فى صميمه « على نوع الشعر وجوهره » ثم على أدائه وطبقته . وهذا هو المعيار الأوربى الأول الذى أفاده العقاد حينذاك من كتابات النقاد الغربيين ، فإذا قال العقاد بعد ذلك إن الشعر الحقيقى هو الشعر « المترجم عن النفس الإنسانية فى أصدق علاقاتها بالطبيعة والحياة والخلود » وضعنا أيدينا على أول من تأثر بهم العقاد من نقاد الغرب : وليم هازلت .

ولعلنا نجد فى كتابات هازلت (١٧٧٨ — ١٨٣٠) حول شيكسبير وملتون ، مصدراً رئيسياً لهذا المعيار النقدى الذى اتخذه العقاد عند تقييم قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل فنحن لن نجد فى تراثنا من النقد العربى هذا التخطيط الذى آثره العقاد فى « تفنيد » قصيدة شوقى ، لما فيها أولا من « تفكك » يجعل من القصيدة « مجموعاً مبدداً من أبيات متفرقة لا تؤلف بينها وحدة غير الوزن والقافية » وليست هذه الوحدة «بالوحدة المعنوية الصحيحة ». حقاً ، لقد قال الحاتمى — من بين علماء القرن الثالث الهجرى — فى وحدة القصيدة «مثل القصيدة مثل الإنسان فى اتصال بعض أعضائه ببعض » (زهر الآداب ٣ — ١٦) ، وحقاً تأثر العقاد بهذا الكلام حين يقول « إن القصيدة ينبغى أن تكون عملا فنياً تاماً يكمل فيها تصوير خاطر أو خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصور بأجزائها ، واللحن الموسيقى بأنغامه ، بحيث إذا اختلف الوضع أو تغيرت النسبة أخلّ ذلك بوحدة الصنعة وأفسدها . فالقصيدة الشعرية كالجسم الحى يقوم كل قسم منها مقام جهاز من أجهزته ، ولا يغنى عنه غيره فى موضعه إلا كما تغنى الأذن عن العين أو القدم عن الكف ، أو القلب عن المعدة ، أو هى كالبيت المقسم لكل

حجرة منه مكانها وفائدتها وهندستها . ولا قوام لفن بغير ذلك » .
وبالرغم من تشابه التعريف بين الحاتمى والعقاد ، إلا أن ما كان يعنيه العقاد بالوحدة العضوية فى القصيدة شىء يختلف عما عناه الحاتمى بها ولكنه شىء قريب مما قال به رائد المجددين خليل مطران ، وقريب بدرجة أكبر مما قال به الناقد الإنجليزى وليم هازلت .

إن التشابه الحرفى بين ما قال به الناقد العربى القديم ، وما قال به العقاد لا يعنى التزام هذا الأخير بمضمون وجوهر كلمات الأول . لأن تلك الكلمات فى زمانها كانت تعنى مدلولا يتفق مع واقعها الشعرى ، يختلف عن مدلولها المعاصر الذى يختلف مع الواقع القديم ، ويتفق مع واقع جديد أشار إليه مطران ، ومن قبله هازلت . فليست عبارة « الوحدة العضوية » التى تلخص التعريف القديم دليلا على أن تراثنا الشعرى عرف هذه الوحدة بمعناها الحديث ، كما أنها ليست دليلا على معرفة النقاد القدامى بهذا المعنى . وإنما لا شك أن الشعر العربى القديم — طوال تاريخه مع وحدة البيت — كان يحقق « وحدة عضوية » على نحو من الأنحاء تتناسب مع طبيعة مراحل تطوره المختلفة . فإذا كان ابن الرومى قد حقق مستوى عاليا من الوحدة العضوية فى شعره كما يرى العقاد فيما بعد ، فإن عشرات غيره من الشعراء العرب قد أسهموا فى تفتيت هذه الوحدة . كما أنه إذا كان الحاتمى ناقداً متقدماً على نحو من الأنحاء فى فهمه الوحدة العضوية بالقصيدة ، فإن ناقداً آخر كابن قتيبة أمضى عمره كاملا فى تحديد شروط القصيدة الجيدة بعيداً عما ندعوه بالوحدة العضوية (راجع كتاب الصناعتين) . وهناك الكثيرون من النقاد الذين ساروا فى ركابه منذ ذلك الحين . فوحدة البيت العربى هى الأساس العمودى للشعر ، بغيره تتزعزع أركان العروض الخليلى، ولكن بواسطته يحفل التراث بأبيات الحكمة وفنون المدح والهجاء والفخر والرثاء ، وما إليها من أطلال الحب والهجر والغزل . ولم تكن المخيلة

العربية — فى تعاونها الوثيق مع الذهن العربى — قد تصورت حينذاك ما يقيم أود القصيدة وتكاملها بغير الوزن والقافية والروى . وهذه كلها تجعل من القصيدة عاملا حاسما فى توجيه الشعر نحو وحدة النغم ، لا « الوحدة المعنوية الصحيحة » التى قال بها العقاد مع مطران وهازلت . فالوحدة العضوية التى قال بها الحاتمى ، كانت تسمح بخروج الشاعر عن سياق المعنى ، مرة ومرات ، دون أن يخشى لومة لائم ، مادامت الحبال الصوتية للشاعر لم تتمزق بما يجرح طبلة الأذن للسامعين . يكفى أن يكتمل البيت بمعناه ، وأن تكتمل القصيدة ببحرها وقافيتها ورويها ، مهما امتدت إلى آلاف الأبيات ، فهنا معجزة الشاعر الكبرى كما رآها الأقدمون . ولقد كان من الطبيعى أن تحتل الموسيقى هذه المكانة المقدسة فى الشعر العربى ، كما كان من الطبيعى أن تحتل وحدة البيت صدارة التقييم النقدى ، لما كانت عليه الحضارة العربية آنذاك من بساطة ووضوح شديدين (وليس لأن العقلية العربية تخلو من القدرة على الخيال التركيبى كما يقول بعض الأوربيين المتعصبين كرينان) وإنما كانت بساطة الحياة الصحراوية ووضوح المعيشة فى الخيام ، هى العامل الأول فى تأسيس وتأصيل تلك « النظرة » التى تتلمس الوجود المحسوس فى وحدات ضيقة تسهل الإحاطة بها . فالوجود الرعوى أو البدوى أو القبلى ، لم يكن على درجة من الكثافة والتعقيد تسمح بخلق ما يمكن تسميته بالنظرة الاستيعابية الشاملة المركبة . وإنما تحددت العلاقة بين زعيم القبيلة أو العشيرة وبين « الجماعة » ، على أساس من « أهلية » هذا الزعيم أو ذاك للزعامة ، والفروسية فى بعض الأحيان . ومن هنا ، أيضاً ، تحددت العلاقة بين الشاعر والزعيم من ناحية ، وبين الشاعر والطبيعة من ناحية أخرى ، وبين الشاعر ونفسه من ناحية ثالثة . أما الوجود « الاجتماعى » للقبيلة أو العشيرة فلم يمس شغاف قلب الشاعر إلا إذا تخلل الطبيعة (الصحراء ، السماء ، الإبل ، الخيام) أو تخلل الزعيم

(العرش الديني والعرش الدنيوى) أو تخلل ذات الشاعر الفرد (الحب والمقت) . ولقد كان خلو الرؤية الشعرية القديمة من الوجود الاجتماعي للبشر هو المصدر الأصيل لخلو الشعر القديم من هذه « الوحدة الحيّة العميقة » فقد أفرغ الشاعر القديم قصائده من مضمون الوحدة الحقيقية، واحتفظ بكافة قوانين الشكل التي لخصتها « الموسيقى » أصدق تمثيل.

على النقيض من ذلك كان العصر الحديث في أوربا ، يعاني ويلات الانصهار الجديد في بوتقة « العالم المركب » الذى فوجئ به الشعراء . وكان هازلت واحداً من أولئك النقاد المغمورين في القرن الماضى ، لأنه كان يصنع شيئا جديداً للغاية هو الجمع بين أدوات البحث الأكاديمى ، وخصائص الفكر الطليق الحر . فلقد أحس في وقت مبكر أن التراث الأوربي الضخم في النقد الأدبي ، يتنازعه تياران رئيسيان : التيار الأول ، وهو التيار الغالب على مؤسسات الأدب الرسمى، هو التيار الأكاديمى الذى يعنيه في المقام الأول « أدوات البحث العلمى » في التصنيف والاختيار والترتيب والفرز والتبويب ، أى في كلمة واحدة « النظام » أو « الهيكل » ؛ وهناك التيار الآخر الواسع الانتشار والسائد على أذواق الجماهير خارج جدران الجامعات ، في أكشاك الصحف وباعة الدوريات الأسبوعية . وهو أقرب ما يكون إلى « النقد الصحفي » الذى « يحيط القارئ علما » بصدور هذا الكتاب أو ذاك ، وقد أوجد هذا التيار جيشا من « مقدمى الكتب والمعرّفين بها » The Reviewers حاول هازلت أن يصنع — في صمت — شيئا جديداً هو المزاوجة غير المفتعلة أو المتعسفة بين التيارين . هو يأخذ من الأكاديمية روحها لا شكلياتها المحنطة في أساليب طقوسية من أسرار الكهنوت الجامعي. كما يأخذ من الصحافة وسائلها الحية المثمرة كشرايين للفكر تصل في سهولة ويسر إلى أوسع رقعة قارئه من جماهير المثقفين . هذا — من ناحية الشكل — ما حاوله هازلت من منجزات في مجال النقد الحديث . أما

من ناحية المضمون فقد حاول فى أناة وصبر بالغين أن يرصد ظاهرة « الوحدة الدينامية » فى القصيدة الإنجليزية على طول تاريخها من تشوسر إلى ملتون . وهو لم يستخرج من هذا الاستقصاء الدقيق لتراث شامخ مجموعة من القوانين الفنية ، بقدر ما نجح فى استخلاص أهم القضايا والمشكلات التى تواجه « اللحظة الراهنة » فى عصره الشعرى ، من خلال جذورها الغائرة فى وجدان التراث .

هكذا حاول العقاد ، أن يقوم بدور مماثل ومختلف معاً ، فى تاريخ نقدنا الحديث . كان مطران — كما سبق أن ذكرت — قد مهّد الطريق إلى مفهوم « الوحدة العضوية » فى القصيدة . ولم ينجح مطران لأسباب كثيرة فى ترسيخ هذا المفهوم بأرض الواقع المصرى ، وكان العقاد مؤهلا من جميع النواحى ، ومسلحا من كافة الزوايا ، للقيام بهذا الدور التاريخى .

لم يحمل العقاد « عكاكيز » الجامعة من درجات علمية فهو ثائر بطبيعته لا باختياره ضد الأكاديمية . ولم يحمل العقاد عكاكيز الجاه الطبقى فهو ثائر بطبيعته لا باختياره ضد الاحتراف السياسى المرصوف آنذاك بأوسمة الامتياز الاجتماعى ونياشين العراقة فى الحسب والنسب وبراءات الرتب المثقلة بالإنعام السامى . لهذه الأسباب مجتمعة يدخل العقاد على قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل مزوداً بهذه الرؤية الجديدة التى تستشرف آفاقا لم يعرفها الشعر العربى القديم ، خاصة فى عصور الاضمحلال حين كانت تتشابه القصائد بمعناها ومبناها تشابها يصل إلى درجة المطابقة فى جمود وموات « ورأيتهم يحسبون البيت من القصيدة جزءاً قائماً بنفسه لا عضوا متصلا بسائر أعضائها فيقولون : أفخر بيت ، وأغزل بيت ، وأشجع بيت ، وهذا بيت القصيد وواسطة العقد » . وهكذا يضع الناقد النافذ البصيرة — فى هذه الكلمات — كلتا يديه على « أصل البلاء » فى اجترار التراث اجتراراً آلياً لا اجتهاد فيه ولا

خلق . إن الشاعر العربى القديم لم يستطع أن يتجاوز نفسه وتاريخه حين أخفق فى محاولته استخلاص الجزء من الكل ، وتصور الكل من مجموع الأجزاء . ولم يكن هذا الإخفاق نتيجة نقص فى المقدرة الشعرية ، وإنما كان نتيجة المخيلة البدائية التى لم تصل الحضارة المحيطة من حولها إلى درجة من التعقيد تماثل ما وصلت إليه حضارة العصر الحديث حيث أصبح الشاعر قادراً على المزج والتركيب مثل قدرته على التمثل والامتصاص والتجسيد . تلك هى المسافة الشاسعة بين « الرؤية » البصرية التى كانت تعتمد على البراعة والذكاء فى الأزمنة القديمة و « الرؤيا » الحديثة التى تعتمد أولا وقبل كل شىء على مخيلة الشاعر وبصيرته الداخلية . ومن نقطة الانطلاق هذه أدرك العقاد مبكراً أن القصيدة القديمة ، خاصة التى تؤرخ منها لعصور الانحطاط ، تبدو « كالرمل المهيل » لا يغير منه أن تجعل عاليه سافله أو وسطه فى قمته « لا كالبناء المقسم الذى ينبئك النظر إليه عن هندسته وسكانه ومزاياه » . يتضح لنا بطبيعة الحال من هذا التعريف أن العقاد هنا يركز على « الشكل » فى القصيدة الناجحة . ولكنه تركيز مبرر بما كانت تستند عليه مكانه شوقى فى حقل الشعر كإمام للصناعة أو الصياغة . وكان حرياً بناقدنا أن يطبق موازينه الجديدة على القصيدة موضوع البحث فى حدود التكنيك النقدى المتوارث أو المتجدد . ذلك أن التطبيق هو المحك الأصيل لصدق النظرية أو فسادها . أما أن يتجه العقاد إلى نوع من « المناورات » التى تعتمد على البراعة فى النظم أكثر من اعتمادها على التقييم الموضوعى ، فإن هذه الشطحات كثيراً ما أطاحت بالعديد من النتائج الهامة التى كان يمكن الحصول عليها فى ثنايا بحثه الممتاز . مثال ذلك أنه أعاد نظم قصيدة شوقى بنفس أبياتها ونفس وزنها ، ولكن على نسق يختلف فيه وضع الأبيات عما كانت عليه . ثم ينتهى إلى نتيجتين حاسمتين هما : أن القصيدة كان الأجدر بها أن تسمى أربعة وستين بيتاً منظومة فى كل

شيء أولا شيء ، ثم إنها ربحت – من نظمه – وعادت أحسن نسقاً . وإذا كانت الدهشة تستولى علينا من أن العقاد حوّل مداعبته (إعادة نظم القصيدة) إلى جدّ ، فإن هذه الدهشة سرعان ما يتضاعف خطرها حين يستخلص الناقد من مداعبته قوانين عامة ، فقد أثبتت هذه التجربة عند العقاد أن التفكك يعنى « انعدام ترابط المعانى » التى تتخلل القصيدة من بيت إلى بيت ، حتى يصبح ثمة « معنى عام » لدى المتلقى فور انتهائه من قراءة القصيدة . كذلك أثبتت هذه المحاولة أن الناقد يعتمد المنهج التجريبى فى المعرفة أساسا نقدياً . ذلك أن إعادة نظم إحدى القصائد هو بمثابة إدخال القصيدة معملا شعرياً تنحل فيه أو تتحلل داخله إلى عناصرها الأولية ثم يعاد تركيب هذه العناصر على نحو جديد .

ولقد فات العقاد بغير شك أن ترابط المعانى لا يكوّن بأية حال الوحدة الحيّة العميقة فى بنيان القصيدة . إنه قد يعبر عن إحدى مراحل تطور القصيدة نحو الوحدة العضوية الكاملة ، ولكن هذه المرحلة فى حضارتنا لا تستقى مادتها من مفاهيم فلسفية متكاملة ، تنبع منها تيارات شاملة فى علم الجمال ونظرية النقد . فلربما لا يتحقق لقصيدة ما هيكلا دقيقاً منظماً من المعانى ، وربما تخلو هذه القصيدة من المعنى العام ، ولكنها برغم ذلك لا تخلو من « الوحدة » التى يشع تأثيرها على المتلقى من الترابط الداخلى للعناصر النفسية والفكرية والجمالية والاجتماعية والذهنية التى يتألف منها التركيب الخيالى عند الشاعر . وإذن فما يقصده العقاد – وحققه عملياً فى شعره – هو الارتباط الذى يحققه المنطق الشكلى بين الأبيات ، الارتباط « المعنوى » أى بما تدل عليه كل لفظة على حدة ، فما يدل عليه كل بيت بمفرده ، ثم ما تدل عليه القصيدة ككل . ولعل تضخيم الأهمية التى يراها العقاد فى « العامل الفكرى » بوحدة القصيدة ، كان رد الفعل العفوى لما آلت إليه الكلاسيكية الجديدة فى شعر شوقى من خواء وجفاف .

كذلك يدل المنهج التجريبي فى النقد على أن الاهتمام الآخر الذى يفرط العقاد فى التمسك به إلى درجة المبالغة هو الشكل بمعناه اللغوى . فإن إعادة نظم إحدى القصائد لا يدل على أن هذه القصيدة تفتقر إلى الوحدة الصحيحة بقدر ما يدل على عناية الناقد بأهمية الربط اللغوى على النحو الذى يصادفنا فيما أعاد العقاد نظمه من أبيات قصيدة شوقى . ففى الوقت الذى يبرهن فيه الناقد على أن حصيلة الكلاسيكية الحديثة هى اللغة ، يسقط هو نفسه فى هذا الخطأ حين يعممه نقدياً .

ولا ريب أن أمثال هذه الملاحظات على تكنيك النقد عند العقاد ، هو وليد ثورته العاتية على الأسلوب الأكاديمى فى البحث ، الذى يمنع الناقد الموضوعى من نزوة المداعبة أو « استعراض العضلات» حيث يبتعد الناقد عن روح العالم الدقيق . وقد أحس العقاد فى خاتمة حديثه عن « التفكك » فى قصيدة شوقى مبلغ ما وصل إليه من تطرف حين قال إنه يرفض الأقيسة المنطقية والمعادلات الرياضية « وإنما نريد أن يشيع الخاطر فى القصيدة ولا ينفرد كل بيت بخاطر » . ولعل وحدة الخاطر هذه هى« أضعف الإيمان » الذى نطالب به الشاعر الكبير . غير أن من هفوات الناقد يمكن أيضا ، أن ينزلق عن مستواه فى غمرة تمرده على القديم .

والقضية الثانية التى أثارتها قصيدة شوقى فى رثاء مصطفى كامل ، عند العقاد ، هى قضية « الإحالة » التى يوجزها فى فساد المعنى بالتعسف والشطط ومخالفة الحقائق والخروج بالفكر عن المعقول .. والمحاسبة العسيرة التى تعرضت لها القصيدة فى هذا الجزء من نقد العقاد هى « المحاسبة العقلية » كامتداد لمفهوم الوحدة العضوية فى الشعر . فالناقد هنا يمنطق «الصورة الشعرية » بنفس الأسلوب الذى يمنهج به « المعنى » و « الفكرة » . وفى رأيى أن العقاد بلغ ذروة التطرف فى « عقلنة » فن الشعر ،حين افترض إمكانية أن تتبلور الصورة الشعرية فى منظورات حسية « مفهومة »

ومدلولات فكرية « معقولة » ذلك أننا لا نتصور بيت شوقى القائل :

إن كان للأخلاق ركن قائم   فى هذه الدنيا فأنت البانى

كما تصوره العقاد حين بدأ دقته الحسابية فى تقييم هذا الرثاء لمصطفى كامل . فقد بالغ الناقد الحصيف فى تطرفه بل شططه حين وضع هذه المجموعة من المعالادت :

● كان مصطفى كامل زعيماً سياسياً يوقظ هذه الأمة ، فلو قيل فيه : إنه موقظ كل نفس بمصر فى عصره لما كان هذا حقاً . إذ كم فى مصر من رجال أيقظتهم ، كما أيقظت مصطفى نفسه ، الحوادث والعبر والمعارف . وكم من أناس لم يطرق لهم سمعاً ولا قلبا !

● فإذا زيد على ذلك « أنه موقظ كل نفس بمصر فى كل عصر » فقد صار الكلام لغوا وسفها . فإذا لم يكتف بهذا ، وقيل عنه : إنه موقظ : « كل الناس » فى جميع العصور فالأمر شر من اللغو وأقبح من السفه . (ملحوظة للعقاد يقطع بها الاستطراد : هذا وما تجاوزنا دائرته من النهضات السياسية . ثم يستأنف معادلته) .

● فما ظنك إذا خرج القائل من هذه دائرة إلى دائرة الإصلاح الأخلاقى فزعم أن ليس للأخلاق ركن قام « فى هذه الدنيا » إلا وهو من بناء رجل واحد ولد فى مصر عند أواخر القرن الماضى ، وأنها من بنائه قبل مولده وحيث لم تخطر له قدم ، ولم يسمع لاسمه صدى .

● فالنتيجة النهائية : « إذن يكون بكم العجماوات خيراً من شعر الآدميين » .

وما أخطرها من نتيجة يسطرها ناقد مسئول ؟ ! إن هذه النتيجة نفسها من « نتاج » التقييم العقلى الصارم ، فلا شك أنها بناء منطقى يغرى تسلسله الأخاذ بأن ينضوى القارئ تحت لواء الناقد .

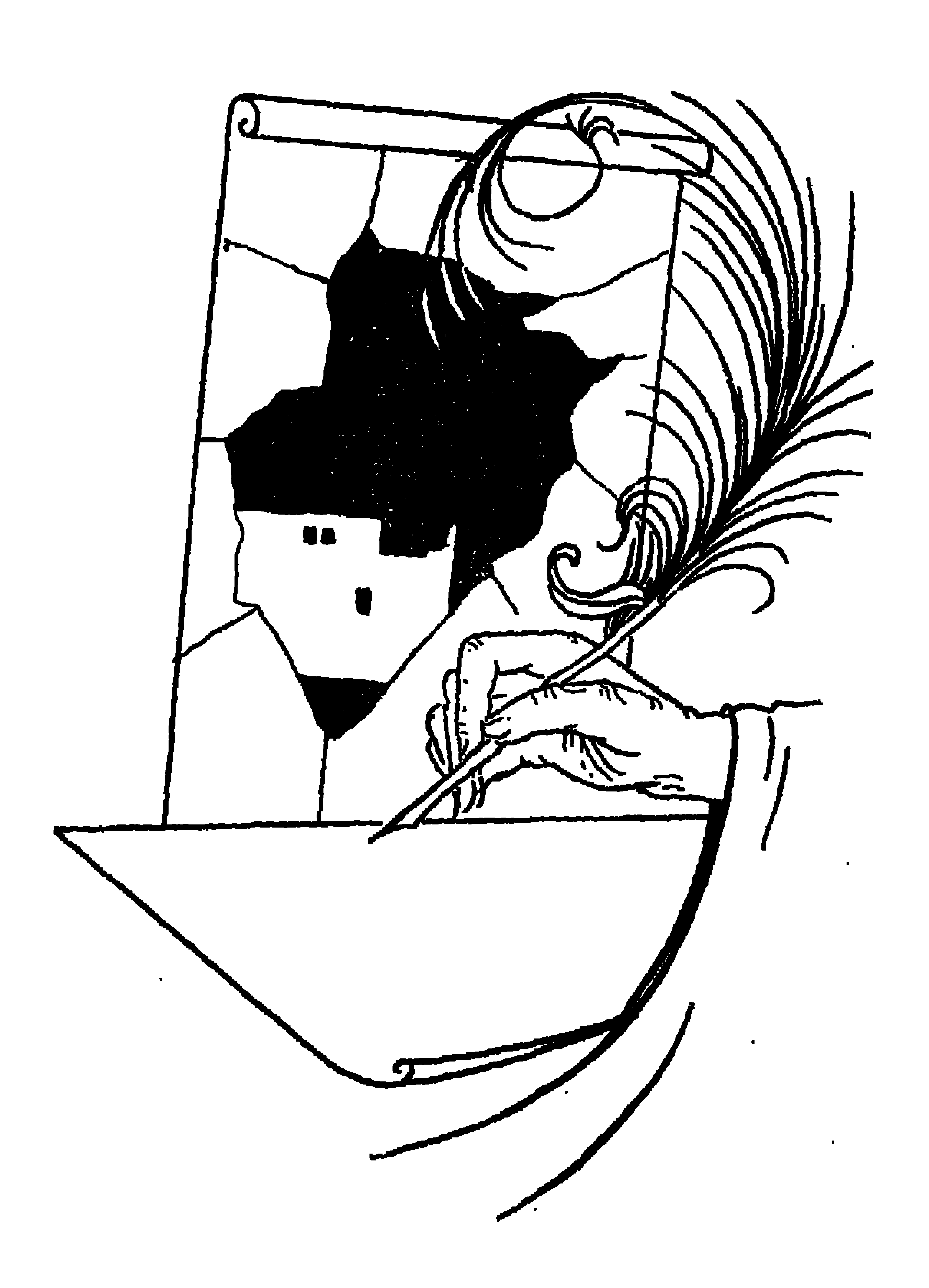
ولكن مهلا ، فليس هذا تحليلا فنيًّا للشعر ، بقدر ما هو رصد رياضي للغرض والمطلوب فى إحدى المعادلات . فالتحليل هنا « قاصر » على المقابلة الحرفية بين العالم الواقعى والعالم الشعرى على أساس أن الشعر نمط تعبيرى يصوغ الواقع المرئى ، البسيط ، المباشر . وهى رؤية أقرب ماتكون إلى المادية الميكانيكية التى تسطح الواقع فى كتلة سديمية ساكنة لا تعتمد فى حركتها إلا على الفعل ورد الفعل . فى تطبيق هذه الرؤية على على النقد الأدبى ، يختفى الخاص والعام ، والكم والنوع ،والسالب والموجب ، والتفاعل الجدلى بين أطراف الصراع فى الظاهرة الأدبية ، والترابط الداخلى بين أجزاء الظاهرة ، والوحدة الدينامية التى لا تخفى الاختلاف النوعى بين العناصر المتعددة الخالقة للظاهرة . وعندما يصل العقاد فى تطرفه إلى أن رثاء شوقى لمصطفى كامل « واضح الزيف » لمجرد « المبالغة » الشعرية فى القصيدة ، فإننا نفهم على التو أن الميزان العقادى لم يستمد هذه النظرة من هازلت ولا من خليل مطران ولا من النقد العربى القديم ، وإنما هو قد استمدها من طبيعة رؤيته الفكرية التى تبلورت فى تكوينه الاجتماعى كواحد من أبناء البرجوازية الصغيرة المصرية . وهى الشريحة الطبقية التى استقبلت رسل المادية الميكانيكية فى ذلك الحين من أمثال ماخ (١٨٣٨ — ١٩١٦) وبوخنر (١٨٢٤ — ١٨٩٩) ؛ ذلك أن منطوق الرؤية الفلسفية لهذا الشكل من أشكال الفلسفة المادية ، كان يمتلك مجموعة من الحلول الجاهزة لمشكلات هذه الفئة من المثقفين المصريين . لم تكن هذه الفلسفة تطرح قضية العلاقة بين الفكر والواقع ، لأن الحل النموذجى فى نظرها هو « الحل الواقعى » كما كانوا يسمونه حينذاك . وليس الحل الواقعى فى عبارة أخرى إلا الاستسلام لتفاعلات الواقع الذاتية بغير إرادة فاعلة للإنسان . لهذا اختلطت الرؤية الذاتية بالواقع الموضوعى اختلاطا يصعب معه

التمييز بين نوعية كل منهما . ولا سبيل بالتالى إلى تصور الحركة الدينامية التى لا تنتهى بين مختلف مستويات الواقع والوعى به، أو تصور اختلاف النسب بين جزئيات الظاهرة من ناحية ، ونسبة كل ظاهرة إلى الأخرى من ناحية ثانية .

وكان الجانب الفكرى من النقد الأدبى عند العقاد ، يخضع لهذه الرؤية الفلسفية التى تتلاءم مع تكوينه الاجتماعى . وبالرغم من ثورية هذه الرؤية فى تلك المرحلة البعيدة ، فإن تراكمات الأوجه السالبة لها بلغت شوطاً بعيداً من « سوء الفهم » الذى أوقع الكثيرين فى حبائل النظرة الفوتوغرافية للفن . وهكذا تنتهى عملية الخلق الفنى عند العقاد إلى نوع من المقابلة اللغوية — تصويراً وموسيقى — بين الواقع المألوف والمخيلة الحادة البصر . ولكنها مخيلة يقظة على التقاط ما لا يتنافى مع العين العادية . ليست لديها الجرأة على اقتحام عوالم مجهولة لن تسلم من عاقبة الدهشة . وتلك هى رؤية الاستسلام لمحدودية الواقع ، وميكانيكية حركته فى الزمان والمكان . من صميم هذه الرؤية جاءت عناية العقاد المتطرفة بالمدلول الفكرى المحسوس للشعر ، حتى تحول نقده فى كثير من الأحيان إلى محاجة منطقية « كيف يكون النعش فى السناء والسنى ، ثم يكون السناء والسنى فى النعش ؟ » و « الصبر على بؤس الحياة معروف ، أما الصبر على نعماها فما هو ؟ » . ومن الطبيعى لمثل هذه الرؤية النقدية أن تتوج عقلانيتها فى الشعر « بالحكمة » ، لأن الحكمة الشعرية ليست إلا تركيباً بارعاً لفكرة ومضت فى « ذهن » الشاعر ، وتمكن من صياغتها وفق المألوف من رؤى العين بحيث تودع وجدان المتلقى ما لم تتوقعه هذه العين . فقد قام الشاعر بعملية « تجميع » لجزئيات لها تجربة تاريخية طويلة مع حواس القارئ وذهنه ، إلا أن هذه الجزئيات حين التأم شملها فى « وحدة تركيبية » من صنع الشاعر ومهارته فى تجربة الخلق ، أصبح لها كيان جديد يفجأ القارئ من ناحية ، ويلبى احتياجاً واستعداداً داخلياً

للارتياح والإحساس بالمتعة . هنا « الكل من الجزء » فى بيت واحد ، ولكنه ليس استخلاصاً جدلياً يقوم به الشاعر فى المستوى الفلسفى لرؤيته الإبداعية . ليس تغييراً كيفياً لمجموعة من التراكمات الجزئية السابقة على صياغة التجربة بحيث تتحول من جراء عملية الخلق إلى « كل » واحد يتخلل بناء القصيدة بكامله ندعوه بالرؤيا لا بالحكمة . وإنما الحكمة فى الشعر هى من زاوية ما براعة لغوية فى تركيز المعنى المباشر . ومن زاوية أخرى هى تجريد لعملية الخلق الشعرى من أغلب العناصر المكونة للقصيدة مع الإبقاء والتركيز على الجانب الفكرى. ومن زاوية ثالثة هى إقامة البيت الشعرى على أساس من الاكتفاء الذاتى وإمكانية الفصل بينه وبين بقية بناء القصيدة . ومن زاوية رابعة هى تراكم كمى لجزئيات من المعرفة الإنسانية ، فتستلهم من « التجربة » هيكلها العظمى ، ويضيرها أن تكسو هذا الهيكل باللحم والدم . لهذا كله افتقدت الحكمة فى الشعر إلى « الروح » التى تشيع فى أوصالها فتبعث الحياة بين جنباتها ، وأمست شيئاً قريباً من عظات المنابر . لا تحمل رؤيا جديدة إلى العالم ، ولكنها شديدة الاحتفاظ بالقيم السائدة وبلورتها. ولأن العقاد يتميز بما يشبه الاتساق فى بنائه النقدى ، فإنه يحيى الحكمة فى الشعر تحية حارة إذا ما كانت فى مستوى « بلاغة » النبوة ، و « صدق » التنزيل . وليست البلاغة هنا إلا المهارة فى التركيب ، وما الصدق إلا فى المطابقة الحرفية وتلخيص الشائع . إلا أن هذا لا ينفى أهمية الهجوم الحاد الذى شنه ناقدنا على ما ورد فى قصيدة شوقى من « حكم » جانبه الصواب فيها كثيراً من المرات .

غير أنه من النتائج الهامة التى وصل العقاد إليها بالرغم من تطرفه ، وشططه أحياناً ، هو الاتهام الثالث لشعر شوقى بعد عاملى التفكك والإحالة ، وأعنى به « التقليد » . ولا ريب أننا لا ننكر تقليدية شوقى بالمعنى الفنى ، أى أنه شاعر الكلاسيكية التى تعتمد فى بعثها على اجترار



معانى الأقدمين وتجاربهم مع التعبير الشعرى . إلا أن العقاد فى اتهامه لشوقى بالتقليد ، يقصد شيئاً قريباً من معنى « السرقة » . وتجسدت حجة العقاد فى اتهام شوقى بما أقامه من مقارنات بين بعض أبياته وبعض قصائده ، وبين المتنبى — والأنبارى وابن النبيه والمعرى ومسلم بن الوليد والشريف الرضى . وتنبع أهمية النتيجة الخطيرة التى وصل إليها العقاد من أننا نلقى عادة على أنفسنا مجموعة من التساؤلات : لماذا السرقة ؟ وهل يكون سرقة مباشرة تقليد قصائد أخرى أو معارضتها أو تشويهها ؟ وما هى الدلالة الحضارية للسرقة فى الشعر ؟ وما معنى أن تكون السرقة « مجرد توارد خواطر » ؟

ومن شعر شوقى يتبين لنا أن المسألة ليست مجرد اجترار كلاسيكى يقتضيه عصر البعث الشعرى . فلقد كان البارودى رائداً للكلاسيكية فى شعرنا منذ أواخر القرن التاسع عشر ، وكان متأثراً بالمتنبى إلى أبعد الحدود . ولكنه استطاع أن « يخلق » شيئاً يتسم بالإبداع الذاتى للفرد ، جنباً إلى جنب مع تأثراته الشديدة بالآخرين . عاد البارودى بالشعر العربى إلى نصاعته فى القديم حين كانت المعانى وصياغتها أرضاً بكراً . ولكن البارودى فى تأثره كان يحاكى « الروح » التى أبدعت أعظم الجوانب الإيجابية فى التراث حتى « يحرر » الشعر المعاصر له من بصمات عصور الانحطاط التى فرغته من كل مضمون ، وأبقت له مغامرات الشكل التى استهلكت أغراضها التاريخية . فالروح ، والحرية ، هما عماد الرؤية الكلاسيكية فى شعر البارودى . أما شوقى فلم يكن تأثره بالروح ، ولم يكن هدفه هو الحرية ، بقدر ما كان الأمر — فى تصور العقاد — مجرد براعة فى اصطياد « التراث » واغتياله على خشبة التقليد الصارم . وربما كان العقاد مغاليا بعض الشىء فى تصوير شوقى على هذا النحو ، ولكن مبالغته لا تنفى « الحالة » التى اكتشفها فى الغالبية العظمى من نظم هذا الشعر . والحالة يمكن إيجازها فى أن شوقى كان على جانب كبير من

الضحالة الفكرية ، والفراغ الوجدانى ، بحيث إن مقدرته الشعرية تحددت بصورة نهائية فى طاقته الضخمة على « النظم » . وقد اختار من تجارب النظم أكثرها إيغالا فيما يشبه التعجيز الموسيقى ، فاستقى أغلب قصائده من بحور صعبة التزم فيها كافة قواعد اللغة والوزن التزاماً صارماً . وكانت النتيجة الحتمية هى « ضيق الحدود » التى يسمح فيها لنفسه بالتجديد . ومن تفاصيل هذه النتيجة أن يعقد أواصر القربى بينه وبين أكثر الجوانب ثباتاً فى هذا التراث ، وهو الشكل بمعناه التقليدى . ولما كان هذا العنصر فى البناء الشعرى العربى قد عرف مئات التجارب بل آلافها على مر العصور من الجاهلية إلى عصرنا ، فإن مجال التجديد يزداد ضيقاً وتقل إمكانياته ما لم يتسع أفق الشاعر فى تمثل « روح العصر » . وقد كان هذا العنصر الفعال غائباً عن وعى شوقى وتجاربه ، باستثناء إقدامه الرائد على إنتاج المسرحية الشعرية . ومن هنا — على وجه التحديد — تنحدر تقليدية شوقى وشعره من مستوى تمثل روح التراث لتحرير الشعر المعاصر له من ربقة الجمود التى ورثها عن أبشع قرون الانحطاط ، إلى مستوى التقليد الساذج ، سواء بالمعارضة أو التشويه أو النقل المباشر ، مما دعا العقاد فى حماسة وركوبه موجة رد الفعل أن يتهم شوقى بالسرقة .

قادت هذه « الحالة » التى وضع العقاد يده على مفتاحها ، أن يكتشف العنصر الرابع فى قائمة الاتهام الموجهة إلى الكلاسيكية فى شعر شوقى ، تلك هى « الولع بالأعراض دون الجواهر » ، إذ من الطبيعى حين يخلو الشعر من الروح التى يستمدها الشاعر من ذاته وعصره معاً ، أن يتحول إلى « صانع » تنحصر مهمته فى « مشابهات الحس العارضة » كما يقول العقاد . ومن الطبيعى أيضاً أن نحصل من الناقد هنا على أحد العناصر الإيجابية فى رؤيته النقدية ، هو حرصه الشديد على « التخصيص » فى الوصف والتصوير الشعرى ، بدلا من التعميم الذى يصف لنا إنساناً ما لا إنساناً معيناً ، أو يصور لنا موقفاً ما لا موقفاً معيناً . والشاعر يلجأ إلى

التعميم عادة حين يفتقر إلى أصالة الإبداع وخصوبة الخلق ، حين لا يستطيع أن يضيف من ذاته على العالم ، ولا يكسو بتفرده قشرة الكون .

ومن أهم العناصر ، أيضاً ، التي كسبها منهج العقاد في ذلك الحين هو « المقارنة » في التحليل النقدي وتقويم الشعر . إن تعميم هذا المقياس في ذاته يعد من أهم استلهامات الناقد الحديث للتراث العربي في النقد . فلا ريب أن « الموازنة » بين الشعراء كانت معياراً تقريبيّاً استخدمه النقاد العرب في تحديد القيمة الفنية للشاعر . وإذا كان الفرق بين الناقد الحديث والناقد العربي القديم ، هو الفرق بين مفهوم السلف عن القيمة الفنية في الشعر ، والمفهوم المعاصر . فإن ذلك لا ينفي حقيقة هامة هي تفتح الناقد الحديث على أكثر المنجزات إيجابية في تكنيك الناقد القديم . وإذا كانت القيمة الفنية قديماً تعني الالتزام الخليلي بعمود الشعر وأوزانه كما تعني الالتزام الجغرافي والتاريخي بالبيئة العربية ، فإن الناقد الحديث يعلم أية مسافة زمنية واسعة تكاد تفصله عن تخوم هذا الالتزام . ولكنه يتخذ من المقارنة شكلها ، ثم يضمنها محتوى جديداً هو « وحي الشاعرية ، وإلهام البصيرة ، وأصالة العبقرية » . ونحن نلاحظ دوماً حين يتصدى العقاد لتقييم الجانب الفني أنه يلجأ إلى انطباعاته الشخصية ، مما يجعله من هذه الزاوية ناقداً تأثريّاً . غير أن اعتماده المقارنة معياراً نقديّاً ، يعد خطوة ثورية إلى الأمام ، توضح المعنى الحقيقي العميق لفكرة البعث . فهي ليست الاجترار الآلي ، وإنما هي استلهام الروح ، وتمثل الجوهر ، واستيعاب الحاجة الأساسية الملحة في الحقل الأدبي . وهي خلوصه من الزيف والجمود والافتعال . ومن ثم جاءت المقارنة عند العقاد ، بالرغم من مضمونها التأثري عاملا مخصباً في رؤيته النقدية أثارت الكثير من زوايا « التقليد » في شعر شوقي من حيث ولعه بالأعراض دون الجواهر ، بل إن محاولة العقاد في الجمع بين المقارنة كعنصر موضوعي في العملية النقدية ، والانطباعية كمنهج تأثري يؤدي بنا إلى تلمس « الطريق الخاص »

الذى سلكه نقدنا الحديث . فالعقاد ذلك الناقد العقلانى الصارم ، الذى يعتمد فى تحليله على المحاجاة المنطقية والدقة الرياضية فى المعادلات ، هو بعينه الذى يستخدم أمثال هذه التعبيرات المجنحة « النفس الملهمة ــ الطبيعة المشرقة ــ السريرة العميقة ــ نجوى الإلهام . . . إلخ » .

وعلى طول الديوان فى جزأيه ، لم يناقش العقاد أخلاقيات شوقى الشعرية التى أبان عنها فى الكثير من قصائده ، ودلالتها فى البناء التعبيرى الذى ينم على التكرار ، ودلالتها من حيث الجوهر الفلسفى ، ودلالتها التاريخية . ذلك أن فكرة « المضمون » فى الشعر لم تخرج عن النطاق الذى حدده هازلت . وهى فكرة تتسق عقلانيتها فى الشكل مع انطباعيتها فى المضمون ، مما سنفصل فيه القول الآن ، ونحن بصدد المرحلة التالية لمعركة العقاد مع الكلاسيكية .

قمبيز من التاريخ إلى الشعر :

حملت ثورة العقاد الأولى ، سواء فى مقدمات دواوينه ، أو فى مجموعة الكتيبات التى أصدرها قبيل العشرينات ، أو فى كتاب الديوان بجزأيه ، بذور « المنهج » الذى تبلور فى صورته النهائية عند خاتمة الثلاثينات وبداية الأربعينات حيث لم يبق أمام الناقد سوى الطريق الطويل إلى تطبيق المنهج الذى اختاره عبر آلاف التجارب مع الثقافة والحياة . إلا أن قضية « المناهج » الفكرية فى أدبنا الحديث قضية تالية لما نحن بصدده. الآن من اكتشاف الأرض التى خطا عليها الرواد أولى خطواتهم قبل أن ترسخ هذه الخطوات فى حدود منهجية متكاملة . لذلك نختتم مشكلات عصر النهضة مع البحث الكلاسيكى فى تحليل الدراسة التى كتبها العقاد حول مسرحية شوقى الشعرية « قمبيز » .

ومن الأهمية البالغة أن نسجل لشوقى ريادته لفن المسرح الشعرى فى اللغة العربية . تنبع هذه الأهمية أولا من أن تاريخ الأدب العربى خلا من

فنون الدراما خلوا شبه تام . وتنبع ثانياً ، من أن المسرح الشعرى يعد من أعقد الأشكال الفنية فى الأدب ، لما يتضمنه الفن المركب عادة من عنصرى الشعر والمسرح . وتنبع ثالثاً من أن الشاعر المسرحى قد آثر المادة التاريخية خامة موضوعية لفنه . تلك عناصر ثلاثة، لا بد لكل باحث وناقد منصف من أن يضعها فى اعتباره قبل أن يتصدى لإحدى مسرحيات شوقى الشعرية . تلك العناصر هى الإطار العام الذى تندرج داخله كافة التفاصيل . بعبارة أخرى ، ليس من حق هذه التفاصيل مهما رسمت خطوطها من صور ، أن تزحزح مقاييس الإطار العام ، أو تخلخل زواياه ، أو تحد من مساحته أو تزيد عليها .

ويشعر الدارس بقلق بالغ حين يلاحظ أن العقاد لم يمض فى خط مستقيم مع أدواته النقدية التى تعرفنا عليها فيما سبق . وإنما نراه يستقطب أكثر الجوانب سلباً فى هذه الأدوات ، ليحاول النيل من أكثر الجوانب إيجابية فى شعر الكلاسيكية المصرية . فالمسرح الشعرى الذى ارتادته هذه الكلاسيكية كان يمثل مرحلة كيفية جديدة فى تاريخنا الأدبى ، مهما كان هذا المسرح على درجة ما من الضعف فى بداية ظهوره على يدى شوقى . بل إن جوانب الضعف فى هذا الشكل الأدبى الجديد كانت ذات أثر فعال فى توجيه النظر إلى زاوية جديدة خافية عن الصورة الأدبية فى مصر ، وهى التناقض الحاد بين الصياغة الكلاسيكية للشعر والإطار الدرامى لهذا الشعر . ومن ناحية أخرى كان هذا التناقض بمثابة التأكيد العملى للفروق الحضارية بين النهضة الأوربية ونهضتنا الحديثة . فقد تمثلت الكلاسيكية فى عصر النهضة الأوربية ، شعراً درامياً ، كلاسيكى النظم والمسرح . أى أنه لم يكن ثمة تناقض أو انفصام بين عنصرى الفن المركب ، لأنه لم يكن ثمة تناقض أو انفصام بين الحضارة والإنسان . أما فى بلادنا ، حيث تجىء النهضة فى ظروف غاية فى الشذوذ والاستثناء ، فإن ذلك ينعكس على تطور آدابنا وفنوننا متجسداً فى بعض التناقضات بين الشكل

والمضمون ، أو بين عناصر الشكل وبعضها الآخر ، أو بين بعض عناصر المضمون وبعضها الآخر ، وهكذا . لذلك أقول إن هذا التناقض الأول الذى وقع مسرح شوقى الشعرى فريسة له ، هو الانفصام الكائن بين أدوات الشعر الغنائى المتوارثة وأدوات المسرح الدرامى المستحدث عن الآداب الأوربية . مرى أخرى أقول هذا هو الفرق بيننا فى مصر وبينهم فى الغرب . إنهم لم يستخدموا شعرهم الغنائى قط فى الإطار الدرامى الكلاسيكى ، بل كان لهم شعرهم الدرامى ذو الخصائص المنفردة المستقلة عن الغناء . وهى الخصائص التى تبلورت عند شكسبير فى الشعر المرسل Blank verse إن هذا التناقض الرئيسى بين الشعر والمسرح عند الكلاسيكية المصرية ، هو الزاوية الأولى التى يجب أن ننظر منها إلى الدراما الشعرية عند شوقى . وهى الزاوية التى لم يلتفت إليها العقاد من حيث الجوهر ، وإن التقط مظاهرها الخارجية تدليلا على عجز شوقى . فى حين اعتقد أن السنوات الخمس الأخيرة فى حياة شوقى (١٩٢٧ — ١٩٣٢) والتى أقدم خلالها على هذه التجربة فى المزج بين الشعر والمسرح ، هى المرحلة الخطيرة فى تاريخه كله حيث كادت أن تصبح نقطة تحول عميقة فى اتجاهاته الفكرية والفنية على السواء . إذ نلاحظ ثمة بوادر لانحرافه عن القصر إلى الشعب ، وعن السلطنة العثمانية إلى مصر ، بل عن الشعر إلى النثر الخالص فى « أميرة الأندلس » ، وعن التاريخ والملوك إلى الواقع المصرى المعاصر فى « الست هدى » .

إن خطورة ما قام به العقاد أنه تصور شوقى كظاهرة فردية جامدة لا تتغير ، وهو قصور فى الرؤية الفكرية مرده الإيمان المثالى المطلق بالفرد ، وعزل الظاهرة الفردية عن الظاهرة الاجتماعية ، وتلمس الأشياء فى حركة دائرية أقرب إلى السكون منها إلى الحركة . والواقع أن التطورات التاريخية العديدة التى طرأت على المجتمع المصرى بعد الثورة الوطنية الديمقراطية عام ١٩١٩ قد جذبت إلى قوى التقدم الاجتماعى الكثيرين ممن ارتبطت

مصالحهم فيما مضى بقوى التخلف . هذا لا يعني أن شوقي كان واحداً ممن نجح التطور التاريخي في اجتذابهم إلى جانبه . ولكن ما لا شك فيه أن خلع الخديو ونفي الشاعر مع بداية الحرب العالمية الأولى ، كانا من العوامل التي دفعت شوقي إلى « إعادة النظر » في موقفه من الحياة عامة ، ومن مصر خاصة . إن إعادة النظر هذه لم تمنحه الفرصة للتغير ، ولو أنه عاش فربما ما استطاع أن يساير التغير . ذلك أن ميراثه الاجتماعي والفكري والعاطفي أقوى بكثير من أن يُنتزع في فترة قصيرة من وجدانه العميق . ولكن هذه الوقفة وحدها لإعادة النظر هي مصدر الصدى الذي تمثل في محاولاته مع المسرح الشعري . أي أن المسرح الشعري عند ظهوره على يدي شوقي كان دلالة عميقة على التحول التاريخي في حياة الكلاسيكية المصرية ، وإيذانا بصفحة جديدة للأدب المصري الحديث . وهذه هي النتيجة التي لم يتوصل إليها العقاد حين اقتصر في تقييمه لمسرحية قمبيز على النقد التاريخي من ناحية ، والنقد العروضي واللغوي من الناحية الأخرى . ولا ريب أن هناك بعض البدهيات التي قررها العقاد ولم يدركها شوقي ، قد شاركت في إفساد الإطار العام للمسرحية . في مقدمة هذه البدهيات ، على سبيل المثال ، اختيار الشاعر للأسطورة التي أشاعها هيرودوت دون الاستناد على التاريخ الواقعي للمأساة . هذا التاريخ الذي يفسر غزو الفرس لمصر على ضوء المناخ السياسي والوضع الاقتصادي والموقف العسكري الذي يتصل بالصراع العظيم بين الفرس من جهة ، واليونان وقرطاجنة من الجهة الأخرى ، وتطلع كل من الفريقين إلى الاستيلاء على مصر لترجيح كفة الصراع . وفي مقدمة البدهيات التي ساهمت في إفساد المسرحية أيضاً ، اختيار الشاعر لهذه الفترة السوداء من تاريخ مصر ، وهي مرحلة الهزيمة على يد الفرس . وإذا كانت الهزيمة تفيد العمل الدرامي أحياناً في إقامة بناء حي متوتر ، فإن شوقي فيما يبدو لم يعر هذه الفكرة التفاتاً . لم يوضح لنا كما قال الدكتور مندور في كتابه « مسرحيات

شوقى » كيف استطاعت بطلة المسرحية « نتيتاس » أن تتغلب على حقدها الإنسانى المشروع على قاتل أبيها الفرعون « أمازيس » ، فلم يستخدم الصراع المؤثر الذى كان من الطبيعى أن يثور فى نفسها بين الموجدة الشخصية وحب الوطن (ص ٨٧ ط ثالثة) . كذلك كان من الممكن تخفيف حدة الهزيمة والإحساس بعارها ، بل اعتبارها — كما يذهب العقاد — ضرباً من التقوى الدينية ، يمحو عنها الجبن وفتور الوطنية ، لو أن المؤلف أشار إلى إحدى الحيل التى لجأ إليها قمبيز فى غزو مصر بإرشاد فانيس اليونانى ، وهى أن يرفع على دروع جنوده الحيوانات الصغيرة التى يقدسها المصريون فيتورعون عن قذفها بسهامهم ويؤثرون الهزيمة على الجحود وعصيان الدين .

إن محاسبة العقاد لشوقى من الوجهة التاريخية ، لا ريب فى أنها تصيب المسرحية بجراح قاتلة ، أشار إليها طه حسين فى « حافظ وشوقى » حين قال : « أما عن التمثيل فقد غنى وأطرب وأثر ولكنه لم يمثل » على أنه لا ينكر أنه — أى شوقى — « منشئ الشعر التمثيلى فى الأدب العربى » (ص ١٧٥ — ٢٢٤ ط ثالثة) . ذلك أننا نلاحظ بغير عناء أن الرداء التاريخى فى الدراما الشعرية عند شوقى لم يكن مبعثه ذلك المصدر الكلاسيكى عند كورنى وراسين وشكسبير وغيرهم من رواد عصر النهضة الأوربية العظام . لقد كان « التاريخ » عندهم أحد عناصر الرؤية الفكرية ، ولم يكن مجرد أحداث تيسر عملية البناء « القصصى » . وعلى غير هذا النحو كان شوقى ، وعلى غير هذا النحو ينبغى أن نقيم فكرته عن التاريخ ، وبالتالى موقفه السياسى من البلاط والشعب .

ثمة نقطتان إذن لابد من التوقف عندهما فى مناقشة العقاد لشوقى : الأولى هى البناء الدرامى للمسرحية ، والثانية هى المضمون الفنى لها . أما النقطة الأولى فقد لفت نظر العقاد بشأنها « قصر النفس واضطراب القوافى والأوزان ، فإن جمال النظم فى الرواية التمثيلية التى تتلى على الأسماع

أن تنسجم القافية وألا تفاجئ الآذان بالنقلة البعيدة فى الموقف الواحد » .
ذلك أن شوقى كان يبيح لنفسه أن يغير الوزن فى بيتين متتالين ، فإذا أحد البيتين من بحر وقافية ، وإذا البيت الثانى من بحر آخر وقافية أخرى .
وسرعان ما يلجأ العقاد إلى منهجه التجريبى ، فيقرأ هذه الأبيات :

تاسو : أحوم حول صنمى وحول هذى القـــدم
نفريت : حول رجلى أنا ؟
تاسو : أجل ، حول هذا الشهد والزبد والنمير الصافى
ما بك يا نفريت ؟ ما هذا الأسى
ما بال عينيك تريدان البكا ؟

ثم يكتشف أن هذين البيتين الأخيرين ، ينتمى أولهما إلى بحر وقافية غير بحر الثانى وقافيته ، فلا يجد مناصاً من إعادة نظامهما « بغير إخلال أو اختلاف فى اللفظ والمعنى » كما يقول ، على النحو التالى :

نفريت : أحول رجـــلى أنـــا ؟
تاسو : أجل ، أعز من مشى
حول النمير العذب والشهاد ثم والسنا
ما بك يا نفريت ! ما هذا الأسى ؟
ما بال عينيك تريدان البكـــا

« وهكذا يستوى النسق بغير قصور فى اللفظ والوصل ولا فى المعنى » كما يعلق العقاد بنفسه على تجربته .

ثم ينعطف بنا بعد هذا النقد العروضى ، إلى النقد اللغوى ، فيأخذ على شوقى « كثرة التجوز القبيح فى الفصل والهمز والتخفيف والمقصور والممدود » كذلك فالرواية « لم تخل من مخالفة للنحو والصرف فى القواعد المنصوص عليها » ولم تخل كذلك « من السرقة الظاهرة فى النظم » ولا يعدم العقاد بطبيعة الحال ، أن يدلل على صواب رأيه فى جزأيه باستشهادات ومقارنات واستدلالات لا يعوزها القدرة على الإقناع .

إلا أن العقاد من حيث لا يدرى قد تورط فى أحبولة المحافظين حين استدرجته العناصر غير الموضوعية فى منهجه النقدى إلى هذا اللون من ألوان « المبارزة » الشعرية فليس المنهج التجريبى الذى دفعه إلى إعادة نظم ما كتبه شوقى إلا تراجعاً عن أصول النظرة الشاملة للظاهرة الفنية فيكتسب الناقد قدراً من الموضوعية يتيح له دقة الرؤية ، واقتراباً من الاحتكاك الجزئى بالنص الأدبى فلا يستبصر الناقد روح التجربة وغايتها الكلية وإنما يعتمد اعتماداً كاملا على حرفيتها .

النظرة الشاملة وحدها هى التى ألهمت العقاد فيما مضى أن يضع كلتا يديه على جوهر التجربة الشعرية عند شوقى ، فلم تخدعه القصائد « الوطنية » المظهر ، عن تلمس اللباب الذى يكشف عن طبيعة شوقى وتكوينه ، فكراً وشعراً . وعندما حاصر شعر شوقى فى الماضى بأسوار اللغة والعروض ، سوغنا هذا المسلك بأنه كان يستخدم « نفس السلاح » الذى يمسك به أعداء التجديد .

إلا أن غياب النظرة الشاملة فى تقييمه قمبيز أتاح له الفرصة لأن يستقطب أكثر الجوانب سلباً فى منهجه النقدى ، لينال من أكثر الجوانب إيجابية فى شعر الكلاسيكية المصرية الجديدة . تبدى هذا الغياب للنظرة الشاملة ، فنياً ، فى استغراقه المفرط فى تأمل الجوانب العروضية واللغوية ، وكأنه ينقد « شعراً » فقط . إن النظرة الاستيعابية الرحيبة كانت تملى عليه أن يبحث عن « الدراما » فى هذا الشعر . ولكنه اكتفى بتقسيم العمل إلى شعر وتاريخ ، فدرس الشعر من زاوية البلاغة التقليدية ودرس التاريخ من زاوية التحقيق العلمى . ربما يشعر البعض بأن العقاد هنا ، كان يميل إلى « استعراض العضلات » الشعرية ليثبت أنه أقدر من شوقى وأحق منه بإمارة الشعر ، وربما يميل البعض الآخر إلى أن العقاد أراد أن يبرهن على صحة موقفه الأول من شوقى ، وأن هذا الموقف لم يتغير ، حتى لو كتب الشاعر شيئاً جديداً هو المسرح الشعرى ، أو المسرح النثرى ، أو هجر عالم

التاريخ إلى دنيا الواقع المصرى فى أشهر أحيائنا الشعبية « السيدة زينب » .

وبالرغم من تقديرى لهذه العوامل الذاتية فى بلورة شخصية الناقد ومنهجه ، فإننى أعتقد فى العوامل الموضوعية كعنصر موجه ومحرك لبقية العناصر ، وكعنصر حاسم فى تكوين الشخصية الأدبية . لذلك أرى أن المصدر الأول لكافة ما تورط العقاد فى إعلانه من أحكام فنية على قمبيز ، هو أنه لم يضع يديه على التناقض الأساسى بين أدوات الشعر الغنائى المتوارثة وأدوات المسرح المستحدثة عن الآداب الأوربية . ذلك أنه لم يفرق بين غنائية الشعر العربى الكلاسيكية ، وغنائية الشعر الأوربى الرومانتيكية . فقد تلاءمت غنائية الشعر الإنجليزى عند شيلى وبيرون مع الابنة الدرامية التى اتخذوا منها إطاراً فنياً ، ومع ذلك يتجاهل كبار النقاد الإنجليز الجانب الدرامى فى هذا الشعر ، ويعدونه قصائد مطولة لا أكثر . أما الشعر الإنجليزى الكلاسيكى فقد ارتبط بالبناء المسرحى منذ البداية ، فكانت إحدى الظواهر الفنية لعصر النهضة ، انبعاث المسرح الشعرى ذى التقاليد العريقة فى الدراما الإغريقية . أما فى بلادنا ، فقد كانت تقاليدنا وتاريخنا الأدبى ونهضتنا ، تمضى جميعها فى مسار مختلف . لم نرث مسرحاً . تراثنا الشعرى فى معظمه من الشعر الغنائى. لقاؤنا الثقافى مع أوربا يتم على مستوى الأفراد لا على مستوى المجتمع . لقاؤنا الحضارى معها يتم فى مناخ غير صحى وغير متكافئ ، لقاء القارة القاهرة مع الحضارة المقهورة . فى مستوى التيارات الأدبية يعد التفكير فى إنتاج المسرح الشعرى من عناصر « النهضة » فى مرحلتها الكلاسيكية . فى مستوى الخلق الفنى ، لا نتوقع مخلوقاً درامياً متكاملاً من الشعر الغنائى الموروث فى مستوى التطبيق على أحمد شوقى ، لا ننتظر وعياً إبداعياً أصيلا بالمعنى الدرامى الذى التقى به فى أوربا بين ركام اهتماماته المتعددة وهمومه المختلفة ، وبين زحام الموائد الفنية المطروحة أمامه من أيام اليونان الأقدمين إلى العصر الحديث .

لهذه الأسباب مجتمعة ، كان من الطبيعي أن يحدث هذا الانفصام الفني بين الشعر والمسرح فى الدراما الشعرية الكلاسيكية عند شوقي . وليس الخلل فى البناء الوزنى أو تركيب القوافى إلا من « مظاهر » هذا الانفصام الجوهرى. ولقد تسبب الاحتكاك الجزئى بين العقاد ومسرحية قمبيز فى أن يرى المظهر دون الجوهر وأن يلمس الظاهرة الخارجية دون العلل الجذرية المسببة لها . ومن ثم لم يكن لديه سوى الحديث عن العروض واللغة فى إطار الأوزان المتغيرة واختلاف اللفظ والمعنى وأخطاء النحو والصرف . ولو أن العقاد أحاط العمل الفنى بنظرة أكثر شمولا لاستطاع أن يرى فى هذه المظاهر السلبية بعض الإيجاب . وهو حين يقول فى مكان آخر من نقد قمبيز « ما جنى على شوقى هذه الجناية التاريخية إلا القافية لعنها الله » يكاد يقترب من هذا « الإيجاب » الملازم لسلبية قمبيز . هذا الإيجاب هو أن للمسرح الشعرى صفات وخصائص الكائن الحى الجديد المستقل فى النوع عن الشعر بمفرده ، والمسرح بمفرده . أى أن الخلل فى الوزن أو ترتيب القافية أو تركيب اللفظ والمعنى فى مسرحية قمبيز ربما كان مرده هو عجز شوقى عن التفاهم مع هذا الكائن الجديد ، على أنه كائن مستقل . . وإنما كان يعامله — كما عامله العقاد تماماً — على أنه « حاصل جمع » الشعر والمسرح ، بل حاصل جمع الشعر والتاريخ . فالحق أن العقاد لم يكتب كلمة واحدة حول الجانب الدرامى الوليد فى هذا العمل ، كما أن شوقى — مع اجتهاده الشديد — لم يتمكن من اكتشاف القوانين الأساسية لهذا النوع الأدبى الجديد . وهذا هو الفرق بينه وبين كاتب آخر كتوفيق الحكيم حين كتب « أهل الكهف » أو « عودة الروح » فمهما أخذنا اليوم على هذين العملين الرائدين ، يتبقى لهما شيء واحد هو أنهما اكتشاف للقوانين الأساسية لكل من المسرح والرواية . أما شوقى فقد بذل أقصى جهود الشاعر الكلاسيكى ، ولكنه لم يستطع أن يتجاوز نفسه وتاريخه ، فسقطت قمبيز وأخواتها فى هاوية التناقض

الحاد بين الشعر والمسرح .

أما من الناحية التاريخية ، فلا شك أن العقاد أصاب توجيه السهام إلى قلب « قمبيز » من حيث هى مسرحية شعرية ذات رداء تاريخى . أصابت سهام العقاد هذا الرداء التاريخى ، ولكن بمعزل عن الجسم الذى لف به هذا الرداء ، وهو المسرحية نفسها . لا أحد يختلف مع العقاد فى أن واجب الشاعر هو أن يسد نقص التاريخ حين يسكت ، وله أن أن يتفنن فى تصوير حقائق التاريخ ليبعثها جديدة . ولا أحد يختلف مع العقاد فى أنه لا يجوز للشاعر أن يتناول الحقائق فيمسخها و يشوهها . ولا أحد يختلف مع العقاد أخيراً فى أن شوقى أجهز على التاريخ الواقعى لمأساة مصر مع الغزو الفارسى ، فأخذ بتفسير هيرودوت اليونانى الذى تعاطف مع قمبيز ضد مصر . وليس المهم هو تزييف الأسماء والأحداث بقدر ما يعنينا — إلى جانب ذلك — تزييف حقيقة مصر والمصريين التى استهدف شوقى أساساً أن يحيطها بإطار من القداسة الوطنية . إن العقاد لا يلف ولا يدور فى محاولته التدليل على أن وطنية شوقى ليست فوق الشبهات بكثير . وهو لا يحاول أن ينال من « علم » شوقى بقدر ما يحاول أن ينال من إحساسه الوطنى بمصر . ولقد أثر نقد العقاد العنيف لهذا الجانب فى الأجيال التالية من مؤرخى الأدب ، حتى إن أحدهم يقول بالحرف فى رسالة عنوانها « المسرحية فى شعر شوقى » ما يلى : « إذا أضفنا إلى هذه الاتجاهات نفسية الشاعر الاجتماعية من اتصال بحياة البلاط والملوك ومدحهم ردحاً طويلا من الزمن والتغنى بآثارهم ، ومن نزعة إسلامية عامة لا تشعر شعوراً قويًّا بالوطنية المصرية ، وإنما بنزعة إسلامية قوامها القومية التركية على الأصح ، ومن نزعة غنائية اتصلت بحياة الشعراء فى الأدب العربى فى تاريخه الطويل ، أمكننا أن نتنبأ باتجاهات مسرح شوقى عامة » (ص ٣٨ — ملحق المقتطف ١٩٤٧ — محمود شوكت) .

وفى هذا التفسير الذى أملاه العقاد على أجيال عديدة ، يميل البعض

إلى اعتباره امتداداً للحساسية الطبقية عند العقاد إزاء شوقى . وبالرغم من أن هذا الاعتبار يعد أحد عناصر التكوين الاجتماعى والفكرى للعقاد ، فإننى لا أستطيع أن أغفل عاملا آخر يمسك بعجلة القيادة المنهجية التى يسير العقاد بمقتضاها فى هذه النقطة . تلك هى عدم تفرقته بين استخدام الأوربيين للتاريخ كعنصر درامى وعنصر فكرى معاً ، يكونان « الرؤيا » الفنية عند الكاتب الأوربى إبان عصر النهضة ، أو العصر الرومانتيكى ، أو العصر الحديث على السواء . كان « التاريخ » عند الفنان الكلاسيكى بأوربا هو رؤيته الحركة الدينامية التى يتطور بها المجتمع . وكانت هذه الرؤية عند الفنان الرومانتيكى « الحنين » إلى الماضى ، والتحليق مع الأحلام . سوف نلاحظ بلا جدال اختلاف شكسبير عن كورنى ، واختلاف كورنى عن راسين ، واختلاف راسين عن فولتير ، واختلاف هؤلاء جميعاً عن شيلى وبيرون ، وهكذا ، إلا أن هذه الاختلافات الجزئية أحياناً ، والشاملة أحياناً أخرى ، لا تخرج عن هذا الاتفاق الجوهرى حول أن التاريخ فى العمل الفنى « رؤيا » إلى العالم . ولم يكن الأمر هكذا مع الكلاسيكية المصرية على يد شوقى . لم يكن التاريخ سوى « مشجب » علق عليه ثيابه الفكرية والشعرية . هذه الثياب التى نتفق مع العقاد إلى أبعد مدى فى تشخيصها ووضعها بمكانها الصحيح ، ولكننا نختلف معه اختلافاً عميقاً فى تعليلها وتحديد أبعادها . هذه الأبعاد التى يمكن إيجازها فى غياب « الرؤيا » الفنية عن مسرح شوقى الشعرى بالرغم من ازدحامه بالتاريخ والشعر جميعاً .

أى أن مسرحية قمبيز لا تسقط فنياً لكونها اهتزت عروضياً ولغوياً ، وإنما لأن تناقضاً جوهرياً حدث بين أدوات شعرها الغنائى المتوارثة ، وبين القالب المسرحى الوافد من أوربا . كما أن هذه المسرحية لم تسقط فكرياً لكونها أخطأت « تواريخ » الأسماء والأحداث ، وإنما لكونها خلت من الرؤية التاريخية . ومع هذا ، لم تسقط « قمبيز » إلا فى حدود هذين

المعنيين اللذين يدللان – إيجابيا – على المحاولات المستميتة لعملاق الكلاسيكية الجديدة فى شعرنا ، أن تتجاوز الكلاسيكية « عنق الزجاجة » الذى لم تستطع عبوره لاعتبارات حضارية أقوى منها بكثير . وفى معنى آخر لم تسقط ، وإنما هى ارتادت حقلا بكراً يحتمل النجاح والإخفاق فى المدى القصير ، ولكنه حتمى النجاح والإثمار والغنى فى المدى البعيد . لذلك كانت السنوات الخمس الأخيرة فى حياة شوقى هى أخصب فترات عمره فقد عاش خلالها بطولة التجاوز التاريخى لاعتبارات الوجود الذاتى للفرد . ولم تنجح المحاولة ، ولكنه ترك علامة على الطريق ، بل هى العلامة العظيمة التى تشير إلى مأساة الفارس الأول .

هذه المأساة التى ضن منهج العقاد بالإحاطة بها ، إحاطة موضوعية شاملة ، وإنما تلمس الكثير من جزئياتها الصحيحة ، ولكنها لا تؤدى بنا إلى جوهر المأساة . إلا أن العقاد ، سوف يظل أبداً ، ذلك الرائد الذى تمثل بوعى وعمق عظيمين أبعاد عصر النهضة الأدبية الحديثة فى مصر . ومن ثم كان الناقد « الحديث » الذى تصدى مقدمة الجبهة المناضلة فى المعركة ضد الكلاسيكية * .

---

* يهم المؤلف أن يشير إلى أنه أنجز هذا البحث خلال فترة « تفرغه » الذى حصل عليه من وزارة الثقافة عام ١٩٦٥ .

القسم الثالث

بعيداً عن أزمة القصة القصيرة

لا تطمح هذه المجموعة من القصص * فى أن تقدم لوحة شاملة للقصة المصرية القصيرة المعاصرة ، وإنما هى لقطة من زاوية محددة أو قل هى شريحة فى نسيج اختير وفق ترتيب معين . ولقد بدت قصتنا القصيرة منذ وقت قريب وكأنها تعانى أزمة اختناق حادة نتيجة تحول الجيل الأوسط إلى المسرح وانفراد الجيل القديم بالحلبة . ولكن جيلا جديداً فاجأ الحركة الأدبية باقتحام ساحة القصة القصيرة مسلحاً بتجربة شابة حديثة ومعرفة عميقة بأسرار هذا الفن ومعاناة هائلة فى مزج خبرة الحياة بالثقافة وشجاعة كبيرة فى الإقدام على المغامرة . والحق أن هذه الشجاعة هى أهم العناصر التى أريد التركيز عليها ، لأنها كانت شجاعة فى الفن والفكر والسلوك . . فقد أجهز الجيل الجديد إجهازاً شبه تام على البناء التقليدى باتجاهاته المختلفة ، وجرؤ على استخدام بعض الأساليب التكنيكية التى يعدها التقليديون — وهم يمسكون بزمام السلطة الأدبية — شعوذة أو جنوناً . وكذلك تمكن الجيل الجديد من أن يضع يده على جوهر الأدواء التى تعانى منها حياتنا الفكرية ، وكانت الهزيمة التى منيت بها بلادنا مؤخراً مناخاً مأسوياً بشعاً ظلل المواجهات الفكرية للشباب بألوان قاتمة وعنيفة .

---

* راجع الحلقة الأولى من « كتابات معاصرة » التى تضمنت مجموعة من القصص القصيرة لمحمود تيمور ومحمود البدوى وعبد الحميد السحار وثروت أباظة وألفريد فرج وصلاح الدين حافظ وسوريال عبد الملك ويحيى حقى ويوسف الشارونى ونجيب محفوظ ومحمد جبريل ونعيم عطية .

وتخلص الجيل الجديد من سيطرة الناشر الخاصة والعامة على السواء حين أخذ على عاتقه أن يبذل من قوت يومه لكي يرى إنتاجه النور. هذه الشجاعة فى الفن والفكر والسلوك هى التى أثمرت ركاماً من التجارب العميقة الأثر فى مسار القصة المصرية القصيرة حتى إن رائداً كبيراً كنجيب محفوظ قد تشبع برائحة المناخ الجديد فواكب أكثر الأجيال تطوراً فى تجاربهم.

أردت أن أقول إنه إذا كانت القصة المصرية القصيرة قد واجهت إحدى أزماتها منذ وقت قريب فإنها قد استطاعت بفضل الجيل الجديد أن تتغلب على أزمتها خلقاً ونقداً وتذوقاً ونشراً .. فقد عاد إلى ميدان القصة القصيرة بعض من هجروه فيما سبق لظرف أو لآخر. وازدهرت الساحة من جديد بنشاط قصصى وافر، وليست هذه المجموعة إلا شريحة فى هذا النسيج القديم الجديد.

ولأول وهلة تبدو لنا أربعة اتجاهات رئيسية تحكم هذه الشريحة القصصية إن جاز التعبير: الاتجاه التقليدى الذى تمثله أقاصيص محمود تيمور ومحمود البدوى والسحار وثروت أباظة، والاتجاه الواقعى ويمثله فى هذه المجموعة الفريد فرج وصلاح الدين حافظ وسوريال عبد الملك، فالاتجاه التعبيرى وتمثله قصتا يحيى حقى ويوسف الشارونى، ثم الاتجاه التجريدى ويمثله نجيب محفوظ ونعيم عطية ومحمد جبريل. والحق أن هذه التسميات كلها خطوط عريضة ترفض التصنيف المتعسف، فالاتجاه التقليدى مثلا ليس فى واقع الأمر اتجاهاً واحداً وإنما هو يضم الكاتب الكلاسيكى والكاتب الرومانسى جنباً إلى جنب، وإنما قصدت من كلمة «تقليدى» أن كلاسيكية هذا أو رومانسية ذاك لم تعد تساير التطور الجديد للقصة القصيرة، باتجاهاتها المختلفة. وكذلك الأمر فى الاتجاه التجريدى، فليس هناك اتجاه واحد بهذا الاسم، وإنما هو اجتهاد شخصى فى تتبع بعض السمات المشتركة فى القصة المصرية الحديثة

وإن كان أهم سماتها هو التنوع والتفرد البالغين . وإذن فليس المقصود بهذا التقسيم إلى أربعة اتجاهات إلا التحديد — العام — لمسار القصة القصيرة المعاصرة فى مصر ، وهو أقرب فى تصورى أن يكون مساراً « جغرافياً » منه إلى المسار التاريخى . فهذه الاتجاهات تتجاور بعضها إلى جانب بعض كخطوط لوحة واحدة لها تاريخها الخاص مع الفنان من ناحية ، والفن الذى تصدر عنه من ناحية أخرى ، ولكن هذا التاريخ الخاص بكل خط على حدة يندمج فى التاريخ العام والشامل للوحة ، فى جغرافيتها بمعنى أدق ، أى فى لحظة حضورها الراهن بأبعادها التى توحى بها وتومئ إليها المسافة بين خط وآخر ودرجة اللون والإيقاع ، إلى غير ذلك . فرحلتنا النقدية — من ثم — ستكون رحلة فى المكان أكثر منها رحلة فى الزمان ، لن تكون « حساباً » تاريخياً وإنما « اكتشافاً » لأبعاد اللحظة الحاضرة . ومعنى هذا أننا لا نفصل بين الزمان والمكان فصلا ميكانيكياً جامدا ، فكلاهما مضمر فى الآخر بصورة من الصور ، ولكن نقطة الانطلاق فى رحلتنا هى الحيز المكانى المشترك بين هذه الاتجاهات المختلفة فيما بينها على نحو غاية فى التعقيد . . فهى تختلف أحياناً اختلافاً جذرياً عميقاً ، والجذور تشير إلى التاريخ ، ولكنها بنفس المقدار وأكثر تشير إلى الأرض ، إلى الطينة الواحدة التى غذت الجميع وأثمرت الكل .

الاتجاه التقليدى :

يتفرع هذا الاتجاه عن أصول مختلفة ، ولكنها تعود فتلتقى فى أنها وصلت بالفن إلى طريق مسدود يحتمل التكرار ولكنه يمتنع عن الابتكار . ذلك أن الخامة الفنية تتبدى فى كامل ثوريتها حين تصبح قادرة على تشكيل رؤيا الفنان بما يتلاءم مع روح العصر الذى يعيشه . ولا ريب أن تجربة الحياة والفن عند رائدين كتيمور والبدوى قد مرت بدورات كثيرة منذ أن كانت بذرة الخلق جنيناً يكتوى القلب بآلام مخاضه الأول إلى أن شبت ثورة

ناضجة غيرت وجه الحياة الأدبية فى الثلاثينات من هذا القرن . ولكن الثورة ما إن تتحول مع الزمن إلى « نظام » حتى تخمد فيها جذوة الكشف الجديد ، وتؤول إلى نوع من الجفاف فالعقم والبوار ، ما دامت طاقتها لم تعد قادرة على إعطاء الجديد . هكذا كانت القصة الموبسانية القصيرة التى ارتادها محمود تيمور فى الأدب المصرى الحديث ، كشفا جديداً أسهم مع بقية الأشكال — أو الكشوف — الأدبية الجديدة فى تقويض معالم الرؤية القديمة التى سادت الأدب والحياة . أسهمت القصة الموبسانية القصيرة على يدى تيمور فى شق الطريق الصعب لنمو فن جديد لا يعتمد على الأسجاع والمحسنات البديعية والأساليب البيانية من جناس وطباق ومجاز واستعارة التى كانت فى زمانها «اتجاهاً تقليدياً» وصل بالأدب العربى فى مصر إلى طريق مسدود يحتمل التكرار والإملال وتعز عليه أسباب الابتكار والإبداع . . فأقبل تيمور وزملاؤه لتضرب معاولهم الضربة القاضية لهذا البناء المتهالك والآيل للسقوط فى آن ، وقد كان البناء — فى أدب المقامات والرسائل والخطب — بناء متهالكاً لا لأن القدم وحده قد ترك عليه بصمات الضعف والشيخوخة ، وإنما لكونه لم يعد تعبيراً حياً عن روح العصر الجديد ، وأمسى آيلا للسقوط على سكانه من مبدعى الأدب ومتذوقيه على السواء . كانت القصة الموبسانية تعتمد فى نسيجها اللغوى على أرق الألفاظ إلى درجة الهمس واختيار التركيب الناصع بغير سجع ، كما اعتمدت على هيكل له بداية ووسط ونهاية تحكمه عقدة تركزت فيها كافة خيوط البداية وآلت أزمتها نحو الانفراج فيما يسمى بلحظة التنوير عند الخاتمة . والحق أن هذا البناء المتأثر خطا الكاتب الفرنسى جى دى موبسان استطاع أن يؤسس فناً جديداً فى اللغة العربية ، وأن يؤسسه على أنقاض زخرفة كلاسيكية من الأنغام المصنوعة ، وذلك بتوجيه اللغة حروفاً وتراكيب فى خدمة السياق المؤدى إلى « حبكة » الأقصوصة ، على النقيض من أهداف الأدب التقليدى الذى كان يرصع أحجار اللغة —

أى حروفها المعجمية المحفوظة– بما يناسب الرنين الموسيقى المطلوب . وقد استطاع تيمور ومعاصروه من المجددين أن يقتربوا بأبنيتهم الجديدة من « الحياة » الحقيقية التى يحياها البشر ، بالرغم من الصدع الذى أحدثوه فى هياكل الأبنية المتوارثة ، والصدمة التى فاجأوا بها الأذواق الأدبية السائدة . ولقد كان اقترابهم من الحياة هو الباب الوحيد الذى دخلوا منه إلى أفئدة قرائهم ، ذلك أن ما أحدثوه فى الحقل الأدبى شبيه بما نسميه الآن « موجة جديدة » بكل ما يعنيه التعبير من رفض للقديم « المتكامل » وتبنى الجديد « المجهول » والغامض والذى ما يزال فى المهد قابلا للنمو والتطور . ولكن جيل تيمور بعد معاناة هائلة صمد فى الميدان ولم يفر ، واكتسب كل يوم أرضاً سحبها من تحت أقدام التقليديين . واكتسب الأدب المصرى فى ذلك اليوم الباكر « كينونته » الفنية فأصبح لدينا الحق فى أن نسمى هذه الأشكال « العجيبة » وقتها فنوناً ، كما أصبح لدينا الحق فى تسمية مبدعيها فنانين . . ولم يكن « الفن المصرى » كمصطلح قد عرف من قبل أن « يغامر » هيكل والحكيم وتيمور وغيرهم بارتياد هذا الطريق العظيم .

واستقرت القصة الموبسانية القصيرة إلى جانب غيرها من أشكال الفن الجديد ، واستوت أبنيتها ربع قرن أو يزيد فناً سائداً حتى أتمت دورتها وأصبحت « تراثاً » لا بد من تجاوزه مع هدير الحياة الجديدة . ولكن الرواد يضعفون دائماً أمام خطواتهم الأولى فتظل آثار معاركهم مع من سبقوهم واضحة جلية فى بقية أعمالهم طول العمر ، ولابد من جيل جديد وموجة جديدة يتخطى بها الأدب والفن هذه الآثار القديمة الباقية . ولعل قصة « هدية العرس » التى تصافحنا بها هذه المجموعة لمحمود تيمور من أقوى الشواهد التى تدلل على أن الفتح الرائد الذى مثله كاتبها يوماً قد أصبح منذ فترة ليس بالقصيرة « طريقاً مسدوداً » يكرر صاحبه نفس الخطوة القديمة التى خطاها فلا يأتينا بجديد مهما بلغ به العناء بل هو

يشارك فى « اتجاه تقليدى » سبقه الزمن وأصبح وقع الأقدام فيه غير كاف لإثبات الوجود . فى قصة « هدية العرس » يلتقط تيمور كالعهد به تفصيلة إنسانية من تفاصيل الحياة هى قصة صراع الأجيال ترويها عجوز وهى تودع الحياة . فلقد أبت الجدة إلا أن تهدى حفيدها شيئاً عزيزاً على نفسها نذرت أن تحتفظ به طالما كانت على قيد الحياة لتمنحه إياه فى أروع لحظات عمره ، لحظة الزفاف . ويتأنى تيمور كشأنه دائماً فى تصوير طرفى الصراع ، فالحفيد غارق إلى أذنيه فى ضجيج الحفل ، والجدة غارقة إلى أذنيها فى لجة الذكريات . وتحين لحظة الفراق حيث يقبل الصحاب « لاختطاف » العريس إلى أحضان عروسه ، وتتعقد الخيوط كلها فى اللحظة الفاصلة بين عهدين ، بل بين جيلين . ذلك أن الجدة — بمشقة بالغة — تصل إلى حفيدها وتعطيه هديتها وسط الضجيج والزحام . وكانت الهدية قطعة مجسدة من ذكرياتها ، من الماضى ، حذاءه الأبيض الصغير عندما كان طفلا يحبو على ركبتيها . . ما أعمق الهوة وأبعد المسافة بين اليوم والأمس ! لقد تجسدت هذه الهوة وتلك المسافة فى ضحكات المدعوين من الشباب ، وهى ضحكات تحمل فى ثناياها وفى تدافع أصحابها « لاختطاف » العريس نغمة ساخرة . هو الزمن الذى يسخر على الوجوه الشابة الضاحكة الراكضة نحو غدها ، أما أنا — هكذا أخال الجدة تهمس — فأين غدى ؟ وأطل عليها الغد فى صورة أليمة ، رأت بعينيها هدية العمر الطويل تتحطم تحت الأقدام وسط الزحام ، كان الحذاء الصغير قد انزلق من الأيدى « وواصل الموكب سيره دون أن يلقى بالا لما حدث » ، وتحولت الذكرى إلى حطام .

وأشهد أننى غالبت دموعى وأنا أقرأ القصة مرتين ، فلقد أحسست بكاتبها يبذل قصارى جهده الفنى لتجاوز النفس . . دون جدوى . فبالرغم من أن تيمور قد حاول فيها أن يبتعد كثيراً أو قليلا عن خطواته الأولى ، فإنه لم يستطع أن يتخلص من « الزمن » . بل إن أهمية هذه القصة فى

اعتقادى أنها أشبه باعترافات بعض الأدباء الكبار الذين يرمزون بالوقائع المحددة إلى آفاق غير محدودة . تلك قيمتها الحقيقية ، إنها أومأت من بعيد بما يعتلج فى صدر الرائد الذى أدى واجبه على خير وجه ، ولكن طوفان الزمن لا يترك له حتى الذكريات . فالماضى والمستقبل هما طرفا الصراع فى « هدية العرس » ، والذكريات هى الإطار الفنى المرغوب ، يحدد البداية ويركز العقدة . . ثم تكون المفاجأة هى النهاية المريحة ، هى لحظة التنوير . هذه القصة فى نظرى هى الحد الأقصى الذى يستطيع أن يصل إليه رائد كتيمور يرى النهر الدافق بالحياة الأدبية والفنية ، ويلحظ أنه فى وضع أليم : هوذا الذى فجر النبع يوماً لم يعد فى اتجاه التيار الرئيسى للحياة . حياتنا التى تعقدت بما لا يتواءم مع القصة الموبسانية كشكل من أشكال التعبير وموقف من الحياة . وجاءت هذه القصة اعترافاً جميلا يشى بصدق كاتبها مع نفسه ومع الحياة ، فالموجة الجديدة التى أسهم فى تحريكها يوماً قد آلت دورتها مع الزمن إلى الركود . وأخشى ما يخشاه فنان كبير أن يسهم — وهو بعد حى — فى سد الطريق ، بأن يتحول إلى حجر عثرة أمام الأجيال الفنية الجديدة .

ولا يختلف الأمر فى الكثير عند السحار والبدوى عما هو عليه عند تيمور ، من حيث إن ثلاثتهم منضوون تحت لواء الاتجاه التقليدى فى كتابة القصة القصيرة . . ولكن العبء يزداد ثقلا على كاهل السحار والبدوى لأن الزمن لم يباعد بينهم وبين الجيل المعاصر إلى الدرجة التى يخرجان بها عن إطار الصورة . ولكن « الفن » هو الذى باعد بينهم وبين أن يكونا معبرين تعبيراً حياً متجدداً عن العصر الذى نعيش فيه . أى أنه إذا كنا نستطيع أن نتفهم موقف تيمور الذى ينفصل زمانه عن زماننا انفصالا عميقاً ، فإننا لا نستطيع أن نتقبل موقف السحار والبدوى اللذين يتجاور زمانهما مع زماننا تجاوراً أدى بزميل لهما هو نجيب محفوظ أن يلحق بالركب الفنى الجديد . فما السر فى أن يتخلف السحار أو البدوى

عن الركب هذا التخلف الذى نلاحظه فى قصتيهما ؟

من كهف الذكريات أيضاً تدلف إلينا « فاتنة النيل » و « ليلة فى شنغهاى » . وباختيار « الماضى » زمناً للقصة يحدد كاتبها مقدماً موقفه من الحاضر والمستقبل . وعندما تصبح « جعبة » الذكريات هى النبع الذى ينهل منه الفنان ، فإننا حينئذ لا نفرق كثيراً بين الاعتراف الجميل لمحمود تيمور حيث يسلم بانتهاء دورة الزمن إلى خاتمة المطاف وإن لم يعلن بدء دورة جديدة . . وبين رحلة السحار والبدوى إلى عهد الهوى والشباب . ولا يحدد « الماضى » فى القصة موقف الكاتب فحسب — وهو الانطواء القريب من الاستسلام — وإنما هو يحدد بالضرورة بناءها الفنى وهو غالباً قالب الذكريات سواء كانت حلماً فى النوم أو اليقظة. وهو قالب أبعد ما يكون عن تيار الشعور الذى يعتمد على التداعى النفسى أما الذكريات فستتداعى تداعياً ذهنياً بالرغم من تشابههما فى أداة التعبير التى يدعوها السينمائيون بالفلاش باك . هكذا تتسلل الرومانتيكية المصرية التقليدية إلى قصة « فاتنة النيل » فيبدؤها الراوى بأسلوب يشى عن ضمير الغائب ، وهو الضمير القلق المعذب قلقاً ضبابياً باهتاً وعذاباً لا تدفئه الجيوب المتورمة بالنقود ولا تخفف من وطأته الآهات المحملة برحيق الجنس . هو ، الغائب ؛ وحيد لا يدرى أحد سر وحدته ، مهجور ولا يعلم أحد سبب هجرانه . هو البرجوازى المتألق يلمع جبينه بآيات العز والجاه ، ولكن الفراغ يطارده أينما ذهب ، حتى إذا دخل أحد الملاهى باحثاً عن لا شىء جذب انتباهه جذباً عنيفاً ذلك المشهد المؤسى الذى تمثل فى اعتلاء راقصة مصرية قدمها المذيع باسم فاتنة النيل وهى أبعد ما تكون عن الفتنة ، تهز ردفيها الثقيلين فتثير الرثاء إن لم يكن الاشمئزاز . لذلك كانت دهشة الجرسون السورى بالغة حين طلب منه أن يفتح « لبرميل » النيل — لا لفاتنته — زجاجة شمبانيا كاملة ، ومضى لا يلوى على شىء وما تزال سلوى القديمة تنازع البرميل صورة الراقصة للفاتنة التى كانتها يوماً

فى أحد كازينوهات القاهرة القريبة من الجامعة . أيامها كان فتى صغيراً يطلب العلم وجن جنوناً بهذا الجسد الرخص كأى مراهق تعربد الرغبة فى أعماقه ولكنها تبرز على السطح فى صورة الحب العذرى الخالد والعاطفة الجياشة الملتهبة . أيامها قال لها : « أحبك . . . أريد أن أتزوجك » فقالت له « اسمع . . . لا أريد أن أراك هنا ، ولا أحب أن تضيع وقتى » . . وها هى ذى الأيام تمضى وقد تحولت سلوى إلى مسخ شوهته الليالى السود ، وتحول هو إلى رجل أعمال مرموق له « حافظة منتفخة » ، ولكنه يشبهها فى لحظة واحدة فقط حين تعوى الوحدة والفراغ والملل فى أعماقه فلا يردد صداها أحد . وتلك هى « بقايا » الرومانتيكية المصرية التقليدية : الغربة والماضى والوحدة والهجران ، واختيار الراقصة غير الناجحة — كالمومس تماماً — نموذجاً للضياع الأبدى .

ومن هذه الزاوية تلتقى « فاتنة النيل » مع « ليلة فى شنغهاى » لمحمود البدوى . . فالغربة هى المشهد الرئيسى الذى آثره الفنان حين جعل من رحلته إلى الصين — كرحلة السحار إلى دمشق — ديكوراً جمالياً لأقصوصته . وعبق الشرق فى شنغهاى ودمشق هو العبير الرومانتيكى للغرباء على مر العصور والأجيال . وليست الذكريات فى قصة البدوى مجرد فلاش باك يعود بالراوى إلى ضمير الغائب فى رحلة زمنية تقصر أو تطول ، وإنما الذكريات هنا هى القصة كلها ، لا لأنها تنطق بضمير المتكلم فحسب بل لأنها تدخل من زاوية أخرى فى أدب الرحلات الذى أطلعنا الكاتب فيما مضى على بعض صفحاته فى كتاب « مدينة الأحلام » . وتلتقى قصة البدوى مع قصة السحار للمرة الثالثة — بعد الغربة والذكريات — فى اتخاذ « المرأة » محوراً فنياً . وقصدت بالمرأة « الأنثى » لا مجرد كونها كائناً بشرياً . وتلتقى القصتان أخيراً فى « المصادفة » التى جمعت البطل بحبيبة المراهقة « فاتنة النيل » وهى أيضاً التى جمعت البطل بالصينية الجميلة فى « ليلة فى شنغهاى » . وعندما تلتقى إحدى قصص عبد الحميد جودة

السحار بإحدى قصص محمود البدوى هذه اللقاءات مجتمعة فإن شيئاً خطيراً فى حياة محمود البدوى يكون قد حدث . ذلك أن الجذور التى نبت منها السحار تختلف اختلافاً أكاد أقول كيفياً عن الجذور التى أثمرت البدوى . فأصداء التاريخ القديم وبطولاته ، والعقيدة الدينية وروحانيتها هى التى تصنف إنتاج السحار عموماً فى تلك الدائرة المتأرجحة بين الكلاسيكية والرومانتيكية . . فى حين كان الينبوع الواقعى والتجربة اليومية هى الخامة الرئيسية لإنتاج البدوى بعيداً عن جوركى قريباً من تشيكوف . ولذلك يدهش الباحث دهشة صادقة وهو يرصد هذه الظاهرة العصية أمامى على التحليل الآن . فصاحب « الذئاب الجائعة » من العسير أن أتصوره — فى مساره الطبيعى — صاحب « ليلة فى شنغهاى » فقد كان محمود البدوى رائداً بحق للقصة الواقعية القصيرة فى مصر جنباً إلى جنب مع طاهر لاشين ويحيى حقى وشحاته وعيسى عبيد وأحمد خيرى سعيد . وعندما آلت القصة الموبسانية إلى الجمود لم يشذ تيمور عن أصولها العريقة بل حاول قدر استطاعته أن يتجاوز نفسه دون جدوى . ولكن البدوى قد تحول فيما أعتقد — وأرجو أن أكون مخطئاً — عن القصة التشيكوفية الأصيلة التى نهل منها خصوبته الأولى . كانت قصصه الباكرة شرائح حية من الحياة فى نماذجها العادية البسيطة فيغير بأسلوبه العذب القريب من الشعر نظرتنا إليها . ولم يكن يعمد إلى بناء « فخم » من الحبكات والعقد والمفاجآت وإنما كان يخترق السطح الخارجى للأشياء بأشعة غير مرئية فيطلعنا على رؤى ما أغناها ، رؤى تبلغ بها الشفافية حداً تذوب به الحواجز بين بداية القصة ومنتهاها ، فلا نحس غير تسربها إلى وجداننا فى رفق وتمددها فى حنايانا بهدوء . أين البدوى القديم إذن من هذا البدوى الجديد الغريب علينا كل الغرابة ، وهو يحكى لنا إحدى لياليه فى شنغهاى حين خرج من فندقه فى زيارة لقصر الثقافة ، فإذا هو يشاهد جمعاً محتشداً حول فتاة رائعة الجمال يسهب فى سرد محاسنها . ولما عاد إلى

الفندق لم يحتمل المكوث فيه طويلا واتجه مرة أخرى إلى القصر حيث كانت الفتاة الجميلة ما تزال فى مكانها فاستأذنها فى أن تصحبه لمشاهدة المكتبة . ولكن الوقت لم يكن مناسباً لذلك فاصطحبها — أو اصطحبته — إلى شوارع شنغهاى فدخلا إحدى حاناتها لتناول الطعام وسرقهما الوقت بطبيعة الحال فتجاهلا عنوان الفندق الذى يقيم فيه واستضافته الفتاة بمنزلها ليبيت ليلته . وبعد الشاى والحديث تقدمته الصينية الجميلة إلى غرفة النوم المخصصة للضيوف ، فلم يطاوعه النوم وظل ساهراً « وقبل الفجر غلبنى النعاس وأحسست بما يشبه الحلم . . بشفتين حارتين تلامسان شفتى فى قبلة حلوة . . واستدارت ذراعان ناحلتان على صدرى . . وأحسست بضمة لم أشعر بمثل لذتها فى حياتى » ولما فتح عينيه لم يجد أحداً بجواره وما زال يتساءل أكان حلما أم حقيقة ، حتى إذا خرج من البيت فى الصباح فوجئ بالفندق الذى يقيم به يقع فى الواجهة المقابلة .

ولا تخرج القصة على هذا النحو عن الحدود التقليدية للرومانتيكية المصرية من محمود كامل إلى إحسان عبد القدوس ، وهو اتجاه لا علاقة له إطلاقا بتراث البدوى القديم وجذوره العميقة الأغوار . إن القصة هنا تبدو كما لو كانت « حلم يقظة » لمراهق استبد به الظمأ الجنسي ، ولا فرق بين أن تكون المرأة هنا أجنبية وفى قصة السحار مصرية أو أن تكون الذكرى ليلة واحدة أو ربيعاً كاملا من العمر أو أن تكون المرأة راقصة ضائعة أو امرأة مثقفة ذات مستوى اجتماعى .

والغريب حقاً أن يتجاوز كاتب مثل إحسان عبد القدوس أعتاب هذا الاتجاه إلى آفاق أكثر رحابة وعمقاً وتجاوباً مع العصر الجديد الذى نعيشه ، فى حين يتحول رائد كبير كمحمود البدوى عن نبعه الخصب إلى هذا التيار العقيم . وهو عقيم لأنه ينسحب من دوامة الحياة وموجاتها المضطربة لينطوى مستسلماً فى ركن أمين بكهف الذكريات ، بعد أن مزق كافة الأوصال والوشائج التى كانت تربط — بحبل سرى — ما بينه وبين الحياة .

ولا يكاد يقدم الاتجاه التقليدى المحافظ دليلا على إمكانية مشاركته فى صنع لوحة القصة المصرية القصيرة — فى هذه المجموعة — إلا بقصة ثروت أباظة « ثمن المشروب » . فبالرغم من أن أعمال هذا الكاتب فى مجموعها تنتمى إلى الرؤية الرومانسية للحياة فإنه حاول ويحاول فى هذه القصة أن يجدد شباب هذه الرؤية فيضيف إليها ويمزج بها ما من شأنه أن يخلق مركباً جديداً يبتعد كثيراً أو قليلا عن الرومانتيكية القديمة . وإذا كانت أعمال السحار فى مجموعها تقف موقفاً وسطاً بين الكلاسيكية والرومانتيكية وذلك بانشغاله فى نسج هذه الأعمال ببطولات التاريخ والعقيدة الدينية فإن ثروت أباظة يقف هو الآخر موقفاً وسطاً ، ولكن بين الواقعية والرومانسية . . لأنه مع انشغاله فى نسج أعماله بالعقيدة الدينية لا يغفل الواقع المحيط به ولا يرتكز على دعامة من التاريخ . ولذلك يتفق أباظة والسحار معاً فى زاوية من زوايا الرؤية هى أن تنطوى الأقصوصة على « عبرة » ما ، ذاك يعطيها من التاريخ ، وهذا يعطيها من الواقع . تلك العبرة التى لا نجدها عند محمود البدوى فى قصته « ليلة فى شنغهاى » نلمسها فى وضوح بيِّن عند السحار فى « فاتنة الليل » التى كاد فيها أن يباشر القول ، كما نلمسها عند ثروت أباظة فى « ثمن المشروب » وإن تخفت . ولكن السحار بعد ذلك يعتمد على « الحدوتة » اعتماداً كاملا ، فى حين يميل أباظة إلى المزج بين « النموذج البشرى » الذى تحفل به الآداب الواقعية ، « والحدوتة » التى تحفل بها القصة الموبسانية . وتدور قصة « ثمن المشروب » حول شخصية رئيسية هى الشيخ حمدان الذى عرفته القرية ولياً من الأولياء يستغيث به الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، من كل ديانة وملة ، يحل للجميع مشاكلهم طول الأسبوع فإذا أقبلت نهايته ترك القرية بمشاكلها إلى الليلة الحمراء التى يدبرها له صديقه عمران بالمنصورة . ولا يعرف أحد من أين يرتدى عمران هذا حلته الأنيقة ، ومن أين يجلب لبيته هذا الرزق الوفير ، وكيف أتيحت له هذه السطوة والنفوذ ؟!

على أن الدنيا لا تستقر على حال ، فإذا بعمران الذى كان يهيئ الليلة الحمراء لصديقه العزيز ، يعانى ويلات الفقر حين مرض أحد أطفاله ولم يعد يستطيع إلا أن يشكك فنجان القهوة وكأس الخمر ولكنه لن يستطيع هذه الليلة — وقد أقبل الشيخ حمدان كعادته — أن يهيئ ليلة عامرة بالشراب كما كان يفعل فى غابر الأيام . وهكذا راح يتململ معلناً ألا رغبة له فى الجلوس « بالحجرة » وهى المكان المعد فيما مضى للمزاج . وأبى مزاج الشيخ حمدان إلا أن يشرب وهو لا يعلم من حقيقة الأمر شيئاً ، وأبى عمران بدوره أن يخيب له أملا وطلب إلى الله ألا يشرب حمدان أكثر من كأس أو كأسين . ويشرب حمدان أكثر وأكثر ويلح فى الرجاء أن يلعب ويلعب ، فقد رزقه الله هذه الليلة بمال وفير لم يتعب نفسه فى عدّه ، لقد باع الأرز والذرة « وكان معى مبلغ كبير لا أذكركم ، ووضعت الفلوس على بعضها البعض ولم أعد ... الله يسترك يا عمران عد الفلوس لأنى أصبحت لا أستطيع العد » . وعد عمران النقود بعد أن احتجز لنفسه منها ما شاءت له الصدفة أن يحتجز ، وعاد الشيخ حمدان إلى قريته ، وفى الصباح أخذ يتذكر حساب الأمس إيراداً وصرفاً ، وأدرك فى غير عناء أن صديقه عمران « يحب أن يفخر بأنه لا يمكن أن يسمح لأحد أن يقدم له مشروباً ولا يرده . . إنه فعلا لا بد أن يرد المشروب . . رجل طيب عمران وكريم وحساس . . الله يجازيه » .

وفى هذه الحدود يبتعد ثروت أباظة عن القصة — الحدوتة ، ليقترب من القصة — الصورة ، أى أن أبعاد « ثمن المشروب » لا تتبدى لنا فى سياق طولى للزمن ومن خلال ضمير منفرد بالنطق . . وإنما تتبدى لنا فى حالة « تكوّن » كاللوحة تماماً تنطق على ألسنة ضمائر ثلاثة : حمدان وعمران وتلك الشخصية الخافية بينهما . . . هى محاولة تجديدية بلا ريب فى مزج الأزمنة بحيث إنها لم تتحول فى يدى الفنان إلى ذكرى « ماضية » ولا إلى نبوءة « مستقبلة » ولا إلى تسجيل « حاضر » . . وإنما امتزج

الماضى بالحاضر بالمستقبل فى عجينة واحدة اتخذت من السرد أساساً لبناء العمل الفنى ، وجاء الحوار القليل بالفصحى كجزء لا ينفصل عن السرد . والنموذج البشرى هو عماد الصورة التى أجاد رسمها ثروت أباظة ، وهو من هذه الزاوية يميل نحو الواقعية فى التصوير ولكنه يميل أكثر إلى ما يسمى بالنمطية الفنية التى تختزل الشخصية فى سمات فكرية عامة . وقد أطلعنا الكاتب على الوجه الآخر للإنسان وكأنه أراد أن يقدم لنا الكائن البشرى « قناعاً » تفلت حقيقته الإنسانية من بين أصابع الفقر والتعاسة . والمصادفة هنا هى الديكور الذى يعنى الفنان بتزيينه ، ومن هذه الزاوية تميل القصة نحو الرومانسية ، ولكنها الرومانسية التى تعتمد على المفاجأة الموبسانية التقليدية . فلولا أن الشيخ حمدان قد باع أرزه وملأ حافظته فى تلك الليلة ، لما اكتشفنا حقيقة القناع الذى يخفى الوجه الحقيقى لعمران . بل إن ثروت أباظة باستخدامه للأزمنة الثلاثة حاول أن يصوغ شخصية واحدة من وجهى حمدان وعمران فى قناع واحد . . أى أنه إذا كان الشيخ حمدان يبدو طيلة الأسبوع ولياً من الأولياء فى قريته ، ثم يقضى ليلة حمراء بعيداً عن العيون ، فإن عمران هو وجهه الآخر الذى يبدو للجميع أنه لا يرضى لأحد أن يدفع « ثمن المشروب » فى حين يسرق بالجملة ما يعادل أثمان المشاريب التى تجرعها فى حياته . هما إذن شخصية واحدة وقناع واحد شارك فى خلق ذلك الصوت الثالث بينهما ولا يكاد يبين . وتلك أخيراً هى « العبرة » التى يود ثروت أباظة أن يفضى بها إلينا فى صمت ، أو فى همس قريب من الصمت . وهو بذلك لا يخرج عن الاتجاه التقليدى فى كتابة القصة ، ولكنه يقدم نموذجاً رفيعاً لهذا الاتجاه يستطيع أن يشارك بفاعلية أكبر فى صنع لوحة القصة المصرية القصيرة . إن قصة ثروت أباظة وحدها هى التى تندرج فى خانة الاتجاه التقليدى وتشذ عنه فى الوقت نفسه ، وهى فى انتمائها وغربتها على هذا الاتجاه إنما تقدم الدليل على إمكانية قيام هذا الاتجاه بواجبه فى تطوير قصتنا القصيرة . . لو أنها

تخلت عن التقاليد المو بسانية وأحلام اليقظة . فلعل التحرر النسبي فى
ثمن المشروب » هو الذى أنقذها من رتابة الرومانتيكية التقليدية
واقترب بها من أبواب الحياة .

الاتجاه الواقعي :

ليس الاتجاه التقليدى اتجاهاً جمالياً فحسب ، وإنما هو صياغة
جمالية مركبة من عناصر نفسية وذهنية واجتماعية وحضارية تشابكت
فيما بينها على نحو غاية فى التعقيد ، وعبرت أخلص تعبير وأصدقه عن
مرحلتين فى حياة المجتمع المصرى الحديث : المرحلة الأولى هى مرحلة
التناقض مع الصياغة الإقطاعية لهذا المجتمع ، وتلك هى مرحلة البرجوازية
الثورية كما انعكست فى القصة القصيرة الكلاسيكية بشكل عام ،
والأقصوصة المو بسانية بشكل خاص . والمرحلة الثانية هى مرحلة « الاستقرار »
البرجوازى والتحول بالفكرة الليبرالية إلى « نظام » انعكس بدوره على القصة
القصيرة الرومانتيكية بمختلف ألوانها . ولقد دخل المجتمع المصرى منذ
أواسط الأربعينات مرحلة جديدة من مراحل تطوره باحتدام حركة التحرر
الوطنى وإنجاز الجانب الأكبر من مهام الثورة البرجوازية طيلة الخمسينات .
وكان لابد للاتجاه المعبر عن مرحلة ما قبل الثورة ألا يكون هو اللسان المعبر
عن مسار هذه الثورة بكل متناقضاتها . . إذ هو يفقد تلقائياً القدرة على
النطق باسم المجتمع الجديد سواء وهو بعد جنين يتشكل فى نضاليات
الشعب المصرى أو وهو ثمرة واقعية ملموسة لهذا النضال . وحين يفقد الفن
همزة الوصل بينه وبين « حركة » المجتمع أى أن يفقد هذه القدرة الفذة على
رؤية المستقبل من مجهر الحاضر ، فإنه يتحول إلى « تراث » من الممكن
الأديب الجديد ولابد له من استلهامه كجزء لا ينفصل من ماضى
الإبداع المصرى فى الفن والحياة . ولكنه حين يخرج من دنيا التراث
ليمارس وظيفة الوجود الحى والحضور الخلاق ، فإنه يجنى على دوره

وتاريخه إذ هو يصبح عائقاً فى وجه التقدم الفنى باعتباره عنصراً « محافظاً » بطبيعته . وفى أروع نماذجه لا يزيد على كونه اتجاهاً تقليدياً يسهم حقاً فى صنع اللوحة الفنية المعاصرة للمجتمع المصرى ، ولكن مساهمته تقتصر على التعبير عن الوجه التقليدى والمحافظ لهذا المجتمع . ولقد أدت القصة الكلاسيكية الرائدة دورها وانتهت ، وكذلك الأمر فى القصة الرومانتيكية ، إذ كان كلاهما تعبيراً أميناً عن تناقضات المجتمع القديم بمرحلتيه : المأزومة والمستقرة . ومن الطبيعى أن تثمر تفاعلات الحركة الاجتماعية والفنية أكثر الصياغات الجمالية قدرة على امتصاص الواقع الجنينى للمجتمع الجديد ، وأكثرها قدرة على الاستجابة للواقع الوليد بعدئذ . وكانت الرومانسية الاشتراكية فالواقعية النقدية ثم الواقعية الاشتراكية هى الصياغات التى تبادلت التعبير عن الحركة الدينامية لمجتمعنا الجديد .

ولا ريب أن الأدباء الواقعيين — على اختلاف ألوانهم — كانوا فى جملتهم كتاباً برجوازيين ، من حيث تكوينهم الاجتماعى والنفسى والثقافى ، وبالرغم من انتمائهم الفكرى — بدرجات متفاوتة — إلى قضايا الجماهير الشعبية . هذه النقطة غاية فى الأهمية ، لأن الواقعية فى معظم إنتاجهم لم تكن معادلا جمالياً للاشتراكية ، وإنما كانت اجتهاداً برجوازىّ المنبت والنشأة لحل ما يسمى بقضية العدل الاجتماعى . وتنبع أهمية هذه النقطة ثانية لأن نشأة كتاب الواقعية وثقافتهم انعكست بصورة من الصور على ما أبدعوه من أدب وفن أخذ حيناً فكرة النموذج البشرى الضائع عن الرومانسية ، وأخذ حيناً آخر النسيج المألوف للحياة اليومية من القصة التشيكوفية ، وأخذ حيناً ثالثاً البناء المحكم عن القصة الموبسانية . أى أن الأدب الواقعى فى مجمله قد تأثر غاية التأثر بالإبداع البرجوازى . وقد تختلف درجات التأثر ونوعيته من كاتب إلى آخر ، وقد يختفى التأثر تحت طبقات كثيفة . ولكن الحقيقة الفنية التى لا سبيل إلى إنكارها هى أن الأدب الواقعى فى بلادنا قد نهل من ينبوع البرجوازية المصرية ، الأدبى

والفني . وهو تأثر مشروع لا يلقي ظلاً من شبهة على هذا الأدب . وإنما لا بد لنا من سبر أغوار هذا التأثر حتى نتمكن من رصد ميراثنا الفني رصداً سليماً يقينا شر الانحراف بتقويماتنا النقدية انحرافاً مثالياً مدمراً . على أن الأدب الواقعي لم يرث الفن البرجوازي وحده . وإنما أضاف إلى أخذه عنه رفضه الكثير من عناصره . رفض العقدة الموبسانية والمفاجأة المصنوعة التي تنفرج بها الأزمة عند كتاب القصة الكلاسيكية . ورفض الرؤية الشعرية للحياة الكثيفة بطبيعتها ، كما رفض ضباب الحلم والذكريات في القصة الرومانسية . ذلك أن الرؤية الواقعية الجديدة تقوم على المواجهة والتحدي والتغيير بدلاً من الانطواء والاستسلام واللامبالاة . وكانت هذه الرؤية في بدء ظهورها « موجة جديدة » تبدت في أعمال الجيل الأوسط بين نهاية الأربعينات ونهاية الخمسينات . وكانت قد تبنت منظوراً فكرياً جديداً يتسق مع المرحلة الجديدة من تطور المجتمع . وكانت هذه الرؤية أخيراً ومن حيث الجوهر ودون الدخول في التفاصيل بشيراً بالاشتراكية كحل موضوعي لأزمة المجتمع . هكذا اختفت من تفاصيلها الحبكة التيمورية والشفافية المأثورة عن محمود البدوي والحزن الرومانسي الفاجع عند محمود كامل. وإنما كان شحاتة وعيسى عبيد وطاهر لاشين هم أقرب الجذور القادرة على إمدادها بماء الحياة الواقعية وأصالتها . وحل النموذج البشري المسحوق اجتماعياً محل النموذج الرومانسي الضائع عاطفياً . وحل ديكور الفقر والبؤس والتعاسة بكل كثافتها وغلظتها محل المناخ التشيكوفي برقته العذبة ومرارته الهادئة . وحلت النهاية السعيدة المتفائلة في بعض الأعمال الواقعية متناقضة مع المقدمات السوداء كنوع من « النبوءة » بما ينبغي أن يكون عليه الحال ، بينما ظلت النهاية القاتمة تظل أعمالاً واقعية أخرى كنوع من « التحريض » غير المباشر على ضرورة تغيير ما هو قائم . ولذلك تأرجحت المدرسة الواقعية في صياغتها الجمالية بين أسلوب اليوتوبيا وأسلوب التحقيق الصحفي. ولم يكن الاختلاف

بين الأسلوبين مجرد اختلاف جمالى محض وإنما كان بنفس القدر اختلافاً فى زاوية الرؤية والموقف من الحياة . ولا أكاد أرى بين أعمال لطفى الخولى ونعمان عاشور ومحمد صدقى وعبد الله الطوخى وفاروق منيب وفهمى حسين وغيرهم ما يعد خروجاً على هذين الاحتمالين فى مجالات التعبير الواقعى . ولا يشذ على القاعدة ويؤكدها بامتيازه وتفرده معاً سوى يوسف إدريس ، فقد استطاع أن يشق لنفسه طريقاً خاصًّا ابتداء من « أرخص ليالى » إلى « مسحوق الهمس » لا يعتمد على النماذج المعدة سلفاً فى الآداب الاشتراكية . أما بقية أبناء جيله فإن أعمالهم فى غالبيتها تعد سجلاً دقيقاً لانتصارات الواقعية وهى بعد موجة جديدة : وانتكاساتها حين آلت دورتها إلى انتهاء . فاليوتوبيا التى بشرت بالمجتمع الجديد فقدت طاقتها على التنبؤ ولم يبق من أنقاضها إلا أسوار « المدينة الفاضلة » أى دورها الغنائى الحماسى الأجوف ، وبعبارة أخرى أصبحت هيكلا عظيماً خالياً من حرارة اللحم والدم . وكذلك التحقيق الصحفى الذى سجل فيما مضى قتامة المجتمع القديم لم يعد له من اسمه إلا الجانب الخبرى الهاتف بآخر الأنباء ، وبمعنى آخر تخلى عن صوته الصارخ فى البرية أن نعد طريق التغيير ، وأصبح تسجيلا لكل تصفيق حاد وهتاف متواصل . ويؤدى هذا بنا إلى القول أن الواقعية فقدت ثوريتها ولم تعد قادرة على مواكبة التطور الاجتماعى لبلادنا . فهل حقًّا تجاوز تطورنا الاجتماعى « الاتجاه الواقعى » فى جوهره كصياغة جمالية لمرحلتنا التاريخية الراهنة ؟ أى أن السؤال فى كلمات أخرى يستفسر عما إذا كانت الواقعية نفسها كمذهب أدبى قد نضب معينها بحيث إنها لم تعد الاستجابة الفنية المعاصرة لنبض أمتنا ؟

تجيب النماذج المختارة فى هذه المجموعة ، لألفريد فرج وسوريال عبد الملك وصلاح الدين حافظ ، إجابات مختلفة ومتفقة فى آن : إن المجتمع المصرى بكل تناقضات مرحلة التحول التى يعانيها لم يتجاوز بعد

أسوار الواقعية ، ولكنه يفسح إلى جانبها مكاناً لموجات جديدة غيرها . والواقعية بدورها ما تزال لديها القدرة على تجسيد بعض تناقضاتنا المعاصرة بشرط أن تجدد من شبابها الفنى بما يتلاءم مع خصائص مرحلة التحول .
وتتفق إجابات ألفريد فرج وسوريال عبد الملك وصلاح الدين حافظ فى الرد على تحدى المرحلة الجديدة بمنطق يغاير إلى حد كبير منطق الواقعية التقليدية التى اختتمت حياتها بالعقم والبوار . رفض المنطق الجديد من المنطق القديم أفكاراً رئيسية مثل « البطل الإيجابى » و « النهاية المتفائلة » و « التبسيط غير المحدود » . فلقد كان من شأن المدينة الفاضلة التى يشيدها الواقعيون التقليديون أن تبنى بين أعمدتها بطلا عملاقاً هو تمثال كاريكاتورى لعامل أو فلاح أو لأى كادح كان ، جوّف الفنان داخله ليحشوه بما شاء له من الشعارات الثورية . ولا يحتاج البطل بعد ذلك إلا إلى إدارة الزنبرك حتى ينطق باسم صاحبه ومبادئه . وإذا كانت هذه الصياغة للبطولة قد أدت دوراً سياسياً فى وقت ما ، فإنها قد أخفقت فنياً فى التدليل على « إيجابيتها » لأن البطل على هذا النحو فوق أنه لا يمت إلى الواقع المراد تغييره بصلة من الصلات ، فإنه فى أحيان كثيرة يؤدى دوراً رومانتيكياً تضليلياً. وعلى غير هذا النحو قدم ألفريد فرج بطله « عبد التواب » فى قصة « السمسار » . إنه يجسد فيه مفارقة إنسانية عامرة بالسلب لا بالإيجاب ، « فعبد التواب » يتواضع مستواه الذهنى تواضعاً لا حد له حين يتعرض له أحد الأشقياء عند عودته من السوق بعد أن اشترى حماراً فيوهمه النعمانى بأنه قد كسب الصفقة بما لايقاس . ويستطرد النعمانى فى لعبته حتى ليوهم عبد التواب بأنه قد أدى له خدمة لاتقدر بتثمينه للحمار ، ومن ثم فهو يطلب أتعابه عن هذه « السمسرة ». ولا يقدم لنا ألفريد « عبيطاً » من بلهاء القرية حتى لنظن أنه يمنح النعمانى المحتال هذه السمسرة المزعومة عن طيب خاطر . وإنما هما يتشاجران شجاراً غير متوقع يتدخل فيه السابله من أهل القرية العائدين

من السوق والحقول . وينتهى الأمر بأن يدفع عبد التواب المسكين خمسة قروش للنعمانى الذى أجاد مع أخيه هذه التمثيلية . ولكن عبد التواب لم يكن يسرد الواقعة هكذا على من يسأله عن ثمن الحمار ، وإنما كان يباهى بأنه اشتراه برخص التراب وخدع السمسار أيضاً فلم يعطه سوى خمسة قروش . هذا هو « الفلاح » كما صاغه ألفريد فرج فى بطولة « سلبية » إن جاز التعبير : أو هى بطولة حملت تناقضا كامناً فى الأعماق فجاءت بطولة حية زاخرة بالحياة وليست تجويفاً مثقلا بالشعارات فى بطن تمثال كاريكاتورى . وهكذا الأمر فى قصة « أطفال الذئاب » لسوريال عبد الملك : لقد أكلت الذئاب طفل عمران الخفير ، وأكل الضابط قلب الذئب ، ولم يعد قادراً على انتشال لحم ابنه من جوف أحد . كان يتصور أنه يستطيع ذلك حين قتلت القرية أطفال الذئاب ودفنتهم فى الجرن ، ولكن الكلاب كانت قد سبقته إلى هناك . وعند ما حاول أن يطاردها أقبل الكونستابل فى ركب الداورية واستحث عمران إلى الدوار حيث مال عليه شيخ الخفراء وفى يده طبق به قطعة صغيرة من اللحم . وهكذا انتهت جثة ابنه إلى هذا المكان الحصين من أمعاء رئيسه « ياليلتك الحبر يا عمران . . . حتى الكونستابل المتعلم » . . وتنهد قوى عمران تماماً فقد خذلته الحياة بمعدل سرعتها المذهل خذلاناً كاملا . والفنان يقدم لنا هذا البطل « السلبى » إن جاز التعبير ثانية : مرادفاً لتعقد الحياة وانعدام الاتساق فى تضاعيفها بحيث إن رجلا غلبانا مثل عمران يفقد مستقبله المرموز إليه بالطفل فى دورة سريعة متلاحقة لا ينقذه من دورانها شىء . وكذلك الأمر فى « عم ميهوب » بطل قصة « عمار يا مصر » لصلاح الدين حافظ . إنه يعيش حياته من القرية إلى البندر فى هذه العربة التى كانت تنهب الأرض نهباً فيما مضى من الأيام عندما كانت « أحلامهم » عربة جديدة يسوقها مع أحلامه التى لا تعرف حدوداً . ولكن اليوم جاء بعد عشرين عاماً وأمست « أحلامهم » أثقل خطواً من دواب القرية :

وها هى ذى وسائل المواصلات الأخرى تحاذيها فى سرعة البرق وتسبقها « وسرح عم ميهوب ، وتاه بعيداً وهو لا يصدق أن اليوم الذى يجب أن يترك فيه أحلامه قد جاء » . تلك هى النهاية الأسيفة حقاً ، ولكنها النهاية المحتومة لهذا البطل الذى صاغه الكاتب فى لحظة « السلب » من لحظات وجوده إن جاز التعبير مرة ثالثة ، هى لحظة التغير من جهة ، ولكنها لحظة الموات فى الجهة المقابلة . إنها لحظة التغير أى الحركة الإيجابية إلى أمام بالنسبة لما هو « عام شامل » ولكنها لحظة السكون الأبدى والحركة السلبية إلى الخلف بالنسبة لما هو « خاص وفردى » فى حياة عم ميهوب .

ولا شك أن هذه السلبية بمختلف درجاتها وزواياها هى نبرة جديدة فى النغم الواقعى . وأدباء هذا الاتجاه لا يتورطون فى نفس الأحبولة التى سقط فيها من سبقوهم ، أحبولة النظرة الآحادية الجانب ، أحبولة التجويف الخاوى من اللحم والدم فى الشخصية الفنية حتى إنها تتحول إلى تمثال كاريكاتورى مثقل بالشعارات . فقد كان رد الفعل الممكن هو أن تتخذ البطولة السلبية هذا الطريق الأجوف ، والآحادى الجانب فتصبح كالبطولة الإيجابية المجوفة والقصيرة النظر والممعنة فى السطحية ، أى تتحول إلى تمثال جديد ينطق بالشعارات السلبية . ولكن أدباء الواقعية الجديدة قد تلافوا هذا الخطأ الفادح بأن أقاموا جسراً بين ما هو سلبى فى أبطالهم . وبعثوا فى شخصياتهم الفنية حركة ديناميةتتفاعل بواسطتها السلبيات والإيجابيات تفاعلا معقداً لا يثمر ذلك التبسيط المبتذل الذى عرفناه زمناً . فلا ريب أن « النموذج البشرى المسحوق اجتماعيا » هو هو لم يتغير من الواقعية القديمة إلى الواقعية الجديدة ، هو عماد القصة القصيرة المستظلة براية الواقعية المصرية إلى الآن . ولكنه نموذج معقد يتجاور فيه النعمانى وعبد التواب عند ألفريد فرج ، ويتحد فيه الطفل والذئب عند سوريال عبد الملك ، وتصبح العربة وعم ميهوب شيئاً واحداً فى مواجهة « عربيات النهاردة » كما يقول الابن فى قصة صلاح الدين حافظ . لم تعد الخيوط

متوازية فى وضوح ، ولا طرفا الصراع يمثلان التناقض الاجتماعية بصورة محددة ومباشرة . وإنما نحن لا نكاد نرى فى ديكورات « السمسار » و « أطفال الذئاب » و « عماريا مصر » أية معالم لقوى الشر التى تسحق الشخصية : ولكن هذه المعالم بدلا من الحضور التقريرى المباشر قد اختارت التخفى فى النسيج العام للقصة حتى لنشعر بأنفاسها تلفحنا دون أن نعثر على بصمات أصابعها أو آثار أقدامها . ولعل هذا ما يباعد بين هذه القصص وبين أن تكون يوتوبيات أو تحقيقات صحفية ، فهى لا تتنبأ ولا تسجل ، ولكنها تواكب لحظتنا الحضارية المعاصرة مواكبة دينامية عميقة ، شاهدة على الماضى وتومئ بالمستقبل . . ولكنها فى شهادتها وإيماءاتها لا تهتف ولا تقرر وإنما تجسد وتعمق وتكثف . على ذلك فإن « النهاية المتفائلة » التى كانت كليشيهاً يختتم به كاتب اليوتوبيا قصصه و « النهاية القاتمة » التى كانت كليشهاً يختتم به كاتب التحقيق الصحفى قصصه . . . لم تعد نهايات حتمية وحاسمة فى أعمال الواقعية الجديدة ، فنحن نرثى ونبتسم لعبد التواب وحماره ، ونحن نشقى ونسعد لعمران وطفله القادم ، ونفرح ونأسى لعم ميهوب وعربته : نهايات أكثر « واقعية » مما كانت عليه نهايات الواقعية القديمة ، لأنها تحمل فى ثناياها جدلية الحياة وتكشف فى إنسانها عن أغواره العميقة . بل إن هذا « الجدل » بمعناه الفنى الخصب يزاوج بين المدلول المباشر لمأساة عم ميهوب وأزمة المجتمع الذى يعيش فيه منتقلا بكافة جوانبه إلى مرحلة جديدة من مراحل تطوره . وقد اختار الكاتب بوعى نافذ لحظة « الانتقال » هذه بوجهيها الفردى والاجتماعى حتى يطلعنا على صورة مركبة من صور الحياة وأبعادها المتنزعة لا على لقطة ممعنة فى التبسيط المخل بقوانين الحياة وجوهرها الأعمق . ولقد اختار الكتاب الثلاثة « الريف » كأرضية للعمل الفنى ، ولعله من الناحية الموضوعية البحتة أصلح المواد وأغناها بأسرار مرحلة الانتقال ، حيث تحجب أدوات الزيف المتقنة الوجه الحقيقى للمدينة . وقد تم ذلك بغير

أن يتحول الريف فى أيديهم إلى أنشودة رومانسية . والملاحظة الهامة الأخيرة على « الاتجاه الواقعى » الجديد، القادر على المساهمة فى تشكيل رؤيتنا الفنية المعاصرة هى أنه يجمع بين أكثر من جيل ، ويأخذ عن أكثر من اتجاه . فألفريد فرج قد شارك يوماً فى تحريك « الموجة الجديدة » الواقعية عند بداية ظهورها ، وهو إلى اليوم يشارك فى تجديد شبابها الفنى ، بينما نجد كاتباً آخر كصلاح الدين حافظ يدخل باب الفن القصصى بعد جيل كامل من بداية هذه الموجة ، ولكنه يؤثر الدخول مزوداً بالرؤية الواقعية فى أكثر تجسيداتها تعبيراً عن حياتنا الجديدة . ولقد ترتب على التحام الأجيال وتفاعلها أن الأسوار والحدود المقامة سلفاً لما يسمى بالرومانسية الاشتراكية والواقعية النقدية والواقعية الاشتراكية ، لم تجد لنفسها ما تقوم بتسويره وتحديده . فالنهاية المتفائلة فى قصة « أطفال الذئاب » تشى بأن صاحبها أراد أن يكون واقعياً اشتراكياً ، ولكنها تشى فى نفس الوقت بأن صاحبها قد أراد شيئاً وأراد الفن شيئاً آخر .. فالنسيج المكثف فى مهارة ودقة طيلة القصة لا يؤدى بالضرورة إلى هذه النهاية المصنوعة صنعاً ، فلا ريب أن ليلة عامرة بالجنس يقضيها عمران مع زوجته لن تقضى مطلقاً على مأساة الطفل والذئاب . وهى المأساة التى تتكامل وتؤدى دورها الفنى عندما يقضم الكونستابل لحم الذئب ويهمس عمران لنفسه فيما يشبه المونولوج الداخلى لحناً جنائزياً على ابنه الذى تأكد له بشكل حاد أنه مات . تعكس نهاية القصة إذن — على النحو الذى أراده لها مؤلفها وهو أن ينفذ عمران أمر شيخ الخفراء بأن يذهب إلى البيت لينسل طفلا جديداً — تعكس هذه النهاية صراعاً مريراً بين المفهوم التقليدى للواقعية ، فالخاتمة التى شاءها سوريال عبد الملك تكاد تصرخ بكلمة المستقبل ، وبين المفهوم الجديد للواقعية الذى تبدى لنا فى مقدرة الكاتب على اختيار التفاصيل والنموذج الإنسانى والحدث اختياراً حراً عميقاً . إن التناقض بين النسيج الكلى لقصة « الأطفال والذئاب » وبين

نهايتها يعكس ضراوة الصراع بين القديم والجديد فى أعماق الكاتب الواحد . ويؤكد أن الأسوار العتيقة تتهاوى ؛ ولكنها تترك آثاراً ورواسب قبل اكتمال الحدود الجديدة .

الاتجاه التعبيرى :

لم ينفرد الاتجاه الواقعى بمهمة التبشير بمجتمع جديد وعصر جديد ، وإنما كانت الواقعية صوتاً مباشراً فى هذا الصدد عثر فى نماذج الآداب الاشتراكية وفكرها على صياغة جاهزة عليه احتذاؤها والاقتداء بها وإن لم أقل محاكاتها وتقليدها كما حدث فى الأغلب الأعم . وكما كان الأدب الروسى الكلاسيكى ملهماً لعيون الواقعية النقدية فى أدبنا الحديث ، كذلك كان الأدب السوفييتى — وأدب جوركى على وجه الخصوص — ملهماً لعيون الرومانسية الاشتراكية والواقعية الاشتراكية فى هذا الأدب . على أن الفرق الماثل بين مستوى الأدب الروسى الكلاسيكى الشامخ والأدب السوفييتى الوليد قد انعكس بدوره على مستوى الأدب المصرى الواقعى الرائد فى الثلاثينات ومستوى الأدب الواقعى التقليدى فى الأربعينات والخمسينات . فلقد كان الأدب السوفييتى جنيناً يحبو مع مولد الثورة الاشتراكية يعانى أهوال التجربة الأولى والواقع البكر . وكان الأدب المصرى لا يزال يتنفس فى مجتمع برجوازى راسخ ومستقر ، حتى إذا جاءت الثورة كان عليها هى الأخرى أن تخلص معالمه من ملامح الإقطاع والملكية والاستعمار أى أن تدعم وجهه البرجوازى . وتلك هى المفارقة بين الأدب « النموذج » الذى نقل عنه واقعيونا الاشتراكيون متناسين أنه أدب يتنفس بناء المجتمع الاشتراكى ، وبين أنهم يبدعون أدبا « واقعياً » فى مجتمع الثورة البرجوازية . ولذلك كان ارتفاع النبرة فى صوت الواقعية السوفييتية له ما يبرره ، بينما كان هذا الصوت المرتفع فى واقعيتنا إغراقاً فى المثالية من حيث أرادها الكتاب واقعية .

غير أن ذلك كله لا ينفى أن الاتجاه الواقعى قام على نحو من الأنحاء بمهمة التحضير والتبشير بمجتمع جديد ، ولكنى أردت القول إنه لم ينفرد بأداء هذه المهمة ، وإنما كانت هناك تجارب طليعية أبدعتها جماعات صغيرة من الأدباء والفنانين فى الأربعينات ، شاركت هى الأخرى — على طريقتها الخاصة — فى إدانة القديم والتنبؤ بالجديد . ولم تكن طريقتها الخاصة هذه إبداعاً خالصاً من التأثر بغيرها من الآداب الأجنبية ، فالحق أن حضارتنا الفنية بأسرها منذ نهايات القرن الماضى وبواكير القرن العشرين ، قد تأثرت بالحضارة الفنية فى الغرب تأثراً بالغاً وأصبح هذا التأثر المشروع عنصراً جوهرياً من عناصرها . ولكن الاتجاه التجريبى فى جيل الأربعينات برغم تأثره بكافكا وإليوت وسترندبرج كان اتجاهاً « تجريبياً » بمعنى أن تجربة الخلق فيه تعتمد أساساً على ما تضيفه الذات المبدعة ، بعكس تجربة الخلق « الواقعى » حيث تعتمد أساساً على التأثير الخارجى . وقاد هذا الاتجاه خلقاً ونقداً وتذوقاً مجموعة صغيرة من الشباب المثقف غير المنعزل عن اضطراب مجتمعه بين القديم والجديد « المجهول » من أمثال يوسف الشارونى وعباس أحمد وإدوار الخراط وفتحى غانم وكامل زهيرى ومجدى وهبة وبدر الديب ورمسيس يونان وألبير قصيرى وأنور كامل وجورج حنين . وقد اختلفت بينهم درجات التأثر والموهبة كما تنوعت ثقافاتهم ورؤاهم بحيث إننا لا نضع أسماءهم جنباً إلى جنب إلا من قبيل « التمايز » بينهم وبين أقرانهم ومجايليهم من أبناء الواقعية . فالحق أنه فى اللحظة التى يجتمعون فيها حول مائدة « التجريب » يتفرقون على التو انطلاقا من الفكرة التجريبية نفسها ، فهى تطمح إلى نوع من التفرد الموغل فى الذاتية للدرجة التى يصعب معها تصنيفهم فى خانة واحدة . وقد كانوا فى مجموعهم أبناء ثقافة « تقدمية » تتطرف حيناً وتعتدل أحياناً ، ولكنها فى جملتها تتبنى البصيرة التقدمية فى رؤية الحركة الاجتماعية . وهى فى الوقت نفسه — وإخلاصا عميقاً منها لراية التجريب فى الفن — لم تحاول قط أن ترسم

حدوداً واضحة للمجتمع الجديد ، لم ترسم أسواراً لمدينة فاضلة ولم تكتب تحقيقاً صحفياً معتماً مدعماً بالوثائق المعادية للمجتمع القديم . وإنما هي اكتفت — فكرياً — بالإشارة إلى ذلك « المجهول » فى باطن الغيب الاجتماعى . وكانت معضلتها الفنية هي أنها رفضت كافة الأبنية الذوقية والجمالية المعاصرة لها رفضاً شاملا ونهائياً . ولم يكن التأثر بكاتب عظيم مثل كافكا شيئاً ميسوراً لأن الخامة الفنية التى شكلت رؤيته الخاصة فى الإبداع لا علاقة بينها وبين الخامة الفنية التى يتحتم على الفنان المصرى أن يشكلها على نحو مغاير ، وإنما كانت المساهمة الحقيقية لكاتب مثل كافكا هى منهجه وروحه لا أسلوبه ومضمونه .

وكان التجريب يستوجب قدراً من الحرية يتيح للفنان أقصى حالات التفرد فى الإبداع ، وإن تسبب من ناحية أخرى فى إزعاج الذوق الفنى بما يشبه الصدمة . ولقد تضمنت تجارب ذلك النفر من الطليعيين حقها فى « التعدد » منذ أقرت منهجها التجريبى ، واشتمل هذا التعدد من زاوية رئيسية على مبدأ تقليب كافة وجهات النظر ورؤية الشىء الواحد من كافة جوانبه وانعدام اليقين أو القطع أو الحسم أو الحتمية . ولذلك خلت هذه التجارب فى غالبيتها من « قانون الإيمان » سواء كان قانوناً سماوياً أو أرضياً ، وقد خلت بذلك من الثبات والسكونية والديمومة . وكان البديل للقانون بما يفيده من محدودية واستقرار ذلك « الحدس » و « التدفق » و « الصيرورة » التى تطالعنا بها الحياة بآفاقها الأكثر رحابة وعمقاً من كل قانون جزئى موقوت وكل قانون كلى دائم .

وقد برز من بين ركام هذه التجارب ما تواضع النقاد على تسميته بالاتجاه التعبيرى . وهو الاتجاه الذى ارتاده فى وقت مبكر وبصورة من الصور الفنان يحيى حقى فى مجموعته « دماء وطين » ، وجاء من بعده يوسف الشارونى الذى كتب فى أواخر الأربعينات « أيام الرعب » و « الطريق إلى المعتقل » و « دفاع منتصف الليل » ، وهى ثلاث من أروع ما كتب فى

باب القصة المصرية القصيرة على الإطلاق ، بل هى من الناحية التاريخية البحتة تعد صفحة جديدة، ونقطة تحول فى تاريخ قصتنا القصيرة . كانت هذه القصص الثلاثة « علامة طريق » بين مجموعة التجارب الطليعية التى أبدعها جيل يوسف الشارونى ، ذلك أنها كانت فتحاً للاتجاه التعبيرى الذى لم يتح له مناخنا الحضارى فرصة تحوله إلى تيار أو حركة جماعية . وانقطع يحيى حقى أو كاد أن ينقطع عن مواصلة الإبداع القصصى حتى فاجأنا مع بداية عام ١٩٦١ بقصة « الفراش الشاغر » التى أعدها أعظم ما جادت به القريحة الخلاقة المبدعة ليحيى حقى . وكذلك انقطع يوسف الشارونى أو كاد أن ينقطع عن مواصلة « الاتجاه التعبيرى » فى القصة القصيرة حتى فاجأنا مع بداية عام ١٩٦٣ بقصة « الزحام » التى أعدها امتداداً لمنهجه التجريبى قبل ذلك التاريخ بخمسة عشر عاماً .

ويصف معجم بنجوين الفنى الاتجاه التعبيرى بقوله إنه « البحث عن تعبيرية الأسلوب بواسطة المبالغات والتحريفات فى الخط واللون ، وهو أيضاً تخل متعمد عن النزعة الطبيعية الكامنة فى التأثيرية من أجل أسلوب مبسط يحمل أثراً انفعالياً أكبر » . ولذلك فإنى أدرج أعمال كافكا تحت هذا الوصف العام فى مجال الفنون التشكيلية ، بنفس القدر الذى يضع به كبار النقاد ومؤرخو الأدب ، أعمال المسرحى السويدى سترندبرج . ولست أدرى على وجه اليقين هل يشكل كافكا عنصراً هاماً من عناصر الثقافة الفنية عند يحيى حقى ؟ وإن كان التعاطف الواضح بين هذا الرائد وشباب الجيل الجديد من الطليعيين المصريين يشى بانفتاحه على أصول تجاربهم وجذورها الثقافية . ولكنى بالنسبة ليوسف الشارونى على يقين تام من ثقافته الكافكاوية ، هو وبقية معاصريه من الجيل التجريبى فى الأربعينات . ولكن كافكا وإليوت وسترندبرج وغيرهم لم يمثلوا أمام يحيى حقى أو يوسف الشارونى نموذجاً أدبياً يحتذى ، وإنما منهجاً فى التجربة

الفنية وروحاً للخلق الجمالى .

هكذا تبدو لى قصة « الفراش الشاغر » مثالا حيًّا عميق الدلالة على اتخاذ التعبيرية فى أدب يحيى حقى منهجاً فى الإبداع . إنها ليست تطبيقاً حرفيًّا لمقولة فلسفية جامدة فى عالم الجمال عند التعبيريين ، ولا هى محاكاة عابدة صامتة أمام جلال التجربة الكافكاوية فى الخلق الفنى . وإنما هى امتزاج مركب شديد التعقيد بين مواد أولية مصرية صميمة وتكوين فنى يندرج تلقائيًّا فى تراث التعبيريين الأصلاء . ولعل هذا الارتباط الدينامى العميق بين الشكل والمضمون هو الدافع الأول للدكتور لويس عوض أن يقدم هذه القصة عند نشرها للمرة الأولى بمجلة الكاتب (عدد أبريل ١٩٦١) بقوله : « السلبية أم الخبائث كلها ، هى التى تنحدر بضحيتها إلى الحضيض ، إنها عدوة المجتمع ، قاتلة لكرامة الإنسان ، وإمالة رأس القارئ لحظة على الهوة ليدرك بشاعتها وقاية له من الوقوع فيها ، وإيقاظ لقدرته على المشاركة الإنسانية وتبصير له بنعمة الجمال ، ما أحلى التنفس فى الهواء الطلق بعد الاختناق فى الجحور المسمومة . وخير أداة لبلوغ هذا الغرض هو الرمز ، والأدب العربى فى تطوره الحديث ينبغى أن يألف كل الأساليب » . ولا أدرى إلى الآن أكانت هذه الأسطر اعتذاراً عن كاتب القصة ، أم كانت رهبة التجربة الجديدة . ولكنى أقول إنه بالرغم من أن « الفراش الشاغر » تعد فى نظرى أقوى ماجادت به قريحة يحيى حقى ، فإنى أقول فى الوقت نفسه إنها ليست إلا امتداداً أكثر تطوراً لـ « قصة فى سجن » و « أبو فودة » المنشورتين بمجموعته « دماء وطين » .

يعتمد الشكل فى قصة « الفراش الشاغر » — كما هو الحال فى القصتين المذكورتين — على التقاط الجزئيات المادية المحسوسة فى أقدر لحظات تعبيرها عن الكليات المعنوية المجردة . فمن بين الدكاكين المتراصة فى الشارع الصغير الضيق يبرز الكاتب إلى ساحة الوجود الفنى دكّان بعينه

الحانوتى « عموم قسم الإمامين » حيث تسكن قبالته على وجه الدقة هذه الأسرة الغريبة الأطوار من بين مئات الأسر المقيمة فى الحى العتيق . ذاك دكان عجيب بمكانه بين الدكاكين المباركة التى تبيع خيرات الله ، وهذه أسرة عجيبة لا يعرف الجيران سرها بعد أن حيرتهم بين الرثاء لتعاستها والحسد على موفور رزقها . ويترك الفنان تجارة الموت بعد أن حدد جغرافيتها من موقع الأسرة فيأخذ فى تفصيل مأساتها التى تنتهى فى خاتمة المطاف بأحد نعوش الدكان القمىء . أى أن تاجر الموت هو البداية والنهاية ، وما بينهما تقبع هذه الأسرة المسكينة ، أو على وجه أدق يقيم نجمها اللامع الذى خبا مع الأيام . يشرق النجم فى سماء العائلة كبقية النجوم فى جميع الأسر . وإذا هو يستقبل إخفاقه النفسى الأول وهو بعد طفل حين ورث عن الدنيا أباً يكبر أمه . وتحقق إخفاقه وتجسد فى عجزه عن تكملة دراسته الجامعية فى التجارة والآداب والحقوق ، فكان لابد له من عمل آخر يقيه شر البطالة ، ولا عمل لمن يعيش فى بحبوحة سوى الزواج . وبعيداً عن قائمة الجيران والأقارب والمعارف اختار زوجته بنتاً فقيرة لمستأجر أطيان يجيئهم كلما حل عليه دفع قسط من الأقساط . ولم تكن الفتاة عذراء فلقد سبق لها الزواج من آخر لم يهنأ بأسبوع العرس إذ مات ميتة ثأر قديم . وفى ليلته الأولى مع هذه الفتاة الفقيرة الساذجة الخام كانت منيته : فقد أثبتت أنها امرأة ولا كل النساء ، أستاذة فى تفجير متعة الحس تفجيراً لم يثبت له ولم يثبت معه أنه رجل كباقى الرجال . وبصقت عليه الفتاة الفقيرة الملتهبة ومضت . ولا يدرى نجم العائلة سره الداهى « إنه سليل أسرة كفت عن الإعطاء ، يريد كأسا ينهلها جرعة واحدة دون أن تلتصق بشفته كدودة العلق » . وانتابه مرض لم يفصح عن كنهه الطب ، طالت قامته وازدادت نحافته وانحنى إلى الأمام قليلا « لم يجد الفتى بعدها لمتعته إشباعاً ولا لجرحه لساناً يلعقه إلا فى أحضان تاجرات الهوى » . ووقع بصره مصادفة — أو عمداً — على الدكان الكئيب

أمام منزلهم والصبي الواقف على بابه يشيع الأموات كما يلهو الصغار من أقرانه مع الفتيات الصغيرات . وتوثقت عرى صداقة غريبة بين نجم العائلة وصبي الحانوتي قبل في نهايتها الغلام أن يصطحب النجم إلى الجثث قبل دفنها . أي سر كامن فيه يدفعه إلى مواجهة الموت هذه المواجهة الشاذة ؟ لم يتساءل الفنان هكذا ، وإنما هو يلتقط من الجزئيات المادية المحسوسة أقدر لحظاتها تعبيراً عن هذا السؤال . وذات يوم أدرك الصبي أن النجم لا يستطيع فراقه « ورأى ابتسامته تزداد رقة ووداعة ، ونظرته تعسيلا وجسده ارتخاء » فاخترق الأعماق المطوية على سرها الأبدى : ببصيرة تاجر الموت، ونفاذ الصبا الباكر ووضع كلتا يديه على قشرة المأساة ينزعها بلا رفق . قال له : « سلم نفسك إلى إن كنت حائراً بها : لا تتدلل ولا تخف فداخل الدكان ظلام فيه نعش كبير يسعنا نحن الاثنين ». وقد تخلع القشرة ، ولكن الجذر الدموى الدفين يظل عالقاً بتربته دافئاً ، فما إن تعرضه لبرودة الموت حتى يتخثر وينهار . هكذا انهدت قوى النجم وهو يزدرد ريقه شغفاً بما قال الفتى عن « ميت اليوم » : عروس تعطرت في الحمام مع البلانة ثم أسلمت الروح ! وتوالى نباح الصوت المتحشرج . عن لونها ، وعن قبرها ، وتوالى همس الوحش الرابض في أعماق الصبي « بشرط أن تقبل » . وتسلل في جوف الظلام شبحان ، فقد خبا النجم وسقط ، وكان سقوطه عظيماً . ويختم يحيي حتى « فاجعته » المروعة برسالة قادمة من المستشفى في الصباح تقول لأسرته إن نجمها قد هوى ليلا وإن فراشه أصبح شاغراً ينتظر نزيلا جديداً . وكانت هذه الأسطر نهاية النهاية التي أطلعنا الفنان على جزء منها منذ البداية فقد رأينا سيارة « مرهقة الروح والجسد كحبلى اختنق داخلها جنينها ، غيرها يلد الحياة أما هي فتلد الموت » رأينا هذه السيارة تأتي كل شهر لتلفظ النجم النحيل الممتقع الوجه الزائغ البصر والدائم التربص بمكر للحظة يسترد فيها حريته لينطلق يبحث عن عدو لئيم حطم روحه ووعيه ومنطقه ، رأينا هذا

النجم يدفعه حارس يسيطر عليه . وبعد ساعتين ينزل الحارس وبرفقته النجم الذى يعود إلى ركوب السيارة ، ولكنه إذا احتل مقعده فيها « أخذ يتوجع بخفوت ويئن أنيناً متقطعاً مكتوماً كأنه عائد من سفر طويل على ظهر دابة عرجاء فوجد فراشه المعهود ينتظره » . تلك هى نهاية ما قبل النهاية ، أما الرسالة القادمة من المستشفى تعلن موته فإنها نهاية ما بعد النهاية . أو أن كليهما نهاية واحدة لها وجهان : أحدهما فى المقدمة ، والآخر عند الخاتمة . وهذا ما يشكل البناء التعبيرى فى قصة يحيى حقى : إنه ليس مجموعة من نقلات الفلاش باك ، وإنما هو يبنى القصة من ذرات مشتتة هنا وهناك ، لا تضيره المساحة الزمنية فى شىء حتى ليبدأ من طفولة النجم الآفل حيث لم يكن يتلفظ باسم والده ويكتفى بأن يشير إليه بـ « هو » إلى أن يتهاوى النجم فى محيط بلا قرار . لا يلجأ إلى الحلم أو الذكريات ولا حتى الفلاش باك ليبرز هذا « التراكم » الثقيل من الجزئيات المبعثرة لأنه لا يروى ماضياً بالذات . . بل هو يكثف الحياة فى تكاملها ، فى لحظاتها المتتابعة ولو صارت دهراً ، فى خطوطها التى تبدو من الخارج حشداً من المبالغات والتحريفات . ولكنها فى بساطة أسلوبها تمنح أثراً انفعاليًّا أكبر من اللقطة الفوتوغرافية ، المعقولة والطبيعية . إن المألوف والعادى فى « الفراش الشاغر » يصبح غير مألوف وبعيداً عن الاعتياد . لا يحتفظ الفنان بالنسب التقليدية للزمان والمكان ، وإن احتفظ بإيقاع « الحياة » . هو بعيد كل البعد عن الواقعية ، ولكنه لا يستبدل بالواقع مجردات ، وإنما هو يعيد ترتيب الواقع وتنسيقه بالصورة « التعبيرية » التى تؤدى أثرها الانفعالى الأكبر ، من خلال اتساق الخطوط الأبسط . لذلك كانت هذه الصورة تركيبية فى غير تعقيد ، كثيفة بغير تجريد . وضمير الغائب هو سيد الموقف الدرامى ، من حوله ينسج الفنان بناءه القصصى . والبناء ليس « موقفاً » بالمعنى الفنى الدقيق ، وإنما هو حدوتة وشخصية ، اختلف تكوينهما عن الحدوتة والشخصية فى التكوين الواقعى .

وتلك هي الحافة الحرجة بين الواقعية والتجريدية ، لم يقف عليها بشجاعة ليرى الهوة سوى نفر قليل من أدبائنا فى مقدمتهم يحيى حقى . واللغة فى هذه الحال ترسم صورة ولا تخلق شعراً أو تهبط لأرض الواقع ، هى جزء من النسيج لا يرتفع عليه ولا ينخفض عن مستواه . أى أنها ليست اللغة الشفيفة التى نعرفها فى ظلال الرومانتيكية الوارفة ، وليست كذلك لغة التراب الأرضى الذى نسير فوقه ؛ وإنما هى تلك اللغة الوسيطة التى لا تصوغ لنا أجنحة فوق السحاب ولا تجرفنا إلى أعماق الهوة .

ولئن كانت قصة « الفراش الشاغر » عملا تعبيريًّا أصيلا ، فإن قصة « الزحام » ليوسف الشارونى تهتدى بنفس المنهج فى الخلق الفنى . ولكن أصالة الكاتب تشق لعمله طريقاً خاصاً . وضمير المتكلم — مرة ثانية — هو سيد الموقف الدرامى ، ينسج من جزئيات حياته اليومية ما ينوب عنه فى تجسيد الأزمة المعنوية . ولكن الكاتب يعتمد على الفلاش باك اعتماداً يكاد يكون كاملا فى تقديم صور متتابعة يتراكم بعضها فوق بعض لتؤلف فيما بينها لوحة جديدة مقطوعة الصلة بالتفاصيل وثيقة الارتباط بها فى آن واحد . فتحى عبد الرسول محصل وشاعر من قرية كوم غراب حيث أمضى طفولته بين أمسيات والده الشيخ ومريديه من المجاذيب وحلقات الذكر التى يقيمها . وكان لا بد له من النزوح إلى القاهرة جرياً وراء لقمة العيش . بهرت الطفل المدينة الكبيرة ، وبشق النفس وجد الأب عملا وسكناً من غرفة واحدة فى بدروم . وماتت أمه ذات يوم ، وتزوج الأب من جديد ، وكانت الزوجة فتاة صغيرة من بنات الجيران السفليين مثلهم . وحصل فتحى على الإعدادية وعين محصلا فى الشركة بعد مناورات ، وفى أوقات الفراغ راح يؤلف أغانى الغرام الملتهب . ومات الأب وبقيت زوجته الصغيرة الجميلة . وبقى أيضاً دكانه الصغير الذى أصرت الزوجة على بقائه والعمل فيه . كانت عواطف أنثى ، وكان فتحى رجلا فالتقت ذكورته بأنوثتها لقاء حميماً مجنوناً . ولكن سعيداً

ابنها يقف حائلا بينهما ويتسبب فى عراك دموى ينتهى بفتحى إلى مستشفى الأمراض العقلية . والطبيب يقبل كل يوم ومعه ضيف جديد ويشير نحوه قائلا : « هذا الرجل ما يزال ينتظر الأوتوبيس منذ ثلث قرن ، ما يزال واقفاً ينتظر ، ينتظر مكاناً له فى الزحمة » . ويوسف الشارونى كيحيى حقى لا يعمل حساباً للزمن فالقصة ليست موقفاً محدد الزمان والمكان ، وإنما هى تجربة تتخذ لنفسها حيزاً طويلا وعريضاً وعميقاً من الزمان والمكان . وهو على خلاف يحيى حقى لا « يبرر » التنقل فى أودية الزمان بالفلاش باك فى حين أن صاحب « الفراش الشاغر » لا يهمه التبرير فى تكثيف أقصوصته بأثقال الزمن ، ولكنه يختار من الزمان الداخلى للشخصية ما يلائم الزمان الخارجى للحدوتة ، فيفلت من بين يديه كل ما هو طارئ وعرضى وعابر وتبقى اللحظة الكاشفة التى تبرق كالشهاب ثم تسقط فى أعماقنا لا تموت . أما يوسف الشارونى فيعثر فى الفلاش باك على ما يشبه الاعتذار عن السرد المتواصل للتفاصيل الدقيقة . غير أن هذه التفاصيل بعينها هى التى تجسم — بكل ما فيها من مبالغات وتحريفات — أثراً انفعالياً أكبر منها بكثير . فقصة « الزحام » إذا قسنا مساحتها الفنية — مجازاً — فإن ما تعطيه يزيد حجمه على هذه المسافة أضعافاً مضاعفة . ذلك أن الفنان اختار كل سنتيمتر فى هذه المساحة — إن جاز التشبيه — بحذق بالغ حتى إننا نراه على سبيل المثال سنتميتراً مربعاً أو مسطحاً ، ولكنه عند التلقى يستحيل داخلنا إلى سنتيمتر مكعب . فالحيز المادى المحدود فى « الزحام » يشع قدراً غير محدود من الظلال المعنوية . وكما أننى أرفض التفسير النفسى لقصة « الفراش الشاغر » التى قد تهم علماء النفس فى كثير أو قليل ، فإنى كذلك أرفض التفسير الرمزى لقصة « الزحام » . فليست المشكلة هى حاجتنا إلى تأويل الزحام فى الأتوبيس وشوارع القاهرة والشعور بالوحدة برغم ذلك ، ليست هذه مشكلتنا لأن الفنان اختار منذ البداية هذا المنهج التعبيرى الذى يأخذ عن الاتجاهات السابقة — وخصوصاً الواقعية

منها ـ فكرة « النموذج البشرى » و « الحدوتة » . إن الشخصية الفنية فى « الزحام » ليست ديكوراً رامزاً إلى ما هو أبعد منها ، وإنما هى « حالة » فى ذاتها ونموذج واقعى مقصود فى ذاته . وكذلك الحدوته ليست مجموعة من الرموز والكنايات . وإنما يكمن الفرق الهائل بين الواقعية والتعبيرية فى عملية « التفريغ » التى يقوم بها الكاتب التعبيرى للحواشى والذيول والإبقاء على الخط الخارجى بكل تفاصيله حتى لا يتحول إلى كاريكاتور . وأكاد أقول إنه إذا كانت الواقعية تصويراً بالريشة فإن التعبيرية هى رسم بالقلم الرصاص . على أن الخط الخارجى فى الاتجاه التعبيرى لا يقتصر على « تحديد » المسافات والمساحات ، وإنما هو بغير أن يكون كاريكاتوراً « يبالغ » فى هذا التحديد وينحرف به بما يتلاءم مع رؤيا الفنان الخاصة . هكذا كان يوسف الشارونى حريصاً غاية الحرص على هذه الخطوط الخارجية فى حياة « فتحى عبد الرسول » وهكذا أيضاً كان يحيى حقى حاذقاً بالغ الحذق فى رسم هذه الخطوط التى تشكل « نجم العائلة » وقد حددت هذه الخطوط فى قصتيهما المسافات والمساحات ، ولكنها غيرت من الأحجام والأوزان بما يؤدى إلى جنون الشخصيتين . وليست هذه النهاية مجرد مصادفة فى القصتين ، لأن الجنون فى ذاته هو التجسيد الأوفى لكل مبالغة وتحريف فى الخط الخارجى لحياة النموذج البشرى . وهو ليس كاريكاتوراً حتى نضحك أو نسخر ، وإنما هو أعمق أعماق المأساة الإنسانية التى ارتادها كافكا فى الإطار التعبيرى عندما حول أبطاله إلى صراصير ومجانين وموتى يتكلمون . فالخاتمة التراجيدية فى قصتى يحيى حقى والشارونى ليست مجرد « نهاية قاتمة » كما هو الحال فى الأدب الواقعى ، إنها جزء لا ينفصل عن النسيج التعبيرى الذى يؤدى بالضرورة إلى « المأساة » ولا أقول النهاية الحزينة . إن القصة التعبيرية لا تعرف النهاية السعيدة أبداً ، بل هى لا تعرف « النهاية » على الإطلاق ، لأن نهايتها هى البداية وكلتاهما وجهان لعملة واحدة هى التراجيديا الإنسانية فى عصرنا الحديث .

الاتجاه التجريدى :

كانت التعبيرية عند ظهورها فى الأربعينات « موجة جديدة » لم تتهيأ لها أسباب الرسوخ والاستقرار ، وعندما ظهرت من جديد فى قصة ليحيي حتى وفى ثلاث قصص أو أربع ليوسف الشارونى وبعض محاولات الأدباء الشبان ، لم تعد كموجة جديدة ، وإنما عادت عنصراً من عناصر المناخ الجديد للقصة المصرية القصيرة . ذلك أن الموجة الجديدة الحقيقية الآن ومنذ سنوات قليلة مضت ، هى موجة القصة التجريدية كما أحب أن أسميها مستبعداً إلى حين لفظة « التجريبية » و «الطليعية» لاعتقادى أنها لفظة تبلغ من التعميم درجة لا تسمح بتحديد الاتجاه . ومنذ البداية أحب أن أقول بأن الاتجاه التجريدى فى مصر والبلدان العربية ليس مجرد امتداد لمحاولات الرمزيين والتعبيريين والسورياليين فى الأربعينات ، وإنما هو — فوق هذا — تأثر بأشكال التعبير الأوربية الحديثة ومعايشة لمأساة — أو مآسى — العصر الذى نعيش فيه وانعكاسها الحتمى على قضايانا ومآسينا الخاصة . أى أن الاتجاه التجريدى — كالاتجاه التعبيرى والواقعى والرومانسى والكلاسيكى — فى آدابنا العربية ، ما يزال يؤكد استلهامنا لفنون الغربيين فى نطاق الشكل ، ولكنه يؤكد من ناحية أخرى قدرتنا على تطويع هذا الشكل لتجاربنا المحلية ، كما يؤكد من ناحية ثالثة أن هناك سمات خاصة بالعصر الذى نستظل به جميعاً شرقاً وغرباً ، شمالا وجنوباً ، تنعكس بلا ريب على أدوات التعبير هنا وهناك .

والاتجاه التجريدى ليس تطرفاً بالواقع ومبالغة فيه وتحريفاً له ، فتلك كلها صفات الاتجاه التعبيرى الذى يميل بطبعه إلى التلبس بالواقع ومشابهته أو موازاته إلى غير ذلك من اللعب التعبيرية . وكذلك ليس التجريد خطوطاً خارجية خلت من التفاصيل فهذا شأن الكاريكاتور

أو الاتجاه التعبيرى . وإنما التجريد — وهذه نقطة هامة فيما أعتقد — مرحلة كاملة فى تطور الفن أثمرتها رؤيا جديدة للعصر ، هو فى كلمة انفصال مجازى عن الواقع بكافة نسبه ورسومه البيانية وإحصائياته ، ولكنه فى الوقت نفسه أحشاء هذا الواقع وأغواره البعيدة مهما لجأ إلى تفتيت وحدة القياس التقليدية أو ما يسمونه فى الجغرافيا بمقياس الرسم ومهما لجأ إلى تهشيم الهارمونى الكلاسيكى وما يستتبعه من حتمية تغيير الإيقاع . والتجريد كمرحلة فى تاريخ الفن — لا كاتجاه فحسب — يغتنى بمختلف الاتجاهات ، فهناك التجريد الكلاسيكى ببنائه الهندسى الصارم ، وهناك التجريد الرومانسى بألوانه البهيجة والقاتمة وتموجاتها الدافقة اللامبالية ، وهناك التجريد الواقعى بخطوطه الكثيفة وتكويناته القريبة من الذاكرة الواعية . . إلى غير ذلك من اتجاهات التجريد المعاصرة فى الفن التشكيلى والأدب والموسيقى . فما يسمى بالعبث أو اللامعقول أو اللامسرح والرواية المضادة والقصيدة النثرية هى المرادف الأدبى للجمال التجريدى . ومع هذا فتحت هذه اللافتات العامة يختلف المسرح ككل عن الرواية ككل ، ويختلف المسرحيون فيما بينهم والروائيون فيما بينهم . وقد يلتقى الشاعر مع الكاتب المسرحى لقاء لا يتوافر بين شاعرين أو كاتبين مسرحيين. وهكذا فالتجريد الأصيل من الخصوبة والتنوع بحيث إنه لا يشكل اتجاهاً واحداً ، وإنما هو مرحلة كاملة فى تاريخ الآداب والفنون ، تتعدد اتجاهاتها ، وهو رؤيا كاملة للعصر تتعدد زواياها .

وإذا كانت التعبيرية أشبه بكابوس متصل لا يفيق منه المتلقى للعمل الفنى حتى بعد انتهائه من عملية التذوق فإن التجريد لا يتخذ هذا الموقف من الحياة المعاصرة ، لا يقدم لها من صوره ذلك « النجاتيف » الذى أجادت التعبيرية صناعته ، وإنما يقدم صورة فقدت ملامحها وتفاصيلها وأمست إلى اللون الباهت أو الشفاف أقرب منها إلى التحديدات الواضحة . ومن أسوأ الأمور أن نستقبل الاتجاه التجريدى فى أدبنا العربى بقولنا إنه

بعيد عن مشكلاتنا أو هو لا يعبر عنها لأنه ولد فى حضارة معقدة بطبيعتها هى الحضارة الغربية . إن هذا القول السيئ يغفل كما قلت إن مجتمعنا من الاتساع وتعدد الجوانب بحيث تعبر عنه الواقعية والتجريدية وربما الرومانسية والكلاسيكية فى وقت واحد . إن مجتمعنا بالغ التعقيد سواء فى مستوياته الحضارية المختلفة أو فى طبيعة الحياة التى يواجهها . ولعل مأساتنا فى الهزيمة الأخيرة هى أبلغ تعبير مباشر عن تعقيدات حياتنا فهى تلخص بعمق دام خطر التحدى الذى نعيشه فيواجهه البعض ويهرب آخرون . إنه ليس تحدياً من إسرائيل بقدر ما هو تحد من الحياة والعصر . ولقد كانت نظرتنا السطحية لمجتمع ما قبل ٥ يونيو هى التى تحجب عنا الرؤية الصحيحة ، والتى لو كنا امتلكنا ناصيتها حينذاك لرأينا الهول قبل وقوعه .

وعلينا أن نعترف بأن ثمة مسافة بين الأجيال تخلق ما ندعوه أحياناً بتعذر الفهم لكل ما هو جديد . وما زلت أذكر الصدمة الهائلة التى واجهت رواد مسرح الجيب فى ليلة افتتاحه وهو يعرض « لعبة النهاية » وقد أصبح الآن بيكت ويونيسكو — فى مصر والعالم العربى لا فى أوربا وحدها — من الكتاب الواضحين وأحيانا الشعبيين وأحياناً الكلاسيكيين . وتلك هى سمة الانتقال من عصر إلى آخر ، فالموجة الجديدة تصدم دائماً ولكنها لا تلبث أن تستقر وتتحول إلى دنيا التراث المعتمد . ولا زلت أذكر أن نجيب محفوظ قد احتار فى قراءة إحدى روايات آلان روب جرييه وهى أكثر وضوحاً — إن جاز التشبيه — مما يكتبه نجيب الآن . ولقد روى الدكتور لويس عوض فى إحدى ندوات جمعية الأدباء أن طه حسين قد تندر بشعر بلوتلاند عند ظهوره عام ١٩٤٧ ويعد هذا الديوان —وقد كان افتتاحية الشعر الجديد فى بلادنا — نمطاً كلاسيكياً من أنماط التعبير الشعرى الحديث . ولعلنا نذكر كيف قوبلت مسرحية « أهل الكهف » لتوفيق الحكيم بدهشة شديدة أقرب إلى الصدمة . فالمسافة النفسية بين

الأجيال هي التي تصوغ ما ندعوه بتعذر الفهم للموجات الجديدة ، والتغيرات الحضارية المعقدة والمذهلة هي التي تحتم ظهور هذه الموجات بكل ما تصيبنا به من صدمات وتمزقات نعانى منها زمناً طويلا . ولا ريب أننا نعانى نحن المصريين — والعرب بشكل عام — مرحلة من أخطر مراحل تاريخنا الحضارى بآلامها وصراعها وتمزقاتها . وهى تمزقات أكثر تركيباً من تمزقات الإنسان الغربى الحديث ، لأن مرحلتنا الحضارية أكثر تخلفاً وطموحنا أكثر تقدماً . . وركب الحضارة الإنسانية كوحش طيبة الأسطورى رابض على أبواب المدينة يلقى علينا سؤاله الملغز وما يزال يرتقب الإجابة التى تصرعه وتنقذ المدينة من أهواله . ووحش طيبة المعاصر هو التقدم العلمى ومعدل سرعته الرهيب . وتنعكس روح العصر علينا فتوجز شكلا ومضموناً قسمات هذا العصر ومتناقضاته وصراعات القوى الاجتماعية والعقلية والنفسية فيه . إن مجتمعنا المصرى — والعربى بشكل عام — يعيش تمزقاً عميقاً غائراً فى كيانه لا يقل عنفاً وضراوة — إن لم يزد — عن تمزق المجتمع الفرنسى والأوربى بشكل عام إبان الحرب العالمية الثانية . إن عالمنا العربى فى مجموعه يحيا اليوم ويتنفس فى مأزق تاريخى لا يحسد عليه . وربما كانت خيانة لروح الإنسان قبل روح الفن إذا طالبنا الفنان أن يباعد بينه وبين ما يسميه البعض غموضاً وتعقيداً وإبهاماً ، لأن « التجريب » هو المنهج الفنى القادر على مشاركتنا المأزق التاريخى بكل تعقيداته وغموضه وإبهامه . وليس التجريد إلا إحدى هذه المحاولات التجريبية التى تستمد أصالتها من صميم حياتنا المعقدة وجوهر أزمتنا المبهم .

ولقد كان التجريد فى معجم النقاد إلى وقت قريب — وربما لا يزال — تعبيراً يقصد به اتهام العمل الفنى بأولوية الفكرة « المجردة » على النسيج البشرى والواقعى للحياة . ومن البديهى أننى أستخدم التعبير هنا استخداماً مغايراً ، بل إن استخدامى له يستبعد تماماً هذه الأعمال التى دعاها البعض

حيناً بالوجودية وحيناً آخر بالميتافيزيقية وحينا ثالثاً بالفكرية أو المجردة كأعمال سارتر وكامى ودى بوفوار . إن التجريد فى الفن ليس تجريداً للفكر عن الحياة ، ليس ألعوبة ذهنية ملغزة ، وإنما هو أحد أشكال الصلة بين الفن والواقع . . ذلك أن أى اتجاه فنى هو صورة العلاقة بين الفن والواقع . وسوف يذكر تاريخ القصة المصرية القصيرة أن جيل الستينات من الشباب الأدبى فى مصر كان يمتلك من الشجاعة قدراً واجه به التحدى الرابض فى وحش طيبة الأسطورى على أبواب مدينتنا ، وأن هذا الشباب بصوابه وأخطائه جرؤ على اتخاذ التجريب روحاً لفنه فكان بحق طليعة الأدب المصرى الحديث حتى حينما استطاع أن يجند من الجيل السابق عليه موهبة كبيرة كموهبة نجيب محفوظ ظل هو القائد لحركة التجريب المعاصرة فى الأدب والفن . إن التجارب الشجاعة فى مجال القصة القصيرة لأحمد هاشم الشريف ويحيى الطاهر عبد الله ومحمد حافظ رجب وإبراهيم أصلان وعبد الحكيم قاسم وجميل عطية وإبراهيم منصور ومحمد البساطى ومحمد إبراهيم مبروك وبهاء طاهر وغيرهم هى الظاهرة الأدبية التى تشكل فى جملتها « موجة جديدة » فى أدبنا الحديث ، تتنوع روافدها وتختلف مصادر أصالتها وتتباين تياراتها بين المحافظة والاعتدال والتطرف .

والمفارقة غير المقصودة ولكنها ذات الدلالة فى الاتجاه التجريدى الممثل فى هذه المجموعة أن أحدث كتابه سناً يميل إلى المحافظة ، كما يتضح لنا فى قصة « الخيوط » لمحمد جبريل ، بينما يميل أكبر كتابه إلى التطرف ، كما هو الحال فى قصة « تحت المظلة » لنجيب محفوظ . وتقف قصة « الصعود والهبوط » لنعيم عطية ــ كسن مؤلفها ــ موقفاً وسطاً أقرب إلى الاعتدال ولكن ثلاثتهم ينضوون بصورة أو بأخرى تحت لواء التجريد فى القصة القصيرة .

ويتجاذب قصة « الخيوط » خطان أحدهما واقعى والآخر نفسى، ولكنهما

معاً يصوغان تجربة تجريدية « محافظة » . فتاة صغيرة تخضع لأوامر زوجة الأب فتذهب إلى المصنع لتعمل ، وترفض الخضوع للمرأة الغريبة عن أمها فلا تعود من المصنع إلى المنزل . ويتقاطع طريقها إلى بيت جدتها مع طريق الرجل فتختار الرجل مهما تورمت كرامة الأب أو ذبحت . ولكن الطريق الذى بدأته لاينتهى : إنه ممتد فى الطفلة التى أتى بها الرجل من الشارع لا أم لها ولا أب ، وجبينها ملتهب بالحمى ، وهو يتكوم أمام الكوخ كتمثال . والوجه المحافظ فى قصة « الخيوط » أن صاحبها حاول أن يستعير من « الحدوتة » عمودها الفقرى ولم يجرؤ على تحطيم هيكلها العظمى تحطيماً يتسق مع البناء التجريدى للأقصوصة . لقد استخدم — فى إقامة هذا البناء — الأزمنة الثلاثة بغير اللجوء إلى المونولوج الداخلى أو الفلاش باك وإنما بتقطيع الحدث بمكانه وزمانه وتداخلهما . أى أن القصة لا تتمتع بوحدة زمانية أو مكانية ، وتلك أولى درجات الانفصال المجازى عن الواقع بنسبه المألوفة ومواصفاته المتعارف عليها . ولا شك أن هذا الأسلوب لا يحتمل تسلسلا منطقياً للزمان كما هو الحال فى الحدوته الواقعية التى أرادها محمد جبريل وأفلتت منه — لحسن الحظ — بالرغم منه . أرادها جبريل ليحول دون الإغراق فى الغموض أو رعباً من هذا الابهام . وأفلتت منه لأن معايير العمل الفنى الأصيل تفرض نفسها من داخله : فقد تحولت القصة — فى أثناء البناء — إلى موقف « مركب » من جزئيات تنطلق بدورها من وحدات ممعنة فى البساطة تستدرج القارئ بعدئذ إلى « وحدة » ممعنة فى التركيب . هكذا بدأنا مع الكاتب رحلتنا برفقة فتاة هربت من بيت أبيها وزوجته ذات الجسد الشحمى والثديين الممتلئين والعينين المصبوغتين بالكحل . ولا يحاول الفنان مطلقاً أن « يروى » لنا « قصة » اليتم الذى عاشته الفتاة بموت أمها أو طلاقها ، فهذه كلها تفاصيل يستغنى عنها تماماً وهو بإزاء ذلك التوازى المحكم بين الخيوط التى تبدو لأول وهلة معقدة غاية التعقيد فى حين أنها لا تحتاج إلا إلى

معاناة الرؤية الخاصة بها . حينئذ تتوازى الخيوط ولا تتعارض أو تتعقد . فالفتاة الصغيرة الجديدة التى أتى بها عبده سلامة ليست إلا صورة جديدة من ضياع فوقية التى كلما ساءلت نفسها إلى أين أجابت بلا تردد : « إلى الشيطان ، إنه رجلى » وهما معاً الطرف المقابل للأب وزوجته : لقد تلاقت الابنة المهجورة وعشيقها الدميم على ناصية اللحظة الجهنمية التى يحياها كل أب يفقد ابنته بين ذراعى امرأة جديدة ، شحمية ومكحلة . وتلاقت الابنة المهجورة وعشيقها الدميم لقاء أبدياً على أعتاب اللحظة المريرة التى يجتازها طريدان قديمان برفقة طريد ثالث جديد .

والسرد فى قصة « الخيوط » نوع من الحوار أو يقترب منه ، والحوار بدوره نوع من الشعر ، فاللحظات النفسية الغائرة فى أعماق فوقية تتشابك رفضاً وقبولا ويتنازعها قول الأم « سأزوجك ابن السلطان » فتجد أمامها شفتين غليظتين وعينين ضيقتين وأنف واسع الفتحتين ، وتذوب مقاومتها فى عناده وابتسامة هادئة لا تفارق شفتيه . وكذلك الأب يرى فوقية مؤدبة ولطيفة « وتناديك بابا فتفيض النفس بالنشوة والمتعة وسم اللسان يصعد بالقىء إلى فمك ، لكنك بالفم تقبله والحقيقة ضباب » وتلك هى رؤيا محمد جبريل التى أفضى بها إلينا فيما يشبه السر والاعتذار للبشرية كلها ، أن الحقيقة « ضباب » سواء نطلق بها أب يتمرغ فى جسد من الشحم ، أو قالها رجل التقط ابنته من طريق تقاطع مع طريقها ، لا يعرف لها أباً ولا أماً ، ويتكوم خارج كوخه كالتمثال فى انتظار يوم يجىء بطعام ودواء للجبين الملتهب .

ويتفق نعيم عطية مع محمد جبريل فى أن قصته « الصعود والهبوط » هى موقف مركب لا صورة ولا حدوتة ، وأن علاقة الرجل بالمرأة هى المنظور الذى يقرأ به طلاسم هذا الوجود ، ويتفق معه أخيراً فى تسويد الحوار على السرد بالرغم من أن السرد لا يرتفع على الحوار ولا يحدث العكس . ولكنهما — نعيم وجبريل — يعودان فيختلفان، فالخيوط تهشيم

لوحدة الزمان والمكان ولا تلجأ إلى الفلاش بك ، أما الصعود والهبوط فتحتفظ بهاتين الأداتين من أدوات التعبير . وتلجأ « الخيوط » إلى ذرات الواقع لتبنى منها واقعاً جديداً ، أما « الصعود والهبوط » فتلجأ إلى الفلاش باك والفنتازيا لتبنى هذا الواقع .

القصة فى « الصعود والهبوط » ليست صورة ولا حدوتة ، بل هى أكثر جرأة من « الخيوط » فى تخليها الكامل عن الحدوتة ورواسبها الملتوية والمتخفية . وبهذا التخلى عن أسلوب الحدوتة يتبلور بناء القصة « كموقف » تبلوراً غاية فى التحديد . فصوت الاستغاثة الذى جذب انتباه زيد عند الفجر لم يكن إلا تكأة فنية — ولا أقول مناسبة — لهذا الحوار بين الرجل والمرأة ، هو الحوار الأزلى بين كل رجل وكل امرأة ، وهو من ناحية أخرى يؤدى إلى هذا المصير الذى آلت إليه العلاقة بينهما : بعد أن كان أملها الوحيد فى هذه الحياة أن ينقذها من الموت ، عاشت هى لتتركه هو يغالب اليأس بلا جدوى ، فما إن انتهت من استخدامه كطوق للنجاة حتى قذفته بحذاء قديم وهو يهوى إلى اللجة ويختفى تحتها . ويغلب الحوار على قصة نعيم عطية بصورة حاسمة ، لأن السرد فى جوهره يغرى بالحدوتة ، أما الحوار فيغرى بالموقف . ولذلك قلما يصادفنا السرد فى « الصعود والهبوط » إلا فى توظيف الفنان للفلاش باك توظيفاً جديداً يدعم الموقف أكثر فأكثر . إنه يحتاج إلى الذكريات كما يرى المرء صورة وجهه فى الماء المتموج ، لا كما يراها فى مرآة مصقولة . فهو يذكر حياته بين أمه وأخته وعمتيه العانستين ، ثم يذكر لقاءه بسناء التى خدعته مع صديقه راسبوتين فأخذ أنبوبة كبيرة من الحبوب المنومة حتى تصورت صاحبة البيت أنه قد انتحر عجزاً عن سداد قيمة الإيجار . هو يرى كل ذلك فى وجه المرأة التى تغرق تحت نافذته وتستغيث به ولابد له من النزول لمساعدتها وإنقاذها . الذكريات إذن ليست — فى الصعود والهبوط — قالباً تعبيرياً تعرفنا عليه فى القصة الرومانتيكية ، وإنما هى تدعيم

للموقف » وتطوير له ، هي تدعيم يسوغ مسارعته إلى إنقاذ المرأة ، وتطوير يؤدى إلى تأكيد المقدمة التى حفرتها الذكريات ، فالمرأة التى أنقذها من الغرق هي نفسها التى أغرقته ! ! ليست هذه « مفارقة » تقع كثيراً فى « الحياة » اليومية لأن البناء القصصى كما قلت بناء فانتازى يعتمد على الخارق وغير المألوف ، وهى أيضاً ليست مفارقة موبسانية ، لأن البناء القصصى لا يعتمد على الحبكة الكلاسيكية والمفاجأة المصنوعة . وإنما « تسيل » المفارقة فى البناء التجريدى الذى شيده نعيم عطية فى قصته سيولة تلقائية ومقصودة فى آن ، هى تلقائية فى جزئياتها المنثورة هنا وهناك ، وهى مقصودة فى هيكلها العام واتجاهها الشامل . فالحوار يهدر مع التيار الغالب والمرأة على أعتاب الأربعين تصرخ « النجدة . أنا أشد النساء عزلة فى العالم . رأيت رجالا كثيرين . وها هى دموعهم طوفان يجرفنى » وهى تتساءل فى حذر — وكأنها تخطو فى طوفان من الدم — عما إذا كان من السهل أن تحب امرأة مثلها أم أنها — كما يقولون — تأكل الرجال لحماً وترميهم عظماً . ويحجم الرجل عن مد يده إليها ، بكل ما تعنيه الحركة من دلالات ، ليعيد إلى خيالها السؤال من جديد : ولماذا يخافون منك يا امرأة؟ وكأنها تستدرك — أو تتحفظ — حقوقاً تنازلت عنها فلم تسأله عن مهنته ولا عن سيارته ولا عن رصيده بالبنك ، وهى فى حقيقة الأمر تذكره بهذه كلها حتى إذا أتم إنقاذها كانت هذه الأشياء أول ما تنطق به : سألته عن جهاز التكييف وراحت تتزين وهو معلق على جدار بين الحياة والموت . وعندما تدهور صوته تدهوراً لا شك فيه ونادى الصوت المدحور : « أيتها المرأة » كان ردها على الطرف المقابل من التدهور ، قوياً صارماً يستنكر : « متى ستكفون عن معاملة النساء معاملة الماشية ؟ » وتناولت الحذاء القديم ، ولكن قواه كانت بطبيعتها قد انهارت وسقط فى الهوة التى بلا قرار . وهذا ما أقصده بسيولة المفارقة فى جزئيات الأقصوصة وفى تضاعيفها وبين ثناياها حتى إذا اكتمل البناء باح بسره المكنون :

فالمرأة فى بداية المشهد — وعنيت الموقف — هى التى تغرق فإذا أنجز ضعفها الغلبة بأن خاصها الرجل من الموت ، انتهى المشهد — ومرة أخرى عنيت الموقف — بإغراق الرجل . وهى خاتمة « فانتازية » تتسق مع بقية البناء الأسطورى ؛ وتتفق مع القول بأن التجريد فى القصة لا ينهيها بالتعاسة أو السعادة .. وإنما بهذا القلق الممض أو « الضباب » كما قال محمد جبريل . فالقصة ليست « كابوساً » كما هو الحال فى الاتجاه التعبيرى ، ولكنها « تكوين » يعتمد على الخطوط المتوازية كما نلاحظ فى قصة « الخيوط » أو الخطوط المتعارضة كما نلاحظ فى قصة « الصعود والهبوط » . ولست بحاجة إلى القول بأن المرأة والرجل فى مثل هذه القصة أقرب إلى الظلال التى قد تعكسها أغصان شجرة فتبدو لنا بشراً . أو هى أقرب إلى الحائط القديم المتهرئ الألوان والطلاء فتبدو فراغاته أشباحاً وغيلاناً . لست بحاجة إلى القول بأن الرجل والمرأة فى قصة نعيم عطية — كما هو الأمر فى قصة محمد جبريل — مجرد « منظور » يلهمنا الرؤيا : عالمنا غارق إلى أذنيه متساق إلى أذنيه مقنّع إلى أذنيه ، هو « الزيف » بكامله ، والحقيقة ضائعة بسرها الأبدى فى لجة القاع . هكذا شيد الفنان قصته وفق تركيب ذهنى بغير تبسيط واقعى ؛ ولكن الرمز والواقع يعيشان جنباً إلى جنب فى وحدة واحدة لا يرتفع فيها الحوار على السرد ولا اللغة على الشخصيات ويحتل الحوار مركز الصدارة لأن الحس الدرامى هو الحس الرئيسى . وبينما يحتفظ النسيج بوحدة الزمان والمكان لا يلتفت لحظة واحدة إلى ما يسمى فى الاتجاه التقليدى بوحدة الموضوع .

وتبلغ التجريدية ذروتها العليا فى قصة « تحت المظلة » لنجيب محفوظ . ونحن نستطيع أن نتلمس بذور الاتجاه التجريدى فى أدب نجيب محفوظ منذ أن اختتم مرحلته الواقعية الاجتماعية التاريخية فى ثلاثية « بين القصرين » . ولكن هذه البذور التى قد نصادفها على نحو ما فى

« أولاد حارتنا » أو « الطريق » أو « الشحاذ » هى أقرب ما تكون إلى التجريد الفكرى أو الميتافيزيقى الذى أشرت إليه فى أعمال سارتر وكامى ودى بوفوار. أى أنه التجريد الذى يصوغ « قضية » فكرية مجردة بطبيعتها. أما قصة « تحت المظلة » فتختلف فى تصورى عن كافة أعمال نجيب محفوظ ، الطويلة والقصيرة ، إذا استثنينا هذه البذور التى أثمرت شيئاً بعيداً كل البعد عن الأصل القديم . فى « تحت المظلة » يستلهم الفنان السيناريو السينمائى فى عملية البناء : المشاهد المتقطعة وإن تسلسلت فى إطار مشترك من الشخصيات والأحداث والمواقف . فأولئك الذين يقفون تحت المظلة خوفاً من الرذاذ المتساقط أو انتظاراً لأتوبيس قادم ، لا علاقة بينهم وبين ما يجرى أمامهم . هكذا تبدو الأمور للحظة الأولى ، وما يجرى أمامهم لا يدع لهم فرصة المشاركة إلا بالتأمل والدهشة . فاللص المطارد يتحلق حوله المطاردون يصفقون له وهو يرقص عارياً ، والشرطى يقف بلا حراك . والسيارتان المسرعتان تصطدمان وتحترقان ، ويخرج رجل وامرأة من إحدى العمارات فيخلعان ملابسهما ويمارسان الحب فوق إحدى الجثث المحترقة ، والشرطى يقف بلا حراك . ويبنى العمال قبراً عظيماً يضم الحطام ويتربع فوق القبر رجل يرتدى روب القضاء ويشتعل الشجار بين الخواجات والبدو « واشتد كل شيء وبلغ غايته ، القتل والرقص والحب والموت والرعد والمطر » والشرطى ما يزال واقفاً بلاحراك ، حتى إذا أقبل ذلك الرجل الذى ظنه الناس تحت المظلة أنه مخرج الفيلم وتدحرج الرأس الدامى عند قدميه صاح : « برافو برافو » ووجه منظاره إلى رجل وامرأة يمارسان الحب ونصحهما بتغيير الأوضاع حتى لا يتسرب إليهما الملل . ولكن ، حتى هذا الرجل الغريب يتلاشى وكأنه لم يكن ، يبدو عليه الضعف والخور فجأة ويزول . وأخيراً يتحرك الشرطى حركته الوحيدة فلا يعنيه الرأس الدامى المبتور من الرقبة والمنحدر أسفل الرصيف بقدر ما تعنيه « بطاقات » أولئك

الفضوليين تحت المظلة الذين لا يكفون عن الأسئلة وعن مناداته . وسواء أثبتوا هويا تهم أولم يثبتوها فلاشك أنهم « مجتمعون » هنا لأمر ما ، مهما ادعوا جميعاً أنهم لا يعرفون بعضهم بعضاً ، وإنما هم مجتمعون على أية حال . والاجتماع على هذا النحو يقتضى من الشرطى أن يتحرك ، أن يتراجع خطوتين إلى الوراء ويسدد بندقيته إلى صدورهم ويطلق النار بسرعة وإحكام . وكانت هذه الخاتمة هى العلاقة الوحيدة التى تربطهم ببقية المشاهد التى تجرى أمامهم ، فلقد تجاوزوا حقهم فى الوقوف تحت المظلة خوفاً من البلل أو انتظاراً لأوتوبيس ، وراحوا يتأملون ويدهشون .

لقد عمد نجيب محفوظ إلى عملية « مونتاج » للامنطقى وغير المنسجم بحيث يبدو واللامنطق هو المنطق ، وغير الحقيقى هو الحقيقة ، والتمثيل هو الواقع . ولعلنا نلحظ أن الفنان قد استخدم البنية الموسيقية فى تقطيع المشاهد بلازمة محددة هى تساؤل الواقفين تحت المظلة عما إذا كان الذى يرونه فيلماً سينمائياً « وإلا فهو الجنون » ووقوف الشرطى بعيداً بلا حراك . هذه هى اللازمة الموسيقية التى كررها الفنان فيما يشبه الحوار بين كل مشهد وآخر ؛ ولم يكن حواراً وإن بدأ على هيئة تعليقات متناثرة . وعندما افترض الواقفون تحت المظلة أن ما يرونه هو الواقع تحرك الشرطى حركته اليتيمة وفصل رؤوسهم عن أجسادهم . ومن المفيد القول بأن « العلاقات » داخل القصة لا ترمز إلى أشياء خارجها على الإطلاق ، فليس المقصود باللص العارى الراقص ، ومن يمارسون الحب عرايا فى الطريق العام فوق جثث الموتى وقبورهم ، ومن يقف فى روب القضاء أو يبدو كمخرج ومعارك البدو والخواجات . . ليس المقصود من هذه « العلاقات » جميعها أن ترمز إلى أشياء بعينها خارج القصة فى الواقع المرئى والمألوف . وإنما يستهدف الفنان تجسيم « الفوضى المخيفة » و « المناخ الدموى » الذى يعيشه عالمنا المعاصر فى كل مستوياته التى تبدأ من الشرطى الذى لا يبالى إلا بأن يجعل من هذه الفوضى نظاماً

ومن دماء الرؤوس المقطوعة قانوناً إلى الشرطي الذى يشعر بأن المظليين تجاوزوا حدودهم فسموا الأشياء بأسمائها وقالوا إن هذه فوضى وذاك جنون وتلك مذابح ، فلم يكن منه إلا أن يؤدى واجبه مضطراً فينظم الفوضى ويُعقل الجنون ويقنن المذبحة ، ويصوب رصاص بندقيته إلى الصدور لتنزف والرقاب لتتساقط ، أى ليزيد الفوضى فوضى والجنون جنوناً والمذبحة دماً . . ولكن إذا أقبل أحد من جديد ليقف تحت المظلة فعليه أن ينتظر الأتوبيس أو يتقى البلل ، وعليه أن يتحاشى ما استطاع تلك الجرثومة الخفية التى تغرق عينيه فى التأمل أو تفتحهما على الدهشة .

ومن المفيد القول أيضاً بأن نجيب محفوظ لم يكتب عملا من أعمال اللامعقول ، فتجريد الوجود عند كتاب اللامعقول هو إخلاء المسكن من زخارف الأثاث وتفاصيل البشر والنظر إليه بموضوعية المعمل ، وهو الموضوعية القائلة بأن لا قيمة للمسكن فى ذاته ولا فى ساكنيه ، لا قيمة على الإطلاق . إن نقطة البداية عند نجيب محفوظ ، فى « تحت المظلة » شديدة الاختلاف ، بالرغم من كل ما يبدو على جزئيات القصة من لامعقولية مفرطة . ولكنها اللامعقولية التى لا ترادف العبث ، وإنما هى تشيع تلك الرائحة النفاذة لما أسميه بالفوضى المخيفة والمناخ الدموى ، ذلك الشىء النقيض للمدينة الفاضلة . فبينما كان أنبياء المدينة الفاضلة من أكثر الناس « تنظيماً » لها وتجسيداً « لمثلها العليا » ، فإن نجيب محفوظ يقدم لنا « المدينة الجهنمية » التى صار إليها عالمنا بدءاً من أكثر مستوياته تقدماً وانتهاء بأكثرها تخلفاً بغير استثناء . إن مدينة نجيب محفوظ الجديدة هى نقيض « حارته » القديمة فقد كانت هذه مدينة فاضلة حقاً بالرغم من كل الصراعات والتمزقات التى عانت منها ، كان « العلم » هو الأمل الخافق بين أضلع الفنان وصدره . ولكنه بعد عشر سنوات يأتى ليقول إن الحارة أصبحت مدينة، حقاً ، ولكنها مدينة جهنمية فوضاها نظام وجنونها عقل ومذابحها سلام . ومدينة نجيب محفوظ الجديدة ، كحارته

القديمة لها وجهان : الوجه الإنسانى العام الذى يعنى العالم كله : والوجه المحلى الخاص الذى يعنينا نحن على وجه التحديد ، فهى رؤيا للعالم وإن شكلت بلادنا جزءاً لا ينفصل عن الأحداث .

وإذا لم تكن قصة نجيب محفوظ عملا من أعمال اللامعقول فإن هذا لا ينفى أنها تصرخ بأن عالمنا لا معقول ، ولكن « العالم » فى رؤيا نجيب محفوظ لا يعنى الكون ، ومأساة الإنسان فى رؤيا نجيب محفوظ لا تعنى إخفاقه الأزلى فى كشف سر الأسرار . وإنما عالم نجيب محفوظ : هو عالمنا الواقعى المحدود « بأنظمة» ينقصها النظام ،و « بقوانين » ينقصها القانون . وإذا كان الفنان يقوم بتجريد فانتازى للموقف بإقصاء الشخصية والحدث إقصاء تاماً : فلأنه يقتصر على ما يشبه اللوحة التجريدية الموحية ولا أقول الرامزة . الموحية بتكويناتها وألوانها وخطوطها : وغير الرامزة بجزئيات معينة إلى ما يعادلها من تفاصيل الواقع الخارجى . إنها تومئ بسر ولا تعطى علامة . ولأنه السر سرنا فالعلانية شرط من شروط المدينة الجهنمية التى يقف بها الشرطى دائماً ، ولكن بلا حراك ، حتى إذا تأملت أو دهشت كان مصيرك ـ أنت الواقف تحت المظلة خوفاً من البلل أو انتظاراً لأتوبيس ـ أن يتدحرج رأسك فيتوسد الطوار تحت المطر وينطرح جسدك جثة هامدة تحت المظلة .

والمفارقة فى « تحت المظلة » تختلف عنها فى « الصعود والهبوط » لأنها ليست تناقضاً بين البداية والنهاية كما هو الحال فى قصة نعيم عطية : وإنما هى على خلاف ذلك اتساق كامل بين البداية والنهاية وما بينهما ، وإنما تبدو المفارقة فى « تحت المظلة » بين العمل الفنى ككل والواقع الخارجى . وهى مفارقة شكلية تستهدف التأكيد على وحدة الجوهر الداخلى . وكذلك وحدة الزمان والمكان فى « تحت المظلة » تختلف عنها اختلافاً تاماً فى « الصعود والهبوط » لأن الزمان والمكان فى قصة نعيم عطية يكتسب وحدة موضوعية لها ما يناظرها فى الواقع الخارجى مهما كانت

الشخصية والحدث داخل هذا الإطار لا نظير لهما فى الواقع فى حين أن الزمان والمكان فى قصة نجيب محفوظ يكتسبان وحدة ذاتية لا نظير لها فى الواقع الخارجى . فالناس يبنون ويهدمون يعيشون ويقتلون بمعدل زمنى أسرع من الضوء — هو معدل الحلم — بما لا يتسق مع المعدلات الخارجية للزمان الموضوعى ، وإنما يكتسب الزمن فى « تحت المظلة » وحدتة بصورة ذاتيه كاملة ، ونفس القول ينطبق على المكان . والفانتازيا فى قصة نجيب محفوظ تختلف عنها فى قصة نعيم عطية اختلافاً بيناً ، فهى فى « الصعود والهبوط » تكأة فنية يرتكز عليها الكاتب فى تجسيد رؤيته للعالم ، وهى فى « تحت المظلة » النسيج الرئيسى لهذه الرؤيا .

إن قصة نجيب محفوظ — لسوء حظنا أو لحسنه — من الأعمال التى لا تنتهى باكتمال قراءتها ، وإنما هى تظل تطاردك أينما كنت ، تحت المظلة أو بعيداً عنها .

وبعد ، فإن هذه المجموعة من القصص لا تطمح كما قلت فى مقدمة هذا الحديث إلى أن تقدم لوحة شاملة للقصة المصرية القصيرة المعاصرة ، وإنما هى اقتصرت على بعض الاتجاهات المتصارعة فى هذا الفن . هذا الصراع الذى يعبر — فى خصوبة وأصالة وحيوية وعمق — عن تعدد جوانب الحياة فى مجتمعنا وتعقيداته الفنية بكل جديد وقديم . وهو الصراع الذى يستهدف أولا وأخيراً اكتشاف الصيغة الجمالية الصحيحة والأقدر تجسيداً للحظتنا الحضارية الراهنة .

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ١٩٧٠/٦٢٩٠

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

اقرأ

حلمي سلام

إنى صاعدة




اقرأ
تصدر فى أول كل شهر


دار المعارف بمصر


بأسلوب اليوم و تفكير الغد

عايدة سلام

إني صاعدة ..

حياة ومذكرات شابة
مرهفة الإحساس - شديدة الألم

اقرأ ٣٤٣
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٣ – يوليو سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

إنى صاعدة

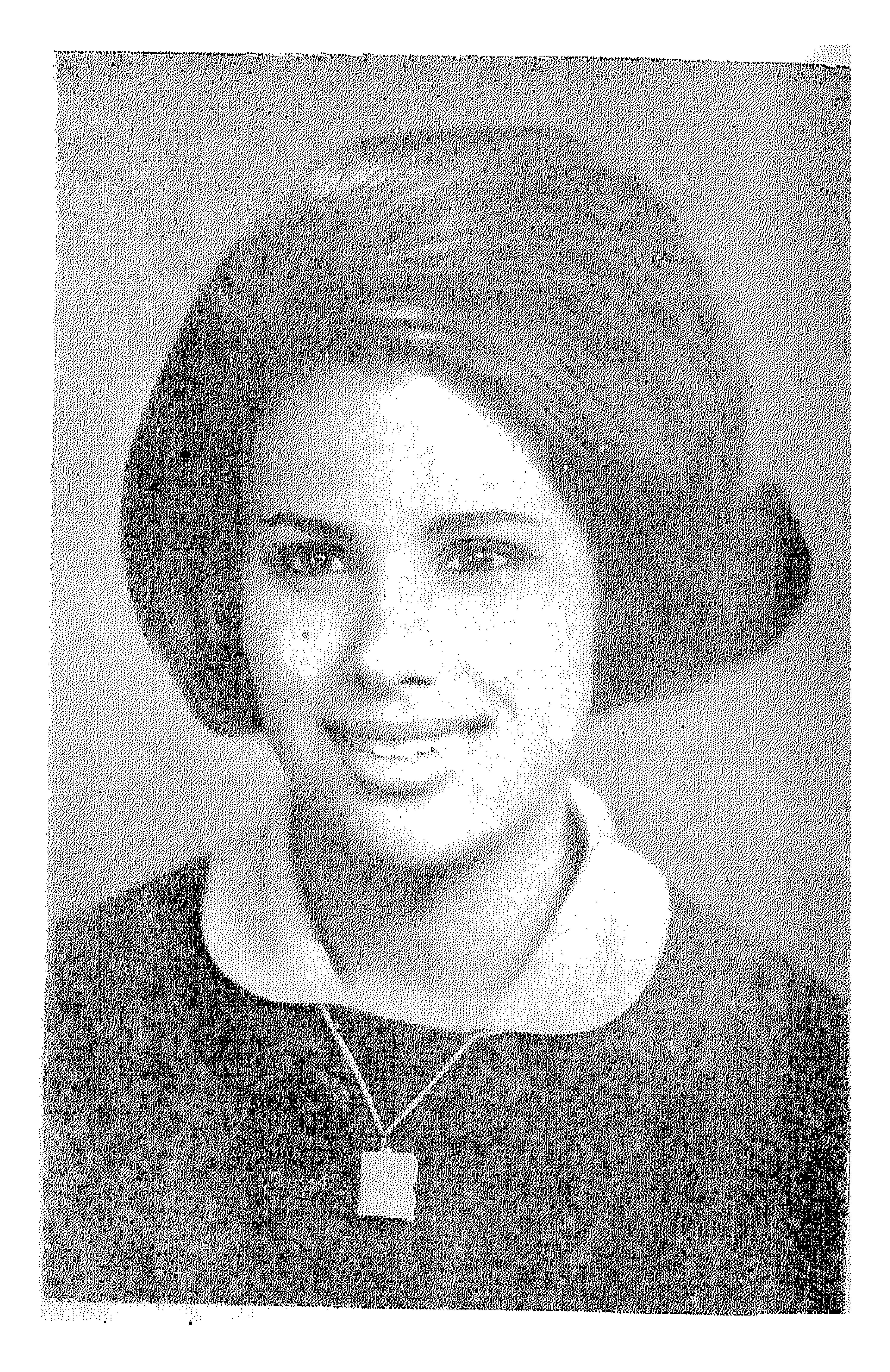
أماه . . ما أحلى اللقاء !
إنى أسمع الصوت البهير
وإشارة الملكوت نحوى والنفير
أماه .. هذا الضوء من ربى القدير
ونداؤه : ليلى هبى من نوم صغير
ليلى . . اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
أماه . . إنى صاعدة . . أماه إنى
فى حبور
أماه . . لا تبكى . . فنى جناته
أحيا وأطير

" نادية"

(من مذكراتها الخاصة — سنة ١٩٦٤)

إنى صاعدة

إن اللوحة الجميلة لا تبدو على حقيقتها إلا إذا نظر إليها الإنسان من بعيد .. وقد ابتعدت عنا "نادية" أشد ما يكون الابتعاد . . فكانت رؤيتنا لها واضحة أوضح ما تكون الرؤية . .



نادية : عشرون سنة . . . والحياة رحلة
استكشاف مستمر معظم مايستكشف فيها أليم . . ! !

إهداء . . .

إلى أمها . . .

إلى « شجرة الحب » التى لا ينحسر لها ظل ، ولا ينفد لها زهر . . ولا ثمر . إلى التى استطاعت – بجماع فضائل الأم .. وتضحياتها ، وشجاعتها ، وإيمانها وصبرها – أن تصبح تجسيداً حياً ، وباهراً ، ومذهلا ، للقول المأثور: « الجنة تحت أقدام الأمهات» .

نعم «الأم » ... نهراً فياضاً يغدق الحب بغير حساب . .ونعم « الجنة » جزاء لهذه " الأم" الكبيرة . . الكبيرة . . التى أعطت الحب – أنقى الحب – للحب فى ذاته . . وأعطت التضحية – أغلى التضحية – للتضحية فى ذاتها بغير تطلع إلى ثواب ، وبغير خوف من عقاب .

إليها . . أقدم هذه الصفحات من حياة زهرتنا الحبيبة « نادية» . . . وهى صفحات بعضها منها ، وبعضها عنها .

لعلها ـ جميعاً ـ أن تنزل برداً وسلاماً
على قلبها الجريح الذى أعلم عمق
جرحه ، لأنه نفس جرح قلبى . لكنه :
على شدة عمقه وإيلامه ، لن يعز ـ
بالإيمان ـ على الشفاء . .

حلمى سلام

مقدمة

بقلم : الأستاذ فتحي رضوان

" ماري بشكر تسيف" .

ذكرت هذا الاسم ، فيما أهم بالإخلاد إلى النوم . . بعد يوم مملوء بالجهد النفسي . . والعناء العصبي . . وحاولت أن أتابع الخواطر التي يبعثها هذا الاسم فى رأسى ، فإذا هى تنقطع كما ينقطع الخيط الواهى فى يد ملولة لا تقوى على الصبر .

ونسيت الاسم . . ولم تعد خواطره تفد إلىّ ، ونسيت معه هذه الصفحات التى أقدم لها بهذه السطور . . وفجأة ، وعلى غير انتظار . . وبلا تمهيد ، إذا باسم " ماري بشكر تسيف" يعود إلىّ . . وإذا به يعود إلىّ فى اللحظة نفسها التى كان قد طرق فيها باب ذاكرتى منذ أيام لم تكمل الأسابيع .

لقد ذكرته ، وأنا أهم بالإخلاد إلى النوم . . فإذا بالنوم يهرب من عينى . . وإذا بى أشد ما أكون تنبهاً . . وإذا بى أسير فى هرولة إلى مكان ما من المكتبة . . وإذا بيدى تمتد إلى موضع منها لتأخذ كتاباً أفتحه ، فأرانى أمام مقال عن مذكرات " ماري بشكر تسيف" .

وأخذت الكتاب فعبرت المقال من أوله إلى آخره فى سرعة خاطفة ، وكأنى أود أن أقطع طريقاً قبل أن يلحق بى لاحق !

وفرغت من المقال فى دقائق . . . ثم وضعته إلى جانبى وأنا فى حال لا أستطيع أن أصفها . . حال فيها حزن ، وفيها راحة ، وفيها رضى

عميق ، وفيها تمرد محكوم ومضغوط عليه . ورحت أسائل نفسى :

هل تعارفتا . . . ؟ هل عرفت الشابة المصرية التى ودعناها كأندى ما تكون زهرة من زهرات البشر . . وأنقى ما تكون نفساً من نفوس الناس — هل عرفت الشابة الروسية التى عاشت ، وتألمت ، واستسلمت للأحلام ، وتنقلت كالنحلة بين الزهور . .؟ !

لقد عاشتا نفس العمر : عشرين عاماً . . ثم عدداً آخر من الأشهر . وقالتا نفس الكلام . . وكانت لهما نفس المواهب . فهل تعارفت نفساهما على البعد ؟ أو أنهما جاءتا إلى دنيانا ، وانصرفتا عنها دون أن يقوم بين قلبيهما رباط يجمعهما ؟

إن الأولى — وهى الروسية — جاءت وذهبت قبل أن تولد الثانية ، بل قبل أن يولد أبواها ، بل ربما قبل أن يولد جداها . فقد ماتت "مارى" فى الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، فى حين ماتت « نادية » فى التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ — ولكن . . ما أضعف الزمان حاجزاً بين النفوس ، وما أضعف المكان فاصلا بين القلوب . فالنفوس لا تتخاطب ، والقلوب لا تتناجى ، كما تتصل وتتحدث الألسنة . . وكما تتخاطب وتتقارب الأبدان .

إن الذين ذهبوا . منذ عشرات القرون ، يعيشون معنا بما قالوا . . وبما تركوا من شعر ، وفكر ، وفن . . . إنهم يؤثرون فينا كما لا تؤثر فينا آلام اليوم وأوجاعه ، ومسراته ، وأفراحه .

فما أعمق القلب الإنسانى من كنز للمشاعر ، والعواطف ، والأفكار ! !

وما أعمق النفس الإنسانية من بئر للأحلام ، والخواطر ، والصور ! !

« مارى بشكرتسيف » الروسية التى ولدت فى روسيا . . وعاشت ، وماتت فى باريس . . بكل ما فكرت فيه ، وخافت منه ، وتاقت إليه . . كانت شقيقة « نادية حلمى سلام » بكل ما خطر على بالها ، وساور



خيالها . وأهمها . وألمها . وأحزنها . وأفرحها . .! !

صحيح أن « ماري » كانت ثمرة مجتمع أغنى من مجتمع « نادية » ثقافة وفناً . . وأن الأولى كانت أكثر استجابة لأشواق البدن . وأعظم تمرداً على قيود الروح . . في حين كانت الثانية راهبة من راهبات التصوف المتدفق من ينابيع قلبها الشرقي المسلم . . فهي لا تلعن البدن . ولا تسب الدهر ، ولا تفيض روحها بالتشاؤم القاتم . ولكن ، ما أتفه الفارق بين القوالب . . فالإنسان يكون شاعراً دون أن ينظم بيتاً واحداً . . ويكون مصوراً دون أن يمسك الفرشاة مرة واحدة . . ويكون خطيباً فصيحاً دون أن يفتح فمه بكلمة . إن الشاعر ، والكاتب ، والمصور ، والخطيب ، هم أولا — وقبل كل شيء — نفوس تحس ، وتتوق إلى التعبير عن نفسها . . وقد يكون أحسن ما تتركه للناس هو ما تعجز عن التعبير عنه بالكلمة . أو باللحن ، أو باللون . . فما حرك نفوس البشر شيء كما حركها الكلام الذي لم يقله الشعراء . والكتاب ، والخطباء . . . الكلام المقروء بين السطور . . الكلام الغامض الذي لم ينجل بعد . وأحسن الصور ما رآه الناس خلف صور الفنانين الكبار . . يرونها بالبصيرة ، لا بالبصر . . ويحسونها بالوجدان ، وإن كانوا لا يلمسونها بالأيدي .

ومن هنا . كانت « نادية » . . و « ماري » شقيقتين ، وإن عبرت كلتاهما عن نفسها بأسلوب مختلف . ولكن ، يكفي أن تقول كلتاهما عبارة واحدة مشتركة . . . عبارة غنية فياضة . . حتى تعرف أنهما زهرتان في بستان واحد .

* * *

ولقد تركت لنا كلتاهما مذكرات . . فأصبح في مقدورنا أن ننقل النظر بين هذه المذكرات ، وتلك ، لنرى أنهما — « نادية » . و « ماري » — لم تتشابها في السن التي تركتا فيها دنيانا . . ولا في المذكرات التي خلفتها

كل منهما فحسب ، ولكن . . فى الخواطر ، والأحاسيس ، والمشاعر .
وإليك هذا الذى قالته « مارى » بعد أن قرأت قصة الاستيلاء على « طروادة » فى ملحمة « هوميروس » .

● « لم تترك مأساة حديثة . .
ولا قصة مهزلة مما كتب « دوماس » ،
أو « جورج صاند » فى نفسى ذكراً
باقياً . . ولا أثراً عميقاً صريحاً كالأثر
الذى تركه فيها وصف الاستيلاء على
« طروادة » . فإنى أشعر أنى شهدت
هذه الفظائع . . وسمعت تلك الصيحات
ورأيت النار وهى تشتعل . وإنى كنت —
وأسرة بريام — مع أولئك التعساء الذين
كانوا يختبئون وراء محراب القرابين التى كانوا
يتقربون بها لآلهتهم لتكشف عنهم النيران
الملتهبة فى مدينتهم ، ولا تسلمهم إلى
أعدائهم . . وأيننا لا تعروه هزة حين
يصل من قراءته إلى طيف كروز؟ »

ثم إليك ما قالته « نادية » ، وقد فرغت من قراءة قصة حياة « فان جوخ » :

● « إنى لعمرى ما تجاوبت مع
شىء قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة
من حياة تقطر أسى ومرارة . . فقد
أحسست بالكره الشديد ، بل بالمقت

„ بلوجان„ : فقد أحسست : وأدركت .
أن هذا الملعون كان هو السبب فى أول
نوبة أصابت„ فان جوخ„. لقد شعرت
بالرعدة تسرى فى أوصالى . . وبالخوف
يزلزل كيانى مع كل نوبة كانت تصيبه .
وتمنيت لو أنى كنت بجانبه . فلربما
كنت أستطيع أن أفعل له شيئاً ».

ولعل هذين الاقتباسين قد بينا ما أقصده من أن الفتاتين كانتا روحين توأمين . على بعد الدار ، وشط المزار ، وعلى اختلاف الجو . والبيئة . والظروف . هذه تقرأ „ هوميروس„ الإغريقى . . وتلك تقرأ عن„ فان جوخ„ فى الفرنسية . . ولكنهما تتأثران بما تقرآن تأثراً واحداً . وتعبران عن تأثرهما بعبارة تكاد تكون واحدة .

● "فارى" تقول : « إنها لم تتأثر بشىء بقدر ماتأثرت بقراءة مأساة . أو فاجعة الاستيلاء على طروادة » .

● و„ نادية„ تقول : « لعمرى ما تجاوبت مع شىء قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة من حياة„ فان جوخ„ » .

● و„ مارى„ تقول : « يخيل إلى أنى شهدت هذه الفظائع ، وسمعت تلك الصيحات ، ورأيت النار وهى تشتعل » !!

● و„ نادية„ تقول : « لقد شعرت بالرعدة تسرى فى أوصالى ؛ وبالخوف يزلزل كيانى مع كل نوبة من نوبات " فان جوخ " » .

حساسية مفرطة . . وقدرة على التعبير فائقة . . ونسيان للنفس مع الصور المتخيلة ، والاستغراق فيها ، والاندماج معها .

هذا الخيال الغني المديد ، يعبر عن نفسه عند كل منهما بطريقته الخاصة .

● « فارى » تقول: « آه . . لو كنت ملكة » . . . . ثم تقول : « أريد أن أكون قيصراً . . أو أغسطس . . أو ماركوس أورليوس . . أو نيرون . . أو الشيطان . . أو البابا ! ! »

● أما « نادية » فتقول :

« أحس أننى أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . . ولكن ، ماهو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله ؟ ليست عندى أية فكرة عنه .

« فأحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون « ناسكة » .. وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف ببلاد العالم جميعاً .. وأحياناً أتمنى لو أنى كنت أعيش فى هذا العالم بمفردى . . أراقب السماء ، وأسرح فى ألوانها الجميلة وفى قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها فأحسن صنعها » .

وكلتا الفتاتين تغفو فى صحوة النهار ، وتفيق كل منهما من غفوتها ، وتتساءل : « ماذا حدث» ؟ .

تقول « ماري» فى مذكراتها فى يوم ٢٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ :

● « إننى أسعل الوقت كله برغم

حرارة الجو . .وقد أخذتني سنة من النوم على المتكأ عصر اليوم . فرأيت نفسي نائمة وإلى جانبي شمعة موقدة .. أتراني أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك » .

وتقول « نادية » في يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٢ :

● « يوم رائع من أيام الربيع .. رائحة الورد تملأ الجو من حولي .. ولكن على الرغم من هذا اليوم الرائع من أيام الربيع . . ومن رائحة الورد التي تعبق الجو من حولي ، أشعر بحزن عميق يجتاحني . . لماذا ؟ لا أدري . . يخيل إلى أني أبحث عن شيء ضائع » .

تلك تستيقظ لتتساءل : « هل أموت ؟» . . وهذه تتنبه لتقول : « هل ضاع مني شيء . . وماذا يكون»؟ . وحينما يتساءل الإنسان : « هل ضاع منه شيء» هو لايدريه . . يكون هذا الشيء، عادة ، هو الحياة نفسها . .! !

والموت لفظ يتردد في مذكرات « ماري بشكر تسيف» . . وفي مذكرات « نادية سلام» على السواء . . وإن كان ذكره يأتي بنغمتين جد متباينتين . فإنهما . في الواقع ، تصدران عن فكرة واحدة . . وعن إحساس واحد .

ويجب ألا ننسى أن «ماري» كانت مصدورة ، وأن مرضها الشديد كان يحمل إليها مع كل نسمة هواء تدخل إلى رئتيها المريضتين اللتين تأكلهما العلة بلا رحمة ، إنذاراً بالموت . . وإشارة إليه . . وتحذيراً منه .

فى حين كانت « نادية » – وهى تكتب مذكراتها – مملوءة بالصحة . . فياضة بالحيوية .

● تقول « مارى » : « أترانى أموت ؟ لشد ما أخاف ذلك » ثم تضيف : « والموت كلمة سهلة حين نقولها ، أو نكتبها . لكن التفكير فى أمرها ، والاعتقاد بأن الإنسان يموت عاجلا . . هل ترانى أعتقد ذلك ؟ إنى أخشى . . . . . . » .

هذه الخشية تردد أصداؤها أيضاً عند « نادية » ، فهى تقول فى مذكراتها فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ : « إننى أشعر بالخوف من المجهول الذى تربص « لفان جوخ » يؤرق مضجعى » .

وكل منهما كانت تسمع الأصوات ، والهواتف ، التى يجسدها لها خيالها .

تقول « مارى » فى مذكراتها فى أول يونية سنة ١٨٧٦ :

● « الساعة . . وأنا خارجة من غرفة زينتى مر بى طيف مفزع ، فقد رأيت إلى جانبى امرأة فى ثوب أبيض طويل ، تحمل النور فى يدها . . وتنظر إلى وقد أحنت رأسها على مثال طيف أساطير الألمان » .

وتقول « نادية » فى مذكراتها ، فى يوم ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ ، التى نقلنا عنها من قبل :

● « لقد شعرت بالخوف وبالرهبة تهددنى . فالمخاوف ، والهتافات التى

كانت تنادى " فان جوخ " تناديني أنا
أيضاً . . إنني أسمعها سمعاً حقيقياً
لا خيالا » .

* * *

وتطارد مشكلة " الألم " الفتاتين الصغيرتين اللتين منحهما الله إحساساً مرهفاً ، وشعوراً بأحزان الآخرين ، وآلامهم ، فوق ما تطيقه النفس الإنسانية الغضة

فتقول " نادية " :

● « لماذا حكم على الفنانين بالتمرغ
فى أحضان الجوع والألم ؟! لقد وضح
الجواب من حياة " فان جوخ " .
وهو أن الألم النابع من أعماق الفنان
نفسه ، أو الذى ينعكس عليه من
أعماق الآخرين ، هو الذى يزيد
من رقة إحساسه »

● أما " مارى " فتقول : « لماذا يخلقنا الله لنتألم ؟ . . وإذا كان الله هو الذى خلق العالم . . فلماذا خلق الألم ؟ ! »

إن النفس الرقيقة ، الحساسة ، التى لا تدع شيئاً يمر بها دون أن يترك على لوحتها الشفافة أثره البالغ العميق ، هى نفس تصاب – عادة – بالسأم والملل ، لأنها لا تكف عن الركض ، من الصباح إلى المساء ، وراء كل صورة ، وخاطرة ، وفكرة . . . ووراء كل حدث مفرح أو مؤلم . . ثم ترى فى النهاية . أنه ليس من وراء كل هذا شيء باق . .

أو شيء مفهوم . . أو شيء يستحق العناء .

* * *

● ويقول الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه : « في أوقات الفراغ » عن " ماري بشكر تسيف " نقلا عن كتاب : « الحياة الأدبية في باريس » للكاتب الفرنسي " أناتول فرانس " :

« كان رأسها مخزناً تختزن فيه
مختلف الكتب والروايات من غير ترتيب .
وكانت دائبة السياحة : تذهب من نيس
إلى روما .. ومن روما إلى باريس . .
ومن باريس إلى بطرسبرج ، وفينا ،
وبرلين . وكانت لا تستقر أبداً ، فقد
كانت السآمة تتولاها أبداً . . . وكانت
ترى حياتها خلاء ، حتى كانت تقول :
في هذا العالم كل ما ليس أليما سخيف .
وكل ما ليس سخيفاً أليم ! »

ولكن " نادية " لا تشوب نفسها هذه المرارة التي يبعثها الألم . . . وهي ليست قلقة قلق الشك الصارخ ، بل هي قلقة قلق القلب الباحث عن الإيمان . لذلك يجيء تعبيرها عن " السأم " أحلى مذاقاً ، وأجمل وقعاً ، وألطف نبرة ، ففي مذكرتها عن يوم ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ — نجدها تقول :

● « إنني أفكر الآن في أشياء
كثيرة أراها تصيبني بالملل . . . فالذهاب
إلى المدرسة أملّه .. والبقاء بالبيت أملّه .

والروتين يكاد يقتلني . . وأعتقد أنني
لا أبالغ إن أنا قلت إنني أشعر بأني
أموت موتاً بطيئاً ! ! »

الرغبة في الموت هنا . . والخوف من الموت هناك . . كلاهما شعور واحد ، وإن ظهرا كالنقيضين . . فالتشبث بالحياة حب لها ، وحرص عليها . . والاستخفاف بالحياة . . لا يصدر إلا عن فرط حيوية . فالضعاف من الناس : الذين لا يجدون في الحياة ما يثيرهم ، ويحرك خواطرهم ، ويلهمهم ، لا يرد لفظ الموت على ألسنتهم قط . . ذلك لأنهم موتى إلى الحد الذي لا يشعرون معه بأنهم أحياء ! !

* * *

ومأساة المرأة الذكية ، المتوقدة ، الطموح عندما تصطدم بمشكلة الزواج . . هي مأساة حقيقية . . لأن المرأة الذكية هنا ليست أنثى فحسب . وإنما هي أنثى مدركة لوجودها . . وليس من السهل عليها الاندماج والفناء اللذان يتطلبهما الحب ، ثم الزواج . تقول « نادية » في مذكرة التاسع من أبريل سنة ١٩٦٤ :

● « كنت اليوم أفكر في الزواج . .
ما هو ؟

« إنه في نظري ليس نهاية الآمال
بالنسبة للفتاة فحسب . . بل هو أيضاً
قاتلها ! !

« ولنأخذ حالتي مثلا : فتاة شابة .
تعشق الخيال ، وتعشق الكتابة ، وتعشق
القراءة ، وتعشق الموسيقى . . . ماذا

يمكن أن تفعل مثل هذه الفتاة لو أوقعها القدر فى «مصيدة الزواج» ؟»

ويزداد شعور «نادية» بقسوة مصير المرأة . . وتقارن بينها وبين الرجل . . فتقول :

● « إن الرجل يستطيع دائماً أن يعيش حياته . . يستطيع ، لو أراد ، أن يخصص حياته لرغباته ، وآماله ، واختياراته . . . أما المرأة ، فإنها — برغم كل شيء ... وبرغم كل ما وصلت إليه — ما تزال مخلوقاً ضعيفاً ! ! »

ولم تتحدث «ماري» عن الزواج كنظام . . إلا أنها تحدثت عن الزوج المرشح لها ، فقالت :

● « لو أصبحت زوجته . . إذن لقضيت على ثروته ، ومتاحفه ، وقصوره . فإن لى ، من الطمع ، والكبرياء ، مالا حد له ، والعجيب أن يحب شخص مخلوقاً ذاك شأنه ، لا لشيء إلا لأنه لا يعرفه» ! !

«ماري» تصل — بطريقتها الخاصة — إلى نفس النتيجة التى تصل إليها «نادية» بطريقتها الخاصة أيضاً . «نادية» تعلن أن الزواج كله بالنسبة لها مستحيل . . . و«ماري» ترى أن زواجها من هذا الذى أظهر لها الحب مستحيل . . . وتسخر من إنسان يحبها ، وهو لا يعرفها . .

وتضيف : « أواه لو عرفت هذا المخلوق ... » ؟ فهى : على فرط حساسيتها وحبها للحياة : لا تتحدث عن الحب حديث العشاق الوالهين . . ولا تحرق الورق بحرارة آهاتها . . فهى تحب شيئاً أكبر : وأوسع ، وأعلى . . . إنها تحب الحياة كلها حباً عميقاً وعنيفاً .. وتدفع عن نفسها الموت . وتصرخ وهى تراه يدهمها :

● « إننى أرى الحياة طيبة . فهل يظن ذلك أحد ؟ وأجد كل شىء فيها طيباً ولذيذاً . . . حتى الدموع ، وحتى الألم . . . إننى أحب أن أبكى ، وأحب أن أيأس . . . أحب أن أكون حزينة آسية . . إننى أحب الحياة على الرغم من كل شىء !! » .

ويقول مؤرخو حياة « مارى بشكرتسيف » إنها — فى سنة ١٨٧٧ — استبدت بها شهوة واحدة وقفت لها كل وجودها . تلك هى شهوة « التصوير » وجمعت له كل كنوز ذكائها المشتتة . . . واجتمعت عنده كل آمالها فى المجد . ولم يبق لها من حياتها إلا غاية واحدة . . هى أن تكون « فنانة كبيرة » .

أما « نادية » فإنها تقول فى مذكراتها : « إن هوايتها هى القراءة . . ثم القراءة . . ثم القراءة » .

وتكشف « نادية » عن سر عشقها للقراءة ، فتقول :

● « أما الذى يزيدنى تعلقاً بها فيتعلق بمستقبلى ، وما أتمنى أن أحقق فيه . فإن هوايتى . . بل أمنيتى . . أن أصبح كاتبة مرموقة . والاطلاع . .

المزيد من الاطلاع . . هو الوسيلة
الوحيدة لتحقيق هذه الأمنية ، ما دامت
الموهبة لا تنقصني – وهى لا تنقصني» .

هذه تريد أن تكون «مصورة عظيمة» . . . وتلك تريد أن تكون «كاتبة عظيمة» وكلتاهما تبذل كل شيء فى سبيل تحقيق هذا الأمل ، وتلك الأمنية .

* * *

ويقول مؤرخو حياة "ماري بشكر تسيف" أيضاً : «إن شيئاً ما كان يقف حائلا بينها وبين شرور العالم البوهيمى الذى كانت تحياه بقوة وتطرف . فلقد كانت تحياه بفكرها ، لأنها كانت تؤمن بأن فى "الفكر" شيئاً أكبر من العاطفة نفسها . . . عاطفة أعمق من العاطفة ، فهى على الرغم من انفصالها الحقيقى عن العالم البوهيمى الذى كانت تعيش فيه . . وعلى الرغم من ترفعها الرومانسى عن الأحداث اليومية العابرة ، كانت تعيش فى قلب عصرها . . بل فى البؤرة المحرقة منه.»

وكذلك كانت "نادية" . . . لقد كانت تؤمن «بالفكر» إيماناً لا حد له . . كانت تؤمن به كقيمة عظمى . . . قيمة أكبر من كل القيم . . هى تكشف لنا فى مذكرة يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ ، عن هذا الإيمان العظيم «بالفكر» كقيمة أكبر من كل القيم – فتقول :

● «إنني أحب كثيراً أن أبقى
وحدى . . . أفكر لنفسى . . وأتكلم
مع نفسى . . إن التفكير يكاد يقتلني .
لكنني – وهذه هى مشكلتى –
لا أستطيع أن أعيش بغيره . . إن
"التفكير" هو حياتى» .

لقد كانت " ماري " — كما يقول مؤرخو حياتها — تعيش في قلب عصرها، بل في البؤرة المحرقة منه — وهذا بدوره، ما ينطبق بالضبط على " نادية " . فعلى الرغم من أنها تقول في مذكراتها : « إنها تحب أن تبقى وحدها .. تفكر لنفسها، وتتكلم مع نفسها » ، نجدها — وتماماً كما كانت تفعل " ماري " — تعيش في قلب عصرها .. وفي البؤرة المحرقة منه .

ولست أعرف « بؤرة محرقة» أشد إشعالا لوجدان الإنسان العربي — في الفترة التي كان وعي الصغيرة " نادية " ، وعقلها يتفتحان على مشكلات عصرها — من « ثورة الجزائر » ، وما كان يحدث فيها . . وما كان يحدث لها : ومنها . . !

وفي قلب هذه «البؤرة المحرقة» . . . كانت " نادية " تعيش بفكرها كله . فنراها تمنح « ثورة الجزائر» من ذاتها ، كل الحب . . . وكل الحماسة . . وكل ما تقدر عليه من عطاء . فهي ، في المدرسة الفرنسية التي كانت تتلقى فيها تعليمها الإعدادي والثانوي ، تثور على معلمتها من أجل هذه الثورة . . وتحدث أزمة شديدة تدخل فيها وزير التعليم طرفاً من الأطراف . وهي ، مع نفسها ، تكتب عن هذه الثورة القصص . وتنظم الشعر ، وتتغنى به ، تحية لشهدائها . . ثم هي تحب — وإلى حد العشق — كل كاتب فرنسي حر كانت تراه يمنح « ثورة الجزائر » من نفسه ، ما تمنحه هي لها من نفسها. وهي لا تكتفي بهذا كله ، بل تذهب بها حماستها لهذه الثورة ، وحبها لها ، إلى حد أنها كانت « تتمنى » — كما تكشف لنا عن ذلك قصتها المعنونة : « أمنية» ، المنشورة في هذا الكتاب — أن تذهب إلى هناك . . إلى « البؤرة المحرقة» التي كانت تعيش ، « بفكرها» ، في قلبها . . أجل ، لقد كانت " نادية " تتمنى أن تذهب إلى الجزائر . . . فتقاتل ، مع أولئك الذين كانوا يقاتلون . . وتعذب مع

أولئك الذين كانوا يعذبون . . . وتستشهد مع أولئك الذين كانوا يستشهدون!

* * *

لقد ماتت " ماري" في الحادى والثلاثين من أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، وهي ما تزال في الرابعة والعشرين من عمرها .

وماتت " نادية" في التاسع والعشرين من يوليو سنة ١٩٦٩ ، وهي ما تزال في الثانية والعشرين من عمرها . . . . ففرق بينهما الزمن بنصف قرن كامل . . . ولكنهما ، مع ذلك ، اجتمعتا معاً . . . اجتمعتا معاً عندي . . . واجتمعتا معاً في هذه المقدمة . . وستبقيان مجتمعتين في ضمير التاريخ . . . تاريخ الإنسانية وأدبها .

ولقد حزن الناس في باريس حينما نشرت مذكرات " ماري بشكر تسيف" ، لأول مرة ، في أوائل القرن العشرين . . . وسوف يحزن الناس حينما يقرءون مذكرات " نادية حلمي سلام" عند نشرها . ولكن ، لماذا لا أحس أنا أن " ماري" أو " نادية" . . قد تركتا دنيانا هذه قبل الأوان . . أو أن حياتهما لم تكتمل ؟ !

إني أراها حياة كاملة . . بل لعلها كانت تنقص لو أنها طالت ، ثم استحالت إلى حياة عادية كحياة الملايين من الناس . .

إن حياة كل من الأديبتين الشابتين نموذج فريد في لونه . . نموذج يمنح الإنسان في كل مكان ، وكل زمان . . ثقة بالإنسان ، وإعجاباً بمواهبه التي لا حد لها ، واعتزازاً بطموحه الذي لا يتوقف عند شيء ، وبقدرته على أن يجعل من الحياة نفسها عملا فنياً رائعاً ، ومؤثراً ، ونافعاً ، وموحياً ، وباعثاً على الرجاء والأمل .

إن حياة الإنسان — أي إنسان — لا تقاس بالأمتار . . ولا بالأرطال ولا بالأرقام . فإن الأشياء الباقية في حياة الإنسان ، قليلة العدد . . وصغيرة الحجم . . بحيث قد تمر أحياناً دون أن يلتفت إليها أحد ،

ثم لا تلبث : مع هذا ، أن تغير معتقدات وتصورات الملايين على مر الزمان .

فلم يكن فى وسع أحد . فى الإمبراطورية الرومانية . أن يتصور أن هذا الشاب الصغير الفقير الذى اجتمع حوله عدد من الصيادين الفقراء قادر على أن ينشئ عالماً جديداً .. وأن يثل عروشاً ، وأن يطلق ثورات : لمجرد قوله من فوق تل فى أرض فلسطين : « أحبوا أعداءكم .. باركوا لاعنيكم . . صلوا للذين يسيئون إليكم !! » .

ولم يكن فى وسع أحد ، فى العالم بأسره : أن يتصور أن هذه المعركة الصغيرة فى موقع مجهول ، فى صحراء جدباء ، اسمه : « بدر » يمكن أن تنشئ حضارة : وأن تطلق الطاقة الإنسانية فى اتجاه لم تعهده . وبقوة لم تعرفها ! !

كذلك " ماري" . . و " نادية" . . لا نرفعهما فوق قدرهما ، ولكنهما ، بالصفحات التى تركتاها لنا — وإن كانت صفحات قليلة — قد منحتنا الأدب فى اللغة التى كتبت كل منهما بها ، شيئاً ممتعاً . . وجديداً . . وجديراً بالتأمل والالتفات .

إن هذه الصفحات التى تركتها كل منهما وراءها ، تعلن لنا : أن الحياة التى نحياها لا يصنعها فقط المشهورون الذين تغمرهم الأضواء ، والذين نعرفهم بالأسماء . . وإنما يشارك فى صنعها ، ويضيف إليها ، ويجمل فيها . مجهولون : وصغار ، ماتوا ، أحياناً ، وهم لا يزالون فى بداية العمر . لكنهم — وإن جهلناهم — قد قالوا ، وفعلوا فى المحيط الذى عاشوا فيه ما لن يفنى أبداً .

لقد كنا : من قبل . نظن أن صوتنا الذى يخلخل الهواء يموت إذا ما تجاوز آذاننا . . فجاءت فتوحات العلم لتثبت لنا أن هذا الصوت يبقى . . وأنه قادر على أن يقطع آلاف الملايين من الأمتار ، ليصل

من أقصى الأرض إلى أقصاها . . لو وجدت الأداة التى تلتقطه .

وما حياة " نادية" إلا موجة من هذه الموجات . . . موجات النور التى تتدفق بها الحياة لتبقى فى حياة الناس . . تدفع بهم إلى أعلى ، وتدفع بهم إلى الأمام ، وتزيدهم حباً فى كل ما هو سام ، ونقى ، ورفيع . محلقين فوق آلام الدنيا . . منطلقين إلى عالم غير منظور . . ولكنه نظيف ، وفسيح ، وعظيم .

لقد جعلت " نادية" من قولها : « إنى صاعدة إلى السماء » شعارها الذى رددته كثيراً ، فى مواقع كثيرة من مذكراتها .

والسماء هنا ليست هذه القبة الزرقاء التى أثبت العلم أنها لا شىء . . وأنها لا تحجب شيئاً . وأنها مجال غير محدود . . مجال لا نهائى للصعود والإرتفاع !

إن « السماء» هى هذه الآمال التى صاحبت الإنسان فى تطوره، وتدرجه ، وكفاحه . . والتى عذبته ، وأرقته ، وهى هى التى قوته ، وثبتته ، وهونت عليه التضحية .. والعذاب . . والألم !

« إنى صاعدة إلى السماء» . . . .

ما أحلاه شعاراً يليق " بنادية" . . وتليق به .

فتحى رضوان

التاسع والعشرون من يوليو سنة ١٩٦٩ — يوم ككل الأيام التى مرت بنا من أشهر سبعة سبقته . سحقتنا حتى العظام . . . يوم مشحون بالجزع : وبالقلق . وبالألم . وبالخوف من المجهول الذى أخذ يكشف عن وجهه شيئاً فشيئاً حتى لم يعد مجهولا . أما بالنسبة لها . فقد كان هذا اليوم شيئاً آخر . . . كان يوماً بلا غد .

فلقد كانت تعشق الهدوء ... ولأنها كانت تعشق الهدوء؛ فقدانتظرت حتى مات النهار . . حتى هدأ كل شيء . وكل شخص . . . حتى سكنت الحركة ، ونامت الحياة ، ثم . . . ثم ذهبت . ريانة كالربيع . . نقية كالفجر . . طاهرة كالندى .

لم أكن بجوارها فى اللحظة الخارقة التى ذهبت فيها عنا . . وأيضاً لم أكن بعيداً عنها . كنت على قيد خطوتين منها أريح جسدى المنهك الذى هدمه القلق عليها فى حين كانت أذنى معلقة بنبضات قلبها الذى كان فى الأيام الأخيرة قد أخذ يدق فى عنف مسموع : كأن بداخله طيراً يرف . محاولا — بكل ما لديه من جهد واهن — ، أن يحطم السجن الذى يغلق عليه أبوابه ، وينطلق إلى عالم أرحب وأوسع . . وكانت حواسى كلها معلقة بهمساتها . لكنها — ويا للهدوء الذى كانت تعشقه — استطاعت أن تمرق كالنسيم من بيننا ، فلم يشعر بها حين فارقتنا أحد . فقط ، طلبت من "شجرة الحب" التى كانت تنام فى حبات عيونها — طلبت منها جرعة ماء . وظنت أمها أن جرعة الماء التى طلبتها منها "نادية" إنما هى كأى جرعة ماء أخرى طلبتها من قبل .. وأنها طلبتها لتروى بها ظمأ أحسته ، وليس لكى تتزود بها للرحيل عن حياتنا هذه إلى حياة أخرى . . « حياة أفضل . . حياة أكثر شفافية ،

وأكثر نقاء » على حد تعبيرها هي فى قصة كتبتها ، ولم تكن قد جاوزت ، بعد ، الرابعة عشرة من عمرها .

* * *

وجاءتنى أمها حيث كنت أرقد مفتوح العينين والأذنين معا . . جاءتنى متسربلة بأقصى الهدوء ، معتصمة بأنى الإيمان ، ولكن . . كان هناك مع هذا الهدوء ، وذلك الإيمان — بحران من الدموع يجريان على خديها . . . جاءت توقظنى لكى أقاسمها النار التى اندلعت لتلتهم قلبها — لتقول لى إنها . . . إن زهرتنا الحبيبة قد سئمت المعركة . . وإنها قد ألقت سلاحها . . . وذهبت . . . ذهبت لكيلا تعود .

ولا أدرى ، الآن ، من منا كان يتوكأ على الآخر ، ونحن ننتزع خطانا انتزاعاً متجهين نحو الفراش الذى أراحت عليه " نادية" جسدها المثخن بالجراح ، بعد معركة طويلة ، خاضتها بكل بسالة شبابها ضد المرض الذى لم يشأ أن يكون رحيماً بها، فأسرف — غاية الإسراف— فى قسوته عليها . ولكن الذى أدريه ، يقيناً ، أننا نحن الاثنين — أمها وأنا — كنا نتوكأ على إيمان بالله لا حدود له . . . وأن هذا الإيمان بالله هو وحده الذى عصمنا من السقوط فى هاوية الحزن الطاغى الذى يتفجر فى مثل هذه اللحظات الحارقة كأنه طوفان مجنون يجتاح أمامه كل شىء . . . يجتاح الثبات ، ويجتاح العقل ، ويجتاح الرشد ، ويجتاح الإيمان نفسه .

لم تستطع الضربة القاصمة التى نزلت بنا أن تذهب بشىء من رشدنا . كنت قادراً على أن أنظر فى وجهها الزكى الصبوح . وأن أتأمله ،وأن أنحنى عليه لأقبله فى خشوع لم يمنعنى من أن أشم رائحة قلبى الذى أخذ يحترق .

وكانت " أمها" قادرة هى الأخرى على أن تفعل نفس الشىء . . . لم تشهق ، ولم تصرخ . . لم تلطم خدودها ، ولم تشق جيوبها . . لم يصدر

عنها أى صوت ، من أى نوع ، يمكن أن يزعج زهرتنا الحبيبة وهى فى نومها الأبدى . . . وإنما فيض من القبلات ، الغارقة فى الدموع أخذت تغمر بها جبينها ، ووجهها ، ويديها ، وكل جزء فى جسدها الغض الذى ما عتم – وهو لا يزال فى ريعان ربيعه – أن ذبل وذوى .

* * *

ولا أدرى - فى غمرة الحزن الطاغى الذى ابتلعنى فى تلك اللحظة الحارقة – لا أدرى كيف قفزت أمامى صورتها وهى جالسة معى ذات مساء فى شرفة منزلنا ، وكانت قد تركت وراءها فراش المرض بعد سبعة أشهر أليمة . . وأخذت تصعد سلم الشفاء بخطى لم تكن سريعة ، لكنها كانت ثابتة ومبشرة – أو هكذا حملنا الأمل على جناحيه فخلناها كذلك .

كان حديثنا فى تلك الأمسية ، يدور حول نزول أول إنسان على سطح القمر . . كانت ترى فى هذا النزول إنجازاً إنسانياً مذهلا . . . وبينما نحن آخذون فى هذا الحديث ، وفيما سوف يكشف عنه المستقبل فى مضمار السباق نحو القمر ، إذا بها فجأة تحول مجراه وجهة أخرى لم أكن أتوقعها منها ، ولم تكن لتخطر لى على بال – سألتنى :

– بنفسى أن أسألك سؤالا . .

– اتفضلى . .

– هل الناس الكويسين لما بيموت عندهم حد – هل بيصوتوا عليه ؟

وانقبضت نفسى انقباضاً شديداً لهذا السؤال الذى فاجأتنى به . . وزاد من انقباض نفسى أنه لم يكن هناك – لا من الحديث الذى كان يجرى بيننا . . . ولا من الجو الذى كان يحيط بنا – ما يمكن أن يوحى إليها به . ومع ذلك ، كتمت عنها – وبصعوبة بالغة – الانقباض الذى أطبق على صدرى كأنه كابوس طاغ . . وسألتها بدورى :

ـــ الناس الكويسين دول زى مين ؟
وبدون أدنى تردد من جانبها . . . وكما لو كان الجواب جاهزاً على طرف لسانها قالت :
ـــ زينا مثلاً . .
قلت :
ـــ اللي زينا ما يصحش أبداً يصوتوا علي حد يموت عندهم .
لقد أدهشنى سؤالها عندما فاجأتنى به . . . وأدهشنى أكثر أنه كان غريباً تماماً على موضوع الحديث الذى كان يدور بيننا . لكن الذى أدهشنى أكثر من هذا وذاك ، هو ذلك التهلل العجيب الذى رأيته يملأ وجهها كله عندما سمعت منى الجواب : « بأن الناس اللى زينا ميصحش يصوتوا على حد يموت عندهم » .
لقد أحسست بها ، ساعتها ، كما لو كانت تريد أن تقول : « الحمد لله » .. وربما لم يمنعها من قولها إلا إشفاقها علىّ . . أو ربما لم تشأ أن تقولها حتى لا تشى بما كان يدور فى أعماقها ولا تريد أن تكشف عنه . . واكتفت بأن علقت على إجابتى بقولها :
ـــ أنا برضه بأقول كده .

لا أدرى كيف تذكرت فى هذه اللحظة الحارقة . . لحظة الصمت الخاشع الذى انتابنى وأمها ، ونحن واقفان فوق رأسها ـــ ذلك الحديث الذى دار ذات مساء بينى وبينها وكيف أنها كانت حريصة ـــ دون أن تفصح ـــ على ألا يصوت عليها أحد . . وكيف أننا ـــ وبإلهام من الله سبحانه ـــ قد نفذنا لها وصيتها التى لم تفصح عنها . فلم ينطلق فوق رأسها صوت ولا صرخة . . . بل لقد كانت أصوات الموسيقى . . موسيقى الصباح التى كانت من أحب الأشياء إلى نفسها . . تنطلق من أجهزة الراديو بيوت جيراننا .

ووحدنا . . وحدنا تماماً . . كان علينا أن نواجه هذه اللحظة الأليمة . . بل البالغة ذروة الألم فى حياة الناس . لحظة أن يمد الموت يده ، بكل القسوة واللامبالاة ، إلى قلب الإنسان فينتزع قطعة منه . . يأخذها ويمضى ، ثم يترك القلب ينزف دماءه حتى يأذن الله لجرحه بالالتئام . وقد يطول الزمان كثيراً قبل أن يكف الجرح عن نزف دمائه . ويتوقف ذلك على طبيعة الإصابة نفسها . . فليس من يصاب بجرح فى قلبه ، كمن يصاب بجرح فى أصبعه .

* * *

وتعاونّا – أمها . . . وأنا – فى تبديل ملابسها . وفى إعدادها لاستقبال أولئك الذين سوف يأتون مع الصباح ليقوموا بتجهيزها للقاء ربها . .

وألقينا على وجهها الذى ظل صبوحاً برغم الموت . . زكياً برغم السقم – ألقينا على هذا الوجه الزكى ، الصبوح ، وشاحاً لعانا قصدنا أن يكون شفافاً ، حتى لا يحجبه عنا . ثم . . ثم عدنا إلى الله .

تناول كل منا مصحفاً كريماً ، ورحنا نقرأ معاً . . وفوق رأسها . السورة الحبيبة إلى قلبها . . . السورة التى تعودت – من سنين بعيدة – ألا تنام قبل أن تقرأها . . " سورة يس " . . ثم رحنا نتنقل فى الكتاب الكريم من سورة إلى أخرى : قلوبنا مع القرآن . . وعيوننا مع القرآن . . . ودموعنا معها . . مع الملاك المسجى بيننا .

وبقينا هكذا ، حتى طلعت الشمس . . شمس أول صباح يطلع علينا ، منذ اثنين وعشرين عاماً ، بدونها .

وهنالك . . وضعنا المصحفين الكريمين حول رأسها . عن يمين وشمال ، ورحنا ننتظر .

* * *

وفجأة ، ومن خلال الدموع ، وجدتها تتداعى أمام عينى . . صوراً لا حصر لها :

● صورتها وهى تسقط فريسة لمرض خطير أرهق طبيبها الأستاذ الشاب الذى تدين له قلوبنا بالعرفان بأنه كان يخوض المعركة ضد ذلك المرض الخطير بكل ما فى أعماقه من شرف الإنسان ، وأمانة العالم ، وبسالة الطبيب ، حتى تمت له محاصرته والانتصار عليه . لكن إرادة الله فى النهاية ، كانت فوق إرادته . . فوق علمه ، وبسالته . وأمانته . . . فوق إرادتنا جميعاً .

● صورتها وهى تقاوم المرض الذى هاجمها ، فى عنف وقسوة ، بشجاعة باهرة لم يكن أحد يعرفها ، إلا ويعرف أن هذه الشجاعة الباهرة كانت واحدة من أبرز خصائصها .

● صورتها وهى تمد ذراعيها فى صبر ورضى شديدين — وعلى مدى أشهر سبعة بلغت من القسوة ذروتها — لتأخذ حقنتين كل ثلاث ساعات ، حتى جفت أوردتها تماماً ، وحتى أصبح العثور على وريد صالح لاستقبال جرعة الدواء المقررة معضلة تحتاج من معالجيها إلى حذق شديد ، وتحتاج منها إلى صبر أشد . كان الطبيب الجراح ذو القلب الكبير الذى أربى على الستين — يخشى عليها من أن يصيبها انهيار عصبى نتيجة لتقارب مواعيد حقن المضادات الحيوية : حقنتان كل ثلاث ساعات ، طوال الأربع والعشرين ساعة . فلم تكن تكاد تنام ، حتى تعود فتصحو . . .ولا مفر .

وكان الطبيب الباطنى — فى الوقت نفسه — يخشى إن هو باعد بين مواعيد الحقن بحيث يسمح لها بأن تنام ، كما كان يطالب بذلك الجراح ذو القلب الكبير ، أن يتمكن ذلك الميكروب اللئيم الذى غزا دماءها

من أن يحدث بأجهزة جسمها الداخلية : قلبها . . ورئتيها . . وكبدها ، ما أحدثه خارج جسمها . . فيصيب هذه الأجهزة "بخراريج" كتلك التي أصابها بها من الخارج ، والتي كانت آلامها منها تبكي الجراح نفسه !

وبين هاتين الخشيتين : خشية الطبيب الجراح . . . وخشية الطبيب الباطني . . كانت هي تبدى من شجاعة الاحتمال ما كان مثار دهشة أطبائها وإعجابهم .

كان أطباؤها يرونها صغيرة بالنسبة لقوة الاحتمال التي كانت تبديها .. كانوا ينظرون إليها نظرة هي مزيج من الدهشة . والإعجاب . والألم . . . بعضهم كان يخرج من عندها وقد اعتصرت آلامها قلبه . . . وبعضهم كان يخرج من عندها مشدوهاً بشجاعتها وقوة احتمالها . . والجميع كانوا يجهلون سرها .

* * *

كان سرها في صلابتها . . . وكانت صلابتها هذه — في ناحية من النواحي — بعضاً من تركيبها . . وكانت — في ناحية أخرى — انعكاساً لإيمانها العميق بالله. وربما لم يكن أحد من أطبائها بمستعد اً لأن يصدق أن هذه المريضة الصغيرة جد اً .. والقوية جد اً في الوقت نفسه . . كانت مؤمنة بالله إيماناً لا يحده حد .. . وأنها حينما كانت لا تزال طالبة في الصف الأول الثانوي ، كانت حريصة حرصاً خاص اً على أن تفتتح كراساتها المدرسية بآيات من القرآن الكريم لا يختارها لها أحد . . . وإنما كانت تختارها بنفسها لنفسها . . وبوحي من إيمانها الخالص بالله . وكتابه ، ورسوله .

● فهذه كراسة تفتتحها بالآية الكريمة : « وإذا سألك عبادي

عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعان » .

● وهذه كراسة ثانية تفتتحها بالآية الكريمة : « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا ، هو مولانا ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » .

● وهذه كراسة ثالثة تفتتحها بالآية الكريمة : « فإن مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسراً ، فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب» .

وهكذا فى جميع كراساتها . . . .

كل ذلك . . . وهى لم تتجاوز ، بعد، الرابعة عشرة من عمرها . . سن اللهو ، واللعب ، والعبث . . . وأكاد أقول سن الجهل بالله ، وبكتاب الله ، وبتوجيهات الله .

كل ذلك . . . وهى تتلقى تعليمها فى مدرسة فرنسية ، وعلى أيدى راهبات فرنسيات كانت تحبهن، وتحمل لهن إعجاباً كبيراً ... إلا أنها، مع ذلك، لم تكن مستعدة، للحظة واحدة ، لأن تتنازل عن شىء واحد من معتقداتها الخاصة فى سبيل هذا الحب ، وذلك الإعجاب .

فلقد حدث مرة أن كانت واحدة من هؤلاء الراهبات تحدثها وزميلاتها فى المدرسة عن الفظائع التى ارتكبها النازيون ضد الفرنسيين أثناء احتلالهم لفرنسا فى الحرب العالمية الثانية . . . وأسهبت الراهبة الفرنسية ـ مدفوعة بمشاعرها الخاصة نحو ما حدث لوطنها ، ولمواطنيها على أيدى النازية الغاشمة ـ أسهبت فى تبيان صور هذه الفظائع . . وفى تعديد ألوانها . حتى إذا انتهت من كلامها ، رفعت الطالبة الصغيرة بعمرها ، الكبيرة بمواهبها ـ رفعت يدها طالبة الكلمة ، فلما أذنت لها الراهبة الفرنسية بها . . فاجأتها قائلة :

● أريد أن أسأل : هل ترين
ثمة فرق بين هذه الفظائع التى حدثتنا

عنها الآن ، والتى ارتكبها النازيون
ضدكم فى أثناء احتلالهم بلادكم ،
وبين ما ترتكبونه أنتم اليوم من فظائع ضد
الوطنيين فى الجزائر — أليست هى بعينها
نفس الفظائع ، إن لم تكن أبشع ؟ ؟

وفوجئت الراهبة الفرنسية بالسؤال . . . . وفوجئت أكثر بنوعيته . . وأفقدتها المفاجأة قدرتها على التصرف بالمرونة الواجبة فى موقف كهذا الموقف . . فطلبت إليها مغادرة الفصل فوراً !

ورفضت " نادية" أن تنفذ الأمر . . وأشهرت فى وجه الراهبة الفرنسية سلاحها الصلب الذى اعتادت أن تشهره فى مثل هذه المواقف — أشهرت فى وجهها سلاح « العناد» الذى لا يلين . . وصممت ، من ناحيتها ، ألا تغادر الفصل ، لأنها ترى أنه لم يصدر عنها ما يسوغ طردها منه .

وكانت أزمة صاخبة . . تدخلت فيها مديرة المدرسة — وهى راهبة عجوز .. كبيرة القلب والعقل معاً — وكانت تعجب بفتاتنا كطالبة لامعة ، وتحمل لها تقديراً خاصاً . واستطاعت مديرة المدرسة أن تنجح فى إقناعها بمصاحبتها إلى مكتبها لتبقى به قليلا ريثما تهدأ العاصفة . . وخلال ذلك ، حاولت « الراهبة الأم » أن تقنع " نادية "بالاعتذار لمدرستها عن إحراجها أمام زميلاتها الطالبات . . إلا أن ذلك كان مطلباً مستحيل التحقيق بالنسبة لإنسانة ما تعودت أن تعتذر إلا عندما تكون على يقين من أنها أخطأت . ولما كانت موقنة من أنها لم تخطئ ، فقد صممت على عدم الاعتذار . . وفضلت أن تغادر المدرسة كلها عائدة إلى البيت لتطرح

علينا ، بلا أية زيادة أو نقصان ، كل ما حدث منها . . وكل ما حدث لها .

ورأيت أنه من واجبى . . كمصرى وكأب — أن أبلغ وزير التربية والتعليم — وكان وقتئذ المربى الجليل أحمد نجيب هاشم — بالمسألة كما وقعت . فأوفد من فوره مندوباً إلى المدرسة ، حيث قام هناك بتحقيق انتهى باعتذار الراهبة الفرنسية للطالبة الصغيرة الكبيرة ، وليس العكس كما كان مطلوباً . ودخلت " نادية " فصلها مرفوعة الرأس . تسبقها كرامتها التى كانت تعتز بها إلى حد التطرف الذى كان يجر عليها الكثير من المتاعب .

● وتتوارى هذه الصورة . . صورة الطالبة الصغيرة ، الكبيرة ، التى تحمل بين جنبيها شعوراً وطنيًّا فياضاً يعلن عن نفسه فى شجاعة ، ويصمم على ما اقتنعت به فى حزم . . . ولا يكترث ، فى قليل أو كثير . بمن يرضى ومن يغضب — تتوارى هذه الصورة من أمام عينى لتحل محلها صورة أخرى . . . صورة الإنسانة المرهفة الحس إلى حد لا يكاد يصدق . . . إلى حد أجمع معه أطباؤها على أن حساسيتها المفرطة هذه هى التى أورثتها مجموعة الأمراض التى تجمعت عليها . . وأنها هى — أعنى حساسيتها المفرطة — كانت السبب المباشر فى وقوعها فريسة سهلة لذلك المرض الخطير الذى استطاعت أن تنجو منه ، ولكنها لم تستطع أن تنجو من الآثار النفسية الذى خلفها فى أعماقها . وإلى حد كبير كان ذلك صحيحاً ، فقد كانت مرهفة الحس إلى حد كان يرهقنا نحن أكثر مما كان يرهقها . . . كانت مرهفة الحس إلى حد

كان يجعلها تحتضن آلام الآخرين وتتبناها ، وتعيشها . فى دفتر مذكراتها الخاصة الذى عثرنا عليه بعد أن كانت قد بارحت حياتنا هذه إلى الحياة الأخرى التى وصفتها – وهى ما تزال فى الرابعة عشرة من عمرها – بأنها: « الحياة الأفضل . . والأكثر شفافية ونقاء » . وبتاريخ الخميس ٧ فبراير سنة ١٩٦٤ – كتبت " نادية " تقول :

● « بكيت اليوم فى الفصل كثيراً . وكنت أحس ، طوال الوقت ، أن يداً من حديد تقبض على قلبى فتعتصره عصراً . فقد علمت أن " كورين " – صديقة السنوات التسع فى المدرسة – سوف تتركنا إلى إيطاليا . إننى حزينة جداً لفراقها ؛ فليس من السهل علىّ أن أجد صديقة فى نقائها . لكننى ، فى نفس الوقت ، فرحة من أجلها . فإن مصر لم تعد مكانها الطبيعى . وكانت " كورين " ، فى الأيام الأخيرة ، عصبية جداً ، ومضطربة ، وحائرة . . وأعتقد أنها كانت على حق . على كل حال ، فبرغم حزنى الشديد لفراقها . . أشكر الله كثيراً الذى هيأ لها كل الأمور لكى تستقر ، وتهدأ ، وتعثر ، أخيراً ،

على سعادتها المفقودة . إننى أتمنى لها
حياة هنيئة بين أهلها فى إيطاليا .
أما أنا ، فأشعر بأننى فقدت صديقة
لن أعوضها ، وسأظل دائماً أفتقدها .
ولكن ، هذه هى سنة الحياة » .

* * *

. . . وفى الوقت الذى تسجل فيه " نادية " شعورها « بأن يداً من حديد تقبض على قلبها فتعتصره عصراً حزناً على فراق صديقة السنوات التسع فى المدرسة » — نلتقى بها فى صفحة أخرى من مذكراتها ، وهى تكاد تترنح سعادة ، لأنها نجحت فى أن تدخل السعادة على قلب إنسان آخر . . . فتقول فى مذكرة يوم الاثنين ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٦٤ :

● « أنا سعيدة اليوم . . سعيدة جداً . . إذ نجحت فى أن أجعل إنساناً آخر يشعر بالسعادة . لقد قال لى : شكراً جزيلا ، ثم ابتسم ابتسامة ملأت وجهه كله.. وبدالى كأنه لم يكن يتوقع منى الثناء على قصيدته التى كان قد أعطانى إياها لكى أبدى رأيى فيها . وفى خلال الحديث قال لى إنه نظم قصيدة جديدة . وقد شجعته على أن يبعث بإنتاجه إلى الصحف اللبنانية .

لقد أطاعنى كما لو كان طفلى .
وكما لو كنت أنا مسئولة عنه ،
ولقد ملأنى هذا الشعور بالفخر . .
فكم هو رائع أن تشعر المرأة بأن
رجلا يحتاج إليها . . إلى عقلها . .
احتياجاً حقيقياً . لقد قررت أن
أواصل تشجيعى له . . . إننى يجب
أن أدفعه لكى يقهر تردده : ويتغلب
على عدم ثقته بنفسه . . وهو شىء
يكاد يقتله ، ويقتل معه مواهبه » .

* * *

وهكذا نرى أن الحساسية . . . الحساسية بغير حدود كانت داء "نادية" ودواءها معاً . فى الوقت الذى نراها فيه تكاد تذوب حزناً لأن صديقة تحبها سوف تفارقها . . نراها فى موضع آخر تكاد تطير سعادة لأنها نجحت فى أن تسعد إنساناً آخر . . ولأنها استطاعت أن تجعل « الابتسامة » تقفز إلى وجه ذلك الإنسان فتملؤه .

ولقد ذكرنى صديق عزيز بواقعة حدثت له معها ؛ كنت قد نسيتها . . وتذكرها هو حينما أعطيته أصول هذا الكتاب ليقرأها قبل أن أدفع بها إلى المطبعة .

فى صيف سنة ١٩٦٢ كانت "نادية" عائدة معه بصحبة أسرته من بورسعيد ، ومعها « شغالتنا » الصغيرة . . وفى الطريق من بورسعيد إلى القاهرة، توقفت الأسرة عند أحد المطاعم المنتشرة على ذلك الطريق لتناول الغداء . . وهبطت "نادية" معهم . ولكن الصديق نسى

« الشغالة » الصغيرة فلم يدعها مثلما دعا الجميع لتناول الغداء . . ثم نسى أن يرسل إليها ، حيث بقيت فى مكانها من السيارة ، شيئاً تأكله .

فماذا كان رد الفعل عند فتاتنا التى اعتادت أن تعيش أحزان الآخرين وأفراحهم ، وكأنها أحزانها الخاصة وأفراحها ؟

لقد اعتذرت عن تناول الطعام ، على الرغم من أنها لم تكن قد أفطرت . . . وعندما عاد الجميع إلى السيارة لمتابعة رحلتهم إلى القاهرة لاحظ الصديق أن " نادية " قد صامت عن المشاركة فى أى كلام !

ولما أن وصل الجميع إلى بيتنا ، غادرت « نادية » السيارة دون أن تسلّم أو تشكر ، الشىء الذى جعل صديقنا يشعر بأن شيئاً ما قد حدث جعلها تتصرف على هذا النحو الذى لا يتفق وما يعرفه عنها . . لكنه لا يعرف ماهو هذا الشىء؟

وصارحنى الصديق العزيز بما وقع من " نادية " وسألنى : « هل عرفت لماذا حدث هذا ؟ » . لكن " نادية " لم تكن قد أفضت إلىّ بشىء من كل ما حكاه لى صديقنا ، فاستمهلته حتى أسألها . . ثم أجيبه عن سؤاله .

وسألتها . . . . وكعادتها من الصراحة والصدق ، لم تنكر شيئاً مما وقع ــ قالت لى :

نعم لقد رفضت أن أتناول طعام الغداء . . . ورفضت بعد أن عدنا إلى السيارة أن أشارك فى أى كلام . . . ورفضت حين وصلنا إلى المنزل أن أسلم أو أشكر . كل هذا حدث . ولكن ، لم يكن فى مقدورى أن أفعل شيئاً غير ما فعلت .

ــ ولكن . . لماذا هذا كله ؟

ــ بصراحة . . لأنه لم يدع « الشغالة » لتناول الغداء . . ولم

يرسل لها فى السيارة شيئاً تأكله . . وقد فكرت للحظة أن أرسل إليها مع الجرسون على حسابى الخاص شيئاً تأكله . لكننى عدت فعدلت عن هذه الفكرة ، لأننى خشيت أن ترى فيها جرحاً لمشاعر صديقك . . وفكرت . للحظة أخرى ، أن أنبهه إلى وجود « الشغالة » فى السيارة . وإلى أنها مثلنا تماماً . لم تتناول طعام الإفطار . لكننى خشيت أن أحرجه مع نفسه . فعدلت عن هذه الفكرة أيضاً . . ولم يكن أمامى . لكى أرضى نفسى . إلا أن أشارك « الشغالة » الصغيرة جوعها .

قلت متسائلا :

— والصيام عن الكلام ؟

قالت :

— كان نتيجة طبيعية لما حدث . لقد غامت نفسى . وأنا لا أقدر عندما تغيم نفسى أن أكلم أحداً ، ولا أن أرد الكلام على أحد .

ونقلت إلى صديقنا الصورة كما صارحتنى بها " نادية " . . فلم يسعه إلا أن يعتذر ، وهو يضيف :

— ولكن هذه حساسية قاتلة !!

قلت :

— أنا معك فى هذا . . . ولكن . هكذا خلقت . . . ولاحيلة لنا معها . كما لا حيلة لها مع نفسها .

* * *

وإن نسيت ، فلن أنسى صورتها يوم حملت إلينا صحف الصباح ذات يوم . ذلك النبأ المشئوم بسقوط الطائرة التى كانت تحمل فريق السلاح المصرى فى المحيط ، وهى فى طريقها إلى أمريكا . لقد كنا ساعتها جالسين على شاطىء البحر فى الإسكندرية . . . وكأى فتاة فى مثل عمرها ، كانت " نادية " . فى تلك اللحظة ، تعيش قمة سعادتها

ومرحها . . إلى أن شد النبأ الأليم انتباهها إليه ، فإذا هي تفقد كل سعادتها ، وكل مرحها دفعة واحدة . . . ثم انخرطت في بكاء مرير استغرقها ساعات طويلة ، وكأن كل واحد من أولئك الأبطال الذين ابتلعهم المحيط كان شقيقها أو قريبها . . . على الرغم من أنها لم تكن تعرف منهم أحداً . . ولم تكن قد قابلت منهم أحداً !

وعبثاً ذهبت كل محاولاتنا للتخفيف عنها . . فقضت يومها كله مستسلمة لحزن طاغ منعها من كل طعام ، وكل شراب . لقد استطاعت من خلال وعيها المبكر ، أن ترى الكارثة التي أصابتنا بفقد أولئك الأبطال في حجمها الحقيقي ، وهي أنها « كارثة وطنية » ، ليس من السهل تعويضها . لقد حدث لها هذا في الوقت الذي مر فيه آلاف من الفتيات ، ممن هن في مثل عمرها ، بذلك النبأ الأليم دون أن يتوقفن عنده . . أو لعلهن قد توقفن عنده لحظات لم تكن كافية لأن تذهب بشيء من سعادتهن ، ولا من مرحهن . !

* * *

وما حدث لها بسبب سقوط طائرة فريق السلاح في قاع المحيط ، تكرر حدوثه لها . . . وبالصورة نفسها . . . يوم لقي السباح العربي « محمد زيتون » مصرعه في حادث سيارة حينما كان في طريقه إلى الإسماعيلية للاشتراك في سباق قناة السويس الدولي . لقد حزنت " نادية " الحزن نفسه ، وبكت البكاء نفسه . . . وكنا نحن الذين نعرف أثر مثل هذه الأحزان الكبيرة والمفاجئة على صحتها ، نشفق عليها منها كل الإشفاق . لكننا لم نكن نملك ، إزاء طبيعتها التي نعرفها ، إلا أن نتركها لأحزانها حتى تستطيع هي أن تنتزع منها نفسها بنفسها .

* * *

سألتنى فى أثناء حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وبعد أن سمعت المذيع يقول : « إن قواتنا تحارب ، الآن ، على خط الدفاع الثانى » :

— ماذا يعنى المذيع « بخط الدفاع الثانى » ؟

قلت :

— يعنى العريش . . .

قالت :

— معنى هذا أن سيناء كلها سقطت .

قلت ، والمرارة فى حلقى . . وعلى لسانى :

— نعم . . . هذا هو معنى الخبر .

وما هى إلا لحظة حتى قد كانت انفجرت فى بكاء هستيرى لم نستطع أن نخفف منه ، ولا أن نتغلب عليه ، إلا بإعطائها منوماً أنامها حتى صباح اليوم التالى :

ولذلك . . . فإنه لما استشهد الفريق عبد المنعم رياض فى فبراير سنة ١٩٦٩ ، وكانت ما تزال فى سرير المرض بالمستشفى ، كان همنا كله منصرفاً إلى منع الصحف عنها . . . وإلى التنبيه على ممرضيها وزائريها بأن لا يأتى أحد منهم على ذكر هذا النبأ أمامها . . . وقد ظلت على غير علم به حتى غادرت المستشفى إلى البيت . . . فقد كنا ندرك — من خلال معرفتنا بها ، وبحسيتها التى عذبتها وعذبتنا — أن معرفتها بهذا النبأ ، وهى ما تزال راقدة فى سرير المرض . كان كان يمكن أن يتحول إلى ضربة قاضية كفيلة بأن تجهز عليها .

* * *

لقد كان عقلها الذى رأيناه يسابق عمرها ، ويتجاوزه ، ويتفوق عليه ، يضعها فى دائرة واسعة من الاهتمام بالإنسان ، وبقضاياه .

وبانتصاراته . ولم يكن اهتمامها هذا محدوداً بوطنها ، ولا بالإنسان فى ذلك الوطن . . . بل كان اهتماماً إنسانياً واسعاً يتسع للإنسان من كل جنس ، ودين ، ولغة .

ولعل مجموعة من « الصور الفوتوغرافية » وجدناها تحتفظ بها بين أوراقها الخاصة ، تكون مؤشراً واضحاً لاهتماماتها ، ولطبيعة هذه الاهتمامات ، وتنوعها .

فلمن كانت هذه الصور التى كانت « فتاتنا » تحتفظ بها بين أوراقها ؟

● لقد كانت هناك صورة « لجاجارين » أول رجل ارتاد الفضاء فى محاولة من جانب الإنسان للانتصار على الطبيعة ، والوصول إلى القمر .

● وثانية « لفالنتينا » أول امرأة ارتادت الفضاء مؤكدة بعملها هذا مساواة شجاعة المرأة بشجاعة الرجل .

● وثالثة « لمارتن لوثر كينج » الزعيم الزنجى المناضل عن زنوج أمريكا . . . وعن حقوقهم المشروعة فى الحياة ، والكرامة الإنسانية .

● ورابعة للشابة الجزائرية المناضلة« جميلة بو حريد » التى لقيت من ألوان التعذيب على أيدى سلطات الاحتلال الفرنسى لبلد المليون شهيد ، ما جعل منها مثلا رائعاً لكل الذين يحبون أوطانهم ، ولا يطيقون رؤيتها راسفة فى قيود الاستغلال والقهر .

● وخامسة للزعيم الجزائرى « أحمد بن بيلا » الذى قاد شعبه فى ثورة من أعظم ثورات الشعوب من أجل الحق ، والكرامة ، والحرية .

● وسادسة لأول راهب بوذى حرق نفسه احتجاجاً على حرب « فيتنام » التى أشعلتها أمريكا لكى لا تجنى من ورائها إلا أكثر الثمرات مرارة .

٤٨

إنها — كما ترى — مجموعة من الصور ليس بينها تنافر ؛ ولا تناقض، ولا تباعد . . . فجميعها للإنسان ، وعن الإنسان . . . وجميعها تمثله فى أحسن صورة ؛ وأدقها تعبيراً عنه كقوة هائلة قادرة على قهر الصعاب ومغالبة التحديات التى قد تقف عقبة فى طريق مكاسبه وانتصاراته سواء كانت هذه التحديات من صنع الطبيعة ، أو من صنع الطغاة من البشر !

* * *

وكما كانت " نادية " قادرة ، بحساسيتها هذه ، على أن ترتفع بمشاعرها فوق عصبيات الدين ، والجنس ، واللغة . كذلك كانت قادرة ، بنفس هذه الحساسية ، على أن تسقط من حسابها عنصرى الزمان والمكان ، لتعيش آلام أناس لم ترهم ، ولم تعرفهم . . أناس عاشوا قبل أن تولد هى بعشرات السنين ، ومضوا عن الدنيا دون أن يجمع بينها وبينهم لقاء . ودون أن تنشأ بينها وبينهم صلة إلا صلة الإنسان بالإنسان .

فى هذه المذكرات نفسها — وجدناها تخصص ثلاث صفحات كاملة ، سجلت فيها مشاعرها الخاصة نحو مأساة الرسام الهولندى " فان جوخ " ما لقيه فى حياته من عذاب ، وجحود ، ونكران .

لقد مات " فان جوخ " قبل أن تولد " نادية " بنصف قرن ويزيد ، ومع ذلك ، كانت — فى ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ — ما تزال تحيا مع " فان جوخ " . . . تعيش عذابه . . وتتوجع من أجله . . وتتوعد الذين جحدوه ، وكانوا سبباً فى شقائه . . بأشد عقاب ! !

فتحت هذا التاريخ : ١٦ فبراير سنة ١٩٦٤ — كتبت " نادية " فى مذكراتها تقول :

« صهرتنى مأساة " فان جوخ " . .
بل أدمتنى ، وزادتنى خوفاً من المجهول .
ولست أريد بتلك الكلمات أن أتحول
إلى جوهر ذاتى . ولكن ، وددت فقط
أن أسجل أنى شعرت أنى جد قريبة
من هذا الرجل الفنان . . . لا يفصلنى
عنه سوى خيط واه . . . أجل ،

فإنى أشعر أن ما يفصل بيننا هو ذلك الخيط الرفيع الذى يفصل بين الوجود والعدم .

« ولست أبالغ إن أنا قلت إنى شعرت بروحي تهفو إلى روحه . وتتجه إلى قبره ؛ وتحاول ، قدر استطاعتها ، تخفيف آلامه . . بل شقائه . ذلك الذى لم توجد بعد الكلمة التى تدلنا على مقدار عذابه ، وآلامه ، وجوعه ، وتعاسته ، وفقره ؛ وحرمانه ، وضياعه ، وبؤسه ، ومرارته ! !

« نعم . . أين هى الكلمة التى تجمع ، وتصهر ، كل هذه المعانى فى كلمة واحدة ؟ ؟

« لقد أحسست بالضياع ، وبالشقاء ، وأنا أقرأ . . . بل وأنا أحيا حياة "فان جوخ" — لقد مس قلبى فى قصة ذلك الفنان التعس المسكين ، العطف المتبادل بين الشقيقين "جوخ" و"ثيو" . . . لقد أكبرت كلا الأخوين.

« إنى لعمرى ما تجاوبت مع شىء قرأته ، قدر تجاوبى مع هذه الصفحة من حياة تقطر أسى ومرارة . . . لقد أحسست بالكره الشديد . . بل بالمقت

" لجوجان" . . فقد أحسست ، وأدركت أن هذا الملعون هو السبب فى أول نوبة أصابت " فان جوخ" . . . ثم إن هذا " الجوجان" ، الذى اشتهر بحب تعذيبه لأصدقائه ، هو الذى زاد الطين بلة ، فى الوقت الذى تعلق به " فان جوخ" لينتشله من مرارة الإخفاق التى كان يحسها ، ويتذوقها ، ويتخذها غذاء يعيش عليه .

« لقد كنت أشعر بالرعدة تسرى فى أوصالى ، وبالخوف يزلزل كيانى ، مع كل نوبة كانت تصيبه . وتمنيت لو أنى كنت بجانبه ، فلربما كنت أستطيع أن أفعل له شيئاً .

« لقد أثر فى نفسى كثيراً أن هذا الفنان لم يقدّر إلا بعد أن طواه الموت . من منا يتخيل أن هذا الفنان العظيم لم تبع له فى حياته سوى لوحة واحدة ؟ من منا يصدق أن هذا الفنان العظيم لم يأخذ فى حياته . . ولم يتكسب من وراء لوحاته . . سوى عشرين جنيهاً فقط . . ؟ !

« كل ما أستطيع أن أقوله إن الناس الذين كانوا يحيطون به ، قد عدموا

الإحساس الفني . . . أي الإنساني .

« وددت لو دمرت كل من أسهم في تدمير " فان جوخ " . . وددت لو ذبحت " جوجان " بالموسى كما لم يستطع " فان جوخ " أن يفعل . . . ولو فعل ، لكان الحق في جانبه .

« لقد شعرت بالخوف : وبالرهبة ، تهددني . فالمخاوف . . والهتافات التي كانت تناديه ، تناديني أنا أيضاً . إنني أسمعها سمعاً حقيقياً لا خيالا . وأشعر بالخوف من المجهول الذي تربص له يؤرق مضجعي . .

« لا أستطيع أن أقول إلا أن هناك روابط قوية تربطني بهذا الإنسان

وهناك سؤال تساءله " فان جوخ " كثيراً .. هو نفس السؤال الذي تساءلته أنا نفسي مراراً كثيرة . . وهو : لماذا حكم على الفنانين بالتمرغ في أحضان الجوع والألم ؟ لكن الجواب وضح من خلال حياة " فان جوخ " نفسه . وهو أن الألم النابع من أعماق الفنان ذاته . . أو الذي ينعكس عليه من أعماق الآخرين ، هو الذي يزيد من رقة إحساسه . . . ومتى استطاعت الحساسية

أن تعبر عن نفسها بطاقات خلاقة
كان الخلود .. فالنفس التى تتألم هى النفس
التى تحس ، ومن ثم . . فهى النفس
التى تخلق فناً يبهر » .

* * *

كلمات — للحق وحده — محلقة ، وجميلة ، وغريبة . . .
وأغرب منها ، صدورها عن إنسانة فى مثل عمرها . لم تكن ، وقت
أن أحستها ، وكتبتها ، قد أنهت دراستها الثانوية . . وبالتالى لم تكن
قد أكملت ، بعد ، السابعة عشرة من عمرها . . .

ولكن . . عندما نتوقف قليلا لنتأمل قولها : « النفس التى تتألم
هى النفس التى تحس . . ومن ثم ، فهى النفس التى تخلق فناً يبهر »
عندما نتوقف قليلا لنتأمل هذه الكلمات ، لا نجد ثمة وجهاً للغرابة .
فلقد كانت " نادية " — على وجه اليقين — تحمل نفساً تحس ، وتتألم ،
وتعيش الألم حتى ذروته . . . كانت تحمل نفساً كالمرآة المصقولة ينعكس
عليها كل شيء ، حتى الألم ، بشكله الحقيقى ، وبحجمه الحقيقى .
لا تزيفه ، ولا تحذف منه ، ولا تضيف إليه . ومن ثم ، فليس غريباً
مطلقاً أن نجدها ، وهى ما تزال فى هذه المرحلة الباكرة من العمر ،
قادرة على التعبير عن مشاعرها بمثل هذه الكلمات الجميلة المحلقة . .

وربما يقال إن ذلك الجمال الفنى البادى فى تلك الكلمات التى
عبرت بها " نادية عن مشاعرها نحو " فان جوخ " ومأساة حياته ،
كان وليد لحظة انفعال شديد بمأساة الرجل الفنان . . . وربما يقال أيضاً
إن هذا الجمال الفنى البادى فى قدرتها على التعبير عن نفسها ، إنما
يرجع — بالدرجة الأولى — إلى أنها كانت تملك نفساً تتألم ، وتحس ،

وقادرة — لأنها تتألم وتحس — على أن تخلق فناً يبهر .

وليس من شك أن فى كلا القولين بعض الحقيقة . . . أما الحقيقة كاملة ، فهى أنها — إلى جانب حسها المرهف إلى حد لا يوصف . . . وإلى جانب نفسها التى كانت تتألم ، وتحس ، وتقدر ، بالتالى ، على أن تخلق فناً يبهر — إلى جانب هذين العنصرين اللذين أعدهما أساسين فى تكوين الإنسان الفنان — كانت تملك موهبة أدبية مبشرة . .وكانت موهبتها هذه أكبر من عقلها . . . وكان عقلها ، بدوره ، أكبر بكثير من عمرها .

فبعيداً عن الانفعال بأية مأساة فادحة أو هينة . . . وبعيداً عن العيش فى أى ألم سطحى أو عميق . . . نجدها — وهى ما تزال فى المرحلة الإعدادية — تنتهز فرصة "عيد الأم" لتقدم لأمها ، بهذه المناسبة ، هدية صغيرة . . هدية تتناسب وقدرتها الخاصة على تقديم الهدايا : بطاقة جميلة .. زينتها من عندها بهذه العبارات التى إن أكدت — فوق رهافة حسها — شيئاً ، فإنما تؤكد أصالة موهبتها . . واستعدادها الكبير فيما لو أمهلها القدر ، لأن تصبح فى « دنيا الأدب» شجرة يانعة . . . شجرة وارفة الظلال . . موفورة الزهر . . موفورة الثمر .

ولنقرأ معاً هذا الذى انتهزت " نادية" فرصة "عيد الأم" لتكتبه لأمها :

● « أمى الحبيبة . . .

«أنتهز هذه الفرصة السعيدة التى
تتناجى خلالها قلوب الأمهات مع
قلوب الأبناء بأنغام حالمة تنبعث عن
قيثارة حنون . . من القلب . . قلبك

الكبير المفعم بالحب ، وما أعظم حبك المفعم بالآمال ــ وما أكثرها ــ لفلذاتك من أجل مستقبل مشرق يشع نوراً ، وسعادة ، وأملا ، وإيماناً . . . إيماناً بالله سبحانه . . وبالوطن .

« أمى الحبيبة

« ماذا ترانى مستطيعة أن أقول ؟
ماذا ترانى مستطيعة أن أقول لك . . .
ولقلبك الكبير الذى يعطى ، ويعطى . .
من دون أن يطلب ، ولن يطلب .
أأقول إننى أحبك . . .؟ إن حبى لك ،
مهما كبر ، لن يوفيك حقك . ؟ ؟
أأقول إن كل خلجة فى تسبّح باسمك . .
وتنبض بحبك ، وبحمدك . . .؟ إن هذا أيضاً لا يكفى .

« إننى فى حيرة . . . هل هربت الكلمات منى ؟ ؟ لا . . لم تهرب الكلمات منى ، وإنما الذى هرب هو قدرتها على التعبير عما تستحقينه أنت بالذات . . وتستحقه معك كل أم . وإذن . . . وما دمت عاجزة ــ عن طريق الكلمات ــ عن أن أقول لك ما أريد أن أقوله . . .
...فلنكتفى بأن أجدد العهد .. وبأن

يتناجى قلبانا على أنغام مقدسة من
قيثارة الله » .
" نادية"

تلك كانت موهبتها ، وأمنيتها : أن تعبر — بجمال — عن كل ما هو جميل . . . عن الخير ، والحب ، والشوق ، واللهفة ، والألم . . وذلك كله ، فى النهاية . هو « الأدب » . . الأدب الذى كانت " نادية" تعشقه ، وتهواه : وتتمنى أن تصبح فيه شيئاً ملحوظ القدر . ملحوظ المكانة — فتكتب . فى مذكراتها الخاصة ، معبرة عن هذه الأمنية التى تراودها :

● « إن قلبى يفيض بالسعادة ، لأن القدر قد حبانى بأبوين أتاحا لى فرصة التعليم فى مدرسة من مدارس اللغات . كما كان لاهتمام والدى بالأدب ، دور خاص فى امتلاء مكتبة بيتنا بالكتب الثمينة ، والغنية بالمعرفة فى شتى مجالات الأدب ، والعلوم ، والفنون . وبذلك فقد توافرت لى إمكانيات التفوق فى اللغات الأجنبية ، والثقافة العالية . وهما ، فى رأيى ، الدعامتان الحقيقيتان اللتان أستطيع بهما أن أثبت مكانتى فى عالم الأدب . فأصبح شاعرة ذائعة

٥٧

الصيت . . أو قصصية راسخة القدم . .
وذلك شيء ليس بالمستبعد تحقيقه .
فإنى أشعر بأن الله قد منحنى ، فعلا ،
موهبة الكتابة . . . وإنى لأحس بها
تملأ علىّ نفسى كلها . . وكيانى كله ».

لم تكن " نادية" تقف من موهبتها التى شعرت بأنها تملأ عليها نفسها كلها ؛ وكيانها كله — موقف المتفرج . . موقف من يبذر فى الأرض بذوراً ثم يقعد بجوارها ساكناً ساكتاً ، فى انتظار أن يأتيه الحصاد بلا جهد . ولا تعب ، ولا عرق .

لم تكن " نادية" تقف من موهبتها هذا الموقف السلبى . وإنما كانت تنميها ؛ وتتعهدها ، وترعاها . كانت تنميها بالقراءة الجادة لأعلام الأدب الفرنسي الذى كانت تتعلمه ، وتعشقه ، وتحبه . . وكان طبيعياً نتيجة لهذا الحب ، أن تحقق فيه ، كتابة، وقراءة، ودراية عميقة به وبأعلامه ، تفوقاً ملحوظاً .

ولم تكن " نادية" تكتفى بالقراءة " لراسين" . . و " فيكتور هوجو" " وفولتير" و " موليير" . . و " سارتر" . . و" مارلو" . . و " موروا" . . وإنما كانت تحتفظ لنفسها برأى خاص ومشاعر خاصة نحو كل من هؤلاء الأعلام . . . فى الوقت الذى كانت تعشق فيه " لامرتين" . . كانت ترثى "لبودلير" . . وتتأفف من أخلاقيات " فولتير" ، وتنطوى على إعجاب عميق " بألبير كامى" الذى حزنت عليه يوم لقى مصرعه فى حادث سيارة حزناً شديداً ، وكأنه صديق حميم كانت تراه كل يوم ، وتجالسه ؛ وتسر إليه بآلامها ، وآمالها . وكان أعظم ما تفذ " بألبير كامى" إلى قلبها ؛ ليس فكره المنطلق فحسب ، بمقدار ما كان تعاطفه مع ثورة الجزائر ؛ وشعب الجزائر اللذين كانت تحلهما من وجدانها المتفتح مكاناً رفيعاً ؛ هو السبب الأعظم الذى شدها إليه ، وأبكاها من أجله .

كذلك لم تكن " نادية" تكتفى بالقراءة لهؤلاء الأعلام الذين كانت تعشق أدبهم ؛ وتعشق أقلامهم ، وتعشق أكثر الذى كانوا يكتبونه .

بل كانت تناقشهم فى كل ما كانوا يكتبونه . . . وكانت كتبهم الغالية الثمن التى كانت حريصة على أن تشتريها –برغم ارتفاع ثمنها– من مصروفها الخاص . . كانت هذه الكتب حافلة بتعليقاتها الخاصة ، تملأ بها هوامشها ، اختلافاً أو اتفاقاً . . رفضاً أو قبولا ، لأفكار هؤلاء الشوامخ . وما منعها حبها لهم ، وإعجابها الشديد بما كانوا يكتبون – من أن تقول فيه رأيها الخاص بصراحة وشجاعة ، على الرغم من كونهم شوامخ تعنو لهم الجباه .

* * *

على أن الأدب الفرنسى ، والأدباء الفرنسيين ، لم يكونا المنهل العذب الوحيد الذى تنهل منه روحها المتعطشة دوماً إلى المعرفة . . . بل كان الأدب العربى ، والشعراء العرب على وجه الخصوص ، منهلها العذب الآخر الذى كانت روحها تنهل منه . ، وتتغذى عليه .

ولقد كان "لنادية" فى شعراء مصر الكبار رأى، بل آراء . . . كثيراً مادار بيننا نقاش طويل حولها. ولا أذكر أننى أفلحت كثيراً فى تغيير آرائها . . .فلقد عرفناها عنيدة بصفة عامة،وكانت أشد ماتكون عناداً فيما يتعلق بالآراء التى كونتها لنفسها . . . فلم يكن سهلا أن تنزل عنها إلا أن يكون ذلك عن اقتناع كامل . وكانت ذات نفس طويل فى المناقشة . . . ويرجع هذا ، بالدرجة الأولى ، إلى ميل طبيعى فيها . . . ثم إلى حصة « المناقشة المفتوحة » التى كانت تأخذ بها مدرستها . وإذ كان حب المناقشة ميلا طبيعياً فيها ، فقد جاء هذا المنهاج من التعليم فأنضج من هذا الميل ، وزاده تأصلا فى نفسها .

لقد كان لها فى " أحمد شوقى " رأى . . . .

وكان لها فى " حافظ إبراهيم " رأى ثان . . .

وكان لها فى " سامى البارودى " رأى ثالث . . .

● كان رأيها فى " شوقى " أنه عميق . . . ولكنه ليس « ساخناً » . وكانت تراه يتناول القضايا العامة بأسلوب من لا يريد التعمق فى الخوض فيها . وتشبهه برجل ينزل إلى البحر وهو خائف منه ، فتراه ملتصقاً دائماً بالشاطئ حتى لا يجره البحر إليه فيضيع بين أمواجه !!

– وكان رأيها فى " حافظ إبراهيم " أنه حزين أكثر مما ينبغى بل كانت تراه « قاتماً » . وكنت أقول لها : مدافعاً عن « شاعرالنيل » :

– إن الحزن صفة أصيلة فينا نحن المصريين : وإن أغانينا نفسها حزينة . وبهذا المعيار فإنه يمكن عد " حافظ إبراهيم " شاعر قومه .

وأذكر أنها خالفتنى هذا الرأى قائلة :

– إن الشاعر . . أى شاعر . . لا يغنى لقومه وحدهم ، وإنما هو يغنى للناس كلهم . . وللحياة نفسها . والحياة ليست حزناً فقط . . بل هى حزن وفرح . . دمعة وابتسامة . . هزيمة وانتصار . إن الشاعر عندى كالرسام سواء بسواء . . وكما يستطيع الرسام أن يعبر بريشته عن « الخريف » الذى يجرد الأغصان من كل ورقة خضراء فيها : فإنه يستطيع فى الوقت نفسه . . وبالريشة نفسها . . أن يعبر عن « الربيع » الذى يملأ الدنيا كلها بالزهر ، وبالعطر .

لكن " نادية " : على رأيها هذا فى « شاعر النيل » ، كانت تذوب شغفاً بقصيدته : « مصر تتحدث عن نفسها » . وإنى لأذكر أنها حدثتنى يوماً حول هذه القصيدة ، . فقالت : « إن فيها بيتين أشعر فى كل مرة يمران فيها بخاطرى أننى أريد أن أبكى ، ولست أدرى لماذا . . إنهما البيتان اللذان يقول فيهما " حافظ إبراهيم " بلسان مصر :

«أنا إن قدّر الإله مماتى لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى»
«ما رمانى رامٍ وراح سليماً من قديم رعاية الله جندى»

وقلت لها :

– ربما يكون السبب الكامن وراء شعورك هذا ، أنك تحبين بلدك حبًّا عظيماً . . .

قالت ، وقد اكتسى وجهها بإشراقة من الرضا لهذا التفسير :

– ربما . . .

* * *

أما " محمود سامى البارودى " فكان فى رأيها أكبر من أن يكون مجرد « شاعر » . . . كانت تراه بطلا وطنياً عظيما . . . وكان اعتداده بنفسه ، وبتاريخه ، وبكرامته كإنسان وجندى – برغم النفى ، والاضطهاد ، والتشريد – مثار إعجابها الشديد به كإنسان ، وبطل ، وشاعر . . .

كانت تقول : « إن البارودى ليس أشهر شعرائنا الكبار ، ولكنه – فى رأيى – أعظمهم » . . . وكانت دائمة الترنم ببيتين من قصيدته : « سرنديب » التى يصف فيها "البارودى" حاله فى المنفى . . . والتى كانت تستذكرها كواحد من النصوص الأدبية المقررة عليها فى مرحلة الثانوية العامة – وهذا البيتان هما :

« فكم بطل فلَّ الزمان ثباته وكم سيِّد دارت عليه الدوائر »
« وأىُّ حسام لم تصبه كلالةٌ وأىُّ جواد لم تخنه الحوافرُ »

* * *

ومن الشعراء العرب الآخرين ، كانت " نادية " تعشق الشاعر التونسى

" أبو القاسم الشابي " الذى رحل مثلها ، فى زهرة العمر . . . والشاعر اللبنانى بشاره الخورى « الأخطل الصغير » . وقد وجدت بين أوراقها الخاصة ، بعد وفاتها ، قصاصة من صحيفة تحمل من شعر " أبوالقاسم الشابي " هذه الأبيات التى أحسبها قد احتفظت بها بين أوراقها الخاصة : لأنها رأت فيها تعبيراً عما كان يدور فى أعماقها :

« نحن نمشي ، وحولنا هامة الأكوان تمشى ، لكن . . لأية غاية ؟ »

« نحن نشدو مع العصافير للشمس ، وهذا الربيع ينفخ نايه »

« نحن نتلو رواية الكون للموت ، ولكن . . . ماذا ختام الرواية»

« هكذا قلت للحياة فقالت : سل ضمير الوجود . . . كيف البداية ؟ »

* * *

أما بشاره الخورى « الأخطل الصغير » — فكانت تعشق فيه رقته ؛ وقدرته التى كانت تقول إنها لا حدود لها على تجسيد الصور . . . وتضرب مثلا لذلك قول «الأخطل الصغير »فى قصيدته : « الصبا . . والجمال» :

« قتل الورد نفسه حسداً منـ لك وألقى بدماه فى وجنتيك »

« والفراشة ملّت الزهر لما حدثتها الأنسام عن شفتيك »

إلا أن " نادية " كانت تخالف « الأخطل الصغير » الرأى فى مطلع هذه القصيدة نفسها ؛ إذ يقول الشاعر فيه :

« الصبا والجمال ملك يديك أى تاج أعز من تاجيك »

وكانت تبني مخالفتها للشاعر على أساس أن تاج المرأة الأعز ، إنما هو "العفة"...أما «الصبا ... والجمال»فلم يكونا ، فى رأيها ، تاجين يتضاءل

بجانبهما كل تاج آخر . فقد تكون المرأة — على حد قولها — « جميلة » أروع ما يكون الجمال . . . وقد تكون « صبية » أنضر ما يكون الصبا . . . ولكن، ليس لها إلى جانب ذلك شيء من « العفة » . . . وفى هذه الحالة لا تخرج ، فى رأيها، عن كونها « زهرة فى الوحل » ! !

* * *

لقد كانت المناقشة معها تلذ لى، على الرغم من أننا كثيراً ما اختلفنا وتباينت آراؤنا . . . لكن عقلها الذى كنت أراه يكبر ، ويكبر ، حتى ليسبق عمرها بمسافة طويلة . . . طويلة . . . كان يملؤنى سعادة به وبها . . .ولطالما خرجت من خلال مناقشاتى معها بأفكار لمقالاتى كانت —من ناحيتها — لا تخفى اعتزازها بأنها من نتاج مناقشاتها معى .

* * *

وكما كانت "نادية" ترعى موهبتها الأدبية ، وتنميها بالقراءة الجادة فى شتى ألوان الأدب ، والعلوم ، والفنون . . فإنها كانت ترعاها، وتنميها بالوجه الآخر من وجهى الرعاية والتنمية : «بالكتابة».. فعالجت « الكتابة » شعراً ، ونثراً ، وحتى القصة ، كانت لها فيها هى الأخرى محاولاتها التى يمكن اعتبارها — بغير مجاملة أو تحيز — محاولات ناجحة ، وناضجة .

وعلى الرغم من أن " نادية" كانت قد عالجت كل ألوان الكتابة : النثر . . . ، والشعر . . . والقصة . . . فإن اختيار « القالب» الأخير الذى كانت تود أن تستقر عليه ، كان لا يزال بالنسبة لها مشكلة تسبب لها حيرة شديدة . فتجدها فى مذكرة يوم الثلاثاء ١٥ سبتمبر سنة ١٩٦٤ تكتب كاشفة عن تلك الحيرة التى كانت تعانيها :

● « إنني أحس كأنني تائهة في صحراء لا أدري ماذا أفعل . . .

« فأنا أريد أن أكتب . . .

لا شيء إلا أن أكتب . . ولكن، أي شيء أكتب . .؟

«هل أكتب أشعاراً . . أم أكتب قصصاً . . أم أكتب نثراً ؟ لم أعد أعرف بالضبط ماذا أريد أن أكتب .

« في بعض الأحيان ، أشعر أنني أريد أن أكتب شعراً ، لكنني أحس أن الخيال لا يسعفني . وفي بعض الأحيان أشعر أنني أريد أن أكتب القصص ، ولكني أشعر أن المادة العميقة التي أستطيع أن أصنع منها قصة جيدة ، تنقصني . عندي الإرادة . . ولكن ، ليس عندي الخبرة . عندي الأسلوب . . ولكن ، ليس عندي المادة .

« إنني أشعر بأني أكاد أختنق، فسهل جداً أن يمشي الإنسان في طريقه ولكن الصعب ، حقاً ، هو أن يعرف الإنسان كيف يختار ذلك الطريق ! ».

* * *

ومعها . . . مع الإنسانة الحساسة ، كأنها طير على فنن . . الرقيقة كأنها جدول ماء يترقرق . . نتوقف قليلا لنقرأ لها هذه السطور التى أفضت بها إلى مذكراتها الخاصة بعد أن كانت قد فرغت لتوها من امتحان الثانوية العامة :

● « بزغ فجر يوم جديد وضاء ينضح بالبشر وبالأمل . أنسام اليوم الجديد تخطر إلى نافذتى فتعطرنى بشذاها . وكانت الطيور تملأ الجو من حولى بغنائها كأنما تزف إلىّ خبر نجاحى الذى طالما سهرت الليالى ، وسكبت الدموع لأناله . ونسيت . . نسيت حاضرى ، ورحت أتخيل الأيام الآتية .. ودخلت مع نفسى فى محاولة ارسم نقاطها :

« كانت آمالى هى التى تمسك بخيوط أفكارى ، وتحركها فى الاتجاه الذى تريده . وكان أعظم آمالى ، هو أملى فى العمل على إسعاد تلك التى أمضت الليالى الطوال ساهرة إلى جوارى تمنحنى من تشجيعها قوة لنفسى الواهنة . ومن دعواتها أملا لروحى الظامئة . إنها أمى ، وما أعظمها من أم . . كانت تحمل إلى فى الليل الطويل ما أطلب ، وما لم أطلب . كانت تقاوم تعبها الخاص

لتجدد نشاطى . . وتزيدنى رغبة فى
النهل من دروسى . كانت تحاول جاهدة
إخفاء إرهاقها وراء ابتسامة شاحبة ،
كانت تبذل جهداً خاصاً لكى ترسمها
على شفتيها اللتين كانتا تتحركان فى
ابتهال صامت إلى الله أن يبلغنى أمنياتى .
لكن عينى لم تكن غافلة عن تعبها . .
ولا عن إرهاقها . . ولا عن عظمتها .

« أما وقد حلت الإجازة الصيفية .
فإن الوقت قد آن لتعويضها . . ولو بعض
الشيء — عما بذلت من أجلى ، ومن
أجلنا جميعاً . . لقد صممت على ألا
أجعلها تلمس أى عمل ، من أى نوع ،
ما دمت أنا قادرة على إنجازه . . .
سأقوم بأعمال البيت جميعاً غير متأففة ،
ولا كارهة . . . سأقوم بعمل أى شيء .
وكل شيء ، من أجلها .. من أجل
هذه التى تكاد أعمالها تبكينى لشعورى
بالعجز عن التعبير عن امتنانى العميق
لها . ربما أستطيع أن أرد إليها القليل
من دينها العظيم على عندما أنجح
فى أن أجعلها تسمع شيئاً من الثناء على .
وعلى أخلاقى . . وعلى الفضائل التى
قضت عمرها تعلمنا إياها .

« أما النقطة الثانية فى تخطيطي لإجازتى الصيفية فهى القراءة . . ثم القراءة . . ثم القراءة . إن القراءة رفيقى الذى لم أمله ، ولن أمله . . . كانت رفيقى منذ كنت طفلة صغيرة لا تكاد تستوعب ما تقرأه . إن القراءة تستهوينى لأننى ، من خلالها ، أستطيع أن أعبر إلى الماضى . ومن خلالها أستطيع أن أزداد معرفة بعالمنا المعاصر ، ومشكلاته ، وقدراته على حل هذه المشكلات . ومن خلالها أستطيع أن أتعرف على تاريخ الرجال العظام الذين عبروا بالإنسانية فى تاريخها الطويل ، وكان لكل منهم قصة كفاح ، ونضال ، لا بد أن أفيد منها شيئاً ، بل أشياء لها قيمتها . ومن خلالها أستطيع أن أتعرف على خصائص الشعوب ، وتاريخها ، وكفاح كل منها على طريق الحضارة .

« هذا هو أهم سبب فى أسباب عشقى الذى لا حدود له للقراءة . أما السبب الآخر الذى يزيدنى تعلقاً بها ، فيتعلق بمستقبلى ، وما أتمنى أن أحققه فيه . فإن هوايتى ، بل

أمنيتي أن أصبح كاتبة . والإطلاع . . المزيد من الإطلاع . . هو الوسيلة الوحيدة لتحقيق هذه الأمنية ، ما دامت الموهبة لا تنقصني . وهي بالفعل لا تنقصني .

« ذلك ما أوحت به إلى خلجات نفسي . . وأنا أتأمل ، من خلال نافذتي ، روعة الطبيعة . . وإعجاز القادر عز وجل » .

هل من حقى أن أتوقف هنا قليلا لأسأل : كم كان عمر هذه الفتاة التى جلست مع نفسها « فى صباح يوم وضاء» لتفضى إلى مذكراتها الخاصة بهذه الكلمات الكبيرة معنى . . والكبيرة أسلوباً . . والكبيرة إحساساً ، وأملا ، ومسئولية ؟

ربما كان من حقى أن أتوقف لأسأل هذا السؤال الذى أتصور أن كثيرين غيرى سوف يسألونه . . وعلى ذلك ، فإنه يصبح من واجبى أن أجيب : لقد كانت تقف بعمرها على أبواب الثامنة عشرة ! !

ولكن . . أية أحلام هذه التى كانت تراودها وهى تقف على أبواب هذه السن الغضة ؟

● إنها ، كما ترى ، لا تحلم « بفارس الأحلام » الذى سوف يتقدم إلينا طالباً يدها ! !

● ولا تحلم « بشاطئ البحر» الذى سوف تبنى على رماله قصوراً ، ما أشد قدرة الشتاء على تهديمها ! !

● ولا تحلم « بالموضة» التى لم يتح لها انهماكها الجاد فى دراستها ، بضع ساعات ضائعة من العمر تقضيها مع خطوطها . . وجنونها !

لم تكن بنت الربيع الثامن عشر تحلم بشىء من هذا كله . . . . وإنما كانت تحلم « بأمها» . . كيف تريحها . . وكيف تسعدها . . وكيف تعوضها عن الليالى الطوال التى قضتها ساهرة بجوارها لتقدم لها — على حد تعبيرها — « ما تطلب . . وما لم تطلب» .

وراحت تحلم « بالقراءة» . . وكيف أنها سوف تلتهمها التهاماً ، وتعب من بحرها عباً . .

وراحت تحلم « بالكتابة» . . وكيف أنها سوف تتخذ من القراءة . .

المزيد من القراءة . . جسراً يوصلها إلى تحقيق أمنيتها . . إلى أن تصبح «قصصية ذائعة الصيت» . . أو «شاعرة راسخة القدم» ! !

وربما يكون من التجاوز الشديد أن نعتبر هذا كله أحلاماً . أجل . . . إنها ليست «أحلاماً» راحت تشبع بها خيالها . . وليست «منى» راحت تمنى بها نفسها . . وإنما الصحيح أنها «خطة عمل» . . «خطة عمل» كاملة ، قررت أن تلتزم بها لتُرضى ، وتَرضَى .. لتُرضى أمها ، وتُرضى ضميرها ، وتُرضى مشاعرها .. ثم لتَرضَى هى عن نفسها . وعن مستقبلها الذى راحت تخطط له الخطط ، وترسم له معالمه وحدوده.

وواضح من كل ما كانت تفكر فيه " نادية" . . وتحلم به . . وتخطط له — واضح أنها كانت تعرف تماماً : من هى . . وماذا تريد .

كانت تعرف — وبدون أية محاولة من جانبها لمخادعة نفسها — أنها موهوبة . . وملهمة . . وأن طريقها لتنمية موهبتها ، وللاستزادة من الثقافة التى كانت تريدها سلاحاً تضعه فى خدمة موهبتها ، مفتوح على أوسع أبوابه ، وليس ثمة عائق يعوقها عن الدخول منه .

أما ماذا تريد — فبدون أية محاولة لخداع النفس أيضاً — كانت تعرف تماماً أنها تريد أن تصبح أديبة : «قصصية ذائعة الصيت» . . أو «شاعرة راسخة القدم» . ومن هنا اختفت صورة «فارس الأحلام» من دفتر مذكراتها الخاصة ، فلم يلح له فيها أى أثر فى حين لاح أكثر من أثر «للقصصية الذائعة الصيت» . أو «الشاعرة الراسخة القدم» التى كانت تريد أن تكونها .

فبتاريخ يوم الخميس التاسع من أبريل سنة ١٩٦٤ — نلتقى فى مذكراتها الخاصة بهذه السطور :

● «كنت اليوم أفكر فى الزواج . .

ما هو؟

« إنه فى نظرى ليس نهاية الآمال بالنسبة للفتاة فحسب . . بل هو أيضاً قاتلها ! !

« ولنأخذ حالتى مثلا : فتاة شابة تعشق الخيال . . وتعشق الكتابة . . وتعشق القراءة . . وتعشق الموسيقى . ماذا يمكن أن تفعل مثل هذه الفتاة لو أوقعها القدر فى " مصيدة الزواج " ؟ !

« الجواب معروف . . . ستكون مشغولة دائماً ، ولن يكون لديها ساعة فراغ واحدة تستطيع أن تمارس فيها شيئاً من كل ذلك الذى تعشقه . إنها سوف تتحمل مسئولية زوجها الذى من المحتمل أن يكون واحداً من هؤلاء الكثيرين الذين لا يحبون الخيال . . ولا يحبون القراءة . . ولا يحبون الكتابة . . ولا يحبون الموسيقى . وسوف تتحمل إلى جانب مسئولية زوجها – الذى قلت إنه من المحتمل جداً أن يكون من ذلك الطراز – سوف تتحمل مسئولية أطفالها .. ومسئولية بيتها نفسه . وإذا لم أشأ أن أكون متشائمة ، وتصورت أن مثل هذه الفتاة سوف تستطيع أن تختلس لنفسها

دقائق من الراحة . . فإنها لن تستطيع
فى هذه الدقائق القليلة التى سوف
تختلسها ، أن تعود فتركب " قطار
الخيال" الذى يسمح لها بأن تكتب
القصة . . وتنظم الشعر . . وتسمع
الموسيقى . . وتسرح . . وتسرح ! !

« إن الرجل يستطيع دائماً أن
يعيش حياته . . يستطيع ، لو أراد ،
أن يخصص حياته لرغباته ، وآماله ،
واختياراته . أما المرأة . . . هذا المخلوق
الضعيف برغم كل شىء . . برغم أنها
أثبتت قوتها ، ونجاحها فى كثير من
الميادين. فإننى أعترف بأنها — ويا للأسف
الشديد — لا تزال ضعيفة جداً بالنسبة
لإحدى النقاط الهامة المرتبطة بحياتها .
فالمرأة . . أية امرأة . . ما تزال تفزع
من أن يقال عنها إنها " عانس". . .
وهى الكلمة البشعة التى تقال دائماً
على كل من لم تستطع أن تلحق
بقطار الزواج » .

* * *

وهنا . . فى هذه الكلمات بالذات ، يبرز خط من أبرز خطوط
تركيب " نادية" الخلقى والنفسى . . ذلك هو « الصدق » . فلقد كانت

" نادية" صادقة مع الناس إلى أبعد حد . . . وكانت أشد ما تكون صدقاً مع نفسها ، حتى بالنسبة للحلم الذهبي الذى ليس كمثله حلم يداعب خيال كل فتاة فى مثل عمرها . . إنها تخاف ذلك الحلم الذهبي . ولكنها — بصدقها الخالص مع نفسها — تقولها صريحة : إنها لا تستطيع أن تستغنى عنه . ذلك لأنها أنثى . . وكل أنثى ضعيفة . . وكل أنثى لا بد أن تكره تلك الكلمة البشعة التى تقال عنها إذا ما فاتها « قطار الزواج» . . كلمة « عانس » . ! !

ومن صور ذلك الصدق الخالص مع نفسها — وهو الصدق الذى كان يحكم ، ويتحكم ، فى جميع تصرفاتها . . أهونها ، وأكبرها ، على السواء . أذكر لها الصور التالية :

● جاءتنى مرة شاكية من العناء الذى تتعرض له فى وسائل المواصلات من بيتنا فى مصر الجديدة إلى الجامعة بالجيزة . فاقترحت عليها أن تركب مع مجموعة من زميلاتها كن يذهبن إلى الجامعة ويجئن منها فى السيارة الخاصة بإحداهن — وإذا بها تفاجئنى برفض اقتراحى قائلة :

— لا يمكن . . .

وكان طبيعياً أن أسألها :

— لماذا ؟

— لأننى لا أحب أن أفرض نفسى على أحد .

— ولكنك تتعرضين فى المواصلات لمضايقات لا تستطيعين — بحكم تكوينك — احتمالها

— عندما أقارن بين مضايقات المواصلات ، وبين المضايقة التى قد أسببها لهؤلاء الزميلات ، أجد أن احتمال الأولى أهون بكثير على نفسى .

— ولكنك فى المواصلات تتعرضين لكثير مما تكرهينه .

— وهذا أيضاً أهون عندى . . فإن راحة الجسم لا تهمنى . . وإنما الذى يهمنى هو راحة مشاعرى ، راحة نفسى . . وليس من السهل على أن أجد هذه الراحة مع شعورى بأننى فرضت نفسى على زميلاتى .

ورفضت " نادية " بإصرار ، أن تعمل باقتراحى — ومضت فى طريقها الذى رضيته لنفسها ، واضعة راحة النفس فوق راحة البدن . . فكانت تعود إلينا فى نهاية النهار متعبة غاية التعب . . ساخطة أشد السخط على وسائل المواصلات وما يحدث فيها ، وما يحدث منها ، واضعة « عزة نفسها » فوق اعتبار « الراحة » التى يضعها كثيرون من الناس قبل كل اعتبار ، وفوق كل اعتبار . . ثم تعود ، مع الصباح ، فتتعامل من جديد مع وسائل المواصلات !

* * *

وفى مرة أخرى ، عادت إلىّ من كليتها وقد اتخذت قراراً بأنها لن تحضر أية محاضرة لواحد من أساتذتها .

فسألتها :

— لماذا . .؟ !

— لأنه يستخدم فى مخاطبة الطلبة ألفاظاً لا يليق بأستاذ فى الجامعة أن يستخدمها .

— هل وجه لك أنت شخصياً شيئاً من هذه الألفاظ ؟ ؟

— أبداً . . .

— إذن . . فلماذا تقاطعينه ؟ ؟

— لأننى لا أطيق أن أسمع الألفاظ التى يتفوه بها ، ولا أطيق أن أراه وهو يجرح بها زميلاتى وزملائى .

— ولكن هذا الأستاذ لن يكون هو الخاسر بعدم حضورك محاضراته ، وإنما ستكونين أنت الخاسرة . لأنك فى نهاية العام سوف تؤدين امتحاناً

فى مادته التى يحاضركم فيها .!

ـ لن أخسر شيئاً . . إننى واثقة من ذلك . . !

ـ كيف . . . ؟ ؟

ـ لأن هذا الأستاذ ، بالذات ، لا يقول فى محاضراته حرفاً واحداً زائداً على كتابه الذى بين أيدينا . . والكتاب معى ، وسوف أذاكر منه . . وسترى أننى ، بإذن الله ، سوف أنجح .

ـ ولكن . . . ما الذى سوف تكسبينه بمقاطعتك لمحاضرات ذلك الأستاذ ؟

ـ سوف أكسب الكثير . . .

ـ ما هو هذا الكثير الذى سوف تكسبينه ؟

ـ سوف أكسب أننى لن أرى شخصاً فقدت احترامى له . . وهذا فى رأيى ليس مجرد كسب . . بل هو نوع من السعادة أدخله على نفسى . .

ونفذت " نادية " ما قررت . . . قاطعت محاضرات الأستاذ . . . وذاكرت من كتابه . . و . . . ونجحت .

* * *

قالت لها زميلة من زميلات الدراسة وهى تصافحها مودعة بعد إحدى زيارتها لها بالمستشفى :

ـ إنت عمرك يا نادية ما تقولى لى . . خللينى أشوفك ؟ ؟

وتشاغلت " نادية " عن الرد على زميلتها بكلمات بعيدة ، كل البعد ، عما سألتها عنه ، وانتهت المصافحة . . . وانتهت الزيارة .

وتصورت أنا أنها لم تسمع ما قالته لها زميلتها ، وهى تصافحها مودعة فسألتها :

ـ هل سمعت ما قالته لك " فلانة " وهى تودعك ؟ ؟

— سمعته . . .

— إذن لماذا لم تردى عليها ؟

— لأنني بالفعل لا أحب أن أراها — فهل تريدنى أن أكذب على نفسى ؟

— بالطبع لا . . . ولكن ، لماذا ؟ ؟

— لأنها ، ببساطة ، إنسانة تافهة . . . وبيصعب على جداً الوقت اللى بأضيعه معاها عندما تجىء لزيارتى . . .

— ولكنك مريضة . . . وهى تقصد بزيارتك ، وأنت مريضة ، أن تسليك عن مرضك .

— حتى وأنا مريضة ، فعندى ما أفكر فيه . وانفرادى بنفسى . وكلامى مع نفسى . . أفضل عندى ألف مرة من دقيقة واحدة أقضيها مع إنسانة ليس عندها شىء له قيمة يمكن أن تقوله . . . إنها ترثر فقط . . وأنا ، بصراحة ، لا أحب الرثارات .

وأترك " نادية" الصادقة إلى أبعد حد مع الناس — والتى هى أشد ما تكون صدقاً مع نفسها ، أتركها بعد أن أكون قد خرجت من تأملى لها . لكل كلمة قالتها ، وكل فعل فعلته ، بنتيجة ، لا أحاول — مخلصاً — أن أدخل بها العزاء على نفسى . . ولعل هذه النتيجة التى خرجت بها من تأملى الأبوى لتصرفاتها ، وكتاباتها ، وأفعالها — هى نفسها التى لا بد أن يخرج بها أى شخص آخر يتاح له — مثلما أتيح لى — تأمل حياتها ، وتصرفاتها ، وأفعالها ، وكلماتها . وهذه النتيجة هى : أن دنيانا هذه لم تكن صالحة لسنوات أخرى من العمر تقضيها " نادية" على أرضها . فقد أصبحت دنيانا غنية بألوان من الخداع ، والنفاق ، والزيف . . كان مستحيلا عليها — بحكم تركيبها النفسى والخلقى الذى جئنا ، فيما تقدم ، على شىء من ملامحه — تقبلها . . أو حتى معايشتها . فلقد كان إحساسها المتحفز دائماً لالتقاط هذه الأشياء التى تشوه وجه الدنيا . . . والتى يسقط تحت وطأتها أولئك الذين لم يرحمهم قدرهم فخلقوا على طرازها — أقول كان إحساسها المتحفز لالتقاط هذه الأشياء . . يعذبها ، ويضنيها ، ويرهقها ، ويجعلها تنظر إلى الدنيا . . وإلى كل ما يجرى على أرضها . . نظرة ليس فيها شىء من لون الربيع الذى كان يمثله عمرها .

فى يوم ٤ فبراير سنة ١٩٦٤ — ألقت "نادية" مزيداً من الضوء على هذه الأشياء التى كانت تعتمل فى أعماقها . . والتى كانت ، فى نفس الوقت ، تضنيها وتعذبها — فكتبت فى مذكراتها تقول :

● « اليوم — دارت بينى وبين مجموعة من زميلاتى فى المدرسة مناقشة حول " الحياة" . . وكان رأيى الذى

أبديته فى هذه المناقشة أن " الصداقة" . وأن " الإخلاص" . . أشياء لم يعد لها وجود فى هذه الأيام التى أصبحت علاقات الناس فيها تقوم على أساس من المصلحة ، وتبادل المنافع فقط . أما الصداقة للصداقة ذاتها .. والإخلاص للإخلاص ذاته . . فقد صارت مع زماننا هذا "عملة" قديمة غير معترف بها..

« وقد استخلص زميلاتى من رأيى هذا أننى متشائمة من الحياة . والحقيقة أننى لا أشعر مطلقاً بشىء من التشاؤم . لكن الذى أشعر به ، حقيقة ، هو أن طبيعة عمل والذى قد وضعته ووضعتنا معه — فى احتكاك مباشر — مع الحياة .. وهو شىء أعتقد أنه لا يتوافر ، بنفس القدر ، لزميلاتى اللاتى اتهمننى بأننى متشائمة . إنهن لا يسمعن ما أسمع ولا يعرفن ما أعرف . . . ومن هنا ، فإننى أستطيع أن أقول إنهن لا يعرفن الحياة كما أعرفها . إن الحياة عندهن ضحكة ، ولعبة . . وليست هذه هى الحياة . . إنما الحياة ، فى حقيقتها ، رحلة استكشاف مستمرة . والمؤسف ، أن معظم ما يستكشف فيها أليم » .

وربما يكون فهم " نادية" للحياة على هذا النحو ، هو السبب فى كونها — على الرغم من حداثة سنها — كانت منتمية إلى الله على نحو لا يكاد يصدق ، بالقياس إلى مرحلة العمر التى كانت تعيشها . لقد كانت تعيش معنا بجسدها . . . فى حين كانت — بيقين — تعيش بوجدانها كله ، بقلبها كله ، مع الله . كانت روحها متصلة به . . . تهفو إليه . . وتتلهف تلهفاً غريباً على لقائه . . والصعود إليه . . .

ولم يكن هذا التلهف الغريب على لقاء الله ، والصعود إليه ، ناشئاً عند " نادية" عن يأس ، أو ضياع ، أو فشل . . . فلقد كانت طموحة ، وذكية ، ومتفوقة . . ليس على قريناتها فحسب ، بل كانت متفوقة حتى على نفسها . . وعلى عمرها .

فنى الوقت الذى كانت تؤمل فيه أن تصبح أول سفيرة لمصر فى الخارج . . وتعمل ، إيجابياً ، لهذا الأمل فتكون واحدة من العشرة الأوائل فى الثانوية العامة ، وتدخل كلية الاقتصاد والعلوم السياسية — كخطوة أولى على الطريق لتحقيق هذا الأمل الكبير — فى هذا الوقت نفسه ، نجدها تكتب لنفسها فى دفتر مذكراتها الخاصة :

● « لا شك أن لكل إنسان فى هذه الحياة أمنية يريد تحقيقها . . . وإذا سألنى أحد عن أمنيتى التى أتمنى أن أحققها ، فإننى لن أتردد فى القول بأن أمنيتى هى أن أصعد إلى السماء ... أن ألقى الله . . أن أكلمه . . أن أناجيه . أن أفضى إليه سبحانه وتعالى ، بكل ما يدور فى نفسى . .

« وربما يرى البعض أن أمنيتى
هذه إن هى إلا مجرد خيال لا معنى له .
ليكن . . . ولكنها ، على كل حال ،
أمنيتى التى أتمنى – بإخلاص وصدق –
أن أحققها» .

* * *

وفى موضع آخر من المذكرات نفسها – نلتقى بها وهى تكتب :

● « إننى كثيراً ما تمنيت أن
أموت . . . وليس ذلك لأننى يائسة
من حياتى . . . أو لأن هناك ما يعكر
على صفوى. وإنما أنا أتمنى الموت لأنه...
لأنه الطريق الوحيد الذى أستطيع ،
من خلاله ، أن ألقى الله . وأنا أريد
أن ألقى الله . . »

* * *

وفى مقطوعة شعرية كتبتها فى فبراير سنة ١٩٦٤ – وكانت ما تزال فى الصف الثانى الثانوى – وجعلت عنوانها : " ليلى " . . . ولعلها كانت ترمز " بليلى " إلى " نادية " . . إلى نفسها . . نجدها تقول :

● « أماه . . ما أحلى اللقاء
« إنى أسمع الصوت البهير
« وإشارة الملكوت نحوى والنفير
« أماه هذا الضوء من ربى القدير

« ونداؤه : ليلى . . هبى من نوم
صغير
« ليلى اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
« أماه إنى صاعدة . . . أماه
إنى فى حبور
« أماه لا تبكى . . ففى جناته
أحيا وأطير » .

لقد كانت " لنادية " ، بلا شك ، أحلامها... كانت لها أحلامها الكثيرة ، والكبيرة ، والجميلة . . . فمن أحلامها أنها كانت تريد أن تصبح أول سفيرة لمصر فى الخارج . . . ومن أحلامها أنها كانت تريد أن تصبح « قصصية ذائعة الصيت» ، أو « شاعرة راسخة القدم» . . ومن أحلامها أنها كانت تريد: «أن تصبح أماً قادرة على إنجاب رجال قادرين على تحمل مسئولياتهم تجاه أنفسهم ، وتجاه وطنهم . . مخلصين فى أداء واجبهم . . شاعرين بالأمن والاستقرار فى أحضان أسرتهم ، حتى يستطيعوا – فيما بعد – أن يمنحوا أولادهم نفس الحنان ، ونفس الاستقرار الذى رضعوه فى كنف والديهم» .

كل هذه كانت أحلامها التى عبرت عنها فى أماكن متفرقة من مذكراتها الخاصة . لكن الذى لا شك فيه أن حلمها الأكبر ، والأعظم . حلمها الذى كان يملك عليها خيالها كله . وكيانها كله ، وحواسها كلها ، كان هو « الصعود إلى السماء» . . . إلى حيث كانت تريد أن تلقى الله . . وتناجيه . . وتكلمه . .

وأعجب ما فى هذا الحلم الأكبر ، والأعظم ، الذى كان يحتويها .. ويملك عليها خيالها كله ، وكيانها كله ، وحواسها كلها – أنها لم تكن تحتفظ به سراً خاصاً تفضى به – شعراً ونثراً – إلى مذكراتها الخاصة التى كتبت فى أول صفحة منها : « أنها تتمنى ألا يقرأها أحد . . وأنها لم تكتبها إلا لكى تتابع – من خلالها – مدى التطور الذى سوف يطرأ على أفكارها» . . وإنما تجاوزت بهذا الحلم الأكبر ، والأعظم ، دائرة مذكراتها الخاصة هذه ، وانتقلت به إلى دائرة أكثر علانية . . وأكثر اتساعاً . . تلك هى دائرة موضوعات « الإنشاء» التى كان مدرس اللغة العربية فى المدرسة يطلب إليها الكتابة فيها .

● فى فبراير سنة ١٩٦٤ ـــ.وهو نفس الشهر من نفس السنة التى كتبت فيها فى مذكراتها الخاصة تلك المقطوعة الشعرية المتقدمة التى تخيلت فيها صوت السماء يناديها ، ويدعوها إلى الصعود نحو الله ، وبجانب الرب الغفور — فى نفس هذا الوقت ، طلب إليها مدرس اللغة العربية فى المدرسة أن تكتب فى الموضوع الآتى : « جلس طفل متشرد أمام أحد البنوك ليقضى ليلة طويلة بعد يوم عقيم . عيشى مع هذا الطفل وصورى مشاعره وخيالاته » .

فكيف تخيلت " نادية " هذا الطفل . . . وبماذا جعلته يحلم . . وكيف صورت مشاعره وخيالاته ؟ ؟

لقد رأته طفلا رقيقاً وديعاً . . أرهقته الأيام بظلمها له ، وبإسرافها فى القسوة عليه . إلا أنه مع ذلك . . وبرغم قسوة الأيام عليه ، وظلم القدر له — استطاع أن يحتفظ بوجدانه سليما ، بقلبه نقياً . . فلم يحقد ولم يحسد ، ولم يفكر فى الانتقام من أحد . حتى ولا من الأيام نفسها . لذلك ، فإنه عندما وجد نفسه أمام البنك — بعد عناء يوم عقيم — فإنه لم يفعل شيئاً أكثر من أنه أسلم نفسه للنوم ، بعد تعب طويل ، لم يغنه كثيراً ولا قليلا . . وعندما أخذه النوم فى أحضانه . راح يحلم . ولكن — هكذا رأت " نادية " — ليس بسرقة البنك . . ولا باختلاس بعض ما فى خزائنه من مجوهرات وودائع . . ولا بارتكاب أى شىء يتأذى منه شرفه وضميره .

ولأترك " نادية " . . زهرتنا الحبيبة . . تحدثنا ، بأسلوبها الخاص . . وبطريقتها الخاصة ، عن « الحلم العظيم » الذى راود ذلك المتشرد الصغير فى نومته أمام البنك :

● « رمانى التعب إلى جوار شجرة »

جردتها الطبيعة القاسية من أوراقها .
وتلفت حولى فرأيتنى أمام مكان عامر
بالأموال . . أمام بنك . . فندت عنى
ضحكة ساخرة لمفارقات الأقدار !!

« وغفوت . . . ثم وجدتنى أتابع
سيرى فى دهاليز الدجى . وبينما أنا
فى رحلتى مع الشقاء ، تعلقت عينى
بشىء صغير يبرق على الأرض ، فامتدت
يدى لتلتقطه وقلبى يخفق بالأمل . .
داعياً الله أن يكون ذلك الشىء الصغير
التى وقعت عليه عينى ، قطعة من
الفضة أستطيع أن أشترى بها طعاماً
أسكت به عواء جوفى الخاوى . وما
هى إلا لحظة حتى اختنق الأمل فى
صدرى . ولكننى ، بالسلاح الذى
تعودت به دائماً مواجهة قسوة الحياة ،
سخرت من صراخ أمعائى . . وتشاغلت
عنه بالعبث بالمسحوق الذى احتوته تلك
الورقة التى التقطتها من على الأرض .
وبدون أن أدرى . . . وبدافع من
البرودة القاسية التى كانت تحتوينى ،
نثرت ذلك المسحوق على جسدى لعله
يبعث الدفء فى أطرافى المتقلصة .
ولكن ، ويا للمفاجأة المذهلة . . ما كدت



أنتهى من نثر المسحوق على جسدى ، حتى
وجدتنى عاجزاً عن رؤية ساقى وذراعى .
لقد اختفيت . . . .

« وتساءلت : هل يمكن أن يكون
هذا المسحوق مسحوقاً سحريًّا كذلك
الذى يستعين به أبطال الروايات
الخيالية للوصول إلى أغراضهم ؟ ؟

« وافرحتاه . . . من ذا الذى
قال إن الأقدار قاسية . . . ؟ أتكون
قاسية وهاهى ذى تهيئ لى فرصة ما كنت
لأسمح لنفسى بتخيلها ؟ . . ألست
وحدى الآن فى مواجهة " بنك " لا يقف
على أبوابه أحد ؟ ؟

« وضحكت ساخراً من أولئك
الذين أغلقوا أبوابه بالمزاليج الحديدية
وانصرفوا . . . فإننى سوف أدخله . .
وسوف أغترف منه ما أشاء . . كيفما
أشاء . .

« ودخلت البنك . ولا تسألنى :
كيف ؟ . . فأنا نفسى لا أعرف .
كل الذى أعرفه أننى سرت . . وسرت . .
حتى وجدت نفسى آخر الأمر محاطاً
بكنوز من الأموال . وتأملت الأوراق
الخضراء التى كانت دائماً تأبى الاقتراب

منى ، وقد استكانت فى دعة ليدى العابثة . .

« ودهشت . . . دهشت غاية الدهشة حين وجدت نفسى لا أريد أن آخذ شيئاً من كل هذه الكنوز التى وجدتها تحيط بى . وعجبت . . فعندما كانت الأموال بعيدة عنى لم يكن لى فى الدنيا من حلم سواها. ولما أصبحت فجأة ، ملك يدى لم أعد أريد منها شيئاً . . حتى ولا أقل القليل . .

« وغادرت البنك . . وعلى غير هدى ، رحت أسير . . وأسير . وفجأة وجدت نفسى أواجه شيئاً غريباً حقاً . وجدت فرساً ذهبياً له أجنحة .. وعلى الرغم من الذعر الشديد الذى انتابنى لرؤيته ، اقتربت منه . . ورحت أتأمله . خيل إلى — وربما كان ذلك حقيقة — أنه يدعونى لركوبه . وعجبت . . . ! ! إلى أين يريد هذا الفرس الذهبى أن يحملنى ؟ ؟ هل يصعد بى إلى السماء . . ؟ ؟ وهل أرى الله حقاً . . ؟ ؟ وهل يتاح لى أن أكلمه . . ؟ ؟

« وتمزقت أفكارى بغتة . . . .

فقد اندفع بى الفرس الذهبى صاعداً ...
صاعداً . . يخترق السحاب تلو السحاب
وأنا (مبهورة) الأنفاس ، أكاد أكون
(متحجرة) من الأحداث المذهلة التى
احتوتنى دفعة واحدة . .

" و . . . . ورأيت الله " ! !

« لم أر سوى نور . . . نور
عظيم . . . نور يغمر عرش السموات
والأرض . وعرفت — بغريزتى —
أن هذا النور العظيم هو الله .

« وانهمرت الدموع غزيرة من
عينى . . . فإننى لم أشعر فى حياتى يوماً
بحنان الوالدين . . . ولم أسعد مرة بعطف
إنسان على . ولكن ، هأنذا أستمتع
بأعظم حنان فى الوجود . . حنان الله
على عبده ! !

« واندفعت أشكو إلى الله ظلم
عباده على الأرض . . . وكيف أن
الشفقة والمحبة قد محيتا من قلوبهم . . .
وكيف أنهم نسوا الآخرة وما ينتظرهم
فيها من حساب وعقاب .

« شكوت . . وشكوت . . حتى
استنفدت كل ما عندى ، وقد استشعرت
راحة عميقة . . عميقة . . إذ وجدت ،

أخيراً ، من يستمع إلى شكواى . وكانت أعظم فرحة دبت فى قلبى ، تلك التى أحسستها حينما سمعت الله يواسينى . ويعدنى بخير الجزاء . . وبكل شيء افتقدته على الأرض .

« وقبل أن يعود بى الفرس الذهبى إلى الأرض . . . ذهبت لأرى الجنة والنار . . . ذهبت لأرى بنفسى . . . لكى أخبر عباد الله المتجبرين فى الأرض بالمصير الذى ينتظرهم إن هم تمادوا فى تجبرهم ، وقسوتهم . . . ذهبت لأزداد إيماناً بالله ، وخشية منه .

« أخيراً . . . وبعد أن تحقق الأمل الذى طالما راودنى . . . بعد أن رأيت الله ، وكلمته ، وناجيته ، وشكوت إليه . . بدأت رحلة العودة إلى الأرض التى كنت خلالها أحلم بالملاجئ التى سوف أبنيها للمشردين أمثالى . . . وبالبيت الذى سوف يعصمنى من التشرد ، ويمنحنى الأمان الذى افتقدته .

« وعند وصولى إلى الأرض . . ربت على ظهر الفرس الذهبى معرباً عن امتنانى له . . وإذا بى أصحو من

غفوتى لأجد نفسى أربت على الأرض .
« وتلفت حولى ، فلم أجد
مسحوقاً سحريا .. ولا فرساً ذهبيًّا ..
وفركت عينى حسرة ودهشة . . فقد
تبينت أننى كنت . . . كنت أحلم ! !
« وتنهدت فى ألم شعرت أنه
كان يمزق قلبى . . . وقررت أن أعود
إلى النوم مرة أخرى . . ما دمت
لا أستطيع أن أجد السعادة التى
أنشدها إلا فى الأحلام .
" و . . . واسترسلت فى النوم !! »

* * *

وإلى أبعد من هذا القدر . . . فى هذا « الحلم العظيم » . . لم تشأ " نادية " أن تمضى . فتوقفت لتقدم « موضوعها » إلى مدرس اللغة العربية ليمنحها عليه « الدرجة النهائية » وليسجل بجوار الدرجة النهائية التى منحها لها قوله : « خيال رائع . . يرجى منه الخير الكثير » .

وإننى لأعذر مدرس اللغة العربية الذى منح " نادية " على هذا الموضوع « الدرجة النهائية » المقررة له ، إذا كان لم ير فيه إلا أنه : « خيال رائع . . يرجى منه الخير الكثير » — أعذره إذا كان لم ير فيه غير هذا . . . فإنه — مثلنا تماماً — لم يكن مطلعاً على ما تكتبه « نادية " لنفسها . . وتخفيه عن أعين الجميع ، إلا عن عينيها التى كانت ترى بها أشياء كثيرة ، لم يكن فى استطاعتنا أن نشاركها رؤيتها إياها . . . ولو أنه كان مطلعاً عليه — مثلما أتيح لنا الإطلاع عليه ،

بعد أن بارحتنا إلى عالمها الخاص الذى كانت تتحرق شوقاً إليه — لكان قد أدرك على الفور : أن الذى امتطى « الفرس الذهبى » وراح يشق به السحاب تلو السحاب . . ويصعد به سماء من بعدها سماء ، حتى التقى بالله . . وكلمه . . وناجاه . . وشكا إليه ، لم يكن هو ذلك الطفل المشرد الذى أعياه التعب فى يوم عقيم ، فنام أمام البنك ، وإنما كانت "نادية" نفسها هى التى امتطت ذلك « الفرس الذهبى » . وهى التى صعدت به إلى السماء .. وهى التى قابلت الله ، وناجته ، وكلمته ، وشكت إليه . لقد امتلك عليها هذا « الشعور » حواسها كلها ، وخيالها كله ، حتى أنساها أن تستخدم ضمير المتكلم المذكر الذى هو الطفل المشرد الذى طلب مدرس اللغة العربية منها ، ومن زميلاتها فى المدرسة ، أن يصورن مشاعره وأحلامه — أجل . . لقد نسيت "نادية" وسط الحلم الأكبر ، والأعظم الذى كان يحتويها — أن تستخدم « ضمير المذكر » فى وصف مشاعر الطفل وأحلامه ، وراحت تستخدم « ضمير المتكلمة المؤنثة » فى وصف مشاعرها هى . . وإحساساتها هى . . وأحلامها هى . . فنراها تقول : « اندفع بى الفرس الذهبى صاعداً . . . صاعداً . يخترق السحاب تلو السحاب . . وأنا (مبهورة) الأنفاس . . أكاد أكون (متحجرة) من هول الأحداث المذهلة » .

* * *

إن " نادية" تتابع « حلمها الأعظم » بإصرار شديد عليه ، وتعلق غريب به ، حتى ليمكن القول إن أحلامها جميعاً قد ذابت ، وانصهرت فى هذا الحلم الواحد الذى لم يعد لها من حلم سواه . . فى ١٦ مارس سنة ١٩٦٤ — أى بعد أقل من شهر من ذلك اليوم الذى خالت فيه "نادية" نفسها تمتطى فرساً ذهبياً ، وتصعد به إلى السماء ... فتقابل الله ، وتكلمه ؛ وتناجيه — نلتقى بها فى مذكراتها الخاصة وهى تقول :

● « إننى أفكر الآن فى أشياء كثيرة أراها تصيبنى بالملل . . . فالذهاب إلى المدرسة أمله . . والبقاء بالبيت أمله . . والروتين يكاد يقتلنى . وأعتقد أنى لا أبالغ إن أنا قلت إننى أشعر بأنى أحترق . . وبأننى أموت موتاً بطيئاً ! !

« إننى أحس أننى أريد أن أفعل شيئاً ضخماً . ولكن ، ما هو هذا الشيء الضخم الذى أريد أن أفعله .؟

« ليست عندى أية فكرة عنه .

« أحياناً أشعر بالرغبة فى أن أكون " ناسكة" . . . وأحياناً أخرى أشعر بالرغبة فى أن أطوف ببلاد العالم جميعها . . . وأحياناً أتمنى لو أنى كنت أعيش فى هذا العالم بمفردى . .

أراقب السماء ، وأسرح فى ألوانها الجميلة ، وفى قدرة الخالق الأعظم الذى صنعها فأحسن صنعها .

« ولكن الأهم من هذا كله هو أننى ، فى كثير من الأحيان ، أشعر برغبة جارفة فى الموت ، لا لسبب . إلا لأننى أريد أن أرى الله . . .

« فى السنة الماضية . . . كنت فخورة جدًّا بنفسى . . لأننى كنت أفهم معنى كل كلمة أنطق بها ، ومعنى كل شعور أشعر به ، ومعنى كل تصرف يصدر عنى . أما فى هذا العام فإننى لا أكاد أفهم نفسى . .

« إن عاصفة قوية تكاد تقتلع الأشجار أحس بها تجتاحنى . والغريب فى أمرى أننى لا أريد أن أتجاهلها . . ولا أستطيع أن أرفع عنها عينى » .

* * *

وفى يوم الخميس ٢ أبريل سنة ١٩٦٤ — تعود نادية فتكتب :

● « يوم رائع من أيام الربيع . . رائحة الورود تملأ الجو من حولى . ولكن . . . وعلى الرغم من هذا اليوم الرائع من أيام الربيع . . ومن رائحة

الورود التى تعبق الجو من حولى . .
أشعر بحزن عميق يجتاحنى . لماذا . .؟
لا أدرى . ولكن ، يخيل إلى أننى أبحث
عن شىء ضائع ، ولا أعرف طريقى إلى
الوصول إليه . ولكن ، ما هو هذا
الشىء ؟ هذا هو أيضاً مالا أكاد
أعرفه .

« إننى عندما أكون وحدى أقع
فريسة للحزن . . والغريب ، مع ذلك ،
أننى أحب كثيراً أن أبقى وحدى . أفكر
لنفسى . . وأتكلم مع نفسى . .
وأحاسب نفسى . إن التفكير يكاد
يقتلنى . ولكننى — وهذه مشكلتى —
لا أستطيع أن أعيش بغيره . إن " الفكر"
هو حياتى » .

* * *

وفى يوم الاثنين ٤ مايو سنة ١٩٦٤ — تعود " نادية "إلى «الشىء الذى يكاد يقتلها» . . والذى لا تستطيع ، مع ذلك ، أن تعيش بدونه . . . . تعود إلى « التفكير » . . وإلى تأمل ما حولها ، ومن حولها — فتكتب :

● « ما الذى كان يمكن أن تكون
عليه الحياة . . . أو ما الذى كان يمكن
أن تكون عليه الأرض . . . لو لم تكن

هناك سماء ؟ ؟

« هل كانت الحياة تفقد الجزء الأكبر من جمالها ؟

جائز . . .

« ولكننى أتصور أنه لو لم تكن هناك سماء ، فإننى كنت سوف أشعر بقدر أكبر من الحرية . .

« إن الشعور الذى يستولى علىّ هذه الأيام ، هى أن الأرض صغيرة ... صغيرة جداً . . . وأنها تكاد تسجننا بضيقها ، وصغرها . فالبيوت تطبق عليها . . والمبانى العالية تحجب عنا الأفق الجميل .

« ألم يكن من الأفضل لو لم تكن هناك "سماء" حتى نشعر بأنه ليس هناك شيء يحجب عنا ما نريد أن ننفذ إليه بأبصارنا ؟ ؟

« إن السماء . . مع الأرض . . تكوّن فى نظرى سجناً كبيراً . فمتى . . . متى أنجو بنفسى من هذا السجن الكبير ؟»

* * *

وهنا . . . أجدنى محتاجاً لأن أتوقف قليلا . . لأناقش « ظاهرة» .. وأجيب عن « سؤال» .

. . أما « الظاهرة» فهى أن " نادية" — فى أكثر من قول ، وحلم ، وأمنية — قد كشفت لنا ، بما لا يقبل الشك ، أنها كانت تعيش معنا فى دنيانا هذه . . بجسدها وبعقلها وحدهما . أما قلبها ، ووجدانها ، فقد كشفت لنا — وأيضاً بما لا يقبل الشك — أنهما كانا دائماً — وليس فى لحظة دون أخرى — معلقين بالسماء ، ورب السماء . . يشدانها إليه ، ويجذبانها نحوه ، ويملآن حواسها كلها اقتناعاً صادقاً — أكمل ما يكون الصدق وأجمله — بأن الصعود إلى الله، ومكالمته ، ومناجاته ، إنما هو أمنيتها التى تتضاءل بجانبها أكبر الأمانى . . وحلمها الذى « تبهت» بجانبه ألمع الأحلام .

أما وقد استوقفتنا — من خلال أقوال " نادية" وأحلامها ، وأمانيها — هذه « الظاهرة» . . . فإن ثمة « ظاهرة أخرى» مرتبطة بها أشد الارتباط ، بل لعلها مكملة لها ، جديرة بأن تستوقفنا وتلك هى أن " نادية" ، وقد امتلأ وجدانها اقتناعاً بأن « الصعود إلى السماء» هو أمنية الأمانى . . وحلم الأحلام ، فإنها — لم تكن تلعن « الأرض» . . . لم يكن فى نفسها سخط عليها ، ولا تبرم بها . صحيح أنها ، بكل جوارحها ، كانت مشدودة دائماً إلى عالم آخر ، عالم فسيح . . فسيح . . عالم « أكثر شفافية ، وأكثر نقاء» . . . إلا أنها ، مع ذلك كله . . . وعلى الرغم من ذلك كله ، كانت تحيا « حياتها الأولى» كإنسانة سوية أتم ما يكون الاستواء . . . إنسانة مزدهرة العقل والضمير والوجدان . . . إنسانة تطمح ، وتأمل ، وتألم ، وتنافس ، وتتنافس ، وتتطلع دائماً نحو الأفضل ، وتصل دائماً إلى ما تتطلع إليه .

فلقد التقينا بها ، فى كل ما كتبته ، فإذا هى تشيد دائماً « بالنور» الذى كانت تراه ، بعينيها ، فى يقظتها ومنامها ، يملأ السماء من حولها . . . وتسمعه ، بأذنها ، يناديها ويدعوها إلى الصعود إليه . . ولكننا لم نلتق

بها — مرة واحدة — وهى تلعن « الظلام» الذى يطبق على الأرض . .
ولم نلتق بها تلعن الأرض نفسها . . . وقصارى ما قالته فى حقها :
«إنها ليست سوى سجن كبير أتمنى الخلاص منه» ويقينى أنها لم تصف
« الأرض» بهذه الصفة إلا لحساب « السماء» التى كانت تعطيها كل حبها . .
وكل قلبها . . وكل تعلقها . .

* * *

. . . وإذا كان هناك ثمة معنى يمكن أن نستخرجه من تعلق
" نادية" « بالسماء » ذلك التعلق الغريب الذى التقينا بصورته فى كل سطر .
وفى كل صفحة . . من سطور وصفحات مذكراتها الخاصة — فى نفس
الوقت الذى لم تكن تدير فيه ظهرها « للحياة الدنيا» ، ولا تضيق بها ،
ولا تسخط عليها . . فهذا المعنى هو أن شعوراً داخلياً عميقاً قد استقر
فى قلبها ، وجعلها — دون أن تدرى — تدير حياتها كلها وفق ذلك التوجيه
العلوى الأسمى الذى يقول : « وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس
نصيبك من الدنيا » .

ولقد كانت " نادية" — بكل الحق والصدق — تبتغى فيما أتاها الله
« الدار الآخرة » . لقد أتاها الله وجداناً نورانياً وقدراً من الإلهام غير قليل .
وبهذا الوجدان النورانى ، وبذلك القدر غير القليل من الإلهام —
كانت تبتغى الله دائماً . . . فكانت تصوم ، وتصلى ، وتقرأ القرآن . .
كانت تؤمن بالله إيماناً لا حد له . . كانت ترنو نحوه ، وتتطلع إليه ،
وتتحرق شوقاً إلى لقائه . وفى هذا الوقت نفسه ، لم تكن " نادية" تنسى
« نصيبها من الدنيا» . فكانت — كما أسلفت فى صفحة سبقت —
طموحة ، وذكية ، وأنيقة فى الملبس ، والمأكل ، والمشرب . . وكانت
متفوقة ليس فقط على قريناتها . . بل كانت متفوقة حتى على نفسها ،
وعلى عمرها . .

٩٨

وربما يبدو غريباً بالنسبة لمن سوف يقرءون هذا الكتاب — أن يعرفوا أن أول جائزة تفوق حصلت عليها "نادية" كانت فى سنة ١٩٥١ . وفى هذه السنة — سنة ١٩٥١ — كان عمرها أربع سنوات فقط . . وكانت الجائزة فى القراءة والمحفوظات الفرنسية . .

ومنذ ذلك التاريخ الذى حصلت فيه "نادية" على أول جائزة من جوائز التفوق ، لم تدع هذه الجوائز تفلت من يدها . فظلت محتفظة بها دائماً . . . ابتداء بهذه الجائزة التى حصلت عليها وهى ما تزال فى الرابعة من عمرها . . وانتهاء بجائزة الامتياز التى حصلت عليها فى عيد العلم سنة ١٩٦٦ باعتبارها واحدة من العشرة الأوائل فى الثانوية العامة : ١٤ جائزة تفوق . . . بعدد السنين الأربع عشرة التى أمضتها فى المدرسة . ابتداء بمرحلة « الروضة » وانتهاء بالمرحلة « الثانوية » ! !

* * *

لقد كان « التفوق » . . وكان « الامتياز » شغلها الشاغل . . . وهو لم يكن فى نظرها قضية « تفوق » أو « امتياز » فحسب ، بل كان أيضاً قضية « كرامة » ، ومن هنا كان حرصها على تفوقها جزءاً لا يتجزأ من حرصها على كرامتها . فبتاريخ ٢٢ مارس سنة ١٩٦٤ (١٧ سنة) كتبت فى مذكراتها الخاصة تقول :

● « لأول مرة فى حياتى — أشعر بأننى سوف لا أكون " الأولى " فى اللغة العربية على الفصل . لا أعرف « سبباً معيناً لشعورى هذا . . فقد أديت الامتحان بنفس الحماسة ، ونفس العناية اللتين اعتدت أن أؤدى بهما جميع امتحاناتى . ولكننى ، مع هذا ، أشعر أنى سوف لا أكون " الأولى " . غداً امتحان " المواد الاجتماعية " . ليست عندى أى رغبة فى المذاكرة بسبب ذلك الشعور الذى تملكنى . سأكون حزينة ، غاية الحزن ، لو صدق شعورى وتخلت عنى أولويتى » .

وصدق شعور " نادية " . . وأفلتت منها — لأول مرة فى حياتها — أولويتها فى « اللغة العربية » . فقد عادت فى يوم الأحد التالى — ٢٩ مارس — وكتبت فى مذكراتها تقول :

● « أبلغتنى " ريموند " بالتليفون

أنى جئت الثانية فى الترتيب — بكيت
كثيراً لهــذا الخبر . وكان أكثر
ما أبكانى أن الفرق بينى وبين الأولى
لم يكن أكثر من "نصف درجة" .
وأعتقد أن الذى أحدث هذا الفرق
هو" أعمال السنة" التى لم يعطنى فيها
الأستاذ ما أستحقه . على كل حال ،
أنا معترفة له بالجميل . فقد جئت
الأولى فى"المواد الاجتماعية" . لكننى
واثقة من أننى سوف أسترد " هيبتى"
فى امتحان نهاية العام . سوف أبذل
جهدى كله من أجل ذلك . وأترك
الباقى لله ».

وإننى لأذكر، فيما أذكر عن تعلقها بالنجاح ، وبالتفوق . . .
ونظرتها إليهما على أنهما قضية « كرامة . . . وهيبة » ، قبل أن يكونا
قضية « نجاح . . . وتفوق » — أنها فى امتحان النقل من السنة الأولى
إلى السنة الثانية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، رسبت فى مادة
« السياسة » — وكان هذا أول رسوب يصادفها فى حياتها الدراسية
كلها — ومن هنا ، رفضت رفضاً قاطعاً أن تسلم بأنها يمكن أن ترسب .
وأصرت على أن خطأ ما لابد أن يكون قد حدث فى تصحيح ورقة
إجاباتها عن أسئلة هذه المادة .. كما أصرت ، من ناحية أخرى ، على
أن ترى بنفسها ورقة إجاباتها عن أسئلة « السياسة » . وأمام إلحاحها
الذى لم يفتر . . وأمام بكائها الذى لم ينقطع منذ أن علمت بنتيجة
الامتحان . . لم يسعنى إلا أن أصطحبها إلى الأستاذ الصديق الدكتور

فتح الله الخطيب ، ورجوته أن يمكنها من رؤية ورقة إجاباتها حتى تستقر ، وتهدأ ، وتنتزع نفسها من الحالة النفسية الأليمة التى انتهت إليها بسبب رسوبها فى تلك المادة .

وبمبادرة طيبة من الأستاذ ذى القلب الكبير . . . وبإدراك واع من جانبه للحالة النفسية التى رأى عليها تلميذته ، قام الرجل فبحث لها عن ورقتها حتى وجدها . . . ثم أخذ يقرؤها ، وبعد أن فرغ من قراءتها – قال لها :

– لقد كان أستاذ المادة متشدداً بعض الشيء فى تصحيحه . . . ولو أننى أنا الذى قمت بتصحيح هذه الورقة لما أمكن أن ترسبى .

قالت :

– إذن . . . فسوف أتظلم رسمياً إلى العميد .

فقال لها أستاذها الدكتور الخطيب :

– هذا مالا أنصحك به . . . إذ يجب أن تعرفى أن لكل أستاذ طريقته الخاصة فى مادته ،ولا يملك العميد . . ولاغير العميد أن يتدخل فى هذه الطرق . ويكفيك أنْ تأخذى برأيى . . ورأيى أنك أديت واجبك .

قالت :

– مادمت سيادتك تشهد لى بأننى أديت واجبى ، فهذا فعلاً يكفينى .

* * *

لقد كان صعباً . . . بل كان مستحيلاً – بغير هذا اللقاء الذى تم بين " نادية " وبين أستاذها الدكتور الخطيب أن تهدأ ، أو أن تنتشل نفسها من الحالة النفسية التى كانت قد وصلت إليها . ولكن ، إذا كنت على يقين فى هذه المناسبة من شيء ، فإننى لعلى يقين من أن

رسوبها هذا قد ترك فى أعماق نفسها جرحاً أليماً لعله لم يندمل حتى غادرت دنيانا .

* * *

يأتى ، بعد ذلك ، « السؤال» الذى نود أن نسأله ، وهو : « هل كانت " نادية" — وهى تهوم دائماً نحو السماء تتعلق عيونها بها . . وتتحرق شوقاً إلى الصعود إليها — هل كانت تعيش فى عالم من صنع أوهامها . . أو كانت تعيش فى واقع تحسه ، وتراه ، وتكاد تلمسه بيديها ؟ » .

وأجيب عن هذا السؤال بسؤال مقابل ، وهو : « هل يمكن اعتبار العروس التى تم عقد قرانها . . ولم يبق أمامها إلا تحديد موعد الزفاف — هل يمكن اعتبار هذه العروس ، وهى تطوف بدور الأزياء باحثة عن أجمل قماش يمكن أن تصنع منه ثوب عرسها ... ثم وهى تقلب أحدث " مجلات" الأزياء باحثة عن أحدث طراز يمكن أن تصنع ثوبها على غراره . . ثم وهى تطوف بأفخر محلات الأثاث لتنتقى منها أرقه وأجمله ، وأرشقه ، لتزين به عش أحلامها — هل يمكن اعتبار هذه العروس وهى تفعل هذا كله ، تعيش فى عالم من صنع أوهامها ، أو أنها تعيش فى واقع حى تزيده هذه الأشياء كلها ، تجسيداً . . . وتحديداً . . . ووضوحاً ؟ »

أعتقد أن الجواب عن ذلك السؤال من البداهة بحيث لا أجدنى محتاجاً إلى تكراره .

وأستطيع أن أقول القول نفسه بالنسبة " لنادية" . فإنها فى تهويمها الدائم نحو السماء . . وفى تعلق قلبها وعينيها بها . . وفى تحرق فؤادها لهفة على الصعود إليها — لم تكن " نادية " فى كل ذلك الذى كشفت لنا

عنه خواطرها ، وكلماتها ، وأحلامها . . تعيش فى عالم من الوهم . . ولاتبدد نفسها فى « شطحات» من الخيال ... وإنما كانت تعيش فى واقع.. واقع تحسه ، وتراه ، وتكاد تلمسه بيديها . بل تكاد تعرف الموعد الذى كانت تحس أنها سوف تسافر فيه إلى ذلك العالم الأفضل . . . العالم « الأكثر شفافية ونقاء » . . . العالم الفسيح . . الفسيح الذى كانت تتحرق شوقاً إلى السفر إليه .

فما أكثر ما حدثت أمها — وقبل أن يصيبها أى مرض . . من أى نوع — بأنها تشعر بأنها سوف تبارح دنيانا هذه وهى ما تزال صغيرة !!

ومع أن قلب الأم كان يرفض ، من أعمق أعماقه ، أن يعدّ مثل هذا الحديث حديثاً جادا ، فإنها ، أحياناً ، كانت تحب أن تجاريها :

— صغيرة يعنى إيه يا " نادية" . . . أربعين سنة مثلا ؟ ؟

— أربعين سنة ؟؟ دانت متفائلة جداً يا ماما .

— أمال كم يعنى ؟ ؟

— أصغر بكثير . . .

— ثلاثين مثلا ؟ ؟

— لأ . . أصغر من كده ! !

وتبارح الطمأنينة صدر الأم . . ويحل محلها جزع مكتوم ، وضيق ظاهر . . لكنها تتابع السؤال :

— أصغر من كده يعنى إيه ؟ ؟

— يعنى عشرين . . . واحد وعشرين . . . حاجة زى كده ؟

— يا شيخه . . فال الله ولا فالك .

وتشيح الأم بوجهها عن حديث حبيبتها الذى يملأ صدرها هماً وضيقاً. ثم لا تبرح أن تتذكر هذا الحديث ، وتذكر به من حولها .. كلما ألمت بزهرتها الحبيبة أزمة من تلك الأزمات التى كانت تلم بها بين الحين

والحين ، فتجعل هذه النبوءة . . أو هذه السن التى حددتها " زادية " موعداً لمبارحة دنيانا ، قادرة على القفز إلى ذاكرة أمها .

وصدقت نبوءة " نادية " لنفسها . . . ! !

صدق الموعد الذى حددته لمبارحة الأرض إلى السما . . . . وفارقتنا وهى فى الثانية والعشرين من عمرها ! !

وتجرفنى الذكريات . . .

تجرفنى إلى تذكر يوم من أوائل أيام شهر مايو سنة ١٩٦٩ — آخر الأشهر الخمسة الساحقة التى أمضتها " نادية " بالمستشفى . . وأمضيناها معها نقاتل شبح الموت ، ويقاتلنا ، حتى انتصر فى النهاية علينا . . على كل الجهود التى بذلناها ، وكل الليالى التى سهرناها ، وكل الدموع التى سكبناها ، وكل الآلام التى سحقتنا حتى العظام .

فى ذلك اليوم من أيام شهر مايو ، وكان الظاهر لأعيننا أنها تخطو بخطى واسعة نحو الشفاء . . . فى حين كانت ، فى الغيب الذى لا نعلمه تخطو بنفس الخطى الواسعة نحو عالمها الذى كانت تحبه ، وتتمناه — فى ذلك اليوم جلست ملتصقة بى على أريكة كانت موجودة فى غرفتها بالمستشفى . . . ولعلها انتهزت خلو الغرفة إلا منها ومنى ، وسألتنى :

— يا ترى يا بابا مين فينا أحب واحدة إلى قلبك ؟

— لا أحب أن تتصورى أن هناك أباً يعطى أحداً من أبنائه قدراً من الحب أكثر مما يعطيه للآخر . إن كل الأبناء بالنسبة للأب ، وبالنسبة للأم أيضاً ، سواء . ولا أرضى لذكائك أن يتصور شيئاً غير هذا .

— ربما تكون هذه هى القاعدة . ولكن ، لكل قاعدة — كما يقولون — استثناء .

— إذا كان هناك استثناء حتى لهذه القاعدة ، فلعل الاستثناء الوحيد لها هو ما قالته تلك المرأة العربية الذكية ، عندما سئلت عن أحب أولادها إليها ، فأجابت : « صغيرهم حتى يكبر . . . ومريضهم حتى يشفى . . . وغائبهم حتى يعود » .

— إذن ، فأنا الآن . . وبحكم كونى مريضة . . أحب إخوتى إليك ؟

— مؤكد . . .

وضحكت " نادية" ضحكة فيها غبطة العصفور — وقالت :

— وما رأيك فى أن أظل أحبهم إليك ؟ ؟

قلت لها ، وقد استولى على شىء من الدهشة :

— كيف . . . هل تنوين أن تظلى مريضة ؟ !

— غير معقول طبعاً أن أبقى مريضة طول العمر . . .

— إذن . . . ماذا تنوين أن تفعلى ؟

وببساطة شديدة . . شديدة . . كأنها لا تقول شيئاً — قالت :

— أغيب . . . .

ولو أن " نادية" كانت قد قالت لى كلمة « أغيب » هذه التى قالتها ، فى بساطة شديدة . . شديدة . . وكأنها لا تقول شيئاً ، فى وقت آخر غير هذا الوقت التى كنت أراها فيه تسير بخطى واسعة نحو الشفاء ، لكانت هذه الكلمة جديرة بأن تنفذ إلى قلبى وكأنها طعنة خنجر مسموم . لكننى — والحق أقول — لم أحس للكلمة ، وقتها ، مثل هذا الواقع فى قلبى .

وعدت لمناقشتها :

— تغيبى . . . تغيبى فين . . . تهاجرى مثلا ؟

فكررت ضحكتها التى لم تخل من غبطة العصفور — وقالت :

— يعنى . . .

واستغرقتها ، بعد هذه الكلمة التى لم تزدنى علماً بما كان يدور فى أعماقها ، استغرقتها سرحة خاطفة ، نقلت الحديث بعدها إلى موضوع آخر . . . .

ومر على هذا الحديث الذى دار بينى وبينها ذات يوم من أيام شهر مايو ، وهى تستعد للخروج من المستشفى الذى لزمته خمسة أشهر

كاملة ــ مر عليه شهران . . . ثم . . ثم غابت " نادية" . . .

فهل غابت لأنها أرادت أن تظل أحب إخوتها إلى . . وإلينا جميعاً ؟

ربما . . . .

فإن لله جنوداً إذا أرادوا ، أراد .

ولقد كانت " نادية" ــ ولا أعتقد أنني أحابيها بحسبانى أباً يتحدث عن قطعة من كبده ــ كانت واحدة من جنود الله الذين إذا أرادوا، أراد .

. . كانت منهم بطهرها ، ونقائها ، وتقاها . . . .

. . كانت منهم بصومها ، وصلاتها ، وقرآن الله الذى كانت تتلوه بلسانها . . . وتحفظه فى عينيها وقلبها .

. . كانت منهم بصبرها المذهل على ما ابتلاها به ربها ، وكأنما أراد أن يجعل منه امتحاناً لحقيقة إيمانها به . . فاجتازت الامتحان الإلهى بنفس التفوق الذى اعتادت أن تجتاز به كل امتحان دنيوى دخلته ، وسط إعجاب الجميع . . وذهولهم . . وحنوهم . . ودهشتهم .

. . كانت منهم بتقديسها القلبى والعقلى لأمها ، وتطلعها الصادق ــ أصدق ما يكون الصدق ــ إلى تعويضها ، وإسعادها ، وإسعاد ذلك القلب الكبير الذى وصفته هى نفسها . . . . « بأنه يعطى . . ويعطى ، دون أن يطلب . . ولن يطلب» .

. . كانت منهم بإيمانها النابع من أعمق أعماقها بالله . . وبالجنة وبالنار . . وبالثواب وبالعقاب . . وبأن للكون إلهاً عادلا لا تضيع عنده مثقال حبة من خردل .

. . كانت منهم أخيراً ــ وهذا هو أهم مؤهل فى مؤهلاتها ــ بوجدانها المتجه دوماً إلى الله . . المتحرق شوقاً إلى الصعود إليه . . المتلهف لهفة مذهلة إلى لقائه . . ومكالمته . . ومناجاته .

وأمضى مع الذكريات . . . .

فأتذكر يوماً من أوائل أيام شهر يوليو سنة ١٩٦٩ — نفس الشهر الذى رحلت فيه عن دنيانا فى اليوم التاسع والعشرين منه — فإذا هى تخرج خمسة جنيهات من مدخراتها الخاصة ، وتمد لى يدها بها قائلة :

— خد الخمسة جنيه دى يا بابا . . .

— أعمل بها إيه يا " نادية " ؟

— اشترى بها هدية عيد ميلاد اللى مفروض إنى أقدمها لك .

— لكن يا بنتى دانا عيد ميلادى فى أغسطس . . . واحنا الآن فى أول يوليو . فإيه اللى فكرك به الآن . . . ثم إيه وجه الاستعجال فى حكاية الهدية ؟ ؟

— اعمل معروف . . خد الفلوس واشترى الهدية ، وابقى وريها لى لما تشتريها علشان أستريح .

— يا بنتى . . . .

ولم تدع لى " نادية " الفرصة لكى أتم كلامى . .

— إذا كنت بتحبنى صحيح . . اعمل فى معروف ، ونفذ لى طلبى .

ونفذت لها طلبها .. أخذت منها ، فى أول يوليو ، ثمن هدية عيد ميلادى الذى كان سوف يحل بعد ذلك بأكثر من شهر . . . واشتريت الهدية وأريتها لها . . وما تزال كلمتها ، وهى تقلب الهدية بين يديها ، ترن فى أذنى :

— أهو أنا دالوقت أسعد إنسانة فى الدنيا . . .

وساعتها لم أفهم شيئاً ... ولكنها عندما غابت عنا فى التاسع والعشرين من شهر يوليو — فهمت كل شىء . . . . فهمت أنها كانت تحس ، بل أكاد أقول إنها كانت تعرف أنها ، عندما يحل عيد ميلادى



فى شهر أغسطس . لن تكون معنا . . . وكان هذا هو سر تلهفها الملحّ ، والغريب ، على أن تقدم لى – فى أول يوليو – ما كانت تحب أن تقدمه لى فى شهر أغسطس . . ! !

* * *

وأتابع المضى مع الذكريات . . .

فأتذكر ذلك اليوم الحزين . . اليوم التاسع والعشرين من شهر يوليو سنة ١٩٦٩ – وكنا جلوساً فى مدخل البيت تنتظر موعد خروجها الأخير منه للقاء ربها – فإذا بثلاث من مدرساتها الراهبات يصلن فى نفس اللحظة . .

كن قد زرنها قبل ذلك بثلاثة أيام عندما سمعن أنها قد عادت فانتكست ، وأن الخطر قد عاد يتهددها من جديد .

وفى ذلك اليوم – التاسع والعشرين من يوليو – عدن ، على غير موعد ليكررن لها الزيارة . . . فإذا المفاجأة الحارقة فى انتظارهن . ولكنهن لم يتراجعن . . . بل صعدن السلم ، ودخلن البيت الحزين . . . لا ليعزين الأم التى فقدت قلبها فحسب . . بل صعدن لهذا الغرض . . ولغرض آخر أكبر وأسمى ... ليستأذن فى أن يصلين عليها صلاتهن الخاصة .

وقامت الراهبات . . . من أتباع " المسيح " عليه السلام . . . بالصلاة على الشابة المسلمة ، المؤمنة ، وهى ما تزال مسجاة على فراشها ...

وبعد ساعات . . . ساعات قليلة من صلوات أتباع " المسيح " عليها ، كانت هذه الشابة نفسها هناك .. كانت فى المسجد ، تستمع لصلوات أتباع " محمد " عليه الصلاة والسلام على جثمانها . . .

فأى رضى من الله هذا . . . وأى حب . . . وأى من . . . وأى احتضان ! !

وإذ وصلت إلى الراهبات الحانيات ، وموقفهن منها . ... وصلاتهن عليها . .. . فإنني أحب أن أسأل سؤالاً :

● هل كانت هؤلاء الراهبات اللاتى أحببن "نادية" وأحببنها . . . واللاتى تلقينها بأيد حانية طفلة لا تتجاوز السنوات الأربع من عمرها ، ولا ترى الدنيا إلا أنها شجرة ورد لا أثر للأشواك فيها — هل كانت هؤلاء الراهبات اللاتى تلقينها على صورتها تلك ، وتكونت على أيديهم — شخصيتها ...وأينعت — بينهن — ملكاتها ، وصفاتها ، وكل مقوماتها — هل كن يرينها بالعين التى كنا نراها بها . . أو أننا نحن كنا نرى فتاتنا بعين خاصة تختلف عن عيونهن . . « عين منحازة » تنظر إليها بعدسة مكبرة فتراها أكبر من حجمها . . وتضيف إليها من الصفات ماليس فيها ؟

لقد استبد بى فضول شديد لأتعرف على إجابة هذا السؤال . . . فإن الإجابة عنه جديرة بأن تثبت نظرتنا إليها ، أو تعود بنا إلى شىء من المراجعة على هذه النظرة يضعها — برغم كل العواطف وفوقها — فى موضعها الصادق ، والصحيح ، والأمين .

ومن ثم ، توجهت بسؤالى إلى اثنتين من هؤلاء الراهبات ، كانت من أكثر مربياتها احتكاكاً بها ، وتعرفاً على كل خصائص شخصيتها ... فكانت كل منهما أكثر سعادة من الأخرى بأن أتيحت لها الفرصة لكى تقول رأيها فيها . . . وكانت كل منهما حريصة على أن تسجل هذا الرأى كتابة . . .

● فكتبت إحداهما — وهى الراهبة «الأخت مارى لييس» تقول :

« عرفت "نادية" فى الصفوف النهائية من مراحل الدراسة الثانوية . ويمكننى القول إننى شهدت توجساتها ، وآمالها . وكانت مملوءة حيوية ، ونشاطاً . . . تراقب — بوعى — عالم الشباب ، ونفسياته . وقد تألمت

"نادية" كثيراً — وهى لا تزال صغيرة — للظلم الاجتماعى ، والآلام السائدة فى كل مكان . وكانت دائمة التساؤل : " هل من الممكن أن نتغاضى . . . أو أن نكون سلبيين ، وسعداء أمام هذه المصائب؟ وما معنى الحياة إذا هو تركز فى الراحة المادية والمال ؟ وما معنى السلام الذى نشتريه كل يوم بتنازلات من جانبنا ؟! "

« وكانت " نادية " ترفض الحياة العادية بكل أنانيتها ، فاختارت ان تمضى إلى نهاية ما وضعته نصب أعينها . . . وبدأت ، من هنا ، المغامرة الكبرى . . . .

« لقد كنا نحن الذين عرفناها — أكثر من أى أحد غيرنا — كنا نجد صورة الله فى كل تصرفاتها وتساؤلاتها . . فى شكوكها أحياناً . . . وفى قراراتها وتراجعها أحياناً أخرى . وكان كل من له عينان ليرى ، وأذنان ليسمع ، يستطيع أن يستشف وجود الله ، وعظمته ، فى هذه النفس البشرية !

« إن حياة "نادية" الروحية ، وطريقة صلاتها ، وشعورها بالله ، وبالآخرين . . وفرحها وشعورها بالألم — كل هذه الأشياء كانت خاصة بها ، اكتسبتها بتكوينها ، وأنوثتها ، وثقافتها ، وتجاربها فى الحياة ، واحتكاكها بالآخرين . . وكان معظم كل ذلك مؤسساً على قراءتها للقرآن الكريم الذى كانت تحب دائماً أن يكون بجوارها ، وعلى درجها .

« ولأن "نادية" كانت ترفض الحياة العادية بكل أنانيتها ، فقد روضت نفسها على الصبر ، والتعمق فى صورة الله ، وملكوته . . . وأمام هذا الغذاء الإلهى اكتشفنا شخصيتها المتطورة ، وهذا ما جعل "نادية" قريبة منا . وكنا نرقب محاولاتها للخروج من قوقعتها ، على أن تكون أمينة — فى الوقت نفسه — مع نفسها ، ومع مثلها العليا ، وتساؤلاتها ، وواقعيتها . ووعيها :

« لقد كانت "نادية" عظيمة . وقد استمرت هذه العظمة من معرفتها العميقة لحدود عليها أمام الله . وسوف تبقى "نادية" رمزاً للشباب الكريم القادر على التضحية حتى بنفسه فداء لهذه القيم السامية .

« إنها واحدة من تباشير الربيع الغنى . . ربيع الوعود المشرقة لعالم الغد » .

* * *

● وكتبت « الأخت مونيك » — كبيرة الراهبات بمدرسة « نوتردام ديزابوتر » :

« عندما تمر صورة "نادية" فى خاطرى ، أراها وهى تدخل روضة الأطفال وهى ما تزال فى سن الرابعة . وقد وضحت شخصيتها وهى فى هذه السن المبكرة ، فكانت شديدة الحيوية ، شديدة الذكاء . . . ومنذ ذلك الحين وهى محبوبة من الجميع .

« ولقد استمرت "نادية" على هذا المنوال خلال سنى دراستها كلها حيث نبتت فيها صفات أخرى . فكانت لها شخصية بارزة ... وكانت صراحتها التى بلغت أقصى الحدود من أبرز صفاتهاالمميزة وعندما كانت تختلف مع أحد مدرسيها مما كان يضطرها إلى الحضور لمقابلتى ، كان بوسعى مناقشتها وإقناعها ... ولم تكن تتركنى أبداً دون أن تعدنى باتباع الإرشادات التى كنت أزودها بها .

« وقد حصلت "نادية" على شهادة الدراسة الإعدادية سنة ١٩٦٣ ، وبعدها حصلت على شهادة إتمام الدراسة الثانوية سنة ١٩٦٦ . ثم تركتنا لتلتحق بالجامعة ، ولكنها لم تنس مدراستها قط . وكانت أصالتها تتجلى فى المناسبات المختلفة بشعور بالغ الرقة ، كما كانت تقوم بزيارتنا ، بين حين وآخر زيارة مفاجئة تسعدنا بقدر ما كانت تسعدها .

« ولقد عرفنا "نادية" أكثر ، وأكثر ، فى أثناء مرضها . ومع

أنه لم يكن فى استطاعتنا أن نفعل لها شيئاً نخفف به من حدة الآلام التى كانت تعانيها ، إلا أنها كانت قادرة على أن تشعرنا بأن زيارتنا لها تقوم بدور ملحوظ فى رفع روحها المعنوية .

« وأمام شجاعتها فى احتمال الألم ، كنا نتركها ونحن أشد ما نكون حزناً عليها . . . وأشد إعجاباً بقوة شخصيتها ، وبإيمانها الشديد بالله ، وبالأطباء الذين كانوا يعالجونها، دون أن تفقد الأمل فى أنها سوف تشفى .

« لكن الله لم يرد . . . وانتقلت "نادية" إلى جواره . . . وحققت مثلها الأعلى ؛ وكل رغباتها النبيلة .

« وهى هناك تطل على كل الذين أحبتهم . . . والذين مازالت، بالنسبة لهم، حاضرة بينهم. وسوف تظل ذكرى « نادية » حية دائماً فى نفوسنا ، إذ لا يمكن لكل من عرف "نادية" أن ينساها » .

* * *

وهكذا ترى أن النظرتين لم تختلفا فى شىء . لقد كانت الراهبات الطيبات التى تلقينها بأيد حانية طفلة لم تتجاوز الرابعة من عمرها . . . وظلت بينهن تنمو وتترعرع . . وتترعرع معها ملكاتها ومواهبها، ولم تتركهن منذ ذلك الحين إلا لتدخل الجامعة — كانت هؤلاء الراهبات الحانيات يرينها بالعين نفسها التى كنا نحن نراها بها. فلم تكن عيننا إذن عيناً «منحازة » تنظر إليها بعدسة مكبرة فتراها أكبر من حجمها ، وتضيف إليها من الصفات ماليس فيها .

وليس لهذا الاتفاق فى النظرتين : نظرة الراهبات الطيبات . . . ونظرتنا . . . غير معنى واحد . ذلك أن شيئاً واحداً من مقومات شخصيتها. ومن عناصر شواغلها ، وآمالها ، وآلامها ، لم يكن مبهماً أو غامضاً

بالنسبة لكل من عايشها ، وعرفها ، وأتيحت له فرصة الاحتكاك المباشر بها . لقد كانت «كتاباً مفتوحاً» بالنسبة لجميع من عرفوها . . . كتاباً تسهل قراءته على من يجيدون القراءة كل الإجادة . . . وعلى من لا يجيدون القراءة إلا بعض الإجادة . . سواء بسواء .

ولكم كانت دهشتى عندما قرأت ما كتبته عنها الراهبتان الطيبتان ، ووجدت أن أشياء كثيرة مما كتبتاه عنها ، تكاد أن تكون قد جاءت — وبنفس حروفها — فيما كتبته عنها . . . وكأن الراهبتين الطيبتين قد قرأتا هذه الصفحات ، وتأثرتا بها ، وانفعلتا معها ، مع أنهما لم يريا — بعد — سطراً واحداً من سطورها .

لقد تحدثت كل منهما عن شخصيتها التى كانت بارزة . . . وعن صراحتها المطلقة التى كانت واحدة من أبرز ميزاتها . . . وعن أحزانها من أجل الآخرين ، وتألمها لآلامهم . . . وعن رفضها للحياة العادية بكل آثامها وأنانيتها . . . وعن تعلقها ، بسبب ذلك كله ، بالله . . . وملكوته ... وقرآنه الذى قالت إحدى الراهبتين إنها — أعنى "نادية" — كانت حريصة على أن تضعه دائماً بجوارها . . وفوق درجها ! !

وتحدثتا عن شجاعتها المذهلة فى احتمال آلام مرضها . . وهى شجاعة قلت عنها فى صفحة سبقت إنها كانت مثار دهشة أطبائها ، وإعجابهم فى وقت معاً !

ومن الغريب حقاً أن يجىء حديث إحدى الراهبتين الحانيتين عن « رفض نادية للحياة العادية بكل آثامها وأنانيتها » متفقاً تماماً مع آخر تشخيص طبى لطبيبها المعالج . فلقد قال لنا فى آخر مرة رآها فيها ، وكان ذلك قبل رحيلها بأسبوع واحد فقط ، قال لنا : « إنها ، الآن ، سليمة تماماً من كل مرض عضوى . . أما كل مظاهر المرض العضوى التى

نراها عليها ، فليست إلا تعبيراً عن رفضها الحياة » . ثم نصحنا بأن نحضر لها طبيباً نفسانياً يعالج نفسها . . . أما هو فإنه يرى أن دوره فى علاجها قد انتهى .

وجاء الطبيب النفسانى ليختلى بها ساعتين ، خرج بعدهما من عندها مؤكداً تقرير صديقنا أستاذ الأمراض الباطنية من أنها تمر بحالة « رفض للحياة » . وأضاف : « إن هذه الحالة تعتبر من أخطر الحالات التى يمكن أن يواجهها الطبيب ، ولو أصر المريض عليها لكان معنى ذلك أن تذهب كل جهود الطبيب إلى البحر » !!

* * *

ولست أدرى ما إذا كان عيباً من عيوبها ، أو ميزة من ميزاتها ، أنها كانت إذا أصرت على شىء فلن يستطيع أحد أن يحولها عنه . ولقد كانت "نادية" مقتنعة ، أقوى ما يكون الاقتناع ، بأن حياتنا العادية هذه... بكل ما تنطوى عليه من ظلم ومن آثام وآلام ، لاتستحق منها أن تحياها . لقد كانت تتحرق شوقاً إلى « الحياة الأخرى » حيث الصفاء والنقاء ، والسلام ، والحب ، كانت تحلم بتلك الحياة ، وتتطلع إليها ، وتستعجل اللقاء بها . ومن هنا ، كان صعباً . . . بل كان مستحيلاً أن تسمح لطبيب بأن يحولها عن اقتناعها . . . أو أن تعطيه الفرصة لكى يطفىء – ولو قليلاً – من لظى شوقها .

ولكن . . لأنها كانت مؤمنة بالله ، وبالثواب ، وبالعقاب – أعمق ما يكون الإيمان ، وأقواه ، وأنقاه – لم تستعجل الوصول إلى « الحياة الأخرى » من طريق تحرمها رضوان الله . . . وتباعد ما بينها وبين جناته التى كانت لاتتطلع إلى شىء ، بقدر ما كانت تتطلع إلى رياضها . ومن هنا : صبرت . . واحتملت حتى جاءها نداء ربها . . . حتى سمعت « الصوت البهير » الذى أحسبها قد عثرت على سعادتها . . كل

سعادتها . . ساعة أن استطاعت أن تلبي نداءه .

وصدق الله العظيم إذ يقول : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم . دعواهم فيها سبحانك اللهم وتحيتهم فيها سلام وآخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » .

* * *

إن أشد ما يمسح على جراح قلوبنا التى أدماها رحيلها المبكر غاية التبكير ، هو يقيننا — أصدق وأتم ما يكون اليقين — أنها هناك بينهم ...

. . بين أولئك الذين تجرى من
تحتهم الأنهار فى جنات النعيم .

. . بين أولئك الذين هم فى
جنات ونهر . فى مقعد صدق عند
مليك مقتدر .

. . بين أولئك الذين يدخل عليهم
الملائكة من كل باب . سلام عليكم
بما صبرتم فنعم عقبى الدار .

لقد تعرفت " نادية" على مكانتها
عند ربها ، قبل خمس سنوات من
رحيلها عن دنيانا — تعرفت " نادية" على هذه المكانة عندما كتبت فى مذكراتها فى فبراير سنة ١٩٦٤ تقول :

● « أماه ما أحلى اللقاء . . . .
« إنى أسمع الصوت البعيد ...

و إشارة الملكوت نحوى والنفير
أماه هذا الضوء من ربى القدير
ونداؤه : ليلى . . هبى من نوم
صغير
« ليلى اصعدى نحو السماء . .
نحو الله . . وبجانب الرب الغفور
« أماه إنى صاعدة . . أماه
إنى فى حبور
« أماه لا تبكى . . ففى
جناته أحيا وأطير .

* * *

ولست أستطيع ، وأنا أروى هذه الصفحات من حياة ابنتى ، أن أنسى أنه كان " لنادية " عند مغادرتها المستشفى — وفى أحضانها وأحضاننا جميعاً ، أمل زاه بأنها قد سلمت من كل خطر كان يتهددها — لست أستطيع أن أنسى أنه كان لها عندى مطلب : أن أصطحبها إلى أى مكان ، وكل مكان تحب أن تذهب إليه . وكان وعداً صادقاً منى بأننى سوف أضع نفسى تحت تصرفها فى كل ما تريد أن تفعل . . . ولم يكن هناك شيء يمكن أن يسعد قلبى ، ويمسح عنه أحزان الأشهر السبعة الأليمة ، والمريرة التى عشتها بجوارها أقاتل اليأس ، وأتقرب إلى الأمل . . أكثر من أن أراها وقد توافرت لها القدرة على تحقيق ما تريد أن تفعل .

وحققت " لنادية " ما أرادت . . . اصطحبتها إلى كل مكان أحبت الذهاب إليه . فذهبنا يوماً إلى « كازينو ميرلاند » . . . ويوماً آخر ذهبنا إلى « فندق شبرد » . . . ويوماً ثالثاً ذهبنا إلى « كازينو قصر النيل » . . . ويوماً رابعاً اصطحبتها معى فى السيارة ، فطافت بشوارع القاهرة التى كان قد مضى عليها أكثر من سبعة أشهر لم تر أضواءها .

وهكذا . . . لم يعد هناك مكان أحبت " نادية " الذهاب إليه ، وحيل بينها وبينه . . . لم يعد هناك من الأماكن التى أحبتها . . . وأحبت الذهاب إليها بكل ما انطوت عليه جوانحها من حب ، ومن شوق ، ولهفة . . غير « السماء » . . . وحتى « السماء سافرت » " نادية " إليها .

هى .. ونفسها !

ترى .. هل حمّلت "نادية" نفسها الغضة فوق ما تطيق ، حتى ناءت هذه النفس – قبل الأوان – بما احتملت .. ؟

سؤال ليست الإجابة عنه بالشيء الصعب .. بل هى إجابة نستطيع أن نصل إليها فى سهولة ويسر ، من خلال أفكارها التى عرفناها .. ومن خلال شواغلها التى لمسناها .. ومن خلال المشاعر الكبيرة والعميقة التى رأيناها تعتمل فى أعماقها .. وتحمّلها من أحزان النفس وآلامها مالم تستطع أن تحتمل .

فإن فتاة تعيش – وهى ماتزال فى الرابعة عشرة من عمرها – « ثورة الجزائر » ، بكل كيانها .. وبكل حماستها وحبها .. فتكتب عنها القصص وتقول فيها الشعر ، وتحتفظ بين أوراقها الخاصة جداً بصور قادتها ، وأبطالها ، وشهدائها ، وكأنهم بعض أفراد أسرتها . !!

ثم تذرف الدموع سخينة من أجل كاتب فرنسى حر « كأليير كامى » الذى لم تعرف منه غير فكره المفتوح ، وغير تعاطفه الوجدانى مع ثوار الجزائر الذين كانت تعيش بكل قلبها معهم ، وتسرح بخواطرها إلى أرضهم ، وتتمنى بين ما تتمناه من أغلى الأمانى أن تكون بين صفوفهم لكى تقاتل معهم ، وتنتصر معهم ، أو تستشهد معهم على تلك الأرض التى عشقتها ، والتى قالت عنها فى قصتها : « أمنية » – المنشورة فى غير هذا المكان من هذا الكتاب – « إنها ستظل عربية .. عربية .. عربية » على الرغم من أنها – أعنى الجزائر – كانت ماتزال أسيرة فى قبضة الفرنسيين ..

وعلى الرغم من أن هؤلاء الفرنسيين كانوا ما يزالون ينظرون إليها باعتبارها امتداداً طبيعياً لبلادهم .. لفرنسا !!

ومن عجب – وما أكثر ما يدعو إلى العجب فيما كان يصدر عن فتاتنا ، وبخاصة فى أيامها الأخيرة – أن تسمعها أمها ، فى اللحظات السابقة مباشرة على رحيلها عن حياتنا الدنيا ، تتمتم لنفسها بصوت واهن لا يكاد يسمعه أحد .. وكأنه يصل إلى الأرض من قمة جبل – قائلة وهى ترمى بنظرها إلى بعيد .. بعيد جداً :

– رائعة .. رائعة !

وتسألها أمها فى فضول :

– من هى يا ابنتى .. ؟

فتجيبها " نادية " ، وهى ماتزال ترمى بنظرها إلى بعيد .. بعيد جداً قائلة :

– الجزائر ... !!

ولم تفهم أمها من هذه الإجابة شيئاً أكثر من أن ابنتها كانت ترى « الجزائر » رأى العين ، فى حين لا يشاركها أحد من كل الذين كانوا يجلسون حولها هذه الرؤية .. ولم يسع الأم إلا أن تحترم ما تتمتم به ابنتها لنفسها ، وتسكت عن الكلام معها .. مكتفية بأن تذرف الدموع فى صمت جليل .

* * *

وإن فتاة تعتصر قلبها الصغير عصراً حتى لتحيله إلى دموع تنساب من عينيها حزناً على بضعة من تراب وطنها وقعت أسيرة فى قبضة أعدائه ثم لا تضن بدموعها من أجل مجموعة من رياضيي بلادها سقطت بهم الطائرة فى قاع المحيط ، دون أن تربطها بواحد من تلك المجموعة صلة ؛

إلا صلة الأخوة فى الوطن .. ثم تألم ، أعمق ما يكون الألم ، من أجل فنان أجنبي " كفان جوخ " يضطهده الناس .. وتضطهده الأقدار .. فتحزن لحزنه ، وتتعذب لعذابه ، وتعطيه من مذكراتها الشخصية حيزاً لم تعطه لشأن من شئونها .. ولا لألم من آلامها .. ولا لأمل من آمالها .

وإن فتاة تبكى ، أحر بكاء ، ساعة أن تسمع بنبأ اغتيال الرئيس الأمريكى "جون كيندى" .. ثم تفسر بعد أن تهدأ، السر فى بكائها الحار بأنه لم يكن من أجل شخص "جون كيندى" بقدر ما كان من أجل زنوج أمريكا الذين شعرت ، ساعة سماعها لذلك النبأ ، أنهم فقدوا باغتيال "كيندى" زعيماً كان البادى من أقواله وأفعاله يدل على أنه سوف يصبح نصيراً حقيقياً لهم ، ولحقوقهم المقدسة فى الحياة والحرية !

* * *

إن فتاة هذه هى حالها .. وهذه هى حقيقة شواغلها ، وأحزانها ، وآلامها .. لم يكن ممكناً إلا أن تنوء نفسها الغضة بما حملت .. ولم يكن ممكناً إلا أن يسقط كيانها الصغير تحت وطأة ذلك العبء النفسى الثقيل الذى كان مستحيلا عليها احتماله .

لقد كانت نفسها المرهفة تطوف بها حول الدنيا كلها : حول من تعرف ومن لا تعرف . . حول من يجمعها بهم الدين ، والجنس ، واللغة وحول من لا يجمعها بهم دين ، ولا جنس ، ولا لغة .. كانت نفسها المرهفة هذه أشبه ما تكون بطائر مهاجر .. لا يستريح إلى غصن ، ولا يستقر على فنن ، وتظل رحلته إلى الأرض التى يقصدها شاقة ، ومضنية ، وقاسية ، حتى يعثر أخيراً على الأرض التى يقصدها .. أو يموت قبل أن يصل إلى هذه الأرض !

وكالطائر المهاجر . . كانت نفس "نادية" . ولقد نجح طبيبها المعالج "جمال مجاهد" فى أن يستكشف نفسها مع استكشافه لمرضها .. ولأنه استكشف هذه النفس ، وما يعتمل فى أعماقها ، على الرغم من كونه أستاذاً فى الأمراض الباطنية ، وليس فى أمراض النفس ، فقد وصف لها — وكان ذلك فى أكتوبر سنة ١٩٦٨ — كتاباً تقرؤه . وكان الكتاب هو : « الوادى المقدس » للأستاذ الدكتور محمد كامل حسين . وقال لى الطبيب الصديق ، فيما بينى وبينه .. وبعد أن وصف لها « الوادى المقدس » كعلاج لمرضها : « إننى أشعر بأن ما تشكو منه إنما هو علة من علل النفس ، أكثر مما هو داء من أدواء الجسد ، وأعتقد أنها سوف تخلص من كثير مما تشكو منه بقراءتها لهذا الكتاب » .

وكان « الوادى المقدس » — حقيقة — واحداً من الكتب القليلة الرفيعة التى تستطيع أن ترتاد بالنفس البشرية شاطئ والسكينة والاطمئنان ، وتنفى عن هذه النفس كثيراً من قلقها إن كان بها قلق .

وجاءت "نادية" بكتاب « الوادى المقدس » وقرأته .. وتوقفت طويلا عند الصفحات الأولى منه ، وكتبت على هوامشها : « رائع .. رائع » . كانت الصفحات التى توقفت « نادية » طويلا عندها ، هى هذه التى يعرف فيها "د . محمد كامل حسين" الوادى المقدس بقوله :

« الوادى المقدس هو البقعة من الأرض ، وهو القطعة من الزمن ، « وهو الحال النفسية التى تسمو بها فوق طبيعتك وطبيعة الأشياء ، فوق ضرورات الحياة ، بل فوق حدود العقل .

« هو حيث يكون إيمانك بما تؤمن به إيماناً قوياً خالصاً لا يشوبه شك ولا يعتريه ضعف . هو حيث يملك عليك هذا

الإيمان عقلك كله وإرادتك كلها .
هو حيث تقف خاشعاً فى غير رهبة ،
خاضعاً طواعية للمثل التى ترضاها
لنفسك وإن لم يشهد عملك رقيب ، لا
يحملك على مشقة ذلك إلا الإيمان
وحده ، لا ترجو على ما تعمل جزاء
ولا تخشى عقاباً .

« هو حيث يحتوى قلبك حب
عميق خال من كل غل أو حقد ،
لا يعتريك فيه قلق أو ندم ، ولا
يصيبك فيه خيبة أو يأس .

« وهو حيث تهتدى إلى الحكمة
والتفكير المستقيم . حيث تطلع على
حقيقة من حقائق الكون ناصعة واضحة
وحيث تستقيم لك جادة الحق فلا
تتردى فى ظلام الجهل أو ضباب
الخطأ .

« وهو حيث آمالك كلها خير
وأحلامك كلها جميلة . لا يقع
الشر منك ولا يقع الشر عليك .
حيث تكون الطبيعة ، وجسمك ،
وعقلك ، ونفسك متوافقة توافقاً
موسيقياً تكمل به السعادة الإنسانية .

« وهو حيث تسمع صوت ضميرك

صريحاً واضحاً آمراً بالخير فى غير لبس هادياً إلى الحق فى غير تردد ، كأنه صوت الله .

* * *

فى « الوادى المقدس » تتحقق لك أحلام كلها خير

« يخيل إليك فيه أن القوى الطبيعية زال عنها شرها كله ، ولم يبق منها إلا خيرها . فالنار تضىء ولا تحرق ، والفراشة تشتاق إلى اللهب فتقع عليه ولا يصيبها منه أذى .

« ويخيل إليك فيه أنك بمعزل عن الزمن وما يحدثه فى أمور الناس من فساد . عالم يشمل فيه الخير كل شىء ، وفيه يتحقق أمل كل مخلوق . صفات ليست غريبة على جنة الفردس .

« الوادى المقدس يكون حيث تريد وحين تريد ، لا يحده مكان ولا زمان . . لا يحده تعريف ولا وصف بعينه ، فحيثما تطهرت نفسك . . وحيثما عملت عملا جميلا فثم واديك المقدس .

« واديك المقدس هو المأوى الذى يقيك عواصف الشر ، هو كمال سعادتك إن كنت سعيداً ، وهو أملك الوحيد إن كنت شقياً ، ولا غنى لك عنه فى حالتى النعيم والبؤس . هو فى النعيم هداية .. وفى البؤس أمل وعزاء .

« فإن كنت ممن يعملون الخير عفواً ، ويتجنبون الشر عرضاً دون أى إيمان خالص أو حب عميق أو حكمة واضحة ، فإن الخير الذى تعمله لا يجلب لك الرضا الذى تطمئن به النفس الإنسانية ، فهو خير أبتر لأنه فى غير الوادى المقدس.

« والوادى المقدس هو جنتك التى تتقى بها ظلم الظالمين ، فيه ترى نفسك أعظم خلقاً وأعلى قدراً ممن ظلموك ، ويكفيك هذا السمو مرضاة لك دون أن تثور فيك عاطفة سقيمة مرذولة كالانتقام أو الثأر من الظالمين . والظلم والانتقام سلسلة من الشر متصلة مفرغة لافكاك منها .

« فى الوادى المقدس ينظر المتطهرون إلى غير المتطهرين من الظالمين مشفقين عليهم ، كما ينظر أهل الجنة إلى أهل النار .

* * *

« والنظام القائم بين الناس ، حتى اليوم ، فيه مرتفعات وسهول ووديان وفوق المرتفعات أقزام هم دونك قدراً وهم أقل منك علماً وحكمة وخلقاً ، ولكنهم يتحكمون فى أمور حياتك بقوة ارتفاعهم عنك ، فهم أعلى منك وإن لم يكونوا أطول قامة ، ولا أعظم نفساً .

« وفى الوديان قوم يرون أنك منهم بمنزلة أهل المرتفعات منك . أما فى الوادى المقدس ، فلا يتفاضل الناس إلا بقدر ما فيهم من خير يسمو فيه المظلوم — وإن كان متواضعاً — فوق الظالم ، وإن بلغ السماء عظمة . وشغل الناس بمجده وجبروته ، ذلك أن الظالم لا يستطيع أن يستمتع بأمن الوادى المقدس مادام ظالماً .

« فإذا رأيت نفسك فى قبضة « شر لا تستطيع له ردا ، وإذا اعتراك

اليأس وبدأت تسأل عن معنى الحياة ،
وإذا غلبتك القوة القاهرة الكامنة
فى النظم التى لا تستطيع تغييرها —
إذا حل بك هذا الظلم ، فليس لك
إلى النجاة من سبيل إلا أن تأوى
إلى واديك المقدس تلتمس فيه الخلاص
من اليأس والقلق .

* * *

كانت تلك هى الصفحات الأولى من « الوادى المقدس» التى توقفت "نادية" طويلا عندها .. لتكتب على هوامشها ، بعد ذلك التوقف الطويل « رائع .. رائع » وكأنها تصفق للمؤلف فى حرارة وإعجاب . إلا أن الكتاب ، مع ذلك ، لم يحدث بنفسها القلقة المرهفة ، كل الأثر الذى كان طبيبها المعالج ينشده من وراء نصيحته لها بأن تقرأه .. ولم يكن لذلك من سبب إلا أنها كانت تضع إحدى عينيها على الكتاب ، على حين تضع عينها الأخرى على حياتنا الدنيا ، وعلى ما يدور فوق مسرحها الكبير من مآس كثيرة ، ومريرة ، تكفى كل واحدة منها لأن تبدد من نفسها كل أثر طيب يمكن أن يتركه « الوادى المقدس » فيها .. ولست أرى فى هذا ما أعده غريباً بالنسبة لها . فلقد التقينا بإحدى مربياتها — الأخت الراهبة « مارى ليس » — وهى تحدد لنا بعض ما كان يشغلها ، ويعتمل فى أعماقها بقولها :

« كانت "نادية" ترفض الحياة
العادية بكل أنانيتها . . وكانت
دائمة التساؤل : هل من الممكن أن
نتغاضى ، أو أن نكون سلبيين

وسعداء أمام هذه المصائب ؟ وما معنى
الحياة إذا هى تركزت فى الراحة والمال؟ وما
معنى السلام الذى تشتريه كل يوم
بتنازلات من جانبنا ؟ »

وإننى لأعد هذا الذى قالته عنها مربيتها ، فى سطر أو سطور ، أذق تلخيص وأصدقه لمأساة حياة فتاتنا كما عرفناها نحن ، وعشناها ، وعانيناها . فلقد كانت حياتنا الدنيا ، بوجهها القبيح ، تعذبها .، كان إنكار الأفراد بعضهم بعضاً ، واضطهاد الجماعات بعضهم بعضاً يقلقها .. ويؤرقها .. ويفسد عليها طعم الهناء الذى كان من حق عمرها عليها أن تدع لنفسها الفرصة لكي تتذوقه وتعيشه .

وما أحسب أن "نادية" قد اختارت لنفسها « طريق العذاب » بإرادتها ، بل هو شيء خارج تماماً عن تلك الإرادة ، فإننى أراها قد حملت إحساساتها بآلام الآخرين ، وعذابهم ، وأحزانهم ، كما حملت أية قسمة من قسمات وجهها .. ليس لها يد فى هذه كما ليس لها يد فى تلك .. وإنما هكذا خلقت ، ولم يكن لها من خيار .

على أن هذه الصورة الغارقة فى رهافة الحس التى خلقت عليها " نادية " ليست مطلقاً بالصورة التى تدعونا إلى أن نأسى من أجلها .. بل هى ، على العكس من ذلك ، صورة تدعو إلى الاعتزاز العميق بأن خلقت فتاتنا عليها ، على الرغم من أنها — أعنى رهافة حسها — قد أوردتها ، وهى ماتزال تخطر نحو أجمل سنوات عمرها ، موارد الألم والعذاب . فليس هناك أجمل بالنسبة للإنسان .. أى إنسان .. من أن يكون إنساناً بحق .. وهو لن يكون إنساناً بحق إلا إذا أحس بآلام الآخرين ، وعاش عذابهم ، وتألم لآلامهم ..أما ذلك الذي يغلق نفسه علي نفسه .. ويوصد باب قلبه دون أحزان الآخرين ،

وآلامهم ، فهو يمكن أن يكون أى شىء ، إلا أن يكون إنساناً جديراً بكلمة « إنسان » .

وإننى لأذكر – بالكثير من الاعتزاز والرضا النفسى – ذلك اليوم الذى عادت إلينا فيه "نادية" من الجامعة، وهى محزونة القلب باكية .. وكان السبب فى حزنها وبكائها أن كمسارى « الإمينوبوس » الذى كانت عائدة به هدد سيدة فى عمر جدتها بالصفع على وجهها ، وهم بأن يفعل ذلك لولا أن منعه نفر من الركاب . !!

قالت لى "نادية" وهى تحكى لى الحكاية :

– لقد تصورت أنا هذه السيدة العجوز هى جدتى ، وأن الكمسارى قد نفذ فيها تهديده وصفعها فعلا على وجهها .

قلت لها ، محاولا التخفيف عنها :

– ولكن .. بما أن ذلك لم يحدث ، فليس لك أن تبكى .. ولا أن تحزنى .

قالت :

– إذا كان ذلك لم يحدث ، فلسبب خارج عن إرادة الرجل .. فقد تكاثر عليه الركاب ومنعوه من تنفيذ تهديده . أما لو كانوا قد تركوه لإرادته لما تردد لحظة فى أن يصفع هذه السيدة التى كانت فى سن جدتى .

ثم أضافت ، وهي ماتزال غارقة فى حزنها من أجل تلك السيدة العجوز :

– لقد أعتزمت أن أشكو فى هذا الكمسارى إلى رؤسائه . ومن أجل هذا التقطت رقم « الأمينوبوس» ، كما جئت بأسماء بعض الركاب الذين شهدوا الحادث ، وعناوينهم !

قلت لها :

— أريحى نفسك .. فإن رؤساء هذا الكمسارى لن يفعلوا له شيئاً .. ولو كان هو يعلم أن رؤساءه قادرون على محاسبته ، لما أقدم أصلا على ما أقدم عليه .

فنظرت إلىّ ، وقد امتلأت عيناها بالدهشة من إجابتى ، وقالت :

— ليكن ما تقوله صحيحاً ، فإن ذلك لن يمنعنى من أن أنفذ ما اعتزمت... على الأقل لكى أريح ضميرى .

* * *

وهكذا كانت عينا "نادية" مفتوحتين دائماً — وأشد ما يكون الانفتاح — على « العذاب » .. تلتقطانه من أى مكان ، ومن كل مكان من أى شىء ، ومن كل شىء .. من مشهد تشهده ، ومن كتاب تقرؤه ومن صورة تراها ثم لا تترك النسيان يجور عليها .. بل تحتفظ بها بين أوراقها الخاصة لكى تعود ، بين الحين والحين ، فتعاود النظر إليها — كصورة ذلك الراهب الذى أحرق نفسه احتجاجاً على الحرب فى « فيتنام » والتى حدثتك عن أننا وجدناها محتفظة بها بين أوراقها .. وكأنها كانت تريد أن تحتفظ بصورة « العذاب » بين أغلى ما كانت تحفظ من ذكريات !!

وهى والآخرون !

كانت "نادية" فى كل تصرفاتها ، وفى جميع مراحل عمرها ، « إنسانة » بحق .. فهى كانت إنسانة تحملها إنسانيتها ما لا طاقة لها به .. تأسى إلى حد البكاء بالدموع — من أجل كثيرين لم ترهم ، ولم تعرفهم ، بل لم تعاصرهم . ومن ثم فإنها لم تعدم ، حين غادرت حياتنا الدنيا ، كثيرين يأسون من أجلها ، ويذرفون دموعهم حزناً عليها .. على الرغم من أنهم لم يروها ، ولم يعرفوها ، ولم يسمعوا بها قبل أن يروها خبراً فى صفحة الوفيات . ومن هؤلاء طالب بكلية الطب بالمنصورة ، اسمه : « محمد على المخزنجى » . لن أستطيع ، مهما حاولت ، أن أنسى أساه عليها .. وحزنه من أجلها . وهو ، فى تقديرى ، لم يهتز تلك الهزة العنيفة التى اهتزها إلا لأنه ، كما وضح من السطور التى كتبها لى — على غير معرفة — معزياً فيها ، يحمل نفس تركيبها الإنسانى : نفس المشاعر المرهفة ، ونفس التألم لآلام الآخرين ، ونفس الحزن لأحزانهم ، ونفس العذاب لعذابهم .

وإننى لأستأذنك فى أن أدعوك لتقرأ معى رسالة طالب الطب الذى لم ير "نادية" .. ولم يعرفها .. ولم يعرف منها غير صورتها التى نشرتها صفحة الوفيات . إننى أدعوك لذلك لأحفظ عليك إيمانك «بالإنسان» .. وبنقائه .. وبأنه ، على الرغم من كل شىء ، لايزال أقوى من ذلك الضباب الكثيف الذى كثيراً ما يغشى إنسانيته إلى حد يكاد يقودنا إلى شىء كبير من اليأس منها ، إن لم يكن إلى كل اليأس منها .

ولنقرأ معاً رسالة طالب الطب :

« سيدى ...

« لست أدرى بالتحديد ما هو ذلك الشيء الذى يدفعنى إلى الكتابة إلى إنسان لا يعرفنى ولا أعرفه . ربما يكون ذلك ما يسمونه بعملية التفريغ النفسى .. وربما أى شىء آخر .. لا أدرى ..

« سيدى ..

« فى صباح الخميس الماضى .. وبينما أتصفح الجريدة ، وقعت عيناى على صورة فتاة رقيقة صغيرة . . ربما تكون فى نفس عمرى . كانت تبتسم . . وكأنها تبتسم لكل أمنيات الأيام الآتية . كانت طيبة لاتدرى أن بسمتها تلك ستكون يوماً ما دعوة للآخرين فى يوم إحياء ذكرى رحيلها .

« طويت الجريدة . . وأخذت أصابعى تعتصرها فى ألم وكأنها تحتج على ما حدث . أغمضت عينى ، ورحت أسائل نفسى : ترى .. ماذا كان يضير القدر لو أنه أعطى "نادية" بضع سنين قليلة أخرى ، تملأها بالحياة .. وبالسعادة .. وبالأمل ؟ !

« ترى .. أى حكمة تلك التى
تكن فى قتل الزهور قبلما يرحل الربيع؟
« ترى .. أى ذنب ارتكبه ذلك
الكائن الرقيق ليوضع — وحده — فى قبر
من الظلام والصمت ؟ !

« سيدى ..
« صدقنى .. لن أصلى بعد الآن .
لن أصلى حتى تبرأ أصابع الأطفال
المشلولة دون ما ذنب جنوه . لن أصلى
حتى تتمكن الزهور من أن تحيا
ربيعها كاملا .

« سيدى ...
« أرجو احتمالى .. فربما الآن
فقط .. بعد تلك الكلمات . . الآن
فقط . .. أشعر أننى أريد أن أصرخ
فى وجه القدر .. أصرخ كل يوم ..
كل ساعة .

« سيدى ...
« أريد صورة "لنادية" لكى
أضعها على مكتبى إلى جوار صديقتها
الفيتنامية الصغيرة التى ماتت لأنها
التقطت قنبلة كانت تحسبها دمية
من تلك التى يلقيها الأمريكيون على
مدارس « هانوى » فى أعياد الطفولة . . .

« وفى أعياد الميلاد !!

« سيدى ...

« أرجوك .. أعطنى الكلمات التى تحكى أيام "نادية" : طفولتها . . طموحها .. آلامها .. آمالها .. أحزانها .. ومعذرة إذا كنت قد آلمتك . . فأنا لا أقصد . . فأنا نفسى أتألم . . أرجو أن تقدر نوعيتى .

« عزائى لك . .. ولكل الذين يريدون العدالة من القدر بأن يمنحهم الحق فى سنين قليلة لا أكثر . . عزائى لنفسى فى الآخرين . . فى الزهور »

* * *

تلك كانت رسالة « إنسان » ممن أسوا لموت "نادية" وبكوا لفراقها دون أن يروها.. ودون أن يعرفوها. ولقد قلت لك إن هذا الطالب الإنسان لم يهتز تلك الهزة العنيفة التى اهتزها إلا لأنه يحمل فى أعماقه نفس «تركيبها الإنسانى »، ونفس إحساساتها ، ونفس نوازعها . ومن الغريب حقاً أن يتضح ذلك فى إفصاح الطالب الإنسان عن أنه يحتفظ على مكتبه بصورة لفتاة صغيرة من فيتنام ماتت لأنها التقطت قنبلة أمريكية كانت تحسبها دمية .. فى الوقت الذى كانت فيه "نادية" تحتفظ بين أوراقها الخاصة بصورة أول راهب فيتنامى أحرق نفسه احتجاجاً على الحرب فى بلاده : وما أحسب ذلك إلا تأكيداً للقول المأثور : « الأرواح جنود مجندة .. ما تآلف منها أئتلف ، وما تنافر منها اختلف » .

ولقد شفع طالب الطب رسالة عزائه فى "نادية" وحزنه من أجلها — شفع هذه الرسالة برجاء قال فيه :

« أرجو .. مجرد رجاء إنسانى ..
أن تضع الأقصوصة المرفقة بهذه الرسالة
مع إكليل زهر على قبر الكائن الرقيق
الذى لم أره إلا بعد رحيله » .

ولقد نفذت للطالب الإنسان رجاءه .. فوضعت ، باسمه إكليلا من الزهر على قبر "نادية" . أما الأقصوصة . . فإننى أرى أن مكانها الطبيعى هنا . . فى هذا الكتاب الذى يحكى قصة حياتها ، وليس على القبر الذى يحوى جسدها .

وهذه هى « الأقصوصة » كما كتبها طالب الطب « محمد على المخزنجى » ، وقد أسماها : « قطة الكورال الصغيرة » .

« أطفئت أنوار الصالة . . لتضاء
عند أقصى اليمين المصابيح الشاحبة
الضوء ، والبيضاء ، والوردية ،
والتى فى لون السماء . . فى دائرة الضوء
الأبيض كان وجهها الطفل يتلألأ
كأضواء زورق حالم تنعكس فى عيون
نهر صغير .

« كانت شفتاها الرقيقتان ترددان
أغنية عيد دافئة . . كانتا كزهرتى
قرنفل ورديتين ترصعان صدر ثوب
جان دارك الأبيض . . أما أصابعها
الصغيرة الرقيقة فقد راحت فى طفولة

تداعب دمية .

« كانت عيناى تحتضنان عينيها الطفلتين الرائعتين فى رقة ، فى حين ينساب داخلى لحن عيد الميلاد دافئاً . . سعيداً . كانت ، وأنا ، كقطة صغيرة تدفئ صدر طفل وحيد كلما أقبل المساء .

« كنت أرى عندها السعادة التى يجب على العالم أن يهبها لكل عصافيره الصغيرة . . بلا حدود . . وبكل الحب .

نهضت من مقعدى ، ومازال أغنية عيد الميلاد تنساب فى أعماقى حلوة دافئة .

« اشتريت زهرة قرنفل بيضاء لكى أهبها لقطة الكورال الصغيرة عند نهاية الحفل . . بعدما أنهت أغنيتها الأخيرة ، وعلت أصوات الأكف تصفق فى حرارة وإعجاب .

« غمرت الأضواء جنبات الصالة التى كانت تحيا أمسية ربيع بين وريقات البنفسج .

« نهضت من مقعدى ، وأخذت أبحث عن قطتى . . قطة الكورال

الصغيرة .. حتى وجدتها .

« كانت فى فرحة الأطفال الصغيرة تبتسم . . وخطوت نحوها خطوة ثم توقفت . . فقد توقفت عيناى حزينتين باكيتين على " الكول الأبيض " الذى يحيط بعنقها الصغير الرقيق . . فقد تذكرت لحظتها ، قطة أخرى مثلها . . مثلها تماماً . . حول جيدها الرقيق . كان " كول أبيض " . . ومع ابتسامتها الوديعة كانت كلمات حزينة تدعو الأصدقاء لإحياء ذكراها .. ذكرى " نادية " .

« ترقرقت فى عينى دمعتان .. وسقطت القرنفلة البيضاء من يدى . . وبينما كنت أخطو مغادراً صالة المسرح كان لحن حزين ينساب فى أعماق .. ومن خلال ستار الدموع تراءت لى ندف من الجليد تتساقط على قبر حزين . . وحيد . . كتب على شاهده الرخامى الأسود . بحروف بيضاء : وداعاً يا قطتى العزيزة ..

نحن . . والموت

والآن . . . ماذا فعل بى موت ابنتى . . . ولما كل هذه الصفات فى مثل هذه السن الباكرة ؟

سؤال أحسب أن كثيرين يتوقون لأن يتوفون منى على الإجابة عنه .

وأحسبهم سوف يدهشون عندما أقول لهم — بكل الأمانة والصدق — إن موتها لم يسحقنى . . . لم يطحن عظامى . . . ولم يهدم كيانى. . . مثلما سحقنى ، وهدم كيانى ، مرضها . فلقد كان العذاب الأليم الذى لقيته ابنتى على مدى أشهر سبعة ، والذى احتملته فى صبر وشجاعة على الرغم من صغر سنها — كان هذا العذاب الأليم ينعكس على بصورة مروعة جعلتنى أشعر كأننى واقع بين شقى رحى . . . وأن هذه الرحى تأخذنى ، مع كل آهة تصدر عن ابنتى ، بين شقيها فتطحننى بقسوة طاغية لاتحطم قلبى فحسب . . . بل تحطم كل شىء فى . . . حتى عظامى .

أما موتها فإنه لم يفعل بى أكثر من أنه جرحنى من الداخل جرحاً عميقاً وأليماً . لكنه لم يحطمنى مثلما كنت محطماً فى أثناء مرضها ، ولم يسحقنى مثلما كنت مسحوقاً فى تلك الأثناء . ويرجع ذلك ، فى يقينى ، إلى سببين :

أولهما : أن موتها قد وضع حداً لعذابها الأليم الذى كان قد أوقعنى بين شقى الرحى ليدورا — بكل القسوة ، واللامبالاة ، والعنف — فوق قلبى . . ولحمى . . وعظامى . . دون أن أملك حيال هذه الرحى

شيئاً أقلل به من حجم تلك القسوة التى كانت تدور بها فوق قلبى ... ولحمى . . وعظامى .

وثانيهما : أننى أومن إيماناً عميقاً — ليس من إيمان العجائز فى شىء — وإنما هو إيمان قائم على العقل ، والفهم معاً . . . بأن الموت ليس نهاية . . . بل هو بداية : بداية حياة جديدة ، وسعيدة ، ونقية . وطاهرة . . حياة لا ترى فيها ابنتى — هى ، ومن سبقوها إليها ، ومن سوف يلحقون بها — شمساً ولا زمهريراً . ولا تسمع فيها ابنتى — هى ، ومن سبقوها إليها ، ومن سوف يلحقون بها — لغواً ولا تأثيماً . . . إلا قيلاً سلاماً . . . سلاماً .

«مَثَلُ الجنَّةِ التى وُعِدَ المُتَّقون فيها أنْهارٌ من ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وأَنْهَارٌ من لَبَنٍ لم يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وأَنهَارٌ من خَمْرٍ لذةٍ لِلشَّارِبينَ وأَنْهَارٌ من عَسَلٍ مُصَفًّى ولَهُمْ فيها مِن كُلِّ الثمراتِ ومَغْفِرَةٌ مِن ربِّهِمْ »

* * *

«وجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا . مُتَّكِئينَ فِيهَا عَلى الأَرائِكِ لا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْساً ولا زَمْهَرِيرًا . وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً . وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِن فِضَّةٍ وأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَ . قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا . وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْساً كَانَ مِزَاجُهَا زَنْجَبِيلاً . عَيْناً فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً . وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ

وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَنْثُورا. وإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكًا كَبِيرًا . عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَاباً طَهُوْرًا »

* * *

إن حياة هذه بعض صورتها — لا كل صورتها — كما فصلها القرآن الكريم ، وجددها ، وجسدها ، لجديرة بأن تملأ قلوبنا راحة ، وسكينة ، وطمأنينة على أحبائنا الذين سبقونا إليها ، وعاشوا فيها ، ونعموا بها .

وإذا كان موت ابنتي قد جرحني من الداخل جرحاً عميقاً وأليماً... فلا يرجع ذلك إلى « الموت » فى ذاته . فإننى ، كما قد أفضيت إليك ، لا أعد « الموت » نهاية .. وإنما يرجع ذلك إلى « الفراق » الذى يخلفه « الموت » وراءه كأثر مباشر من آثاره . . . وإلى إحساسى بأننى لن أعود فأرى وجه ابنتى . . ولن أسمع صوتها . . ولن أشاركها ضحكاتها ، وآمالها ، وآلامها . . . إلى أن يأذن الله لى باللحاق بها .

إن « الموت » — وهذه فى رأيى هى ذروة مشكلته — يأخذ أحباءنا بعيداً . . . بعيداً جداً عنا . . ثم يضع بيننا وبينهم أسواراً وحواجز لا يمكن تخطيها إلا بإذن علوى من العزيز ، القوى ، الحكيم .

إن « الموت » ليس بالشيء الكريه الذى يحاول أولئك الذين ينقصهم الإيمان بالله ، وبالحياة الآخرة ، أن يصوروه ، أو يتصوروه ، إنما الكريه حقاً هو الافتقار إلى الإيمان « بالموت » باعتباره بداية وليس نهاية . . وباعتباره مرحلة انتقال من حال إلى حال . . ومن حياة إلى حياة . . ومن دار إلى دار . . دار أكثر سلاماً ، وصفاء ، ونقاء ، ورقياً : « وإن الدار الآخرة لهى الحيوان لو كانوا يعلمون » .

من كتاباتها

● إن التفكير يكاد يقتلني . . لكنني – وهذه هي مشكلتي – لا أستطيع أن أعيش بغيره . إن " الفكر" هو حياتي .

* * *

● الحياة رحلة استكشاف مستمرة لكن المؤسف حقًّا أن معظم ما يستكشف فيها أليم .

* * *

● سهل جدًّا أن يمشي الإنسان في طريقه . . لكن الصعب حقًّا ، هو أن يعرف الإنسان كيف يختار ذلك الطريق .

* * *

● « البحيرة » . . قصيدة « لا مرتين » الجميلة... تعيش في أعماقي. إنها نداء حار من الشاعر إلى الطبيعة التي أحبها . . . والتي يراها كثيراً ما تنسى ، وسريعاً ما تنسى ... لكي تحتفظ ، على الأقل ، بذكرى حبه لها!

* * *

● إنني أمقت "فولتير" . . . أمقته لأنه قال فى نبينا "محمد" كلمات نابية لا تصدر إلا عن "ملحد" مثله . وأمقته لموقفه المزرى من "جان جاك روسو" . ولا خلاف على أن "فولتير" عبقرى . ولكنه عبقرى ليس فى أخلاقياته شىء واحد يستحق الاحترام .

* * *

● ولد "ألفريد دى فينى" حزيناً. وعاش حزيناً . وكان يرغب فى حب الطبيعة ، لكنه كان يراها لا تكترث به ... ولا بغيره . وكان يرغب — بقلبه — فى حب البشر. لكن — عقله — كان ينأى به بعيداً عنهم . وقد بلور "دى فينى" مشاعره كلها نحو الحياة فى هذه الكلمة الواحدة : « خلقت الطيور لتسعد ... لتحلق فى الهواء ، وتستمتع ، وتطير . . . أما الإنسان فقد خلق ليشقى ثم يموت »

ويزيد "دى فينى" هذا المعنى تأكيداً عندما يقول : يخفق الإنسان فى تحقيق أمانيه لأنه يجد نفسه وحيداً فى صلاته ... وفى حبه ... وفى تأملاته».

* * *

كلمات احببتها :

● الآن . . . دخل "الإمبراطور فرد يناند" فى مرحلة من العمر أصبحت فيها « العظمة » بالنسبة له ، « كالأنفاس» بالنسبة لأى إنسان . إنه لا يجنى منها أيةسعادة . لكنها إذا توقفت يموت !

* * *

● كانت قسمات وجهه متجهمة كقسمات وجه مسافر يعرف أنه ذاهب إلى نهاية الطريق . ولكنه لا يعرف ماذا ينتظره عند هذه النهاية !

* * *

● ولد الإنسان حراً . إلا أن حريته تعترضها دائماً عوائق تجعله يعيش فى بؤس !

* * *

● لم تعد الحياة شيئاً سهلاً . ولكنها أصبحت مغامرة مشحونة بالمخاطر .

* * *

● الوحدة . . . والشقاء . . والمسئولية : ثلاث كلمات تتلخص فيها — بصورة محددة ، وموجزة — حياة إنسان القرن العشرين .

قصة من وحى الكفاح الجزائرى

أمنية . . .

نشرت هذه القصة فى مجلة الإذاعة والتليفزيون بتاريخ ٢٨ يناير سنة ١٩٦١ — وكانت سن " نادية " عندئذ ، ١٤ عاماً فقط ! !

ترى . . ما هى أمنية حياتى ؟

كم أود أن تتحقق . . . إنها تراودنى فى نهارى ، وتداعبنى فى أحلامى . . وكلما طافت بقلبى ، سبحت فى بحر من الخيال تظلنى على شاطئيه أشجار سامقة زرعها شهداؤنا بأرواحهم ، وسقوها بدمائهم .

وتدفعنى بطولات الشهداء ، وقصصهم . . . تدفعنى دفعاً إلى الإسراع إلى هناك . . . إلى جزيرة الكفاح . ضد ذلك العدو . . المستبد . الغاصب .

لقد نسجت ، فى خيالى ، خيوط تلك القصة هناك . . فى الجزائر . . أرضى وأرض آبائى وأجدادى . . هذه الأرض التى هى جزء من فؤادى الثائر ، أغذيها بنضالى . . ونضال إخوانى . . وأرويها بدمى ، ودم الشهداء .

أنا ، الآن ، قابعة فى زنزانة صغيرة غارقة فى الظلام . . ولولا النور النابع من رضائى عن نفسى ، لقتلنى الظلام الذى عجز عن أن يحول بينى وبين أن أسرح بخاطرى لأستعيد كل ما حدث لى ، قبل أن يأتى بى إلى هنا أولئك المجرمون . . الملوثون بدماء الأطهار الذين ضحوا

بحياتهم ، وجعلوها قرباناً لاستقلال بلادهم ، وحريتها ، وخلاصها من قيود الاستعباد .

فى ليلة ما زلت أذكرها . . وسأظل أذكرها إلى الأبد . . جاءنى أبى والدماء تنزف من صدره بغزارة كأنها وسام شرف طالما تاقت إليه روحى الثائرة . جزعت من هول المنظر . لكن أبى منعنى من الاستسلام للجزع . . قال لى ، وأنفاسه تهن وتتقطع :

– ابنتى . . إننى أعرف أنك لست محتاجة إلى من يحثك على الكفاح ، وعلى بذل روحك دفاعاً عن أرضك . ووصيتى لك أن تحاربى الأعداء . . وأن تظلى تحاربينهم مهما كلفك هذا من ثمن .

ومال رأس أبى . . فأسندته إلى صدرى ، وقلبى ينبض بأكبر الإجلال ، وأكبر الحب . . ويدق ، فى نفس الوقت ، دقات الانتصار والثأر . . وقبل أن يلفظ أبى آخر أنفاسه ، قال لى بكلمات كانت ترتعش . . وتتكسر بين شفتيه :

– لا تحزنى علىّ يا بنيتى . . . فإننى أشكر الله من كل قلبى أن هيأ لى فرصة لقائه . . شهيداً فى سبيله . . وفى سبيل الدفاع عن بلدى . . .

ثم . . . ثم صعدت روحه الطاهرة فى دعة وسلام إلى السماء للقاء ربها .

* * *

لم أبك . . ولم أحزن . . . فقد أحسست أنه ذهب إلى هناك . . . إلى حياة أكثر شفافية ، وأكثر نقاء . . وأحسست أن روحه الطاهرة تطل علىّ ، وتنير لى الطريق . إن دماءه التى رأيتها كالوسام على صدره ، تشعل حماسى .

وصممت على الانتقام والثأر . . . وأى انتقام ، وأى ثأر ، يمكن أن يرضى أبى فى مثواه الأخير . . إلا أن أجعل عمرى كله فداء

لوطنى حتى يتحرر . . . حتى أرى آخر كلب من أولئك المستعمرين الطغاة ، يسقط أمام عينى . . . ساعتها سوف أحس أن قطرات الدم الطاهرة التى انبثقت كالنور من صدر أبى لم تذهب سدى . . وساعتها ، فقط ، سوف أحس أننى سعيدة . . وراضية .

وعرفت طريقى . . . . . .

تطوعت فى فرقة المقاومة الشعبية . . . وكانت المهمة التى أسندها لى قائد الفرقة ، هى التجسس على الأعداء للتعرف على كل حركاتهم . . وكل سكناتهم .

وكان على — لكى أقوم بهذه المهمة على خير وجه — أن أحاول ، أولا ، التقرب من هؤلاء الأعداء بالتظاهر بأننى مستعدة لأن أنقل إليهم أخبار المقاومة . . . وعن هذا الطريق ، أستطيع أن أتعرف على خططهم ، وتحركاتهم ، وأنقلها إلى قائد فرقتى .

استرسلت فى تفكير عميق ، حتى اهتديت إلى طريقة . . . رأيت أنها أقصر الطرق .

كان ذلك عندما لمحت ضابطاً فرنسياً يجلس وحيداً فى حانة من الحانات . . كان يشرب الخمر فى سعادة المنتصر . . . واجتهدت عندما دخلت إلى الحانة ، ألا أنظر إليه . . . وتظاهرت بأننى لم أره إلا عندما أصبحت بجواره ، وأجبت على ابتسامته لى ، بابتسامة مماثلة شجعته على دعوتى لمشاركته جلسته . . وسارعت إلى قبول دعوته . فقد كانت تلك هى خطتى . .

وجلست والضابط الفرنسى ، نتجاذب الحديث من هنا ، ومن هناك . . . وعندما لم يعد هناك ما نقوله ، ودعته على موعد فى السابعة من اليوم التالى . . .

وفى اليوم التالى ، تعمدت أن أذهب متأخرة عن موعدى . . . ذهبت

إليه فى السابعة والنصف بدلا من السابعة . . واعتذرت إليه قائلة :

ــ آسفة جداً لتأخرى عن الموعد . . . فقد فتشنى فى الطريق جندى فرنسى ، ظناً منه أنه سوف يجد معى شيئاً . لست أدرى لماذا تظنون أن كل الجزائريين يعادونكم ؟ ؟

فاعتدل الضابط الفرنسى فى جلسته ، وسألنى وهو يبتسم فى فرح :

ــ ولكن . . . ألا تحبين بلدك ؟ ؟

ــ بل أحبه . . . ولكننى ، فى نفس الوقت ، لا أحب أن أموت . . . أريد أن أعيش سعيدة بعيداً عن هؤلاء المجانين الذين يقتلون أنفسهم ببلاهة .

ــ يبدو أنك مع الفرنسيين ؟ ؟

ــ لقد ولدت ، وعشت ، وكبرت على هذه الأرض . . . أنا أراها أرضاً فرنسية . ولست أفهم لماذا يسعى الجزائريون إلى الخراب . . وإلى قتل أنفسهم ، وقتل الآخرين . .

ــ يبدو أنك مع الفرنسيين فعلا . . . ولكن ؟ ؟

ــ ولكن ماذا . . . ؟ ؟ دعنا بالله من هذا الحديث . . إننى فقط تضايقت من التفتيش . . يجب أن يعرف الفرنسيون أصدقاءهم من أعدائهم .

واستجاب الضابط الفرنسى لرغبتى . . ورحنا نتجاذب الحديث فى موضوعات كثيرة أخرى لا علاقة لها بالقصة التى كنت قد اختلقتها : حتى إذا حان موعد افتراقنا افترقنا على موعد آخر . . .

وتكررت اللقاءات بيننا ، وعندها . . لم يتردد الضابط الفرنسى فى أن يصارحنى بحبه لى . . . وكان هذا هو طرف الخيط الذى بدأت من عنده خطتى . . .

أظهرت له أننى ، مثله تماماً ، هائمة بحبه . . . وتماديت فى

تمثيل دور العاشقة حتى استطعت أن أنجح فى كسب ثقته بى . . . واطمئنانه إلى .

وذات ليلة من ليالى لقائنا . . .وكنا جالسين فى نفس الحانة التى لقيته فيها أول مرة ، أخذ الضابط الفرنسى يشرب كميات من الخمر لم يشربها فى أى لقاء مضى . . لقد شرب كثيراً . . . كثيراً جداً . . . ثم نظر فى ساعته فجأة ، وقال لى :

ـ لا بد أن أنصرف الآن .

ـ لماذا ؟ ؟

فخفض صوته حتى كاد أن يكون همساً ، وهو يقول لى :

ـ لأننا سنهاجم موقعاً للجزائريين قريباً من هذا الجبل . . سوف نبيدهم يا حبيبتى . . . وسوف نلتقى هنا غداً فى السابعة لنشرب نخب إفنائهم .

وعاد الضابط الفرنسى يقول : وهو يتأهب للانصراف :

ـ أليس شيئاً بديعاً حقاً أننى هنا ، الآن ، أشرب الخمر . . . وأن أكون ، بعد قليل ، هناك . . . أشرب من دماء أولئك المتمردين . . ثم نلتقى غداً لنشرب الخمر من جديد . إن حياتى كلها شراب فى شراب . . لقد قالوا لنا هذا عندما أتوا بنا من باريس . . قالوا لنا : إنكم ذاهبون فى رحلة خفيفة ، وستجدون هناك أجود أنواع الخمر فى انتظاركم .

وودعنى الضابط الفرنسى . . . وانصرف للقيام بمهمته .

أما أنا . . فقد أسرعت إلى قائد فرقتى ، وألقيت إليه بالخبر فى الوقت المناسب .

وفى اللحظة الحاسمة . . . فى اللحظة التى كان فيها الفرنسيون يهجمون على موقعنا . . كنا على أتم الاستعداد لمواجهتهم . رأيناهم وهم يقتربون . . . ويقتربون . . وكنت معهم . . مع فرقتى فى مواجهة الأعداء .

وانطلقت نيران مدافعنا تحصد المهاجمين . لقد أخذناهم على غرة ، فلم يفلت منهم عدد يذكر . . . .

وكان النصر حليفنا . . . .

وفى الموعد الذى كان بيننا . . . فى السابعة من مساء اليوم التالى ، ذهبت إلى هناك . . إلى الحانة التى كنا بها نلتقى . لكننى لم أجده . . . ووجدت بدلا منه عدداً من الضباط والجنود الذين كانوا يشربون ويعربدون. وأشعلت رؤيتى لهؤلاء الضباط والجنود ، نيران الثأر فى صدرى . وأحسست ، لحظتها ، أن أحداً منهم لا ينبغى أن يعيش . . وفى نفس اللحظة ، وجدتنى ألقى بقنبلة يدوية كانت معى وسط هؤلاء الفرنسيين . وانفجرت القنبلة محدثة دوياً يصم الآذان . وعندئذ أحسست بسعادة لا توصف أخذت تغمرنى وأنا أرى أشلاء أعداء بلادى تتناثر هنا وهناك . فى حين تحولت الحانة نفسها إلى بركة من الدماء .

وبينما كان عدد آخر من الجنود والضباط الفرنسيين يدخلون إلى الحانة مهرولين ليروا ماذا حدث . . . كنت أنا أغادرها بأقصى ما أملك من سرعة . . واندفعت متجهة إلى شارع جانبى حتى أستطيع أن أنجو بنفسى من بطش أولئك المجرمين . لكن محاولتى لم تفلح . . . فقد التوت ساقى فجأة ، فسقطت على الأرض ، أعانى ألماً شديداً . . . ولم أفق إلا لأجد نفسى مشدودة الوثاق ، وقد أحاط بى عدد من الجنود والضباط . . كان من بينهم ذلك الضابط المخدوع الذى حسبنى مع الفرنسيين . . وضد بلدى . وفجأة وجدته يتجه نحوى فى شراسة ووحشية ظاهرتين . . وأخذ يركلنى بقدمه ، ويضربنى على وجهى بأقصى ما لديه من قسوة . وراح يتهددنى بكلمات حانقة . . تفيض غضباً وشراً :

— سأنتقم منك شر انتقام أيتها الجزائرية اللعينة . . الآن فقط عرفت من أنت . . وما هو الدور الحقيقى الذى كنت تلعبينه .

— يسعدنى هذا أيها الفرنسى المخدوع . . . يسعدنى أن أكون مثلا

لكل جزائرى . . وكل جزائرية . وسوف تتحول كل صفعة أتلقاها منكم إلى مئات الرصاصات يوجهها إخوانى إلى رؤوسكم وصدوركم . . . أكنت تظننى أكره بلدى وأهلى؟ ؟ ! !

أما إنك لغبى حقاً ! !

وثارت ثائرة الضابط الفرنسى أكثر . . وأكثر . . فركلنى بحذائه فى بطنى ركلة قوية آلمتنى إلى حد أن كادت الدموع تطفر من عينى . ولكننى حبست دموعى بين جفونى حتى لا أجعلهم يشمتون بى — وقلت فى حماس أغالب به آلامى وضعفى :

— أيها الأنذال . . إننى أقول لكم إنكم لن تذوقوا فى بلادنا طعماً للراحة . . لن تنعموا فيها . . ولن تنعموا بها . إننا لن نتنازل عن حقنا أبداً حتى ترفرف حمائمنا فى سلام على أرضنا . . . اخرجوا أيها المجرمون من بلادنا . . إنها أرض عربية . . عربية . . عربية .

ولم يملك الضابط الفرنسى نفسه ، فصرخ فى وجهى قائلاً :

— اخرسى . . . .

ثم انهال على ، هو ومن كان معه ، ركلا وضرباً . حتى أحسست كأن روحى قد زهقت . . ولم أشعر إلا وهم يحملوننى ليقذفوا بى داخل سيارة جيب . . لتأتى بى إلى هنا . . . إلى هذه الزنزانة الضيقة المظلمة .

* * *

والآن . . . أرانى محتاجة إلى أن أتوقف برهة لأسجل ما أظنه جديراً بالتسجيل :

فعندما دخلت إلى الزنزانة تقاذفنى شعوران ثارا داخل نفسى كالأمواج الجامحة : أأنا سعيدة بما حدث . . أم غير سعيدة ؟

وكانت الإجابة :

— إننى سعيدة . . وغير سعيدة . سعيدة لأننى فعلت شيئاً من

أجل بلدى . . وغير سعيدة لأننى حرمت من فرصة مواصلة النضال مع زملائى وزميلاتى .

وما كدت أن أنتهى من الإجابة عن هذا السؤال ، حتى تقدم منى أحد الجنود الفرنسيين وأخذ يفك وثاقى ، وفجأة ارتعشت يداه . . فقد دوى بجوار المكان انفجار قنبلة اهتزت له أبواب الزنزانة وجدرانها اهتزازاً عنيفاً . وهنا شعرت بالحزن وبالأسى يملآن جوانحى . . . فقد أحسست أن مكانى ، فى هذه اللحظة ، إنما هو هناك مع زملاء النضال ، وليس بداخل هذه الزنزانة المعتمة التى تباعد بينى وبينهم . . . وتمنيت الحياة : . تمنيت أن أعيش حتى اليوم الذى تتطهر فيه أرض بلادى من دنس المستعمرين الغاصبين ، وطغيانهم ، واستبدادهم !!

وبينما كان الجندى الفرنسى يجذب باب الزنزانة الثقيل ليغلقه على أنا . . والظلام . . والوحدة — كنت ، من ناحيتى ، أترنم بقول أبى القاسم القاسم الشابى :

« إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
ولا بد لليل أن ينجلى
ولا بد للقيد أن ينكسر »

انطلقت . . .

أول يوليو سنة ١٩٦٢ (١٥ سنة)
بمناسبة إعلان استقلال الجزائر . . .
البلد العربى البطل .

انطلقت محطماً قيود الردى . .
ساخراً من شرور العدا
وضيت من قبرى
أشهد فجر نصرى
. . . وانطلقت

* * *

ورأيت الأرض الجرداء
تغدو جنات غناء
والزهر الأبيض والأحمر
والنبت الأخضر والأصفر
يهتز ليحيى ذكراى
يهتز ليعلن للدنيا : أن العربى هو الأكبر

* * *

ورأيت عبوس الأقدار
ورأيت شرور الأفكار
ولمحت شعوباً مطوية

تصحو لصباح الحرية
تبسم عن صبر وإباء
تعتز بذكرى الشهداء
ترتج لتحيي ذكراى
ترتج لتعلن للدنيا : دم الشهداء هو الأزهر .

* * *

. . . وانطلقت
عائداً نحو قبرى
بعد إذ أبصرت فجر نصرى
فوق الشفاه الراضية
فوق السدود العالية
فى مطلع الفجر السعيد
فى الطفل . . فى الأم . . فى الأب . . فى الجيل الجديد
فى مشرق النصر المجيد



إشراقة الوجود

٢١ مارس سنة ١٩٦٤ (١٧ سنة)
تحية لأمها . . فى عيد الأم .

سألت البلابل . . . والأغصان . . والزهور
عن سر تلك الألحان والحبور
وسر ذلك العطر الشذى المنثور
إنا نحي تلك الشمعة التى تحترق لتهب النور
وننحنى ، فى خشوع ، لجلال الأمومة . . ولأطهر شعور

* * *

إنه عيدك يا من منحت . . ومنحت . . فرسمت الابتسام على الثغور
وعلوت بتضحياتك . . حتى سموت على البدور
وكنت دائماً نعم « الحادى » فى طريق الأشواك والصخور
فأوصى الخالق بك لرحمتك . . وحنانك . . النابعين من الصدور
فبا لله . . ماذا يستطيع القلم ، وما عساها أن تقول السطور ؟
فمهما كتبت . . . وكتبت . . على مر الأيام والشهور
فلن أستطيع « يا إشراقة الوجود » أن أعبر عما أريد أن أقول .

شعر منثور :

تحدى . .

(٦ فبراير ١٩٦٣)

يا من هوت بقلبي حيرة مقلتيك
يا من لوعتنى ضمة حاجبيك
لاتتركى الأيام تطبع الأحزان فى عينيك
لا تتركى القلب يئن . . والدموع تجرى
ولا تجعلي الهموم تحنى كتفيك

* * *

اشمخى بهامتك . . وارفعى أهدابك وتحدّى
واعرضى عن الهموم . . واصنعى منها التمنى
ولا تستسلمي لليأس . . ومن سواد لونه فرّى

* * *

ازرعى الأمل فى قلبك . . وعلى أنغامه غنى
وبالابتسامات أضيئى وجنتيك
فيشع النور منها ليملأ مقلتيك
فتضمك الدنيا بجناحيها وتحنو عليك
إنها أمنية مهجة هزتها حيرة عينيك
فحققى الأمل فيك . . ليعود الصفاء إليها وإليك . ـ

شعر منثور :

هارب فى السماء . . .

(نشرت فى مجلة مدرسة نوتردام
ديزابوتر)

(مايو سنة ١٩٦٤)

بلبل سابح فى السموات العاليه
باعثاً أنغامه الشجية الباكيه
متسائلاً عما قد يحمل الغيب إليه
من أحداث مكفهرة قد تأتى عليه
فيسرع بضربات جناحيه خائفاً
ومن المصير المجهول يولى هارباً
فيزداد فى الارتفاع آملا . . متوهماً
وقلبه الواهن يدق لاهثاً . . واجفاً

* * *

ولكن . . أنى له بالاختفاء
ولا يوجد من مخبأ غير السماء
فهيهات له بالفرار . .
مهما طالت به الأسفار

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٢٧٩٧ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

دار المعارف بمصر

تقــدم

كفاحى فى المسرح والسينما

للفنانة فاطمة رشدى

فنانة شقت طريقها إلى المجد الفنى بخطى سريعة وبلغت أرفع مستوى بفضل أستاذها عزيز عيد ، وبفضل استعدادها الشخصى ، وعشقها للمسرح .

لقد سارت فى رحلة طويلة هى حياة المسرح المصرى ذاته بكل ما فيها من أحداث ومفاخر ومحن ومغامرات .

تألقت فى أدوار سارة برنار فى « النسر الصغير » و « توسكا » و « غادة الكاميليا » فأطلقت عليها الجماهير سارة برنار الشرق .

كان لفرقتها حظ السبق إلى تقديم درة أمير الشعراء أحمد شوقى « مصرع كليوباترة » ، وتألقت بجمالها تحت تاج كليوباترة ، فكانت أقرب ما تكون إلى سمت الملكات . كتاب يهم كل فنان ، بل كل مثقف ليعرف أسرار هذا الكفاح العريق فى المسرح والسينما ، وليعرف أصحاب الفضل فى تمهيد الطريق أمام النهضة الفنية التى نعيشها اليوم .

٢٠٨ صفحات — ثمن النسخة ٤٥ قرشا



اقرأ

صمويل جونسون

الوادى السعيد

تعريب : الدكتور لويس عوض




اقرأ
تصدر فى أول كل شهر


دار المعارف بمصر


بأسلوب اليوم وتفكير الغد

تأليف : صموئيل جونسون
ترجمة : الدكتور لويس عوض

الوادى السّعيد

اقرأ ٣٤٤
دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٤٤ - أغسطس سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. ع. م.

مقدمة

— ١ —

فى عام ١٩٤٦ اتفقت مع دار الكاتب المصرى ، وكان مستشارها يومئذ الدكتور طه حسين ، على ترجمة روايتين عن الإنجليزية من اختيارى لتصدرا ضمن مطبوعات الدار المذكورة . وكانت دار الكاتب المصرى قد أصدرت الطبعة الأولى من ترجمتى لرواية أوسكار وايلد الشهيرة « صورة دوريان جراى » ، التى اختارها للدار الدكتور طه حسين ، وقد ترجمتها برغم احتجاجى على هذا الاختيار ، نزولا على إرادة أستاذنا طه حسين . وقد أسست هذا الاعتراض على اعتبارين : الاعتبار الأول أن أوسكار وايلد هو زعيم مدرسة « الفن للفن » فى الأدب الإنجليزى ، وبرغم تقديرى لموهبته واعترافى بمكانته فى الأدب الإنجليزى كنت أوثر أن أخصص جهدى ووقتى لترجمة أديب آخر ممن يؤمنون مثلى بالأدب فى سبيل الحياة . أما الاعتبار الثانى فهو أنى ، من حيث المبدأ ، لا أحب أن أتصدى لعمل يمكن لغيرى أن يتقنه ، ولم أكن أرى فى عمل أوسكار وايلد صعوبة خاصة تحتاج إلى علم أستاذ فى الجامعة مختص فى اللغة الإنجليزية وآدابها . وحين عرضت على طه حسين أن أترجم لدار الكاتب المصرى « الفردوس المفقود » للشاعر ميلتون ، ضحك أستاذنا وقال : إنك تريدهم أن يفلسوا ، لا تنس أن الناشرين تجار .

وبعد أن صدرت « صورة دوريان جراى » ، كان لا بد أن أختار ما يليها . وبعد تفكير قررت أن أقوم بدور المعلم بطريقة عملية . لقد كان فن الرواية فى مصر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية قائماً على الاجتهاد .

كان هذا الفن قد اجتاز مرحلة الخطر ، ما بين « زينب » وبدايات نجيب محفوظ عبر توفيق الحكيم وطه حسين . وكانت « الترجمة » الفنية فى الفن القصصى تكاد أن تكون مقصورة على جهود محمد السباعى فى نقل القصة القصيرة الأوربية ، وخاصة عن موباسان وتشيكوف ، إلى اللغة العربية . أما « الترجمة » الفنية للرواية فلم تعرفها العربية فى تلك الفترة إلا فى ترجمة الزيات « لآلام فيرتر » وترجمة أحمد الصاوى محمد لروايتى أناتول فرانس « تاييس » و « الزنبقة الحمراء » . ولم يكن أحد يعد ترجمة « البؤساء » لفكتور هيجو ولا ترجمة المنفلوطى « لمجدولين » ألفونس كار و « بول وفيرجينى » لبرناردان سان بيير ترجمة بأى معنى حقيقى . كانت « بؤساء » حافظ إبراهيم عملا رائعاً حقًّا ولكنها كانت عمل حافظ إبراهيم لا عمل فكتور هيجو ، وكان حجمها نحو واحد على مائة من النص الأصلى . أما مترجمات المنفلوطى فقد كانت نصوصاً رائعة فى النثر العربى وكانت الغذاء اليومى لشباب العشرينات ، وربما لشباب الثلاثينات ، ولكنها أيضا كانت « بقلم » المنفلوطى لا بقلم مؤلفيها الحقيقيين . من أجل هذا كانت هذه الآثار العظيمة نماذج رائعة فى فن « الاقتباس » لا فى « الترجمة » .

ولا شك أن العربية خلال العشرينات والثلاثينات عرفت عشرات من النماذج فى ترجمة الرواية من نقولا يوسف إلى عمر عبد العزيز أمين ، عرفت ترجمة الرواية بالمعنى المتعارف عليه ، غير أن هذه الترجمات عن إسكندر دوماس وميشيل زيفاكو وتشارلز ديكنز وكونان دويل والكونتيسة أوركزى إلخ . كانت إما نقلا تغلب عليه العجلة والركاكة لبعض روائع الأدب العالمى ، يختفى فيه « الأدب » ولا يبقى إلا السرد والحوار والوصف . وإما نقلا لروايات المغامرات المثيرة التى يقبل عليها الناس لإزجاء الفراغ ولكنها عديمة القيمة من الناحية الأدبية . ومع ذلك فقد كانت هذه الروايات المثيرة هى المدرسة الأولى التى تعلم فيها المصريون

« فن الرواية » أكثر مما تعلموه من جهود حافظ إبراهيم والمنفلوطى ؛ لأنها برغم قصورها ، حافظت على هيكل الروايات المنقولة ، ومن خلالها تعلم من يريد أن يتعلم كيف يكون السرد وكيف يكون الحوار وكيف يكون الوصف وكيف يكون بناء الشخصية . من خلال هذه المترجمات الساذجة لنصوص بعضها ساذج وبعضها شامخ ، تعلم من يريد أن يتعلم « تكنيك » الرواية كما يمارسونه فى التقاليد الأوربية التى أخذنا عنها فن الرواية .

ومع هذا فقد بقيت الرواية مظلومة . فقد بقى أن يظهر لها رعيل من المترجمين الفنيين الذين لا يتصدون إلا للروائع الأدبية من ناحية ، ولا يشاطرون الروائيين تأليف رواياتهم حين يترجمونها من ناحية أخرى ؛ كما فعل محمد عثمان جلال وحافظ إبراهيم والمنفلوطى . ثلاثة أركان كان ينبغى أن تتوافر : اختيار روائع الرواية فى الأدب العالمى ، وأمانة النقل فى حرص شديد ، ورفعة العبارة العربية أوجودتها على أقل تقدير ، بحيث تدخل الترجمة فى إطار الأدب كما دخل النص فى إطار الأدب فى لغته الأصلية . بهذا وحده يمكن للروائى العربى الناشئ أن يتعلم شيئاً كثيراً عن فن الرواية دون إحاطة باللغات الأجنبية . بعبارة أخرى : كنا بحاجة إلى تجديد التقاليد الأدبية التى أرساها فى فن الترجمة العربية أحمد حسن الزيات وأحمد الصاوى محمد . إن محمد حسين هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين لم يكونوا بحاجة إلى « نماذج » من الرواية مترجمة إلى العربية لينشئوا ما أنشأوا فى فن الرواية لأن طريقهم إلى الأصول كان طريقاً مفتوحاً نتيجة لإتقانهم اللغات الأجنبية . أما الأجيال الجديدة من الأدباء الشبان الذين لم يتح لهم علم هيكل وتوفيق الحكيم وطه حسين فقد كانوا بحاجة حقيقية إلى هذه النتائج ، إن لم يكن لحسن الإنشاء فلحسن التذوق على أقل تقدير .

وهذا كان دور دار الكاتب المصرى : فتح هذه المدرسة الجديدة

لشباب الأربعينات . وكان طه حسين خير رائد لهذه المدرسة . بتوجيهه نشرت دار الكاتب المصرى نماذج من آثار فولتير وستندال ودوستويفسكى وأوسكار وايلد وأندريه جيد و ه. ج. ولز والدوس هكسلى وسانت أكزوبيرى وغيرهم . ولو أتيح لهذه الدار أن تستمر أكثر من عامين لفعل بها طه حسين فى الأربعينات من القرن العشرين ما فعله الطهطاوى بمدرسة الألسن فى الأربعينات من القرن التاسع عشر .

وكان أهم درس تلقيته فى تجربة تقديمى لأوسكار وايلد هو أنى بعد أن قدمت لدارسى الأدب عملا نموذجيا يمثل مدرسة الفن للفن ، كان من واجبى أن أقدم لهم أعمالا نموذجية تمثل بقية مدارس الأدب : الرواية الكلاسيكية ، والرواية الرومانتيكية ، والرواية الطبيعية ، والرواية الواقعية ، والرواية القائمة على تيار الوعى . وبدأت بالرواية الكلاسيكية فاخترت نموذجاً لها هذه الرواية التى نسميها « الوادى السعيد » لصمويل جونسون ، وهى من آثار القرن الثامن عشر فى الأدب الإنجليزى ، واسمها الأصلى : « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » . وبعد أن أنجزت ترجمتها فى باريس فى صيف ١٩٤٦ ، اخترت عملا آخر يمثل نموذجاً من المدرسة الطبيعية ، أو الناتورالية كما يسمونها ، وكان هذا العمل هو رواية ضخمة فى خمسمائة صفحة ، هى رواية « إستر ووترز » Esther Waters لجورج مور George Moore ، من النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وقد فرغت من ترجمتها ، إذا لم تخنى ذاكرتى ، فى ربيع ١٩٤٧ ، أو قبيل ذلك . وقد بدأت بالنموذج الكلاسيكى ثم بالنموذج الناتورالى ، لأن الرواية الكلاسيكية والرواية الناتورالية كانتا حتى ذلك الوقت مجهولتين تماماً فى العربية . وأجلت النموذج الرومانتيكى لأن قارئ « آلام فيرتر » The Sorrows of Werther لجوته Goethe كان يستطيع أن يجد فى ترجمة الزيات مثلا حيًّا منها يعينه على تفهم منهج الرومانسيين فى بناء الرواية . وبعد أن وقعت عقد « إستر ووترز »

مع دار الكاتب المصرى أغلقت الدار أبوابها فى ظروف غير طبيعية وصفت مطبوعاتها ، وتنازلت فى صفقة التصفية عن كل مخزونها من الكتب وعن عقودها مع المترجمين والمؤلفين لمكتبة الخانجى . وبعد فترة شرعت مكتبة الخانجى فى نشر « إستروونرز » لجورج مور تحت اسم تجارى هو « المعذبات فى الأرض » ، وبعد أن طبعت نحو ثلثمائة صفحة ضاع منها نحو خمسين صفحة من مخطوط هذا الكتاب فتوقفت عن الطبع . وكنت يومئذ فى أمريكا فكتب إلىّ نجيب الخانجى يستأذن فى استئجار مترجم يترجم الصفحات الضائعة حتى يتمكن من طبع بقية الرواية ، ولكنى رفضت رفضاً باتاً خشية أن يرزأنى بمترجم جاهل بأسرار اللغة الإنجليزية يدس على أخطاء فى الترجمة تسىء إلى سمعتى واستمهلته فى إتمام طبع الكتاب حتى عودتى من أمريكا . فلما عدت بعد سنة أو نحوها اكتشفنا أن المطبعة قد أضاعت المائتى صفحة الباقية فى المخطوط . وهكذا أسدل الستار على ترجمتى « لإستر ووترز » لجورج مور وعلى محاولتى تعريف الناس بالمدرسة الناتورالية فى الآداب الأوربية . ولكن لعل هناك بعض العزاء فى أن رسول الناتورالية وسيدها الذى لا ينازع ، ألا وهو إميل زولا Emile Zola ، صاحب « الأرض » La Terre و « جيرمينال » Germinal و « بنت الحان » L'Assomoir (حرفيا : « مفقدة الوعى » ، يقصد الخمر) وبقية دراساته الروائية فى الوراثة المعروفة بسلسلة « روجون ماكار » Rougon Macquart ليس غريباً عن شطئان مصر أو عن قراء العربية .

أما « الوادى السعيد » ، أو على الأصح « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » ، فقد نجت من الضياع لأنى لم أكن قد تعاقدت عليها بعد ، حين صفيت دار الكاتب المصرى . فألقيت مخطوطها فى أدراجى نحواً من خمس وعشرين سنة ، بين ذاكر وناس ، أحفل بها ولا أحفل ، لأنى من أولئك القوم الذين لا يلتفتون كثيراً إلى الوراء بل يؤثرون دائماً

النظر إلى الغد قبل الأمس ، حتى قيض الله لها دار المعارف لتنشر صحائفها المطوية . فعسى ألا نكون قد ارتكبنا وزراً عظيماً بنبش هذا الماضي البعيد . وقد ترجم هذه الرواية الأستاذ الدكتور مجدى وهبة ونشرت ترجمته دار المعرفة منذ نحو عشر سنوات .

— ٢ —

وصمويل چونسون Samuel Johnsou مؤلف « راسيلاس » Rasselas ، أى « الرأس إيلاس» هو أعظم ناقد فى تاريخ الأدب الإنجلزى بلا منازع ، أما فى باب الأدب الإنشائى فليس له إلا شعر قليل متوسط القيمة ، وهذه الرواية القصيرة ، وهى من ضرب « النوفيلو nouvello » وهى كذلك متوسطة القيمة برغم أنها تمثل علامة من علامات الطريق فى تاريخ الرواية الإنجليزية .

ولد صمويل چونسون فى بلدة ليتشفيلد Lichfield بمقاطعة ستافورد شاير Staffordshire بإنجلترا فى ١٨ سبتمبر ١٧٠٩ وتوفى فى لندن فى ١٣ ديسمبر ١٧٨٤ عن ثلاث وسبعين سنة . وكان أبوه مايكل چونسون Michael Johnson من مواطنى ليتشفلد البارزين ، المرتاحى الحال ، فقد كان ينتمى إلى الطبقة المتوسطة التى لا تعرف الثراء الفاحش ولا خصاصة العيش . وكان وراقاً ، أى صاحب مكتبة ، ذكر عنه ابنه چونسون فيما بعد أن وراقته ، أو مكتبته « درت عليه شيئاً ولكن لم تدر عليه ما يكفى » . كذلك كان الأب ما يكل چونسون مأموراً لبلدة ليتشفيلد وقت ولادة صمويل . وكان الأب رجلا متديناً محافظاً ، ذا ميول سياسية متشيعة للملكية المطلقة ، قيل عنه إنه كان من أشياع الملك المعزول جيمس الثانى James 11 الذى خلع فى ثورة ١٦٨٨ لأنه أحيا نظرية حق الملوك الإلهى فى حكم إنجلترا وجنح بالكنيسة الإنجليزية إلى

شيء قريب جداً من الكثلكة ، فاجتمعت كلمة حزب «التورى Tory» (المحافظين) وحزب «الهويج Whig» (الأحرار) على خلعه في الثورة البيضاء عام ١٦٨٨ ، تلك الثورة التي عرفت في تاريخ إنجلترا «بالحل الوسط العظيم» أو «التوفيق العظيم Grand Compromise» لأنها قامت على تراضى المحافظين والأحرار على صيغة وسطى هي إقامة حكم البلاد على «الملكية المقيدة» بدلا من إقامته على الملكية المطلقة أو إقامته على النظام الجمهورى ، وبذلك نزل المحافظون عن تطرفهم ، ونزل الأحرار عن تطرفهم والتقوا في منتصف الطريق .

أما أم صمويل چونسون فقد كان اسمها سارة Sarah ، بنت كورنيليوس فورد Cornelius Ford وهو من صغار الملاك في مقاطعة واريكشاير Warwickshire وكانت امرأة تقية تميل إلى الكالڤينية في الدين Calvinism ، وهو مذهب متطرف من مذاهب البروتستانتية أسسه المصلح الديني كالڤن Calvin يقوم على الإيمان بالجبر ويرفض أن يكون الإنسان مختاراً في هذه الدنيا ويعلق كل شيء ، حتى الثواب والعقاب في الدنيا والآخرة ، على ما يسمى «نعمة الله» . والأم هي التي قامت على تنشئة ولدها صمويل من الناحية الدينية .

وكان صمويل چونسون منذ طفولته معتل الصحة كليل البصر . وكان مصاباً بداء كان يسمى «داء الملك» وهو سل في غدد الرقبة ، وكان من الخرافات الشائعة وقتئذ أن هذا الداء يشفى بلمسة من الملك . وهكذا حملت مسز چونسون طفلها صمويل ، وكان يومئذ في الثالثة من عمره ، إلى لندن عام ١٧١٢ ، ومثلت في حضرة الملكة آن Queen Anne التي تفضلت على الطفل باللمسة الملكية ، ولكن دون أثر إلا ما بقى في خيال صمويل چونسون من ذكريات غامضة عن طفولته الباكرة عن «سيدة مرصعة بالماس تلبس كبوداً أسود طويلا»

ثم التميمة الذهبية التى لفتها الملكة حول عنقه وظل يحملها إلى يوم وفاته .

وفى ١٧١٧ دخل الغلام صمويل چونسون مدرسة ليتشفيلد حيث بدأ تعلمه للغة اللاتينية ، وأبدى استعداداً للتعلم عظيماً برغم ما أثر عنه من كسل وميل للتسويف فى أداء واجبات المدرسة . فلما انتقل إلى الدراسة الثانوية كان أستاذه فى اللاتينية ناظر المدرسة . توماس هنتر Thomas Hunter ، وكان جهبذاً فى مادته ولكنه كان مؤدباً قاسياً يجلد تلاميذه بالسياط « لينقذهم من المشنقة » كما كان يقول . قال صمويل چونسون عنه فيما بعد : « كان أستاذى يجيد جلدى ، ولولا هذا ، يا سيدى ، لما حققت شيئاً » .

وبعد أن أتم چونسون دراسته الثانوية تفرغ لمعاونة أبيه فى مكتبته ، ولكنه كان يزاول القراءة فيها أكثر مما كان يزاول البيع والشراء. وقد كانت هذه فترة تكونه الحقيقية ، وكان يغوص فى كتب القدماء ، لا يجذبه من الكتب إلا كل جاد ورفيع . قال : « لا كتب الرحلات والأسفار ياسيدى ، ولكن كلها أدب فى أدب ، كلها من كتب القدماء ، كلها من أعمال الرجال » . فلما التحق بجامعة أكسفورد عام ١٧٢٨ ، وهو فى التاسعة عشرة من عمره كان يعرف أكثر من أقرانه .

واللغز فى حياة صمويل چونسون هو : كيف أتيح للكتبى المتواضع ما يكل چونسون أن يدخل ابنه جامعة أكسفورد التى كانت ولا تزال معقلا من معاقل الأرستقراطية الإنجليزية وسراة القوم ؟ ومهما يكن من شىء فقد بدأت متاعب صمويل چونسون المالية تتجلى وهو فى أكسفورد، وظهرت عليه الخصاصة ثم عجز نهائياً عن استكمال دراسته بسبب سوء حالته المالية فترك الجامعة فى ديسمبر ١٧٢٩ بعد عام وبعض العام من الدراسة . تركها بغير شهادة جامعية أو أى مؤهل يعينه على الحياة .

وكسدت تجارة أبيه ثم توفى فى ١٨٣١ فلم يرث صمويل جونسون من تركته إلا عشرين جنهاً نزح بها إلى برمنجهام بعد تجربة مريرة مر بها كمدرس مساعد فى مدرسة أولية . وفى برمنجهام عاونه صديق من أصدقائه على ترجمة كتاب من الفرنسية إلى الإنجليزية لقاء خمسة جنيهات ، وكان هذا الكتاب هو : « رحلة إلى الحبشة » بقلم الأب جيروم لوبو Jerome Lobo . وفى أثناء مقامه فى برمنجهام تزوج جونسون فى ١٧٣٥ من أرملة اسمها إليزابيث تكبره بعشرين عاماً ، جاءته بدوطة قدرها سبعمائة جنيه . فأنشأ فى بلدة قريبة من مسقط رأسه مدرسة داخلية يتعلم فيها أبناء الأشراف اليونانية واللاتينية ، وكان بين تلاميذه الممثل العظيم دافيد جاريك David Garrick ولكنه أغلق مدرسته بعد عامين لقلة التلاميذ .

وقرر جونسون أن ينزح إلى لندن طلباً للعيش والمجد ، فنزح إليها عام ١٧٣٧ مع تلميذه دافيد جاريك الذى سطع اسمه فى عالم المسرح كما سطع اسم جونسون فى عالم الأدب . وفى لندن بدأ جونسون جهاده الأدبى فساهم فى تحرير مجلة جديدة يومئذ اسمها « جنتلمانز ماجازين » Gentleman's Magazine أى « مجلة الجنتلمان » أسسها عام ١٧٣١ رجل يدعى إدوارد كيف Edward Cave . وفى أوائل ١٧٣٧ عاد إلى ليتشفيلد حيث أتم تراجيديا باسم « إيرين » Irene كان قد بدأها أيام مدرسته ورجع بزوجته إلى لندن . و « إيرين » مأساة استقاها جونسون من « تاريخ الترك » لرتشارد نولز Richard Knowles حول قصة السلطان محمد الثانى (الفاتح) مع عذراء يونانية اسمها إيرين .

وهكذا اشتغل جونسون بالصحافة فى صدر حياته . وفى ١٧٣٨ نشر غفلا من التوقيع قصيدته المعروفة : « لندن » ، وهى هجاء للفساد السياسى فى عصره على غرار هجائيات الشاعر اللاتينى الكبير

چوفينال Juvenal فنجحت نجاحاً عظيماً ، وامتدحها پوپ Alexander Pope سيد شعراء العصر وصدرت منها ثلاث طبعات ، ولكنها لم تعد على جونسون إلا بعشرة جنيهات . ولم تكن حياة الصحفى فى ذلك العصر تنقذ صاحبها من الفاقة ، فحاول جونسون أن يعود إلى التدريس والمحاماة ولكنه فشل لفقدانه المؤهل الجامعى اللازم لهذه أو ذاك . وكان يعاون « مجلة الجنتلمان » فى تدوين خلاصة لمحاضر جلسات مجلس العموم ومجلس اللوردات فكان « يفبرك » هذه المحاضر فى لغة أدبية رائعة وينسب إلى رجال السياسة أقوالا وخطباً من تصوره. وكان شديد الاحتقار للأسرة المالكة ، أسرة أورانج Orange ثم أسرة هانوفر Hanover (الهولندية ثم الألمانية) الأجنبية التى آل إليها ملك إنجلترا بعد طرد ورثته الشرعيين من آل ستوارت Stuart أى بعد خلع جيمس الثانى James II عام ١٦٨٨ . كذلك كان جونسون يمقت حكم الوزير الشهير روبرت والبول Robert Walpole رئيس وزراء إنجلترا الذى أثر عنه قوله المعروف بالإشارة إلى أعضاء البرلمان البريطانى : « لكل ثمنه » . وكانت آراء جونسون السياسية تسبب لمجلة « جنتلمانز ما جازين » بعض الحرج .

وفى السنوات العشر الأولى من إقامة جونسون فى لندن ، نشأت بينه وبين الشاعر ريتشارد سافدج Richard Savage صداقة عميقة ، وكان سافدج شاعراً وممثلا وشريكاً لجونسون فى كثير من آرائه السياسية وأخاً فى الفقر والمسغبة . وما أكثر ما كانا يتجولان الليالى الطويلة حول الميادين المحيطة بوستمنستر Westminster مقر البرلمان البريطانى لا يملكان أجر سرير فى بدروم . فلما مات سافدج سنة ١٧٤٤ جاشت عاطفة جونسون فى دراسته الشهيرة « سيرة ريتشارد سافدج The Life of Richard Savage » التى نشرها غفلا من التوقيع فى ١٧٤٤ ، وكانت فيما بعد نواة لكتابه الأشهر « سيرة الشعراء الإنجليز Lives of the English Poets »



وهذه السيرة من أروع ما خط بيان كاتب فى باب السير فى جميع اللغات وفى كل العصور . وقد وصفها الروائى العظيم هنرى فيلدنج Henry Fielding بأنها أروع رسالة فى اللغة الإنجليزية عن فضائل الإنسان ورذائله . كذلك ظهر اهتمامه بالمسرح ، وكان تلميذه الممثل جاريك قد شق طريقه فى عالم الأضواء بسرعة سريعة ، فلمع فى ١٧٤١ ، وما حل عام ١٧٤٧ حتى كان جاريك صاحب امتياز مسرح « دورى لين Drury Lane » ، أشهر مسارح لندن فى ذلك العهد . وفى ١٧٤٥ نشر جونسون دراسته الشهيرة « ملاحظات على تراجيديا ماكبث وهى الدراسة التى ذهبت مثلا بين النقاد على موقف النقد الكلاسيكى من الدراما الشكسبيرية . وساعد جاريك أستاذه جونسون على عرض مسرحيته وهى مأساة « إيرين » عام ١٧٤٩ ، وقد استمر عرضها تسع ليال ، ولم يتجاوب معها الجمهور لأنها من مسرحيات الخاصة .

وفى ١٧٤٦ كان جونسون قد اكتسب هيبة بين أهل العلم والتعليم ، برغم ضآلة موارده المالية ، فاتفقت جماعة من الناشرين على اختياره لإعداد « قاموس اللغة الإنجليزية » يشتركون جميعاً فى تمويله . ووقعوا مع جونسون عقد هذا القاموس عام ١٧٤٦ . وفى العام التالى نشر جونسون « خطة القاموس » . وفى ١٧٤٩ أيضاً أصدر جونسون قصيدته الثانية المعروفة « عبث أمانى الإنسان The Vanity of Human Wishes » وصور فيها أن كل مسعى إنسانى فى الحرب والسياسة والعلم والفلسفة هو باطل الأباطيل وقبض الريح ، كما كان يقول سليمان الحكيم . . ولم يكف عقد القاموس ولا المجد الأدبى الذى أصابه فى تحسين حالته المادية ، فأصدر فى ١٧٥٠ ولمدة عامين مجلة دورية باسم « ذا رامبلر » The Rambler ، أى « الجوال » أو « الجواب » ، وكانت هذه المجلة عبارة عن فرخ واحد من الورق يصدر مرتين كل أسبوع ، ويحتوى على مقال واحد بقلم جونسون غفل من التوقيع ، وكانت المجلة تباع

بينسين . ولم يكن هذا شيئاً مستحدثاً فى تاريخ الأدب ، لأن كل من درس تاريخ الصحافة يعرف أن الكاتبين الإنجليزيين الكبيرين إديسون Addison وستيل Steele قد سبقاه إلى ذلك بسنوات حين أصدرا مجلتهما الشهيرة «ذا سبكتاتور» The Spectator على هذا الغرار : أى بالمقال الإنشائى عماداً للصحيفة أو المجلة ولا شىء آخر غير ذلك ، فوضعا بروعة الإنشاء أساس ما يسمى « بأدب المقال » . وهكذا حذا جونسون حذوهما ومضى ينشر العدد بعد العدد من مجلة « ذا رامبلر » حتى انطوى عامان ، وكان يكتب فى موضوعات الأخلاق والاجتماع والسياسة والأدب ، فيطالب آناً بإلغاء عقوبة الشنق على اللصوصية أو يصف بؤس حياة البغايا أو يصور أحداث الحياة الأدبية إلخ . . وتوقفت « الرامبلر » ، وساءت صحة جونسون وأصيب بنوبة من الكآبة عندما ماتت زوجته إليزابيث . ولا أحد يعرف كيف كانت حياته الزوجية مع هذه المرأة التى كانت تكبره بعشرين عاماً . ولكن يظن أن هذا الزواج غير المألوف كان يقوم على الحب المادئ والإعجاب المتبادل . ويظن أن زوجته إليزابيث عندما تقدمت بها السن أدمنت الشراب وبعض المخدرات ، ولا شك أن هذا كله كان مصدر انزعاج شديد لجونسون . وبعد أن توفيت زوجته بثلاثين عاماً وضع جونسون على قبرها شاهداً من رخام يقول باللاتينية : « Formosa, Culta, Ingenuosa, Pia » . أى : « جميلة ، مهذبة ، ماهرة ، وتقية » . فلما سئل فى ذلك أجاب : « فى النقش على شاهد القبر لا يؤدى المرء يمين الشهادة » .

أما وضع «قاموس اللغة الإنجليزية Dictionary of the English Language فقد استغرق ثمانى سنوات ونصف سنة ، وفرغ منه جونسون عام ١٧٥٥ بمعاونة عدد من السكرتيرين . والقاموس لا يشتمل إلا على ٤٠,٠٠٠ مادة ولكنه فى إتقانه وضبط معانيه وخصوبة شواهده وذكاء شروحه وتعليقاته كان درة القرن الثامن عشر . و « قاموس » جونسون لا يذكر

اليوم إلا للتندر بما ورد فيه من طرائف تقوم مقام الشروح مثل قوله في تعريف القرطم : « نوع من الحبوب يقدم عادة للخيل في إنجلترا ، وتأكله عامة الناس في اسكتلندا » . وحين صدرت الطبعة الأولى من القاموس كانت جامعة أوكسفورد قد منحت چونسون درجة الماجستير في الآداب تقديراً له على مقالاته في مجلة « الرامبلر » فتوج هذا المحروم من المؤهل الجامعي صفحة الغلاف من قاموسه بهذا اللقب الأكاديمي يزدان به اسمه . وكان اللورد تشسترفيلد Lord Chesterfield ، وهو من صفوة النبلاء الأدباء أصحاب التأملات والأساليب في القرن الثامن عشر ومن رعاة الأدب في عصر التنوير ، قد أبدى اهتماماً برعاية « قاموس » اللغة الإنجليزية في بداية وضعه ، ولكنه لم يلبث أن أهمله تماماً ، ولم يعن صاحبه بشيء . فلما صدر الجزء الثاني (والأخير) من « القاموس » ، حياه اللورد تشسترفيلد بمقالين في مجلة « ذاورلد The World » أي (العالم) تحية سخية ، ووصف چونسون بأنه « الدكتاتور الأعظم للغة الإنجليزية » بمعنى أنه سيدها الذي لا ترد له كلمة ولا يخالف له رأي . فبعث إليه چونسون برسالة شهيرة تفيض بالمرارة والتهكم يقول فيها لسيدي اللورد : « إن الاهتمام الذي تفضلتم وأسبغتموه على جهودي ، لو أنه تجلى مبكراً لكان عطفاً ، ولكنه تأخر حتى فقدت اكتراثي به ، ولم أعد أغتبط له ، تأخر حتى بت وحيداً فلا أجد من أحدثه عنه ، حتى غدوت مشهوراً فلا حاجة بي إليه » .

وهكذا غدا چونسون علماً من أعلام العلم والأدب في إنجلترا ، وبرغم هذا لم تنقذه شهرته من حياة الضنك التي كان يحياها . وفي مارس ١٧٥٦ قبض عليه في دين قيمته خمسة جنيهات وثمانية عشر شلناً ، ولم ينقذه من السجن إلا الروائي صمويل ريتشاردسون Samuel Richardson ، صاحب « پاميلا : أو جزاء الفضيلة » Pamela, or Virtue Rewarded ، وأحد أقطاب الفن القصصي في إنجلترا في القرن الثامن

عشر : فقد أرسل إليه ريتشارد سون ستة جنيهات. فلم يجد چونسون مناصاً من العودة إلى مزاولة الصحافة ، وأخذ يكتب المقدمات لكتب عديمة القيمة لقاء المال . ومضى لسنوات يكتب المقالات فى السياسة والأدب والأخلاق والإصلاح الاجتماعى : بعضها لمجلة « ذاليترارى ما جازين » The Literary Magazine (أى (المجلة الأدبية) وبعضها أسبوعيًّا لمجلة « ذا يونيفرسال كرونيكل» The Univcrsal Chronicle (شىء قريب من « أخبار العالم ») تحت عنوان جامع هو « ذا ايدلر » The Idler (أى المتسكع) . وكانت بعض آرائه السياسية ثاقبة ومتمردة على روح عصره ، فقد كان كثير التنديد بالاستعمار الإنجليزى والاستعمار الفرنسى ولا سيما فى أمريكا ، وكان يصف خلاف إنجلترا وفرنسا حول المستعمرات الأمريكية بأنها « شجار بين لصين على سلب المارة » . ولم ير فرقاً بين المستوطنين فى سلام والمستعمرين بقوة السلاح ، ولخص الفرق بينهما بأنه الفرق بين « نشال يخرب بيتك فى صمت ونهاب يغتصب بالقوة » ولم يخف أن يعلن أن الاستعمار الفرنسى كان أقدر من الاستعمار الإنجليزى على اختيار الحكام الصالحين للمستعمرات .

وفيما كان چونسون مشغولا بمقالات « المتسكع » (الأيدلر) جاءه النبأ بأن أمه مريضة مرض الموت ، وبرغم رقة حاله بعث لها باثنى عشر جنيهاً فى ١٣ يناير ١٧٥٩ . ولكنه كان يعلم علم اليقين بأنه سوف يحتاج عاجلا إلى مزيد من المال لمواجهة نفقات جنازة أمه . فأرسل إلى الناشر ستراهان Strahan يستعطفه أن يزوده بثلاثين جنيها ثمناً لرواية يكتبها اسمها « اختيار الحياة أو سيرة أمير الحبشة » . وكانت... هذه رواية « راسيلاس : أمير الحبشة » Rasselas, Prince of Abyssinia أو الرأس إيلاس » ، هذه التى يجدها القارئ بين يديه تحت عنوان « الوادى السعيد » . وهكذا أكب چونسون كل مساء أسبوعاً

كاملا على كتابة رواية « الرأس إيلاس » ، وليس فى ذهنه إلا شىء واحد : إيجاد نفقات جنازة أمه .

ومنذ ١٧٥٦ أعلن چونسون عن مشروعه الأكاديمى الثانى ، ألا وهو إصداره لطبعة جديدة من شكسبير من تحقيقه وتعليقه وجمع لذلك الاشتراكات اللازمة لإصدار الطبعة ولكن يبدو أن ماجمعه كان غير كاف ، لأنه استمر فى ضنكه المالى وقد استغرق إعداد هذه الطبعة الجونسونية نحو تسع سنوات ، وصدرت أخيراً فى ١٧٦٥ فى ثمانية مجلدات ولم يكن جونسون أول محقق لشكسبير فقد سبقه إلى ذلك كثيرون كان أهمهم بنتلى Bentley فى القرن السابع عشر و پوپ Pope ووار برتون Warburton ، فى القرن الثانى عشر ، وقد ساهم كما ساهموا فى تصحيح نصوص شكسبير المغلوطة وجلوا بعض ما فى مفرداته من غموض فى المعنى . وقد منحته كلية ترينتى ، بدبلن درجة الدكتوراه فى القانون عام صدور طبعته من شكسبير ، وجاء تقدير جامعة أكسفورد متأخراً ، فلم تمنحه جامعته الدكتوراه إلا بعد عشر سنوات .

ولكن متاعب چونسون المالية انتهت تماماً قبل صدور طبعته من شكسبير بثلاث سنوات . ففى ١٧٦٢ أبلغ چونسون أن الملك جورج الثالث يرغب فى منحه معاشاً قدره ٣٠٠ جنيه سنوياً ، فأسقط فى يده . إن قبول هذا المعاش كان بداية عهد استقرار حقيقى فى حياته ، ولكن چونسون هو القائل فى قاموسه الشهير فى تعريف مادة « معاش» Pension « المعاش مبلغ يعطى لأجير من أجراء الدولة مكافأة له على خيانة وطنه » وبالطبع لم يكن هذا هو التعريف الحقيقى للمعاش ، فقد درجت الدولة فى إنجلترا فى زمن چونسون وقبل زمن چونسون على منح معاشات سنوية للنابهين من أبناء إنجلترا تقديراً لما قاموا به من جهود فى خدمة الوطن أو الخدمة العامة أو خدمة الفنون والآداب والعلوم . ولكن تعريف چونسون للمعاش فى قاموسه كان تعليقاً سياسيا ساخراً على فساد الحكم

فى زمنه وتوسع والبول فى إغداق المعاشات على غير المستحقين من أنصاره أو من المتملقين . وكان لجونسون أصدقاء من أصحاب الحظوة فى البلاط مثل اللورد بيوت Lord Bute والفنان العظيم سير جوشوا رينولدز Sir Joshua Reynolds فاستشارهما فى الأمر فأكدا له أن المعاش المعروض عليه منحة من الملك على ما أدى فى الماضى من خدمات للعلم والأدب وليس ثمناً لشىء يمكن أن يطلب منه فى المستقبل ، فاستراح ضميره وقبل المعاش .

وفى ١٧٦٣ تعرف جونسون بأهم رجل دخل محيط حياته ، ألا وهو جيمس بوزويل James Boswell كاتب « سيرة صمويل جونسون » The Life of Samuel Johnson ، الشهيرة التى أصبحت أشهر سيرة كتبت لأديب فى تاريخ الأدب الإنجليزى ، وربما فى تاريخ كل الآداب . تعرف جونسون على بوزويل مصادفة فى دكان كتبى فى كوفنت جاردن Covent Garden . وكان بوزويل الشاب ابن قاض من نبلاء أسكتلندا يدعى اللورد أوكنليك Lord Auchinleck ، وكان قد أتم دراسته فى جامعة ادنبره ثم فى جامعة جلاسجو ثم نزح إلى لندن ليستمتع بمباهج العاصمة وبفنونها ، وكان حلم حياته أن يقابل كبار الأدباء وأن يكتب شيئاً يبقى ذكره . وكان مفتوناً بكتابات جونسون متحرقاً للقائه ، وفى هذا اللقاء الأول كان جونسون ملك الحديث اللاذع جافاً فى حديثه معه وبرغم ذلك لم ييأس الشاب بوزويل ، بل زاره فى داره بعد أسبوع واستقبله جونسون متهكماً بقوله : « إنى مدين لأى إنسان يزورنى ». وجلس بوزويل بين يدى جونسون يستمع إلى تعليقاته وخواطره كالمسحور فقد كان جونسون سيد المحدثين فى عصره . وما لبث جونسون أن فتح قلبه لبوزويل ، فقد كان يحب صحبة الشباب ، ونشأ بين الرجلين ود صادق فتلازما . وكانا يخرجان معاً للعشاء فى « حانة المايتر Mitre Tavern ويتنزهان معاً على نهر التيمس . وبناء على نصيحة جونسون بدأ بوزويل

يدون يومياته ، وكانت هذه اليوميات فيما بعد هى ذلك الكتاب العظيم الذى دون بوزويل فيه أقوال چونسون بحذافيرها وداخل إطارها عبر نحو عشرين سنة ، ورسم له صورة لا تقل خلوداً عن لوحة سير جوشوا رينولدز له ، فخرج منه چونسون عملاقاً سقط ظله الجسيم على الحياة الأدبية فى إنجلترا فبدا كله من حوله كالأقزام .

الصالونات الأدبية وفن الحديث . هذه كانت سمة الحياة الأدبية فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر عصر الأرستقراطية . وحين كان چونسون طالباً فى أكسفورد لمع بذكاء حديثه وذكاء عبارته ، ولكن فقره كان أقوى من ذكائه فانسحب من الجامعة قبل أن يستوفى علومه . وفى لندن لم يكن چونسون من السراة حتى يفتح بيته صالوناً للأدباء ، فجعل عام ١٧٥٠ من حانة إيفى لين ناديا أدبيا عرف باسم Ivy Lane Club فكان يجلس فى مقعده فى الحانة ومن حوله أصدقاؤه ينصتون لأحاديثه فى الأدب والمجتمع والأخلاق . وفى ١٧٦٤ اشترك چونسون مع سير جوشوا رينولدز ، فى إنشاء أشهر ناد فى لندن باسم « النادى The Club وكان من بين أعضائه الأوائل المفكر الكبير أدموند بيرك Edmund Burke والأديب الكبير أوليفر جولد سميث Oliver Goldsmith وغيرهما من أعمدة المجتمع المثقف . وقد كانت أعظم لحظة فى حياة بوزويل هى يوم قبوله عضواً فى ذلك النادى بعد مرور تسع سنوات بإصرار من چونسون . كذلك تعرف چونسون فى هذه الفترة على هنرى ثريل Henry Thrale وزوجته مسز ثريل Mrs. Thrale ، واسمها بالميلاد Hester Lynch وعرفت بعد ذلك باسم مسز بيوتزى Mrs. Piozzi لأن هستر بعد أن ترملت فى هنرى ثريل تزوجت من موسيقى إيطالى اسمه « جابريل بيوتزى » وكان هنرى ثريل من سراة البورجوازية الإنجليزية يملك مصنعاً البيرة ، وكان عضواً فى مجلس العموم عن دائرة سذك Southwark ، وكانت زوجته مسز ثريل من ألمع سيدات المجتمع اللندنى ،

وكان صالونها ملتقى لأذكى العقول وأرقى السلوك . وأصبح چونسون ضيفاً دائماً على آل ثريل ، وخصصوا له غرفة دائمة فى دارهما فى ستريتهام Streatham وأخرى فى دارهما فى سذك . وكانت مسز ثريل ذات أطماع أدبية تكتب يوميات عاشت فى تاريخ الأدب الإنجليزى وتعرف باسم « ثريليانا » Thraliana وهى ككتاب بوزويل أحد مصادرنا الهامة عن الدكتور چونسون وعصره . وحين مات هنرى ثريل باعت زوجته هستر مصنع البيرة بمبلغ ١٣٥,٠٠٠ جنيه ثم باعت دار ستريتهام فى ١٧٨٢ وانتقلت إلى دار فى أرجيل ستريت ، وفى هذه الدار خصصت هستر أيضاً غرفة دائمة لچونسون أقام فيها حتى تزوجت هستر زواجها الثانى من بيوتزى الموسيقى فى ١٧٨٤ ، وهو عام وفاة چونسون . صحبة جميلة دامت عشرين عاماً بين چونسون وآل ثريل عرف فيها معنى الراحة والرعاية والحب والحنان ، والأطباق الشهية تخرج من مطابخ السراة الرهيبة إلى موائدهم العامرة .

ولم يكن چونسون كثير الأسفار خارج رحلاته المتقطعة إلى بلدته ليتشفيلد وإلى أكسفورد وبيرمنجهام . فلما بلغ الرابعة والستين (فى ١٧٧٣) أقنعه بوزويل أن يقوم معه برحلة يزور فيها اسكتلندا وجزرها الغربية ، وقد كان ثمرة هذه الرحلة كتابان : كتاب لچونسون اسمه « رحلة إلى الجزر الغربية » Journey to the Western صدر فى ١٧٧٥ ، وكتاب لبوزويل اسمه « يوميات رحلة إلى جزر الهبريديز » Journal of a Tour to the Hebrides Islands صدر فى ١٧٨٥ بعد وفاة الدكتور چونسون . وكأنما كانت هذه فترة الرحلات فى حياة چونسون فقد خرج أيضاً مع آل ثريل فى رحلتين طويلتين إحداهما فى ١٧٧٤ إلى شمال ويلز ، أما الثانية فكانت إلى فرنسا وكان چونسون يعرف الفرنسية ، ومع ذلك فقد آثر أن تكون لغة التفاهم بينه وبين أساتذة السوربون هى اللغة اللاتينية . وقد كان چونسون من أعلم العارفين بها فى أوربا قاطبة .

ومن أهم ملاحظاته على الحياة الفرنسية سعة الفجوة بين الأغنياء والفقراء وخلو فرنسا من طبقة متوسطة كبيرة تملأ هذا الفراغ .

وقرب نهاية عمره أصدر جونسون أهم كتاب فى حياته وهو « سير الشعراء الإنجليز » Lives of the English Poets ما بين ١٧٧٧ و ١٧٨١ . هذا الكتاب هو عمدة النقد الأدبى فى القرن الثامن عشر ومنه تستمد أكثر معايير المذهب الكلاسيكى الحديث فى الأدب وفنونه ، وهو عبارة عن أبحاث متفرقة عن شعراء إنجلترا : ملتون Milton ودرايدن Dryden وپوپ Pope وكاولى Cowley وجراى Gray وجيمس تومسون James Thomson ووليم كولنز William Collins وسويفت Swift وكونجريف Congreve وجون جاى John Gay إلى جانب أربعين شاعراً آخرين من عصر جونسون وما قبله أقل حظاً من الشهرة الأدبية مثل والر Waller وأكنسايد Akenside وشنستون Shenstone وداير Dyer وماليت Mallet وتيكل Tickell وبارنيل Parnell إلخ . . كان ثلاثة من الناشرين يتلقفون هذه الدراسات ليطبعوها كمقدمات لدواوين الشعراء الإنجليز ، ثم جمعت هذه أخيراً فى كتاب واحد لا يربط أجزاءه إلا وحدة موضوعه .

هذه نبذة عن سيرة الدكتور صموئيل جونسون مؤلف « الرأس إيلاس : أمير الحبشة » الذى كان فى زمانه أعظم النقاد الإنجليز ، والحاكم المطلق فى دولة الأدب ، يرفع الشعراء بكلمة ويسحقهم بكلمة ، ويصغى الناس لما يقول فى احتشاد شديد . ولم تعرف لندن قبل أوسكار وايلد غير الدكتور جونسون ملأ نواديها وصالوناتها وحاناتها بالأحاديث الرائعة والسخريات البارعة والتأملات العميقة فى الأدب والأخلاق والاجتماع والسياسة .

القاهرة ١٩٧١ — لويس عوض



الفصل الأول

وصف قصر فى واد

إلى من يستمعون إلى نجوى الخيال فيؤمنون بها إيمانهم بصوت الحقيقة ، وإلى من يطاردون أطياف الأمل فى لهفة وحماسة فيحسبون أن الشيخوخة تؤتى ثمار الشباب وأن الغد يعوض عن حاجات اليوم ، إلى هؤلاء جميعاً أسوق قصة الرأس إيلاس أمير الحبشة .

كان الرأس إيلاس الابن الرابع للإمبراطور الذى ينبع من دولته النيل ، أبو الأنهار ، النيل الذى يجرى بالخصب والنماء دفاقاً سخياً فيملأ العالمين بثمار مصر .

وتبعاً لتقاليد الملوك التى أخذها الخلف عن السلف فى بلاد الشمس المحرقة كان على الرأس إيلاس أن يلزم قصراً خاصا يقيم فيه مع سائر أبناء الملك وبناته ، حتى يدعى إلى ارتقاء العرش بحكم نظام الوراثة .

وكان ذلك القصر الذى فرضته حكمة القدماء أو حرصهم على أمراء الحبشة وادياً فسيحاً فى مملكة أمهرا أحاطت به الجبال الشم من كل جانب ، وكانت قمم تلك الجبال تتلاقى فى المنتصف فيكون منها سقف منيف . ولم يكن للقصر مدخل سوى غار مجوف تحت صخرة ، ولقد اختلف الناس فى شأنه فمنهم من زعم أنه من عمل الطبيعة ومنهم من زعم أنه قد بيد الإنسان وقد أخفت باب الغار غابة كثيفة ، أما فتحته التى تفضى إلى الوادى فقد سدها باب حديدى عظيم صاغه

صناع السنين الغابرة ، وقد بلغ من ضخامته أن فتحه وإغلاقه ما كانا ليتأتيا إلا باستخدام آلات خاصة .

وانسابت من جوانب الجبال نهيرات نشرت الخصب والنبت فى الوادى واجتمعت فى بطنه فكانت منها بحيرة سكنتها الأسماك من كل لون وضرب وأمتها طيور الماء . وكلما فاضت البحيرة بمائها انصرف الماء الفائض فى جدول يجرى فى أخدود مظلم بالجبال الشمالية وأخذ ينحدر هادراً يصم الأسماع من هوة إلى هوة حتى يتلاشى صوته نهائياً .

وسفوح الجبال كانت تكسوها الأشجار . وضفاف الجداول كانت تنمقها الأزهار . وكلما هبت من الريح نفحة سقط البخور من الصخور . وفى كل شهر آتت الأغصان أكلها وهوت منها الفاكهة على الأرض . وفى هذه الدائرة الواسعة عاشت صنوف الحيوان آكلة الحشائش والشجيرات أليفها ووحشها فى حمى بالجبال من صنوف الحيوان المفترسة . ففى جانب من الوداى كانت قطعان الغنم والبهم ترعى الأعشاب وفى الجانب الآخر كانت أفراد الحيوان التى يطلبها الصياد تقفز وتمرح على الأرض المبسوطة الخضراء وبين الصخور كانت تثب الجديان وفوق الأشجار كانت تتسلق القردة ، أما الأفيال الوقورة فقد كانت تستجم فى الأفياء واجتمعت النقائض فى صعيد واحد ، ولكن ما كان بينها إلا خيرات الطبيعة ، أما ضرباتها فقد استبعدت من الوادى استبعاداً .

وأمد الوادى المثمر الرحيب أهله بضرورات الحياة أما ترف الحياة وبهرجها فكانا يفدان إليهم بمقدم الإمبراطور فى زيارته السنوية لبنيه . وفى تلك الزيارة كان الباب الحديدى يفتح على أنغام الموسيقا ، وكان كل ساكن من سكان الوادى يسأل فى الأيام الثمانية التى تستغرقها الزيارة أن يقترح ما يشاء لتهوين العزلة فى ذلك الوادى ودفع الملل الذى يأتى به الزمن بملء كل فراغ فى أسباب التسلية والترفيه . وما من أمنية أزجيت

إلا وتحققت لصاحبها وكان رجال اللهو وبناته يدعون من أقاصى المملكة ليشيعوا البهجة فى ذلك العيد ، فالعازفون يبثون شجى الألحان والراقصات يعرضن جميل الإيقاع أمام الأمراء لعل ذلك يحبب إليهم الأسر السعيد، ولم يكن يدخل الوادى من أهل الفن إلا المهرة الحاذقون . وهكذا بدت البهجة كاملة والاطمئنان أكيداً لكل قادم جديد ، حتى لقد تمنى القادمون الجدد دوام هذه الحال السعيدة . ولكن لما كان الداخلون لا يؤذن لهم بالخروج لم يدر أحد شيئاً عن السأم القاتل الذى يتملك أهل الوادى ويتبارى المتبارون لدخول ذلك المنفى .

وكان القصر قائماً على رابية تعلو نحو ثلاثين خطوة فوق سطح البحيرة وكان القصر مقسما إلى أفنية أو مربعات كثيرة تتفاوت فخامة ورونقاً تبعاً لمكانة ساكنيها فى المجتمع . وكانت سطوحها تستدير فى هيئة أقباء من حجر جسيم ، والتصق فيها الحجر بالحجر بالأسمنت الذى يزداد متانة على الأيام . ومرت بالقصر الأعصر الطوال فإذا به ماثل يتحدى أمطار المدار وأعاصير الاعتدالين دون حاجة إلى الترميم .

وقد بلغ من اتساعه أن المعرفة الكاملة بجميع أجنحته لم تتيسر لأحد خلا عدداً من الضباط القدامى الذين ورثوا أسرار القصر خلفاً عن سلف، بل إن تصميمه كان من التعقيد بحيث يوحى بأن واضعه قد تعمد التعقيد، فقد كان لكل حجرة ممران أحدهما سرى والآخر معروف ، وكان كل فناء متصل بغيره من الأفنية إما عن طريق الطوابق العليا وإما عن طريق يجرى تحت الأرض بين الأجنحة السفلى . كذلك كان بين الأعمدة عدد عظيم فيه فجوات لا يعلم أحد بوجودها ، فجوات أخفى فيها الملوك كنوزهم واحداً بعد الآخر ثم سدوا تلك الفجوات بقطع من رخام لم ترفع إلا فى أقصى حالات الطوارئ . ولقد دونوا تفصيل ما جمعوا من كنوز فى سجل أخفوه ببرج لا يدخله كائن سوى الإمبراطور وفى معيته الأمير وارث العرش .

الفصل الثانى

ضيق الرأس إيلاس بالوادى السعيد

وفى الوادى عاش أبناء الحبشة وبناتها لا يعرفون عن الحياة شيئاً إلا اللذة بعد الراحة والراحة بعد اللذة ، واجتمع من حولهم كل نابغ فى الفن ليحقق لهم المتعة ، وكذلك نعموا بكل ما تنعم به الحواس ، فكانوا يتنزهون فى الحدائق الفيحاء ، وينامون فى قلاع الأمان . وتفنن أهل العلم فى تزيين حالتهم لهم فلم يحدثهم الحكماء الذين يتولون تأديبهم إلا عن بأساء الحياة العامة ووصفوا لهم ما وراء الجبال بأنه أرض النكبات حيث النزاع أس الحياة وحيث يفترس الإنسان أخاه الانسان .

ولكيما يتأكد فى روع الأمراء أن عيشهم رضى كان أهل الفن ينشدون أمامهم كل يوم أغانى موضوعها الوادى السعيد ، ويستثيرون شهواتهم بمختلف الطرق فيقصفون ويعربدون فى كل ساعة من مطلع الفجر إلى مجىء المساء .

وكانت هذه الطرق مثمرة بوجه عام ، فما بدا لأحد من الأمراء أن يوسع أركان دولته هذه إلا الأقلون ، وظلت كثرتهم المطلقة راضية بحالها مقتنعة بأنها تملك كل ما عند الطبيعة وعند الفن من مسرات ، وترثى لحال المساكين الذين حرمتهم الأقدار هذا المعتزل الهادئ وتخال أنهم فرائس فى يد القدر وضحايا فى يد الزمان .

وهكذا أصبحوا وأمسوا كلهم فى غبطة متصلة ، إلا الرأس إيلاس الذى أخذ يتجنب لهوهم وينسحب من حفلاتهم ما إن بلغ السادسة

والعشرين من عمره ، ووجد فى نزهاته الخلوية وتأملاته الهادئة متعة وأى متعة . وكثيراً ما كان يجلس إلى موائدهم التى تحمل أطايب الحياة فينسى أن يتناول منها شيئاً ، وكثيراً ما كان ينهض والأغانى دائرة ثم يسرع إلى حيث لا يدركه صوت الموسيقا ورأى أتباعه انصرافه عن اللذات فحاولوا أن يجددوا فيه الكلف باللذات ، ولكنه كان يتجاهل خدماتهم ويشمئز من دعواتهم ، وراح يقضى اليوم بعد اليوم عند ضفاف النهيرات تظله الأشجار وهناك يصغى إلى الأطيار فى الفنن تغرد ، أو يتأمل الأسماك تلعب فى مجرى الماء ، أو يلقى ببصره على المراعى والجبال التى انتشرت فيها البهم ، فمنها ما كان يأكل الأعشاب ومنها ما كان ينام فى الفيء بين الشجيرات .

ولفت هذا المسلك الشاذ إليه الأنظار . وكان بين حكماء الوادى السعيد حكيم تعوّد منه الأمير حسن الحديث واستراح إلى صحبته ، فتبع الحكيم الأمير خلسة راجياً أن يظفر بسر ضيقه بالوادى وسكانه . ولم يكن الرأس إيلاس يعلم بأن هناك من يراقبه ، فذهب يتأمل أفراد الماعز التى كانت ترعى بين الصخور وأنشأ يوازن بين حاله وحالها . قال : ما الفرق بين الإنسان وبقية ضروب الحيوان ؟ إن كل ما أرى من أفراد الحيوان لها من ضرورات الجسد مثل مالى ، فهى تجوع وتأكل الحشيش وهى تظمأ وترتوى من الجدول . وتقر نفسه بما أكل وما شرب فينام ثم يستيقظ ثانية جوعان يطلب الغذاء ثم الراحة . وأنا كالحيوان أجوع وأظمأ ، ولكن الشبع والرى لا يأتيان بالراحة كما يأتيانه . أنا كالحيوان يوجعنى الجوع ولكن الامتلاء لا يرضينى كما يرضيه . وما بين الأكلة والأكلة يقتلنى السأم والضيق وأتطلع إلى الجوع تطلعاً لعل الجوع يلهب حواسى . إن الطيور تنقر الأعناب أو تلتقط الحب ثم تطير إلى أدواحها ، وعلى أدواحها تقضى أيامها فى سعادة بادية مغردة ألحانها الرتيبة التى لا تتغير . كذلك أستطيع أنا أن أدعو عازف العود

والمغنى ولكن الألحان التى أشجتنى بالأمس تقتلنى اليوم مللا . وأنا لا أجد فى نفسى حاسة واحدة لا ترتوى بما تظمأ إليه ، ومع كل ذلك لا أجدنى سعيداً . فلا شك إذاً أن فى الإنسان حاسة خبيثة لا تجد ما يشبعها فى هذا المكان ، أو لعل به رغبات لا تتصل بالحواس ، ولا سعادة له إلا بإرضاء هذه الرغبات .

وبعد أن فرغ من نجواه رفع رأسه ورأى القمر يشرق فرجع إلى القصر قافلا . وفيما هو يجتاز الحقول ويشاهد الحيوان من حوله قال : « أنتم السعداء يا أفراد الحيوان، ولا حاجة بكم أن تحسدوا هذا السائر بينكم، هذا الشجيّ الذى ينوء بحمل نفسه الثقيلة ، وأنا لا أحسدكم على ما أنتم فيه من سعادة ، فما سعادتكم من سعادة بنى الإنسان . إن بنفسى أوجاعا لا تفهمون لها معنى ، فأنا أخاف الألم وإن كنت لا أشكوه ، وإن بدنى ليقشعر لذكرى الشرور الماضيات كما يقشعر لتوقع الشرور الآتيات ، فلا شك أن العدالة الإلهية قد وهبتنا من ألوان السعادة ما يكافئ ألوان الشقاء » .

ومضى الأمير يسرّي عن نفسه بهذه التأملات فى أثناء عودته ، ويزجيها بصوت شاك حقًّا ، ولكن نظرته كانت نظرة المرتاح إلى رجاحة عقله المتعزى عن بأساء الدنيا بخواطره وبإحساسه بدقة تلك الخواطر وبما أصاب من توفيق فى التعبير عنها . واختلط باسم الثغر بأصحاب المهرجان فى ذلك المساء وأخذ من لهوهم بنصيب كبير وسر الجميع لرؤيته على تلك الحال من الغبطة والهناءة .

الفصل الثالث

حاجات المستغنى

وسعى مؤدبه القديم إلى لقائه راجيا أن يشفيه بالنصائح والعظات بعد أن وقف على علة ضجره بالحياة فى الوادى السعيد ، ولكن الأمير كان يرى أن ذكاء هذا الحكيم قد خبا منذ زمن طويل فلم يجد بنفسه ميلا إلى الإذن له بالمثول بين يديه . وقال : « ترى لم يريد هذا الرجل إزعاجى فى وحدتى ؟ ألن يتاح لى قط أن أنسى محاضراته التى لم أتذوقها إلا بجدتها ولن تعود إليها جدتها إلا إذا نسيتها ؟ » ثم دخل الغابة وفى الغابة اطمأنت نفسه إلى خواطره المألوفة ، وقبل أن ينتهى إلى رأى ما أبصر بمطارده يقف إلى جواره وضاق به صدره ، فأوشك أن ينصرف عنه مسرعا ولكنه لم يشأ أن يغضب هذا الرجل الذى كان يجله فى الماضى ولا يزال يكن له الحب فدعاه إلى الجلوس معه على شط النهر .

وتشجع الحكم الشيخ فأنشأ ينعى ما أصاب الأمير فى الفترة الأخيرة من تحول وإعراض عن ولائم القصر والتماس للخلوات الهادئة ، فأجاب الأمير قائلا : « أنا إن أعرضت عن لذات القصر فما ذلك إلا لأن اللذات لم تعد تلذ لى . وأنا ألتمس الوحدة لأنى شقى ، ولست أحب أن أفسد بشقائى سعادة الآخرين » . فأجاب الحكيم قائلا : « أنت ياسيدى أول من أحس بالشقاء فى هذا الوادى السعيد ، وأرجو أن أوفق إلى إقناعك بأن شقاءك هذا لا مصدر له ، فأنت هنا تنال كل ما يملك إمبراطور الحبشة أن يسبغه على الناس ، وأنت هنا بمأمن من كل خطر ، وأنت هنا لا تعرف عن العمل وبأسائه شيئاً ، ومع ذلك فكل ما حولك

من عمل العاملين وكل ما انتزع من فم الأخطار طوع بنانك . فتلفت حولك تجد كل ما تشتهيه نفسك وإذا كانت جميع حاجاتك مقضية فنيم إذاً شكواك ؟ »

فقال الأمير :

« ولكن هذا بالذات مصدر شقائى ، فأنا شقى لأنى أجد كل حاجاتى مقضية ، وأنا شقى لأنى لا أعلم حقيقة ما تريده نفسى ، ولو أنى علمت بحقيقة ما تريده نفسى لرغبت فيه ، والرغبة تدعو إلى السعى ، ولو قد كنت أسعى لتحقيق شىء أرغب فيه لتبدلت حالى ، وصرت لا أتحرك إلى مغيب الشمس وراء الجبال الغربية ولا أرتجف لمطلع الصباح الذى يفضح سريرة نفسى . وحين أرى الماعز والخراف يطارد بعضها بعضاً تحن نفسى إلى شىء تطارده . أما الآن فلست أجد فرقاً بين ساعة وساعة أو بين يوم ويوم ، وما ذلك إلا لأنى أملك كل ما أشتهيه ، أجل لست أجد بينها فرقاً إلا أن اليوم أشد إملالا من الأمس وأن هذه الساعة أثقل على نفسى من سابقتها . فلتعلمنى باختبارك كيف أقضى نهارى كما كنت أقضيه أيام الطفولة خلىّ البال لا أشعر بفوات الوقت ، فقد كانت الطبيعة يومئذ ترفل أمام عينى كل صباح فى ثوب زاه جديد ، وكل لحظة تعلمنى عن الحياة ما لم أكن أعلمه . لقد نعمت نفسى بما لم تنعم به نفس فهات لى من عندك شيئاً أنشده ولا أجده » .

وعجب الحكيم الشيخ لهذا الداء الجديد ولم يدر بما يجيب ، ولكنه زهد فى الصمت فقال : « لو أنك رأيت ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء لغبطت نفسك على ما أنت فيه من نعيم » . فأجاب الأمير : « لقد أثرت فى نفسى ما تشتهيه ، ولسوف أتطلع إلى رؤية ما يفتك بالعالم من ألوان الشقاء ما دامت رؤيتها شرطاً من شروط السعادة » .

الفصل الرابع

الأمير يدأب على الشكوى والتأمل

وهنا ارتفع صوت النفير معلناً حلول موعد العشاء ، فانتهت المناقشة عند هذا الحد وانصرف الحكيم الشيخ ساخطاً لأن منطقه قد أفضى إلى ما كان يرغب فى منعه بالذات . ولكن سخطه وحزنه لم يدوما طويلا فالسخط والحزن لا يدومان فى الشيخوخة طويلا ، ولعل علة ذلك أننا نستخف بما تعودنا احتماله ويقل اكتراثنا بالناس لأن اكتراث الناس بنا يقل ، أو لعل علته أننا نستهين بالخطوب لأننا نعلم أن يد الموت سوف تمحوها عما قريب .

أما الأمير فقد امتدت خواطره إلى آفاق أرحب ، فما استطاع تهدئة نفسه المضطربة إلا بمشقة . ولقد كان من قبل يرتعد كلما ذكر الحياة المديدة التى قد يحياها . . فطول العمر كان عنده شجى يحتمل على مضض فإذا هو الآن سعيد بشبابه فقد عاد يرى فى طول العمر مجالا للعمل الكثير .

وكان ذلك أول شعاع من أشعة الأمل نفذ فى خياله فألهب فى خديه دم الشباب وأضاف إلى بريق عينيه بريقاً جديداً . وعصفت به الرغبة فى فعل شىء ، ولكنها كانت محض رغبة مبهمة لا تهدف إلى شىء بالذات ولا تجد لنفسها سبيلا إلى التحقق .

وزال عنه وجومه وعاد إلى معاشرة الناس ، فقد كان شأنه شأن من عثر على كنز من السعادة لا يعلم عنه أحد شيئاً ، وكان يرى أن سعادته بكنزه سوف تدوم ما أخفى عن الآخرين سره ، ولذا تعمد الاهتمام

بكل ما يهتمون به من وسائل الترفيه وسعى إلى تحبيب تلك الملاهي إلى أخدانه وهو الذى ينفر منها أشد النفور . ولكن اللذات مهما تعددت لا تشغل وقت الإنسان تماماً ، ولهذا وجد الرأس إيلاس فى يومه متسعاً للانفراد بنفسه والتأمل على النحو الذى يشتهى دون أن يثير شكوك أحد . وخفف ذلك عنه عبء الحياة ، وذهب يرتاد المجتمعات فى إسراف عظيم ، فقد كان يعتقد أن نجاح خطته متوقف على شدة إقباله على تلك المجتمعات . ومن ثم كان يختلى بنفسه فرحاً فقد كان لديه الآن ما يفكر فيه ..

وكان يجد متعته الكبرى فى تخيل ذلك العالم المحجوب عنه ، وكان يتوهم نفسه فى مختلف الظروف ومن حوله شتى الأخطار التى نسجها خياله كما كان يبتكر المغامرات المخيفة ابتكاراً ، ولكن طبيعته الخيرة كانت تنقذه دائماً من براثن الموت وتكشف عن باطل المبطلين وتنتهى بانهزام الظالمين وانتشار السعادة فى قلوب البائسين .

وهكذا قضى الرأس إيلاس عشرين شهراً بين أحلامه هذه ، وقد اشتغل خياله طول الوقت ببناء حياته الجديدة حتى ألهته الحياة الجديدة عن حياة الوحدة التى يحياها ، بل لقد ألهته عن اختراع الوسائل التى يخرج بها من الوادى السعيد ليختلط بأبناء المجتمع .

وقد توهم ذات يوم وهو جالس على شط جدول من جداول الوادى السعيد أنه يرى عذراء يتيمة سلبها عاشق دنىء مالها القليل فمضت تنتحب وتستعطفه أن يعيد إليها ما سلب . وثار الرأس إيلاس لما رآه أيما ثورة وخف لنجدة العذراء فأنشأ يطارد السارق فى لهفة حقيقية ، ولكن الخوف زود الجانى بقوة ليست من صفاته فعجز الرأس إيلاس عن إدراكه برغم ما بذل من جهد عنيف ، ولم يعدل الرأس إيلاس عن الطراد يأساً ، بل عزم على متابعة الجانى حتى يدرك الجانى الإعياء ، وأخيراً وجد نفسه عند سفح الجبل فكف عن عدوه .

وهنا هدأت نفسه وابتسم لما أبدى من حماسة لا تجدى شيئاً ثم رفع بصره إلى الجبل قائلا : « هذا هو الحائل اللعين الذى يردنى عن نيل السعادة ونشر الفضيلة معاً . كم مرة طار فيها خيالى فاجتاز هذه التخوم التى تحد حياتى ، وما حاولت من قبل أن أجتاز هذه التخوم »

وراعه هذا الخاطر فجلس يفكر ، وذكر أن الشمس قد دارت دورتها السنوية مرتين منذ أن اعتزم الفرار من ذلك المعتقل أول مرة . فلكه حزن لا عهد له به ، وذهب يندب ضياع الوقت ويأسى لما فاته من عمل الخير بسبب قعوده . ومضى يقيس ما ضاع من وقت ببقية العمر فقال : « إن الحياة لا تدخل فى حسابها فترة الطفولة الجاهلة ولا فترة الشيخوخة المخرفة ، ونحن نقضى الأعوام الطويلة قبل أن تنضج فينا ملكة التفكير ، كما أن ملكة التنفيذ تخبو فينا سريعاً . وإن الحياة الإنسانية الفعلية لتقدر بأربعين عاماً . أضعت منها الآن جزءاً من أربع وعشرين جزءاً . وما ضاع منى لا شك محسوب علىّ ، فقد ملكته فعلا ، ولكن أى ضمان لى أنى سأحيا عشرين شهراً أخرى ؟ » وعذبه الإحساس بحماقته تعذيباً أليما ، ولم تهدأ نفسه إلا بعد لأى . قال : « إن ما ضاع من عمرى الأول تقع تبعته على حماقة أسلافى أو إجرامهم وعلى تقاليد بلادى وهى سقيمة وإنى لأذكرها بالاشمئزاز ولكنى لا أندم عليها . أما ما ضاع من عمرى بعد أن استنارت روحى بذلك الضياء الجديد ونعمت بتلك السعادة الوجدانية فأنا الملوم عليه وحدى . وما ضاع لا سبيل إلى استرداده ، فقد رأيت الشمس تشرق وتغرب عشرين شهراً متصلة ، وما فعلت إلا أن حملقت كالأبله فى أنوار السماء . إن أفراخ الطير تركت دفء الشمس ولاذت بالغابة وبأطباق الجوزاء ، وكذلك كف الجدى عن الرضاعة وتعلم شيئاً فشيئاً كيف يتسلق الصخور بحثا عن طعامه . وأنا وحدى القعيد الذى لا يتقدم ، وأنا وحدى الجهول قليل الحيلة . ولقد علمنى البدر طبيعة الحياة حين اكتمل فى كبد السماء

أكثر من عشرين مرة ، والجدول الجارى عند قدمى عنفنى على خمولى وما زلت متكئاً أقطف أعناب الخيال ، ولا أتعظ بالأرض المتجددة أمامى أو بالكواكب التى لا تعرف إلا الترحال . عشرون شهراً مضت، فمن ذا يعود بها إلىّ ؟ »

واستبدت به هذه الخواطر الحزينة . وضاعت منه أربعة شهور أخرى جمع فيها أشتات عزمه واستقر فيها رأيه على ألا يضيع من وقته أكثر مما ضيع ، وحدث ذات يوم أن كسرت غادة فنجاناً فسمعها تقول: ما يستحيل جبره لا يستحق أن نحزن عليه . فاتعظ من مقالها واشتدت عزمته .

ووجد الرأس إيلاس أن فلسفتها لا تحتاج إلى تدليل فأنب نفسه على غباوته السابقة ، فما كان يعلم أن كثيراً من الحكم النافعة تأتينا عن طريق المصادفة ، وما تدبر أن عقل الإنسان فى سعيه الجاد وراء الحقائق العليا لا ينتبه إلى الحقائق الساذجة المكشوفة أمامه . وهكذا ندم الرأس إيلاس على ندمه ساعة أو بعضها ، ثم تحول بكل جارحة فيه إلى استنباط وسيلة للهرب من وادى السعادة .

الفصل الخامس

الأمير يتدبر أمر هربه

وكان الرأس إيلاس يحسب أن الهرب من الوادى السعيد سوف يتم بلا عناء ، ولكنه عدل عن رأيه بعد قليل . فقد تلمس طريقه بين الجبال فوجد أن الطبيعة قد أحاطته بأسوار لا يجد أحد سبيلا إلى اختراقها وتلمس طريقه فى الباب الحديدى الذى لم يخرج منه داخل فأدرك أنه حبيس إلى أبد الآبدين . فإذا به يحس إحساس النسر الحبيس ، وإذا هو يتسلق الجبال أسبوعاً تلو أسبوع عله يجد فيها منفذاً تخفيه الشجيرات فما وجد ، ورأى القنن العاليات بواذخ يرتد دونها البصر . كذلك يئس من فتح الباب الحديدى لأن مهرة الصناع قد تفننوا فى إيصاده ، ولأن الديدبان كان يتعاقب على حراسته ليل نهار ، ولأنه كان مكشوفاً لعيون الناظرين فى كل ساعة من ساعات اليوم .

ثم درس الغار الذى تتدفق منه مياه البحيرة ، ورأى جوف الغار فى ضوء الشمس فإذا بالصخور المهشمة تملأ جنباته ، وإذا بالصخور توشك أن تكون متلاصقة تأذن بجريان الماء ولا تأذن بنفاذ الأجسام المتكتلة . فعاد حاسر الرأس حزيناً ولكن اليأس لم يجد إلى فؤاده سبيلا بعد أن تعلم معنى الأمل .

وضاعت من الرأس إيلاس عشرة شهور مضى يبحث فيها بلا ثمرة . ولكن الملل الذى كان يفتك به قد تبخر . فلقد كان يصحو مع الصباح بأمل جديد ولقد كان يحمد لنفسه مثابرتها فى المساء ، ثم يغلبه النوم فينام هنيئاً بعد إعياء النهار . كذلك وجد فى بحثه من المتع ألف

متعة صرفته عن متاعبه كما صرفته عن أفكاره . كشف عن غرائز الحيوان وخواص النبات ورأى العجائب من حوله تترى فاعتزم أن يتعزى بدراسة هذه العجائب إن خاب قصده فى الفرار . ووجد سعادة عظمى فى أن سعيه وإن لم يؤت ثماره المرجوة قد زوده بأسباب للبحث لا سبيل إلى نفادها .

ولكن فضوله الأول لم يفتر ، فقد استقر رأيه على دراسة أحوال البشر ولزمته هذه الرغبة ولكن أمله تضاءل يوماً بعد يوم . وكف عن دق جدران سجنه ، وانصرف عن طلب الفجوات فقد ثبت فى روعه أن الفجوات لا وجود لها . ولكنه اعتزم ألا ينسى غرضه الأصيل وأن يغتنم أول فرصة تسنح له للخروج من الوادى السعيد .

الفصل السادس

مقال فى فن الطيران

وكان بين رجال الفن الذين اجتذبتهم الحياة فى الوادى السعيد رجل اشتهر بين قومه لدرايته الواسعة بعلم الآلات ، وقد أخذ الناس عنه مخترعات عدة بعضها نافع وبعضها قصد به إلى التسلية وحدها . واشتغل هذا المخترع بتوفير أسباب الراحة والسرور لأهل الوادى . فابتكر عجلة يديرها التيار فترفع الماء إلى خزان ، ومن الخزان يجرى توزيعها على سائر أجنحة القصر . كذلك ضرب مظلة فى الحديقة ، ومن حول المظلة كيّف الهواء باستحداث رذاذ صناعى يحفظ للهواء رقته طول العام . كذلك أقام المراوح فى دغل من الأدغال مخصص للسيدات ، وكانت النهيرات التى تجرى فى الدغل تدير المراوح فتتم تهوية الدغل بانتظام وأقام بعض آلات الموسيقا على أبعاد مضبوطة فمنها ما عزفت أوتاره بفعل النسيم ومنها ما عزفت أوتاره بفعل الجدول السلسبيل .

وكان الرأس إيلاس يزور هذا الصانع من حين إلى حين ، ويسر بما يتعلم عليه من أشياء ، وهو فى ذلك يتوهم أن كل ما يجمعه من معارف سوف ينفعه يوم يخرج إلى الدنيا العريضة . وقصد الرأس إيلاس الصانع ذات يوم ليسرى عن نفسه كعادته فألفاه يصنع عربة تنزلق على الماء ، ووجد أن تصميمها يصلح للسطوح المستوية فتملكه الإعجاب الشديد ورجاه أن يتم صنع العربة السابحة . وسر الصانع من الأمير هذا التقدير المستفيض ، واعتزم أن يظفر لديه بحظوة أعظم فقال : « إن ما رأيت ياسيدى جزء تافه مما تستطيع العلوم الآلية

أن تحققه ، ولقد كان رأى الثابت دائماً أن الانسان يستطيع اختزال ما ينفعه من وقت طويل فى الانتقال بالسفن والعربات إذا هو استخدم الأجنحة يطير بها ، ورحاب السماء مفتوحة للباحثين أما الجهال والكسالى فنصيبهم الزحف على الأرض .

وما إن سمع الأمير هذا الكلام حتى تجددت فيه الرغبة لتخطى الجبال وبعد أن رأى صنع الصانع خيل إليه أن قريحة هذا المخترع تستطيع أن تجود بما هو أبدع من ذلك ، ولكنه ذهب يلقى الأسئلة تباعاً خشية أن يضلله الأمل الكاذب قال : « يبدو لى أن خيالك أوسع من درايتك لأنى أراك تقص علىّ رغباتك ولا تفضى إلىّ بمعارفك . إن لكل مخلوق مسلكه ومسعاه، فللطير السماء ، والأرض من نصيب الإنسان والحيوان » .

فأجاب الصانع : « ولكن الماء مملكة الأسماك ، وفى الماء يسبح الحيوان بالفطرة ويسبح الإنسان بفنه ، ومن استطاع العوم كان الطيران فى متناوله ، فما العوم إلا طيران فى سائل شديد الكثافة ، وما الطيران إلا العوم فى سائل قليلها ، فما علينا إلا أن نضبط النسبة بين قوة مقاومتنا وبين كثافة المادة التى نسبح فيها . ولا شك أن الهواء سيحملك لو جددت القوة الدافعة بأسرع مما يلين الهواء تحت ضغطك » .

قال الأمير : « ولكن التدريب على العوم تدريب مجهد ، وأقوى العضلات تضعف به بعد قليل ، وأرى أن الطيران سوف يكون أشد إجهاداً من العوم ذاته ، والأجنحة لا تجدى فتيلا إلا إذا استطاع الإنسان أن يقطع بها أبعاداً لا يقطعها بسباحة » .

فأجاب الصانع : « إن المجهود الأكبر سوف يستهلك فى الارتفاع من الأرض كما نرى فى حالة الدجاج والأوز مثلا . ولكن بعد أن تتوغل فى السماء تخف جاذبية الأرض ويخف ثقل الجسم شيئاً فشيئاً حتى نصل إلى منطقة يطفو فيها الإنسان دون ميل إلى الهبوط ، وعندئذ لن يحتاج لقوة ينفقها إلا لإحداث الحركة الأمامية ، وهذه تتم بأقل

دافع . وأنت يا سيدى الأمير محب للاستطلاع إلى حد عظيم وتستطيع أن تتصور المتعة التى يجدها فيلسوف من الفلاسفة أوتى جناحين فحلق فى السماء ومضى يتأمل كرة الأرض وهى تدور من تحته دوراناً متصلا وتعرض عليه بدورتها اليومية جميع الأقطار الواقعة فى خط العرض الذى يثبت داخله .. إن هذا المشاهد المحلق سوف يسر سروراً عظيماً بمرأى اليابسة والمحيط والمدائن والصحراوات تنطوى تحت بصره الواحدة بعد الأخرى . نعم ، ولسوف يرى وهو فى أمان الأسواق وميادين القتال والجبال التى يسكنها المتوحشون والبقاع الخصبة التى يسعد أهلوها بثمارها وينعمون بالسلام . ولو استطعنا التحليق لأمكننا أن نتتبع نهر النيل من بدايته إلى نهايته ولطرنا فوق الأمصار النائية واستكشفنا وجه الطبيعة من مشارق الأرض إلى مغاربها .

قال الأمير : « كل هذا تتمناه النفس حقاً ، ولكنى أعتقد أن التنفس يمتنع على الإنسان فى تلك البقاع ، بقاع التأمل والصفاء . ولقد انتهى إلى علمى أن التنفس يشق على الناس إذا صعدوا جبلا شاهقاً ، وهذه الأخاديد التى تراها يسهل السقوط منها برغم أن ارتفاعها العظيم ينتهى بخفة فى الهواء لا مثيل لها . ومن هذا ترى أن خطر السقوط المفاجئ ماثل أينما صعدت فى منطقة التنفس المحتمل » .

فأجاب الصانع : « بمحال أن نحقق شيئاً ما لم نذلل جميع الصعاب الواحدة بعد الأخرى . ولو شملتنى برعايتك لجازفت بحياتى فى المحاولة الأولى للطيران . ولقد درست تركيب الطيور بجميع أنواعها ، وأجد أن أنسب جناح للإنسان هو جناح الخفاش لما فيه من طيات متصلة . ولسوف أبدأ العمل على هذا التصميم غداً ، وأرجو أن أوفق قبل انتهاء عام إلى الارتفاع فى الجو حيث لا يدركنى أحد بعيداً عن حقد الحاقدين . ولكنى أشترط على سيدى الأمير أن يكتم السر وألا يسألنى أن أصنع أجنحة لأحد سواه وسواى » .

قال الرأس إيلاس : « ولم تبخل على الغير بهذه المنفعة الجليلة ؟ إن الخبرة الفنية ينبغي أن تكون ثمراتها ملكاً مشاعاً لبنى البشر ، فكل إنسان مدين للآخرين بالكثير ، والواجب يقضى بأن نعطى كما أخذنا » .

فأجاب الصانع : « لو أن الناس كانوا جميعاً صالحين لما ترددت فى تعليمهم الطيران فرداً فرداً . ولكن أى اطمئنان يجده الأخيار إذا استطاع الأشرار أن يغزوهم من الجو ؟ فلا الأسوار ولا الجبال ولا البحار تكفى لرد جيش سابح بين السحب . إن سرباً من برابرة الشمال قويا فاتكاً قد يفد على متن الريح ثم يحط على حاضرة بلد خصيب وينهبها نهباً . بل إن هذا الوادى الذى يعتكف فيه الأمراء ، هذا الوادى الذى يفيض بالسعادة ، قد تنتهك حرمته جمهرة من الهمج العرايا الذين ينتشرون فى أرجاء السواحل الجنوبية » .

ووعد الأمير الصانع بكتمان السر ، وانتظر التجربة وفى قلبه بارق من أمل . وكان يتردد من حين لآخر على الصانع ليقف على ماتقدم من خطوات ، فراعه ما رأى من أفانين كثيرة قصد بها إلى تيسير الحركة وإلى الجمع بين الخفة والقوة معاً . أما الصانع فقد كان يشتد كل يوم إيماناً بأنه سوف يتجاوز النسر فى علاه والعقاب فى جوزائه وانتقلت هذه العدوى إلى الأمير فغدا لا يقل عن الصانع تفاؤلا .

وانتهى العام وإذا بالأجنحة يتم صنعها . وخرج الصانع فى الصباح المحدد لابساً عدة الطيران ووقف فوق رابية صغيرة . ورفرف بجناحيه قليلا ليستجمع الهواء ثم وثب من مكانه ولكنه سقط لفوره فى البحيرة . وأغاثه الجناحان فى الماء بعد أن خذلاه فى الهواء ، فطفا بهما حتى جذبه الأمير إلى الشط ، فخرج إلى اليابسة فى شحوب الموتى يفتك به الذعر والغيظ جميعاً .

الفصل السابع

الأمير يلتقي برجل من أهل العلم

لم يطل حزن الأمير لهذه النكبة فقد كان يعقد الآمال على هذه المحاولة الفاشلة لأن وجوه الفرار الأخرى قد امتنعت عليه ولم يعدل عن عزمه على مغادرة الوادى السعيد حين تسنح أول فرصة .

وتوقف خياله عن نشاطه ، وتضاءل أمله فى الخروج إلى الدنيا حتى تلاشى . وذهب يتعزى عن كل ذلك ما وجد إلى العزاء سبيلا ولكن السخط بدأ يتملكه شيئاً فشيئاً وأنشأ يستسلم لخواطره الحزينة مرة أخرى ولكن فصل الأمطار ، وهو موسمى فى تلك الأقطار ، حل وتعذر بحلوله التجوال فى الغابات .

وطال هطول الأمطار واشتدت غزارتها على نحو لم يألفه سكان الوادى السعيد . فتفجرت الغيوم على الجبال المتاخمة وجرت السيول إلى السهول فى كل جانب من جوانب الجبال ، حتى ضاق الغار بالماء المتراكم . وفاضت البحيرة فأغرق شطئانها الماء وامتد الطوفان إلى مستوى الوادى بأكمله ، ولم تعد العين ترى من معالم الوادى إلا القصر والربوة التى ينهض عليها وبقعاً متفرقة من أراض عاليات . وهجرت المراعى قطعانها واعتصمت بالجبال ، وكذلك اعتصم بالجبال وحشى الحيوان .

ولزم جميع الأمراء القصر بسبب الفيضان واكتفوا بأسباب اللهو المنزلية . واستوقف انتباه الرأس إيلاس قصيدة رواها شاعر يدعى عملاق موضوعها الحياة الإنسانية وأحوالها المختلفة ، فأمر الأمير الشاعر بأن يمثل بين يديه فى جناحه الخاص وسأله أن ينشده قصيدته للمرة الثانية

ثم تبسط معه فى الحديث ووجد بعض السعادة فى أنه قد عثر على رجل يعرف طبيعة الحياة معرفة تامة ويستطيع أن يصورها هذا التصوير الماهر . وسأل الأمير الشاعر ألف سؤال وسؤالا ، عن أشياء كان ينبغى أن يعرفها لأنها مألوفة وساذجة ، ولكن سجنه فى الوادى السعيد منذ طفولته قد جعل منها أسراراً مغلقة . ورثا الشاعر لجهله واطمأن إلى فضوله وذهب يسرى عنه يوماً بعد آخر بكل جديد وبكل نافع من ألوان المعرفة ، حتى لقد ضاق الأمير بحاجته إلى النوم ، وصار يترقب مطلع الصباح لتتجدد به مسراته .

وفيما كانا يجلسان معاً أمر الأمير الشاعر عملاقاً أن يسرد عليه قصة حياته ، وأن يحدثه عما دفعه إلى الوادى السعيد أو جذبه إليه ليختم حياته بين أسواره . وبدأ عملاق فى سرد قصته ، ولكن الرأس إيلاس جاءته دعوة إلى حفل موسيقى فكظم فضوله حتى الليل .

الفصل الثامن

قصة عملاق

انتصف الليل قبل أن تهدأ الموسيقى وتنسحب الأميرات ، ففى المناطق الاستوائية يكون اللهو والسمر فى الليل وحده . وبعد ارفضاض الحفل استدعى الرأس إيلاس صاحبه وسأله أن يبدأ فى سرد قصة حياته فقال عملاق :

« ولدت فى مملكة جوياما بالقرب من الينبوع الذى يخرج منه النيل ، وكان أبى تاجراً ثرياً يجرى تجارته بين موانئ البحر الأحمر وداخلية الأقطار الأفريقية . وكان أميناً مقتصداً مجداً فى عمله ولكنه برغم ذلك كان خسيس الطبع محدود الإدراك لا رغبة له فى الحياة سوى جمع المال ، وكان يخفى ماله عن العيون خشية أن يجور عليه حاكم الإقليم » .

فقال الأمير : « لا شك فى أن أبى يهمل فى أداء وظيفته إذا كان فى بلاده رجل يجور على مال الغير . أولا يعلم أن الملوك مسئولون عما يحدث فى بلادهم من ظلم وجور ؟ لو أنى كنت إمبراطوراً لحميت أحقر حقير فى دولتى من ظلم الظالمين ، وإن دمى ليغلى حين أسمع بتاجر لا يستطيع أن ينعم بما كسب من ربح حلال مخافة أن يسلبه ماله ذوو السلطان . إلى باسم هذا الحاكم حتى أوقف الإمبراطور على جرائمه » .

أجاب عملاق : « إن حميتك ياسيدى الأمير أثر من آثار نفسك الفاضلة التى تثور بوحى من شبابك ، ولسوف يأتى حين تبرئ فيه أباك مما تلومه الآن عليه ، ولعل صدرك يضيق يومئذ بشكايات الشاكين

لمثل هذا الحاكم الغاصب .إن الظلم فى بلاد الحبشة نادر الوجود والظالمين يؤخذون بالشدة أينما وجدوا . والإنسانية لم تهتد بعد إلى نوع من أنواع الحكومة يقضى على قسوة القساة قضاء تاماً . إن الحكم بمدلول الكلمة يفرض القوة فى فريق من الناس والخضوع فى الفريق الآخر . والإنسان يطغى من حين لآخر كلما ملك القوة . ويقظة قاضى القضاة قد تنفع فى رفع الكثير من الجور، ولكنها لن ترفع الجور كله ، فقاضى القضاة لا علم له بكل ما يرتكب من جرائم، وقاضى القضاة لا يستطيع أن يدين إلا بعض المذنبين » . .

قال الأمير : « هذا ما لا أفهمه ، ولكنى أوثر أن أستمع إلى بقية قصتك عن أن أجادلك فى أصول الحكم ، فامض فى حديثك » .

فضى عملاق فى حديثه يقول : « كان أبى يعتزم أن يزودنى بالعلم الذى يؤهلنى لممارسة التجارة وحدها . وحين لاحظ فىّ قوة الذاكرة وسرعة الفهم ذهب يمنى نفسه ويمنينى بمستقبل عظيم فى عالم التجارة وتنبأ لى أكثر من مرة أنى سوف أكون أغنى أغنياء الحبشة » .

قال الأمير : « وفيم كان طلب أبيك للمزيد من المال ؟ أما قلت إنه ملك منه أكثر مما يستطيع أن يظهر الناس عليه وأكثر مما يستطيع أن ينعم به ؟ إنى لا أميل إلى التشكك فى صدق ما تقول ، ولكنك تناقض نفسك والحق لا يستقيم مع التناقض » .

أجاب عملاق : « إن الحق لا يستقيم مع التناقض فى الواقع ياسيدى الأمير ، أما فى دنيا الإنسان فالتناقض قد لا يتعارض مع الحق . ثم إن التباين يختلف عن التناقض . وأبى يطلب المزيد من المال ليزداد بذلك اطمئنانه فى حياته المستقبلة. ومهما يكن من شىء فالإنسان بحاجة إلى أمل يدفعه إلى العمل فى الحياة ، ومن توافرت له حاجاته الحقيقية اصطنع أحلامه فى عالم الخيال » .

قال الأمير: « فهمت ما ترمى إليه وأعتذر لك عن هذه المقاطعة »

ومضى عملاق فى قصته يقول : « أدخلنى أبى المدرسة وهو يضع فىّ هذا الرجاء ولكن ما إن تذوقت المعرفة ونهلت من نبعها حتّى استصغرت نفسى المال وجامعيه ، ولم أعلن لأحد عن حالى بل اعتزمت سرًّا أن أخيب رجاء أبى فىّ ، وذهبت أرثى لضيق أفقه . وهكذا بلغت العشرين من عمرى قبل أن يسألنى أبى أن أرحل وراء التجارة وكنت قد تعلمت فى المدرسة آداب بلادى وفنونها جميعاً ، وقضيت أعوام الطلب سعيداً بما أوتيت من علم يتجدد كل يوم ، ولكنى فقدت احترامى لأساتذتى درجة درجة حين شببت واتسعت مداركى ، فقد وجدتهم لا يختلفون فى شىء عن عامة الناس .

« وأخيراً رأى أبى أن يزج بى فى ميدان التجارة. وإذا به ذات يوم يفتح كنزاً من كنوزه المخبوءة تحت الأرض ويعد عشرة آلاف قطعة من الذهب قائلا : هذا يافتى رأس مالك ، ولقد بدأت حياتى بأقل من خمس هذا المقدار ، وأنت ترى كيف ضاعفته بالجد والادخار . وهذا المال مالك ، زده إن شئت وبدده إن شئت . فلو بددته بالطيش أو الإهمال فلن تجد مالا غيره قبل وفاتى . ولو ضاعفته فى أربعة أعوام أبطلنا تبعيتك لى وغدونا صديقين وشريكين ، فمن حذق جمع المال حذقى له كان ندًّا لى مدى الحياة .

« وهكذا كدسنا أموالنا فى زكائب بين البضائع الرخيصة وحملتها لنا الجمال إلى سواحل البحر الأحمر ، وحين وقع بصرى على رحاب الماء خفق قلبى كأنى أسير يلتمس النجاة ، وامتلكنى فضول هائل واعتزمت أن أغتنم هذه الفرصة لأستطلع أحوال الناس فى الأقطار الأخرى ولأتعلم ما لا يعلمه الأحباش .

« وتذكرت أن أبى قد فرض علىّ زيادة مالى لا بعهد استخلصه منى ، ولكن بوعيد.كنت فى حل من أن أتغاضى عنه ، ولذا انتهى رأيى

إلى إشباع رغبتى الأولى . فمضيت أنهل من ينابيع المعرفة لأطفئ ظمأ الفضول .

« ويسر لى ذلك أن تجارتى كانت مستقلة عن تجارة أبى ، فتعرفت على ربان سفينة من السفن ونزحت إلى بلاد غير بلادى . ولم أكن أطلب شيئاً بالذات من وراء رحلتى هذه ، فقد كان يكفينى من الأسفار أنها تعرض علىّ من المدائن مالم أره من قبل . وهكذا تركت لأبى خطاباً أطلعه فيه على عزمى ، واعتليت ظهر سفينة قاصدة بلاد السورات » .

الفصل التاسع

عملاق يستأنف قصته

« وحين توغلت فى البحر واختفت عن عينى الشطئان تلفت حولى وتنازعنى الرضا والرهبة واتسعت روحى بمرأى تلك الآفاق المترامية فتوهمت أنى لن أعرف الملل بعد ذلك، ولكن نفسى ما لبثت أن سئمت ما حولها من تشابه مضجر . وعندئذ وجلت جوف السفينة وخلت أن متع المستقبل قد تنتهى جميعاً كما انتهت متعة الحاضر ، أعنى بالملل وخيبة الأمل. ولكنى ذهبت أتعزى بما بين اليابسة والماء من فرق جوهرى، فما فى المحيط من جدة إلا تعاقب الحركة والسكون ، إن كان هناك تعاقب ، أما الأرض فوديانها وجبالها وصحاريها وحواضرها تشغل البال طراً ، وفى الأرض نلتقى بأناس عاداتهم مختلفة وآراؤهم متضاربة لذلك رجوت أن يعوضنى الناس بتباينهم عما قد أجده فى الطبيعة من تكرار ممجوج .

« وهدأ بالى بهذه الخواطر ، وذهبت أسرى عن نفسى فى أثناء الرحلة آناً بالاستفسار من البحارة عن فن الملاحة ، فقد كنت لا أدرى عنه شيئاً ، وآناً بإعداد نفسى لا ستقبال المواقف المختلفة حين أبدأ حياتى الجديدة ، وهى مواقف كلها من عمل الخيال .

« وأوشكت متعتى فى رحلتى أن تنفد ، ولكن سرعان ما رست بنا السفينة فى سورات ، وفى سورات استرددت مالى وابتعت بعض السلع التى تعين المرء على الظهور ثم انضممت إلى قافلة كانت تهدف إلى داخلية البلاد . ولسبب لا أعلمه قدر رفاقى فى السفر أنى من أهل

اليسار واستدلوا على جهلي بما كنت ألقيه من أسئلة وبما كنت أقوله من عبارات الإعجاب بكل ما أراه ، فعدونى غراً ينبغى أن يتعلم من تجاريب الحياة شيئاً كثيراً ، وأحلوا للناس خداعى لأن العلم لا يؤخذ بالمجان ، فتركونى لرحمة الخدم والموظفين يستنزفون مالى ما وجدوا إلى استنزافه سبيلا ، ونهبنى الناهبون تحت أبصارهم فلم يحركوا ساكناً لإغاثتى وما جنوا من خسارتى شيئاً إلا فرحتهم بما يصيب المغفل من محن ورضاهم بأنهم من المجربين » .

قال الأمير : « تريث برهة ياعملاق ، فما كنت أحسب أن هذا الجنون من صفات الإنسان . فكيف يؤذى رجل رجلا وهو لا ينتفع بأذاه ؟ وأنا أفهم اغتباط المجرب بتجاربه إذا صادف غراً أحمق ، ولكن جهلك كان وليد المصادفة وحدها فهو ليس بجريمة ولا بحماقة وليس فيه ما يدعو إلى اعتزازهم بعلمهم ، ولقد كان يستوى لديهم أن ينقذوك بعلمهم أو أن يبخلوا به عليك ، فلم اختاروا سبيل الضرر؟ » .

أجاب عملاق : « إن الكبرياء والفظاظة رفيقان متلازمان ، والمستكبر يرضى بأخس منفعة تأتيه ، وسعادة الحساد لا تتم إلا بشقاء الآخرين . ولقد كان ذلك النفر عدواً لى فقد نفسوا علىّ جاهى ، ولقد وجدوا لذة فى تحطيمى فهم إذن من البغاة الظالمين » .

قال الأمير : « امض فى حديثك يا عملاق ، فلست أرتاب فى صدق مقالك ، ولكنى أعتقد أنك تخطئ فى تقدير الدوافع » .

قال عملاق : « بلغت أجرا ، حاضرة هندوستان ، فى هذا الركب ، وهى المدينة التى يقيم فيها عادة ملك المغول العظيم . وفى أجرا تعلمت لغة البلاد وبعد شهور قلائل أمكننى أن أتفاهم مع علماء المدينة ، فوجدت بعضهم يميل إلى التحفظ والكآبة ووجدت رحابة صدر وإقبالا على الحديث فى الآخرين . ووجدت منهم من ضنوا على الناس بعلمهم

الذى أضناهم اكتسابه ، ووجدت منهم من رأوا فى تهذيب الغير غاية المعرفة .

« وكان مؤدبى مؤدب الأمراء الصغار ، وقد التفت بجدى واجتهادى حتى قدمنى إلى الإمبراطور واصفاً إياى أنى رجل قل فى العلم نظيرى . وسألنى الإمبراطور كثيراً عن بلادى وعن أسفارى ، ولقد انصرفت من حضرته عاجباً لحكمته النادرة وطبعه النبيل ، وإن كنت لا أذكر الآن قولا من أقواله ، فذا يعجز عنه الرجال العاديون .

« وعظمت حظوتى حتى لقد لجأ إلىّ أصحابى التجار ملتمسين أن أوصى بهم سيدات البلاط ، وقد عجبت لثقتهم فىّ ورجائهم فى أن أمد إليهم يد العون فأنبتهم فى رفق على ما بدر منهم فى أثناء الرحلة من خيانة لى وتفريط فىّ ، فاستمعوا لتأنيبى فى غير اكتراث ولم يبد عليهم مايدل على الأسف أو الخجل .

« ثم ذهبوا يؤيدون مطلبهم بعرض الرشوة ، ولكنى رفضت ماعرضوا فإذا كان العطف لم يكفنى حافزاً فالمال لم يغرنى من باب أولى وما أحجمت عن مساعدتهم لأنهم أنزلوا بى أذى بل لأحول دون إيذائهم غيرى ، فقد كنت على يقين من أنهم سوف يستغلون ما أنعم به من حظوة فى البلاط فيغشون شراة بضائعهم .

« وبعد أن تعلمت فى أجرا كل ما يستحق التعلم نزحت إلى بلاد العجم حيث شاهدت أطلال حضارة فخمة بائدة ووقفت على أسباب الترف وهى كثيرة هنالك .

ووجدت أن الفرس شعب لطيف المعشر يحب الاختلاط ، وقد وجدت كل يوم فى مجتمعاتهم مجالا لدراسة أخلاقهم وأطوارهم كما وجدت مجالا لدراسة الطبيعة الإنسانية فى وجوهها المختلفة .

« ومن بلاد العجم انتقلت إلى بلاد العرب حيث رأيت أمة راعية

٥٣

ومحاربة فى آن واحد ، يعيش أبناؤها فى تنقل مستمر ولا يملكون من موارد الثروة إلا أغنامهم وأبقارهم ، ولقد عاشوا فى جهاد متصل مع بقية شعوب الأرض ، برغم أنهم لم يغبطوا الناس أشياءهم أو ينفسوا عليهم متاعهم » .

الفصل العاشر

عملاق يستأنف قصته : فى الشعر

« وأينما حللت وجدت أن للشعر المقام الأول بين معارف الإنسان ووجدت أن الناس يحملون له من الاحترام ما يحملونه للطبيعة الملائكية . ومع ذلك فإنى أعجب أشد العجب إذ أرى إجماع الناس على أن قديم الشعر خير من حديثه . ولست أدرى ما دفعهم إلى كل ذلك ، ، أهو أن تذوق الشعر يتم لأول وهلة على حين تكتسب بقية معارف الإنسان شيئاً فشيئاً ، أم أن شعر الأولين فى كل أمة قد أدهش أبناءها بما فيه من جدة فقدروه ثم دام له هذا التقدير بالتقليد، وهو التقدير الذى ما أصابه إلا مصادفة ، أم أن الشعراء القدامى بحكم سبقهم فى سلسلة الحياة قد استأثروا بما يستحق الوصف سواء فى الطبيعة أو فى عواطف الإنسان أو فى قصص الحياة وهى جميعاً ثابتة لا تتغير بتغير الأزمان ، فلم يتركوا لأخلافهم مجالا لشىء إلا ترديد ما رووه من وقائع وتضمين ما ابتكروه من أخيلة . ومهما تكن العلة فالملاحظ أن القدماء قد ملكوا ناصية الطبيعة وأن المحدثين قد ملكوا ناصية الفن ، والمعروف أن للأولين السبق فى القوة والابتكار وأن للمتأخرين السبق فى الرقة والأناقة .

« ولقد كنت أود أن أضيف اسمى إلى قائمة الشعراء فدرست الشعر الفارسى كله والشعر العربى كله ، واستظهرت المجلدات المعلقة فى جامع مكة، ولكنى سرعان ما أدركت أن الشاعر الفذ لا يعتمد على التقليد . ودفعتنى رغبتى فى الإجادة إلى الانصراف عن آثار الشعراء والاهتمام بدراسة الطبيعة والحياة والتمست فى الطبيعة إلهامى والتمست فى الأحياء

جمهوري : وما استطعت أن أصف ما لم أره ، وما رجوت أن أحرك مشاعر قوم لم أفهم مصالحهم وأفكارهم .

« ولما اعتزمت قرض الشعر اختلفت نظرتي للأشياء واشتد انتباهي واتسعت أمامي الآفاق فبت أكترث لكل شيء مهما بلغت تفاهته ، وذهبت أرتقي الجبال وأذرع البيد في طلب الأخيلة والتشابيه وثبتت في وجداني كل شجرة في الغابة وكل زهرة في الوادي. وقسمت اهتمامي بالعدل بين ذرا الجبال وأبراج القصور . ومن حين لآخر كنت أتجول بحذاء الجداول وألتفت إلى ما يطرأ على سحاب الصيف من تغير ، فكل مادة تنفع الشاعر في شعره ، وخيال الشاعر ينبغي أن يستوعب صور الجمال جميعاً ومصادر الهول جميعاً ، وأن يألف العظيم الرهيب والصغير الدقيق على السواء ، وأن يختزن في ذهنه مادة لا ينفد تباينها من أشجار الحديقة وحيوان الغاب ومعادن الأرض وشهب السموات ، فكل فكرة تفيد الشاعر في تدعيم الحقائق الدينية أو الحقائق الأخلاقية التي يتحدث عنها الشاعر أو هي تفيده في تنميق هذه الحقائق . وأوسع الشعراء دراية شاعر يجيد الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن صورة إلى صورة ويحسن إرضاء قرائه بغريب الإشارات وجديد التعاليم .

« لذلك حرصت على دراسة ظواهر الطبيعة ظاهرة ظاهرة ، وما من بلد زرته إلا وكان له أثر في شعري » .

فقال الأمير : « لا شك أن كثيراً من دقائق الطبيعة والحياة قد فاتتك في سعيك هذا للمعرفة الشاملة ، فلقد عشت عامة حياتي في نطاق هذه الجبال ، ومع ذلك ما من مرة خرجت فيها من القصر إلا رأيت شيئاً لم تقع عيني عليه قبل ، أو لم ألتفت إليه في الماضي » .

أجاب عملاق : « إن وظيفة الشاعر هي أن يدرس النوع لا الأفراد وأن يلاحظ الخواص العامة والمظاهر الواضحة ، فهو لا يعد

فى زهرة التوليب أوراقها أو يصف درجات الخضرة التى يراها فى الغابة وهو يعرض فى تصويره للطبيعة معالمها البارزة الجلية مما يذكر كل ذهن بالأصل الذى نقلت عنه ، وهو يتجاهل الفوارق الدقيقة التى أن التفت إليها فرد أهملها أفراد مؤثراً عليها من الخصائص ما يلتفت إليه كل ذهن منتبه ويلحظه كل جنان ليس الإهمال من صفاته .

« ولكن معرفة الطبيعة بعض وظيفة الشاعر لا كلها : إذ ينبغى عليه أن يعرف كذلك طرق الحياة جميعها . والشاعر لا يكون شاعراً إلا إذا أحس بما فى هذه الطرق جميعاً من سعادة أو شقاء ، وإلا إذا أدرك ما للعواطف من قوة فى جميع وجوهها وتفاعلاتها . وإلا إذا تتبع ما يطرأ على ذهن الإنسان منذ طفولته الحية حتى هرمه اليائس من تغير تحت ضغط التقاليد المختلفة وبتأثير المناخ أو العادات وهو تأثير عرضى . وعلى الشاعر أن يجرد نفسه من الأحكام الفاسدة والأحكام الموروثة التى يفرضها عليه جيله أو يفرضها عليه بلده ، وعليه أن يهتدى إلى الحق والباطل فى صورتهما المجردة الثابتة ، كما أن عليه أن يغض النظر عما حوله من قوانين وآراء وأن يسمو إلى الحقائق الغيبية العامة التى لا تتبدل مع الأيام . ولذا فإن على الشاعر أن يقنع بما يصيب من صيت محدود وأن يزدرى إعجاب معاصريه شاخصاً ببصره إلى الأجيال التالية ، فهى الحكم العدل . وهو فى قريضه يترجم عن الطبيعة ويشترع لبنى الإنسان ويرسم للخلف سبيلهم فى الرأى والحياة ، لأنه كائن يرتفع على حدود الزمان وقيود المكان .

« وما هذا إلا بعض واجب الشاعر ، فإن عليه أن يتعلم اللغات العديدة والعلوم المختلفة ، كما أن عليه أن يروض نفسه بالمرانة المتصلة على كل رقيق من التعبير وكل حلو من التنغيم ، حتى يكون أسلوبه كفواً لأفكاره » .

الفصل الحادى عشر

عملاق يستأنف قصته . كلمة فى الحج

وحين بلغ عملاق هذه المرحلة من حديثه تملكته الحماسة وذهب يعظِّم من شأن صناعته حتى صاح به الأمير يقول : « كفاك ما قلت عن الشعراء . لقد أثبت لى أن عمل الشاعر ليس فى متناول البشر ، فامض فى قصتك » .

قال عملاق : « نعم ، إن عمل الشاعر أشق ما يكون » .

أجاب الأمير : « إنه لكذلك ، ولهذا فلنؤجل الحديث عنه إلى وقت آخر . قل لى أين ذهبت بعد أن خرجت من بلاد العجم ؟ »

قال الشاعر : « بعد أن خرجت من بلاد العجم طفت بمدائن سوريا وأقمت بفلسطين ثلاثة أعوام حيث تعرفت على عدد عظيم من أهل شمال أوربا وغربها الذين يستأثر شعوبهم بأسباب العلم وأسباب القوة فى هذه الأيام ، فجيوشهم الغازية لا سبيل إلى ردها وأساطيلهم تذل أقصى بقاع المعمورة . وحين قارنت بين أولئك الناس وبين أبناء وطنى وما حوله من أقطار خيل إلىّ أن أولئك الأوربيين قد صنعوا من طينة أخرى . فبلادهم قد حوت كل شىء تتمناه النفس ، وبها ألف فن لم يسمع به إنسان ، وهم دائبون فى جدهم لتوفير وسائل الراحة والمتعة ، وكل ما حرمهم مناخهم منه زودتهم به تجارتهم » .

قال الأمير : « ولكن من أين للأوربيين هذا البأس ؟ وإذا كان ميسراً لهم أن يزوروا آسيا وأفريقيا للاتجار أو للغزو فماذا يمنع الآسيويين والأفريقيين من غزو سواحلهم واستعمار موانيهم ؟ إن الريح التى تعود

بهم إلى بلادهم نحمل الآسيويين والأفريقيين كذلك » .

أجاب عملاق : « إنهم أقوى منا ياسيدى الأمير لأنهم أحكم منا ، والعلم يقهر الجهل لا جدال فى ذلك ، ودليل ذلك أن الإنسان يتحكم فى الحيوان . ولكنى لا أدرى كيف اتفق لهم أن يكونوا أوسع منا علما ، ولا تفسير لذلك عندى إلا أن هذه مشيئة الكائن الأسمى » .

وتنهد الأمير قائلا : « متى يتاح لى أن أزور فلسطين وأتصل بمجمع الأمم هذا . وإلى أن يتحقق هذا الحلم السعيد دعنى أعلل النفس بما ترويه أنت علىّ من أخبار . وأنا أعلم الدافع الذى يأتى بأولئك الناس من أقاصى الأرض ليجتمعوا فى تلك البقعة ، ولا شك عندى أنها مركز الحكمة وملتقى الأتقياء ، وخليق بعقلاء الأرض أن يحجوا إليها بلا انقطاع » .

قال عملاق : « إن من البلاد ما لا يبعث إلى فلسطين إلا نفراً قليلا . فالكثرة المطلقة من المثقفين فى أوربا قد اتفقت على الزراية بالحج واعتباره خرافة من الخرافات » .

قال الأمير : « أنت تعلم كيف حال سجنى دون وقوفى على الآراء المختلفة ، والوقت لا يتسع لسماع حجج الفريقين كلها ، ولا ريب أنك قد وازنت بينها فإلام انتهيت ؟ » .

أجاب عملاق : « قد يكون الحج خرافة وقد يكون عملا حكيما ؛ شأنه فى ذلك شأن كثير من الشعائر الدينية فكل شىء يتوقف على الأساس الذى انبنى عليه فطول الترحال طلباً للحقيقة ليس من أوامر الكائن الأسمى لأن الحقيقة توجد أينما تلتمس بنية خالصة وتغير المكان لا يضيف إلى تقوى الإنسان شيئاً لأنه يفضى حتما إلى تشتيت الذهن . ولكن الناس يقصدون إلى الأماكن التى حدثت فيها الحوادث المشهودة لزيارتها ، ثم يعودون منها وقد تمثلوا تلك الحوادث تمثلا قويًّا . وهكذا

قد يدفعنا مثل هذا الفضول إلى زيارة البلاد التى نشأت فيها ديانتنا . وإنى لأعتقد أنه مامن إنسان زار تلك المواقع الرهيبة إلا وتأكد فى نفسه اليقين وقيد نفسه بالعهود المقدسة . أما قولهم بأن الكائن الأسمى يستمع إلى صلوات الناس فى مكان ما دون سواه من الأمكنة فهو خرافة من خرافات المتبطلين . ولكن اختبارنا المتكرر قد دلنا على أن من الأمكنة ما قد يؤثر فى تفكيرنا تأثيراً غير مألوف . ومن يعتقد أن رذائله سوف تسهل محاربتها فى فلسطين فقد أخطأ ، ومع ذلك فزيارته للأراضى المقدسة قد لاتكون حماقة من الحماقات. ومن يحسب أنه سينال الغفران عن خطاياه فى الأراضى المقدسة بأيسر مما يناله فى غيرها من البلاد فقد دنس حرم الفكر وامتهن جوهر الدين » .

قال الأمير : « هذه الفوارق من عمل الأوربيين وسوف أتدبرها فى فرصة أخرى أما الآن فحدثنى عن أثر المعرفة كما لمسته . أوجدت أن الأوربيين أكثر منا سعادة ؟ »

أجاب الشاعر : « إن فى العالم من الشقاء ما يلهى كل إنسان عن البحث فى الموازنة بين بأسائه وبأساء الآخرين . ولا جدال فى أن المعرفة باب من أبواب السعادة كما يستدل من رغبة كل ذهن فى أن يوسع معارفه . والجهل جدب وفى الجدب لا ينبت شىء . الجهل فراغ تجلس فيه الروح بلا حراك خاملة لا تجد ما يجذبها . ونحن نسعد بالمعرفة ونبتئس للنسيان دون أن ندرى لذلك سبباً . ولهذا أستخلص أن سعادتنا تطرد باطراد علمنا إذا لم يجد ما يفسد هذا الوضع الطبيعى .

« ونحن حين نتحدث عن أسباب الراحة فى الحياة نجد أن الأوربيين قد سبقونا فى هذا المضمار بمراحل طويلة . فهم يضمدون الجراح التى تضنينا ويشفون الأمراض التى تفتك بنا وتعذبنا رداءة الجو أما هم فيتغلبون عليها . وهم يستخدمون الآلات فى إنجاز أعمالهم الشاقة أما نحن فنستخدم الأيدى . ووسائل الاتصال بين الجهات البعيدة متوافرة عندهم

وهى تقرب بين الناس . وسياستهم تنحو إلى إزالة المتاعب العامة جميعاً ، فهم يشقون الطرق فى الجبال ويقيمون الجسور فوق الأنهار بل إن بيوتهم الخاصة تتوافر فيها الراحة أكثر مما تتوافر فى بيوتنا ، وممتلكاتهم فى حمى من عدوان المعتدين أكثر من ممتلكاتنا » .

فقال الأمير : « لا شك أنهم سعداء بأسباب الراحة هذه ، وإنى لأجد أن أعظم هذه الأسباب نفعاً هى أسباب الاتصال التى تجمع الأصدقاء المفرقين وتيسر تبادل الأفكار » .

قال عملاق : « إن الأوربيين أقل منا بؤساً ، ولكنهم برغم ذلك لا ينعمون بالسعادة فأينما ذهبت وجدت أن الحياة الإنسانية عبء فادح كثير الرزايا قليل النعم » .

الفصل الثانى عشر

عملاق يستأنف قصته

قال الأمير : « أنا لا أسلم حتى الآن بأن السعادة نادرة كل هذه الندرة بين البشر ، وأعتقد اعتقاداً ثابتاً أنى لوكنت أتحكم فى تصريف حياتى لملأت كل يوم من أيامى بأسباب السعادة ، ولتجنبت الإضرار بالغير ولتحرجت من الإساءة إلى الآخرين ، ولأغثت كل ملهوف فأنعم منهم بالشكران . نعم لوكنت أتحكم فى تصريف حياتى ، لاصطفيت خلانى من عقلاء الناس ولاخترت زوجتى من فضليات النساء فأتقى بهذا أو ذاك الغدر وسوء المعاملة ، ولكان أبنائى بفضل رعايتى ذوى علم وصلاح فيجزوننى فى شيخوختى عما كبدتنيه طفولتهم من عناء . ومن استطاع أن يدعو آلاف الناس الذين غمرهم إحسانه أو عضدهم بقوته فيخفوا إليه منجدين فلا خوف عليه من عدوان المعتدين . وما أخلق الحياة بأن تنساب هادئة بين رعاية الضعفاء وإجلال الناس ، وهذا ما نستطيع أن نصل إليه دون حاجة إلى كماليات الأوربيين ، فظاهر تلك الكماليات يدل على أنها زائفة لا نافعة . فلننس الأوربيين الآن ولنعد إلى أسفارك أنت ياعملاق » .

قال عملاق : « خرجت من فلسطين واجتزت الكثير من أقطار آسيا . ففى المناطق التى تعرف الحضارة كنت التاجر البائع الشارى وفى جبال المتبربرين كنت الحاج الزائر . وأخيراً هزنى الشوق إلى بلادى لأستريح فى أرض طفولتى بعد طول تجوالى ولأمتع إخوان الصبا برواية مغامراتى عليهم . وكثيراً ما انصرف خيالى إلى رفاقى فى فجر الحياة

فتوهمتهم جالسين من حولى فى مسائها عاجبين لما أقص عليهم من أخبار آخذين بما أزجى إليهم من نصائح .

« ولما اختمرت فى رأسى هذه الفكرة بدأت أضيق بفراق الحبشة وأعد كل لحظة تمضى بعيداً عنها مضيعة لحياتى . وأسرعت إلى مصر ، وفى مصر وجدت ما يستبقينى عشرة أشهر برغم لهفتى إلى وطنى ، فدرست آثار فخامتها الزائلة وتعرفت على أطلال علمها الغابر . وفى القاهرة رأيت خليطاً من جميع شعوب الأرض ، فمن الناس من أمها طلباً للعرفان ومنهم من أمها طلباً للمال ومنها من أمها لينزوى عن قومه وسط جموعها الزاخرة فيحيا الحياة التى يرضاها ، وهؤلاء كثيرون ، ففى حاضرة تضيق بسكانها كالقاهرة يستطيع المرء أن يجمع بين مزايا الحياة الاجتماعية ومزايا العزلة والانسحاب .

« ثم انتقلت من القاهرة إلى السويس ، وركبت البحر الأحمر بحذاء الساحل كله حتى بلغت الثغر الذى أبحرت منه منذ عشرين عاماً قبلها ، وفى الثغر انضممت إلى قافلة دخلت بى أرض وطنى .

« وكنت أنتظر من أهلى وذوى أن يستقبلونى بالترحاب ومن أصحابى أن يكرموا وفادتى ، وبقى لى بعض الأمل فى أن أبى قد ينسى كلفة العظيم بالمال ويعتز بولده الذى استطاع أن يشرف أمته ويسعدها . ولكن سرعان ما أدركت أنى كنت واهماً فيما رجوته ، فقد وجدت أن أبى قد مات بعد رحيلى بخمسة أعوام وأن إخوتى قد اقتسموا ماله وانتقلوا إلى مقاطعة أخرى ، وأن الكثرة المطلقة من خلانى قد صرعتهم يد الردى ، أما من بقى منهم ففريق كاد أن ينسانى وفريق اشمأز من مسلكى حاسباً أنى قد تطبعت بطباع أجنبية فاسدة .

« ولم أبتئس لكل ذلك ، فمن تعود تقلبات الأزمان والأوطان لا يبتئس . وتناسيت بعد قليل ما صادفت من خيبة أمل ، وتقدمت إلى أشراف المملكة فأفسحوا لى مكاناً فى موائدهم واستمعوا لقصتى ثم

صرفوني إلى غير رجعة وفتحت مدرسة ولكن التعلم حرم علي. ورأيت آخر الأمر أن أعتكف في داري وألتمس الحياة الهادئة ، وتقدمت لخطبة فتاة كانت ترتاح إلى حديثي ولكنها رفضت الزواج مني لأن أبي كان من طبقة التجار .

« وأعياني مالقيت من إعراض متكرر فعزمت آخر الأمر أن أنزوي من العالم وأن أستغني جملة عن آراء الغير ونزواتهم . وانتظرت اليوم الذي يفتح فيه الوادي السعيد أبوابه لأودع دنيا المخاوف والآمال . فلما حل اليوم تقدمت بما عندي من فن فحاز الرضا وأسلمت نفسي مغتبطاً للعزلة الدائمة » .

قال الرأس إيلاس : « وهل وجدت أخيراً السعادة التي تنشد ؟ قل ولا تتحفظ في الكلام . أراض أنت بحالك الآن ، أم تراك تحن إلى البحث والتجوال من جديد ؟ إن أهل هذا الوادي راضون بنصيبهم جميعاً ، وهم يستقدمون غيرهم كل عام في زيارة الإمبراطور ليشاركوهم ما هم فيه من سعادة » .

أجاب عملاق : « إليك بالحق الصراح أيها الأمير العظيم . مامن أحد بين أتباعك لا يلعن اليوم الذي دخل فيه هذا المعتكف ، وأنا أقلهم تعاسة ، لأن رأسي يزخر بالصور والأفكار أستعيدها وأقلبها كيفما شئت ، وحين أحس بالوحشة أجدد في نفسي ما تعلمته في زماني وكدت أن أنساه وأستعرض حوادث حياتي الماضية . ولكن يؤسفني آخر الأمر أن أذكر أن كل ماتعلمته من عظات قد غدا لا نفع فيه وأن كل ما عزفته من لذات لن يعود . أما غيري من أهل هذا الوادي فيعيشون في الحاضر لا سواه تنخر فيهم الشهوات الخبيثة أو يضرب في نفوسهم الغبية فراغ أبدي » .

قال الأمير : « وماذا تكون هذه الشهوات عند قوم لا تنافس بينهم على شيء ؟ إننا نحيا هنا حياة يبطل فيها العجز والحقد . . والملذات

فيها ملك للجميع مشاع فلا مجال إذن للتحاسد » .

قال عملاق : « قد يكون متاع المادة ملكاً بيننا مشاعاً، أما التقدير وأما الحب فلا سبيل إلى امتلاكهما على الشيوع . فلا بد أن بيننا من يكتسب رضا الآخرين أكثر من سواه ، ومن يحس بأنه محتقر مزدرى يحسد الغير على الدوام، ومما يزيد من حسده ونقمته أن يُلزم بالحياة بين محتقريه ومزدريه طوال عمره. وإنك لتراهم يعملون على اجتذاب الغير إلى واديهم برغم إحساسهم ببشاعته ومثل هذا الإغراء لا يصدر إلا من حاقد يعلم أن بؤسه أبدى. إنهم يضيقون بأنفسهم وأن كلا منهم ليضيق بأخيه ولذا تراهم يستريحون كلما أقبل عليهم فوج جديد . فهم ينفسون على الأحرار الحرية التى فقدوها بطيشهم وحماقتهم ، وأعذب مناهم أن يروا أهل الأرض طراً سجناء مثلهم يتعذبون .

« أما أنا فبرىء من هذا الذنب ، فما من أحد يستطيع أن يزعم أنى أغريته على ولوج هذا المعتقل . وإنى لأرثى لحال ذلك الحشد البائس الذى يسعى كل عام إلى الأسر مختاراً . فليت من حقى أن أحذرهم من هذا المصير المشئوم » .

قال الأمير : « عملاق ياصديقى، سوف أكشف لك عن طويتى بإخلاص تام . لقد فكرت من قبل طويلا فى الفرار من الوادى السعيد، ولقد بحثت فى جباله عن منفذ واحد ولكنى وجدت أن أسواره لا تاين، فأرشدنى إلى وسيلة أفتح بها أبواب سجنى ولتكن رفيقى فى فرارى ورائدى فى جولاتى وشريكى فى قسمتى ونصيبى والموجه الأوحد لى فى تقرير المصير » .

فأجاب الشاعر : « إن هربك ياسيدى أمر شاق ، ولقد تندم على فضولك بعد حين قليل . أنت تتوهم الدنيا ناعمة هادئة كمياه الغدير فى هذا الوادى ولكنك ستجدها بحراً عاصفاً متلاطم الأمواج دواماته

تهلك السائحين . ولسوف يغمرك آناً طوفان العنف ولسوف ترتطم آناً بصخور الغدر ، ولسوف تذهب نفسك حسرات على هذا المرفأ الهادئ حين ترى ظلم الظالمين وخداع المخادعين وقلق الحيارى وشقاق المتنافسين ، ولسوف تزهد فى الأمل لتأمن من الخوف . »

قال الأمير : « لاتحاول أن تثبط من عزمى ، فلهفتى لرؤية ماقد رأيته عظيمة ، ومادمت أنت تضيق بالوادى فلا جدال أن حياتك الماضية كانت أسعد من حياتك الحاضرة . ومهما تكن نتيجة هذه التجربة فقد صح عزمى على أن أشهد بنفسى أحوال الناس ثم أتدبر أمرى وأقرر مصيرى » .

قال عملاق : « سوف تجد ياسيدى الأمير أن نصحى لك أقل الحواجز حيلولة دون تحقيق ما تتمنى . ولكن إذا كنت صادقاً فى عزمك فلا تيأس ، فما يعز على القدرة والمثابرة إلا أمور قليلة » .

الفصل الثالث عشر

الرأس إيلاس يهتدى إلى وسيلة للفرار

ثم صرف الأمير صفيه ليستريح ، ولكن قصص العجائب التى سمعها بلبلت خواطره ، وأدار برأسه تلك القصص وأعد ما لا يحصى من الأسئلة ليطرحها عليه فى الصباح.

وزايله قلقه إلى حد عظيم ، فقد ظفر بصديق يستطيع أن يشركه فى خواطره ، صديق له من التجارب ما يستضىء به الأمير لتحقيق رغبته فى الفرار . وخفف ذلك كثيراً من لوعته الصامتة . وبدا له أن الوادى السعيد ذاته يمكن احتماله بمعرفة هذا الصديق وكانت أقصى أمانيه أن يتمكن من جوب العالم فى معيته .

وبعد أيام انطلق الماء من الغار المسدود وجفت الأرض . وخرج الأمير ومعه عملاق يتريضان ويتبادلان الحديث بعيداً عن عيون الآخرين وكان الأمير دائم التفكير فى سجنه ، فما إن مرا بالباب الحديدى العظيم حتى خاطبه قائلا مهموماً :

« لم خلقت قوياً . ولم خلق الإنسان ضعيفاً ؟ »

فأجاب رفيقه : « إن الإنسان لم يخلق ضعيفاً ، فالمعرفة تقهر القوة ، وإن العالم بطبيعة الآلات ليسخر من القوة ، وإنى لأستطيع أن أفتح هذا الباب ولكنى أخشى عيون الرقباء ، فلا بد من التفكير فى وسيلة أخرى » .

وفيما كانا يمشيان بجوار الجبل لاحظا أن الأرانب التى أخرجها

المطر من وجارها قد احتمت بالشجيرات وحفرت لنفسها من خلفها حفراً ترتفع فى خط مائل .

قال عملاق : « كان القدماء يرون أن عقل الإنسان قد استرشد فى كثير من مبتكراته بسلوك الحيوان ، فلا غضاضة فى أن نتعلم عن الأرانب شيئاً . وقد ننجح فى الهرب إذا اخترقنا الجبل فى نفس الاتجاه . ولنبدأ حيث تشرف القمة على المنتصف ولنحفر طريقنا فى خط مائل إلى أعلى حتى نخرج من وراء القمة » .

وحين سمع الأمير هذا الرأى أضاءت عيناه فرحاً ، فقد كان تحقيقه ميسوراً ونجاحه أكيداً . وبادرا إلى العمل فخفا مبكرين فى الصباح التالى ليختارا المكان الملائم للتجويف . وشقا طريقهما بين الصخور والأعشاب بمشقة مضنية ولكنهما رجعا دون أن يوفقا إلى بقعة صالحة . كذلك كانت الحال فى اليوم الثانى وفى اليوم الثالث ، ولكنهما عثرا فى اليوم الرابع على كهف صغير مختبئ وراء دغل صغير فقرر قرارهما على اختياره .

وجاء عملاق بالأدوات الصالحة لكسر الأحجار ونقل التراب ، وفى اليوم الذى يليه بدأ العمل بهمة ونشاط لم يبدياها من قبل . ولكن سرعان ما أرهقهما المجهود فجلسا على الأعشاب يلهثان . ولاح اليأس فى وجه الأمير لحظة فقال له رفيقه :

« سوف نعتاد العمل بالمثابرة يا سيدى ، ولو قد رأيت الشوط الذى قطعناه بدت لك النهاية قريبة لا ريب فيها . إن الأعمال العظمى ليست ثمرة القوة بل ثمرة للاجتهاد . إن ذلك القصر قد أقيم بأحجار متفرقة ، ومع ذلك فهو شاهق منيف . وإن من يدأب على السير ثلاث ساعات كل يوم يقطع فى سبعة أعوام بعداً يعادل محيط الكرة الأرضية .

وعاد إلى العمل يوماً بعد يوم ، وسرعان ماوجدا فى الصخرة شقاً أمكنهما أن ينفذا فيه مسافة طويلة بغير عناء كبير . واستبشر الرأس

إيلاس خيراً بهذا التوفيق . فقال عملاق : « لا تستسلم للآمال أو للمخاوف بل الزم حدود العقل في انتظارك للأمور . ومن يتيمن بما يصادفه من دلائل اليسر لا بد أن يتطير لما يصادفه من عسر بعد ذلك ، وتحكمت في حياته الخرافات . وكل ما يمهد لنا السبيل ليس مجرد فأل بل هو سبب من أسباب النجاح . وهذا الذى وجدنا مصادفة سارة تشحذ العزم القوى . وكثير من أمور الحياة يصعب تصميمه ولكن تنفيذه سهل يسير : .

الفصل الرابع عشر

الرأس إيلاس وعملاق يفاجآن بزيارة غير منتظرة

وبلغا فى سعيهما منتصف الطريق فتعزيا عن كدحهما بدنو تحررهما . وفيما كان الأمير يخرج من النفق لاستنشاق الهواء النقى إذا به يجد أخته نكاية تنتظره عند فم النفق . فاستفاق لما رأى ثم تبلبلت خواطره وخشى أن يصارحها بحقيقة الأمر ولكنه أحس بأن الكتمان لا يجدى شيئاً وبعد لحظات انتهى رأيه إلى أن يثق بوفائها فأفضى إليها بكل شىء دون تحفظ ، راجياً منها أن تصون السر .

قالت الأميرة : « لا تحسب أنى جئت لأتجسس عليك . فلقد لاحظت منذ أيام عديدة أنك تسير مع عملاق إلى هذه البقعة بالذات كل يوم ، وما ظننت إلا أنكما تلتمسان فيئاً رطيباً أو دغلا عاطراً لا تجدانه فى مكان آخر ، وما سعيت إليكما إلا للتحدث إليكما . ولكن ما دمت قد وقفت على سركما مصادفة فأذنا لى أن أنتفع بما وقفت عليه وأنا مثلكما قد سئمت الحياة فى هذا السجن المحصور ، وليست رغبتى فى اختبار شئون الدنيا بأفراحها وأتراحها بأقل من رغبتكما . اسمحا لى أن أهرب معكما من هذا الهدوء الممجوج ، فلسوف يغدو هذا الهدوء أثقل على فؤادى مما هو الآن بعد أن تمضيا عنى . إن فى إمكانكما أن تأبيا على اصطحابكما ، ولكن ليس فى وسعكما أن تمنعانى من اقتفاء أثركما » .

وكان الأمير يحب نكاية أكثر من حبه لأخواته الأخريات ويميل إلى إجابتها إلى ما تطلب ، ولقد أسف لأنه لم يدعها مختاراً إلى الاشتراك

فى مجازفته . وقر الرأى على أن تخرج نكاية معهما من الوادى السعيد ، و إلى أن يتيسر لثلاثتهم ذلك اتفقوا على أن تقف الأميرة ديدباناً تراقب القاصدين إلى الجبل .

وأخيراً فرغا من عملهما وشاهدا الضوء من وراء الرابية ، وخرجا إلى قمة الجبل فأبصرا النيل يجرى من تحتهما ضيقاً متعرجاً .

وتلفت الأمير حوله فرحان جذلا ، واشتغل خياله بما سوف يجنيه فى أسفاره من متع ،وطارت خواطره فتجاوزت ملك أبيه . أما عملاق فقد كان برغم سروره بالنجاة أقل من الأمير انتظاراً لمتع الدنيا ، فقد عرفها من قبل وملّها نفسه .

وكانت سعادة الرأس إيلاس بالآفاق الرحيبة سعادة عظيمة حقًّا، حتى لقد تعب عملاق فى إقناعه بالعودة إلى الوادى . وأعلن الأمير للأميرة أن الطريق أمامهم مفتوح ، فلم يبق إلا أن يعدوا العدة للرحيل .



الفصل الخامس عشر

الأمير والأميرة يخرجان من الوادى ويريان عجائب الدنيا

وحمل الأمير والأميرة من الجواهر ما يأتيهما بالمال الكثير كلما هبطا مكاناً فيه اتجار ، وأرشدهما عملاق إلى تخبئة تلك الجواهر بين طيات ثيابهما . وليلة اكتمل البدر الثانى خرج ثلاثتهم من الوادى ، وكان يتبع الأميرة صفية من صفياتها لم تكن تدرى أين المتجه .

وشقوا طريقهم فى الفجوة ثم أنشأوا يهبطون الجانب الآخر من الجبل . وأجالت الأميرة ووصيفتها البصر فى جميع الأرجاء فشاهدتا رحاباً ليس لها منتهى ، وخالت كل منهما أنها قد ضلت فى تيه عقيم . وتوقفتا عن المسير ترتجفان . وقالت الأميرة :

« إنى أكاد أتوجس شرًّا من رحلة لا أعلم لها نهاية وأشفق من التوغل فى هذا السهل العظيم ، فلقد يخرج علينا من جميع الجهات رجال لم أرهم من قبل » .

وكان الأمير يشاركها هذا الشعور ولكنه استحيى من إظهاره .

وابتسم عملاق حين رأى جزعهم وذهب يشجعهم على المضى فى السير ، ولكن الأميرة مضت فى سيرها على غير وعى منها حتى توغلت فى السهل توغلا استحالت بعده العودة .

وفى الصباح رأوا نفراً من الرعاة فى الحقل ، وقدم لهم الرعاة شيئاً من اللبن والفاكهة . وأدهش الأميرة أنها لم تجد فى انتظارها قصراً يستريحون فيه وخواناً فيه طيبات الحياة يمد أمامهم ، ولكنها أقبلت من فرط جوعها

وإعيائها على اللبن فشربته وعلى الفاكهة فأكلتها ، وتوهمت أن ما شربت وما أكلت لا مثيل له فى الوادى السعيد .

ولما كانوا جميعاً من المنعمين المرفهين فقد تقدموا فى رحلتهم على مهل مطمئنين إلى أن أهل الوادى قد يفتقدونهم ولكنهم لن يستطيعوا أن يتعقبوهم . وبعد أيام بلغوا بقعة آهلة بالسكان ، وسر عملاق مارآه من إعجاب رفاقه بما رأوه من عادات وأعمال واختلاف بين مراتب الناس .

وكان ملبسهم بسيطاً لا يوحى بأنهم يخفون شيئاً . ولكن الأمير الذى تعود من الناس الطاعة كان ينتظر أن يطيعه كل من يلقاه . وكذلك ارتاعت الأميرة إذ رأت أن من يمثلون أمامها لايقبلون الأرض بين يديها . فكان على عملاق أن يراقب سلوكهما فى حرص عظيم ، خشية أن يهتدى الناس إلى مكانتهما الحقيقية بسبب أعمالهما الشاذة ، وعوقهما فى القرية الأولى جملة أسابيع حتى يألفا معاشرة الأفراد العاديين .

وتعلم الأمير والأميرة شيئاً فشيئاً أن ينسيا مقامهما الرفيع وألا ينتظرا من الناس أكثر مما يسمح به الأدب والجود وأمكن لعملاق أن يعدهما بنصائحه لاحتمال ما فى الموانئ من صخب ولجب وما فطر عليه التجار من خشونة ، وبعد أن نجح فى ذلك هبط بهما ساحل البحر .

وسر الأمير والأميرة بكل ما رأيا ، فقد كان كل شيء عندهما طريفا ولذا أقاما بالميناء بضعة شهور دون أن يبدو عليهما ما يدل على الرغبة فى الانتقال إلى مكان آخر . وارتاح عملاق لبقائهما فقد كان يجد أن من الخطر الخروج بهما إلى بلاد أجنبية وهما على هذه الحال من السذاجة وقلة التجاوب .

وأخيراً بدأ يخاف افتضاح أمرهما ، وحدد لهما موعداً للرحيل . ولم يشأ أيهما أن يبدى فى الأمر رأياً بل أسلما له قيادهما تماماً . وكان

من ذلك أن حجز لهما مكاناً على ظهر سفينة وجهتها السويس . ولما حان الموعد المضروب عارضت الأميرة فى ركوب السفينة أشد معارضة ولم ينجح عملاق فى إقناعها باتباع خطته إلا بعد جهد عظيم ، وكانت الرحلة سريعة ومنتجة . ولما بلغ الأربعة السويس انتقلوا إلى القاهرة براً .

الفصل السادس عشر

الجماعة تدخل القاهرة وتجد جميع أهلها سعداء

وحين اقتربت الجماعة من القاهرة أخذت بها وعجبت لها ، فقال عملاق مخاطباً الأمير : « هنا يلتقى السائحون والتجار من جميع أركان الأرض . هنا تجد أناساً من كل نوع وتجد كل صناعة تخطر لعقل إنسان . والتجار هنا مكرمون ، ولذا فسوف أتخذ هنا صفة التاجر أما أنتم فستحيون حياة السائحين الذين لا مأرب لهم إلا استطلاع معالم البلاد . وسوف يجد الناس بعد قليل أننا من أهل اليسار فيطير صيتنا ويتفتح أمامنا كل باب نطرقه ، وعندئذ يتاح لك أن تدرس أحوال البشر جميعاً ثم تتدبر فى روية أمر تقرير مصيرك » .

ودخلوا المدينة فذهلوا لما بها من ضوضاء واحتك بهم أهل المدينة. وعادت إلى الأمير وإلى الأميرة طبيعتهما الأولى فراعهما أن يسيرا بين الخلائق غير محتفل بهما وأن يتحدث إليهما أوضع الناس شأناً دون احتشاد . وضاقت الأميرة أول الأمر بأن تسوى بسفلة القوم فلزمت غرفتها بضعة أيام لا تبرحها ، وكانت وصيفتها المختارة بكوا تسهر على خدمتها كما كانت تفعل فى قصر الوادى السعيد .

وكان عملاق ملمًّا بأساليب التجارة فباع بعض الحلى فى اليوم التالى، واستأجر داراً زينها أجمل زينة فعده الناس من سراة التجار . واجتذبت إليه كثيراً من الأخدان واجتذب كرمه إليه كثيراً من التابعين . وعلى مائدته اجتمع أناس من جميع شعوب الأرض ، وقد أعجب هؤلاء بعلمه

الواسع وسعوا إلى التقرب منه . أما رفقاؤه فقد استحال عليهم الاشتراك فى الحديث فلم يفتضح جهلهم ولم يقف أحدعلى ما استولى عليهم من عجب . وهكذا تعرفوا على شئون الدنيا شيئاً فشيئاً كلما ازداد إلمامهم باللغة الجديدة .

وعلم عملاق الأمير منافع المال وطبيعته فى أحاديث عدة كان يلقيها عليه ، ولكن السيدتين أبتا طويلا أن تفهما تبادل التجار للقطع الذهبية الصغيرة والقطع الفضية الصغيرة ، كما استعصى عليهما أن تدركا كيف اتفق لهذه الأشياء التى لا نفع فيها أن تسوى بضرورات الحياة .

ويدرسوا اللغة عامين ، وكان عملاق فى تلك الأثناء يهيئ لهم السبيل إلى دراسة أحوال الناس من مختلف الطبقات . وتعرف على كل من شذ مسلكهم وكل من اختلفت حظوظهم عن حظوظ الناس ، وتردد على المستهترين والمقتصدين وعلى الكسالى والمجدين وعلى التجار وأهل العلم .

وبعد أن أتقن الأمير اللغة وتعلم الحذر الضرورى فى مخالطة الغرباء بدأ يصطحب عملاقاً إلى أماكن الترفيه ويندمج فى كل مجتمع لعله بذلك يهتدى إلى ما يناسبه فى الحياة .

وبدا له جميع الناس أول الأمر فى درجة واحدة من السعادة ، فلم يجد ضرورة لتفضيل بعضهم على بعضهم الآخر . وأينما حل كان يرى البشر بغمر النفوس وأينما ذهب كان يقابل بالعطف وأينما قصد كان يسمع أغانى الفرح وضحكات الخلى الذى لا يعرف الأحزان . فظن أن الدنيا تفيض بالخيرات وأن الناس يقضون للمحتاج حاجته ويوفون للقدير قدره ، وأن الكرم من شيم الأنام وأن أفئدة العالمين تذوب رقة وحناناً ، فقال :

« إذا كان هذا حال الدنيا فليس لبائس أن يبتئس » .

ولكن عملاقاً ترك الأمير لأوهامه ولم يشأ أن يملأ نفسه الساذجة

ظلاماً ، وكان يوم ساد فيه الصمت بينهما فقال الأمير :

« لست أدرى ما يجعلني أقل سعادة من سائر الناس . إنى لأرى البشر يفيض على وجوههم دائماً أبداً ، وأرانى مضطرب البال قلق النفس. إن أسباب اللهو التى أنتهبها انتهاباً لا ترضينى ، وأنا أختلط بهذا الجمع اللاهى لا حباً فى لهوه بل هرباً من نفسى ، وما مرحى وصخبى إلا لإخفاء أحزانى » .

قال عملاق : « إن لكل إنسان أن يقف على ما يدور بأذهان الآخرين إذا هو استعرض ما يدور بذهنه ، وحين تحس بأن مرحك مفتعل فمن حقك أن تشك فى مرح خلانك ، والتحاسد لا شك متبادل. وهكذا تمضى سنون وسنون قبل أن ندرك أن السعادة لا وجود لها ، ولكن كلا منا يحسبها من صفات الآخرين ، ليحيا بقوة الأمل فى أن ينالها لنفسه يوماً من الأيام . ولقد رأيت فى سهرة الأمس جواً من النشوة عظيماً وانطلاقاً فى خيال السامرين لانجده إلا فى طبيعة الملائكة الذين يسكنون السبع الطباق الصافيات بمنجى من الهموم والفجائع ، ولكن صدقنى أيها الأمير ، ما بين خلانك واحد لم يكن يرهب اللحظة التى يخلو فيها إلى نفسه فتسلمه الوحشة إلى عذاب التفكير » .

قال الأمير : « قد يصدق هذا عن الغير مادام يصدق عنى . ولكن مهما يكن شقاء البشر عميقاً فلا شك أن شقاءهم يتفاوت ، والحكمة تلزمنا بأن نختار من مسالك الدنيا أقلها شقاء حين نعتزم توجيه حياتنا » .

فأجاب عملاق : « إن أسباب الخير والشر تتباين ويصعب تقديرها إلى حد عظيم ، وهى كثيراً ما تختلط وكثيراً ما تتشعب وكثيراً ما تخضع للمصادفات التى لا سبيل إلى التكهن بها ، فمن أراد أن يبنى سعادته على ظروف ثابتة ومقدمات لا يرقى إليها الشك فعليه إذاً أن يقضى العمر كله باحثاً متدبراً » .

قال الرأس إيلاس : « ولكن لا جدال فى أن عقلاء الناس الذين نستمع إلى حديثهم فى رهبة وخشوع ما اختاروا سبلهم فى الحياة إلا لظنهم بأنها تهديهم إلى السعادة أكثر مما يهديهم سواها » .

قال الشاعر : « إن من يملكون الاختيار فى الحياة هم الأقلون . وكل امرئ قد وضعته فى موضعه القائم ظروف لا دخل له فى تفاعلها ولا سلطان له عليه ، وهذا ما يدفع كل امرئ إلى الاعتقاد بأن حظه أبأس من حظ الآخرين » .

قال الأمير : « مهما يكن من شىء فإنى أشكر مولدى الذى هيأ لى مالا يملكه غيرى ، أعنى القدرة على اختيار سبيلى فى الحياة . فالدنيا أمامى أستعرضها على مهل ، وأعتقد أنى واجد السعادة فى مكان ما » .

الفصل السابع عشر

الأمير يصادق فتيان اللهو والصبوات

واستيقظ الرأس إيلاس فى الصباح التالى ، واعتزم أن يبدأ تجاربه على الحياة . قال « إن الشباب عهد المرح ، فخليق بى أن أصطفى من الخلان من كانوا ينقطعون لانتهاب اللذات ويقضون كل أوان فى استنباط المسرات » .

وتردد على مجتمعات الشباب فأكرموا وفادته ، ولكنه انسحب منها بعد أيام، مشمئز النفس متعب الأعصاب ، فقد وجد أن أفراحهم خالية من الخيال ومرحهم مفتعل مصطنع ولذاتهم غليظة حسية لا مقام للعقل فيها وسلوكهم جنونى وضيع . وكانوا يهزءون من القانون ومن النظام ، ولكن غضب الولاة أخرسهم وحكمة العقلاء أخجلتهم .

وسرعان ما أدرك الأمير أنه لن يجد السعادة فى حياة يستحى منها . ورأى أن أهل الرشد لا يليق بهم أن يعيشوا بلا نهج ولا خطة ، وأن يتوقف شقاؤهم أو سعادتهم على محض المصادفة . وفى ذلك قال :

« إن السعادة ينبغى أن تكون ثابتة ودائمة لا يبطلها الخوف ولا تهددها الشكوك » .

ولكن صراحة خلانه وأدبهم وقعا فى نفسه موقعاً حسناً فلم يشأ أن ينشق عليهم دون أن يسدى إليهم النصح .

قال : « لقد تدبرت أسلوبنا وأهدافنا فى الحياة فوجدت أننا قد أخطأنا السبيل . فالسنوات الأولى من عمر الإنسان ينبغى أن تكون ذخيرة لمستقبله . ومن لا يفكر بتاتاً تمتنع عليه الحكمة ، واللهو المتصل لا بد

يفضي إلى الجهالة . والإفراط قد يلهب النفس ساعة ولكنه يقتضب العمر ويشقيه . فلنقتنع بأن الشباب قصير الأجل وأننا لن نجد عزاء إلا فى تقدير العقلاء ولن نجد راحة إلا فى فعل الخير حين نبلغ سن النضوج ، حين تنفض من حولنا عرائس الخيال وتفرغ أطياف السعادة عن رقصها حولنا . فلنكف إذاً قبل أن نعجز عن الكف ، ولنحى حياة الفانين الذين كتبت عليهم الشيخوخة ، فما يفزع المرء فى شيخوخته إلا أن يحصى أعوام عمره بالحماقات ويذكر صحته الغالية كيف أفنتها العربدة وسوء التقدير » .

وحين فرغ الأمير من مقاله شخصت إليه أبصار السامعين ، ثم انفجروا ضاحكين مستهزئين فانصرف لحال سبيله .

وحز فى نفسه استخفافهم به ولم يسر عنه إحساسه بصدق نظره وبنبالة مقصده . ولكنه استعاد هدوءه أخيراً ، ومضى فى بحثه عن السعادة .

الفصل الثامن عشر

الأمير يعثر برجل حكيم سعيد

وفيما كان الأمير يسعى فى الشارع ذات يوم أبصر بناء رحيبا أبوابه مفتوحة للجميع ، ودخل مع الداخلين فألفى نفسه وسط قاعة للمحاضرات أو مدرسة من مدارس الإلقاء ، وفيها رأى الأساتذة يقرءون على السامعين بحوثهم . وشخص بصره إلى حكيم كان يجلس فى أعلى مكان بين الحكماء . وكان ذلك الحكيم يخطب الناس فى حرارة عن ضبط النفس . وكان مظهره يوحى بالاحترام وإشاراته لطيفة الوقع وصوته واضحاً وأداؤه يؤثر فى السامعين . ودلل الحكيم ببيانه القوى وأمثاله المتعددة على أن الطبيعة الإنسانية تنحط حين تسيطر الملكات الدنيا على الملكات العليا وكذلك دلل على أن الخيال إذا اغتصب من العقل سلطانه انهارت دولة النفس واضطرب أمرها ، كما تنهار الدولة حين تتسلط عليها حكومة غير شرعية ، فالوهم يفتح حصون الفكر أمام العصاة الغزاة وينشر بين بنيه التمرد على الرشد ، وهو سيدها الشرعى .

وشبه الحكيم العقل بالشمس فضياء الشمس ثابت دائم واحد ، وشبه الخيال بالشهاب الساقط فهو قوى الوهج زائله ، سريع الحركة ولكنه مضطربها ، وهو يضلل الناظرين .

ومن ثم انتقل الحكيم إلى المبادئ التى تناقلها الخلف عن السلف لقهر العاطفة ، وبين السعادة التى ينعم بها أولئك الذين انتصروا على شهواتهم فهم يتحررون من الخوف ولا ينخدعون بكاذب الآمال

ولا الحسد يأكلهم ولا الغضب يتلفهم ولا الحنان يذيبهم ولا الحزن يؤسيهم ، بل يسعون فى الحياة هادئين أمام زعازعها كما تسعى الشمس فى مسلكها لا يستوقفها جو عاصف ولا جوهر مطير .

وضرب لهم مثل الأبطال الذين لا يهتزون أمام المحن ، ولا يضطربون أمام اللذات ، بل ينظرون مستخفين إلى تلك الأعراض الزائلة التى يسميها السوقة بالخير والشر . وحض الحكيم سامعيه على نبذ أحكامهم التى لا يدعمها منطق ولا حجة ، وأن يتسلحوا بدرع الصبر القوى ليحميهم درع الصبر من سهام الحاقدين ومن ضربات القدر . وختم خطابه بقوله إن من بلغ هذه المرتبة فقد بلغ السعادة ، وأن هذه السعادة فى متناول كل إنسان .

واستمع الرأس إيلاس إلى مقاله باحتشاد يليق بذلك العالم الجليل ، وانتظره عند الباب ورجاه فى خشوع أن يأذن له بلقائه ليتزود من حكمته النادرة . وتردد الحكيم وقتاً ما فوضع الرأس إيلاس فى يده كيساً مملوءاً بالدنانير الذهبية فاستقبل الحكيم هذه المنحة بمزيج من الفرح والعجب .

ولما عاد الأمير إلى عملاق قال له : « لقد وجدت رجلا يعلم الناس كل ما يلزمهم أن يتعلموه فى الحياة ، رجلا يجلس على عرش من الحكمة وطيداً هازئاً بما يجرى تحت قدميه من تقلبات فى ميدان الحياة ، رجلا يتكلم فكلامه مثال الدقة فى التعبير والإخلاص فى التفكير . ولسوف أتخذ من هذا الرجل رائدى ، فأتعلم فلسفته وأتشبه به فى كل ما أعمل » .

فأجاب عملاق : « تريث ولا تثق بمعلمى الفضائل هذه الثقة العمياء ، فحديثهم من حديث الملائكة وفعالهم من فعال البشر » .

وكان الرأس إيلاس لا يتصور أن رجلا يستطيع أن يستخدم كل هذه الحجج الدامغة دون أن تتأثر نفسه بسلامة منطقه ، ولذا فقد زاره بعد أيام ولكن لم يؤذن له بالدخول .

وكان قد عرف ما للمال من قوة سحرية فأبرز قطعة ذهبية فتحت له الطريق إلى داخلية المنزل ، وإذا به يرى الفيلسوف قابعاً فى غرفة لا هى مضاءة ولا هى مظلمة ، وقد اغرورقت عيناه بالدموع وشحب وجهه ، وسمعه يقول : « لقد جئت ياسيدى فى وقت لا ينفع فيه عطف ولا إخاء ، فأوجاعى لا شفاء لها ، وما ضاع لا سبيل إلى تعويضه ، إن ابنتى الوحيدة التى كانت تحنو على فى شيخوختى ، قد ماتت بالحمى ليلة أمس . لقد تحطمت آمالى وانهارت أركان فلسفتى وانقضى أملى فى الحياة ، فأنا الآن وحيد أعيش بمعزل عن الناس » ؟

قال الأمير : « إن الموت ياسيدى ظاهرة لا تدهش العقلاء ، فالموت كما نعلم قريب منا فى كل لحظة ، ولهذا ينبغى علينا أن ننتظر وقوعه » .

فأجاب الفيلسوف : « أيها الفتى ، إن حديثك حديث من لم يجرب آلام الفراق » .

قال الرأس إيلاس : « وهل نسيت تعاليمك التى كنت تدافع عنها بحرارة عظمى ؟ أما قلت إن الحكمة درع تقى القلب سهام الخطوب ؟ فلنتذكر أن التغير من طبيعة المادة ولنتذكر أن الحق وحده هو الثابت وأن العقل وحده هو الوطيد » .

قال الحكيم المفجوع : « وأى عزاء أجده فى الحق والعقل ياترى ؟ إن الحق والعقل يقولان بأن ابنتى لن تعود إلى » .

وأبت على الأمير رقة فؤاده أن يؤذى الحكيم البائس بتأنيبه فى بأسائه فانصرف عنه مقتنعاً بأن البلاغة جوفاء كالطبول وبأن العبارات المنمقة لا تعبر عن الحقيقة تعبيراً أميناً .

الفصل التاسع عشر

لمحة خاطفة عن حياة الرعاة

وكان حرصه على تقصى مواقع السعادة لا يزال يلازمه . وسمع بزاهد يقيم عند أول شلال من شلالات النيل ، زاهد ذاع صيته فى جميع أرجاء البلاد وتحدث الناس بصلاحه فاعتزم أن يزوره فى صومعته ليرى إذا كانت حياة الوحدة تأتيه بالسعادة التى ضنت بها عليه حياة الحضر ، وليلتمس عند ذلك الشيخ الوقور بتقواه علماً يدرأ به الشرور أو يحتملها كلما حلت به .

وقبل عملاق والأميرة أن يرافقاه فى رحلته ، ثم بدءوا الرحلة بعد الإعداد اللازم . ومروا بالحقول فوجدوا فيها الرعاة يهشون على أغنامهم ورأوا الحملان تلعب فى المرعى . ؟

قال الشاعر : « هذه حياة الرعاة التى طالما تغنى القدماء بهدوئها وبراعتها فلنطلب الحمى من قيظ النهار فى خيمة من خيام الرعاة ، ولنبحث عن السعادة بين المراعى الساذجة فلعلنا نجدها هناك » .

وارتاح الرأس إيلاس إلى هذا الرأى ، واستدرج الرجلان الرعاة إلى وصف حياتهم على حقيقتها ، بعد أن أغرياهم ببذر المال . ولكن الرعاة كانوا غلاظاً أفظاظاً جهالا لا يحسنون التمييز بين مزايا حياتهم ومساوئها ، ولا يجيدون الوصف ولا التعبير ، فلم يأخذا عنهم شيئاً يعول عليه ، ولكنهما استخلصا أن قلوبهم كانت تفيض بمر الشكوى وأدركا أنهم يعتقدون بأن الرعاة جماعة قضى عليها بأن تكدح ليصيب الأثرياء الترف الذى يشتهون ، فهم ناقمون على كل من ارتفعوا فى الحياة عليهم مكانة وجاهاً .

وقالت الأميرة محتدة بأنها لا ترضى بالبقاء بين أولئك الهمج الحاقدين ، وبأنها تؤثر ألا ترى وجهاً آخر من وجوه تلك السعادة الريفية . ولكنها كانت لا تزال تؤمن بأن بعض ما سمعته عن لذة الحياة الساذجة ليس من عمل الأساطير وبقى لها شىء من إيمانها بأن السعادة الوادعة بين الحقول والغابات لا تضارعها سعادة . واعربت عن أملها فى أن تزور الريف فى وقت ما بين نخبة من أهل الذوق والفضل ، فتقطف من الأزهار ما زرعته يداها وتلاعب الحملان التى تلدها شاتها ، وتستمع خلية البال بين الجداول والنسمات إلى وصيفة من وصيفاتها تقرأ كتابا فى فىء الأشجار .

الفصل العشرون

مساوئ الثراء

واستأنف الثلاثة رحلتهم فى اليوم التالى حتى ألزمهم الحر أن يبحثوا عن مأوى، وعلى بعد قليل رأوا غابة صغيرة ، وما إن ولجوا الغابة حتى أدركوا أنهم يقتربون من بعض المساكن . وكانت الشجيرات قد اجتثت بعناية حتى تفسح الطريق أمام المارة ، أما الأغصان المتقابلة فقد كانت تتشابك بترتيب من يد الإنسان لا بفعل الطبيعة وفى كل فراغ أقيمت أرائك من حشيش مبسوط نمت به الأزهار ، وجرى نهير متعرجاً بحذاء طريق متعرج وكانت فى ضفتيه فتحات تصب فى أحواض صغيرة ، أما مجراه فقد كانت تعترضه أكوام من الأحجار صغيرة وضعت فيه ليزداد بها الخرير .

واخترقوا الغابة على مهل وقد سرهم ما صادفوا من أسباب الترف والتنميق على غير انتظار ، ومضوا يتكهنون بهوية ذلك السيد المفتن الذى وجد فى وقته متسعاً لهذا الترف والتنميق .

وتقدموا فى سيرهم فسمعوا أنغاماً ورأوا فتياناً وعذارى يرقصون فى الغابة ، وتوغلوا فى سيرهم فشاهدوا قصراً منيفاً مشيداً على تل وبالقصر تحيط الأدغال . ودخلوا القصر تبعاً لحقوق الضيافة عند أهل الشرق فاستقبلهم رب القصر بالبشر والترحاب .

وكان ذلك السيد ذا عين فاحصة فقرأ فى مظهرهم مادله على أنهم ليسوا من عامة الناس فأقام لهم مأدبة عظيمة . واسترعى انتباهه فصاحة عملاق أما أدب الأميرة الذى ينطق بالنبالة فقد استحق منه الاحترام .

ولما رغبوا فى الرحيل رجاهم فى البقاء ، وكان تشبثه بهم فى اليوم التالى أكثر من تشبثه بهم فى اليوم الأول . وقبلوا دعوته شاكرين ، وبمضى الأيام زالت الحواجز بينهم وحلت محلها الثقة والحرية .

ورأى الأمير الخدم فى أسعد حال والطبيعة حوله فى أبهج حلة ، فداعبه الأمل فى أن يجد ضالته فى ذلك المكان . وهنأ الأمير رب القصر على السعادة الغامرة التى يعيش فيها ولكن رب القصر قال مبتئساً : « إن عندى من مظاهر السعادة شيئاً عظيماً ولكن المظاهر مضللة ، فثرائى العظيم يعرض حياتى للخطر ، وباشا مصر يحنقه أن يرى فى هذا الجاه كما يحنقه أن يرى قلوب الناس متعلقة بى . ولقد حمانى من غدره حتى الآن أمراء البلاد ، ولكن عطف العظماء لا يعول عليه دائماً ، ولست أدرى متى يغرى الباشا حماتى بالاشتراك فى نهبى . ولقد أرسلت كنوزى إلى بلاد بعيدة ولسوف أبادر إلى اللحاق بها حين أرى ما ينذر بالخطر . وعندئذ سوف يتمتع أعدائى بقصرى وحدائقى » .

وأقبل الجميع على السيد يواسونه فى حاله ويأسفون لما هو فيه من نوى متصل . وقد بلغ من ألم الأميرة وغضبها أنها انسحبت إلى جناحها .

وأقاموا فى ضيافة هذا السيد الجواد أياماً أخرى ، ثم رحلوا عنه بحثاً عن الزاهد .

الفصل الحادى والعشرون

الوحدة وسعادتها : قصـــة الزاهد

وفى اليوم الثالث دلهم الفلاحون على صومعة الزاهد ، فإذا بها كهف فى جبل تظله أشجار النخيل . وكان الكهف على بعد من الشلال عظيم ، فلم يصله من هديره الصاخب إلا خرير رقيق منتظم يهدئ النفس ويعدّها للتأمل العميق. وكانت عذوبة الخرير تزداد كلما صفرت الريح بين الأغصان وقد أدخلت يد الإنسان على هذا الكهف من الإصلاح ما أحال تلك الفجوة الخشنة إلى معتكف به حجرات كثيرة ، تستخدم فى مختلف الأمور ويحط فيها الرحال من حين لحين ، كلما أدركهم ظلام الليل أو عصفت بهم الأنواء .

وكان الزاهد يجلس على أريكة عند الباب ليستمتع بنسيم الماء . وكان بجواره الأقلام والقراطيس وإلى جانبه الآخر أدوات آلية من مختلف الأنواع . واقتربوا منه فلم يحس باقترابهم وقرأت الأميرة فى وجهه ما يدل على أنه لا يدرى عن السعادة شيئاً .

وحيوه باحترام عظيم فرد عليهم رد من ألف آداب البلاط . قال :

« يابنى إذا كنتم قد ضللتم الطريق فسوف تجدون فى هذا الكهف منزلا تأوون فيه سواد الليل . وإن لدى ضرورات الحياة جميعاً ، أما الكماليات فلا أحسبكم تتوقعون أن تجدوها فى صومعة ناسك » .

وشكروه ثم دخلوا ، وراقهم ما رأوه حولهم من حسن الترتيب . وجاءهم الناسك باللحم والنبيذ ولكنه ما أكل إلا الفاكهة وما شرب إلا الماء. وكان حديثه مرحاً ولكن فى حدود الوقار ، ورعاً ولكن دون حماسة

شديدة . وسرعان ما ألزم أضيافه باحترامه وقد أسفت الأميرة على تعجلها فى الحكم عليه .

وأخيراً انتقل عملاق إلى الموضوع فقال : « هذا يفسر كف ذاع صيتك فى العالمين ، ولقد سمعنا بحكمتك فى القاهرة فقصدناك راجين أن تدل هذا الفتى وهذه الفتاة على أسعد سبيل يسلكانه فى الحياة » .

فأجاب الناسك : « إن السعادة من نصيب الأخيار ، وما عندى من رأى فى هذا الشأن إلا التنكب عن كل ما يتوسم فيه الإنسان شرًّا » .

قال الأمير : « إن من يتبع مثلك فينزوى عن الناس تماماً يتنكب طريق الشر ما فى ذلك شك » .

قال الزاهد : « لقد اعتزلت الدنيا خمسة عشر عاماً حقًّا ، ولكنى لا أرجو أن يقتفى الناس أثرى فيما فعلت — فى شبابى كنت من رجال الجيش وبلغت أعلى المناصب العسكرية وقد اجتزت البلدان الواسعة على رأس أجنادى ورأيت من المعارك وحصار المدن عدداً عظيما . ووجدت أن الدنيا مليئة بالبؤس والتشاحن وأسباب الغواية ، ثم اتفق أن ضابطاً صغيراً تخطانى فى الترقية فسئمت نفسى الحياة العامة ، ووجدت أن قوتى الأولى قد أنشأت تتدهور فرأيت أن أختم حياتى ختاماً هادئاً بعيداً عن ضجيج الناس . وذكرت يومئذ أنى قد اعتصمت ذات مرة بهذا الكهف من عدو يطاردنى فاخترته نفسى ليكون معتزلى الأخير . وقد جئت بالصناع ليقسموه إلى غرف وكدست فيه كل ما رأيت أنى سأحتاج إليه .

« وكنت فى الأيام الأولى من اعتكافى أنعم بوحدتى كما ينعم الملاح بالمرفأ بعد أن تقسو عليه الزعازع ، ووجدت فى سكونى وراحتى ماشفانى

من ضجيج الحروب ووعثائها . فلما زالت لذة الحياة الجديدة انصرفت إلى دراسة ماينبت فى الوادى من أشجار وتحليل ما جمعته من معادن لاصقة بالصخور ، ولكنى أضيق الآن بكل هذا ، وقد استبد بى القلق وشرود العقل فى الأيام الأخيرة وبلبلت الحيرة وجدانى وسممت الشكوك والأوهام خيالى وماذلك إلا لأنى لا أجد ما أكسر به ملل هذه الحياة الرتيبة . ويخجلنى أحياناً أن أذكر أنى ماوجدت سبيلا إلى اتقاء الشر إلا بالفرار من أداء الفضيلة ، ويخيل إلى أحياناً أن مادفعنى إلى الاعتكاف ليس التقوى بل الغضب لما نزل بى من إجحاف . وفى نفسى تثور الخواطر الهائجة ، ويؤسفنى أنى باعتكافى قد أضعت الكثير وما جنيت إلا القليل . وإذا كنت بفرارى من المجتمع قد أمنت غواية الأشرار فأنا به قد فقدت هداية الأخيار . ولقد وازنت طويلا بين مزايا المجتمع ومضاره وقد صح عزمى على العودة إلى الدنيا غداً . والمعتزل لا شك فى شفائه ، أما ورعه فليس يعلو على الشك » .

واستمعوا إلى مقاله عاجبين ، ولكنهم بعد أن أفاقوا عرضوا عليه أن يصحبهم إلى القاهرة . فاستخرج كنزاً عظيماً كان قد أخفاه بين الصخور ، وعاد معهم إلى المدينة ، فلما أشرفوا عليها التهمها الناسك الجذلان ببصره التهاماً .

الفصل الثانى والعشرون

سعادة الحياة المتمشية مع الطبيعة

وأخذ الرأس إيلاس يتردد على مجمع من مجامع العلماء يلتقى فيه رجال الفكر فى أوقات منتظمة ليتبادلوا الآراء . وكانت أساليبهم خشنة بعض الشيء ولكن حديثهم كان نافعاً وجدلهم كان قوياً وإن بلغ حد الاحتداد المرذول أحياناً ، وتشعب حتى ينسى المتناقشان مبدأ المناقشة . وكان أكثرهم يشتركون فى بعض النقائض فيحاول كل منهم أن يملى على الآخرين رأيه ويسرّ كل منهم للغض من قيمة زملائه .

وكان الرأس إيلاس يقص على أعضاء هذا المجمع ما كان بينه وبين الناسك ويروى لهم كيف أنه عجب إذ سمع ذلك الناقد يؤنب نفسه على اختياره حياة الزهد برضاه . واستقبل السامعون قصته استقبالا متفاوتاً ، فمنهم من رأى أن الحماقة التى أبداها فى ذلك الاختيار قد نالت قصاصها الحق بما لقيه الناسك من وحشة متصلة ، ومنهم من وصف الناسك بأنه منافق فيما فعل ودافع عن هذا الرأى أحر دفاع ، ومنهم من انتقل إلى الحديث عن حق المجتمع على الأفراد وحق المجتمع فى عمل الأفراد وعدوا اعتزال الحياة فراراً من الواجب ، وقال آخرون إن من حق الإنسان فى ظروف معينة أن ينسحب من الحياة بعد الوفاء بالتزاماته نحو الجماعة لكى يحاسب نفسه على ماقدمت ولكى يطهر ضميره من أدران الرذيلة .

وكان بينهم رجل تأثر لما سمع أكثر من سواه وقال إن الناسك سوف يعود بعد أعوام إلى معتكفه ، فإذا لم يرده الخجل أو يعترض

الموت خطاه فقد يخرج إلى الحياة مرة أخرى . وأيد هذا الرأى بقوله :
« ذلك لأن أمل الإنسان فى السعادة متأصل فى نفسه فأطول التجارب لا تمحوه . ونحن نحس بالشقاء فى حالتنا الراهنة ولا سبيل إلى إنكار ذلك ، ولكن هذه الحالة ذاتها حين تصبح جزءاً من الماضى البعيد يلونها الخيال بأبهج الألوان فنتمنى لو تعود . ولكن لا جدال فى أننا سنبرأ يوماً من عذاب الأمانى ، وهكذا يزول الشقاء الذى نفرضه على أنفسنا فرضاً .

وكان بين الحاضرين فيلسوف يستمع إلى كلامه بصبر نافد ، فما إن فرغ الرجل من مقاله حتى أجاب :

« لقد برأ الحكماء فعلا من عذاب الأمانى ، ولقد زال الشقاء الذى نعرضه على أنفسنا فرضا . وإن السعى وراء السعادة التى طرحتها الطبيعة ذات السماحة بين أيدينا لمن عمل الكسالى المتبطلين . فطريق السعادة هو اتباع الطبيعة وفى طاعة ذلك القانون الكلى الثابت الذى نقشته يد القدر على كل قلب ولم تكتبه على كل قلب يد الإنسان ، ذلك القانون الكلى الثابت الذى ألهمناه بالفطرة ولم نكتسبه بالتعلم . إن ومن يستهدف الطبيعة فى كل ما يفعل لا تزعجه أوهام الأمل أو تباريح الرغبة . فرضاه وإعراضه يأتيان عن نفس هادئة وأفعاله وإحساسه تكون بما يمليه العقل . ولقد يتلهى بعض الفلاسفة بإيجاد التعاريف الدقيقة للسعادة والتفسيرات المنطقية المعقدة لمدلولها ، ولكن الحكمة لا تحتاج إلى كل هذه الحذلقة . فليدرسوا غزال الغاب وطير الدغل ، وليتدبروا حياة الحيوان الذى تتحكم غرائزه فى كل حركة يتحركها . الحيوان يتبع رائده ورائد الحيوان طبيعته ، وسعادة الحيوان أعظم من سعادة الإنسان فلنقصر القول ولنتعلم كيف نعيش . فلنطرح تعاليمنا الثقيلة جانبا تلك التعاليم التى لا يفهم معناها أكثر الناس طنطنة بها ، ولنحمل فى أفئدتنا المثل البسيط الواضح القائل بأن البعد عن الطبيعة بعد عن السعادة »

ولما فرغ من كلامه تلفت حوله مطمئنا وارتاح لما ألقاه من درر .
وقال الأمير في تواضع جم :

« لقد انصرفت إلى تتبع حديثك بكل جوارحي لأني أبحث عن السعادة شأن غيري من الناس . ولست أرتاب في صدق هذه الأقوال التي جاءت من عالم مثلك مفضَّال في لغة مشربة باليقين . ولكني أطلب إليك امرا واحدا ، ألا وهو أن تهديني إلى الحياة التي تتمشى مع الطبيعة » .

قال الفيلسوف : « أنا لا أضن بعلم على فتى في مثل وداعتك وتواضعك . الحياة التي تتمشى مع الطبيعة هي الحياة التي يعمل فيها الإنسان دائمًا تبعا لما تمليه العلاقات القائمة بين الأسباب والنتائج وتبعا لما تتصف به هذه الأسباب وهذه النتائج من خواص ، وهي الحياة التي يتم فيها الانسجام مع ذلك القانون السرمدي العظيم قانون السعادة الكلية ، وهي الحياة التي تنحو إلى التعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التي تتميز بها الأشياء في وضعها الراهن . »

وسرعان ما أدرك الأمير أنه يصغي إلى حكيم كلما أطال القول تعذر فهمه ، ولذا أحنى رأسه ولاذ بابالصمت . وحسب الفيلسوف أن صمته أمارة الاقتناع وخال أنه انتصر على الحاضرين انتصارا مبينا ، فنهض وخرج من القاعة خروج رجل قد تعاون مع الصفات والاتجاهات الخاصة التي تتميز بها الأشياء في وضعها الراهن .

الفصل الثالث والعشرون

الأمير والأميرة يشتركان فى دراسة الحياة

وعاد الرأس إيلاس إلى داره غارقا فى بحار التفكير لا يدرى كيف يوجه حياته المستقبلة ، فقد رأى أن الحكماء والبسطاء يستوون فى جهلهم بطريق السعادة ، ولكنه تعزى عن خيبة أمله بحداثة سنه وزعم أن أمامه متسعا من الوقت يبحث فيه وينقب .

وأعرب لعملاق عن ملاحظاته وشكوكه ، ولكن إجابة عملاق زادته شكا على شك . وبعدئذ تحدث إلى أخته بأكثر وبأصرح مما تعود أن يتحدث فقد كانت أخته لا تزال مثله على أملها فى استكشاف السعادة ، وكانت لا تعدم قولا تشجعه به على المضى فى بحثه كلما أصاب فشلا . وفى ذلك قالت :

« إننا لم نختبر من الدنيا إلا أقلها ، ونحن لا نزال من أوساط الناس فما ارتفعنا حتى الآن إلى مقام العظماء ولا انحططنا إلى سفلة القوم . فقد كنا فى بلادنا من البيت المالك ولكن بلا سلطان . أما فى هذه البلاد فنحن لم ننفذ بعد إلى خبايا الأسر لنرى ما تعيش فيه من سلام . إن عملاقاً لا يشجعنا على البحث مخافة أن نكشف له فى النهاية عن خطئه . فلنشترك إذاً فى الاستقصاء ، ولتنفرد أنت بدراسة حياة الأشراف ولأنفرد أنا بدراسة الطبقات الأخرى ، فلعل السلطة والبأس هما مصدر السعادة لما يهيئانه للناس من فرص لفعل الخير ، أو لعل التوسط والاعتدال هما مصدر السعادة لأنهما بعيدان عن الأعمال الجسام ومتاعبها من ناحية وعن الفقر وآلامه من ناحية أخرى » .

الفصل الرابع والعشرون

الأمير يبحث عن السعادة بين الطبقات العليا

وأظهر الرأس إيلاس رضاه عن هذا الرأى ، وفى اليوم التالى قصد إلى بلاط الباشا فى حاشية عظيمة . وسرعان ما تبين علو قدره فقدموه إلى الباشا وأعوانه العظام على أنه أمير جاء به حبه للاستطلاع من أقطار بعيدة ، وتوثقت بينه وبينهم أواصر الصداقة .

وظن أولا أن رجلا يقدم له جميع الناس فروض الطاعة والاحترام . . رجلا تسمع كلمته فى طول البلاد وعرضها ، لا بد أن يكون راضياً بحاله وفى ذلك قال :

« إن سعادة الحاكم الذى يحس بأن حكمه الصالح قد أسعد آلاف الناس لسعادة لا تعدلها سعادة . ولكن قبل هذه السعادة الفذة التى اختص بها رجل واحد لا أكثر بحكم النظام الاجتماعى الذى يقوم على أساس الطاعة والرياسة ، فمن الأرجح أن هنالك نوعا آخر من السعادة قد يشترك فيه عدد من الناس عظيم ، والعقل يقول بأن من المحال أن يخضع الملايين لفرد واحد لا لشىء إلا لكى يفعموا قلبه بسعادة ليست بذات حدود » .

نعم ، هذا ما قاله الرأس إيلاس محدثاً نفسه ، ولقد كانت هذه الخواطر تدور بفكره كثيراً ، فما وجد لهذه العقدة حلا . ثم توطدت صلته برجال البلاط بالهدايا وحسن المقال فأدرك أن الكثرة المطلقة منهم يكن بعضها المقت لبعضها الآخر ، وأن حياتهم سلسلة متصلة من الدسائس وافتضاح الدسائس ، ومن المؤامرات وافتضاح المؤامرات ومن

التحزب والخيانة والاعتقال والفرار . ووجد أن كثيراً من أعوان الباشا قد بعثوا إليه ليراقبوا مسلكه وليقفوا على نواياه . وسمع كل لسان يجأر بالنقد وكل عين تبحث عن خطأ .

وأخيراً جاءت وثائق العزل، فإذا الباشا يحمل إلى القسطنطينية مغللا بالأصفاد وانطوى اسمه كأنه لم يكن .

قال الرأس إيلاس لأخته : « ما موقفنا الآن من السلطة ومزاياها ؟ أما نرجو من ورائها تحقيق الخير ؟ أم ترى الخطر يلازم المناصب الثانوية وحدها ، أما رب الدولة فهو مطمئن وسعيد؟ ترى أيكون السلطان الشخص الأوحد الذى ينعم بالسعادة فى دولته؟ أم ترى السلطان ذاته تؤرقه الشكوك والمخاوف لكثرة أعدائه ؟ »

وبعد فترة وجيزة عزل الباشا الثانى ، أما السلطان الذى كان قد ولاه على مصر فقد اغتاله عساكر الانكشارية لأن خليفته كان يختلف معه فى الرأى ويحمى طائفة من المقربين غير طائفته .

الفصل الخامس والعشرون

الأميرة تبحث جادة عن السعادة فلا تصادف توفيقاً عظيماً

وفى هذه الأثناء كانت الأميرة تختلط بمختلف الأسر ، فالكرم والسماحة يفتحان كل الأبواب إلا أقلها . ووجدت الأميرة أكثر بنات الأسر على مرح عظيم ، ولكن نكاية التى تعودت جاد الحديث من عملاق ومن أخيها لم ترتح إلى ثرثرتهن الصبيانية . وحكمت على تفكيرهن بالضيق وعلى رغباتهن بالانحطاط وعلى مرحهن بالافتعال . وكان لهوهن على تفاهته تفسده المنافسات الحقيرة والتحاسد على لا شىء . فكانت كل منهن تنفس على الأخرى جمالها ، برغم أنها تعلم أن التمنى لا يأتى بالجمال والانتقاص لا يزيله. وكان بينهن عدد عظيم يعشق فتياناً تافهين تفاهة البنات سواء بسواء ، فكن يتوهمن أنهن يهوين الفتيان حقًّا وقد كن يتلهين بهم إزجاء للفراغ . وكن لا يقدرن فى الرجال رجاحة العقل أو نقاء النفس ولذا كان غرامهن ينتهى دائماً بخيبة الأمل . ولكن حزنهن كان خفيفاً عابراً شأن فرحهن . وكن يعشن فى الحاضر وحده فلا يتمثلن تجارب الماضى ؟ ولا يتصورن حياة المستقبل ، ولهذا كانت الرغبة تحل محل الرغبة فتمحوها فى غير عناء كما يمحو حجر ألقى فى الماء الدوائر التى رسمها حجر سابق .

ولما كان غرضها التغلغل فى بواطن نفوسهن فقد دأبت على أخذهن بالحسنى ، واستطاعت بعطفها أن تحمل الشاكيات منهن على الإفضاء إليها بأسرار قلوبهن المحطمة . كذلك دعتها الفتيات الطامعات فى مال أو أمل إلى الاشتراك معهن فى أفراحهن .

وكانت الأميرة تلتقى بأخيها الأمير كل يوم تقريباً فى منزل يشرف على النيل لتبادل التجارب . وفيما هما جالسان معاً انصرف بصر الأميرة إلى النهر الجارى من تحتها وقالت :

« أجبنى يا أبا الأنهار العظيم ، أجب ندائى ، أنا ابنة ملك من ملوكك ، أجب يا من تفيض مياهك فتروى ثمانين أمة . أ واديك الطويل بيت واحد لا يهمس أهلوه بالشكوى ؟ »

فقال الرأس إيلاس : « إذن فقد كان بحثك فى دخائل البيوت عبثاً كبحثى فى مجامع الأشراف » .

أجابت الأميرة : « لقد أمكننى أن أنفذ إلى حرمات الأسر التى تدل حالها على رخاء لا بأس به وسلام لا يعكره شىء فى ظاهره ، ولكنى لم أجد بين هذه الأسر كلها أسرة واحدة ليس لديها ما يقض مضجعها » .

« فلما خالطت الفقراء لم أتوقع أن أجد بينهم إلا شظف العيش ، ولكنى وجدت بينهم عدداً كبيراً يعيش فى رغد أو ما أتصوره أنا رغداً . فالفقر فى المدن الكبرى يتخذ أشكالا تختلف كثيراً عن أشكاله فى الريف ، فالبذخ يقيه والإسراف يطمس معالمه والكثرة المطلقة من الناس تجتهد لستر إملاقها عن العيون ، وهى تحيا من يوم إلى يوم وهى تقضى عامة النهار فى التفكير فى حاجات الغد .

« وهذا الشر الفاشى بين الناس لم يحزنى كثيراً فقد كنت أمحوها بإغاثة كل من أخالطه من الفقراء . ولكنى وجدت من بعضهم رفضاً لهباتى ، فقد آلمهم إدراكى لحاجاتهم أكثر مما سرتهم رغبتى فى إغاثتهم . أما الآخرون الذى ألزمهم سوء الحال بقبول عطاياى فلم يغتفروا لى قط هذا الصنيع . ولكنى برغم ذلك قد صادفت كثيراً من الفقراء الذين استقبلوا العون شاكرين ، دون أن يعرضوا على الملأ شكرانهم أو يرجو تجدد المكرمات » .

الفصل السادس والعشرون

الأميرة تمضي في حديثها عن الحياة الخاصة

ولما رأت نكاية اهتمام أخيها بحكايتها مضت في سردها تقول :

« وقد دلني اختباري على أن الشقاق يسود كل الأسر سواء في ذلك الفقيرة وغير الفقيرة . وإذا صدق عملاق بأن الدولة إن هي إلا أسرة كبيرة ، فيصدق كذلك أن الأسرة دولة صغيرة تمزقها الخلافات وتهددها الثورات . ومشاهد قليل الاختبار يتوقع أن يدوم حب الآباء والبنين وأن يكون متبادلا بدرجة متساوية ، ولكن هذا الحب قلما يدوم بعد سني الطفولة ، فبعد قليل يكون التنافس بين الآباء والأبناء ويفسد المن أفضال الآباء فيقابل الأبناء أفضالهم بالجحود .

« ثم إن الانسجام لا وجود له بين الوالدين أو البنين ، فالبنون يتنافسون على حب الوالدين وتقديرهم ، وكذلك يتنافس كل من الوالدين على حب البنين وتقديرهم كل على حساب الآخر ، برغم أنهم لا يجنون من وراء ذلك إلا قليلا . فيكون من ذلك أن بعض الأبناء يثقون في آبائهم ويثق البعض الآخر في أمهاتهم، وتشتد المشاحنات في الأسرة شيئاً فشيئاً .

« وأفكار الأبناء تتعارض دائماً مع أفكار الآباء، فالجيل الجديد بسنة الطبيعة يناقض الجيل القديم ، لأن الأول يفيض بالأمل والثانى يخضع لليأس ، ولأن الأول يتطلع إلى المستقبل والثانى يستعيد تجارب الماضي . ولكل منهما ما يبرر موقفه ، فألوان الحياة تبدو زاهية لعين الشباب وتبدو كئيبة لعين الشيخوخة فهي يختلف كما يختلف وجه الطبيعة

فى الربيع وفى الشتاء . والأبناء لا يجدون فى فلسفة الآباء زيفاً واضحاً لأنها لا تطابق الحياة كما يعرفونها .

« ويندر أن نجد من الآباء من يتقيد فى سلوكه العملى بآرائه فى الحياة والشيوخ يؤمنون تماماً بالتدبير المحكم والتقدم البطىء أما الشباب فيؤمنون بنبوغهم وقوتهم واندفاعهم . الشيوخ يمجدون المال أما الشباب فيمجدون الفضائل . الشيوخ يؤلهون الحزم أما الشباب فيؤلهون الشهامة ويتركون مصيرهم فى يد المقادير . والشباب الذى لا يضمر الشر قط يتوهم أن الشر لا وجود له ، وهذا سر صراحته ، أما الشيخوخة فتكثر من التشكك لأنها اختبرت الخديعة ، وكثيراً ما تعمد بنفسها إلى المخادعة . الشيخوخة تغضب لتهور الشباب والشباب يحتقر حذر الشيخوخة . وهكذا يضيع الوئام شيئاً فشيئاً بين الآباء والأبناء . وإذا كان أقرب الناس مودة يشق بعضهم بعضاً فأين ياترى نلتمس الحنان والعزاء ؟ »

أجاب الأمير : « لا شك أنك قد أسأت اختيار الأصدقاء ، فليس يعقل أن صلة الأبناء والبنين وهى أقوى صلة عرفتها الطبيعة تفسد هكذا بحكم الضرورة » .

قالت الأميرة : « إن الشقاق فى الأسرة ليس واجب الوجود ، ولكن تجنبه أمر عسير . فقلما نجد أن جميع أفراد الأسرة مستمسكون بالفضائل . والأخيار والأشرار لا يتفقون ، وكذلك لا يتفق الأشرار والأشرار . ولقد يختلف الأخيار والأشرار أنفسهم إذا كانت فضائلهم من نوع مختلف أو إذا اتصفوا بالتطرف فى سجاياهم . ولكننا نستطيع أن نحكم بوجه عام بأن الآباء الذين يستحقون الاحترام ينالونه ، فمن استقامت حياته عاش موفور الكرامة .

« كذلك تهدد الحياة الخاصة شتى المنغصات . فمن الناس من يستعبدهم خدمهم الذين استأمنوهم على شئونهم . ومنهم من يزعجهم أقرباؤهم الموسرون ، فما يستطيعون إرضاءهم وما يستطيعون إيلامهم .

كذلك نجد من الأزواج من يستبد بزوجته ونجد من الزوجات من تشذ فى معاملتها لزوجها . ولما كان فعل الشر أهون على النفس من فعل الخير فإن الحماقات والرذائل تجر من الشقاء على الأسرة ما لا تعوض عنه الحكمة والفضيلة » .

قال الأمير : « إذا كانت هذه حال الزواج بوجه عام فسوف أجد من الخطر على سعادتى أن أربط حياتى بحياة أخرى حتى لا تشقينى أخطاء شريكتى فى الحياة » .

قالت الأميرة : « لقد التقيت بأناس كثيرين يضربون عن الزواج لهذا السبب ، ولكنى لم أجد فى حكمتهم ما يحسدون عليه ، فهم يقضون حياتهم فى أحلام الوحدة وقد جفت قلوبهم من الحب ، فتراهم يسعون إلى قتل الوقت باللهو الخبيث أو التسلية الصبيانية فما للوقت عندهم نفع ، كذا يتبدى إحساسهم بالنقص فى كل ما يفعلون ، فالنقص يملأ نفوسهم بالسخيمة وألسنتهم بنقد الآخرين . فهم سيئو الطبع فى بيوتهم مولعون بالإيذاء خارجها ، وهم يجدون لذة فى تحطيم كل مجتمع لا يستقبلهم بصدر رحب ، لأن البشرية قد لفظتهم من رحمتها وهم لا يعطفون على أحد ولا يعطف أحد عليهم ، فإن سعدوا لم يشاركهم أحد سعادتهم وإن شقوا لم يشاركهم أحد شقاءهم ، وهى حال أقسى على النفس من الوحدة ذاتها ، فهم لا يعتزلون العالم ولكنهم يخرجون من زمرة البشر . وإذا كانت فى الزواج آلام عديدة فليس فى العزوبة لذة واحدة » .

قال الرأس إيلاس : « وما العمل إذن ؟ إن الأمر يزداد تعقداً كلما أمعنا فى بحثه وتحليله . ولكن لا شك فى أن من ينصرف إلى إسعاد نفسه يجد السعادة التى ينشدها » .

الفصل السابع والعشرون

مقال فى العظمة

وسكتنا قليلا ، وبعد أن تدبر الأمير رأى أخته قال إنها قد حكمت على الحياة دون أن تنصف وافترضت وجود الشقاء حيث لا شقاء . قال : « إن ما رويته على لا يلقى ظلا كئيباً على الحاضر وحده بل يطفئ كذلك سراج الأمل فى المستقبل . إن الصورة السوداء التى رسمها عملاق إن هى إلا خيال باهت للشرور التى تصفينها بالنكاية . ولقد اقتنعت أخيراً بأن الهدوء ليس وليد العظمة أو السلطان ، فهو لا يشرى بالمال ولا يصاب بغزو الغزاة . فمن الواضح أن اتساع نفوذ الإنسان يعرضه بالضرورة لعداء الأعداء أو لزلل المصادفات . ومن اضطلع بإرضاء الناس أو بإدارة شئونهم فإن عليه أن يستخدم من العمال عدداً عظيماً ، ولا بد أن بين هؤلاء العمال الجهال ولا بد أن بينهم الظالمين ولا بد أن بينهم المضللين ولا بد أن بينهم الخائنين . فلو أرضى الحاكم أحدهم أغضب سواه ولو قرب الحاكم نفراً زعم الآخرون أنه قد غمطهم حقوقهم . ولما كانت العطايا لا تجزل إلا للأقلين فالكثرة المطالة فى سخط مستديم » .

قالت الأميرة : « إنى أزدرى هذا السخط الذى ليس له ما يبرره وأرجو الله ألا تخضع أنت له قط » .

أجاب الرأس إيلاس : « إن للسخط دائماً ما يبرره مهما صلح الحكم وسهرت الإدارة على إحقاق الحق وتوزيع العدل بين الناس . وما من حاكم مهما يكن يقظاً بمستطيع أن يستكشف موهبة نابغ

طمسها الفقر أو سترها التحزب ، وما من حاكم مهما يكن قوياً يستطيع أن يكافئ هذه الموهبة . ولكن من يرى قليل الكفاية مقدماً على كثيرها يعزو ذلك التفضيل بطبيعة الحال إلى تحيز الرؤساء أو نزواتهم التى لا ضابط لها . ويدخل فى باب المحال أن يستمسك رجل مهما عفت نفسه أو ارتقت سجاياه بالعدالة المطلقة فى كل زمان وفى كل ظرف . فهو آنا يستسلم لعواطفه الشخصية وهو آناً يستسلم لأهواء خلصائه ، وهو يرضى بالعاجزين وهو يرى من الفضائل فى أصفيائه مالا يتحلون به فى الواقع وهو يسعى إلى إسعاد من يحملون على إسعاده .

وهكذا تسود التوصيات ولقد تشترى بالمال أو بما هو أخس من المال ، أعنى بالملق وتقبيل الأيادى .

« ومن كثرت أعماله تعرض للخطأ ، ولا بد أن يتحمل تبعات خطئه . ولو قيض لامرئ أن يحسن طول حياته فلن يعدم وضيعاً ينقد عمله عن خبث ولن يعدم فاضلا ينقد عمله عن سوء تقدير .

« لهذا كان من المحال أن نجد السعادة بين عظماء القوم ، وإنى لا أعتقد أن السعادة قد هجرت عروش الملوك وقصور الأشراف إلى أكواخ الفقراء ومنازل المغمورين ، فهؤلاء تتناسب كفايتهم مع أقدارهم فى الحياة ، وهؤلاء يبصرون مجالهم ويدركون حدودهم حق الإدراك ، وهؤلاء لا يصطفون من الأصدقاء إلا من استأهلوا ثقتهم ، ولست أرى كيف يحول بينهم وبين السعادة شىء ، فليس أمامهم إلا أن يخلصوا للغير فيخلص الغير لهم ، وليس أمامهم إلا طريق الفضيلة وهو طريق السعادة » .

قالت نكاية : « ليس فى العالم ، ما يجعل السعادة الكاملة نصيب أهل الفضيلة الكاملة بالضرورة . ولكننا نستطيع أن نقول إننا نرى مظاهر الفضيلة أكثر مما نرى أمارات السعادة بين الناس . وإن ضربات

الطبيعة جميعاً والكثرة المطلقة من ضربات المجتمع لتتناول الأخيار والأشرار سواء بسواء . فالقحط يعم الجميع ولا يقتصر على فريق من الناس دون سواه . فإذا تحطمت سفينة غرقوا جميعاً وإذا غزا العدو ديارهم فروا أمامه جميعاً .

« إن الفضيلة لا تهئ للإنسان إلا راحة الضمير والأمل المتصل فى نوال السعادة المطردة ، ولقد يعيننا كل ذلك على تحمل الشدائد صابرين ، ولكن الصبر ذاته يتضمن وجود الألم » .

الفصل الثامن والعشرون

الرأس إيلاس والأميرة نكاية يستأنفان حديثهما

قال الرأس إيلاس : « أنت يا أميرتى العزيزة تتورطين فى الخطأ الشائع ، ألا وهو المبالغة فى التعبير . فإنى أراك تذكرين لى نماذج مألوفة من النكبات العامة والبؤس العميم نقرأ عنها فى الكتب أكثر مما نراها فى حياتنا اليومية ، وهى نماذج أراد القضاء أن تكون نادرة الوجود لأنها شديدة البشاعة . فلنكتف فى تصورنا للشر بما نحسه نحن فعلا ولنتجنب تصوير الحياة تصويراً ممسوخاً . وأنا لا أطيق أن أستمع إلى شكايات الشاكين من أهل البلاغة ، تلك الشكايات التى تنذر كل مدينة بحصار أليم كحصار أورشليم ، وتتنبأ بمجاعة كلما مر سرب من الجراد ، وتعلن مجىء الطواعين كلما هبت من الجنوب ريح قوية .

« ومن العبث أن نتجادل فى الضربات التى تحيق بالدول ولا سبيل إلى دفعها ، فمثل هذه الضربات لا بد من احتمالها . ولكن من الواضح أن الناس يرهبون هذه المآسى العامة أكثر مما يحسونها ، فمن الناس آلاف مؤلفة تشب وتشيخ دون أن تعرف من النكبات إلا النكبات الشخصية ، ولا تذوق من اللذات أو تعانى من المضايقات إلا مألوفها ، سواء أكانت تعيش تحت جور ملك طاغية أم كانت تعيش فى فىء ملك رحيم ، وسواء انتصرت جيوش بلادهم أم مزق العدو أوصالها . فالحداد لا يفتأ يضرب بمطرقته سنديانه ، والفلاح لا يفتأ يدفع أمامه محراثه لا يدريان شيئاً عن دسائس النبلاء التى تمزق البلاط فى الداخل

أو مساومات السفراء فى الخارج ، وهما يخضعان لضرورات الحياة ويزيلان تلك الضرورات ، وهكذا تتعاقب عليهما الفصول فتتعاقب معها مشاغلها المألوفة .

« فلنكف إذن عن تدبر ما قد لا يحدث بتاتا ، ولنكف إذن عن تدبر ما يتجاوز تقدير الإنسان . إننا لن نحاول أن نغير مجرى الطبيعة أو نبت فى مصائر الشعوب ، وغايتنا أن ندرس ما يمكن لأمثالنا أن نقوم به من أعمال ، فكل منا ساع فى طلب السعادة ووسيلته فى ذلك طلب السعادة للآخرين داخل نطاق حياته مهما ضاق نطاق حياته .

« وواضح أن الزواج تكليف من قبل الطبيعة ، فالرجال والنساء قد خلقوا ليتلازموا فى طريق الحياة ، وهذا ما يجعلنى أقتنع بأن الزواج سبيل من سبل السعادة » .

قالت الأميرة : « وما أدرانا بأن الزواج ليس سبيلا من سبل الشقاء وهى كثيرة يعجز دونها الحصر . فحين أتأمل صور التعاسة الزوجية على اختلافها ، وحين أتأمل أسباب النزاع الدائم التى لم تدخل فى تقدير الأزواج ، وتباين الطباع ، وتضارب الآراء ، وكل صدام فظ بين الرغبات المتعارضة تمليه العواطف الهوجاء ، وحين أتأمل الشقاق المتواصل الذى يمليه اختلاف الفهم لمعنى الفضيلة ويزيد من حدته اقتناع كل بحسن نيته ، حين أتأمل كل ذلك يخيل إلى أحياناً أن ما يذهب إليه أسخر الساخرين فى كل أمة صحيح وهو أن الزواج أمر يأذن به الناس ولا يوافقون عليه ، ويبدو لى أنه ما من أحد يرضى بأن يكبل نفسه بأغلاله الأبدية إلا إذا كان صريع شهوة جارفة تعمى بصيرته » .

أجاب الرأس إيلاس : « لعلك قد نسيت أنك منذ لحظة واحدة قد صورت حياة الوحدة تصويراً أنكد من تصويرك للحياة الزوجية

إن كلا الحالين قد يكون سقيما ولكن لا بد أن أحدهما أقل نكداً من الآخر . وهكذا الأمر إذا اجتمع فى العقل رأيان خاطئان فإن أحدهما لا بد أن يدمر الآخر وبذا يهيىء العقل لمعرفة الحقيقة » .

فأجابت الأميرة : « ما كنت أتوقع أن ينسب هذا للبطلان ، فالبطلان ابن الضعف . ومن العسير أن يوازن العقل بدقة بين كبار الأمور ذات المرمى البعيد والوجوه المتباينة ، كما أن من العسير على العين أن توازن بدقة بين ضخام الأجسام ذات الأطوال المديدة والصفات المختلفة . ونحن لا ندرك الفوارق ولا نقف على المزايا لأول وهلة إلا إذا رأينا الأشياء فى كليّتها . فإذا عرض لى أمران لا أستطيع أن أحيط بهما تماماً من حيث جسامة المدى أو دقة التفاصيل فلا عجب أن يتلون حكمى عليهما بما يتركه كل منهما فى نفسى من أثر على التعاقب فأنا أفهم المجموع قياساً على فهمى الأجزاء . وحين لا نرى من مسألة إلا جانبا واحداً فطبيعى أن أحكامنا عليها تتناقض من وقت لآخر تبعا لما يتكشف لنا منها فى ضوء السياسة والأخلاق ، تماماً كما تتناقض أحكامنا مع أحكام الغير . أما إذا رأينا المسألة برمّتها دفعة واحدة رؤيتنا للمسائل الحسابية مثلا فلن نجد اثنين يختلفان فى حكمهما على هذه المسألة ولن نجد أحداً يغير من رأيه فيها » .

قال الأمير : « كفانا من الحياة بشاعتها، فلا نزيد من بشاعة الحياة بهذه المشاحنة المريرة ، وحسبنا ماكان بيننا من جدل دقيق . لقد اشتغلنا بالبحث عن السعادة ، ولكل منا حظه من فرحة النجاح أوخيبة الفشل . فالواجب يقضى إذن بأن نتعاون فيما أقدمنا عليه . إنك لا شك تتسرعين بمهاجمة الزواج فى ذاته لما ترينه من تعس المتزوجين ، ولكن ألا يدل شقاء الحياة كذلك على أن الحياة ليست نعمة من نعم السماء ؟ لا بد من تدبير الدنيا ، إن بالزواج وإن بغير الزواج » .

١٠٨

فأجابت نكاية.: « إن طريقة تعمير الدنيا ليست من شأنى ولست أفهم اهتمامك أنت بها . ولست أرى شرًّا فى أن يموت الجيل الحاضر بغير خلف يرث مكانه على الأرض، ونحن الآن لا نبحث عن سعادة العالم بل نبحث عن سعادتنا » .

الفصل التاسع والعشرون

مناظرة الزواج تستأنف

قال الرأس إيلاس : « إن صحة الكل لا معنى لها إلا صحة الأجزاء جميعها . وإذا كان الزواج نافعاً للإنسانية فى مجموعها فواضح أنه نافع كذلك لأفراد الإنسانية كل على حدة . فإذا لم يكن الأمر كذلك وكان القيام بهذا الواجب الضرورى الدائم مدعاة للشقاء فلا بد من تضحية بعض الأفراد ليسعد الآخرون . وفى تقديرك لحالة الزواج وحالة الوحدة ما يدل على أن أسباب الشقاء فى الزواج عرضية يمكن تجنبها، أما أسباب الشقاء فى الوحدة فملازمة وأكيدة إلى حد عظيم .

« ولا مناص لى من الاعتقاد بأن الحكمة وصفاء النفس كفيلان بإسعاد الزواج . وسر الشقاء بوجه عام غباوة البشر . وهل ننتظر غير الخيبة والندم من اختيار يتم فى نزق الشباب وفى جموح الشهوة بلا تدبر ولا تبصر بعواقب الأمور ولا بحث عن الانسجام فى الآراء وفى العادات أو تحقق من سلامة التفكير أو خلوص العاطفة ؟

« إن أكثر الناس يتزوجون على هذا المنوال . يلتقى الفتى والفتاة بمحض المصادفة أو يدبر بينهما اللقاء ، فيتبادلان النظرات ويتبادلان المجاملات ثم يعود كل منهما إلى داره يحلم بالشخص الآخر . ولا يجدان إلا القليل مما يشغل البال أو يصرف النظر فيحسان بالوحشة إذا افترقا ويحسبان أن سعادتهما فى التلاقى فيتزوجان ، وعندئذ يتكشف لهما ما خبأته عنهما الرغبة العمياء ، فيقضيان الحياة فى شجار متصل وتمتلئ نفساها بالقسوة يوماً بعد يوم .

« ومثل هذا الزواج الباكر يؤدى إلى التنافس بين الآباء والبنين ، فالولد يحرص على التنعم بأطايب الدنيا قبل أن يتركها له أبوه ، والحياة لا تتسع لإرضاء الجيلين معاً والبنت تتفتح كالزهرة المشرقة قبلما ترضى أمها بالذبول ، وهكذا تضيق كل منهما بالأخرى .

« ولا شك أن كل هذه النكبات يمكن تلافيها إذا تروى الناس ولم يتعجلوا الزواج ، فالأناة لا بد منها للاختيار النهائى . وفى مرح الشباب وتعدد ألوانه ما يجعل الحياة محتملة بغير شريك . ومضى الزمن يضاعف الاختبار وسعة الاختبار تضاعف فرص التقصى والاختيار. فإن لم تكن للأناة منفعة ما فإن لها مزية واحدة محققة على الأقل وهى أنها تجعل الآباء يكبرون الأبناء بسنوات عديدة » .

قالت نكاية : « إن ما تقصر دونه مداركنا وما لا يدخل تحت اختبارنا لا سبيل إلى معرفته إلا بأقوال الآخرين . ولقد بلغنى أن الزواج فى سن متأخرة لا يفضى إلى السعادة حقا . وهذا أمر أجل من أن نهمله وكثيراً ما عرضته على من توسمت فيهم أصالة الرأى وسعة العلم وصدق الملاحظة ، فاتفقوا على أن من الخطر أن يجعل الرجل أو المرأة مصيره معلقاً بيد الطرف الآخر بعد أن تتكون لكل منهما آراؤه وترسخ عاداته وبعد أن يختار كل منهما دائرة أصدقائه ويحدد مجرى حياته وفقاً لمنهاج مضبوط ويرضى كل منهما بآماله فى الحياة .

« ويندر أن نجد شخصين خاضعين لتصاريف المصادفة يلتقيان فى طريق واحد ، وقلما نجد من يرضى بتغيير سبيله التى ألفها وأحبها بحكم العادة . وحين تزول خفة الشباب ورعونته ليحل محلهما النظام والعيش الرتيب وتجىء الكبرياء التى تجد فى التسلم عاراً ، والعناد الذى يجد اللذة فى النضال والزمن الذى يفعل فعله فى معالم الإنسان كفيل كذلك بتحريف العواطف وتثبيت العادات ، مهما يكن تقدير كل لصاحبه قويا ورغبته فى إرضائه أكيدة . والعادات المتأصلة لا يسهل كسرها ، ومن يحاول

تغيير مجرى حياته إنما يحاول عبثا فى أكثر الأحوال . فكيف نستطيع إذن أن نفعل بالغير ما نعجز عن فعله لأنفسنا فى أكثر الأحوال ؟ »

فقاطعها الأمير قائلا : « وكذلك لا ريب تحسبين أن الناس ينسون الأساس الأول فى الاختيار أو يهملونه . فإن أنا رأيت أن أتخير لنفسى زوجا فأول ما أتطلبه فيها أن تنصاع لصوت العقل » .

قالت نكاية : « هذا ما ينخدع به الفلاسفة . فنى الحياة ألف موضع للخلاف لا يستطيع العقل له حلا . نعم إن فى الحياة ألف مسألة يحار فيها المنطق وتمتنع على بحث الباحثين ، ألف مسألة تتطلب الإنجاز العملى ولا تحتمل النقاش الطويل . تدبر أحوال الناس تجد أن بينهم قلة ضئيلة تستطيع حقا أن تبت فيما يعرض لها من أمور تافهة كانت أو جليلة بتًّا يستند إلى فهم للموقف واضح . ولو أن هناك زوجين قضى عليهما بأن يبتا كل صباح فى جميع تفاصيل حياتهما اليومية بتًّا بنى على العقل لكان هذان الزوجان أشقى من فى الوجود .

« إن من يتزوجون فى سن متأخرة ينجون غالباً من عدوان بنيهم ، ولكن هذه المزية تضيع إذا ذكرنا أنهم كثيراً ما يتركون بنيهم لرحمة الأوصياء قبلما تكتمل رياشهم و يتم تعليمهم ، فإن لم يحدث ذلك ماتوا قبل أن يروا فلذات أكبادهم فى تضج الرشاد أو فى قمة المجد .

« ولقد يأمنون حقًّا جانب بنيهم ، ولكنهم لا يرجون فيهم كثيراً وهم يفقدون متعة الحب الباكر دون أن يعوضهم عن ذلك شىء ، وتضيع منهم فرصة التآلف والانسجام حين تكون طباعهم فى مرونتها الأولى وعقولهم فى نضارة الشباب تنطبع عليها المؤثرات الجديدة ، فتقضى طول المعاشرة على أسباب الخلاف كما هو الشأن فى الأجسام اللدنة ، تتشكل سطوحها بدوام الحك والتآكل ليناسب أحدها الآخر .

« ويقينى أن من يؤخرون زواجهم ينعمون ببنيهم أكثر من سواهم أما من يعجلون به فينعمون بشركائهم فى الحياة » .

قال الرأس إيلاس : « لو أن النعمتين اجتمعتا لشخص واحد لتحققت جميع أمانيه . ولعل فى حياة الإنسان عمراً يحقق فيه الزواج السعادتين جميعاً ، عمراً لا هو بالعاجل فيفسد على الآباء إحساسهم بالأبوة ولا هو بالآجل فيفسد على الأزواج نعيمهم بزوجاتهم » .

فأجابت الأميرة : « إن كل ساعة تمر بى تثبت فى يقينى صدق ماقاله عملاق من أن الطبيعة تبعثر نعمها ذات اليمين وذات اليسار . فالأمور التى تذكى فى الإنسان الأمل وتحرك فيه الرغبة من شأنها أن يتلاشى بعضها كلما اقتربنا من سواه . وفى الحياة من متناقض الخيرات ما يجعل من المحال علينا أن نظفر بالنقيضين معا ، ولقد نسرف فى الحرص فنجد طريقنا بين النقيضين ، ولكن هذا الطريق الوسط لا يدنينا من أحدهما وهذه ثمرة الروية الطويلة أسوقها إليك وهى صادقة فى أكثر الأحايين : إن من يحاول أن يتجاوز حظ البشر خائب فى كل ما يسعى إليه . فلا تمن نفسك بانتهاب اللذات المتعارضة ، واختر لنفسك من النعم التى تعرض لك وارض بهذا المصير ، فما من أحد يستطيع أن يظفر بثمار الخريف وهو بعد ينشق من زهور الربيع ، وما من أحد يستطيع أن يملأ كأسه من منبع النيل ومن مصبه جميعاً » .

الفصل الثلاثون

عملاق يدخل ويغير مجرى الحديث

وهنا دخل عملاق وقاطعهما فقال الرأس إيلاس: « اسمع ياعملاق ، لقد كانت الأميرة تروى على منذ هنيهة مأساة الحياة الخاصة ، لقد أوشك اليأس أن يقعدنى عن متابعة البحث » .

فقال عملاق : « يخيل إلى أن سعيك لمعرفة الحياة السعيدة قد ألهاك عن الحياة ، فأنت تجوب أطراف مدينة واحدة ومهما بلغت هذه المدينة من الاتساع واختلاف الوجوه فهى لن تأتيك بجديد ، وإنك لتنسى أنك فى أمة اشتهرت بين أمم التاريخ الأول ببأس أبنائها وحكمتهم ، وإنك فى بلد تبلج فيه نور العلم قبل أن يتبلج فى سواه ، ومنه أضاء على العالمين ، بلد لا نعرف غيره مهداً للحضارة أو الفنون العملية .

« لقد خلّف قدماء المصريين تراثاً خالدا ينبئ بالقوة والمثابرة ، تراثا لا شك يتضاءل أمامه كل ما للأوربيين من مجد . فخرائب عمارتهم هى المدرسة التى يتعلم فيها البناة المحدثون ، وإننا لنرى ما أبقى عليه الزمن من آثار فنرجم بما قد عصف به ولو على وجه التقريب » .

قال الرأس إيلاس : « إن فضولى لا يدفعنى كثيراً إلى زيارة الأحجار المكدسة أو أكوام التراب ، فأنا أتقصى حال الإنسان . وما جئت هنا لأدرس بقايا المعابد أو لأختنق فى السراديب المعتمة، بل جئت لأستعرض وجوه الحياة الحديثة على اختلافها » .

قالت الأميرة : « إن شواهد الحاضر تستوجب التفاتنا ، وإنها لأهل لتلك الالتفات . فما شأنى بأطلال الماضى أو بأبطال التاريخ

نعم ، ما شأني بأزمان لن تعود وبأبطال عاشوا وماتوا في ظروف من الحياة تختلف عن ظروف حياتنا الراهنة ؟ »

فأجاب الشاعر قائلا : « لا سبيل إلى معرفة الأشياء إلا بدراسة آثارها ، ولا سبيل إلى فهم الإنسان إلا بالوقوف على أعماله ، وبذلك نعرف ما أملته العاطفة وما أوحى به العقل ، وبذلك نهتدى إلى أقوى الدوافع التي تحدد سلوك الإنسان . وإذا شئنا أن نحسن الحكم على الحاضر فلا بد من موازنته بالماضي ، فالحكم أيا كان نسبي ، والمستقبل لا سبيل إلى معرفته ، والواقع هو أن الناس لا يفكرون في الحاضر كثيراً ، لأن ذكريات الماضي وآمال المستقبل توشك أن تملأ كل فراغ في حياتنا ونحن نفرح ونحزن ، نحن نحب ونبغض ، نحن نأمل ونتوجس . أما الفرح والحزن فجذورهما في الماضي . وأما الأمل والتوجس فمصدرهما المستقبل حتى الحب والبغض من عمل الأمس لأن لكل معلول علة تسبقه .

« فالحاضر إذن ثمرة الماضي ، وطبيعي أن نبحث عن مصدر ما ننعم به من سعادة أو نشقى به من آلام . فإذا كان مسعانا لتيسير أمورنا الخاصة فليس من الحكمة تجاهل الماضي ، وإذا كنا أمناء على مصائر الغير فليس من العدل إهماله ، إن الجهل المقصود جريمة ومن يرفض أن يتعلم كيف يدفع الأذى لمسئول عن ذلك الأذى .

« ولم أر من وجوه التاريخ ما هو أمتع للنفس من تطور البشري ، ونمو العقل درجة درجة ، وتقدم العلم باطراد ، وتعاقب العرفان والجهالة على بني الإنسان ، فهما نور البشرية وظلامها ، انقراض الفنون وبعثها وثورات الفلاسفة ، وإذا كان الأمراء يهتمون بتاريخ المعارك والغزوات على وجه التخصيص ، فالواجب يقضي بالاهتمام بالفنون النافعة منها والجميلة على حد سواء ، فمن أوتوا الممالك ليحكموها أمناء على تنوير أذهان الرعية .

« والمثل العملي أفعل في النفس من كل تعليم نظري ، فالحر

مدرسة الجندى ، والرسام لا بد له من محاكاة صور الغير . وفى هذه الحدود أجد أن الحياة الفكرية لها السيادة على الحياة العملية . فالأعمال الباهرة قلما يراها الناس ، أما إنتاج الفن فهى متناول كل من يبغى الوقوف على إنتاج الفن » .

« وحين تقع العين على أثر ذى بال أو يستيقظ الخيال إلى عمل من الأعمال نادر يتجه العقل الناشط أولا إلى تفهم الطريقة التى تم بها قيام هذا الأثر ، أو إنجاز هذا العمل . وهنا تبدأ منفعة التفكير الحقيقية ، فنحن نوسع مداركنا بالأفكار الجديده ، ولقد ينجم عن ذلك أننا نهتدى إلى فن كان ثم ضاع ، ولقد نهتدى إلى إتمام مانقص من علم فى بلادنا . وأقل ما يمكن أن نصيبه من دراسة التاريخ أننا نقارن عصرنا بسالف العصور ، فنغتبط لما أدركنا من تقدم أو نتنبه إلى نقائصنا إن كانت بنا نقائص ، وهى الخطوة الأولى إلى الإصلاح » .

قال الأمير : « إنى على استعداد لرؤية كل ما يستحق الرؤية » .

قالت الأميرة : « وإنه ليسعدنى كذلك أن أتعلم عن عادات الأقدمين ما لم أكن أعلم » .

قال عملاق : « إن أفخم أثر من آثار المصريين وأدلها على عظمتهم هى الأهرام ، وهى أبنية من أضخم ما صنعته يد الإنسان شيدت قبل التاريخ ولا نعرف عنها إلا ماتوارثناه عن روايات الأولين ، وهو لا يرتقى إلى مرتبة العلم المحقق . وأكبر هذه الأهرام لا يزال قائماً لم تعد عليه يد زمن إلا قليلا » .

قالت نكاية : « فلنزر الأهرام غداً ، فقد سمعت بأمرها كثيراً لن يهدأ لى بال حتى أراها من الداخل ومن الخارج رؤية العين » .

الفصل الحادى والثلاثون

زيارة الأهرام

فلما استقر رأيهم على ذلك خرجوا فى اليوم التالى لزيارة الأهرام ، وحملوا جمالهم بالخيام فقد اعتزموا أن يقيموا بين الأهرام حتى يرتوى منها فضولهم . وسعوا فى رحلتهم الهوينا ، كلما استوقفتهم عجيبة وقفوا يستطلعون ، ومن حين لآخر تمهلوا ليتحدثوا مع الأهلين ، ولقد شاهدوا من المدن مختلفها ، فبعضها مخرب وبعضها عامر بالسكان ، ولقد شاهدوا من الطبيعة أخضرها ووحشيّها .

فلما بلغوا الهرم الأكبر راعهم ما رأوه من اتساع قاعدته ومن ارتفاع قمته . وقد شرح عملاق لهم كيف اختير الشكل الهرمى لهذا البناء الذى أراده أصحابه أن يثبت إلى آخر الزمان ، وأوضح لهم أن تدرجه فى الصغر هو آية رسوخه ، فهو الذى حماه من عوادى الطبيعة ، فالزلازل ذاتها وهى أكبر مخرب فى الطبيعة لا تستطيع تحطيمه ، ولو أن ضربة نزلت بالهرم فحطمته لتحطمت القاهرّة كلها أو أوشكت . وقاسوا أبعاد الهرم بعداً بعداً ، ثم ضربوا خيامهم عند سفحه . وفى اليوم التالى أعدوا العدة لولوج غرفه الخارجية ، وبعد أن استأجروا أحد الأدلاء صعدوا إلى المدخل الأول . وأطلت بيكوا صفية الأميرة فى الفجوة ثم تراجعت وهى ترتجف ، فسألتها الأميرة قائلة : « فيم خوفك يابيكوا ؟ » فأجابت السيدة : « لقد أخافنى المدخل الضيق وما رأيت من ظلام مرعب . إنى لا أجسر على دخول مكان لا ريب تسكنه الأرواح المضطربة . إن أصحاب هذه الأقباء الرهيبة لا شك ناهضون



أمامنا من رقدتهم الطويلة ، ولقد يسجنوننا معهم إلى أبد الآبدين .»
وفيما هي تتكلم تشبثت بجيد سيدتها .

قال الأمير : « إن كنت لا تخافين سوى الأشباح فأنا كفيل لك بالسلامة ، فالموتى لا ينزلون بأحد شرًّا ، ومن ووري قبره لا يخرج إلى عالم الأحياء » .

قال عملاق: « إن قولك ياسيدى الأمير بأن الموتى لا يخرجون إلى عالم الأحياء مناقض لما اتفقت عليه روايات الناس أجمعين فى كل أمة وفى كل زمان . فما من شعب إلا وعرف الأشباح وآمن بها ، تستوى فى ذلك الشعوب الناهضة والشعوب التى تعيش على الفطرة . ولولا صحة هذه الظاهرة لما آمن بها جميع النناس فى جميع أرجاء الأرض فيما نعلم . وهذه الشعوب المتباعدة لا يعرف بعضها البعض الآخر ، فاتفاقها فى هذا الرأى العجيب دليل على أنه وليد الاختبار ، فأمثال هذه العجائب لا تصدق إلا إذا أيدها الاختبار . وشك نفر من المكابرين المتفرقين لا يضعف ما للرأى العام من قوة ، ثم إن بعض من ينكرون وجود الأشباح بألسنتهم يرتجفون فرقاً إذا ما وطئوا منازلها .

« ولكنى لا أبغى بقولى هذا أن أضاعف مخاوف بيكوا . فليس فى الهرم ما يجعله مسكناً للأشباح أكثر من أى مكان آخر ، وليس فى أشباح الهرم ما يجعلها تسعى إلى إيذاء الأبرياء والأطهار أو ما يمكنها من ذلك . ودخولنا ليس فيه اعتداء على حرمتها ، فنحن لن نسلبها شيئاً مما لها ، فكيف إذن تغضبها زيارتنا ؟ » .

قالت الأميرة : « ياصديقتى بيكوا لا تجزعى . لسوف أتقدمك أنا فى السير ولسوف يمشى عملاق فى عقبيك ، وتذكرى أنك رفيقة الأميرة ، أميرة الحبشة » .

فأجابت السيدة : « لو أن سيدتى الأميرة ترغب فى موتى فلتختر لى ميتة غير هذه الميتة الشنيعة فأنا لا أحب أن أموت فى هذا الغار المرعب

ومولاتى تعلم أنى لا أعصى لها أمراً ، فإن أمرت بدخولى دخلت ، ولكن دخولى سوف يكون دخولا لا خروج بعده . . »

ورأت الأميرة أن جزع وصيفتها قوى لا يجدى معه عتاب أو تأنيب فعانقتها ، وأمرتها بأن تبقى فى الخيمة ريثما يعودوا . ولم ترض بيكوا بهذا الوضع فذهبت تضرع إلى الأميرة أن تعدل عن هذه الجولة الرهيبة فى مخابئ الهرم ، فأجابتها نكاية قائلة : « إذا عجزت عن أن أعلم غيرى الشجاعة فلا أقل من أن أصون شجاعتى . فكيف أعدل عما جئت لتحقيقه وما جئت إلا لتحقيقه ؟ »

الفصل الثانى والثلاثون

دخول الهرم

١

نزلت بيكوا إلى الخيمة ودخل الباقون الهرم . ومروا بالدهاليز وشاهدوا الأقباء الرخامية وتمعنوا فى التابوت الذى قيل إن بانى الهرم قد أودع فيه . ثم جلسوا فى حجرة كبرى ليستريحوا قليلا قبل أن يقدموا على العودة .

قال عملاق : « لقد نعمنا الآن برؤية أكبر أثر من آثار البشرية بعد سور الصين العظيم. أما ذلك السور العظيم فالدافع إلى بنائه واضح ، فهو الذى وقى أمة غنية مترفة تخشى غزوات البرابرة الذين زين لهم جهلهم بالفنون أن ينالوا بالسلب والنهب حاجاتهم التى أقعدهم ذلك الجهل عن نوالها ، فذهبوا من حين لآخر ينقضون على مواقع التجارة الآمنة انقضاض الطيور الجارحة على الطيور المستأنسة . وقد كان من وحشيتهم وسرعة غزوهم أن ظهرت الحاجة إلى بناء السور ، وقد كان من جهلهم أن ردهم على أعقابهم وحقق الأمن المرجو منه .

« أما الأهرام فلا نعرف سبباً وجيهاً جعل القدماء ينصبون هكذا فى بنائها ويتكبدون أضخم النفقات . فضيق حجراتها يدل على أنها لم تشيد لتكون ملجأ من الأعداء الظافرين ، والكنوز التى تحتويها الأهرام كان يمكن إخفاؤها بمثل هذا الإحكام دون حاجة إلى إنفاق هذه الأموال الطائلة كلها . ويخيل إلىّ أن بناء الأهرام قد تم ليرضى الخيال الذى يستبد بالحياة الإنسانية ويدفعها أبداً إلى عظائم الأمور . فمن أوتى كل ما يشتهى فى الحياة لا بد له أن يستنبط شهوات جدداً ،

ومن استوفى حاجته من العمائر النافعة لا بد أن يبنى ليرضى غروره فيمتد بخياله إلى أقصى ما تملكه قدرة البشر حتى لا يجد فى نفسه فراغاً لرغبة جديدة .

« ورأى أن هذا البناء الشامخ دليل على قصور أسباب السعادة بين بناته . فالملك الذى لا حد لسلطانه ولا حد لثرائه لا يجد سبيلا لإرضاء شهوته إلى المجد وإزالة ملله فى الحياة إلا ببناء مثل هذا الهرم ، فرؤية الآلاف المؤلفة من التعساء يكدحون بغير طائل ويضعون الحجر فوق الحجر لغير ما غاية يدفع عنه سأم الشيخوخة . فيا من تضيقون بالحياة المألوفة وتتوهمون السعادة فى جاه الملوك ، وتحسبون أن الترف والجبروت يشبعان نهم النفس إلى كل جديد إلى يوم الممات ، انظروا إلى الأهرام واعترفوا بسفاهتكم » .

الفصل الثالث والثلاثون

محنة لم تكن تنتظر

ثم نهضوا وعادوا مجتازين الفجوة التى دخلوا منها ، وكانت الأميرة قد أعدت لصفيتها قصة طويلة ترويها عما رأت من سراديب مظلمة وحجرات باذخة وعما تركته فى نفسها الآثار المختلفة التى شاهدتها فى طريقها . ولكن ما إن بلغوا خيامهم حتى وجدوا أتباعهم جميعاً فى صمت حزين . أما الرجال فقد بدا الخجل والخوف فى عيونهم وأما النساء فجلسن فى الخيام باكيات .

ولم يحاول أحد منهم أن يتكهن بما قد حدث بل سألوا الجمع لفورهم فأجاب أحدهم : « ما إن دخلتم الهرم حتى هاجمتنا جماعة من الأعراب فلم نستطع المقاومة لقوتهم ولم نستطع الفرار لأن هجومهم كان مباغتاً . ولقد أوشكوا أن ينهبوا خيامنا ويسوقونا أمامهم سوق القطعان على نوقنا ، ولكنهم أحسوا بمقدم نفر من الفرسان الأتراك فولوا الأدبار وقد سبوا السيدة بيكوا ووصيفتها والأتراك يطاردونهم فى هذه اللحظة ، وأنا أعتقد أنهم سيعجزون عن إدراكهم » .

وغلب الأميرة الحزن والعجب جميعاً . أما الرأس إيلاس فقد تملكته سورة الغضب فأمر أتباعه بأن يتبعوه واستعد لمطاردة اللصوص وقد جرد حسامه ، ولكن عملاقاً قال له : « لا نفع يا مولاى من العنف ولا من الإقدام . إن الأعراب يركبون جياداً مدربة على الكر والفر ، أما نحن فلا نملك إلا دواب تصلح لحمل الأثقال . ولو قد تركنا موضعنا لفقدنا الأميرة كذلك دون أن نسترد السيدة بيكوا » .

١٢٣

وبعد قليل عاد الأتراك بعد أن أفلت منهم اللصوص . فأنشأت الأميرة تندب من جديد وأوشك الرأس إيلاس أن يرميهم بالجبن ، ولكن عملاقاً قال إن فرار الأعراب لا يزيد من محنتهم ، فلربما قتل الأعراب أسيراتهم حتى لا يسلموهن .

الفصل الرابع والثلاثون

يعودون إلى القاهرة بغير بيكوا

لم يبق فى بقائهم نفع فعادوا إلى القاهرة نادمين على فضولهم ناحين بالملامة على الحكومة وإهمالها ، باكين تقصيرهم فى كراء حارس يحرس بيكوا عند دخولهم الهرم ، وذهبوا يعددون الوسائل التى ينبغى أن تتخذ لتجنب ذلك الحادث المشئوم ويؤكدون عزمهم على استرجاعها ولكنهم وقفوا عاجزين فما وجدوا إلى التصرف سبيلا .

واعتكفت نكاية بغرفتها وذهبت تابعاتها يعزينها عن فقد بيكوا قائلات إن لكى بشرى قدره وقضاؤه وإن السيدة بيكوا قد استوفت حقها من السعادة فى حياتها الماضية فليس غريباً أن يسوء حظها فى الحياة . وتمنت النسوة لبيكوا الخير أينما كانت وأينما رحلت كما تمنيين للأميرة أن تجد لنفسها صفية أخرى تملأ ما تركت بيكوا من فراغ .

ولم تجب الأميرة فمضين فى عبارات العزاء، ولكن حزنهن على فقدان صفية الأميرة لم يكن بالحزن الصادق .

وفى اليوم التالى قدم الأمير إلى الباشا مذكرة بالفاجعة التى نزلت به وملتمساً يرجو به رد الأمور إلى نصابها ، وقد وعد الباشا بمعاقبة اللصوص ولكنه لم يحرك ساكناً للقبض عليهم . وما أستطاع أحد أن يتقدم بأوصاف كافية تعين الشرطة على اقتفاء أثر الأعراب .

واتضح بعد قليل أن السلطات لارجاء فيها . فالحكام قد تعودوا أن يسمعوا بجرائم كثيرة لا قبل لهم بمعاقبة مرتكبيها وبأضرار عديدة لا قبل لهم بإزالتها عمن تنزل بهم ، فأصابهم تراخ وقعود وغدوا ينسون الشكايات

لحظة أن يخرج الشاكون من دواوينهم .

لذلك حاول عملاق أن يستأجر بعض العملاء ليتقصوا له الأنباء . وقد جاءه عدد منهم عظيم وكلهم يدعى المعرفة الصادقة بمواقع الأعراب الحقيقية ، ويزعم أن له برؤسائهم صلة منتظمة ويعد باسترجاع بيكوا . وقد زود بعضهم بنفقات الرحلة فانطلقوا ولم يعودوا ، وأجزل العطاء لبعضهم الآخر لقاء أنباء تبين بعد أيام أنها زائفة . ولكن الأميرة لم تترك سبيلا إلا سلكته ، مهما بدا قليل النفع . وكانت تحيا بالأمل ، فكلما خابت طريقة جربت سواها ، وكلما عاد رسول ومعه خيبة مسعاه أطلقت سواه إلى موقع جديد لتتبع الأعراب .

ومر شهران ، وبيكوا لايدرى أحد من شأنها شيئاً . وذوت الآمال التي كان كل منهم يذكيها في قلب صاحبه . ولما رأت الأميرة أنها قد استنفدت كل مافى جعبتها من وسائل البحث انتابها يأس قاتل ، وذهبت تلوم نفسها الليل والنهار على ماكان منها من تقصير حتى أذنت لبيكوا أن تتخلف عن الجماعة . وكانت تقول : « لولا أن حبى لها قد غلب سلطانى عليها لما جرؤت بيكوا على أن تتحدث عن مخاوفها . وقد كان ينبغى أن تخشانى بيكوا أكثر مما تخشى الأشباح . كان ينبغى أن تسكتها نظرة منى صارمة . كان ينبغى أن تصدع بأوامرى فوراً . كيف يغلب على هذا التساهل الأحمق ؟ كان ينبغى أن أتكلم وألا أسمح لها بالكلام » .

قال عملاق : « أيتها الأميرة العظيمة ، لاتأسى لسجاياك الحميدة ، ولا تلومى النفس على أمر وقع مصادفة . إن عطفك على مخاوف بيكوا كان عطفاً كريماً . إننا حين نلتزم حدود الواجب إنما نفوض إلى الله أمرنا وهو الذى يصرف بقوانينه شئوننا ، وحكمته لا ترضى لطائع أن يعاقب على طاعته فى النهاية . فإذا كسرنا القوانين الطبيعية أو الأخلاقية التى فرضت علينا طمعاً فى خير نجنيه فإننا بذلك نستغنى

عن الحكمة الإلهية ونتحمل نتائج فعالنا جميعاً . والإنسان لا يفهم إلى اليوم الصلة بين الحوادث وأسبابها حتى يجازف بعمل الشر ليحصد خيراً . أما اتباع الطريق المشروع فهو الذى يعوضنا عن خيبتنا بالجزاء الآجل ، فإذا لم نثق إلا بعقولنا وحاولنا اختصار الطريق إلى الخير بتخطى الحدود المعروفة القائمة بين الخير والشر شقينا ولو أصبنا النجاح ، لأن خروجنا عن الطريق السوى يطاردنا ، فإذا ما ساءت العقبى كانت خيبتنا أمر وأدهى . فما أتعس رجلا اصطلح عليه فى وقت واحد الإحساس بالخطيئة والإحساس بالمحنة التى أنزلتها به الخطيئة .

« فتدبرى يامولاتى الأميرة كيف كانت حالك تكون لو أن السيدة بيكوا رجت ملازمتك فأمرتها بالتخلف فاختطفها البدو ، أو تدبرى كيف كانت حالك تكون لو أنك أرغمتها على دخول الهرم فقضى عليها جزعها تحت بصرك » .

فقالت نكاية : « لو أن شيئاً من هذا حدث لما احتملت الحياة إلى اليوم ، ولعذبتنى الذكرى ، ذكرى قسوتى ، حتى ضاع صوابى ولأبغضت نفسى وذبل جسدى حتى الممات » .

قال عملاق : « لقد أحسنت التصرف وهذا هو الجزاء على أقل تقدير ، فما أتيت شيئاً تندمين على عواقبه » .

الفصل الخامس والثلاثون

فقدان بيكوا يضنى الأميرة

وهكذا هدأت نفس نكاية فعرفت أن كل الآلام تحتمل خلا ماترتب على الخطيئة ، فزال عنها حزنها العاصف الآكل وحل محله حزن رفيق تأملاته سوداء . وكانت تجلس طيلة النهار وتسترجع كل كلمة فاهت بها صديقتها بيكوا وكل عمل أتته ، وتجمع كل ما كانت بيكوا تحبه بعناية لا نظير لها ، حتى توافه الأشياء ، لعلها أن تذكرها بصاحبتها ، احتفظت فى ذاكرتها بكل ما كانت هذه الغائبة تقول أو تفعل ، وقدسته تقديساً كأنه من نواميس الحياة ، وكلما عرض لها أمر كان همها الأول والأخير أن تتدبر ما كان عساه أن يكون رأى بيكوا فى هذا الأمر العارض .

ولم تعلم النسوة اللائى يسهرن عليها عن حالها شيئاً ، لذلك كانت تتحدث إليهن بتحفظ وحذر . وقل فضولها وانصرفت عن الالتفات إلى ما يحدث فقد ارتاحت إلى الصمت ورغبت عن الكلام . أما الرأس إيلاس فقد حاول أن يسكن جراحها أولا ، ثم حاول أن يسرى عنها فاستأجر لها جماعة من الموسيقيين يعزفون فى حضرتها ، فتستمع إلى أنغامهم ولكنها لا تسمع شيئاً . وكذلك استقدم الرأس إيلاس لها نفراً من الأساتذة لتتلقى عليهم مختلف الفنون ، فكانت تنصت إلى محاضراتهم ولا تفهم منها شيئاً فيعيدون الشرح مرة بعد مرة . وفقدت نكاية كل لذة فى الحياة ، وضاع منها طموحها الأول . وكان ذهنها

ينصرف إلى شئون اليوم شيئاً قليلا ، ولكنه كان يعود أبداً إلى الصورة الجاثمة فى خلدها ، صورة صديقتها بيكوا .

وكانت كل صباح تستحث عملاقا للبحث عن بيكوا الضائعة ، فما إن يعود ليلا حتى كانت تستطلعه الأخبار . فلما وجد أنه لا يأتى لمولاته بجواب شاف قلت رغبته فى المثول بين يديها . ولاحظت الأميرة تخلفه فأمرته بالحضور ، ولما حضر أهابت به قائلة : « ما حسبتك تخطئ التقدير فتخال لهفتى غضباً أو تظن أنى أتهمك بالاهمال لأن خيبة مسعاك تحز فى نفسى حزاً . وأنا لا أعجب كثيراً لانصرافك عنى ، فأنا أعلم أن الناس يضيقون بالتعساء ويتجنبون عدوى البأساء . فالشكوى تضنى السعداء والبائسين على السواء . فمن ذا الذى يفسد لحظات الهناء التى تجود بها الحياة لنا وهى قليلة بأحزان الآخرين ؟ ومن ذا الذى يفتح صدره لآلام الغير وهو يرزح تحت عبء من أحزانه الخاصة ؟

« لن تزعج نكاية أحداً بأحزانها بعد اليوم ، فلقد انتهى بحثى عن السعادة ، ولقد وطنت النفس على اعتزال العالم ، عالم الغرور والأباطيل ، ولسوف أختفى فى عزلة كاملة ، ولا شأن لى إلا تهدئة خواطرى وإزجاء نهارى بساذج الأعمال ، حتى تتطهر نفسى جملة من كل ما يشتهيه الناس وأنتقل إلى الدار الأخرى التى يسعى إليها الأنام حثيثاً ، وهناك أرجو أن أنعم من جديد بصحبة بيكوا » .

قال عملاق : « لا تفسدى تفكيرك بقرارات لا تقبل العدول ولا تضاعفى حمل حياتك بهموم جديدة . فلسوف تنسين بيكوا وتبو آلام الوحدة ، وإن كنت قد فقدت من متع الحياة متعة فهذا لا يبرر انصرافك عن بقية المتع » .

قالت الأميرة : « لم تعد لى بعد بيكوا متعة تبقى أو متعة تضيع لقد فقدت من أحبها ومن أثق بها فأى أمل لى من بعدها ؟ إنى

أبحث عن السعادة الحقيقية ، فلنفرض أن زينة الحياة اجتماع المال والمعرفة والطهارة . أما المال فقيمته فى إعطائه للآخرين وكذلك قيمة المعرفة فى نقلها للغير ، فلمن أجزل المال ولمن أحمل المعرفة بعد أن فقدت صديقتى الوحيدة ؟ لم يبق لى إلا الطهارة وبها وحدها أستمد نعيمى بغير حاجة إلى رفيق ، وحياة الطهارة يمكن تحقيقها فى حياة الوحدة » .

فأجاب عملاق: « لن أجادل مولاتى الآن فى الوحدة وأثرها فى الطهارة ، وإنما أذكرها باعتراف الناسك الورع . لسوف تشتهين العودة إلى العالم بعد أن تنسى صاحبتك » . قالت نكاية: «وهذا لن يكون . فكلما عشت لأرى الرذيلة والحماقة تذكرت سجاياها الحميدة ، تذكرت صراحتها الفياضة وخضوعها الكريم وأمانتها على السر » .

قال عملاق : « إن العقل إذا دهمته نكبة مفاجئة ليشبه فى حاله حال الناس عند بدء الخليقة، فقد ورد فى الأساطير أن الليل الأول هبط عليهم فخالوا أن النهار لن يطلع من جديد . كذلك نحن ، تتجمع حولنا سحب الهم فتحجب عن أبصارنا ما وراءها ولا نرى إلى تفرقها سبيلا . ولكن النهار يعقب الليل والهم مهما استطال فمن بعده الراحة لاشك فيها . ومن يرفض أن يتعزى عن آلامه كان كأولئك المتوحشين الذين فقأوا عيونهم بمجيء الظلام. إن عقولنا كأجسامنا فى تغير متصل، وفى كل ساعة نخسر شيئا ونكسب شيئاً،وجسامة الخسران تؤذى العقل والبدن جميعاً ، ولكن الطبيعة كفيلة برد ما كان إذا كانت ينابيع الحياة لا تزال فياضة . والبعد له فى العقل ما له فى العين من أثر ،ومادمنا نطفو فى تيار الحياة فكل ما نتجاوزه يتضاءل وكل ما نشرف عليه يزداد حجماً فلاتجعلى نبع حياتك يأسن ، فلو قد ركد نبع حياتك لكثرت فيه الأوحال . اسبحى كما كنت تسبحين فى تيار الحياة . إن بيكوا سوف

تختفى من خيالك رويداً رويداً . ولسوف تلتقين فى طريقك بسيدة أخرى تصطفينها أو تتعلمين كيف تندمجين فى الناس جميعاً » .

وقال الأمير : « كل ما نطلبه إليك ألا تيأسى قبلما نستنفد جميع أسباب العزاء ، إن البحث عن السيدة المسكينة لا يزال جاريا ، ولسوف نأمر بتشديده إن وعدت بالتريث عاماً آخر قبل أن تتخذى القرار الأخير » .

ووجدت نكاية أن هذا الرأى يتفق مع العقل فوعدت أخاها بما طلب ، وما استخلص أخوها منها هذا الوعد إلا بناء على مشورة عملاق . ولم يكن لدى عملاق أى أمل صادق فى استرداد بيكوا ، ولكنه رأى أن الأميرة سوف تعدل عن فكرة الاعتزال لو عاشت فى المدينة عاماً آخر .

الفصل السادس والثلاثون

الأميرة لا تنسى بيكوا بل تتجدد أحزانها

لما رأت نكاية أن البحث عن صفيتها يدور قدر المستطاع وكانت قد عاهدت أخاها على تأجيل اعتكافها عاماً آخر ، انصرفت درجة درجة إلى شئون الدنيا ومسراتها المألوفة . وفرحت برغمها لانجلاء الغمة عنها ، وكانت تجد نفسها من حين لآخر منصرفة عن ذكراها أتم انصراف فتغضب لذلك ، فقد أزمعت الأميرة على ألا تنسى صديقتها الوحيدة فى الحياة .

ثم حددت لنفسها ساعة من ساعات اليوم معينة تتجه فيها بقلبها إلى بيكوا وتتذكر سجاياها الحميدة ، ولقد مرت بها أسابيع حقاً كانت إبانها تنزوى فى الوقت المحدد بانتظام ثم تعود كاسفة البال عليها آثار بكاء طويل . ولكنها أخذت تتحرر رويداً رويداً من هذا القيد ، فإن جد لها من الأمور أمر ذو بال أذنت له أن يصرفها عن نحيبها اليومى . ثم استسلمت لصغار الأمور كذلك ، وبدأت تنسى ما كانت تذكره على مضض منها ، وأخيراً تحررت نهائياً من واجبها فلم تعد تندب الغائبة كل يوم فى الساعة التى حددتها لذلك .

ولكن حبها الخالص لبيكوا لم ينقص بمرور الزمان ، فقد كان يذكرها بها ألف حادث وحادث ، وكلما احتاجت إلى أمر من الأمور التى لا يؤتمن عليها إلا الأصدقاء تجدد حزنها على بيكوا . لهذا رجت نكاية عملاقا ألا يقصر فى بحثه أى تقصير وأن يمضى فى تقصى أنباء صاحبتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا حتى تعلم بأن ما هى فيه

من عذاب لا يرجع إلى تكاسل أو إهمال . وكانت تقول : « ماذا نجني من بحثنا عن السعادة إذا كانت طبيعة الحياة تجعل من السعادة ذاتها علة الشقاء ؟ ولم نسعى إلى بلوغ شيء لا سبيل إلى استبقائه ؟ لن أنشد بعد اليوم حبًّا مهما كان صافياً أو كمالا مهما كان آسراً خشية أن أفقده فأفقد بفقدانه بيكوا من جديد » .

الفصل السابع والثلاثون

أنباء بيكوا تبلغ الأميرة

بعد سبعة شهور عاد رسول من الرسل الذين خرجوا للبحث عن بيكوا يوم وعدت الأميرة بالانتظار ، عاد من حدود النوبة بعد جولات كثيرة لا نفع فيها يقول إن بيكوا فى قبضة سيد من سادة الأعراب يملك قلعة أو حصنا عند تخوم مصر ، وإن ذلك السيد العربى الذى يعيش من النهب على استعداد لإعادتها مع خادمتها لقاء مائتى أوقية من الذهب .

ولم يناقش أحد مبلغ الفدية ، وانتاب الأميرة فرح لا مزيد عليه حين علمت بأن صفيتها لا تزال على قيد الحياة وأن فى المستطاع استردادها لقاء هذا القدر الزهيد من المال . ورأت ألا تضيع لحظة واحدة فى استعادة سعادة بيكوا وسعادتها معا فرجت أخاها فى أن يزود الرسول بالقدر المطلوب ويوفده من جديد . وحين استشير عملاق أبدى شكه فى صدق ما روى الراوى وأعلن ريبته فى وفاء السيد الأعرابى قائلا إن الثقة المطلقة به قد تؤدى إلى احتفاظه بالمال والرهائن جميعاً . كذلك قال إن من المجازفة أن يضع أحد نفسه فى قبضة الأعرابى بدخول حرمه كما أن خروج ذلك المغامر إلى بطن الوادى يجعله فى متناول قوات الباشا ، وعملاقاً لا ينتظر منه أن يفعل ذلك .

وقد جعل نقص الثقة عند الفريقين الوصول إلى اتفاق أمراً عسيراً . ولكن عملاق كلف الرسول بعد شىء من التروى أن يقترح على السيد العربى إرسال بيكوا بين عشرة من الفرسان إلى دير القديس أنطونيوس

بالوجه القبلى ، وهناك يستقبلها عشرة من فرسان الأمير يؤدون فديتها ويطلقون سراحها .

وكانوا يعتقدون بأن هذا الاقتراح سوف يقبل . ولذا بدءوا رحلتهم إلى الدير فوراً حتى لا يضيعوا أى وقت . وحين بلغوا الدير استأنف عملاق رحلته بصحبة الرسول إلى قلعة السيد العربى . ورغب الرأس إيلاس فى مرافقتهما ولكن أخته وعملاقاً لم يرضيا بذلك . وقد قام السيد العربى بواجبات الضيافة نحو الرجلين اللذين سعيا إلى مكمنه كما تقضى قوانين قومه ، وبعد أيام قلائل رحل بيكوا وخادمتها إلى المكان المحدد بطريق يعرفه لا يتعب الراحلين ، وهناك تسلم المال الذى اتفق عليه ورد بيكوا إلى حريتها ومن ثم إلى أصحابها ، ووعد أن يحرس الجمع إلى القاهرة بشخصه ليقيهم شر اللصوص وعدوانهم .

وتعانقت الأميرة وصفيتها عناقاً حاراً تعجز عن وصفه الألفاظ ، وخرجتا معاً إلى خلوة لتذرف كل ما معهما من دموع الشوق ولتتبادلا عبارات الود والشكران ، وبعد ساعات عادتا إلى حجرة الطعام فى الدير حيث سأل الأمير بيكوا أن تقص قصتها فى حضرة الرهبان ورئيسهم .

الفصل الثامن والثلاثون

مغامرات السيدة بيكوا

قالت بيكوا : « لقد دلك أتباعك أيها الأمير عن الوقت الذى اختطفت فيه وعن الطريقة التى اختطفت بها . وقد فاجأتنى الواقعة أول الأمر فلم أخف ولم أحزن بل تملكنى الذهول ، وزاد من اضطرابى ماكان من سرعة فرارهم بنا أمام الفرسان الأتراك وما كان من عجيج عظيم فى أثناء الفرار . وقد بدا أن الأتراك يئسوا من إدراكنا أو خافوا من اللحاق بمن كانوا يطاردون فعادوا قافلين .

« وحين ألفى الأعراب أنهم بمنجاة من كل خطر أبطأوا فى سيرهم ، ولم تكن تشغلنى مشاغلهم فبدأت أنزعج لما أنا فيه من حال . وبعد وقت ما بلغنا نبعاً وارف الأفياء فى أحد المراعى فوقفنا فترجلنا وجلسنا على الأرض وأعطينا من المرطبات ماكان سادتنا يتناولون . وقد أذنوا لى أن أنفرد بخادمتى بعيداً عن جماعتهم ، ولم يحاول أحد أن يطيب نفسى أو يسىء إلىّ بكلمة. وأخذت أحس بجسامة شقائى لأول مرة ، وجلست البنتان تبكيان فى صمت ، وترفعان إلىّ البصر من وقت لآخر تطلبان النجدة . ولم أكن أعلم عن مصيرنا شيئاً وما استطعت أن أرجم بمكان أسرنا أو أن أهتدى إلى شىء يبعث فينا الرجاء . لقد كنت فى قبضة فريق من اللصوص والمتوحشين فلم أطمع فى رحمتهم ولم أستبعد عليهم أن يعبثوا بنا ماشاءت لهم شهواتهم وما شاءت لهم قسوتهم . ولكنى برغم ذلك عانقت خادمتى وذهبت أهدئ من روعهما قائلة إننا لم نر من أحد بعد سوى حسن المعاملة وإننا فى أمن على حياتنا لأن الأعراب فى أمن على حياتهم .

« وحين طلب إلينا أن نعتلي جيادنا من جديد تشبثت بى الخادمتان وأبتا أن يحال بينى وبينهما ، ولكنى أمرتهما بأن يتنكبا عن كل مايغضب السادة الذين سقطنا فى قبضتهم . وهكذا رحلنا بقية اليوم فى أرض مهجورة لا مسالك فيها ثم بلغنا سفح تل فى الليلة القمراء ، وهناك حط القوم رحالهم وضربوا خيامهم وأوقدوا نارهم وحيا الأعراب رئيسنا تحية تفيض بالحب والإخلاص .

« ثم كان استقبالنا فى خيمة كبيرة حيث وجدنا بعض النسوة اللائى صحبن أزواجهن فى الغزوة . وقدمت النسوة إلينا ما أعددن من عشاء ، فأكلت تشجيعاً لخادمتى لا رغبة فى الأكل . وبعد أن رفعت الصحاف مدت البسط لنستريح . وكنت متعبة أرجو أن يخفف النوم آلامى فهذا شأنه مع البائسين . وأمرت خادمتى أن تنزعا عنى ملابسى وقد لاحظت أن النسوة يتأملننى باهتمام عظيم ، فما كن ينتظرن أن يرين ما أحاط به من خضوع . فلما نزعت سترتى بدت عليهن الدهشة واضحة لمارأينه من جمال ملابسى ، وقد مدت إحداهن يدها تلمس الوشى شبه خائفة ، ثم خرجت . وبعد قليل عادت برفقة امرأة أخرى لاح أنها أكبر منها مقاماً وأوسع سلطة ، وعند دخولها أدت التحية كما ينبغى أن تؤدى ثم تناولت يدى واقتادتنى إلى خيمة أصغر حجماً فرشت ببسط فاخرة نسبيا ، وفى هذه الخيمة قضيت ليلة هادئة ومن حولى خادمتاى .

« وفى الصباح كنت أجلس على الحشائش فجاءنى زعيم الأعراب فنهضت لاستقباله وانحنى هو باحترام عظيم . قال : أيتها السيدة العظيمة إن حظى قد تجاوز آمالى ، فقد أبلغتنى النسوة أن فى مضاربى أميرة من الأميرات ، فأجبت : لقد خدعت نسوتك أنفسهن ثم خدعنك ياسيدى ، فما أنا بالأميرة ، وإنما أنا غريبة شقية كنت أنوى الرحيل عن هذه البلاد سريعاً فإذا بى الآن سجينة فيها إلى الأبد . فأجاب الأعرابى : « أيا كان

شخصك وأيا كانت بلادك فثيابك وثياب خادمتيك تنبئ بأنك عالية المقام واسعة الثراء . فماذا يحملك على الظن بأن أسرك سوف يكون أبديا وأنت الغنية التى تملكين أداء فديتك دون أدنى مشقة ، إن غايتى من هذه الغزوات التى أقوم بها زيادة مالى أو بتعبير أدق جمع الجزية من الناس . إن أبناء إسماعيل هم سادة هذه المنطقة من القاهرة . هم سادتها الطبيعيون ،ورثتها الأصليون . وقد اغتصبها منا غزاة طغاة أرومتهم وضيعة ظهروا فى آخر الزمان ، ونحن ننتزع منهم بحد الحسام ما نعجز عن انتزاعه باسم العدالة ، ولا حيلة لنا فى ذلك . والحرب لا تميز بين الناس فالرمح الذى يرتفع فى وجه الغاصب الجبار يرتفع كذلك فى وجه الوادع البرىء » .

« قلت : ما كنت أتوقع بالأمس أن ينزل بى هذا .

« فأجاب الأعرابى : لا بد من انتظار المصائب فى كل لحظة . ولو أن المعتدين يفسحون فى قلوبهم مجالا للتجلة أو للشفقة لما أصابك مكروه لأنك امرأة فضلى . ولكن ملائكة الانتقام تنشر أجنحتها على الفضلاء وعلى البغاة ، على الأقوياء وعلى الضعفاء . ولا تبتئسى فلست من قطاع الطرق قساة القلوب الخارجين على القانون الذين يطوفون بمسالك الصحراء ناهبين سالبين . فأنا أعرف أصول الحياة المدنية وسوف أحدد مقدار فديتك وأزود رسولك بإذن مكتوب يمكنه من المرور فيحمل شروطى بما ينبغى من السرعة .

« فلا عجب إذن إن كان أدبه قد طاب لى ، ولما رأيت أن شهوته الأولى كانت للمال زالت عنى مخاوفى ، فقد كنت أعلم أنكم لن تضنوا بشىء لتحرير بيكوا . ولقد أجبته بأنى سوف أحفظ لك الجميل لو أنه أحسن معاملتى كما أنبأته بأنكم سوف تؤدون عنى أية فدية فى الحدود التى تتمشى مع وصيفة عادية مثلى ، فعليه ألا يصر على فدية

تفتدى بها الأميرات ، فقال إنه سوف يتدبر فى الأمر قبل تحديد الفدية ، ثم ابتسم وانحنى وانصرف .

« وبعد قليل اجتمعت حولى النسوة وتنافسن فى إظهار التجلة ، بل إن خادمتى قد أصابتا من احترامهن شيئاً كثيراً . وأوغلت جماعتنا فى الرحيل ولكن رحلاتنا كانت قصيرة . وفى اليوم الرابع أبلغنى السيد أن فديتى لا يمكن أن تقل عن مائتى أوقية من الذهب ، فأجبته بأنى سوف أنقده خمسين أوقية أخرى لو التزم حدود الشرف معى ومع خادمتى .

« ولم أكن أقدر من قبل قيمة الذهب . فمنذ ذلك اليوم غدوت سيدة الجمع فكنت أشير عليهم بما نقطع من أبعاد فيصدعوا بأمرى ، وكانوا يضربون خيامهم حيثما رغبت فى الراحة . وجىء لنا بإبل نرحل عليها بدل الخيل وساغ سفرنا لما أحاطونا به من أسباب الراحة . وكانت خادمتاى تلازمانى بلا انقطاع ، وذهبت أرفه عن نفسى بدراسة أحوال البدو الرحل وبمشاهدة الأطلال البائدة وقد خيل إلى أن عدداً عظيماً من هذه العمائر كان يزين وجه تلك البلاد المقفرة فيما سلف من العصور .

« وكان رئيس العصابة رجلا أبعد ما يكون عن الجهل ، فكان يجيد السفر مستهديا بمواقع النجوم أو بالبوصلة ، وقد درس فى أسفاره المتشعبة من الأماكن ما يستحق دراسة العابرين ، وذكر لى أن أكثر العمائر احتفاظاً بكيانها ما كان منها قليل الورود عسير البلوغ ، فحين تنهار أمة وينقرض مجدها الأول تكثر عوامل التخريب حيث يكثر مقام الأهلين ، عندئذ يستغنى الناس عن المحاجر بالجدران وتتآكل القصور والمعابد فتخرج من الخرائب مزاود الخيول ومن الصوان أكواخ الفقراء .

الفصل التاسع والثلاثون

بقية مغامرات بيكوا

« وهكذا تجولنا أسبوعاً بعد أسبوع ، وكان السيد يزعم أنه إنما يتجول على هذا المنوال للترفيه عني ، وإن كنت أظن أنه كان يتبع غرضاً في نفسه . وحاولت أن أبدي الغبطة حيث لا ينفع التجهم أو الغضب ولقد هدأ عقلي فعلا بهذه الرياضة ، ولكن قلبي كان مع نكاية دائماً وأربت هموم الليل على أفراح النهار . ولم يكن لخادمتيّ شغل غيري فلما رأتا ما أعامل به من إكبار هدأ بالهما ، ونسيت كل نفسها في أفراح اليوم العارضة التي تخفف من تعبنا فزال الحزن عنهما والقلق . وسعدت بسعادتهما وشجعني اطمئنانهما وهدأ روعي كثيراً حين تبين لي أن الأعرابي يذرع الصحراء طلباً للغنائم وحدها . إن الجشع رذيلة تتشابه في جميع أصحابها وهي رذيلة يسيرة الإرضاء ، أما الرذائل الذهنية الأخرى فتختلف باختلاف أصحابها ، فما يرضي غرور رجل ما قد يثير غرور رجل آخر . أما أهل الجشع فإرضاؤهم ميسور : إن زدتهم مالا لم يبخلوا عليك بشيء .

« وأخيراً بلغنا مسكن السيد ، وقد كان بيتا متين البنيان فسيح الجنبات شيد بالحجر على جزيرة من جزر النيل تقع كما ذكرت لكم عند مدار السرطان . وقال الأعرابي : وسوف تستريحين ياسيدتي من وعثاء السفر أسابيع قليلة في هذا المكان ، وأنت فيه الملكة المتوجة . إني أحترف القتال ، ولهذا اخترت هذا المسكن المنزوي ، فمنه أستطيع أن أخرج دون أن يعلم بي أحد وإليه أستطيع أن أعود دون أن أخشى المطاردين. فلتستريحي هنا في أمان ، وإذا كانت الدار قليلة المسرات فهي

كذلك بمنأى عن الأخطار ، ثم اقتادنى إلى الحجرات الداخلية وأجلسنى على أريكة من أنفس الأرائك ثم انحنى وانصرف . وكانت نساؤه يعتقدن أنى أنافسهن مكانتهن عنده فنظرن إلىّ نظرة ملؤها الحسد ، ولكنهن علمن بعد قليل أنى سيدة ذات قدر عظيم وأنى أسيرة ابتغاء الفدية فأخذن يتسابقن فى إرضائى وفى إظهار ولائهن .

« ولما تجددت أمامى العهود بإطلاق سراحى بعد فترة وجيزة ، انصرفت عن ضيقى بالتعرف على الدار الجديدة . وكانت لها أبراج تطل على الريف فيرى المشاهد مساحات منه واسعة ويشرف على منحنيات النهر وهى كثيرة ، وفى النهار كنت أنتقل من مكان إلى آخر ، فقد كانت الشمس فى تسيارها تجدد روعة المنظر وتكسوه بمختلف الألوان ، فرأيت مالم تره عينى من قبل . وكانت التماسيح وعجول البحر تكثر فى هذه المنطقة المقفرة ، وكنت أفزع لمرآها برغم علمى بأنها لا يمكن أن تنالنى بأذى . وقد أنبأنى عملاق بأن الأوربيين قد وضعوا فى النيل طائفة من حور الماء فكنت فى مبدأ الأمر أتوقع أن أراها ، فلما لم يظهر منها شىء سألت الأعرابى فضحك من سذاجتى البالغة .

« وكان الأعرابى يصطحبنى فى أثناء الليل إلى برج منفصل خصص لرصد النجوم وهناك حاول أن يعلمنى أسماء الأفلاك ويعرفنى بمسالكها . ولم أكن أكترث لهذا النوع من الدراسة ولكنى تكلفت بعض الاهتمام إرضاء لمعلمى الذى كان شديد الفخر بدرايته . وبعد قليل وجدت أن الملل يفتك بى ؛ فالحياة بين أشياء معددوة لا تتغير تولد السأم ، فأدركت أنه لا بد لى من عمل أقتل به الوقت . كنت أفتح الجفن فى الصباح فأرى ما أغمضت عليه الجفن فى المساء . لذلك رضيت بدراسة النجوم دفعاً للفراغ ، ولكن دراسة النجوم لم تطيب نفسى تماماً ، ويحسب غيرى أنى أقرأ صفحة السماء وما كنت إلا أفكر فى نكاية . وسرعان ماخرج الأعرابى فى غزوة أخرى ، فما بقى لى إلا أن أتحدث مع خادمتىّ عما كان

من أمر اختطافنا وأصور لهما سعادتنا المقبلة يوم نخرج من الأسر . »

قالت الأميرة : « فقد كان معك بعض النساء فى قلعة الأعرابى فلم لم تفتحى لهن صدرك فتنعمى بحديثهن وتلتمسى السلوى فيما يعرفن من أسباب السرور ؟ وكيف تقنعين بهذا الظلام الذى يملأ النفس صدأ حين كانت غيرك من النسوة يجدن سبيلا إلى العمل أو إلى السلوى ؟ إنهن يحتملن هذا المصير طول الحياة فكيف ضقت بهذه الشهور المعدودات ؟ »

فأجابت بيكوا : « إن النسوة يتلهين بالألعاب الصبيانية ، وعقلى الذى تعوّد التفكير كان لا يقنع بما يقنعن به . ولقد كان فى مقدورى أن أفعل كل ما كن يفعلنه بحواسى وحدها . أما خواطرى فكانت تطير إلى القاهرة . لقد كن يجرين من غرفة إلى أخرى كما يتنقل الطير من سلك إلى آخر داخل قفصه . لقد كن يرقصن لا حبًّا فى الرقص ولكن طلباً للحركة كما تتواثب الحملان فى المرعى . وقد كانت بعضهن يوهمن الأخريات بأنهن قد جرحن فى أثناء اللعب حتى تفزع الأخريات ، أو يختفين حتى تبحث عنهن الأخريات . وكن يتلهين أحياناً بتأمل الأجسام الطافية وهى تسبح على وجه النهر والغيوم التى تغير أشكالها كل لحظة فى كبد السماء .

« وكان شغلهن الأوحد أعمال الإبرة ، وقد كنت أعينهن عليه مع خادمتىّ أحياناً ولكن أناملى لم يكن لها على خواطرى سلطان . وكيف ينتظرن أن تشغلنى أزهار الحرير عن نكاية فى ذلك المنفى السحيق .

« أما حديثهن فلم يكن لى فيه غنى ، فما رأين شيئاً يتحدثن عنه ، وقد عشن فى هذه البقعة المحصورة منذ شبابهن الباكر . لقد كن يجهلن القراءة والكتابة فكيف يعرفن مالم يرينه ؟ إن معارفهن كانت محدودة بما يقع تحت حواسهن ، فما كن يتحدثن إلا عن ثيابهن وطعامهن ، ولما كنت أقوى منهن شخصية فقد كن يلجأن إلىّ كثيراً لحسم ما ينشب بينهن من منازعات ، فكنت أقضى بينهن بالعدل ما استطعت إلى ذلك

سبيلا . ولو أني استطبت ما كنت أسمع من شكاويهن لقضيت عامة نهاري فى تتبع رواياتهن الطويلة ، ولكن أسباب النزاع بينهن كانت من التفاهة بحيث جعلتني أضيق بكل قصة عند منتصفها » .

قال الرأس إيلاس : «لقد وصفت الأعرابي بأنه رجل فذ واسع المدارك فكيف كان يرتاح إلى حريم قوامه مثل هؤلاء النساء ؟ أهن بارعات الجمال ؟ » .

فقالت بيكوا : « نعم ، إن مثل هذا الجمال الحيواني التافه الذى قد نجده مجرداً من الخفة أو السمو أو الحيوية العقلية أو نبالة الطباع ، مثل هذا الجمال الحيواني قد توافر لهن . ولكن الأعرابي كان ولا شك ينظر إلى جمالهن نظره إلى أزهار البستان ، يقتطفها ثم يقذف بها جانباً . ولو أنه استملح فيهن شيئاً فإن ما استملحه ليس طيب المعشر أو أنس الصداقة . وقد كان ينظر إليهن فى إهمال المستعلى وهن يتلاعبن من حوله ، فإذا ما تسابقن إلى إرضائه كان يشيح عنهن بوجهه اشمئزازاً فى بعض الأحايين . وكان جهلهن يجعل من حديثهن لغواً لا يدفع شيئاً من سأم الحياة . وكان حبهن له أو تظاهرهن بالحب له لا يثير فى قلبه فخراً ولا امتناناً ، فقد كان حبا لا اختيار لهن فيه . كان يرى ابتساماتهن فلا يغتر بها ، فقد كان يعلم أن امرأة تبتسم لرجل لم تر غيره لا يقام لودها وزن . وكن يمطرنه بنظرات العطف فلا يكترث بها كثيراً ، فقد كان يجهل مدى إخلاصها ، وكثيراً ما كان يحس بأنها نظرات مغتصبة قصد بها إيلام المنافسات أكثر مما قصد بها إرضاؤه . وكل ما كان يعطيهن من حب وكل ما كن ينلنه من عطف لم يكن يتجاوز توزيع وقته الفائض بينهن ، وهو حب يستطيع الرجل أن يمنحه لامرأة يحتقرها ، وهو لا يثير رجاء أو إشفاقاً ولا يحرك الأفراح ولا الآلام.

قال عملاق : « إن لك أن تسري ياسيدتى بسرعة تحريرك ، فكيف رضى هذا الاعرابي المتشوف إلى المعرفة أن يعتقلك برغم ما يحيط به من

قحط فكرى وأنت صاحبة الحديث الذى لا يمل ؟ »

فأجابت بيكوا : « أعتقد أنه كان يتردد فى تسريحى زمناً ، فلقد كان برغم وعده كلما اقترحت عليه إيفاد رسول إلى القاهرة يلتمس المعاذير لتأجيل سفر الرسول . ولقد قام بجملة غزوات فى البلاد المجاورة فى أثناء مقامى ، ولو أنه عاد بما كان يأمل من غنائم لرفض على الأرجح إطلاق سراحى . وكان كل مرة يعود إلىّ بالغ الاحتشاد ويقص على أنباء مغامراته ويستمع إلى آرائى فى اغتباط شديد ويحاول أن يلقننى شيئاً جديداً فى أسرار النجوم . ولما ألحفت عليه أن يبعث برسائلى إليكم هدأ خاطرى بعهود الشرف والإخلاص ، فلما استنفد كل تسويف معقول خرج فى رجاله وتركنى أقضى فى داره فى أثناء غيبته . وقد أحزننى هذا التأجيل المقصود أشد الحزن ، وخفت أن تنسونى وترحلوا عن القاهرة بدونى فيكتب على أن أقضى ما بقى من عمرى فى جزيرة من جزر النيل . وأخيراً غلبنى اليأس وتكاثرت علىّ الهموم وانصرفت عن تسليته كما كنت أفعل فانصرف هو عنى إلى خادمتىّ . وكان أخشى ما أخشاه أن يتعلق قلب الرجل بى أو بهما على حد سواء ، فى هذا الطامة الكبرى ، وساءنى نمو الألفة بينه وبينهما أعظم إساءة . ولم يطل قلقى فقد عاد إلىّ بعد أن عاد إلىّ حبورى ، ولم أتمالك أن أحتقر نفسى لما ذهبت إليه من مخاوف .

« ولكنه دأب على التسويف فى طلب الفدية ، ولولا أن رسولكم قد اهتدى إلى مخبئه لما انتهى على الأرجح إلى قرار فى أمرى . وإذا كان لم يسع إلى الذهب فهو لم يرد الذهب حين سعى الذهب إليه . وعجل باعداد ركبنا تعجيل رجل محموم . واستأذنت من رفيقاتى فى الدار فودعننى بفتور شديد » .

ولما سمعت نكاية قصة صاحبتها نهضت وعانقتها ، وأعطاها الرأس إيلاس مائة أوقية من الذهب سلمتها إلى الأعرابى وما وعدته إلا بخمسين .

الفصل الأربعون

قصة عالم

وعادوا إلى القاهرة فرحين باجتماع شملهم حتى لقد لزموا دارهم واقتصدوا فى الخروج . ونبت فى الأمير حب المعرفة ، وقد صرح ذات يوم لعملاق أنه قرر أن يهب نفسه للعلم وأن يقضى ما بقى من أيامه معتزلا يدرس الأدب .

فأجاب عملاق قائلا : « ينبغى أن تلم بجميع النتائج قبل أن تقدم على اختيارك الأخير ، وهذا لا يكون إلا باستشارة رجل أفنى عمره فى حياة الاعتكاف . ولقد جئت الآن من مرصد يملكه فلكى من أوسع الفلكيين علماً فى جميع أقطار العالم ، وقد قضى هذا العالم أربعين عاماً يدرس حركات الأجرام السماوية وظواهرها دون أن يصيبه الكلال ، وقد أفنى نفسه فى عمليات حسابية مالها من نهاية . وهو يأذن لنفر من أصدقائه بإزعاج عزلته كل شهر ليطلعهم على نتائجه ويغتبط بما استكشف . وقد قدمونى إليه واصفين إياى بأنى من المثقفين الجديرين بصحبته . وأمثال هذا العالم ممن قضوا زمناً طويلا فى التخصص ويحسون بانقطاعهم عن تيار الحياة ليرحبون عادة بأهل الأفكار الغنية والحديث الطلى وقد أعجبته ملاحظاتى ، وحين قصصت عليه قصة أسفارى ابتسم لما سمع ونسى أفلاكه عن طيب خاطر وهبط إلى الأرض ليحيا بيننا لحظة أو لحظتين .

« وفى العطلة التالية عدته من جديد ، وسرنى ارتياحه إلى حديثى ، وقد خفف من تشدده معى فأذن لى أن أعوده فى أى وقت أشاء . وقد

وجدته فى شغل متصل ولكنه كان يرحب بكل راحة تأتيه على يدى . وكان كلانا شديد الرغبة فى الإلمام بعلم صاحبه، وهكذا تبادلنا الأفكار فى سرورعظيم ، وقد رأيت أنى أظفر بثقته كل يوم أكثر من سالفه ، كما أن إعجابى بتعمق تفكيره كان يتجدد مع الأيام . أما إدراكه فواسع ، وأما ذاكرته فواعية حافظة ، وأما حديثه فمرتب ، وأما عبارته فواضحة .

« ونزاهة هذا العالم وكرم أخلاقه لا يقلان عن علمه الغزير . فهو يعطل بحوثه مهما دقت ودراسته مهما كانت عزيزة عليه إذا سنحت له فرصة لفعل الخير ،إن بالإرشاد وإن بالعون المادى،وهو يفتح داره ويجود بأثمن أوقاته لكل من لجأ إليه سائلا معونته .وهو فى ذلك يقول : « إنى وإن كنت أضن على نفسى بالفراغ وأحرمها من أسباب السرور إلا أنى لا أغلق بابى فى وجه سائل يطلب الإحسان . إن الدراسة حق من حقوق البشر ولكن ممارسة الفضيلة واجب عليهم لزام » .

قالت الأميرة : « لا شك أن هذا الرجل قد وجد السعادة » .

أجاب عملاق : « لقد كثر ترددى عليه فازداد كلفى بحديثه : وجدت فيه السمو بغير غطرسة والأدب بغير تكلف والرغبة فى التعبير عن آرائه بغير تفاخر . وقد كنت فى مبدأ الأمر أرى رأيك أيتها الأميرة العظيمة : كنت أحسبه أسعد أهل الأرض طرًّا ، وكثيراً ما هنأته على مانال من نعيم، فكان يبدو علية فتور عظيم لم أتعوده منه ويجيب بكلمات غامضة ثم يغير موضوع الحديث .

« وسرعان ما أحسست بأن عاطفة أليمة تفتك بقلبه فتكاً برغم رغبته فى إرضاء الآخرين ورضاه بحديثهم . وكثيراً ما كان يرفع بصره بلهفة إلى الشمس ثم ينهدج صوته فى أثناء الحديث ، وكثيراً ما كان يحملق فى

صامتاً ونحن منفردان وتبدو عليه الرغبة فى الإفصاح عن شىء يضطرب فى صدره ويريد أن يكبته كبتاً ، وكثيراً ما كان يرسل فى طلبى ويرجونى رجاء حارًا أن أخف إليه ، فإن أقبلت عليه لم أجد فى كلامه شيئاً ذا بال ، وحين كنت أنصرف كان يستوقفنى ويتردد لحظات ثم يصرفنى من جديد ».

الفصل الحادى والأربعون

الفلكي يكشف عن سر اضطرابه

« وأخيرا خرج عن تحفظه وأفضى إلىّ بسره ، فقد كنا نجلس معاً فى برج مرصده نرقب ظهور تابع من توابع جوبتر . واكفهر وجه السماء فجأة فقد هبت عاصفة وأفسدت علينا المشاهدة . وجلسنا بعض الوقت صامتين فى الظلام ثم خاطبنى قائلا : لقد أحسست ياعملاق بأن صداقتنا هى أثمن ما فى حياتى . إن النزاهة لا نفع فيها ولا قوة لها إذا لم تقترن بالمعرفة ، كذلك المعرفة خطرة ومؤذية إلا إذا اقترنت بالنزاهة ولقد وجدت فيك كل مايستوجب الثقة لما لمست فيك صفاء الطبيعة واكتمال الاختبار والقدرة على احتمال الخطوب. أما أنا فأؤدى واجبى منذ أمد طويل ولا بد أن تخلى الطبيعة من هذا الواجب قريباً ، ويسعدنى أن أنبيك عنى فى أدائه حين تحل أيام محنتى وأعود إلى طفولتى الثانية .

« ولقد شرفنى رأيه هذا فىّ فأجبت على مقاله بأن كل ما يسعده يسعدنى أنا كذلك .

« فقال : اسمع ياعملاق هذه القصة العجيبة ولسوف يصعب عليك تصديقها . منذ خمس سنوات وأنا أتحكم فى أحوال الجو وأحدد تعاقب الفصول ، وكانت الشمس تصدع بأمرى فتنتقل من مدار إلى مدار بإشارة منى ، والسحب تتفتق وتريق على الأرض ماءها بإذن منى . والنيل يفيض تحقيقاً لمشيئتى ، ولقد كبحت جماح الشعرى وقلت للسرطان اهدأ فهدأ . كل ما فى الطبيعة خضع لسلطانى ماخلا الريح ، ولكم هلك الناس كلما

فاجأتهم زعازع الاعتدالين . وكنت أقف أمام هذه الزعازع عاجزاً لا حيلة لى فى ردها أو ضبطها . ولقد كنت أؤدى هذه الأمانة بعدل تام وخصصت لكل قطر من أقطار الأرض نصيبه من المطر وضوء الشمس ولو أنى جمعت الغيوم فى مناطق معينة، أو حبست قرص الشمس فى نصف واحد من كرتنا الأرضية لغدا نصف العالم فى شقاء عظيم » .

الفصل الثانى والأربعون

الفلكي يفسر مقاله ويبرره

«وأعتقد أنه قرأ فى وجهى أمارات العجب والشك برغم ظلام الحجرة ، فقد سكت قليلا ثم مضى فى حديثه قائلا : إن شكك فى صدق ما أقول لا يدهشنى ولا يغضبنى ، فلعلى أول بشرى أؤتمن على هذه الأسرار ، ثم إنى لست أدرى إن كان ما أصبت من معرفة لا نظير لها عقاباً أو ثواباً ، فمنذ أن أوتيت هذا العلم وسعادتى قد نقصت حتى أوشكت أن تزول ، ولم يعد ما يخفى على هذه اليقظة المتصلة إلا إحساسى بأنى قد وقفت حياتى على فعل الخير .

« قلت : ومتى جاءتك هذه الرسالة العظيمة ياسيدى ؟

« قال منذ عشر سنوات أو نحوها انتهى بى تأملى لتغيرات السماء إلى التفكير فى الخيرات التى يمكن أن أضيفها إلى البشر لو أن لى سلطاناً على الفصول .

« وتأصلت فى رأسى الفكرة فقضيت الأيام والليالى أتوهم نفسى سيداً على عناصر الطبيعة أسكب الغيث على هذا الصعيد أو ذاك ، وأجعل الشمس تشرق بعد ما تريق السحب ماءها فأحيل الجدب إلى خصب عميم . وكنت لا أملك إلا حسن المقصد ، ولكنى ما حسبت قط أن هذه القوة سوف تكون لى .

« وجاء يوم كنت فيه أتطلع إلى الحقول تتلفها حرارة الشمس ، فامتلكت نفسى رغبة مفاجئة فى أن أستمطر الغيث على جبال الجنوب وأجعل النيل يفيض . ولم أتدبر فى لهفتى ما أنا مقبل عليه فأمرت الأمطار

أن تهطل وسرعان ما فاض النيل فعلمت أن الأمطار قد استجابت لندائى » .

« قلت : ألا يجوز أن عاملا آخر قد سبب هذا التوافق ؟ إن فيضان النيل نتيجة لأمطار قديمة .

« قال بصبر نافد : لا تحسبن أن أمثال هذه الاعتراضات قد فاتت علىّ فلطالما جادلت نفسى برغم اقتناعى وتشككت فى الحقيقة بعناد شديد ـ ولقد ذهبت إلى الظن أحياناً بأنى مخبول وما كنت لأجرؤ على الإفضاء بهذا الأمر إلا لرجل مثلك ، قدير على التمييز بين ما هو محال وما هو عجيب ، بين ما هو كاذب وما هو بعيد على التصديق » .

وقلت : مادمت تعتقد ياسيدى بأن ما تقوله صحيح فلم تنعته بأنه بعيد على التصديق . »

«قال : لأنى لا أستطيع إثباته بالأدلة الظاهرية ، وأنا العليم بوسائل الإثبات وأعرف أن رأيى لن يقنع أحداً سواى إلا إذا كان يحس بحرارة إيمانى . لذلك لن أثير من حولى لجاجاً لإثبات رأيى أمام الناس ويكفينى أنى أحس بوجود هذه القوة فى نفسى ويكفينى أنى أباشرها كل يوم . ولكن الأجل قصير وأوصاب الشيخوخة تتكاثر علىّ ، ولسوف أعود ، أنا منظم الفصول ، إلى التراب . ولقد اشتغل بالى منذ أمد طويل بمن يخلفنى فى عملى هذا ، فكنت دائم التفكير فى الليل والنهار أوازن بين صفات من أعرفهم من الناس فلم أجد أحداً فى مثل كفايتك » .

الفصل الثالث والأربعون

« فاسمع إذاً ما سأدلى به إليك واستوعبه استيعاباً كاملا فخير العالم متوقف عليه . إننا نصف عمل الملك بأنه عمل شاق برغم أنه لا يحكم إلا ملايين معدودات من البشر ولا يملك لرعاياه نفعاً كثيراً أو ضرًّا كثيراً، فما أشق عملى أنا المتحكم فى عناصر الطبيعة سيد الضوء والحرارة جميعاً، وهى أعظم الهبات . اصغ إذن جيداً لما أقول .

« لقد درست موضع الأرض والشمس دراسة وافية ، ووضعت لكل منهما ألف ألف تصميم تبدل به مكانهما ، فكنت أزحزح محور الأرض أحياناً وكنت أغير المدار الإهليلجى الذى تسبح الشمس فيه ، ولكنى لم أنته من كل ذلك إلى وضع ينفع الأرض أكثر من وضعها الحالى . فقد كانت بعض البقاع تنتفع على حساب غيرها مهما أدخلت من تعديلات ، برغم تجاهلى للأجزاء النائية التى لا نعرف عنها شيئاً من المجموعة الشمسية . فلا يدفعنك الغرور إذن إلى استحداث شىء فى هذا النظام ولا تحسبن أن مقدورك الظفر بالخلود لو غيرت فصول العام . فكل ما تجنيه من ذلك شروبيل وذكرى غير عاطرة . كذلك لا يليق بك أن تخضع لعاطفتك أو مصلحتك ، فلا تحرم البلاد الأخرى أمطارها لتغدق الأمطار على بلادك . إنما نجد فى النيل كفايتنا » .

« ووعدت صاحبى بأن أستخدم هذه السلطة يوم تؤول إلى بنزاهة لا يرقى إليها الشك . فقال : لقد أرحت الآن بالى وطمأنت فؤادى ولن يقبض مضجعى بعد الآن رغبتى فى عمل الخير . لقد عثرت برجل من أهل الحكمة والفضيلة ، أهبه راضياً ميراث الشمس » .

وسمع الأمير هذه القصة بجد كامل ، أما الأميرة فقد ابتسمت ،

وامتلكت نكاية نوبة من الضحك تشبه التشنج ، فقال عملاق :
« ليس من الكرم ولا من الحكمة أن نسخر من هذه المصيبة . وهى كبرى المصائب التى يمكن أن تنزل بالإنسان . فقليل من الناس قد بلغوا ما بلغه هذا الرجل من العلم ، وقليل من الناس لهم ماله من نفس خيرة ، ولكن ما من أحد يأمن تماماً شر هذه المحنة التى نزلت به . إن حياتنا الراهنة يكتنفها القلق من كل جانب وأفظع مصدر لهذه المخاوف هو اختلال عقل الإنسان » .

وهدأت نفس الأميرة وخجلت وصيفتها ، أما الرأس إيلاس فقد ازداد تأثره وسأل عملاقاً عن الجنون ومنشئه ومدى انتشاره بين الناس .

الفصل الرابع والأربعون

أضرار الإسراف فى الخيال

أجاب عملاق : « إن اختلال العقل بصوره المختلفة أكثر انتشاراً بين الناس مما يتوهم قصار الرأى . ولو أننا توخينا الدقة التامة فى التعبير لقلنا إنه ما من عقل فى العالم بأسره كامل الاتزان . أجل ، ما من إنسان لا يسيطر خياله على حجاه فى بعض الأحايين ، وما من إنسان يستطيع أن يوجه انتباهه بما يرضى إرادته وحدها ويتحكم فى أفكاره تحكماً مطلقاً فيسيرها حسب مشيئته . ما من إنسان لا تستبد به من حين إلى آخر أوهام جوفاء فيتمنى من الأمانى مستحيلها أو يستسلم إلى مخاوف ليس ما يبررها . وكل تسلط للخيال فى العقل درجة من درجات الجنون . ولكن هذا التسلط لا يلحظه أحد فينا ما أمكننا أن نضبطه ونوقفه عند حده ، فلا نجد بين الناس من يصفنا بالخبل وهو لا يعد جنوناً واضحاً إلا إذا استفحل فأثر فى كلامنا وفعالنا .

« والاستسلام لسلطان الوهم وإطلاق العنان للخيال ملهاة يتلهى بها كثيراً أولئك الذين يرتاحون أكثر مما ينبغى إلى التأمل الصامت . فحين تنفرد بأنفسنا قد لا نجد ما نعمله ، وعناء التفكير المجدى فى شئون الدنيا يثقل على النفس ، ومشقة البحث والاستقصاء تنتهى إلى حالة من الخمول أو الاكتفاء . فمن لم يجد فى العالم الخارجى ما يشغله لا محالة يطلب لذته فى أفكاره الخاصة ، ويتوهم فى نفسه ولنفسه ما ليس فيها أولها . فليس منا من هو راض بحاله قانع بواقعه ، وعندئذ ترونه يسبح فى محيط المستقبل وهو مترام بلا نهاية وينتقى من مفاتن الدنيا كل ما يشتهيه

فى ساعته ويركبه الغرور فيتوهم لنفسه سلطاناً لا سبيل له إلى بلوغه ، وهكذا ينتقل خياله من مسرح إلى مسرح مؤلفاً بين لذات الدنيا على كل وجه ممكن ، معربداً فى مجالى السعادة ، وهى سعادة تعجز عن تحقيقها كنوز الأرض وطبيعة الأشياء مهما سخت .

« وبعضى الوقت تتركز فى الذهن فكرة معينة ، وينصرف الذهن عن كل ما عداها ، وهكذا يعود الذهن دائماً إلى هذه الفكرة المختارة كلما أضنته الحياة أو كلما تعطل عن العمل ، وهكذا يحيا الذهن على الأكاذيب البراقة كلما صدمه الواقع المرير ، وهكذا يتوطد سلطان الوهم درجة درجة فيسطر على العقل ثم يستبد به . فإذا تم ذلك توهم المخبول الخيال حقيقة وامتلكت رأسه الآراء الزائفة وقضى حياته فى أحلام السعادة أو فى تباريح الشقاء .

« وهذه يا سيدى بعض أخطار الوحدة ، وقد اعترف الناسك بأن الوحدة لا تفضى دواماً إلى الخير ، أما محنة الفلكى فتثبت أن الوحدة قد تكون وبالا على التفكير السديد » .

قالت بيكوا: « لقد كنت أتخيل نفسى ملكة على الحبشة ، ولسوف أكف عن هذا التخيل . فلطالما بددت الساعات التى كنت أفرغ فيها إلى نفسى بإذن من سيدتى الأميرة ، أحلم فيها بالحفلات وأنظم شئون البلاط ، فكنت أسحق كبرياء المتغطرسين وأجيب مطالب المساكين ، وكنت أبنى القصور الجديدة فى مواقع أكثر بشراً وأروع جمالا من مواقع القصور التى نعرفها ، وكنت أستنبت الأحراش فى أعالى الجبال وأنعم طويلا بعز الملوك حتى لقد كنت أوشك أن أنحنى تحية للأميرة كلما دخلت » .

وقالت الأميرة : « وأنا لم أعد أتخيل أنى راعية من راعيات الغنم كما تعودت أن أفعل فى أحلام اليقظة . لطالما هدأت نفسى إلى حياة الرعاة الطاهرة الساكنة ، حتى لقد كنت من فرط الاستسلام لهذا الحلم

الجميل أتوهم الريح تصفر فى حجرتى والأنعام تثغو . وكنت أنا أرى الحمل مشتبكاً فى أغصان الغابة فأطلق سراحه ، وكنت آنا ألتى الذئب بعكازى . ولى ثوب من ثياب الفلاحات كنت أرتديه ليستكمل خيالى عدته ، ولى ناى كنت أعزف عليه النغم الحنون واهمة أن القطعان فى أعقابى » .

قال الأمير : «أما أنا فقد كان خيالى يستسلم لحلم ذهبى أشد خطراً من كل هذه الأحلام . فقد كنت أسعى دواماً إلى تصور الحكومة الكاملة التى تضع حداً لكل الشرور وتصلح كل الرذائل وتضمن لجميع رعاياها العيش الآمن الطاهر . وقد استولدت هذه الفكرة فى رأسى عدداً لا حصر له من المشروعات والقوانين والأوامر التى ترمى كلها إلى الإصلاح الاجتماعى . أجل ، كنت أتلهى بكل هذا فى وحدتى أحياناً أو أكد فيه وأنصب كلما واتانى الفراغ ، ولا أفيق منه إلا حين أذكر أنى بذلك أتمنى إموت أبى وإخوتى » .

فقال عملاق : « إن هذه طبيعة الخيال ومشروعاته : فحين نبدأ هذه المشروعات نكون على علم باستحالتها ، ثم يألفها الذهن درجة درجة حتى تخفى علينا حماقتها » .

الفصل الخامس والأربعون

الجماعة تتحدث إلى شيخ هرم

وكان المساء قد أدركهم منذ زمن فنهضوا للأوبة إلى دارهم . وفيما هم يسيرون بحذاء النيل وينعمون بمرأى القمر إذ يترجرج نوره على سطح المياه ، أبصروا على بعد قليل شيخاً هرماً كان الأمير يستمع إلى حديثه كثيراً فى مجمع الحكماء . قال الأمير : « ذاك رجل كبحت الشيخوخة شهواته ، ولكنها لم تعبث بعقله ، فلنختم أبحاث اليوم بسؤاله عما يراه فى حاله ، فنعلم إن كان الشباب دون سواه هو عهد الأمل ونقف على ما بقى لنا من أمل فى بقية العمر » .

وهنا تقدم إليهم الشيخ وحياهم ، فدعوه إلى المسير معهم وتحدثوا إليه تافه الحديث كما يفعل الصحاب إذا التقوا على غير موعد . وكان الشيخ فى حال رضية ميالا إلى الكلام ، فهونت صحبته الطريق على الجماعة وسره ما لقى من عناية فسار معهم حتى بيتهم . ودعاه الأمير إلى الدخول فدخل . وأجلسوه فى مكان الصدارة وقدموا إليه النبيذ والأطعمة المحفوظة .

قالت الأميرة : « لابد أن نزهة المساء قد عادت عليك يا سيدى وأنت العالم الجليل بمتعة لا نعرفها نحن الشباب الذين لم نصب من العلم شيئاً فأنت تعرف كل شىء عما ترى ، تعرف عن النهر أسرار فيضانه وتعرف دورات الكواكب ، فكل شىء يدعوك إلى التأمل ويجدد إحساسك بمكانتك » .

فأجاب : « إن الشباب القوى المرح يجد فى النزهة المتعة أما الشيخوخة فحسبها من الحياة أن تجد الهدوء . إن الدنيا قد فقدت جدتها

فى نظرى ، وأنا الآن أتلفت حولى لأرى ما كنت أراه فى صباى الطرير . وأتكئ على شجرة لأستريح ، فأذكر كيف أنى ذات يوم كنت أقف فى ظل هذه الشجرة عينها أجادل صاحباً من أصحابى يرقد الآن تحت الثرى فى فيضان النيل . وأرفع عينى إلى السماء وأشخص ببصرى نحو القمر المتغير فأذكر الحياة وتقلباتها وفى نفسى غصة موجعة . إنى لم أعد أستطيب متع العالم المادى ، فأى صلة عادت تربطنى بهذه الدار التى سوف أرحل عنها قريباً ؟ » .

قال عملاق : « أقل ما بقى لك هو لذة الذكرى ، ذكرى حياتك الشريفة النافعة ، فانعم بهذه الذكرى وانعم بالثناء الذى يكيله لك كل عارفيك »

قال الحكيم متنهداً : « إن الثناء عند الشيوخ كلام أجوف . فمالى أم تزهو بصيت ولدها ومالى زوجة تشاركنى هذا المقام الرفيع . لقد امتد بى الآجل فدفنت خلانى وأعدائى على السواء ، ولم يعد فى حياتى شىء ذوبال ، فجميع آمالى قد ارتدت إلى ، إن الشباب ليرضى بالثناء لأن الثناء مقدمة لخير آجل ، والمستقبل أمام الشباب ممدود . أما أنا فقد شخت حتى الوهن ، ومن شاخ حتى الوهن لم يخفه لوم الناس ولم يرج من عطفهم أوتقديرهم شيئاً . ولقد يستطيعون النوال منى ، ولكنهم لن يستطيعوا نفعى بشىء فالمال لم تعد له قيمة ، ورفعة المقام تتمنى أكثر مما تسعد . إن استعراض الماضى يذكرنى بفرص ذهبية عديدة أهملتها ، وبالوقت الذى أضعته على التوافه وهو كثير ، وبساعات الفراغ والخمول وهى أكثر ، وهأنذا أقترب من حافة القبر ولما أبدأ بعد مشاريعى الجسام أو أتم منها ما قد بدأت . وإنى لم أسئ إساءة كبرى تقض مضجعى ولذا أطمع فى الهدوء ، وإنى لأتجنب الآمال والأمانى التى يتعلق بها قلبى بعد هذه السنين الطوال برغم أن عقلى يرى بطلانها . وأنا الآن أنتظر اللحظة التى أستوفى فيها أجلى راضى النفس صافى الضمير ، وأرجو أن

أصيب فى حياتى الثانية تلك السعادة التى فاتنى أن أصيبها فى هذه الحياة وأن أبلغ الفضيلة التى وقفت هنا ببابها ولم ألج » .

ثم نهض وانصرف تاركاً خلفه سحابة من اليأس خيمت على سامعيه فزهدتهم فى الحياة المديدة. وجلا الأمير الغمة بقوله إن حديث الشيخ لا يحزن ، فما زعم أحد أن الشيخوخة عصر السعادة . فإذا كانت الطمأنينة من نصيب الشيخوخة فلعل السعادة من نصيب الشباب ، عهد القوة والنشاط ، وإذا كان مساء الحياة هادئاً ساجياً فظهرها ناصع الضياء .

وقالت الأميرة إن الشيوخ لئام يضيقون بكل شيء وراقها أن تفجع الصغار فى آمالهم . فلقد رأت المالكين يحسدون ورثتهم على ما سيئول إليهم من نعم ، ولقد رأت من العجائز من لا ينعمون بلذة من اللذات إذا شاطرهم إياها سواهم .

ورأت بيكوا أن الشيخ لابد أن يكون أكبر سناً مما يلوح ، ونسبت شكاته إلى الكآبة والهذيان ، أو إلى سوء حظه فى الحياة قائلة : « ما أيسر أن يتوهم كل إنسان أن الحياة عامة صورة من حياته الخاصة » .

ولم يشأ عملاق أن يفسد عليهم الجو فابتسم لما سمعه من الآراء التى أخذ كل منهم يعزى نفسه بها ويعزى الآخرين ، وذكر أنه كان فى مثل عمرهم واثقاً من السعادة وثوقهم ملتمساً مثلهم ما شاء من أسباب العزاء . فتجنب أن يقحم عليهم تجاربه الأليمة تاركاً ذلك للزمن وهو لا يمهل . وانسحبت الأميرة ووصيفتها وقد اشتعل خيالهما بترهات الفلكى المخبول ، فرغبتا فى سؤال عملاق أن يتعلم فنه ويؤجل بزوغ الشمس فى الصباح التالى .

الفصل السادس والأربعون

الأميرة وبيكوا تزوران الفلكى

بعد أن تحدثت الأميرة وبيكوا على انفراد عن الفلكى الذى تكلم عنه عملاق استقر رأيهما على زيارته ، فقد بدا لهما شخصية جذابة غريبة ينبغى أن تمتحن عن قرب . ثم سألتا عملاقاً أن يدبر بينهما اللقاء المنشود .

ولم يكن هذا بالأمر اليسير ، فالفلكى لم يأذن لامرأة بدخول داره طول حياته برغم أنه كان يعيش فى مدينة يقيم فيها كثير من الأوربيين الذين يتبعون عادات بلادهم كما يقيم فيها نزلاء جاءوها من جميع بقاع الأرض وأخذوا عن الأوربيين حريتهم . ولكن السيدتين لم تقنعا بالهزيمة وذهبتا تضعان الخطط المختلفة لتنفيذ مأربهما . وقد كان من هذه الخطط أن يقدما إلى الحكيم بوصفهما غريبتين فى محنة ترجوان الغوث ، والحكيم لم يوصد بابه قط فى وجه ملهوف . ولكن الجماعة نزلت عن هذه الخطة بعد شىء من التروى ، فقد وجدت أن حيلة كهذه لا تتيح لهما مخالطة الفلكى ولا تجيز لهما الإلحاف فى السؤال . قال الرأس إيلاس : « كل هذا صحيح ، ولكن عندى على استخفائكما اعتراضاً أقوى من ذلك ، لقد كان رأيى الثابت أن الاستفادة من سذاجة الناس مهما كان الدافع إليها جبن وتلويث لاشك فيه للطبيعة الإنسانية . إن الغش بجميع درجاته وأنواعه يهدم الثقة ويطفئ سراج الخير . وحين يتبين الحكيم حقيقتكما أسوف يغضب غضبة رجل عظيم الذكاء أدرك أن من دونه ذكاء قد غرروا به . ولقد يودى ذلك إلى الأبد بثقته فى الناس

فيقبض عنهم نصحه وهو غال ويمنع عنهم جوده وهو سخى . ومن أين لنا بعد هذا بما يرد إليه طمأنينة نفسه أو إيمانه بالناس ؟ »

ولم يجب أحد على هذا بشيء ، وأنشأ عملاق يعلل نفسه بأن فضول السيدتين سوف يخمد ، ولكن السيدة بيكوا جاءته فى اليوم التالى تقول له إنها اهتدت إلى عذر شريف يبديانه للفلكى حين زيارته ، فهى تحب أن ترجوه فى أن يأذن لها بإتمام الدراسة التى بدأتها بإشراف العربى ، وللأميرة أن تصحبها باعتبارها زميلة فى الطلب أو باعتبارها صاحبة تحرس خطاها ، فالنساء الفاضلات لا يخرجن من دورهن فرادى . قال عملاق : « أعتقد أنه سيمل صحبتكما سريعاً ، فمن كان مثله غزير العلم لا يحب أن يعيد ما قاله بالأمس فى مبادئ العلم ، وإنى لأشك فى مقدرتك على التحصيل ، مهما أسف الحكيم إلى المبادئ الأولى ، فلسوف يمزج شرحه بتأملاته الخاصة ، ولسوف يضيف إلى تفسيراته ماتيسر له من استنتاجات » . فأجابت بيكوا : « هذا شأنى أنا ، وكل ما أطلبه منك أن تمضى بى إليه فلقد يتجاوز علمى كل ما تتوهم ، ولسوف أؤمن على كل رأى يبديه فيتوهم أن علمى أوسع مما هو فى الواقع » .

ولتحقيق هذا الرأى قيل للفلكى إن سيدة أجنبية تسافر طلباً للمعرفة قد بلغها صيته فسعت إليه لتتلمذ عليه . وقد عجب لهذا الاقتراح وثار فضوله ، وبعد ترو قليل أذن لها بالقدوم ، وانتظرها بصبر نافد حتى الصباح التالى .

وارتدت السيدتان أفخر ما تملكان من ثياب وقادهما إلى الفلكى عملاق ، وسر الفلكى أن يجد نفسه موضع احترام تلكما السيدتين العظيمتين . وقد بدا عليه الانكماش والحياء حين كانوا يتبادلون عبارات الترحيب ، ولكنه استرجع هدوءه لما انتظم الحديث . وسأل بيكوا عما دفعها إلى دراسة الفلك ، فقصت عليه قصة مغامرتها قرب الهرم وما كان من مقامها فى جزيرة الأعرابى . وكانت بيكوا تروى روايتها فى يسر

ورشاقة حتى امتلك حديثها على الحكيم حواسه . ثم دار الحديث حول الفلك فبسطت بيكوا أمام الحكيم علمها ، فتوسم الحكيم فيها النبوغ ورجاها أن تتم ما قد بدأت من دراسة بعد أن أصابت كل هذا التوفيق .

وتجددت الزيارات فما صادفوا إلا الترحيب المطرد . وحاول الحكيم أن يدخل السرور على أفئدتهم حتى يطول مكثهم ، فقد كان يجد أن صحبتهم تشحذ عقله وتثير جنانه . وزالت عنه غمة الوحشة درجة درجة فقد تولى الترفيه عن أضيافه برغم قصوره فى هذا الباب ، وكان يحزن كلما غادروه ويضيق بحساباته الفلكية .

وكانت الأميرة وصفيتها أشد ما تكونان التفاتاً إلى كل كلمة يتفوه بها الحكيم ، ومضت بضعة شهور على هذه الحال ولكنهما لم يظفرا منه بنطق ما يدل على إيمانه بقدرته الخارقة على تنظيم الفصول . وقد اجتهدتا كثيراً أن تستخلصا منه قولا صريحاً فى هذا الصدد ، ولكنه كان يتخلص كل مرة من هذا الإحراج بمهارة وينتقل بالحديث إلى موضوع آخر .

ولما اشتد ما بينهم من ود دعته السيدتان إلى دار عملاق حيث أحيط الحكيم بمظاهر التجلة التى لا نظير لها . وبدأت ملذات هذا العالم تجذبه شيئاً فشيئاً ، فكان يبكر فى الحضور ولا يبرح الدار إلا متأخراً ، وسعى جهده أن يحييهم فى محضره بالمواظبة وإجابة رغباتهم ، وأن يثير فضولهم للمعرفة الجديدة حتى يحسوا بحاجتهم إلى معونته ، وقد كان يرجوهم أن يقبلوه فى معيتهم كلما خرجوا فى نزهة أو رياضة .

وبعد هذا الاختبار الطويل لحكمته وأمانته انتهى الأمير وأخته إلى ائتمان جانبه وقد أطلعاه على حقيقة حالهما مخافة أن يخدعه أدبهما فيطمع فى العطاء ، وشرحا له مقصدهما من الأسفار وسألاه النصح فى تخير « الحياة السعيدة » .

قال الحكيم : « الحياة تعرض عليكما وجوهها وليس فى وسعى أن أدلكما على أسعد هذه الوجوه . وكل ما أستطيع أن أقوله هو أنى قد أسأت

الاختيار . فلقد أنفقت عمرى فى الدراسة ففاتنى الاختبار ، وما درست من العلوم إلا أقلها نفعاً لبنى الإنسان . أجل ، لقد كان الثمن الذى اشتريت به المعرفة نزولى عن سائر أسباب الراحة فى الحياة ، فضاعت منى صحبة النساء وهى جميلة وضاع منى حنان الأسرة وهو من أسرار السعادة . ولقد كان امتيازى على سواى من العلماء امتيازاً يلابسه الخوف والقلق والحرص الشديد . ولقد بدأت أشك فى قيمة هذا الامتياز ذاته منذ أن ازداد احتكاكى بالدنيا فتفتحت نفسى للحياة واتسعت أفكارى . وكلما مرت بى أيام أنعم فيها بلذة الحياة خيل إلى أن دراستى قد انتهت بالضلال وإنى قد شقيت دهرى دون ما جدوى » .

وسر عملاقاً أن يرى الغشاوة تسقط عن بصر الحكيم والغيوم تنقشع عن بصيرته ، . واعتزم أن يبعده ما أمكن عن أجرامه السماوية لعله ينسى ما ذهب إليه من إخضاعها لإرادته ، فيسترد بذلك رشده ويثوب إلى صوابه .

ومنذ ذلك اليوم غدا الفلكى صفياً من أصفيائهم ، وشاركهم لهوهم وجدهم ، فكان احترامه لهم يحمله على الالتفات إلى كل ما يقولون وكان نشاط الرأس إيلابس يملأ كل فراغه . وهكذا ازدحمت أيامهم : فالنهار يقضى فى اختبارات تزود الليل بمادة الحديث ، أما الليل فينتهى بمشروع جديد للنهار .

واعترف الحكيم لعملاق بأن اعتقاده بسيطرته على الأفلاك قد أخذ يتلاشى من ذهنه درجة درجة منذ أن اتصل بجماعتهم المرحة وأخذ يوزع ساعاته بين أسباب السرور ، وشهد له بأنه قد بدأ ينزل عن نظريته التى عجز عن إثباتها للآخرين ، فهو يراها تتبدل كل يوم دون ما سبب معقول . قال : « ولو انفردت بنفسى ساعات قليلات امتلكنى هذا الاعتقاد الراسخ وتسلطت على نفسى قوة لا قبل لى بها ، فما إن يتحدث إلى الأمير أو تدخل على بيكوا حتى أتحرر من هذا الاعتقاد وتنطلق

نفسي من هذه الأغلال . وإن مثلي لمثل رجل يخشى الأشباح كلما رآها ، وتطمئن نفسه إن جاءه مصباح ويعجب للمخاوف التي نهشته وسط الظلام ، فإذا ما انطفأ مصباحه عادت إليه مخاوفه من جديد وهو يعلم أنها سوف تتبدد مع النور . غير أني أخشى من حين لآخر أن ينتهي بي حب الهدوء إلى إهمال عملي ، وهو جريمة نكراء ، وأن أنسى الرسالة الجليلة التي كلفتني المقادير بأدائها في الحياة . فلو أني حابيت نفسي في مثل هذا الخطأ الشائع أو زينت لي الراحة أن أنفض يدي من هذا الأمر الخطير الذي لم يتبين بعد صوابه من ضلاله فلن أغفر لنفسي هذا الجرم ما حييت » .

فأجاب عملاق قائلا : « ليس بين أمراض الخيال ما استعصى على العلاج كمخافة الخطيئة ، فالوهم والضمير يصطلحان عندئذ علينا ويختلطان في نفوسنا فلا نعود نميز بين هواجس الوهم وأوامر الضمير . والخيال قد يهيئ لنا أشياء تتنافى مع الدين أو مع الأخلاق فلا يجد الذهن عسراً في طردها من نفوسنا ، أما إذا تقمصت الأفكار السوداء صورة الواجب فهي تنشب مخالبها في النفس دون أن تجد ما يردها فنحن نخاف أن نتخلص منها . لهذا نجد أن المستسلمين للخرافات أكثرهم من أصحاب الأفكار السوداء ، كما نجد أن أكثر أصحاب الأفكار السوداء يؤمنون بالخرافات .

« ولكن لا تدع هذه المخاوف تصرع تفكيرك الرشيد : فإهمالك رسالتك لا يزيد احتمالا عن قيامك بواجبك ، ولو قد نظرت إلى واجبك نظرة مجردة من كل قيد لوجدت أن هذا الواجب في ذاته ضئيل ، وأن هذا الواجب على ضآلته يتضاءل يوماً بعد يوم . فافتح إذن فؤادك للنور الذي يشرق عليه من حين لآخر . فإن عذبك نداء ضميرك وأنت تعلم في لحظات صحوك التام أنه نداء زائف ، لا تضيع وقتك في الجدل ، بل بادر إلى العمل واطلب صحبة بيكوا ولا تنس قط أنك لا تتجاوز أن

تكون ذرة تافهة فى محيط الإنسانية الكبير ، وأنك لم تزود بفضيلة من الفضائل الكبرى حتى تختصك السماء برضاها ولا برذيلة من الرذائل الكبرى حتى تنفرد بغضب السماء » .

الفصل السابع والأربعون

الأمير يدخل ويغير موضوع الحديث

قال الفلكي : « ما أكثر ما تدبرت كل ما تقول . ولكن عقلي قد استعبدته زمناً طويلا فكرة جبارة لا سبيل إلى ردها حتى غدا قليل الإيمان بما يصل إليه من نتائج . وإني لأرى الآن كيف أفسدت سلام حياتي حين استسلمت في دخيلة نفسي للترهات . ولكن الأفكار السوداء تجعل صاحبها يخشى أن يصارح الغير بها ، وما وجدت قبلك رجلا أستطيع أن أسر إليه أوجاعي برغم أني كنت واثقاً من أن التنفيس يزيل غمي ويرفع كدري . وإني لسعيد بأن أجد في رأيك ما يدعم رأيي ، وأنت الحصيف الذي لا يسهل خداعه ، وأنت الأمين الذي لا يجد مبرراً لخداعي ، وآمل أن يبدد الزمن والحياة المتجددة هذه الكآبة التي اكتنفتني فأقضي بقية عمري في سلام » .

فقال عملاق : « إن سعة علمك وكرم نفسك لخليقان بأن يحققا لك هذا الرجاء » .

وعندئذ دخل عليهما الرأس إيلاس ومعه الأميرة وبيكوا ، وسألهما عما أعداه من جديد لمتعة الغد .

وقالت نكاية : « هذه شيمة الحياة ، فما من أحد يجد السعادة إلا في انتظار الجديد . والتغيير في ذاته لا قيمة له ، فحين يتحقق لنا التغيير نطلب تغييراً جديداً . إننا لم نستنفد كل ما في الدنيا من وجوه جديدة فلنبحث غداً عن شيء لم أره من قبل » .

قال الرأس إيلاس : « إن السعادة لا تكون بغير التغير ، فالوادي

السعيد ذاته قد عافته نفسي لأن نعيمه كان رتيب الصور : ولكني لم أستطع أن أمسك عن تأنيب نفسي حين رأيت رهبان القديس أنطونيوس صابرين يتحملون الحياة الشاقة الرتيبة الصعاب لا الحياة اللينة الرتيبة اللذات » .

فأجاب عملاق قائلا : « إن أولئك الرهبان أقل تعساً فى ديرهم الهادئ من أمراء الحبشة فى سجن السعادة . فالراهب يعمل ما يعمل مدفوعاً بعوامل كافية ومسوغات معقولة . وكدهم يأتيهم بضروريات الحياة ولابد أن يحسب حسابه ، وهو لاشك يؤتى ثمره ، وتهجدهم يعد نفوسهم للعالم الآخر ويذكرهم بقرب مجيئه ، أما وقتهم فوزع توزيعاً منظماً،والواجب فى أعقابه واجب، فهم لايتعرضون لملل الفراغ أو لملل الخمول . إنما لكل وقت عمله ، وهم يكدحون راضين لأنهم يرون فى كدحهم مظهراً من مظاهر الورع يقربهم بأطراد من السعادة الأبدية » .

قالت نكاية : « أو تعتقد أن نظام الرهبانية أقرب إلى الكمال أو أقل نقصاً من أى نظام آخر ؟ ألا يأمل فى النعيم من خالط الناس واندمج فيهم فأغاث ملهوفهم بإحسانه وعلم جاهلهم ببيانه وساهم بجهده فى بناء الحياة ، وإن لم يعذب نفسه على غرار الرهبان ، وإن أقبل على برئ اللذائذ التى تضعها الحياة فى طريقه ؟ »

فأجاب عملاق: « إن هذه المسألة قد اختلف فيها الحكماء وحار فيها أهل الخير منذ القدم ، فكيف أقطع فيها الآن برأى؟ إن من يحيا حياة صالحة بين الناس لخير ممن يحيا حياة صالحة بين جدران الدير . ولكن لعل بعض الناس لايقوون على مقاومة الغوايات فى الحياة الاجتماعية ومن لم يستطع أن ينتصر على الغواية فله أن يتراجع أمامها . فمن الناس من كانت قدرتهم على فعل الخير وقدرتهم على مقاومة الشر ضئيلة محدودة . ومن الناس من أعياهم صراعهم مع الشدائد فأحبوا

أن يتخلصوا من مصدر شقائهم ، ومن الناس من أقعدتهم الشيخوخة أو أقعدهم المرض عن العمل المضنى الذى يقتضيه المجتمع من أبنائه . وفى الدير يعتصم العجزة والجازعون من الحياة ، وفى الدير يرتاح المتعبون ويفرغ الخطاة إلى التأمل فى توبتهم . وإن فى هذه المعتكفات التى يتجرد فيها الإنسان للعبادة والتأمل راحة للعقل أى راحة ، ونحن لا نكاد نجد رجلا واحداً لا يتمنى أن يقضى بقية أيامه فى التجرد والتقوى بين نفر من أصحابه يشبهونه فى التجرد والتقوى » .

قالت بيكوا : « إن هذه لأمنيتى فى الحياة ، ولقد سمعت الأميرة تقول إنها تكره أن تموت بين الناس » .

ومضى عملاق فى حديثه قائلا : « إن حق الإنسان فى اللذات البريئة لا جدال فيه، ولكننا لا نعرف بعد أى اللذات برىء وأيها خبيث. والشر الذى يصاحب أى لذة تتصورها نكاية ليس فى اللذة ذاتها ولكن فى عواقبها . فاللذة فى ذاتها بريئة ولكنها قد تعود علينا بالأذى إذا حببت إلينا العرض الزائل وصرفتنا عن التفكير فى الأبدية التى نقترب من بدايتها ساعة بعد ساعة ولا يستنفدها مر الأيام وانطواء العصور . وتعذيب النفس ليس فى ذاته فضيلة ، ولا نفع فيه سوى أنه يصرفنا عن مغريات الحواس . أما الحالة المثلى التى سنصير إليها فى قابل الأيام ونتطلع إليها جميعاً منذ الآن ففيها اللذة منزهة عن الأخطار وفيها الأمن الذى لا يكلف أحداً كدًّا ولا كدحاً » .

وسكتت الأميرة . والتفت الرأس إيلاس إلى الفلكى وسأله إن كان يستطيع أن يؤجل اعتكافها بصور جديدة من العالم يعرضها عليها .

فأجاب الحكيم قائلا : « لقد كان حبكم للاستطلاع قوياً ورغبتكم فى المعرفة شاملة فلم تتركوا من صور الحياة إلا قليلا . ولكن ما تضن به الحياة قد يجود به الموت . فمن عجائب هذه البلاد مقابرها ، وهى

سراديب وضعت فيها أجداث الأولين وحفظها التحنيط بالعقاقير من البلى ورد عنها العفاء » .

قال الرأس إيلاس : « أنا لا أفهم كيف تكون زيارة المقابر مبعثاً للسرور ، ولكنى قد عزمت على رؤيتها لأنى لا أجد ما أراه سواها ، ولسوف أضيف هذا العمل إلى الأعمال الكثيرة التى أتيتها دفعاً للفراغ ليس إلا » .

واستأجرت جماعتهم نفراً من الفرسان للحراسة : وخرجت فى اليوم التالى إلى المقابر . وحين هموا بالنزول فى كهوف الموتى قالت الأميرة : « أى بيكوا ، ها نحن أولاء نؤم منازل الموتى للمرة الثانية ، وأنا أعلم أنك سوف تتخلفين : فأرجو أن أجدك سالمة حين أعود إليك » .
فأجابت بيكوا : « بل سوف أنزل معكما القبر وليكن موضعى بينك وبين الأمير ، فلن أتخلف هنا بمفردى » .

وهبطوا جميعاً وتجولوا فى السراديب التى تضل فيها خطى الزائرين حيث نام الموتى مصففين على الجانبين .

الفصل الثامن والأربعون

عملاق يتحدث عن طبيعة الروح

قال الأمير : « وماذا دفع المصريين إلى أن يتكبدوا كل هذه النفقات ليحفظوا أجداثهم من البلى ، على حين نجد أقواماً تحرق الجثمان وأقواماً تضع الجثمان فى التراب ليختلط الجثمان بالتراب ، وقد أجمع الجميع على التخلص من موتاهم بعد أن تجرى لهم طقوس الموت الكافية مباشرة ؟ »

قال عملاق : « إن منشأ العادات القديمة لا علم لأحد به ، وكثيراً ما تدوم العادة بعد اختفاء الداعى الذى سببها . أما المراسم الخرافية فلا جدوى من التفكير فى أصولها ، لأنها ليست من عمل العقل ، وما لم يخلقه العقل لا يستطيع العقل أن يفسره وقد كان رأيى الثابت أن عادة التحنيط تنشأ من وفاء الناس لأجداث الأهل والأصحاب ، وما زلت عند رأيى هذا ، ويؤيدنى فيه أن مثل هذه العادة لا يمكن أن تكون عادة شائعة ، فلو أن كل من ماتوا حنطوا لتجاوزت مساكن الموتى مساكن الأحياء . وأعتقد أن سراة الناس وأماجدهم قد حفظوا دون سواهم من العفاء ، أما سائر الناس فقد تركوا للطبيعة تجرى فيهم مجراها .

« ولكن الرأى الشائع هو أن المصريين كانوا يعتقدون بأن الروح تعيش ما عاش الجسد ولذا فقد ابتكروا هذه الطريقة ليتجنبوا الموت » .

قالت نكاية : « كيف استطاع المصريون أن يتوهموا هذه الأوهام الساذجة عن الروح ؟ فلو أن الروح استطاعت أن تعيش بمفردها بعد انفصالها عن الجسم فماذا تستفيد الروح من الجسم وماذا تخشى منه ؟ ».

وقال الحكيم: « لم يكن بد أن يضل المصريون فى تفكيرهم أيام كانوا فى ظلام الوثنية وفى فجر الفلسفة . وإن طبيعة الروح لا تزال موضع بحث الباحثين برغم كل ما لدينا من فرص المعرفة الدقيقة ، وإن من الناس من يقول إن الروح قد تكون مادية الجوهر ومع ذلك فهو ينسب لها الخلود » .

فأجاب عملاق قائلا : « حقاً إن بين الناس من يرى أن الروح من مادة ، ولكن لا أعتقد أن بين أصحاب هذا الرأى واحداً من أصحاب الفهم والمنطق . فجميع دلائل العقل تؤكد أن الذهن مجرد من المادة وجميع دلائل الحس وأبحاث العلم تتفق فى إثبات خلو المادة من الوعى » .

« فما من أحد يرى أن التفكير خاصة من خواص المادة ، أو أن كل دقيقة من دقائق المادة كائن مفكر . ومع ذلك لو جردنا كل جزء من أجزاء المادة من التفكير ، فأى جزء من أجزاء المادة يمكن أن ننسب له التفكير الذى نرى فى الحياة . إن المادة لا تختلف عن المادة إلا فى الشكل وفى الكثافة وفى الحجم وفى الحركة وفى اتجاه الحركة ، فبأى هذه الخصائص نستطيع أن نربط الوعى سواء فرادى أو مجتمعات . فالشكل المستدير والشكل المربع والصلابة والسيولة والضخامة والضآلة ، وبطء الحركة وسرعتها فى هذا الاتجاه أو فى ذاك ، كل هذه حالات للوجود المادى كلها بعيدة عن طبيعة التفكير ، وهى بعيدة عنه بعداً متساوياً . فإذا كانت المادة خلواً من التفكير ، فلا سبيل إلى التفكير إلا إذا دخل عليها تحول جديد ، ولكن كل تحول يمكن أن يدخل على المادة لا صلة بينه وبين قوة التفكير » .

قال الفلكى : « ولكن الماديين يحتجون بأن المادة قد تكون لها خواص لا علم لنا بها » .

فأجاب عملاق : « ليس من عقلاء الناس من يقطع بفساد ما يعلم لمحض احتمال وجود ما لا يعلم ، ويرجح الإمكانية المفترضة على الثابت

المقرر ، فكل ما نعرفه عن المادة أنها خاملة، لا حس فيها ولا حياة . فإذا لم نجد مفنداً لهذا الرأى فى المادة إلا إمكان وجود شىء ، لا نعلمه ، فقد اجتمع لنا كل ما يقنع المنطق الإنسانى . فلو أن ما لا نعلم ينسخ فى أذهاننا ذلك الذى نعلم لما وصل كائن إلى اليقين إلا الكائن الأعلى الذى تناول علمه كل شىء » .

قال الفلكى : « ولكن فى هذا حداً وقحا لقدرة الخالق ، فلنتجنبه »

قال الشاعر : « نحن لا نحد قدرة الخالق التى تتناول كل شىء إذ نقول إن الشىء مناقض لغيره أو أن القضية الواحدة لا يمكن أن تكون صحيحة وكاذبة فى وقت واحد ، أو أن العدد الواحد لا يمكن أن يكون فردياً وزوجياً معاً ، أو أن التفكير لا يمكن أن ينسب إلى شىء عاجز عن التفكير بحكم تكوينه » .

قالت تكاية : « أنا لا أرى جدوى للبحث فى هذا الموضوع ، لقد أثبت لنا بما يكفى تجرد الروح من كل مادة من حيث تكوينها ، فهل لا مادية الروح هذه تتضمن بالضرورة مبدأ الخلود ؟ »

أجاب عملاق : « إن علمنا باللامادية علم سالب كله ، وهو لهذا غامض . ولكن يبدو أن اللامادية تتضمن القدرة الطبيعية على البقاء الأبدى ، لأن اللامادية معفاة من جميع أسباب الانحلال والفناء . فكل ما يفنى بانحلال الأجزاء التى يتركب منها نسيجه ، يفنى بتفكك أجزائه . ونحن لا نستطيع أن نتصور كيف أن شيئاً لا أجزاء له ، وبالتالى غير قابل للتفكك ، يخضع لعوامل التعفن والهدم التى تلازم الطبيعة » . قال الرأس إيلاس : « أنا لا أستطيع أن أتصور وجود شىء لا امتداد له ، وكل ماله امتداد له بالضرورة أجزاء ، وكل ماله أجزاء باعترافك يخضع للهدم » .

فأجاب عملاق : « تأمل أفكارك يسهل عليك الاقتناع بما أقول . فأفكارك بجوهر لا امتداد له . والصور المجردة لا تقل واقعية عن الماديات

ذات الأحجام، ومع ذلك فالصور المجردة لا امتداد لها وحين تفكر في الهرم فذهنك يحوي صورة مجردة للهرم، وهذه الصورة موجودة في الواقع وجود الهرم ذاته في الواقع . فأي فرق هناك بين الفراغ الذي تملؤه في ذهنك فكرة الهرم والفراغ الذي تملؤه في ذهنك فكرة حبة من حبوب القمح ؟ وهل يمكن تمزيق هذه الفكرة أو تلك ؟ والعلة كالنتيجة ، وما تقوله في الفكر تستطيع أن تقوله في القوة المفكرة . إنها قوة سالبة لا تدرك » .

قالت نكاية : « ولكن الكائن الذي تضطرب لذكره نفسي ، الكائن الذي خلق الروح مستطيع أن يحطمها . »

فأجاب عملاق : « لاشك أنه مستطيع أن يحطمها ، فمهما تكن الروح خالدة فهي تستمد قدرتها على البقاء من طبيعة أسمى من طبيعتها وبالفلسفة ثبت أن الروح لن تتلاشى نتيجة لعوامل الانحلال أو ناموس الفناء ، ولكن الفلسفة تقف عند هذا الحد . وهنا نحتاج إلى حجة أسمى تلهمنا أن الخالق الذي خلق الروح لن يحطمها . » وبعد أن فرغ عملاق من كلامه ساد الصمت بين الجميع وثاب كل إلى نفسه .

وقال الرأس إيلاس : « ألا فلنغادر هذه الدار ، دار الموتى ، فما أشد كآبتها لمن جهل أنه باق لا يموت ، لمن جهل أن القوة التي تعمل الآن ماضية في نشاطها ، لمن جهل أن الروح التي تفكر الآن سوف تفكر إلى أبد الآبدين . إن من نراهم أمامنا ممددين ، وهم حكماء العالم القديم وسادته ، إنما يذكروننا بقصر حالتنا الراهنة . ولعل المنية اختطفتهم وهم يشتغلون اشتغالنا بالبحث عن السعادة » .

قالت الأميرة : « إن البحث عن السعادة في دار الفناء لم يعد الآن يشغلني كما كان يشغلني من قبل ورجائي منذ الآن أن أنقطع للبحث عن السعادة الأبدية دون سواها » .

وخرجوا من المقابر مسرعين ، وعادوا إلى القاهرة في حمى الحراس .

الفصل التاسع والأربعون

الخاتمة التى لا تختم شيئاً

وحل وقت فيضان النيل : فبعد زيارتهم لمقابر الأولين بأيام قليلة بدأ صدر النهر يرتفع .

ولزموا دارهم . ورغبوا عن الرحلات لأن الماء قد غمر المنطقة كلها . ووجدوا كفايتهم من الحديث لإزجاء الفراغ ، فوازنوا بين صور الحياة التى رأوا ، وتبادلوا الأمانى ، فقد رسم كل لنفسه خطة تهديه إلى الحياة السعيدة فى قابل الأيام .

أما بيكوا فلم ترشيئاً سحر خيالها كدير القديس أنطونيوس ، حيث ردها الأعرابى إلى سيدتها الأميرة ، وكان قصارى رجائها أن تملأ جنبات ذلك الدير بالعذارى الطاهرات وأن تنصب عليهن رئيسة ، ولقد أمضها طول الانتظار وعافت الحياة المتقلبة ، فوجدت سعادتها فى التماس الحياة الثابتة التى لا يحدث فيها جديد .

ورأت الأميرة أن أثمن ما فى الحياة الدنيا هو المعرفة ، فتمنت أن تدرس جميع العلوم أولاً ثم تؤسس مدرسة تجمع فيها عالمات النساء وتديرها بشخصها ، وهكذا توزع وقتها بين تحصيل المعرفة وإعطائها للغير ، تتحدث إلى الكبيرات وتؤدب الصغيرات ، وتعد للجيل القابل نماذج من الحزم والصلاح .

وتمنى الأمير مملكة صغيرة يقيم فيها العدل بنفسه ويشرف فيها على جميع فروع الحكومة ولكنه تردد فى تحديد تخوم دولته ومد سلطانه على رعايا جدد كل يوم .

بقى عملاق والفلكى ، وقد ترك كل منهما نفسه يطفو فى تيار الحياة قانعاً بذلك ، لا يطلب وجهة ولا يسعى إلى مرفأ معين .

ولكن الأمانى جميلة ، وقد كانا يعلمان أن منالها محال . فتشاورا قليلا فيما ينبغى عليهما عمله وأخيراً قررا أن يعودا إلى الحبشة بعد انتهاء الفيضان .

. . . .

تمت الترجمة فى باريس ١٩٤٦

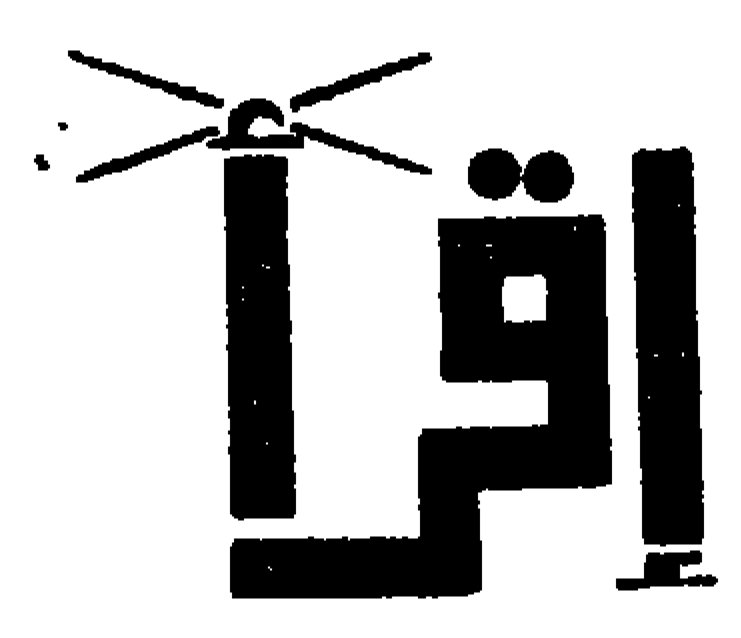
تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية
تحت رقم ٣٥٣٨ / ١٩٧١

مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٧١

اقرأ

الدكتور عبد المحسن صالح

مذكراتُ ذَرَّة



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير : عادل الغضبان





اقرأ ٣٤٥ — سبتمبر سنة ١٩٧١

الناشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج. ع. م.

دكتور عبد المحسن صالح

مذكرات ذرة

اقرأ ٣٤٥
دار المعارف بمصر

إهداء

إلى العقلاء من بنى الإنسان . . .

علّهم بنظام ذرة يوقنون . . .

وفى قوانينها يتدبرون .

ذرة

تمهيد

قد تسخرون منى عندما تقع عيونكم على العنوان الذى اخترته لكى أكتب لكم عن نفسى ، وقد تضحكون وتقولون : عجباً ! . . ما تلك الذرة التى جاءت لنا « على آخر الزمن » لتكون لها مذكرات وهى تجهل القراءة والكتابة ، ولا تعرف للدنيا طعماً ، ولا للحياة معنى ؟

نعم . . قد تسخرون وتضحكون . . ولهذا أقول : « يأيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم » .. صحيح أن ما جاء فى هذه الآية الكريمة ينطبق على مجتمعات الناس . .ولكن ما يدريكم أن لنا أيضاً مجتمعات تضمنا ، وقوانين تحكمنا ، ونواميس نسير على هديها ؛ ويياليتكم تطيعون نظم السماء مثلنا . . عندئذ يتبدل حالكم إلى أحسن حال !

أنا ذرة لى كيان . . أقل كيان ، ومع ذلك سر الكون كله فى كيانى . .

أنا الممثلة الوحيدة لهذا الكون . . فأنا مادته التى تكوّنه ، وأنا طاقته التى تسيره . . وأنا النور ، وأنا الظلام .

صحيح أننى لم أمسك ورقة ولا قلماً . . ولكننى فى الورق والقلم والمداد . .

وصحيح أننى لا أستطيع أن أفكر . . ولكننى أنا الكامنة وراء الفكر ، ولو كان فى رأس حمار يحمل أثقالا ... أو لا يحمل !

وصحيح أنني لا أحس ولا أتكلم . . مع أنني وراء الإحساس والكلام . .

وصحيح أنني لست شيئاً مذكوراً بمعاييركم ، ولكن لا تقيسوا الأمور بهذه الموازين . . فقد تكون عظمة الشيء في ضآلته ، وربما كانت أضخم الأسرار التي ينوء بها العقل البشري في ذرة لا تراها العين ، ولا يعيها الفؤاد ، ولا يتصور ضآلتها صاحب أعظم خيال . . . ومع ذلك أنا أمثل الكون . . بل أنا كون أدقّ كون .

إنني لم أكتب هذا الكتاب ، ولكن الذي كتبه لكم نيابة عني واحد منكم ، قد وعى شيئا من أسراري . . لهذا ، أنا معجبة به ، كما أنه معجب بي . . ولقد دفعته بذلك الإعجاب المتبادل دفعاً ، لكي يقوم بكتابة مذكراتي ، على « لساني » . . فأنا جزء منه أشاركه في كيانه الذي به يعيش ، فلست إلا واحدة من بلايين البلايين من الذرات الأخرى التي تترابط في جزيئات لتبنى خلايا مخه وعضلاته وعظامه وكل شيء فيه . . وفي مخه طاقات فكرية — قد تعجبكم أو لا تعجبكم — أشارك فيها بجهد . . وهو يعلم ذلك ، ولا يريد أن يسلبني حتى في التحدث إليكم ، ولعل في حديثي إليكم درساً وعبرة . . إن كنتم تعتبرون بنظام الله وقدرته في خلق ذرة ، ولعلكم تجدون في تكويني ما يفيدكم في حياتكم . . فأنا نظام عجيب ، وبالنظام قامت الذرات فأصبحت اللبنات الدقيقة في المخلوقات والأرض والسماوات . .

إذن . . أنا الأساس ، وعلى أساسي قامت الأكوان بخيرها وشرها . .

والواقع أن الله قد خلقني كما خلقكم . . وإذا كان لم يمنحني عقلا كعقولكم ، فإنه قد بناني وأنشأني كما لم يبن ولم ينشئ شيئاً في الكون مثلي ، ومنحني « خطة عمل » عظيمة ، وكأنما أسر إلي ،

٧

ونفخ فىّ من روحه ، وكأنما قال : عليك بنفسك . . فلقد خلقتك بقدر ، كما خلقت كل شىء بقدر . . وعليك أن تشق فى الحياة طريقك ، ولكن من خلال النظام الذى أرسيت قواعده فى تكوينك .

لهذا . . جئت مع أخواتى إلى أرضكم منذ آلاف الملايين من السنين . . وكانت لى فيها رحلة طويلة ، انتقلت فيها من صخر إلى ماء، ومن ماء إلى هواء، ومن هواء إلى أحياء، ومن أحياء إلى تراب... رحلة طويلة ، طويلة . . إلى أن استقر بى المقام فى مخ صاحبكم . . وأوحيت إليه ما أوحيت ، فكانت هذه المذكرات التى بين أيديكم . .

وسيموت صاحبكم ، كما ماتت من قبله ملايين الأجيال من كل أنواع الخلق . . أما أنا فباقية ، ما بقيت الأرض والسماوات . .

إننى لست أسيرة تفكيره ولحمه ودمه . . فقد تأتى ذرة لتحتل مكانى ، لأن فى حياتنا صراعًا كما فى عالمكم صراع . . ولكن صراعنا منظم ، وله أسس ، وتحكمه قوانين . . إنه صراع وتنافس شريف . . وياليتكم تعلمون وتفقهون قوله عز وجل : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » . وذلك أيضاً يسرى على مجتمعاتنا . . فقد تدفعنى ذرة لتأخذ مكانى ، عندئذ لابد أن أخرج نزولا على منطق القوة ، وهو منطق عادل فى مجتمعاتنا ، ولولاه لأصبح كل شىء فى الكون غير متفاعل ، ولأصابه الجمود القاتل . .

إن قوتكم أنتم تتركز فى عقولكم ، لا فى ألسنتكم ولا فى عضلاتكم ؛ ولا بد أن تحتل العقول القوية المفكرة الصدارة فى مجتمعاتكم . . وبها تسودون غيركم . . فإن طمستم العقول ، فلا تلومنّ إلا أنفسكم . . أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم . .

لا بد إذن أن أخرج نزولا على منطق القوة . . وأسير مع طوفان

من سائل أحمر تطلقون عليه الدم ، حتى أصل إلى كليتيه ، ثم إلى مثانته ، ثم إلى الخارج مع طوفان ضخم من ذرات وجزيئات تترك جسمه على هيئة سائل أصفر تسمونه بولا . . فأسير فى رحلة طويلة ، وإذا قدرى يرميني لأشارك فى بناء مخلب قط ، أو عين ملك ، أو أذن خنزير ، أو مخ إنسان عاقل ، أو غير عاقل . . لست أدرى ، ولعلك تدرى . . فإن كنت تدرى ، فاجعلني أدرى . . فلست أدرى أنك تدرى !

وقد يكون كلامى هذا غير مقبول ولا مستساغ . . ولكنها الحقيقة التى لا مفر منها ولا مهرب . . فأنا مع قوى من ذرات أخرى ، لا نفرح إذا دخلنا فى تركيب مخ عالم ، ولا نبتئس إذا شاركنا فى تكوين مخ بهيمة ، أو ذيل فأر ، أو سم حية . . وأضيفوا بعد ذلك من « أو » هذه ما تشاءون . . فقد ذكرت لكم أن لنا رسالة يجب أن نؤديها على حسب خطة العمل التى نحملها فى تكويننا . . وياليتكم تؤدون فى الحياة رسالاتكم بالأمانة والإخلاص ، كما نؤدى نحن رسالاتنا . . عندئذ يحترمكم من فى السماء ومن فى الأرض ، لأنكم لا شك سائرون على الطريق القويم . .

لاأريد أن أطيل عليكم هنا . . فهذا تمهيد لموضوعى ، فإن شئتم سرتم معى فى أسرارى ، وإن أبيتم فإن المعرفة لن تجرى وراءكم ؛ لأن المعرفة هدف الإنسان ، لا الحيوان . . ولكل ما سعى !

وفقكم الله فيما تقرءون . . ووفقنى فيما أنا مقبلة عليه .

صديقتكم الذرة

عنها : دكتور عبد المحسن صالح

أستاذ مساعد الميكروبيولوجيا

كلية الهندسة . جامعة الإسكندرية

من أكون ؟

إننى لم أقدم لكم حتى الآن اسمى . . فليس اسمى « ذَرَّة » كما تظنون ، بل هو تعريف لصورة معينة من بناء خاص ، تماماً كما تطلقون على ذلك المخلوق العاقل الذى يسير منتصباً على قدميه اسم الإنسان . . رجلا كان أو امرأة . . ولكن لابد من مسميات أخرى تطلقونها على أنفسكم . . فكان عمرو وزيد وبهانة وديدمونة . . إلخ ، وكذلك لى اسم ينادونى به ، وأنا لا أريد أن أفصح لكم عن اسمى ، فليس ذلك الآن مهماً .. مثلى فى ذلك كمثل من يكتب كتاباً عن الإنسان، ولا يهمه الأفراد . .

أما عن جنسى .. أى أأنا ذكر أم أنثى ؟ .. فلست هذا أو ذاك ، برغم أنكم تلصقون بى دائماً تاء الإناث ، ولكننى أحياناً أتصرف مع مجتمعاتى كمايتصرف الذكرمع الأنثى فى مجتمعاتكم . . فهناك « جاذبية » خاصة تشد بعضنا إلى بعض ، فإذا استلطفت « الذرة » صاحبتها ، ودخلت فى مجالها ، شاركت إحداهما الأخرى بجزء من تكوينها ، وكأنما تجذبهما « قبلة إليكترونية » ، تربطهما فى عش صغير تطلقون عليه اسم الجزىء . .

وكما كان لا رتباط الذكر بالأنثى فى عالمكم هدف ورسالة ، لتكون هناك أجيال من وراء أجيال ، على هيئة مجتمعات بشرية وحيوانية ، كذلك كان لارتباط الذرة بالذرة معنى ؛ لأن ذلك يؤدى إلى تكوين مجتمعات جزيئية . وقد تكون الروابط بين الجزيئات مفككة ، وهنا تنتشر على هيئة غازات ، كالهواء الذى يلفح وجوهكم . وقد تكون الروابط

ضعيفة ، وهنا تظهر المجتمعات الجزيئية بحالتها السائلة ، وقد تكون قوية فيكون الصخر والحديد والصلب والحجارة والزجاج . . إلخ .

وكذلك الروابط التى تربط المجتمعات البشرية . . فإذا كانت متينة أصبحت فى صمود الصلب والصخر ، وإذا كانت ضعيفة انكسرت كما ينكسر الزجاج . . ومن هنا تقاس قوة الشعوب والجماعات . . مع الاختلاف طبعا بين روابطكم وروابطى .

لقد دخلت إلى مخ صاحبكم مع طعام تناوله . . والطعام ليس إلا ذرات مترابطة فى جزيئات تطلقون عليها الدهون والبروتين والسكريات إلخ ، ولقد كنت ذرة مرتبطة فى جزىء بروتينى كبير . وفى معدته انسابت علينا جزيئات أخرى تطلقون عليها اسم العصارات الهاضمة . . إنها أيضا بروتينات . . ولكن للبروتينات أقدار فى عالمها ، كأقدار الناس فى عالمكم . . ولقد كانت لها اليد العليا ، فنزلت علينا تقطيعاً ، وكلما سرنا فى تلك الأنبوبة الطويلة تحطّم ذلك الجزىء الكبير وتهلهل إلى جزيئات أصغر ، حتى نفذنا فى سهولة إلى سائل أحمر واستقر بى المقام فى خلية من بلايين الخلايا التى تكون مخ صاحبكم هذا ، وفى كل خلية بلايين فوق بلايين من الجزيئات ، وأنا أشارك فى واحدة منها وأرتبط معها بما يحقق لصاحبكم أو صاحبى حياة قد تكون شقية ، وقد تكون سعيدة ، أو ما بين ذلك تكون الأمور . .

وهكذا لا بد أن نرتبط بطبيعتنا كما ترتبطون بطبيعتكم . . فهناك دافع يدفعنا إلى هذا الترابط ، إذ لولاه لأصبحنا مشردين فى الكون أشتاتا أشتاتاً ، ولما كانت هناك مخلوقات ولا ماء ولا يابسة . . ولا شىء غير الضياع والجمود القاتل !

ومن « تجربتى الشخصية » التى مارستها منذ مئات الملايين من

السنين ، وأنا أنتقل من مخلوق إلى مخلوق ، حتى انتهيت إلى مخ صاحبكم تبين لى أن فى عالمكم الذى تعيشون فيه كأفراد وجماعات ودول — روابط قد تكون زوجية أو فكرية أوروحية أو ثقافية أو مادية ، أو أى شىء آخر تودون إضافته إلى ماذكرت . . ولولا ذلك لما كانت هناك مجتمعات ولا دول ، ولحل محل ذلك ضياع وتشرد !

فتسلسل المخلوقات على هذا الكوكب قائم منذ مئات الملايين من السنين — عداكم أنتم كبشر ، فأنتم لم تظهروا إلا فى المليون سنة الأخيرة ، وإن وجودها على هيئة طوفان حى فيه صفة الاستمرار ، لمن ورائه دافع ، لكى يحافظ كل مخلوق على نوعه من الانقراض . . ولقد هيأت الطبيعة لذلك أمراً ، أوجدته على هيئة مادة أو مواد كيائية اسمها هرمونات الجنس . .

ولقد دفعنى قدرى فى فترة من فترات حياتى لكى أشارك فى تكوين هذا الهرمون العجيب . . صحيح أنه لا يخرج عن كونه عدة ذرات ارتبط بعضها ببعض ارتباطاً خاصاً وعلى حسب خطة معينة ، لكنه يستطيع أن يفعل المعجزات . . فعندما يفرز ويجتاح كيان المخلوق ، يدفعه دفعاً إلى الجنس . . وهنا يسعى الجنسان — الذكر والأنثى — كل منهما إلى الآخر لكى يرتبط به . . وقد يكون الرباط مقدساً أو غير مقدس . . فهذا لا يهمنا ، ولا يهمنا كذلك الأفراح والليالى الملاح ، ولا تهمنا الموسيقى والرقص والغناء ، ولا نوع فراش الزوجية . . كل ما يهمنا فى رسالتنا على هيئة هرمونات أن نكون الدافع الرئيسى لكى تنتقل خلية من الذكر ، لترتبط بخلية من الأنثى . . وهذا أهم ما فى الموضوع . .

والوقع أن كل الخلائق التى ترونها إنما تسير على هذا المنوال نفسه . .

ذلك أن الأحداث التى عشت فيها مع والدى « زعيط » و « معيط » على فراش الزوجية ، هى الأحداث نفسها التى رأيتها تجرى مع والدى « البعرور » ليخرج هو أيضا إلى الحياة ، مع فرق بسيط ، قد ترونه هاماً لكنه ليس كذلك بالنسبة للهدف العظيم الذى تسعى به الطبيعة لتربط بين مخلوقاتها . . ذلك أن والدى « البعرور » لا يعرفان شيئاً عن فراش الزوجية ، ولم يقيما حفلة صاخبة يدعوان إليها الجمال الأخرى ، ومع ذلك كانت النتيجة الحتمية واحدة . . فقد انتقلت الخلايا الجنسية واختلطت ، وتخلق هذا ، كما تخلق ذاك ، وحملت السيدة كما حملت الناقة ، وولد « زعيط » كما ولد « البعرور » ، ورضعا ، كل بطريقته الخاصة ، وشبّا عن الطوق . . وذهب هذا ليدرس ويتعلم ، وذاك ليحمل الأثقال . . ثم مات الإنسان ، وتكلف دفنه ، وذبح الجمل ، وأكلتم لحمه !

إن الدافع الحقيقى المحرك لمثل هذا الترابط على مستوى المخلوقات والخلايا ، هو ذلك الهرمون العجيب . . فلولاه لما سعى الخنزير إلى الخنزيرة ، ولا الديك إلى الدجاجة ، ولا الأسد إلى اللبؤة ، ولا آدم إلى حواء ، ولا كان هناك مثل هذا الطوفان الحىّ الذى ترونه يسرى على أرضكم . .

والحق أقول لكم ، حتى لا أظلمكم : لقد نظم الإنسان بعقله وعاداته أسس هذا الترابط ، حتى لا تكون الفوضى ، ولم تنظمها البهائم والقطط والكلاب والفئران والقرود . . ذلك أن مستوى تفكيرها ووعيها ، قد وقف بها عند حدود لا تتعداها ، وقد يتعدى الإنسان حدوده ، فيتصرف كما يتصرف الحيوان . . واسمحوا لى أن أتكلم معكم بصراحة . . فلقد عشت فى داخل بشر ، ورأيت منهم العجب !

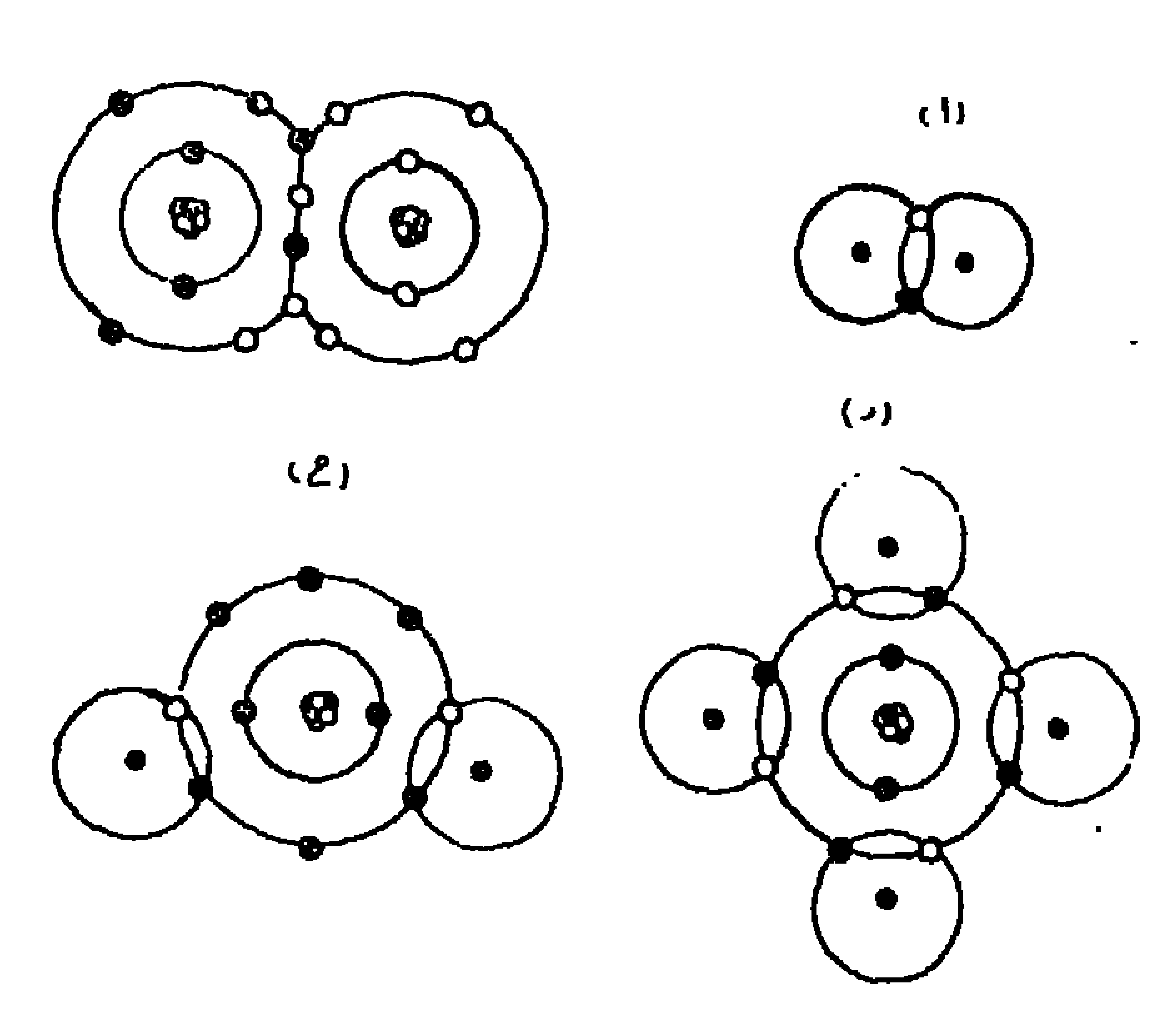
لقد تكلمت عن روابطكم، والدوافع التى من ورائها ، ولا بد أنكم الآن تتساءلون : ما هو الدافع الذى يدفعنى لكى أرتبط بذرة من بنى جنسى.

من المؤكد — وأنتم سادة العارفين — أن ذلك ليس بدافع الجنس ، فتكوينى وتكوينها لا يسمحان بذلك إطلاقا ، ولكن هناك أموراً متوارثة فى طبائعنا ، كالأمور المتوارثة فى طبائع المخلوقات ، وإن اختلفت الصور بين ذرات وبشر . .

إن كل ذرة قد شيدت بطريقة خاصة ، وبينائها الإليكترونى تستطيع أن تعقد صفقات مع الذرات الأخرى ، وترتبط بها . . ولا بد لنا أن نحترم القانون . . قانون الذرات . . وقد تضحكون لأننى ذرة أحترم القانون . . ويا ليتكم تعلمون أن الكون بالحق قد قام ، وبالقانون قد سار . . ولا بد أن نطبق القوانين فيما بيننا بكل أمانة ودقة ، وإلا كانت الفوضى . . والأكوان التى تحيط بكم فى ذرات ومخلوقات وكواكب وشموس وأجرام سماوية لا يمكن أن تقوم على فوضى . . وإن من يستشف منكم قوانين السماء ويستوعبها ، لا بد أن يدرك سر عظمة الخالق فى خلقه . . ولقد خلق لكم عقولا ، وبعقولكم تصوغون قوانينكم ، فإن احترمتموها ، احترمتم أنفسكم ، وعظم كيانكم ، وإن هدمتموها وأهملتموها ، فلا كيان لكم !

لقد قلت لكم : إن معى « خطة عمل » لكنها ليست مكتوبة . . وليست عمياء ، بل نستطيع أن نتصرف فى مجتمعاتنا بما تمليه علينا نظمنا وتكويننا . . فالذرة قد ترتبط بذرة من نفس نوعها ، أو بذرة أخرى غريبة « تستلطف » تكوينها . . أو قد « تتزوج » من الذرات مثنى وثلاث ورباع (شكل ١) تماما كالمسلمين فى عالمكم . . وليس معنى ذلك أن للذرات دينا تدين به ،

فتتعدد أديانها تبعاً لذلك . . وليس ذلك من صفات مجتمعاتنا الذرية ! فديننا ببساطة هو أن نطيع قوانين السماء التى نظمت بها أمورنا ، فأحسنت تنظيمنا . . ويا ليتكم تستوعبون ما أسر به لصاحبكم !



(شكل ١) يوضح الطريقة المبسطة التى تترابط بها الذرات فيما بينها ، لتكون الجزيئات .. (ا) ذرتا إيدروجين فى جزىء من الإيدروجين (ب) ذرتا أوكسيجين فى جزىء من الأوكسيجين (ج) ذرتا إيدروجين مع ذرة أوكسيجين تترابط فى جزىء من الماء (د) ذرة كربون يحيط بها أربع ذرات من الإيدروجين ، وكلها تترابط لتكون جزيئاً من رابع إيدروجين الكربون (النواة فى وسط الذرة والإليكترونات تطوف حولها فى مدارات) .

إننا معشر الذرات قد نتعرض لظروف قاسية كما تتعرضون . . وقد تصهرنا الظروف وتشكلنا ، فنتحول إلى أشياء نفيسة تتسابقون إلى اقتنائها ، وتدفعون فيها ماشاءت لكم أموا لكم أن تدفعوا . . وهنا قد تظهر الأحجار الكريمة فى قلب الصخور .

ودعونى أضرب لكم الأمثال من مجتمعاتنا ومجتمعاتكم . . فنى كوكبكم بلايين فوق بلايين من أطنان الفحم ، ولهذا تبيعونه أو تشترونه بأرخص الأسعار . . وقد تنتظم ذرات الفحم نفسه فى شكل خاص ، وتحت ظروف قاسية معينة ، تهيئه وتحوله إلى ماس . . والماس من الأحجار الكريمة النادرة . . وكذلك البشر !

ولكى أوضح ذلك أقول : لقد جاء إلى عالمكم بلايين العقول . . ولكن القليل جداً من هذه العقول هو الذى أثر فى حياة الناس .

ولقد ذهبت البلايين دون أثر ، ولكن هذه القلة القليلة قد تركت وراءها أعمالا خالدة ، لم تمت بموتها . . فكانت حضارات وديانات وفلسفات وأدباً وموسيقى وعلماً وطباً . . إلخ . .

والبلايين الأخرى . . لماذا إذن جاءت ؟ . . هكذا ربما تتساءلون !

لا بد من مجيئها . . فلولا الفحم الكثير ، لما ظهر الماس القليل !

كذلك ، لولا خلق من الناس كثير ، لما ظهرت فيهم عقول تهيئها ظروف خاصة ، لتؤثر على من حولها . . فلو تساوت العقول — ذكاء أو غباء — لفسد الكون . . ومع ذلك فإن الأعمال الباهرة — فى الماضى والحاضر — تنسب إلى العقل البشرى ككل ، فتقولون : إنها حضارة الإنسان . . لا الحيوان !

ونحن — معشر الذرات — نتعرض لأشياء قد « تنغص » علينا حياتنا ، وتتدخل فى تنظيمنا . . ونحن لا نحب الدخلاء ، ولهذا نشع ونثور ،

حتى نتخلص من الدخيل الذى أصبح عبئاً على كياننا . .. إنه نوع من « الاستعمار » بلغتكم . . وإن اختلفت الصور فى عالمنا وعالمكم !

وقد نموت كذرات . . كنظام . . كمادة ، ونتحلل إلى ما هو أصغر ، وعندئذ نختفى من مسرح الحياة ، ونتحول إلى « روح » . . ولكن أرواحنا ليست كأرواحكم . . بل هى طاقات رهيبة مدمرة ، تنطلق فى الكون بسرعة الضوء ، أو قريبة من ذلك . . وأنتم أيضاً تتهدمون كنظام مترابط ، فتموتون ، وتخرج روحكم ، وتتحللون إلى ذرات وجزيئات بسيطة تتوزع فى الهواء ، أو يجرفها الماء ، أو تنتشر مع حبيبات الثرى . . لتُبْعَث ويعاد بناؤها من جديد .

إلا أن نسبة الوفيات فى عالمنا الذرى ضئيلة غاية الضآلة ، لأن ما يموت منا لن يعوض ، ولذا نعيش عشرات البلايين من السنين كمادة .. كذرات . . ولو متنا بالسرعة التى تموتون بها ، لتحول كوكبكم — الذى نبنيه — من عالمه المادى ، إلى طاقات تنطلق فى الكون . . والطاقات لاتستطيعون بها إمساكاً ، إلا إذا استطعتم الإمساك بأرواحكم قبل — أو بعد — أن تنطلق من أجسامكم !

إذن . . نحن الباقون . . وأنتم الفانون !

ندخل فى تركيبكم تارة . . ونخرج تارة أخرى . . ولكن لا بد أن نعود ونعود . . كرروا ذلك ملايين المرات . .

وإلا فبالله ما يدريكم أنى كنت ذرة من الذرات التى شاركت فى بناء جزىء . . فى خلية . . فى نسيج .. فى عضو من أعضاء ديناصور مات وتحلل منذ عشرات الملايين من السنين ؟! . . من يدريكم أنى ربما كنت ذرة فى عين إمبراطور . . أو أذن صعلوك .. أو منقار غراب .. أو ورقة نبات . . كرروا « أو » هذه ملايين المرات !

إننى أجمع فى تكوينى الحب والكراهية . . الجذب والتنافر . . الطاقة والمادة . . الحرب والسلام . . الأصدقاء والأعداء . . وكأنما الله قد جعل منى كونين فى كون واحد ، وجعل لكل منهما قوانينه الخاصة به . . ومع ذلك ، فما أدق تكوينى . . وما أعظم بنائى !

وهكذا أوحيت إلى صاحبكم من داخل مخه ، أن يعطيكم فكرة عامة عنى . . وعلىّ وعليه أن نتعرض لمزيد من التفاصيل ، حتى تتضح لكم الأمور أكثر وأكثر ، ولتبدءوا تفهمون معنى ذرة . . مجرد ذرة، وعندئذ قد تقدرون الله حق قدره . . « وما قدروا الله حق قدره » .

قد تقولون إننى نسيت هنا أن أذكر لكم كيف تجذب الذرة صاحبتها لكى ترتبط بها ، أو كيف تتزوج بها . . وآه منكم ومن أفكاركم ! . . إننى أتأوه ، لأنى عرفت من خبرتى الشخصية ، وأنا أعيش مع الأحياء ومعكم أن الجنس يجذب معظمكم ، كما يجذبكم الحديث فيه ! . وحتى أريحكم أقول : إن الزواج أو الرباط الذى يربطنا هو رباط كهربى . . أو « اشتراكية إليكترونية » . . قد تعجبون وتقولون : وما دخل « الاشتراكية » بعالمنا الذرى ؟ وجوابى على ذلك : أنكم أنتم الذين تطلقون الأسماء* . . وربما جاء ذلك نتيجة لمشاركة الذرة الذرة بجزء من تكوينها ، ليكون هناك تقارب . . ليس فى وجهات النظر ، ولكن بين قلبينا !

وهل للذرة قلب تسعى به إلى التقارب مع قلب آخر ؟ . . هكذا ربما تتساءلون . .

وجوابى : نعم . . إلا أن قلوبنا مدمرة إذا ما انفطرت وتفتتت ! . .

---

* كما جاء فى المصطلحات العلمية للمجلس الأعلى للعلوم « ترابط اشتراكى » .

١٨

إنها القوة المسيطرة ، والطاقة المدمرة . . وهى الجحيم ! . . وآه من القلوب وما حوت من أسرار ! . . ولو كان القلب قلب ذرة ! . .

فهل أبدأ حديثى معكم لتعريفكم سر قلبى . . فيكون الحديث من القلب إلى القلب ؟ ! أو هل نبدأ بما يحيط بالقلب ، ثم ندخل إلى القلب ؟ . . لست أدرى ! فالظاهر هنا مرتبط بالباطن . . ومن هنا نبدأ . .

حقيقة . . لا خيال

لست أدرى كيف أبدأ هنا معكم حديثى . . وأرجو أن يكون حديثى إليكم خفيفاً على العقول ، لأننى قد دوخت عقول من يبحثون فى أسرارى . . وأرجو ألا تحسبوا مذكراتى هذه للتسلية وضياع الوقت . . بل خذوها غذاء لعقولكم ، وزاداً لعبادة ربكم . . فتفكير ساعة فى الخلق ، خير من عبادة سنة أو ألف سنة . . لست أدرى !

الواقع أنى بسيطة . . بسيطة جداً . . ولكن سرعظمتى فى بساطتى . . وفى هذه البساطة تاهت العقول . . أعظم العقول !

ومن أجلى انتشر على كوكبكم نوع من العلماء يطلقون على أنفسهم علماء ذرة . . منهم التجريبيون ، ومنهم النظريون ، أى الذين يمسكون بورق وأقلام ، لتنساب عصارة أفكارهم ، وأفكار من سبقوهم ، لتسجل أحداثى بمعادلات رياضية على أعلى مستوى ، علهم يدركون سر بساطتى ، وأنا معجبة جداً بمثل هؤلاء الناس ، فهم بصراحة أكثركم واقعية وتفهماً لأسرار الكون . . وسواء أقدرتموهم أم لم تقدروهم ، فقد قدرهم ربكم فى كتابه العزيز : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » . . وفى الحديث : « العلماء ورثة الأنبياء » . . لأنهم يستكشفون عظمة الخالق فيما خلق . . فى ذرة . . فى جزىء . . فى خلية . . فى مخلوق . . فى أرض . . فى سماء وسماوات . . . وكل تبهره صورة ما يبحث فيه !

لقد كنت فى لسان رجل مات منذ عشرات السنين . . ولا أعرف بالتحديد متى وأين مات . . فهذا لا يهمنى ، لأن رسالتى ما زالت

قائمة . . ولقد سمعته يردد بلسانه حديثاً قدسياً : «كنت نسياً منسياً.. فأردت أن أعرف ، فخلقتُ الخلق ليعرفونى » . . ولا أدرى أكان يعى ما يردد ، أم لا يعى ، فربما كان يستخدم لسانه أكثر من عقله . . وما أكثر من يسيرون على طريقته !

والواقع أننى عشت فى مخلوقات كثيرة . . فى أجيال من وراء أجيال، فلم أر بهيمة تمسك كتاباً ، ولا خروفاً يتمعن فى أسرار الخلق.. وجاء الإنسان يحمل معه أعظم منحة فى الكون كله . . وهل هناك منحة أسمى وأروع من منحة العقل الذى يتحلى به الإنسان دون سائر المخلوقات ؟

لقد رأيت فى الناس أصنافاً . . واعذرونى عندما أتكلم معكم بصراحة .. فنحن قوم لا نعرف النفاق، برغم أننا ندخل فى تكوينكم.. رأيت من يعيش بهيمة ويموت بهيمة . . ورأيت من يستخدم عقله ، فيترك وراءه أعمالا خالدة لم تمت بموته . أو ما بين ذلك تكون أقدار الآخرين !

وأظن أن معرفة الله تتأتى بالكشف عن سر عظمته فيما خلق . . لأن عقولكم لن تستوعبه أبداً . . وأظن أن الحديث القدسى يخاطب أمثال هؤلاء ، أى الذين يزيحون ستائر الظلمات التى تكتنف أسرار الكون ، فإذا هى تظهر لكم كالدرر الثمينة . . وعندئذ يحق لهم ولكم أن تردّدوا بوعى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » !

وإذا كان شعار علماء الرياضيات : « الله خلق كل شىء متكاملا . . وعلى الإنسان الباقى » ، وإذا كان شعار علماء الذرة : « الله خلق الذرات . . وعلينا أن نبدأ بها » ، وإذا كان شعار علماء الحياة : « الله خلق من الذرات الجزيئات ، وعلينا أن نتوصل إلى أسرار الحياة من خلالها » . . وإذا . . وإذا . . فلا أقل من أن يكون شعاركم

كما جاء فى الكتاب الكريم : « قل سيروا فى الأرض . . فانظروا كيف بدأ الخلق » . . وهذه لا تحتاج إلى شرح . . بل عليكم بعقولكم ، فيكتب لكم النصر فى الدنيا والآخرة .

تصوروا أن علماءكم قد بدءوا يرتادون أسرارى منذ أكثر من سبعين عاماً مضت ، فتجمعت لديهم أكوام من المعرفة تاهت فيها العقول . . وبرغم أن علماءكم كثيرون . . كثيرون جداً ، ولمعاملهم ميزانيات ضخمة . . ضخمة جداً — بالرغم من هذا لم يستطيعوا أن يقولوا فىّ رأياً قاطعاً ، وكأنما قد ظنوا أن الحقيقة الكامنة فى بنائى ستكون قاب قوسين أو أدنى . . وهى تبدو أمامهم كسراب ، فيتخبط العقل عطشاً إلى الحقيقة التى أكاد أخفيها عنه فى تكوينى . . إذن . . ما نهاية مطافه معى ؟ . . لست أدرى !

مقاييس ذرية :

أنا بسيطة . . وضئيلة . . ضئيلة جداً . . ولهذا لا أدرى كيف أوضح لكم مقدار ضآلتى . . فأنا أعلم أن لعقولكم حدوداً ، كما للسمع والبصر والحس والفؤاد . . فإذا أفصحت لكم عن وزن أخت لى تسمونها ذرة الإيدروجين ، فربما تهزون رؤوسكم هزاً لا أدرى له طعماً ولا معنى ! إن أختى بموازينكم لا تزيد على جزء ونصف جزء من مليون مليون مليون مليون جزء من الجرام . . أو ضعوها هكذا :

١,٥ ٠٠٠ ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠ من الجرام . . .
أى أنكم لو أخذتم ٦٦٦ ألف مليون مليون مليون ذرة ، فإنها بالكاد تزن جراماً واحداً . . منتهى الضآلة . . هه ؟

أما عن طولى وعرضى ، فلا طول لى ولا عرض ، ومع ذلك فإنكم تضعون لى صورة فى أذهانكم على أننى كروية الشكل . . ومع ذلك

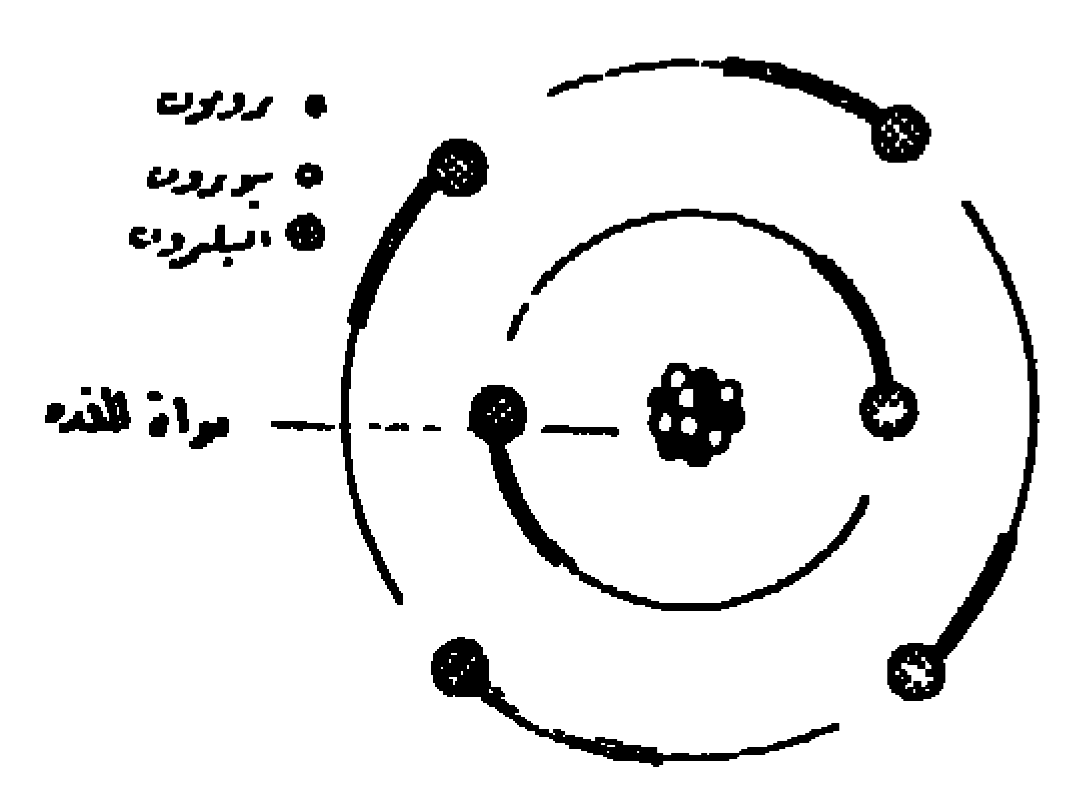
أيضاً فلو تراص أكثر من خمسة ملايين من أمثالى فى صف ، لما بلغ طوله مليمتراً واحداً .

ولو قلت : إن بلورة صغيرة من السكر تحتوى على أكثر من مليون مليون مليون ذرة ، لتدركوا مقدار ضآلتى .. وزناً وحجماً ، لقلتم هذه أرقام خيالية !

وليس هذا بنهاية المطاف ، فما زالت فى هذه الضآلة كنوز مخفية وأسرار مطوية . . فكيان الذرات ، تحدده جسيمات أصغر ، يطلق عليها علماؤكم اسم الجسيمات الأولية . . وهى ليست كثيرة ..فالظاهر منها ثلاثة . . وما خفى كان أعظم . . وسيتبين لكم ذلك بعد حين !

أما الثلاثة . . فهم الموجب والسالب والمتعادل . . أو هكذا تطلقون الأسماء ، لتفرقوا بين الأشياء .

ولقد ذكرت لكم أن لى قلباً ، وقلبى هو نواتى ، وفى نواتى يسكن الموجب مع المتعادل ، وفيها يتركز ثقلى . . وحولها تطوف الجسيمات السالبة ، كما تطوف الكواكب حول شموسها . . أو كما يطوف المسلمون حول كعبتهم .



(شكل٢) ذرة كربون . . فى وسطها نواة بها بروتونات ستة ، ونيوترونات ستة تدور حولها إليكترونات ستة فى مدارين .

إذن . . فهناك جسيمات أصغر من الذرة ، لتبنى الذرة : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين » !

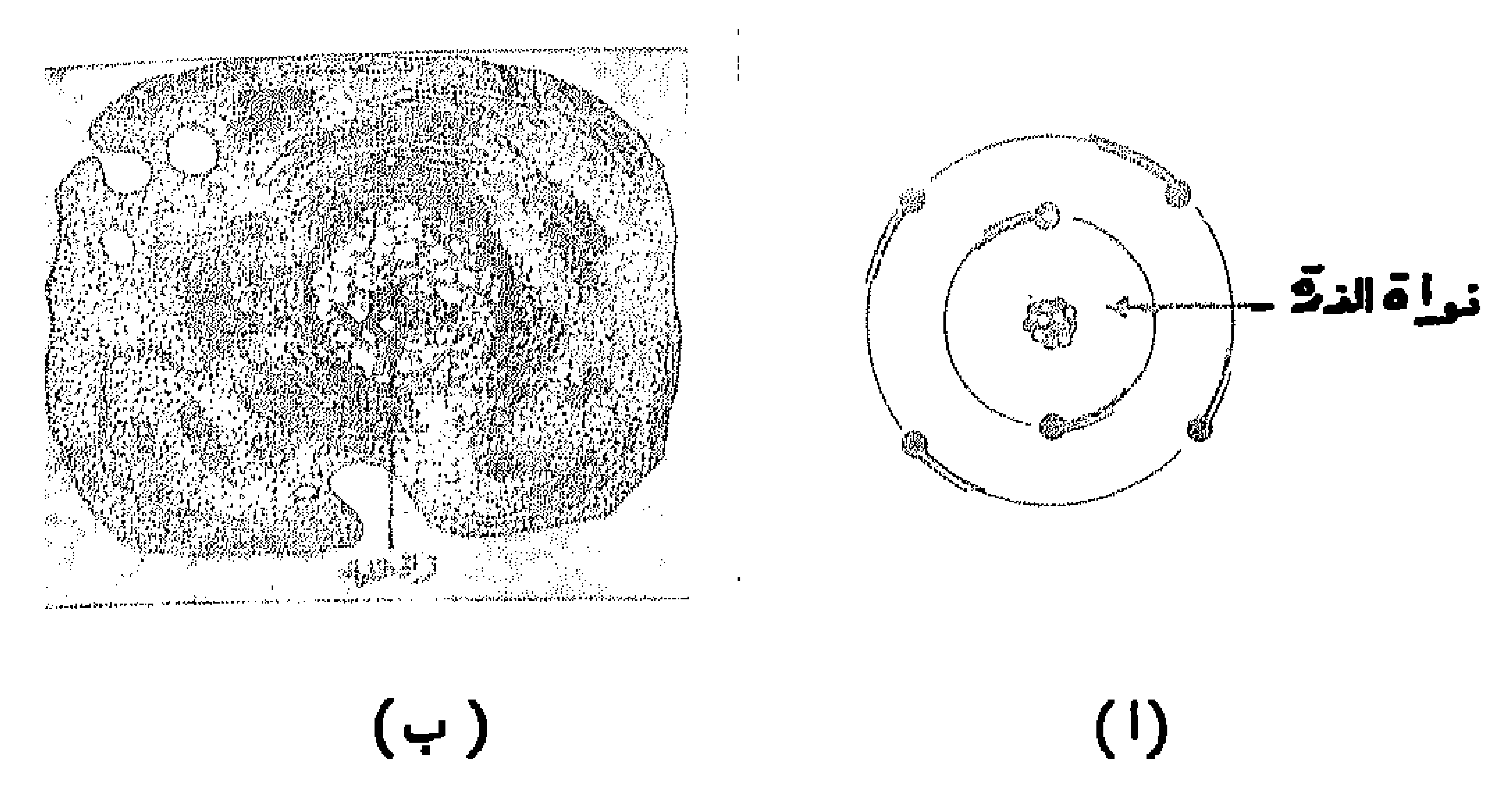
لست أنا إذن الوحيدة فى الكون التى وضع الله سرى فى نواتى . وسأخبركم عن سر النوى وما حوى . . فى نوى الأشياء تتحدد عظائم الأمور ، لأنها هى الأساس . . فللذرة نواة تتوسطها ، وتتحكم فى إليكتروناتها التى تدور حولها ، وللخلية نواة تتوسطها وتورث المخلوقات صفاتها وطباعها ، وللجماعات نواة ، هى أحد أفرادها ليهيمن عليها ولا بد أن يكون أعقلها وأحكمها وأقواها عقلا وتخطيطاً ، وللدولة عاصمة بها هيئة قيادة تسيرها ، وعقول مفكرة واعية من المفروض أن تكون نواة قوتها وعزها ومجدها ، وللكواكب شمس تسيطر عليها ، لتدور حولها بحساب ومقدار . . وكل هذا تحكمه قوانين ، فمن سار على هديها ، أصبح نظاماً رائعاً أحق من غيره بالبقاء . . أفهمتم ما أعنى ؟

كأنما صاحبكم هذا الذى أسكن مخه يتساءل : أتقصدين أن نواة الشىء هى قيادته التى توجه وتقرر وتخطط ، فإذا أصابها الفساد أو العطب ، فسد كل شىء حولها ، وفقدت الذرات والخلايا والدول والمجموعات الشمسية والأجرام السماوية كيانها ؟

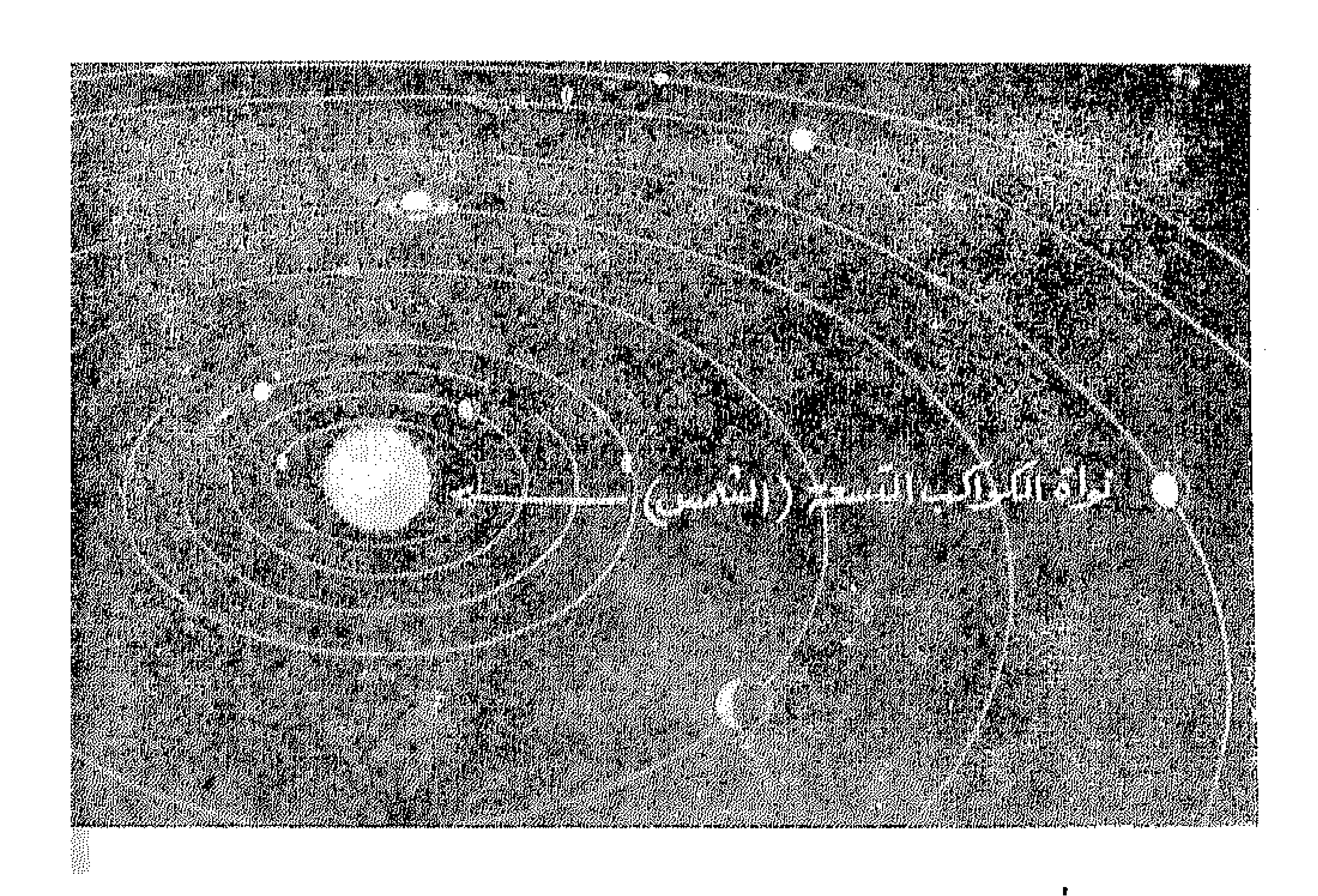
والواقع أن ذلك صحيح إلى أبعد الحدود، وخذوا الأمثلة من مجتمعاتكم أنتم ، فبلغة القرآن : « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة » . . وبلغة الشعر :

إذا كان رب البيت بالدف ضارباً فشيمة أهل البيت كلهم الرقص

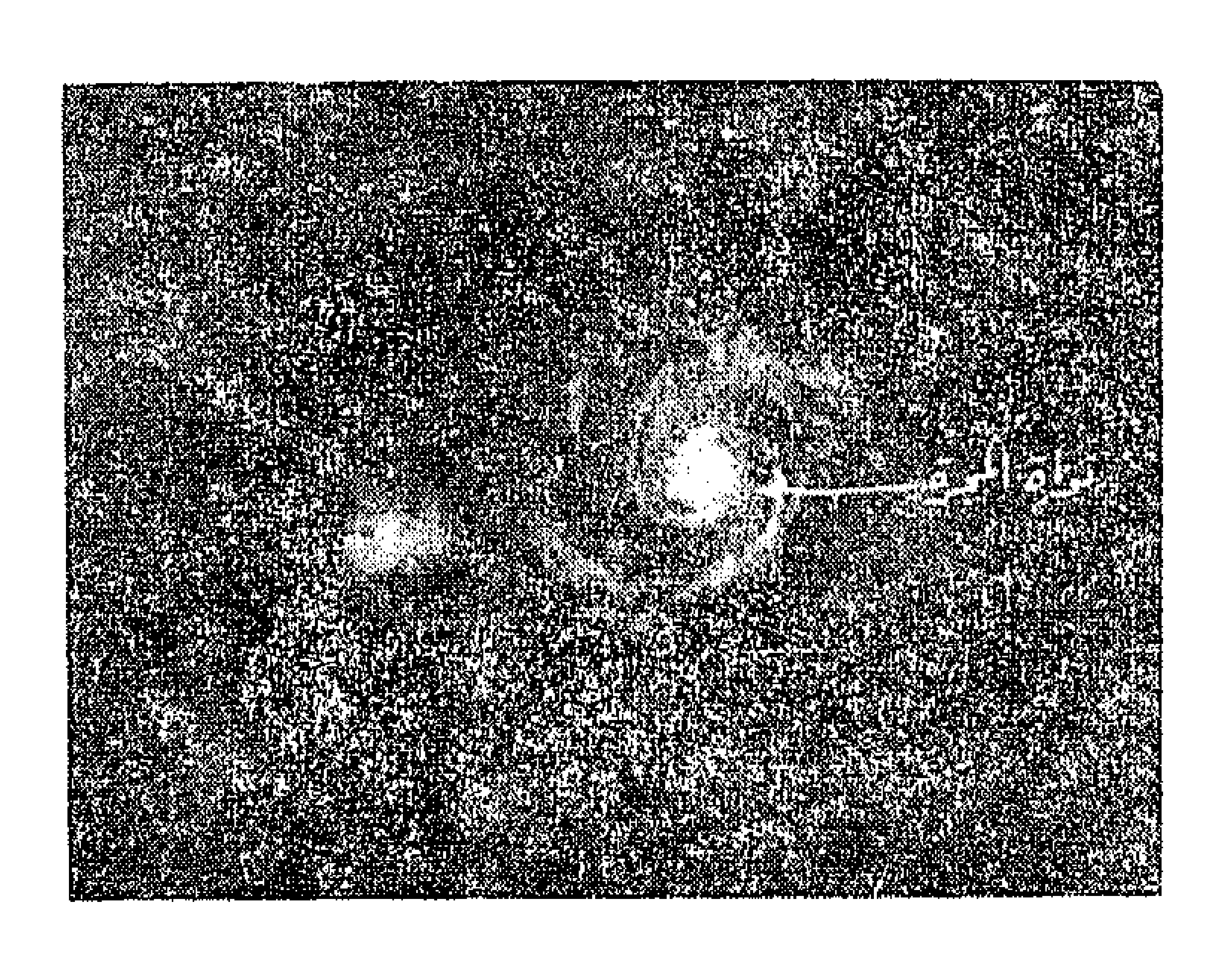
ولكن دعونا من كل ذلك ، لأعود وأحدثكم عن نواتى التى تسكن فى جوفى . . إنها بطبيعة الحال أصغر من تكوينى ككل . . والنسبة بينى وبينها ، كالنسبة مثلا بين العاصمة والدولة !



(شكل ٣) أربع نظم فى الكون تقوم على فكرة واحدة . . (ا) الذرة لها نواة تطوف حولها إليكترونات لتكون المادة (ب) والخلية نواة يطوف حولها السيتوبلازم الحى لتكون الحياة والمخلوقات



(ج) والشمس نواة لكواكبها التسعة لتدور حولها فى مدارات لتكون المجموعة الشمسية وغيرها من بلايين المجموعات



(د) والنجوم فى أفلاكها تدور حول مركز ثابت نطلق عليه نواة المجرة ، فتكون المجرات السماوية بملايين نجومها .

فراغ ذرى رهيب :

ولنرجع إلى منطق الأرقام فى عالمى ، ليتبين لكم مقدار ضآلة نواتى . . فمساحتها أصغر من مساحتى ككل بحوال مائة مليون مرة . أو أن النواة لا تحتل من تكوينى إلا جزءاً واحداً من مليون بليون جزء !

وأعود لأذكركم بأن بلورة صغيرة من السكر تحتوى على مليون مليون مليون ذرة . . وهكذا تتبين لكم ضآلة الذرة ، ثم ضآلة نواتها التى تسكن جوفها ، فحجمها — أى حجم نواتى — قد قدره علماؤكم بحوالى جزء أو جزأين من بليون بليون بليون بليون جزء من المليمتر المكعب (واحد على يمينه ٣٦ صفراً . . ثم العلامة العشرية) !

وإنى لأعجب وأتساءل : هل يمكن أن يكون لهذا الرقم مغزى ومعنى فى عقولكم ؟ . . لست أدرى !

ومع ذلك ، فلنواتى هذه شأن كبير فى عالمى ، وسترون فيما بعد أنها ما زالت نظاماً من داخل نظام ، برغم ضآلتها الخيالية . .

وقد تتساءلون : ولكن . . ماذا يشغل الحيز الباقى فى الذرة ؟

وقبل أن أجيبكم عن تساؤلكم هذا ، أود أن أوضح لكم أمراً . . فهناك من يريحهم القول بأن نظام بنائى هو تكرار لنظام بناء المجموعة الشمسية . . أى أن الشمس هى نواة الكواكب . . وعلى مسافات بعيدة جداً تدور حولها كواكبها فى مدارات خاصة . . وإلى حد ما تدور حول نواتى إليكترونات تحمل شحنة كهربية سالبة ، لها مدارات خاصة ، كما لكواكبكم مدارات حول شمسها . . . إلا أن إليكتروناتى تدور حول نواتى على مسافات بعيدة جداً . . والتشبيه هنا نسبى لأننى غاية فى الضآلة ، ولهذا سأقدم لكم صورة ملموسة لتستوعبها عقولكم التى أضناها الفكر . .

فلو تصورتم أننى قد تضخمت مليون مرة ، فإن حجمى لا يزيد على حجم نقطة من هذه النقط الموضوعة فوق حروفكم أو تحتها ! . . وفى هذه النقطة لا تستطيعون أن تكشفوا عن نواتى ، لأنها أصغر من النقطة ملايين المرات . . وعليكم أن تتخيلوا أنكم كبرتم النقطة حوالى عشرين ألف مرة ، إذن تستطيعون أن تروا نواتى فى داخلها كحبيبة دقيقة من رمل (أى لا بد أن نكبر الذرة عشرين ألف مليون مرة لنرى نواتها كنقطة) !

وهكذا تتبين لكم المسافات الكبيرة (النسبية) التى تفصل بين نواتى وبين إليكتروناتها التى تدور حولها . . ومنها سوف تعلمون كم أنتم « منفوخون على الفاضى » !

تقولون : كيف ؟ . . وأقول لكم كيف . .

إننا معشر الذرات نبني أجسامكم . . كربونًا وإيدروجيناً وأوكسيجينًا ونيتروجينًا وفوسفوراً وجيراً وحديداً . . إلخ . . إلخ ، كلها يترابط بعضها ببعض فى جزيئات لتكون خلاياكم ، فأعضاءكم ، فأجسامكم . . هذه واحدة !

والثانية . . أن المسافات بين نواة الذرة وإليكتروناتها كبيرة جداً ولا يحتلها شيء على الإطلاق « إنها فراغ ، وإنها عدم » . .

والثالثة . . أن الإليكترونات فى مداراتها هى التى تحدد للذرات حجومها ، والإليكترون يدور حول نواته بسرعة فائقة ، حتى يتجنب مصيره المحتوم ، لأن لنوى الذرات شراهة ونهماً كبيراً للإليكترونات وسأحدثكم عن سر ذلك فيما بعد .

والرابعة . . أن ذراتكم تترابط فى أجسامكم عن طريق إليكتروناتها الخارجية ، أما النوى فلا دخل له فى هذا الترابط . .

ماذا يحدث لو توقفت إليكتروناتى عن الدوران ؟

عندئذ سوف تنجذب إلى نواتى ، وعليه سيضيع الفراغ ، وأفقد كيانى كذرة لها نظامها . . إلا أن مادتى التى تبنينى ما زالت موجودة ، ولكنها مكدسة إلى أبعد الحدود . . وسوف يتضاءل حجمى إلى مليون بليون مرة !

وماذا يكون لو توقفت كل الإليكترونات فى كل الذرات التى تبنى أجسامكم ؟

لو حدث هذا ، لكان من المفروض أن تبحثوا عن ميكروسكوب قوى لتنظروا من خلاله إلى أنفسكم . . والسبب بسيط ، ذلك أن

حجم الإنسان سوف يتضاءل حوالى مليون بليون مرة ، وعندئذ لن يزيد كيانه على كيان ميكروب لا تراه العين لضآلته !

معنى هذا أيضا أنكم تستطيعون أن تجمعوا كل سكان عالمكم البالغ عددهم أكثر من ثلاثة آلاف مليون نسمة فى حيز لا يزيد على حجم حبة من القمح .. ولكنكم لن تستطيعوا أن ترفعوا هذه الحبة ولو استعنتم على ذلك بأضخم الروافع التى تستخدمونها على أرضكم . فوزن حبتكم هذه لا يقل عن مائة مليون طن ! .

ألم أقل لكم إنكم « منفوخون على الفاضى » ؟ . . وإنه عندما يضيع الفراغ الذرى – والفراغ لا وزن له – من تكوينى ، فإن مادتى أو مادتكم تتكدس وتصبح ثقيلة إلى حدود لا يمكن تصورها ؟

إذن فكل وزنى مكدس فى نواتى ، أما الإليكترونات فبمثابة سحب خفيفة تدور حولها ، كما تدور السحب حول أرضكم . . مع الفرق طبعاً بين الأرض والذرة . . أضيفوا إلى ذلك أنكم لو استطعتم أن تجمعوا من المادة النووية ، التى تبنى نواتى ما يكفى لصنع مليم واحد ، فإن وزنه لا يقل عن مائتى مليون طن !

وهكذا يتبين لكم أن بحاركم ومحيطاتكم وجبالكم ، وكل هذه الأرض العظيمة وما فيها ، وما يدب عليها ، لا تحتوى من المادة الحقيقية إلا على جزء واحد من مليون بليون جزء . . والباقى فراغ . . أضخم فراغ . . كالفراغات التى تفصل بين الأجرام السماوية فى عالمكم . . وتقدرونها بملايين وبلايين البلايين من الأميال !

أصول الأشياء

لكل شيء أصل وبداية . . لا يختلف فى ذلك عالمنا الذرى ، عن عالمكم . . حتى هذه الحروف التى يكتب لكم بها صاحبي مذكراتى نيابة عنى ، كانت لها بداية ، فلكل قوم لغتهم وحروفهم ، فيكون التفاهم بين الناس فى عالمكم . .

وقد أحس صاحبي الآن بموجات إليكترونية تجتاح مخه ، فتتحول إلى أفكار . . وكأنما أفكاره تقول : كم من المجلدات والكتب والمجلات قد كتبت بحروف لغة لا يزيد عددها على ثمانية وعشرين حرفًا . . وبحروفكم هذه تستطيعون أن تشكلوا ملايين الكلمات . . فيكون لها معنى ، أو لا يكون !

ولولا هذه الحروف وما خطت . . لضاعت حضارتكم وعلومكم . . فهى الوسيلة التى سجل بها الأقدمون أحداث الماضى ، كما سجلوا بها أفكارهم ، وحفظوها من الضياع . . ولا شك أن ذلك للفكر الإنسانى حدث كبير وعظيم .

ولكن . . ما دخلى أنا فى هذا الموضوع . . وأنا ذرة لا صلة لها بلغة أو حروف ؟ . . أو هكذا ربما تتساءلون .

ولكنكم لستم وحدكم فى الكون . . فأنا أيضاً لى لغة ذرية بسيطة ، وحروف لغتى ثلاثة . . ولكن الذى يحدد معناها حرفان اثنان أساسيان بهما أستطيع أن أكتب كل ذرات الكون !

إلا أن كتابتى تختلف عما تكتبون وتخطون . . فى غلافى حرف ،

وفى نواتى حرف آخر ، وبهما « نكتب » . . فيكون الحديد والنحاس والقصدير والذهب والفضة والرصاص واليورانيوم . . وعشرات من العناصر التى اكتشفها علماؤكم فى أرضكم ، وفى الأكوان الأخرى التى تبعد عنكم ملايين الملايين من الأميال . .

وقد تقولون : ولكن علماءنا لم يتركوا أرضنا ، ليحضروا عينة من الشمس أو النجوم ، ليعرفوا العناصر التى تكونها . وهذا صحيح . . ولكنهم عرفوا أن للذرات الموجودة فى الكون لغة خاصة يرسلها الحرف الذى يسكن غلافها على هيئة موجات ، تلتقطها أجهزتهم ، وتحولها إلى خطوط محددة . . مثلها كمثل البصمات التى على أطراف أصابعكم ، وإن اختلفت طبيعة البصمات بين ذرات وبشر ! (شكل ٤) .

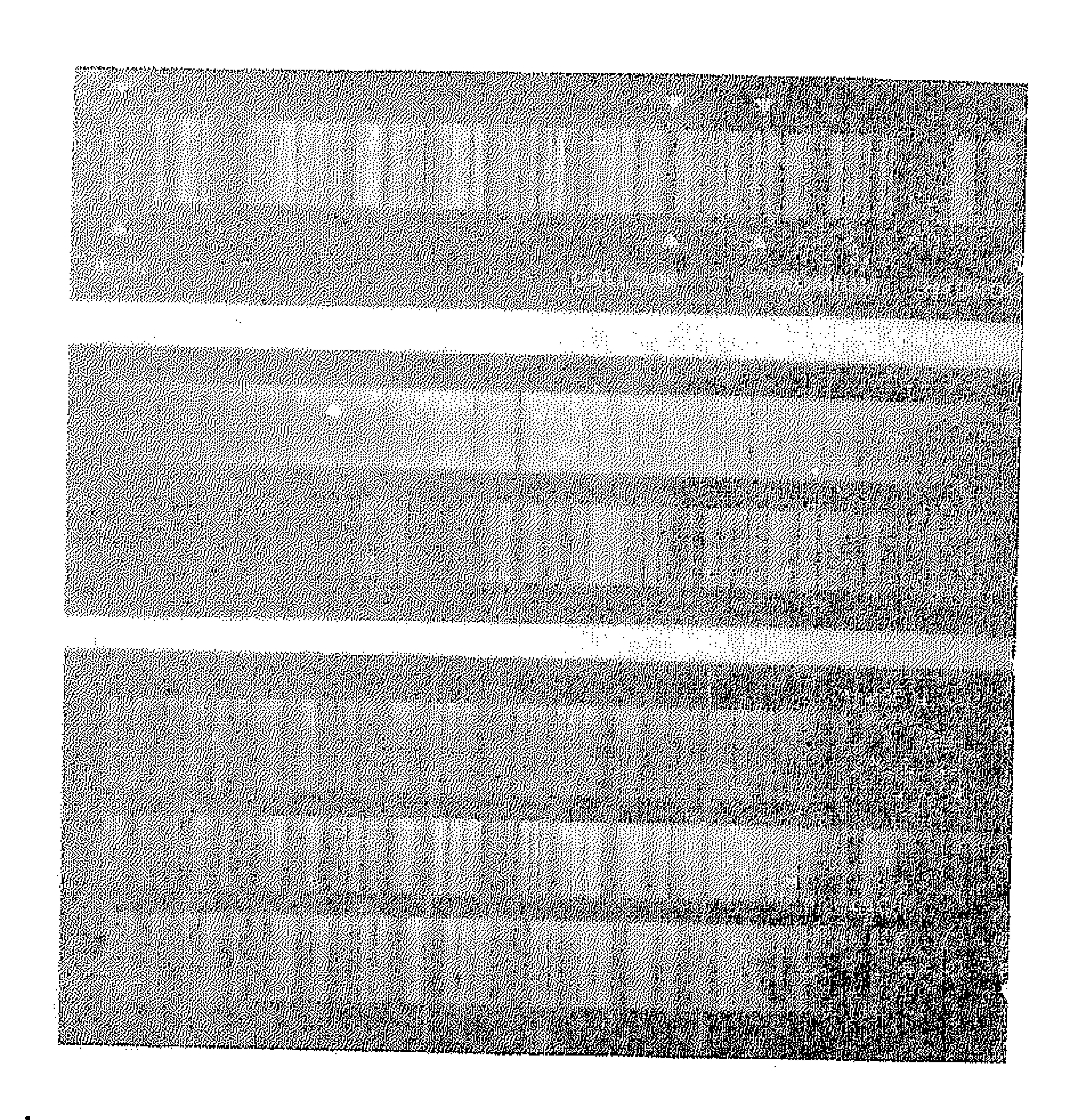
والإنسان منكم يعرف ببصماته . . وكذلك ذرات الكون . . إنها ترسل « بصماتها » لكم عبر الأكوان المترامية من حولكم ، حتى تصل إلى أرضكم ، دون أن تكلف علماءكم مشقة السفر فى أعماق الكون . . وما هم على ذلك الآن بقادرين !

إن هذا الكلام غامض وغريب على عقول الكثيرين منكم ، وأنتم تستعجلون التوضيح والتفصيل ، لكنى لست عجولة . . أى مستعجلة ، وسيتضح لكم ذلك من أسرارى المقبلة .

ليكن فى علمكم إذن أن لى حروفاً أخط بها . . وموجات « أتكلم » بها . . ولا يعرف هذا أو ذاك إلا نفر من علمائكم ، استطاعوا أن يفكوا خطى ولغتى !

جسيمات ذرية لتخط الذرات :

دعونى الآن أقدم سر حروفى ، ولكن بلغتكم أنتم التى أطلقتموها علينا . . وخذوا لذلك أبسط ذرة فى الكون كله : ذرة الإيدروجين . .



(شكل ٤) هكذا يوضح منظار الطيف أطياف العناصر المختلفة ، ولكل منها خطوط محددة تعطى كل عنصر فى الكون « شخصيته » ، وكأنما قد أصبحت بمثابة بصمات خاصة نعرفها بها كما نعرف شخصيات البشر من بصماتهم .

وأنا أضحك ، فتهتز إليكترونانى لضحكاتى ، فيثير ذلك صاحبكم ، نعم ، أضحك . . لأن أبسط الذرات تكويناً قد أخذت من عمر علمائكم عشرات السنين ، لكى يفهموا سر هذه البساطة . . علماً بأن اختنا ذرة الإيدروجين لم تكتب إلا بحرفين . . والحرفان ما هما إلا جسيمان مشحونان

بكهرباء . . الأول يسكن قلبها ، ويكون نواتها . . أبسط نواة عرفها الإنسان . . وقد أطلق علماؤكم عليه اسم البروتون . . والبروتون لعلمكم كلمة يونانية معناها الأول . . أو الجسم الأول . . وهو واحد من جسيمات ثلاثة ، تعرفونها باسم الجسيمات الأولية . . وبها يخط الخالق ذرات الكون .

وحول البروتون يدور إليكترون « يتيم » . . ولا بد أن يدور ، لأن هناك جاذبية جبارة بين البروتون الذى يحتل المركز ، وصاحبنا الدوار . .

وقد تتساءلون عن سر الجاذبية بين إليكترون وبروتون ، وكيلا تظنوا بنا الظنون ، كان لا بد أن أقطع عليكم الطريق فأقول : إنها جاذبية كهربية بين جسيمين يحمل كل منهما شحنة ، يود الآخر لو يحصل عليها . . مثلنا فى ذلك كمثل الإنسان العطشان والجوعان والمحروم ، فكل منهم يود لو حصل على جرعة أو لقمة أو أى شىء ينقصه . . فإذا حصل على بغيته ، زهد فيما حصل عليه . . هذه صورة ، وتلك أخرى !

إن البروتون مشحون بشحنة كهربية موجبة ، والإلكترون مشحون بشحنة كهربية سالبة ، وهذه لا بد أن تساوى تلك تماماً . . فإذا تقابلا ، تعادلا وضاعت الكهربية ، كما يضيع العطش والجوع والفقر فى وجود الماء والطعام والمال . . . وهكذا لا يعرف الشىء إلا بضده !

وأرجو ألا تسألونى عن معنى كهربية سالبة وموجبة ، فلست أعرف ، ولا صاحبى يعرف ، ولا غيره يعرف ، فإن كنت تعرف ، فدعنا نعرف ولك الأجر والثواب . . فهذه أسرار من طبائعنا ، أطلقتم عليها مسميات ورموزاً ، لتعرفوها . . ظاهراً ، لا باطناً .

نهم جبار :

هناك إذن نهم جبار ، وجاذبية شديدة بين الجسيمين . وقد قدّر أحد علمائكم شدة هذا الجذب بمثال ملموس من عالمكم ، فقال : لو تصورنا أننا كبرنا البروتون بلايين البلايين البلايين من المرات حتى أصبح فى حجم «بلية» أو حبة فول ، فإن شحنته الكهربية التى ستحملها «البلية» ستتضخم بنفس المقدار — وكذلك تتضاعف المسافة التى تفصل بينهما فى الذرة ، فتكون بتكبيرنا هنا حوالى مائتى متر . . فهل يمكن أن يكون هناك تأثير على مثل هذا البعد الكبير بين « البليتين » ذواتى الشحنتين المختلفتين ؟ . . وإذا كان هناك تأثير ، فما قوة الجذب الحادثة بينهما ؟

حسناً . . يجيب الرجل عن ذلك فيقول : لو أننا أتينا بحائط من أجود أنواع الصلب ، وكان سمكه مائتين من الأمتار ، ثم وضعنا إحدى « البليتين » على جانب والثانية على الجانب الآخر ، لوجدنا أنهما تنفذان فى حائط الصلب بالسهولة التى ينفذ بها أصبعك خلال قطعة من الزبد ! . . ذلك أن قوة الجذب بين «البليتين » — على مثل هذا البعد الكبير — تصل إلى أكثر من ٤٠٠ مليون طن ! . . أعطونى إذن عقولكم ، لأتخيل كما تتخيلون . . هذا إن كانت غير قاصرة على فهم مثل هذه الأمور !

ويصفها صاحبكم الذى يكتب عنى بصورة أخرى فيقول : لو ألصقنا كل « بلية » فى صاروخ جبار . . أكبر صاروخ صنعه الإنسان ليطلقه إلى الفضاء . . ثم أطلقنا الصاروخين وهما على بعد مائتين من الأمتار فى اتجاهين متضادين ، لجذبت « البليتان » الصاروخين بنفس

السهولة التى يجذب بها الإنسان صرصوراً مربوطاً فى خيط ! . .
من ذلك يتبين لكم شدة النهم بين « البليتين » . .

دعونا نعُد من عالم الأمثال إلى حقيقة الواقع فى ذرة . . فبالرغم من أن البروتون ضئيل غاية الضآلة ، فإن قوة الجذب بينه وبين الإليكترون قوة رهيبة من الصعب تصورها .

إذن . . بأى قوة يمكن أن نباعد بين هذا أو ذاك حتى لا تضيع الأكوان من حولكم ، وتموت الذرات . . وكل شىء خلق من ذرات ؟

عليه أن يتحرك . . فالحركة دليل الوجود ومظهر الحياة .

ولكن فى أى صورة يتحرك ؟

ماذا يفعل الإليكترون لكى يتجنب مصيره المحتوم ؟!

عليه أن يدور .. كما تدور الأرض حول شمسها ، أو كما يدور السيتوبلازم الحى فى الخلية حول نواته ، أو كما تدور النجوم فى مجراتها حول مركز ثابت . . فإذا توقف الإليكترون أو السيتوبلازم أو الأرض أو النجوم عن الدوران ، فقل على الذرة والخلية والأرض والنجوم السلام . .

إن الأساس واحد . . وإن اختلف المظهر ، وتعددت الصور . .

على الإليكترون — إذن— أن يدور حول نواته ، حتى يتجنب مصيره المحتوم . . ولو تكاسل أو تباطأ أو تلكأ ، فلا يلومن إلا نفسه ، لأن البروتون له بالمرصاد ، وقد يصبح الإليكترون فى خبر كان .. وهنا تضيع الذرات ككيان قائم . . وليست بضائعة ، فكل شىء فينا يسير بحساب ومقدار .

ولكن .. كم مرة يدور فيها الإليكترون حول نواته فى زمن محدد ؟ أى ما هو الوقت الذى يستغرقه لكى يكمل دورة واحدة ؟

إن أرضكم تدور فى مدارها حول شمسكم بسرعة ٢٩ كيلو متراً فى الثانية الواحدة ، وتكمل دورتها فى سنة . لو تباطأت بجذبتها الشمس ، وضعنا وضعتم فى أتونها ؛ ولو أسرعت ، لهربت من قبضتها وجذبها ، عندئذ تضيعون فى الكون . . وهذه الصورة من عالم الأجرام الضخمة التى تسكن الكون !

وإليكم الآن صورة من عالمنا الذرى الدقيق جداً . . فالإليكترون فى عالمنا لابد أن يدور حول نواته بسرعة ٢٢٠٠ كيلو متر فى الثانية الواحدة ، ولكن محيط مداره الذى يدور فيه ضئيل غاية الضآلة . . ولا يزيد على ثلاثة أجزاء من عشرة ملايين جزء من المليمتر . . وبعملية حسابية بسيطة أجراها علماؤكم ، يتبين لكم أن الإليكترون يتم دورته فى مداره فى ١,٤ من الجزء من عشرة آلاف مليون مليون جزء من الثانية . . أو بمعنى آخر لا بد أن يتم سبعة آلاف مليون مليون دورة فى الثانية الواحدة ويا له من جن صغير يريد أن يحافظ على كيانه من نهم نواته !

إن الرقم قد يبدو لكم خيالياً ، ولكنه رقم واقعى يشحذ عقولكم لكى تفهموا شيئاً من أسرارنا . . فدورانه يعطيه قوة تسمونها القوة الطاردة من المركز . . تماماً كالتى ترونها فى « صينية » الرجل الذى يضع محلولا مركزاً من السكر ، ويدير بسرعة قرصاً مثقباً ، فينطرد المحلول على هيئة خيوط دقيقة تسمونها « غزل البنات » . . ولكن شتان ما بين دورة إليكترون ودورة قرص . . وما بين القوة الطاردة فى هذا وذاك !

أقدار ذرية :

هذا عن الدوران والجذب والنهم بين بروتون وإليكترون . . فماذا ـ إذن ـ عن وزنهما وحجمهما ؟

أما عن وزن أولنا ـ أى البروتون ـ فهو فى حدود جزء ونصف جزء من مليون مليون مليون مليون جزء من الجرام .. وأما عن حجمه فحوالى جزأين من بليون بليون بليون جزء من المليمتر المكعب (اثنين على يمينها ٣٦ صفراً ثم العلامة العشرية !) ، ومن هذا يتبين لكم أن السنتيمتر المكعب من البروتونات يزن حوالى ٢٥٠ مليون طن . . ذلك أن حجمه أصغر كثيراً من وزنه . . ولهذا يتركز مركز الثقل عندنا فى النوى .. أما ما بين النوى والإليكترونات ففراغ مطلق . . ولهذا فنحن كذرات : « منفوخون على الفاضى » . . ودعنا من نفختكم أنتم . . فربما تقصدون بها شيئا آخر !

والواقع أن الفراغ الذرى كبير جداً ، بدليل أنه يستطيع أن يستوعب فى داخله أكثر من ألف مليون مليون بروتون . . واسألوا عن ذلك علماءكم إن كنتم لا تصدقون !

أما عن الإليكترون ، فهو أخف من صاحبه بحوالى ١٨٣٦ مرة ، إلا أن حجمه أكبر قليلا من البروتون . . ومع أن هذا ثقيل ، وذاك خفيف ، فإنهما يحملان القدر نفسه من شحنة كهربية موجبة وسالبة ، وأرجو ألا تقيسوا الأمور بأوزانها ، وكثرة أعدادها . . ولكن بما حملت من شحنات وطاقات . . فالإنسان ليس إنساناً بوزنه ، ولكن بما حمل من أفكار بناءة . . فالأفكار هى شحنته التى يسلك بها فى الحياة طريقه ، وهو طريق وعر كما يبدو لى . . وأرجو أن تهضموا كلامى هذا . . فربما كان ثقيلا على عقولكم !

ويكفينا هنا هذا القدر عن أختنا ذرة الإيدروجين ، فقد أخذت حقها من التقديم بما فيه الكفاية . . ولكنها كانت البداية . . أبسط بداية ! . .

بساطة البناء والخلق :

ثم تجيء أخت لنا يسمونها الهيليوم .. وليس هذا اسما مستحدثاً ، ففى شرق القاهرة ضاحية تسمى هيليوبوليس . . وهيليوس كلمة يونانية معناها الشمس ، وبوليس بمعنى مدينة . . أى مدينة الشمس . . والهيليوم عنصر موجود بكثرة فى الشمس ، ونادر على أرضكم ، إذن فليس شططاً فى القول أن يكون هو العنصر الأساسى للشمس مع الإيدروجين . . والطاقات الجبارة التى ترسلها شمسكم فى كل أرجاء الكون ليست إلا نتيجة تحويل الإيدروجين إلى هيليوم . . ولكن . . ما الهيليوم ؟

إنه ذرة تحتل المركز الثانى فى البساطة ، وقد كتب قدرها بحروف أربعة . . أو جسيمات أربعة . . اثنان يدوران حول اثنين . . بروتونان فى نواة يدور حولها إليكترونان فى مدار . . فيظهر عنصر جديد . ثم لو أضفتم بروتوناً إلى الاثنين ، لكان ثلاثة ، وبالثلاثة تكون نواة ذرة الليثيوم . . ولكى تصبح بناء ذرياً مكتملا ، لابد أن يدور حولها إليكترونات ثلاثة ، وتحتل المركز الثالث فى عناصر الكون .

ثم تجيء ذرات البيريليوم ببروتونات أربعة ، يدور حولها إليكترونات أربعة ، ودرجتها الرابعة فى « كادر » الذرات .

إنها إذن « لعبة » ذرية بسيطة . . أبسط من لعب الطاولة والشطرنج وما شابههما . . كل ما هنالك أن تضيف بروتوناً هنا ، وإليكترونا هناك

فتحصل على عنصر جديد . . له صفاته وسلوكه وطبائعه التى تميزه على غيره .

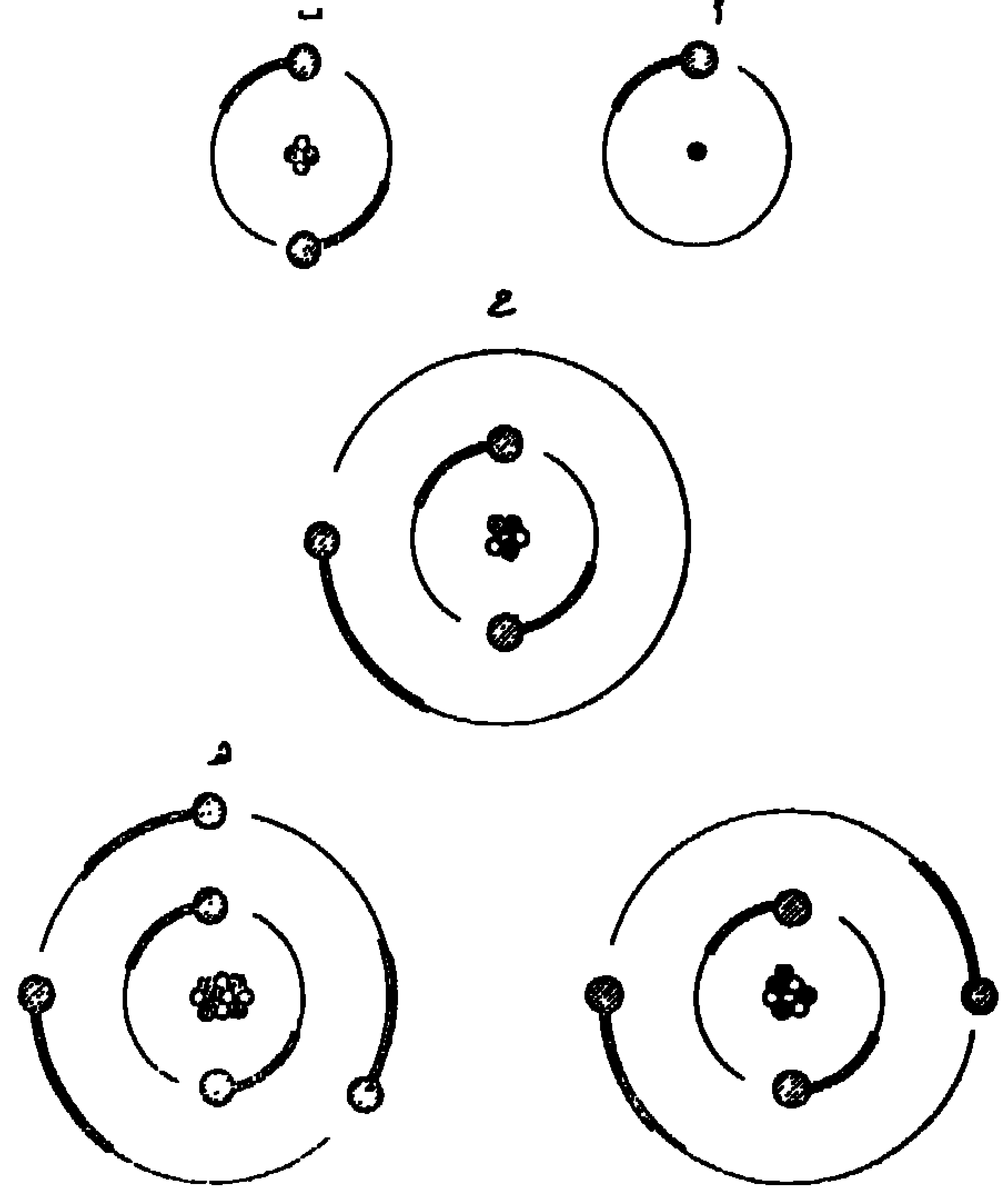
لهذا إذا أتيت إلى من درس شيئاً عن الذرات وسألت : ما العنصر الذى يسكن فى نواته عشرون بروتوناً (وبطبيعة الحال لابد أن يدور حولها عشرون إليكترونا) ، أجابك : إنه الكالسيوم . . وما العنصر ذو الخمسة عشر بروتوناً قال : إنه الفوسفور (شكل رقم ٥)

وعلى هذه الوتيرة يكون بناء الذرات الأخرى . . فببساطة نقول : إن عناصر الكون كله تبدأ بنواة فيها بروتون واحد ، فيكون الإيدروجين وتنتهى بنواة يسكنها ٩٢ بروتوناً ويدور حولها ٩٢ إليكترونا . . فيكون اليورانيوم . . أى أنك كلما صعدت سلم العناصر ، وأضفت بروتوناً ظهر عنصر جديد .

وإلى هنا يظهر لكم سر رائع من أسرارنا . . فأنتم تحبون الذهب ، وتتمنون أن تمتلكوا الذهب ، وليس الذهب ذهباً لأن بروتوناته وإليكتروناته من ذهب ، ولكنه عنصر فى نواته ٧٩ بروتوناً . . إذانقصت بروتوناً كان البلاتين ، وإذا زادت بروتوناً كان الزئبق ، وإذا زادت ثلاثة كان الرصاص . . وهكذا يتبين لكم أن الأمر كله يتوقف على عدد البروتونات . . لا نوعها .

وقد يقفز هنا فصيح من فصحائكم فيقول : تبًّا لهذه الذرة التى استطاعت أن تخدعنا وتخدع من يكتب لها مذكراتها . . فهل يمكن أن « يتعايش بروتون تعايشاً سلمياً » مع بروتون آخر فى نواة ذرة ؟

ويستطرد فصيحكم فى استنتاجاته فيقول : إن البروتون مشحون بشحنة كهربية موجبة . وبين الموجب والموجب تنافر ، كما أن بين الموجب والسالب تجاذب . . فكيف يعيش المتنافرون فى مكان واحد ؟ . .



(شكل ٥) من ثلاثة جسيمات أولية تبنى كل عناصر الكون (ا) ذرة إيدروجين فى نواتها بروتون واحد يدور حولها إليكترون (ب) درة هيليوم فى نواتها بروتونان ونيوترونان يدور حولهما إليكترونان (ج) ذرة ليثيوم فى نواتها نيوترونات ثلاثة يدور حولها إليكترونات ثلاثة فى مدارين (د) ذرة بيريليوم بنيوترونات أربعة وبروتونات أربعة يدور حولها إليكترونات أربعة (هـ) ذرة بورون بنيوترونات خمسة وبروتونات خمسة يدور حولها إليكترونات خمسة .. وهكذا يكون بناء كل ذرات الكون . .

أو ليست هذه خدعة لا تنطلى على أصحاب العقول المفكرة ؟

وفصيحكم هذا بصراحة فصيح . . « وخلق الإنسان عجولا » . . ومع ذلك أنا لست عجولا . . وقليلا من الصبر يافصيح ! فسأعود لأخبرك بما لم تستطع عليه صبراً !

وقد يقفز فصيح آخر فيقول : ولكن هناك جسيما ثالثاً يسكن مع البروتون فى نواة الذرة . . فهل له من فائدة ؟

وما أكثر الفصحاء فى عالمكم ، وهم لا يعلمون ! . . « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثًا » ؟ وكذلك لم يخلق جسيمنا الثالث عبثًا . . فله رسالة، ولوجوده هدف . . لكن قليلا من الصبر . فلكل شيء أوان !

أعود لأقول : إن علماءكم بعد أن فهموا بعض أسرارى ، استطاعوا أن يتوصلوا إلى تخليق عناصر جديدة لم تكن من قبل على أرضكم . . فآخر عنصر فى سلم عناصر الكون ، كان اليورانيوم ، وهو الجد الأكبر ، أو شيخ قبيلة من العناصر المشعة ، ورقمه ٩٢ . . إلا أن علماءكم قد أضافوا إلى هذه القائمة حوالى ١٢ عنصراً جديداً . . لقد خلقوها ، ليس من عدم ، ولكن بضرب نوى الذرات الكبيرة بجسيمات دخلت فيها ، واستقرت فى تكوينها . . فأصبح لديكم عناصر فى نواها ٩٣ و ٩٤ و ٩٥ بروتونا . . إلخ .

وهذه قصة طويلة من قصص الانتصارات العلمية التى يحق للعقل البشرى أن يفخر بها ويفاخر ، ودعونا منها الآن لنجيب عن أسئلة الفصحاء !

رسول السلام . . فى ذرة

لقد سأل الفصيح الأول سؤالا كبيراً جداً . . وهو فى ذلك على حق . . ولقد حير سؤاله هذا مئات العلماء سنين طويلة . . إذ كيف تتعايش جسيمات تحمل « المؤهلات » نفسها — أعنى الشحنة الكهربية نفسها — تعايشاً سلمياً فى نواة ذرة لا يزيد حجمها على عدة أجزاء من بليون بليون بليون بليون جزء من المليمتر المكعب ؟

إن قوة الجذب بين البروتون والإليكترون قوة رهيبة للغاية ، كما سبق أن حدثتكم عن ذلك . . وهذا يرجع إلى اختلاف شحنتيهما . .

وعلى العكس من ذلك تماماً تكون قوة التنافر والطرد بين بروتون وبروتون ، أو بين إليكترون وإليكترون . . وهذا أمر طبيعى بين جسيمات تحمل الشحنات نفسها . .

ونحن ، معشر الذرات ، لا ننتظر منكم أن تحلوا لنا مشاكلنا ، أو أن تمهدوا للكارهين المتنافرين فى عالمنا حياة مستقرة مترابطة ، لا تعرفون لمثلها فى الكون نظيراً !

إننا معشر الذرات ، نرثى لحال الإنسان . . فكلما زاد تقدمه زادت مشاكله ، وكأنما هو يحتاج إلى رسول سلام ليجمع شمل المتنافرين فى عالمه — تماماً كرسول السلام الكامن فى بناثنا . .

حقاً . . ما أعجب عالمنا ! وما أغبى عالمكم ! . . ولا مؤاخذة !

الواقع أن هناك « كرها » حقيقياً وجباراً بين بروتونين ، وأن هذا إذا اقترب من صاحبه ، ودخل فى مجاله ، فإنه يطرده بقوة

لا تستطيعون تصور ضخامتها بمقاييسكم الأرضية .. مثلهما فى ذلك كمثل ملك وملك ، أو رئيس ورئيس فى دولة ، أو حتى « ريس وريس » فى مركب . ولا يمكن بطبيعة الحال أن يتواجد إلهان ، فلا بد حينئذ من أن يختلفا ، ولابد أن يفسد الكون تبعا لذلك ، « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » . . كذلك لابد أن يتواجد رئيس واحد فى الدولة أو فى المصلحة أو فى العمل أو حتى فى المركب ، حتى لا يغرق المركب أو تدب الفوضى فى الدول أو المصالح . .

إذن . . لابد أن يكون هناك بروتون واحد كبير يحتل « العرش » النووى ، ويصرف أمور الذرة . . أو ربما هكذا تقيسون أمورنا بمقاييس عالمكم ، وأنتم فى هذا مخطئون كما أخطأ فى حقنا من سبقوكم . . ولهذا « أدرنا لهم ظهورنا » ، ولم نمنحهم أسرارنا الغالية . . ومنحناها من استحقها . ومنحتموهم بدوركم جوائز تطلقون عليها جوائز نوبل ، تكريما لعقولهم !

والواقع أن هناك بروتونات — وهى التى تحدد « شخصية » الذرات — كلما زاد فيها « الحشر » ، زادت أعباؤها تبعاً لذلك ، حتى إذا وصلنا إلى النوى الكبيرة فى ذرات اليورانيوم والراديوم وغيرهما ، وجدناها نوى غير مستقرة ، ولهذا يسمح « بالهجرة » للجسيمات التى ترغب فى ذلك ، وهنا تقولون إنها نوى مشعة ، وما الإشعاع إلا ثورة داخلية لكثرة ماتكدس من « سكان » يكره بعضهم بعضاً . . وسأوضح لكم ذلك فيما بعد .

كراهية جبارة بين مؤهلات واحدة :

علىّ الآن أن أطلعكم على شدة الكراهية أو الطرد الكائن بين بروتون وبروتون يسكنان نواة ذرة . .

لقد قدر علماؤكم قوة هذا الطرد بما يعادل ٤٥ كيلو جراماً . . قد يبدو هذا الرقم صغيراً أمام عيونكم ، أو فى عقولكم ، ولكن لو عدتم وتذكرتم مقدار ضآلة البروتون وزناً وحجماً ، لتجسد هذا الرقم الصغير وأصبح رقماً كونياً لا تدركه عقولكم !

فلو تصورتم أنكم قد كبرتم البروتون ، ليصبح فى حجم « بلية » صغيرة وزنها جرام واحد ، فإن قوة الطرد الناشئة بين « البليتين » تكفى لرفع كتلة أكبر من كتلة الأرض .. هذا ، ووزن أرضكم يبلغ ٦٠٠٠ مليون مليون مليون طن !

وبرغم قوة الكراهية والطرد ، فإن الحياة تسير فى النوى ، وكأنما « النفور » قد انقلب إلى « محبة » واتحاد ، فعاشت البروتونات فى سلام . .

ولكى تعرفوا يابنى الإنسان مدى قوة هذا الترابط العظيم ، الذى حل محل الكراهية والتنافر يجب على صاحبى الذى يكتب عنى أن يسوق لكم ما قرأه يوماً عن تشبيه ذكره جورج جاموف — أحد علماء الطبيعة الذرية المرموقين — قائلا : لو تصورتم أننا حصلنا على مادة نووية تكفى لطلاء سلك طوله سنتيمتر ، فإن هذا الطلاء الخفيف ، يعطى سلككم الضعيف تماسكاً وصلابة تكفى لحمل كتلة وزنها ألف مليون طن !

إن أرقامنا هذه ليست من وحى الخيال ، بل هى دليل متواضع على الطاقات النووية الكامنة فى قلوبنا . . فهى أكبر مما تتصوره عقول البشر . . تماماً كالأرقام التى أسوقها لكم من عالمى الداخلى . . عالم النوى وما حوى ، ويكفيكم رعباً وفزعاً ذكر كلمة حرب نووية ، لا تبقى ولا تذر . . عندئذ يتبين لكم معنى ضخامة الأرقام ، فلا تمروا بها مر الكرام .

دعونا من ذلك الآن ، فسنعود إليه ، وعلينا أن نتعرض لرسول السلام

الذى استطاع أن يوفق بين المتنافرين فى تكوين نواة ذرة . .

فمنذ أكثر من ثلث قرن من الزمان ، وبعد أن اكتشف علماؤكم طبيعة الجسيمات التى تسكن النوى ، بدءوا يطرحون تساؤلا كبيراً ، كالذى طرحه فصيحكم . . أى كيف تتعايش جسيمات مشحونة بكهربية موجبة فى نواة ذرة ؟ . . وما سر تلك القوى الرهيبة التى تسيطر عليها ، فتتغلب بذلك على قوى الطرد الكامنة فى جسيمات على مستوى واحد من « المسئولية » الكهربية ؟

فريق من الناس يريحهم القول: « هكذا خلقها الله » .. وفريق آخر يفكرون فى خلق الله ، وتجذبهم روائع الأسرار الكامنة فى الأشياء فيسعون إلى حل ألغازها ، فإذا وصلوا ، هدأت نفوسهم ، واطمأنت قلوبهم ، وقدروا الله حق قدره . . تماماً كما يعبر عن ذلك الرسول الكريم : « ما فضلكم أبو بكر بكثرة صيام ولا صلاة ، ولكن بسر وقر فى صدره » . . وإن ما وقر فى صدور بعض العلماء من روائع الخلق ، وعظمة الأسس التى قام عليها البناء ، لفضل من الله عظيم !

رسول ذرى مرتقب :

قال العلماء : لا بد من « رسول » ذرى يجمع شمل المتنافرين فى ذرة.. ولكن . . من ذلك الرسول ؟ . . وما طبيعته ؟ . . وهل نستطيع أن نتعرف عليه ؟

وأمسك علماء الرياضيات بورق وأقلام ، وانسابت عصارة أفكارهم لتسجل بالمعادلات والحسابات الدقيقة أسرار الذرة ، علّهم يصلون إلى التنبؤ بوجود شيء لم يتوصل إليه علماء الذرة التجريبيون . .

وفى عام ١٩٣٥ خرج عالم الرياضيات اليابانى الشاب هيديكى

يوكاوا بأنباء « الرسول المرتقب». والغريب أنه من خلال معادلاته الرياضية – التى كانت امتداداً لمعادلات علماء سابقين – قد تنبأ مقدماً بوزن الجسيم الذرى المرتقب ، وقال : إن وزنه يروح ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ مرة قدر وزن الإليكترون ، أو إنه أصغر من وزن البروتون بحوالى ٦ – ٩ مرات ولهذا أطلق عليه اسم « ميزون » . . والميزون كلمة يونانية معناها « الوسط » وأحياناً تسمعون هذه الكلمة فى المقاهى ، فينادى « الجرسون » : « قهوة ميزو » . . أى وسطا فى حلاوتها !

والغريب كذلك أن هيديكى قد أشار مقدماً إلى عمر « ميزونه » المرتقب .. وقال : لو قدر للعلماء التجريبيين أن يخرجوه من مكمنه .. أى من قلوبنا – قلوب الذرات – فإنه لا يستطيع أن يعيش فى عالمكم أكثر من جزء واحد من أربعين مليون جزء من الثانية . . وليس معنى هذا أن « رسولنا » الذرى لا يستلطف عالمكم . . ولكن لأن عالمكم ليس مكاناً مناسباً لحياته !

ولقد كان هذا النبأ ، الذى خرج به هيديكى على الملأ ، أجرأ نظرية علمية يقدمها شاب فى مقتبل العمر . . ولكنها لا تساوى شيئا مادامت حبراً على ورق . . وما أكثر ما خط الناس على الورق ! . . بعضه لايساوى قيمة الورق، وبعضه جواهر ثمينة . . نادرة كندرة الماس !

لو تحقق شىء مما نادى به هيديكى ، لاستحق عليه جائزة نوبل بجدارة ، ولكتب اسمه فى سجل الخالدين . ولقد كانت معادلات هيديكى صعبة عويصة ، ولهذا حور الظرفاء منكم اسمه إلى « هيديك » وأنا كذرة لا أعرف لها معنى ، ولكن صاحبكم يقول : إنها كلمة إنجليزية معناها الصداع ! . .

إلا أن علماءكم التجريبيين لم يتوصلوا إلى شىء . . وأخيراً توجهوا

إلى أبواب السماء فطرقوها ، ليس بدعوات تستجاب . . . ولكن بأجهزة علمية صنعوها ، وإلى طبقات الجو العليا أطلقوها ، حيث الصراع الرهيب بين الذرات ووابل منهمر من رصاص كونى تطلقون عليه اسم « الأشعة الكونية » ! وقد تتساءلون وتقولون : ما هذا الصراع الرهيب الحادث بين ذرات وأشعة كونية ؟

ولأترك صاحبي وصاحبكم ليجيب . . فلقد سئمت الأسئلة وكثرتها !

لكل عالم رصاصاته :

الواقع أن لكل عالم رصاصاته التى تناسبه . . فإذا أردت أن تدمر مدينة بأكملها ، فعليك بقنبلة ذرية ، وإذا أردت أن تهدم بيوتاً ، فعليك بقنبلة عادية ، وإذا أردت أن تقتل إنساناً ، فعليك مثلا برصاصة وإذا أردت أن تدمر خلية حية ، فعليك بميكروب . . والهادم دائماً أصغر من المهدوم ! . وكذلك عالم الذرات . . فلكى تضرب ذرة ، أو تهدم كيانها ، أو تغير من طبيعتها ، فعليك أن تسلط عليها ما يناسبها من عالمها . . أى أنك لا تستطيع أن تهدم كيان ذرة بمطرقة أقوى مطرقة . . أو أن تحطمها بالنار ، أقوى نار . . أو أن تسلط عليها أعظم قوة من القوى الجبارة التى نستخدمها فى حياتنا ، إلا فى أجهزة علمية جبارة نطلق عليها اسم المعجلات أو المفاعلات الذرية . .والمعجل الذرى — ببساطة — ليس إلا جهازاً تدفع فيه الجسيمات الذرية ، أو نوى الذرات الصغيرة ، بسرعة كبيرة تصل إلى عشرات الألوف من الأميال فى الثانية الواحدة ، وكلما زادت سرعتها ، زادت طاقاتها (وبالتالى قوتها التدميرية) ، إلى أن تصطدم فى النهاية بهدف معين يحطم بعض نوى ذراته ؛ أو قد يمتص النوى بعض هذه الجسيمات

وهنا تتطاير إلى أشلاء ، وفى أشلاء الجريمة النووية : يبحث العلماء عن الأسرار التى ربما كانت عليهم خفيَّة !

ولقد لجأ العلماء إلى الفضاء قبل أن يتوصلوا إلى إنشاء معجلاتهم الذرية ، علَّهم يستفيدون بتلك الجسيمات المنهمرة ، ذات الطاقات الرهيبة ، التى تأتينا من الشمس والنجوم ومن أعماق الكون البعيد . . فتضرب فى ذرات غلافنا الهوائى ، فتحطمها تحطيماً . . والواقع أن طاقات الجسيمات الكونية أكبر بملايين المرات من طاقات الجسيمات التى ندفعها فى معجلاتنا أومفاعلاتنا الذرية . . ومن هنا أرسل العلماء بالونات مزودة بأجهزة علمية ، لكى تسجل الأحداث التى تتم فى طبقات الجو العليا بين الجسيمات الكونية والذرات ، فلعل رصاصة من هذه الرصاصات النووية ، تضرب قلب ذرة ، فتبوح لنا بأسرارها . . وما أسرارها إلا جسيمات من داخلها ، تخرج وتنطلق بسرعة كبيرة ، وفى أثناء انطلاقها ، تسجل آثارها على لوحات فوتوغرافية حساسة ، أو صندوق صغير يطلقون عليه « غرفة الغيوم » أو غير ذلك من أجهزة صمموها بطرق خاصة ، فتسجل « آثار أقدام » قد تتركها الذرة بعد موتها !

وإلى هنا تدخلت الذرة التى تشاركنى أفكارى ومخى ، لتكمل لكم حديثها :

* * *

قد تقولون : وهل تموت الذرة حقَّاً ، كما تموتون ؟

ليس ذلك تماماً . . وإن كانت الفكرة واحدة فإن الأساس يختلف باختلاف طبيعة الشىء . .

فنحن على ضآلتنا نظام قد يتهدم ، فيتحلل ، ويختفى كنظام * .

ولكن لا شيء إلى فناء !

والإنسان نظام قد يتهدم ويموت . . ولكن ليس أيضاً إلى فناء وكذلك كل الأكوان . . ولكي أوضح لكم أكثر أقول : الكون كله لا يخرج عن شيئين : مادة وطاقة ، والمادة تستطيع أن تمسكها بيديك ونحن الذين نكونها ، ولكنكم لا تستطيعون أن تمسكوا بالطاقة . . إنكم تحسون بها فقط . . تحسون مثلا بطاقة فكرية أو حيوية ، جاءت أساساً من تفاعلنا الذى نجريه ونحدثه فى خلايا المخ والعضلات . .

إذا توقف النظام المادى عن التفاعل، توقفت الطاقة . . وكان الموت .

وكذلك الحال فى مجتمعاتنا الذرية . . إذا اختفت المادة ، ظهرت الطاقة ، وإذا اختفت الطاقة ، ظهرت المادة . . فهذه تقود إلى تلك ، أو كأنهما وجهان لشيء واحد ، فكلتاهما تقود إلى الأخرى . وسأطلعكم فيما بعد على سر ذلك . .

نعود الآن إلى صاحبكم « الصداع » . . أقصد هيديكى ، وإلى العلماء الذين يطرقون الفضاء بأجهزتهم العلمية لعل رصاصة كونية تصيب أختاً لنا فى قلبها ، فيخرج سرها ، ومعه قد يخرج لكم هذا الرسول الذرى المرتقب ، بعد أن ظل زمناً طويلا يؤدى رسالة السلام فى عالمه، دون دعاية أو ضجة يحيط بها نفسه ، كما يفعل البشر فى مجتمعاتكم ليظهروا للناس أهميتهم . . « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

ظهور « الرسول الدجال » :

ثم نعود إلى ميزوننا المرتقب . . فقد عادت الألواح الحساسة من الفضاء بنبأ عظيم ، فعليها « آثار أقدام » لم يرها العلماء من قبل !

إن الأنباء الواردة تؤكد أن جسيماً كونياً قد أصاب نواة ذرة بضربة قاصمة ، فتطايرت أشلاؤها ، « وليرحمها الله » ! . . وفى أشلاء الجريمة النووية يبحث علماؤكم عن دليل قد يكون خافياً عليهم ، وأدلتهم هنا مسارات خاصة تتركها الجسيمات على الألواح الحساسة ، ومنها يستطيعون تحديد نوع الجسيم ووزنه وشحنته الكهربية وطاقته وعمره ، وسلوكه مع الجسيمات الأخرى التى تكون عالمه . . فقد يتجنبها ويهرب منها ، وقد ينجذب إليها ، وقد يموت هو ليظهر غيره إلخ .

إن مسار الجسيم الجديد ينبئ العلماء أن وزنه أكبر من وزن الإليكترون بمائتى مرة ، وأن عمره حوالى جزأين من مليون جزء من الثانية ! . .

إذن . . لا بد أن يكون هو ميزون هيديكى المرتقب . . وأنتم تحبون أن تقفزوا إلى الاستنتاجات قفزاً، دون أن تحاولوا أن تتأكدوا .. ولقد فعل علماؤكم الشيء نفسه وضحكنا نحن معشر الذرات . . وكأنما أردنا أن نصحب عقل الإنسان فى رحلة من رحلات الأسرار ، ليعرف ما نخبئه فى عالمنا الدقيق !

فبعد أن شرب العلماء نخب انتصارات معادلاتهم وعقولهم ، ظهر لهم فيما بعد أن ما خرج ثم مات لم يكن هو الميزون المرتقب ، بل كان « ابن » الميزون المرتقب . . وأرجو ألا تسألونى وتقاطعونى ، فسأخبركم بما لم تستطيعوا عليه صبراً . .

إن الميزون الذى خرج من تحطيم النوى ، لم يظهر اهتماماً بالبروتونات والنيوترونات التى تسكن النوى ، فلم ينجذب إليها ولم يتفاعل معها ، ولم يحاول أن يجمع شملها . . وبالاختصار . . لم يكن يحمل معه المؤهلات التى تؤهله لأداء رسالته فى عالمه . .

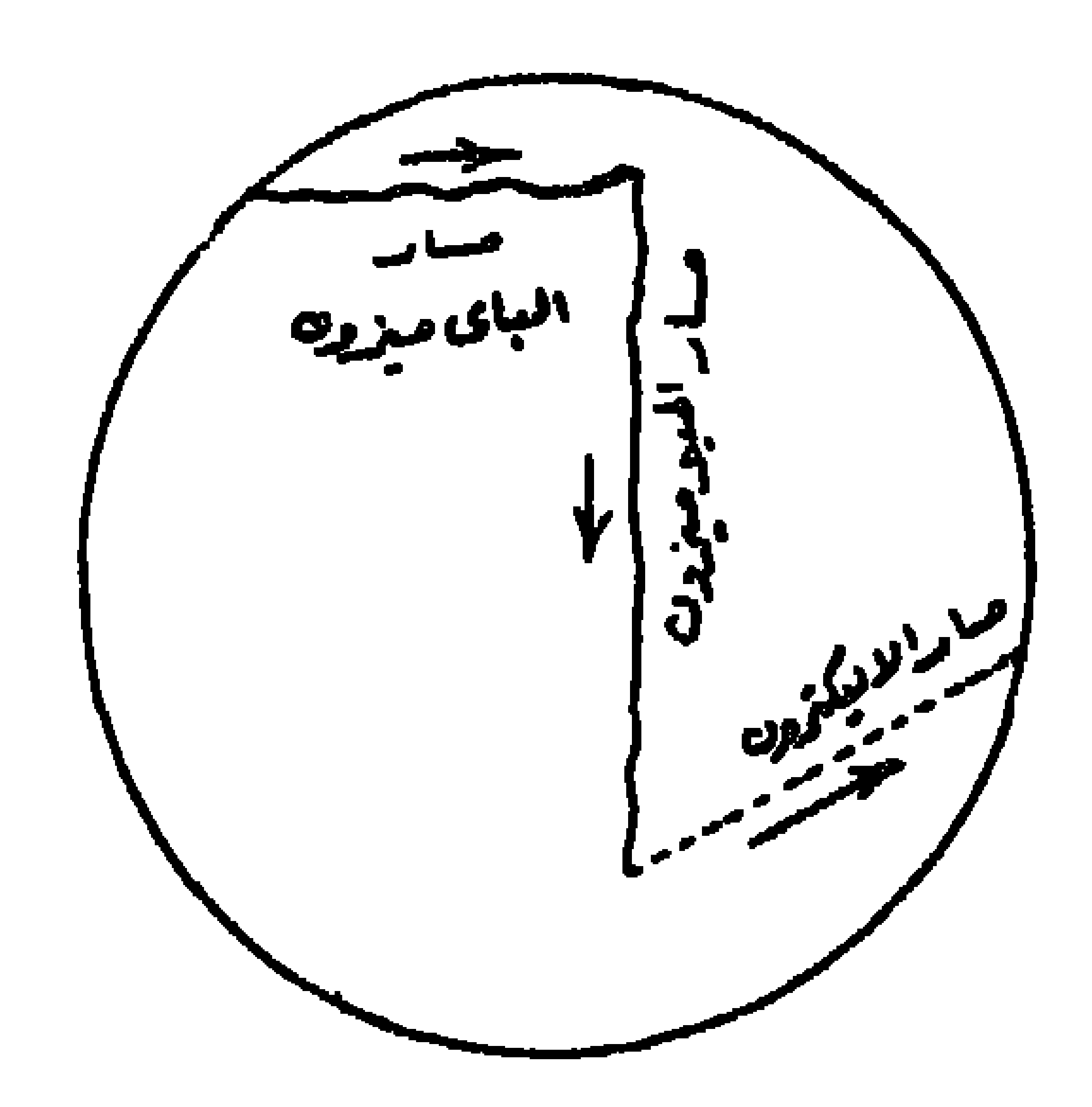
ولكن أول الغيث قطرة كما تقولون . . ولم يفقد هيديكى الأمل . . فربما ظهر ميزون جديد ، و بمؤهلات أخرى غير الميزون المكتشف .

وقبل أن أطلعكم على المزيد ، نعود إلى فصيحكم الثانى الذى أشار إلى وجود جسيم يسكن مع البروتون فى نواة الذرة .. وأظنكم قد التقطتم اسمه عندما ذكرته عفواً فى الفقرة السابقة التى كتبها صاحبكم . . إنه النيوترون . . والنيوترون جسيم وزنه قدر وزن البروتون ، ولكنه لا يحمل شحنة كهربية سالبة أو موجبة . . إذن هو جسيم متعادل ، وله فى عالمه رسالة ، سوف تتضح لكم بعد حين .

وهنا . . . ظهر الرسول المرتقب :

بعد عشر سنوات كاملة من اكتشاف ابن الميزون المرتقب ، أى فى عام ١٩٤٧ ، اصطاد أحد علمائكم — عالم الذرة الإنجليزى س . ف . باول — ميزوناً جديداً ، وبمواصفات جديدة ، فوزنه أكبر من الإليكترون بحوالى ٢٧٣ مرة ، وعمره لا يزيد على جزء واحد من مائة مليون جزء من الثانية . . ثم إنه يتفاعل بعنف مع المادة النووية . . وبالاختصار فإن هذه المؤهلات التى أشار إليها هيديكى بمعادلاته الرياضية مقدماً تنطبق عليه تماماً .. وها هو ذا فى النهاية قد ظهر ، وكان هو الرسول الذرى المرتقب ، وبظهوره منح « الصداع » اليابانى فى عام ١٩٤٩ جائزة نوبل ، وكان انتصاراً للعقل البشرى عندما انسابت عصارة فكره بحبر على ورق ! (شكل ٦) .

ولقد سارع علماؤكم بعد ذلك بتسجيل الجسيمات المكتشفة فى « سجل المواليد الذرى » ، فأطلقوا على الميزون المرتقب « الباى ميزون» وعلى « ابنه » الذى خرج بعد موت أبيه « الباى » اسم « الميوميزون » . .



(شكل ٦) عندما تضرب نواة الذرة بجسيم مندفع بطاقة رهيبة ، تتفتت ويخرج من جوفها عدد من الميزونات . – وعلى الألواح الحساسة تظهر مساراتها . . والرسم يبين ظهور الباى ميزون ، ثم تحلله إلى الميوميزون الابن ، وهذا بدوره يتحلل ليظهر الإليكترون فى نهاية الرحلة . . وهو ثابت لايتحلل .

والابن « الميو » أطول عمراً من أبيه « الباى » بخمسين مرة . . أى أن الميو لا يستطيع بدوره الحياة فى عالمكم ؛ فمساره يؤكد أنه لا يعيش أكثر من جزأين اثنين من مليون جزء من الثانية ، وبموته تخلفه ذرية جديدة من الإليكترونات « والأشباح » . . .

أشباح ؟ . . أشباح ؟ . . أشباح ؟ . . هكذا ربما ترددون ، وبالله تستعيذون !

لا تستعيذوا . . فأشباحنا ليست من نوع أشباحكم برغم أنها تتسلط عليكم ببلايين البلايين . . ولأشباحنا قصة طويلة ، لأنها لعبت مع علمائكم لعبة « الاستغماية » . . وقد ظلوا زماناً طويلا يبحثون عن وجودها ، وقد دوختهم بما سرقت ، وبه خرجت . .

سرقت ؟ . . . أفى عالمنا — عالم الذرة — سرقات ؟

نعم . . سرقت وخرجت ، ورقصت يمنة ويسرة . . وكان بعضها لبعض عدواً !

ولكن . . لا علينا من ذلك الآن ، فلشبحنا قصة طويلة ، سأخبركم بها فى حينها . .

عائلة غريبة :

لقد اصطاد علماؤكم جسيمات أخرى كثيرة ، وزاد الصيد ، وتخبط العقل فى الحيرة من كثرة ما اصطاد . . فلقد ظهر أن للميزون عائلة . . ولكن لا يهم أكانت عائلة ذات حسب ونسب ، أم عائلة بسيطة ، فليس من طبيعتنا أن نتفاخر بالأصل والأنساب . .

لا تقل أصلى وفصلى أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

لقد ذكرت لكم أن الباى والد الميو . . ولكن للميو جد ، كما أن للباى أب . . أو بلغتكم أنتم أن الميو حفيد لميزون أكبر اسمه « الكاف » (K-Meson) .

« وجدُنا » الرسول الكبير أصناف ثلاثة : المتعادل والموجب والسالب .

أما المتعادل فوزنه أكبر من الإليكترون ٩٦٥ مرة ، وعمره لا يزيد على جزء واحد من عشرة آلاف مليون جزء من الثانية . . أى أنه يولد ويخرج ، وبمجرد ولادته وخروجه يموت فى هذه الفترة التى لن تستوعبها عقولكم . . وبموته تخلفه ذرية على هيئة اثنين من البايات . . موجب وسالب . .

وأما الجدان الموجب والسالب ، فوزن الواحد منها ٩٦٦,٥ مرة قدر وزن الإليكترون ، وعمرهما لا يزيد على جزء واحد من مائة مليون

جزء من الثانية . . فإذا ماتا ترك كل منهما وراءه ثلاثة من الذُّرية . . من البايات ! والبايات – أبناء الكافات – تخرج من النوى المحطمة بصور ثلاث . . موجب وسالب ومتعادل . . وبمجرد خروج الإخوة الثلاثة يموتون . . إلا أن عمر « الأخ » الموجب أو السالب أطول من عمر « الأخ » المتعادل بأربعين مليون مرة . . معنى هذا أنهما طويلا العمر جدًّا بالنسبة للأخ المتعادل . . وهنا « أضحك » وقد تضحكون . . . لأن طويلى العمر بالنسبة لمعاييركم لا يعيشان إلا ٢,٦ من الجزء من مائة مليون جزء من الثانية . . ومعنى هذا أن عمر قصير العمر لا يتجاوز جزءاً واحداً من عشرة آلاف مليون مليون جزء من الثانية ! !

هذا عن أعمار البايات . . . أطال الله فى أعماركم . . فماذا عن ذرياتهم ؟

ليس للباى المتعادل ذرية كما لأخويه .. فبمجرد خروجه – أى بعد جزء من عشرة آلاف مليون مليون جزء من الثانية – يتلاشى تماماً ويفنى كمادة . . ولكن لا شىء إلى فناء . . ذلك أن صاحبنا يتحول إلى إشعاعات مدمرة كالتى تخرج من قنابلكم الذرية إذا أفلت زمام عقولكم . . فترون الجحيم على أرضكم . . رعاكم ربكم !

أما عن ذرية الأخوين – الموجب والسالب – فميون وشبح . . الموجب يلد ميوناً موجباً ، والسالب يلد سالباً . . والحية لا تلد إلا حية ، كما تقولون فى أمثالكم !

والميون الموجب – أو حفيد الكاف – يختفى بدوره من مسرح الأحداث فى ٢,٢ من الجزء من مليون جزء من الثانية . . ومن شابه أباه فما ظلم !

وبموته يخلفه إليكترون وشبحان . . وكذلك أخوه السالب . .

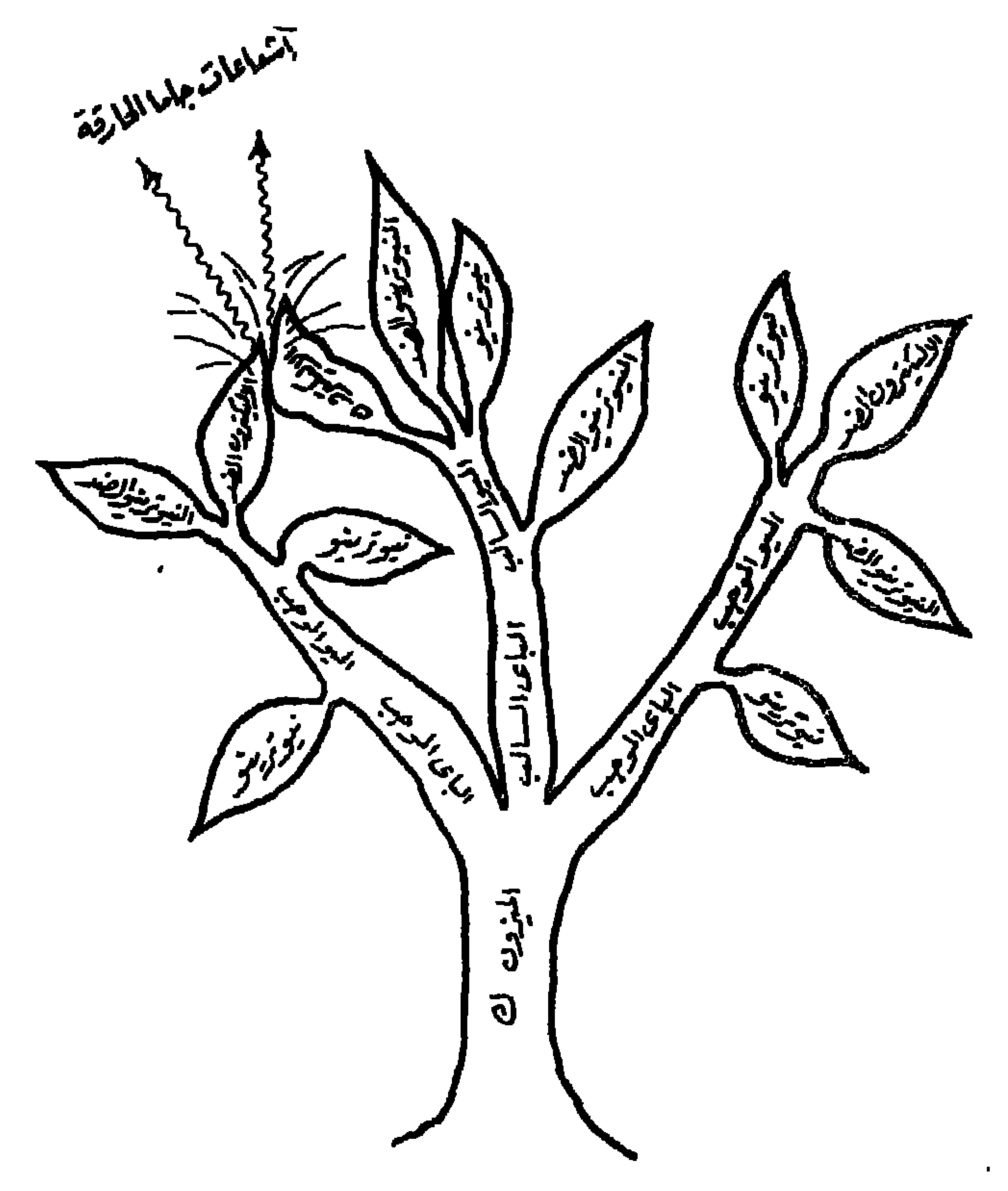
وحتى لايقفز هنا فصيح ثالث من فصحائكم ، فيعترض على ذريات الميون ، أسارع فأقول : إن الميون السالب يلد إليكتروناً سالباً ، وهو فرد عادى من أفراد مجتمعنا ، ومن النوع نفسه الذى يدور حول قلوبنا . . ولهذا فله الخلود فى عالمنا ، إلا إذا تقابل مع عدوه أوضده، « فيأكل » أحدهما الآخر ، ويفنيان تماماً كمادة .

وقد تتساءلون بدهشة : هل فى مجتمعاتنا ضديات أو عداوات ؟ . . وهل يهلك كيان العدوين إذا تلاقيا ؟

وجوابنا : أن ذلك هو الحادث تماماً . . ولا أظنكم نسيتم أن هناك كرهاً بين إليكترون سالب وسالب ، أو بين بروتون موجب وموجب . . وهذا قد عرضته عليكم من قبل بأمثلة تناسب عالمكم ، إلا أن الجديد هنا أن هناك المادة وضد المادة . . فإذا تقابلتا ، أفنت كلتاهما الأخرى تماماً ، فلا تصبح المادة مادة . . بل تتحول كلية إلى طاقة . . وهذا موضوع طويل ومثير ، أثار فى عقول علمائكم تساؤلات شتى عن أسرار هذا الكون العجيب الذى نحن لبنات أساسية فى تركيبه . . ولنؤجل هذا الموضوع إلى حين .

نعود إذن إلى موضوعنا — موضوع الميزون الموجب — فهو عندما يموت ، لا يلد إليكتروناً كما سبق أن ذكرت ، ولكنه يلد عدواً أو ضداً للإليكترون الذى يكوّن عالمنا . ودعنا من ذلك الآن .

هذه هى إذن أفراد عائلة جديدة تخرج من قلوبنا إذا تحطمت. ولقد أوحيت إلى صاحبكم الذى يكتب نيابة عنى أن يصمم لميزوناتنا « شجرة عائلة » . . وليس ذلك فخراً بالحسب والنسب ، ولكنه تبسيط للموضوع . . وشجرة بشجرة . . وشجرتنا أعظم ! (شكل ٧) .



(شكل ٧) شجرة عائلة لواحد من الميزونات الثقيلة — الميزون كاف — الذى يتحلل بمجرد خروجه إلى عالمنا إلى جسيمات أصغر وأصغر . . وفى النهاية يظهر الإليكترون وضد الإليكترون ، فإذا تلامسا — كما هو موضح فى الورقتين الموجودتين على يسار الرسم — فإن أحدهما يبيد الآخر ، ويتحولان إلى طاقة مدمرة تنطلق على هيئة إشعاعات جاما الخارقة (وسنتعرض لتوضيح ذلك فيما بعد) .

كيف يؤدى الرسول الذرى رسالته ؟

نعود الآن لنتساءل : كيف يؤدى رسول السلام – أى الباى ميزون الذى أشار إليه هيديكى – رسالته فى عالمنا ؟ . . وكيف يقوم بالتوفيق بين الجسيمات الكارهة ، فيجعل منها قوة متماسكة مترابطة لم يعرفها بشر ولا صخر ولا حديد ؟

لقد قدم لكم عالم الطبيعة الذرية جورج جامو صورة مبسطة لما يمكن أن تكون عليه قوة الجذب بين جسيمين فى وجود ثالث يجمع شملهما ، فقال : إن أبسط مثال يمكن أن نقدمه هنا ، هو أن نتصور كلبين جوعانين وجدا عظمة دسمة ، وبدافع الجوع الشديد يختطفانها ، فمرة تراها بين فكى هذا ، ومرة أخرى بين فكى ذاك . . وفى أثناء هذا الصراع على امتلاك العظمة يلتحم الكلبان بفكيهما مع العظمة بقوة (شكل ٨) . . وهذه صورة مبسطة للغاية توضح لنا معنى الالتحام بين جسيمين فى وجود ثالث (أى عظمة جامو وكلبيه) . . ثم صراعهما الجبار على امتلاك هذا الطعام « اليابانى » الذى تنبأ به اليابانى ووجدوه فى الميزونات !

إن صاحبكم يريد أن يضرب لكم مثالا آخر ، وأنا أسمح له بذلك فيقول : لو تصورنا أن البروتون كان رجلا ، وأن النيوترون كان امرأة . . وأن كليهما يريد أن يحتفظ بشخصيته التى خلق بها . . ثم لو تصورنا أن ظهر بينهما وليد شيطانى – ليس كأولادنا – لأن الوليد الغريب دائم القفز على الرجل والمرأة . . فإذا قفز على الرجل والتصق به ، حوله إلى سيدة ، ويسارع الرجل – حفاظا على جنسه – بإلقائه بعيداً فيقفز الوليد إلى السيدة ، فتصبح رجلا ، وهى تريد أن تحتفظ بأنوثتها



(شكل ٨) هكذا يتخيل جورج جامو — التبسيط — الباى ميزون كعظمة دسمة بين فكى كلبين جوعانين (هما بمثابة البروتون والنيوترون) . . ولكليهما نهم شديد للعظمة ، فيتخاطفانها ، وقد يلتحمان بفكيهما ، فتربطهما العظمة وكذلك يكون الباى ميزون بين البروتون والنيوترون .

فتقذفه بعيداً ، فيعود إلى الرجل ليتحول إلى سيدة ، وهكذا تتكرر الأمور .

ولكن . . ماذا لو تصورنا أن شيطاننا الصغير يقوم بعمله بسرعة كبيرة لا تتصورها العقول ؟

عندئذ لن يحس الرجل أنه قد تحول إلى سيدة ، ولا تحس السيدة أنها قد تحولت إلى رجل ، ولا يستطيع إنسان أن يتبين ذلك . . كما

لا يستطيع أن يتبين أذرع المروحة عندما تدور بسرعة ، برغم أنها موجودة .

نعود الآن إلى عالم البروتونات والنيوترونات التى تسكن نوى الذرات . . إن البروتون يقذف ميزوناً ، ويتحول إلى نيوترون . . والميزون المقذوف يلتصق بنيوترون ، فيحوله إلى بروتون . . ولكن النيوترون يريد أن يبقى نيوترونا ، فيقذف الميزون إلى البروتون الذى تحول من قبل إلى نيوترون ، عندئذ يعود النيوترون بروتوناً . . إلا أن العملية تسير بسرعة ضخمة للغاية ، ولهذا لن يحس البروتون بوجود بروتون آخر كاره ، لأنه لن يستطيع أن « يتبين » أنه على حالة بروتون . وهكذا تقوم الميزونات برسالتها ، وتحتفظ النواة بكيانها ، وكيان جسيماتها . . مثلها فى ذلك كمثل من يريد أن يحتفظ بين يديه بقطعة لحم خرجت لتوها من النار ، فعليه — لكى يحفظها — أن يدفعها بسرعة من يد إلى يد . . حتى لا تلسع هذه اليد ، أو تلك !

إذن . . كم مرة تتردد العظمة بين فكى الكلبين ، أو يتردد الشيطان الصغير بين الرجل والأنثى ، أو تتردد قطعة اللحم الساخن بين يدى الإنسان . . أو الميزونات بين البروتونات والنيوترونات ؟

من معادلة رياضية أمكن حساب عدد المرات التى تتبادل فيها الجسيمات ميزوناتها . . فإذا الباى ميزون يتردد بين البروتون والنيوترون فى الثانية الواحدة مائة ألف مليون مليون مليون مرة (واحد على يمينه ٢٣ صفراً) .

وكأنما البروتون بهذه السرعة الخيالية لا « يحس » بنفسه أنه بروتون . . ولا يحس ببروتون آخر يطرده . . وكأنما الجميع فى معمعة لا تعرف لها عقولكم قراراً !

ومن « الأمانة » الذرية التى يجب أن نسير عليها فى سلوكنا

ومجتمعاتنا : كان لابد أن أتكلم معكم بأمانة . . ذلك أن علماءكم الكبار جداً لا يعرفون كيف تتواجد الميزونات فى نواة الذرة بالصورة التى ترسمها لهم عقولهم ، أو بالصورة التى يعبر عنها البعض للتبسيط بأن الميزونات تمثل لنا غراء أو « إسمنتا » نووياً يشد الجسيمات بعضها إلى بعض . . ذلك أن علماءكم لا يتوقعون وجود الميزونات داخل النواة كما هى خارجها .

وقد ينفذ صبركم فتقولون بدهشة : ولكن الميزونات تخرج من النواة إذا تحطمت ، فكيف إذن لا يتوقعون وجودها فى داخلها .

أو ليست أمورنا غريبة محيرة ؟ . . هكذا ربما تتساءلون !

وأنا معكم فى هذا . . ولكن اسمعوا وعوا قول أحد علمائكم الكبار . . إنه يقول : إن الميزونات التى تؤدى رسالتها مع المتنافرين فى بنائنا النووى ميزونات كامنة . .

ولكن . . ما الميزونات الكامنة ؟ . . وما عددها فى نواة معينة ؟

يجيب عن ذلك صاحبكم فيقول : إن عالم الطبيعة الذرية أوتو فريتش مدير معمل كافندش للطبيعة الذرية بجامعة كامبردج بإنجلترا — وهو أشهر معمل من نوعه ، ومنه خرجت معظم البحوث الذرية العظيمة — يجيب عن ذلك بسؤال آخر : كم عدد القصائد الكامنة فى رأس شاعر ؟

إن أحداً لا يستطيع أن يجيب عن ذلك . . ولا الشاعر نفسه !

ويستطرد فريتش فيقول : ربما نجيب عن ذلك بالقول : إن عدد القصائد الكامنة فى رأس الشاعر ، والتى قد يخرجها ، لينشرها على الناس تتوقف على « الطاقة » المقدمة إليه على هيئة نقود أو جوائز أو تقدير . . إلخ . .

ويتابع فريتش افتراضاته الطريفة فيقول : إن البروتونات والنيوترونات متماسكة بعضها ببعض فى نواة الذرة بالميزونات الكامنة فيها . . وكذلك الشعراء والناشرون متماسكون أو مرتبطون أو متعاقدون بعضهم مع بعض على قصائد أو أعمال أدبية لم تكتب بعد . . فهى كامنة فى الرؤوس ، ولا يخرجها إلا تشجيع مادى . .

كذلك لا تخرج الميزونات الكامنة من نواتها إلا إذا قدمنا للنواة كمية من الطاقة ، لتظهر بها الميزونات وتخرج من كمونها ، فتسجلها أجهزتنا ، قبل أن تودع عالمها . . والطاقة تأتى مثلا من شعاع كونى أو من تفاعل ذرى . . إلخ . .

هل فهمتم شيئاً ؟ . . ولا أنا . . ألم أقل لكم إننى كون دقيق يحير العقول ؟

كون ذرى غريب :

كأنما التاريخ يعيد نفسه . . فلقد ظن فلاسفة اليونان الأقدمون ، أن الذرة هى أصغر صورة من المادة ، وأنها شىء صلب لا ينقسم إلى ماهو أصغر . . وفى نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، توصل علماؤكم إلى حقائق أكثر عن مجتمعاتنا . . فعرفوا أننا نتكون من نواة تسكنها بروتونات ونيوترونات ، ويدور حولها إليكترونات بعدد البروتونات . .

وبظهور الميزونات تخبط العلماء ، ووقفوا أمام سر كبير . . ربما أكبر من عقولهم . . وأخذوا يتساءلون : هل يمكن أن نتقبل مانادى به العلماء السابقون — أى منذ عشر سنوات فقط — عن كون البروتون جسيما أوليًّا ؟ . . أو أن البروتون بدوره بناء من داخل بناء ؟ . . أى

هل هو ذرة أصغر من الذرة ؟ . . أى هل هو نواة تحيط به سحب من الميزونات تترابط بعضها ببعض ، كما تترابط الذرات الكبيرة عن طريق إليكتروناتها ؟

إن الظن السائد حتى الآن أن البروتون أو النيوترون لم يعد كلاهما جسيماً أولياً بل هو نظام آخر لا تستطيعون أن تفهموه بعد . .

وقد يكون هناك طفل من أطفالكم لا يزال فى « اللفة » يصرخ ويبول على نفسه ، ثم يكبر ويطرح الله فيه البركة ، فيحل أسراراً لم تتوصل إليها عقول القرن العشرين ، أو ربما لم يولد هذا الطفل بعد .

ومع ذلك هناك عالم يدعى روبرت هوفستادر مُنح جائزة نوبل فى عام ١٩٦١ ، لأنه تجرأ وسأل السؤال الذى قدمناه فى أوائل النصف الثانى من القرن العشرين : أى هل البروتون أو النيوترون هما نهاية المطاف ، أو أنهما يتكونان من جسيمات أصغر وأصغر ؟

ولا يهم أن تسألوا ، لكن المهم أن تجيبوا عن أسئلتكم إجابات لها معنى وهدف . . وأنتم هنا أصناف . . فمنكم من يجيب ، ولو لم يعرف ، وهؤلاء هم ذوو « الفتاكة » فى عالمكم .. وإلا فكيف يظهرون أمام الناس أنهم جهابذة ذوو فتاكة ؟

ومنكم من يجيب عن قدر علمه .. « ورحم الله امرأً عرف قدر نفسه » .

ومنكم من يجيب بعد أن يكون قد حصل على الدليل . . وعلومكم التجريبية هى التى جعلت للعلم احتراماً بين الناس . . لأن أدلة علمائكم تتركز فى نتائج تجاربهم .

بدأ هوفستادر يرتاد سراً من أدق أسرار الكون ، فهو يريد أن يعرف سر البروتون أو النيوترون . . أى هل هو جسيم أولى بسيط

كنقطة مثلا ، أو أنه لا يزال بدوره بناء من داخل بناء برغم أن حجم الواحد منهما — كما سبق وذكرت لكم — لا يزيد على بضعة أجزاء من بليون بليون بليون بليون جزء من المليمتر المكعب ؟ !

لهذا صمم الرجل معجلا أو مفاعلا ذريًّا جباراً ، بلغ طوله حوالى ٣,٢ كيلو مترات ينساب فيه تيار من الإليكترونات تدفعها مجالات جبارة لكى تجرى وتجرى ، وتسرع ، حتى إذا وصلت إلى الهدف ، كانت سرعتها قريبة من سرعة الضوء . . أى أقل قليلا من ١٨٦ ألف ميل فى الثانية الواحدة ، وهدفها أن تضرب فى بروتونات ، لعل البروتون يبوح بسره من شدة « الصفعة » . .

البروتون ليس جسيما بسيطاً :

لن أطيل عليكم فى هذه التفاصيل . . فنى إحدى المحاضرات التى ألقاها هوفستادر على جمع من العلماء قال : « فى عام ١٩٥٤ تبين لنا من التجارب الأولية التى قمنا بها أن البروتون يسلك سلوكاً مختلفا عما يمكن أن نتوقعه من نقطة هندسية أو جسم صلب بسيط . .

وكان ذلك مجرد بداية ، أظهرت لنا أن البروتون يمكن أن يكون أى شيء آخر ، إلا أن يكون نقطة . . فلو أنه بعثر الإليكترونات التى تمرق من حوله أو تضرب فيه كما هو الحال مع النقطة الصلبة ، لقلنا : حسناً . . إن هذا جسيم بسيط . . هل أنتم معنا ؟

وعليه لا يمكن أن يكون البروتون مكوناً من جسيمات أدق فى حالة ما إذا كان نقطة بسيطة . . وقد وضح لنا أن البروتون ليس مادة مكدسة ، بل لا بد أن يكون نظاماً جديداً لا ندريه بعد . . وقد شجعنا ذلك على ارتياد هذا الطريق آملين أن نحصل على التركيب الدقيق

لهذا الجسيم الذى ظنوه جسيماً أوليًّا . . وما هو بذلك » . .

وبعد سنوات قليلة من البحث المتواصل قرر هوفستادر « أن للبروتون قلباً صلباً ككرة البلياردو (مثلا) ، وكلما تباعدنا عن مركز القلب وجدنا مادته ترق وترق حتى تصبح كشىء أشبه بالغيوم الخفيفة عند مشارفه ، ثم تنتهى بلا شىء » (الاعتقاد السائد الآن أن البروتون مكون من نواة ، وحولها تدور الميزونات) .

ومعنى هذا أن البروتون نظام آخر من داخل نظام .. أو كأنما هو ذرة أدق من داخل ذرة أكبر (والتشبيه هنا نسبى لأن حجم الذرة ضئيل جداً) . . ولكن ما الصورة التى يكون عليها هذا النظام البروتونى الجديد ؟ . . لا أحد يعرف تأكيداً !

إن الصورة الرائعة لمجتمعاتنا تبدو لكم الآن هكذا : لقد وجدتم المادة تتكون من جزيئات . . والجزيئات من ذرات ، والذرات فى قلبها نوى ، ومن داخل النوى نويات (بروتونات ونيوترونات) ، والنويات من شىء أشبه بسحب خفيفة ، والسحب تحيط بقلب صلب ، والقلب الصلب من . . . من . . . . من ماذا ؟ عليكم بهذا ، لعلكم تفهمون أسرارى . . فلقد فتح لكم هوفستادر باب كون آخر دقيقاً لم يتطرق إليه إنسان من قبل ، ولقد استحق على كشفه هذا جائزة نوبل . . ولو علمتم الحقيقة ، لاعتبرتم هذا الكشف — الذى كتبه صاحبكم فى سطور قليلة — من أعظم الكشوفات فى عالمنا . . إنه أشبه باكتشاف قارة جديدة لا يزال الإنسان يقف على مشارفها ، ولا يعرف ما بداخلها .. ولتدخل إليها أعظم العقول فى عالمكم ، وليجندوا كل إمكانياتهم المادية وليتجسسوا بكل أجهزتهم ، وليغيروا فى قوانينهم . . فلا شك أن لكل عالم من عوالمنا الدقيقة قوانينه الخاصة به ، وأنتم لم تتوصلوا إلى كل هذه

القوانين بعد . . إذ كيف تصيغون قوانين ، وتكتبون معادلات لشيء لم تعرفوا إلا أقل القليل عن أسراره ؟

لا بد إذن أن تهيئوا لذلك عقولا جديدة تستطيع أن تتقبل أسراراً أضخم وأضخم . . حتى إذا خرج أحدكم على الملأ بخبر من أخبارنا غريب ، لم تفعلوا به ما فعله غيركم بعلماء سابقين ، عندما أعلنوا عن أسرار تحكم مجتمعاتنا الذرية ، ولكنها كانت وقتها أسراراً غريبة على العقول ، ولا تسير بمنطق المعقول الذى هو جزء من حياتكم ، وكأنما تريدون أن تخضعوا الكون لحواسكم . . برغم أنها قاصرة كعقولكم . . وما أكثر ما يحوى الكون من أسرار . . لو أنها ظهرت على حقيقتها لتخبطت العقول وتاهت فى مجاهلها ، ولغرقت فى بحورها . .

ولقد أثبتت الأيام صحة ما نادى به هؤلاء ، وظهر أنهم كانوا محقين فيما خرجوا به على الناس . . بعضهم مات مغبوناً ، وبعضهم عاش حتى رأى ثمرة تفكيره . . فكرموه ورفعوه إلى أعلى الدرجات . . وسأخبركم فيما بعد ببعض ما نادى به هؤلاء . .

نريد عقولا جديدة :

وقبل أن أستودعكم الله هنا فى « قلبى » وما حوى من أسرار — وهى بطبيعة الحال ليست كأسرار قلوبكم — أقول : إن هناك نفراً من علمائكم يحاولون أن يحوروا المفاهيم الذرية الجديدة بنظرة أخرى تخالف ما استقر عليه علماء سابقون . . وهم فى الواقع لن يستقروا على شىء يريح فيهم العقول التى أضناها الفكر . . ومن هؤلاء عالما الرياضة أو الطبيعة النظرية بوم وفيجيير . . إنهما يريدان أن يحدثا تطوراً غريبا فى أفكار غيرهم عن سر المادة التى تبنيكم وتبنى كل شىء حولكم . . .

فزيد يتكون من كيان . . لحم وشحم وعظام . . وهذه تنتظم فى أجهزة وأعضاء وأنسجة . والأنسجة من خلايا ، والخلايا من جزيئات ، والجزيئات من ذرات ، والذرات من جسيمات أدق . . وبالجسيمات التى تسكن النوى نبدأ بداية جديدة فى عالم آخر لم يستقر عليه رأيكم بعد .

إن ما تسمونه جسيمات أولية ليست فى الواقع إلا أشياء أشبه بالغيوم التى تتركز فيها طاقات . . وكأنما الطاقات تتكون فى مكان وتذوب فى آخر . . ثم تتكون وتذوب . . وهكذا . . وكأنما هى دوامات نووية غريبة فى بحور مضطربة من جسيمات تكون قلوبنا . . فتبنى زيداً وأمثال زيد . والأرض والطعام والفراش وكل شىء حول زيد .

إن زيداً مادة حية منظورة .. ولكن لو سرتم إلى نهاية مطاف المادة التى تكون جسم زيد ، لوجدتموها طاقة مكدسة . . ولكنها تتخذ شكل المادة . . والطاقة لا تستطيعون بها إمساكاً . . ولكنكم تستقبلونها إحساساً كالطاقة الحرارية والكهربية والضوئية والحيوية . . إلخ . . فإذا تجمعت بنظام خاص فى بنائنا . . كانت زيداً وغير زيد . وهنا تستطيعون به إمساكاً !

وهكذا يريد بوم وفيجيير أن يحدثا ثورة فى عقولكم . . وكأنما ينادبان بأن كيانكم وكيان كل شىء حولكم .. ليس أساساً إلا دوامات غريبة فى بحور مضطربة فى قلوبنا . !

هل فهمتم شيئاً ؟ . . ألم أقل لكم من قبل إنه لا بد أن تهيأ العقول مقدماً حتى لا تقولوا إنهما مجنونان وأى مجنونين !

والواقع أن العلم والفلسفة (وربما الدين أيضاً) قد يلتقيان هنا ، وقد يفترقان . . فلديكم مدارس فكرية كثيرة تبحث فى القدرية والجبرية والاختيارية والمسببات . . إلخ .

وهذا موضوع طويل لن أتعرض له هنا . .

وقد تتساءلون وتقولون : غريب أمر هذه الذرة ؟ . . فما دخل هذا بعالم الذرات ؟

جوابى : أن علماءكم يتعاملون مع الأحداث الذرية التى تجرى فى كياننا ، كما يتعامل الفلاسفة والعلماء الآخرون مع الأحداث التى تجرى فى عالمكم . . أجبرية هى أم اختيارية . . وهم فى الواقع لن يستطيعوا الإجابة الصحيحة عن هذا أو ذاك ، لقصور فى العقل ، وجهل بالمسببات .

وكذلك أحداثنا ومسبباتها . ودعونى أقدم لكم فكرة عنها . .

فى قلوبنا نحن « معشر الذرات » أحداث غريبة وكثيرة ، وأحيانا تخرج هذه الأحداث ، فتسجلها أجهزتكم ، ولكن من الصعب جداً على علمائكم أن يعرفوا الأسباب الكامنة وراء هذه الأحداث .. ولو عرفوها بالدقة المتناهية ، لأصبحوا — فى هذه الحالة — فى مرتبة الآلهة !

إن أمثال بوم وفيجيير ينظرون إلى نظريات علمائكم الحاليين والسابقين وقوانينهم على أنها نظريات وقوانين قاصرة (منها نظرية الكم وميكانيكا الكم والنظرية الموجية . . إلخ) .. برغم أنها قد فسرت لكم كثيراً من الظواهر والأحداث التى تخرج من عالمنا ، وبرغم أنها قد أنارت لكم الطريق لتكشفوا عن الطاقات الرهيبة التى تتواجد فى قلوبنا ، فكانت القنابل النووية ، والسيطرة على الطاقة النووية ؛ وبرغم أنها قد تنبأت بأمور أثبتت التجارب فى النهاية صحتها . . ويكفيكم مثالا صاحبكم اليابانى هيديكى ، وما تنبأ به على الورق ، وسأخبركم فيما بعد عن نبوءات أخرى ثبتت صحتها . . وبرغم . . وبرغم كل هذا . . فإنهم غير راضين عنها .

لماذا غير راضين برغم أنها راسخة صامدة لكل ما تعرضت له من اختبارات قاسية ، كانت تخرج منها كالمعدن الطيب الأصيل ؟

أقول : لأنهم يريدون قوانين أدق . . قوانين تبحث فى الأسباب الكامنة من وراء الأحداث . . وهم يحاولون اكتشاف هذه القوانين ، ولا ندرى أيحالفهم التوفيق أم يخفقون .

ولكى تفهموا المزيد ، كان لابد أن أترك صاحبى وصاحبكم الذى يكتب لكم نيابة عنى ، ليحدثكم قليلا ، حتى استجمع « شتات أفكارى » لأطلعكم على المزيد من أسرارى . .

الواقع أن علماءنا المتطورين هؤلاء ينظرون إلى زملائهم العلماء الآخرين وكأنهم مديرون فى شركات للتأمين . . فكل ما يهمهم أن يحافظوا على رؤوس المال فى شركاتهم ، وأن تكون لديهم إحصائيات لمتوسط عمر الناس ، وهم يعرفون أن موت الشيوخ والعجائز أكثر احتمالا من موت الشبان ومتوسطى السن ، ولهذا لا يرحبون بأن يكون « زبائنهم » من المتقدمين فى السن .. صحيح أن الكل سيموت إن آجلا أو عاجلا .. لكنهم بالإحصائيات يستطيعون معرفة نسبة الوفيات بين « زبائنهم » . . ومنها يقدرون رؤوس أموالهم وأرباحهم !

إلا أن مثال بوم وفيجبير يريدون أن يكونوا أكثر دقة ، أى عليهم أن يبحثوا فى أسباب الموت . . فلكل ميتة سبب ، ولو استطاعوا أن يقدروا ما يجرى فى جسم المخلوق من أحداث عضوية وكيميائية وفسيولوجية إلخ بدقة تامة ، لعرفوا متى سيموت ، ولأصبحوا فى مرتبة الآلهة !

وكذلك الحال فى مجتمع الذرات . . فهناك أحداث تجرى بينها ، ولكننا لا نستطيع أن نعرف بدقة تامة ما يجرى فى ذرة . . صحيح أن هناك أحداثاً ، ولا شك أن من ورائها مسببات ، ولكنها ما زالت خافية

علينا . كما يخفى على بصائرنا كثير من أحداث عالمنا المنظور . فنقول إنها صدفة أو حظ أو قضاء وقدر . . إلخ ؛ وسوف نتعرض لهذا الموضوع المثير عندما نتناول بعض هذه الأحداث التى تجرى فى كيان الذرات .

ولهذا تريد صديقتنا الذرة « صاحبة المذكرات » . أن تربط بين ما يجرى فى عالمها . وما يجرى فى عالمنا من أحداث . وكأنما هى تقول : إن للعلم حدوداً . . وقد نصل أو لا نصل . . لسنا ندرى : فما زال الباب مفتوحاً ، ولا أحد يدرى ما نهاية المطاف ! . .

وكأنما الذرة التى تشاركنى تكوين مخى تذكرنى بآية . . وكأنما تقول : قل لهم : «حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها آتاها أمرنا ليلا أو نهاراً » !

ولأترك لها الحديث : فقد جاء دورها . .

* * *

هأنذا أعود إليكم . . بعد أن اختتم صاحبكم حديثه بآية قرآنية ، وعلىّ أنا أن أوحى إليه ليفتح لى صفحة جديدة ، أو باباً آخر ، لكى أقدم لكم شيئا مثيراً فى عالمنا ، تعلمون منه كيف تسير الأحداث فى عالمنا إذا أصابه الضنك . . وكيف يعبر عن ضنكه بثورة وهجرة . . فإلى هناك . . وفقكم الله !

ضنك .. فثورة .. فهجرة !

قد تعجبون هنا وتقولون : ضنك من . . وثورة من . . وهجرة من ؟ هل أقصد بذلك عالم الإنسان والطير والحيوان وغير ذلك من مخلوقات الله ؟ أو هل أقصد بها عالمنا . . عالم الذرات ؟

الواقع أنى أقصد بها عالمنا . . عالم الذرات . . الذى يكون المادة . . يكوّن الصخر . . يكون الحجر . . يكون الطوبة . . إلخ . .

غريب هذا الأمر . . وما هذا الضنك الذى تعيش فيه المادة فتثور وتهاجر ؟ . . وهل معنى هذا أن المادة ممثلة فى قالب من طوب ، أو حجر ملقى فى الشارع ، أو صخرة فى جبل . . تصاب بضنك فتثور وتهاجر ؟

صحيح أنكم لم تروا حجراً فى بيت يتركه وينتقل تلقائيًّا إلى بيت آخر ، ولا صخرة تهاجر من جبل المقطم إلى البرازيل مثلا .. ولا يمكن أن يحدث ذلك بطبيعة الحال . . برغم أن هناك ضنكاً وثورة وهجرة !

لا عليكم من كل هذا . . فإن الثورة ثورة قلوب . . هى قلوبنا !

هل أنا مثلا ذرة ثائرة فى مخّ صاحبكم ؟

الواقع أننى ذرة متزنة ، وكيانى مستقر ، وبنائى متكامل . .لكن ليس معنى هذا أننى لن أثور يومًا . . فلقد ثرت من قبل ، واستمرت الثورة فى قلبى آلاف السنين . . وفجأة ارتحت . . وسرت فى طريقى ملايين السنين . . وقد يرمينى قدرى فى أحداث رهيبة . . فأعود للثورة !

وكلامى هذا غريب على عقولكم . وقد كنت أود أن أحدثكم عن نفسى ، ولكن الحديث عن النفس « أنانية » لاأستسيغها ، وسأعود إذا سمح المجال بذلك لأشرح لكم سر ثورتى . . وسر بلائى الذى تعرضت له فى حياتى . . ثم « شفيت » منه . . وهأنذا الآن أمثل ذرة متزنة . . عاقلة . . فى مخ صاحبكم !

ليس معنى هذا أن كل الذرات التى تبنى كيان من يكتب عنى ، أو كل الذرات التى تبنى كيانكم أو كيان هذا الورق الذى تكتبون عليه ، ذرات متزنة هادئة . . فى جسم كل كائن حى نسبة من الذرات ثائرة . . بعضها يفقد ثورته هذه اللحظة ، وبعضها قد يستمر ثائراً آلاف السنين !

دعونا الآن من كل ذلك ، فقد أعود إليه ، إن لم يكن هنا فى كتاب آخر ، ولأقدم لكم هنا أبانا الذى فى الأرض . . فهو شيخ قبيلة ثائرة . . وهو أولى بالتقديم !

إن أبانا هذا . . هو أعظمنا هيلا وهيلماناً ، بما حوى فى عرشه النووى . . وإن أبانا هذا له ذرية كثيرة . . لا هى ممنوعة ، ولا هى مرغوبة ، لأنها تتسلط على مجتمعاتنا الذرية ، فتضربنا فى قلوبنا ، أو تقوم بعمليات « قرصنة » على « أرديتنا » التى ندثر بها قلوبنا . . فتسرق منها جزءاً — أى إليكترونات — تدثر بها نفسها ، وتجعلها تدور حولها ، فيكون لها كيان ككياننا . .

وإن أبانا الذى فى الأرض . . له نظير اكتشفه الإنسان ، وسيطر عليه ، وبهذا أصبح — نظير أبينا — بمثابة الجحيم المسلط على رقاب البشر وكل المخلوقات . . وإنه بحق قمقم القرن العشرين الذى ظهر مرتين ، فكان أعنف وأقسى وأشد من « عفاريت الملك سليمان »

إذا غضبت . . فلقد خرج الماردان من قمقميهما يوماً ، وأبادا مدينتين من الوجود . . وبقيت بعد ذلك آلاف القماقم مكدسة فى مخازنها . . ولو طاش العقل البشرى ، وأطلق منها ما حبس فيها . . لكان فى ذلك نهاية البشر . . ممثلا فى انطلاق قنابلها النووية . . قماقم القرن العشرين المدمرة !

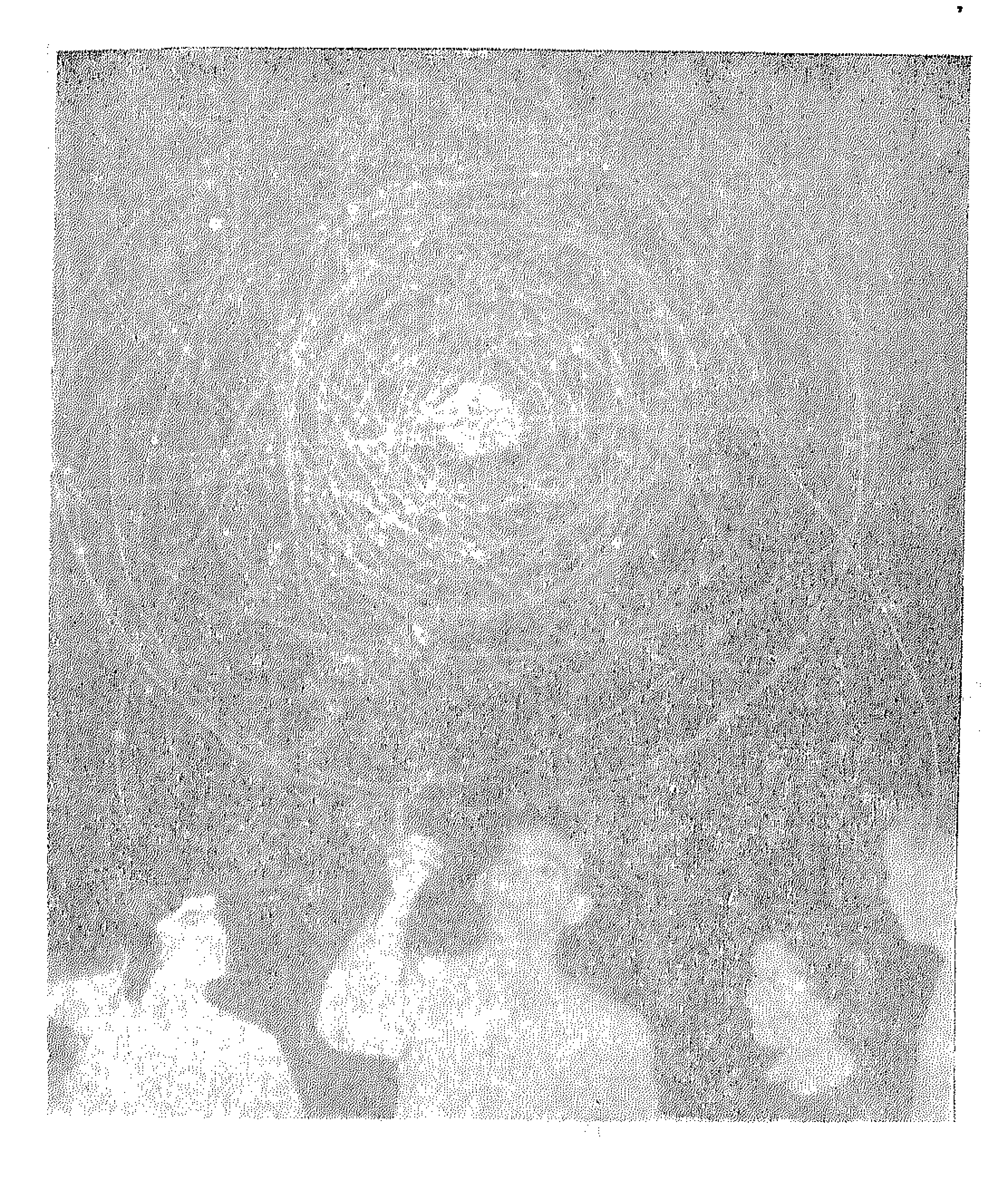
ترى . . ما قصة أبينا هذه ؟ وما قصة قبيلته الثائرة . . وما قصة قماقمه ؟

إن أبانا ليس أبا البشر . . بل هو أبو الذرات ، حيث يحتل أعلى درجة من درجات العناصر الطبيعية الموجودة على أرضكم . . ذلك هو اليورانيوم . . صاحب التاريخ المجيد . . أو غير المجيد . . لست أدرى !

تكدس السكان :

واليورانيوم معدن كأى معدن آخر . . ولكن النوى فيه تجابهها مشكلة تكدس السكان . . ففى كل نواة يسكن ٢٣٨ من الجسيمات النووية : ٩٢ بروتوناً و ١٤٦ نيوتروناً (مجموعهما ٢٣٨ لأن كل جسيم يمثل وحدة وزن واحدة) . . ويدور حولها ٩٢ إليكتروناً فى مدارات كثيرة (شكل ٩) . . إنه إذن لحشد كبير يحتاج إلى جهد وسيطرة حتى يبقى لأبينا كيانه . .

إلا أن الجسيمات المكدسة فى النوى، ليست فى حالة استقرار ، وكأنما قد ضاقت بها رحابها ، لهذا كان لا بد أن تتصارع وتقفز علها تنجح فى الإفلات ، وتهاجر من ضنكها إلى كون الله الفسيح ، وكأنما



(شكل ٩) أعقد الذرات الطبيعية وأكبرها تتمثل لنا فى ذرة اليورانيوم . . الصورة نموذج معروض فى معرض بوسطن للعلوم . . لاحظ النواة فى الوسط (٩٢ بروتوناً + ١٤٣ نيوتروناً) ويدور حولها ٩٢ إليكتروناً موزعة فى مدارات كثيرة مختلفة . . والنموذج لا يمثل لنا مقياس الرسم المضبوط ، ولو حاولنا أن نوضح نموذج الذرة على حقيقته لكان المفروض أن تبتعد الإليكترونات الخارجية فى هذا الرسم عن النواة حوالى ٥٠٠ متر .

من خرج مندفعاً بقوة جبارة يقول : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها » ؟

لكن « العرش » النووى لليورانيوم قد وضع للهجرة حدوداً صارمة لأنه يريد أن يحافظ على كيانه، ولو عاش الجميع فى ضنك وتكدس ..

إن القصة تبدو لكم حتى الآن غامضة ، وهى من أمتع القصص العلمية ، وأكثرها إثارة للعقول المفكرة . . ذلك أنها تبين لكم روائع مجتمعنا الذرى أو المادى الذى تحسبونه ميتاً ساكناً . . وما هو بميت ، ولا هو بساكن ، بل تجتاحه حركة وطاقات وصراع يهون بجواره ما ترونه فى عالمكم !

قد تقولون : تباً لهذا اليورانيوم . . ما دامت نواته مكدسة بمثل هذا الحشد الكبير المتصارع ، فلماذا لا ييسر سبل الهجرة للجسيمات التى « ترغب » فى ذلك ، فيريح غيره ويستريح ؟

الواقع أن هناك قوانين نووية غير مسموح بامتهانها . وعوائق جبارة لا بد للجسيمات الحبيسة أن تتخطاها لكى تخرج من هذا السجن الرهيب . . فمن أراد أن يهرب أو يهاجر . فعليه أن يتسلح بمؤهلات هجرته . . وهى بطبيعة الحال — ليست كمؤهلاتكم — لأن مؤهلاتنا تتركز فى طاقات نستطيع أن نستخلصها ، لنتخطى بها العوائق . . بعد أن يكون الجسم النووى قد ظل فى سجنه الضيق جداً آلاف الملايين من السنين !

المهاجرون من النوى :

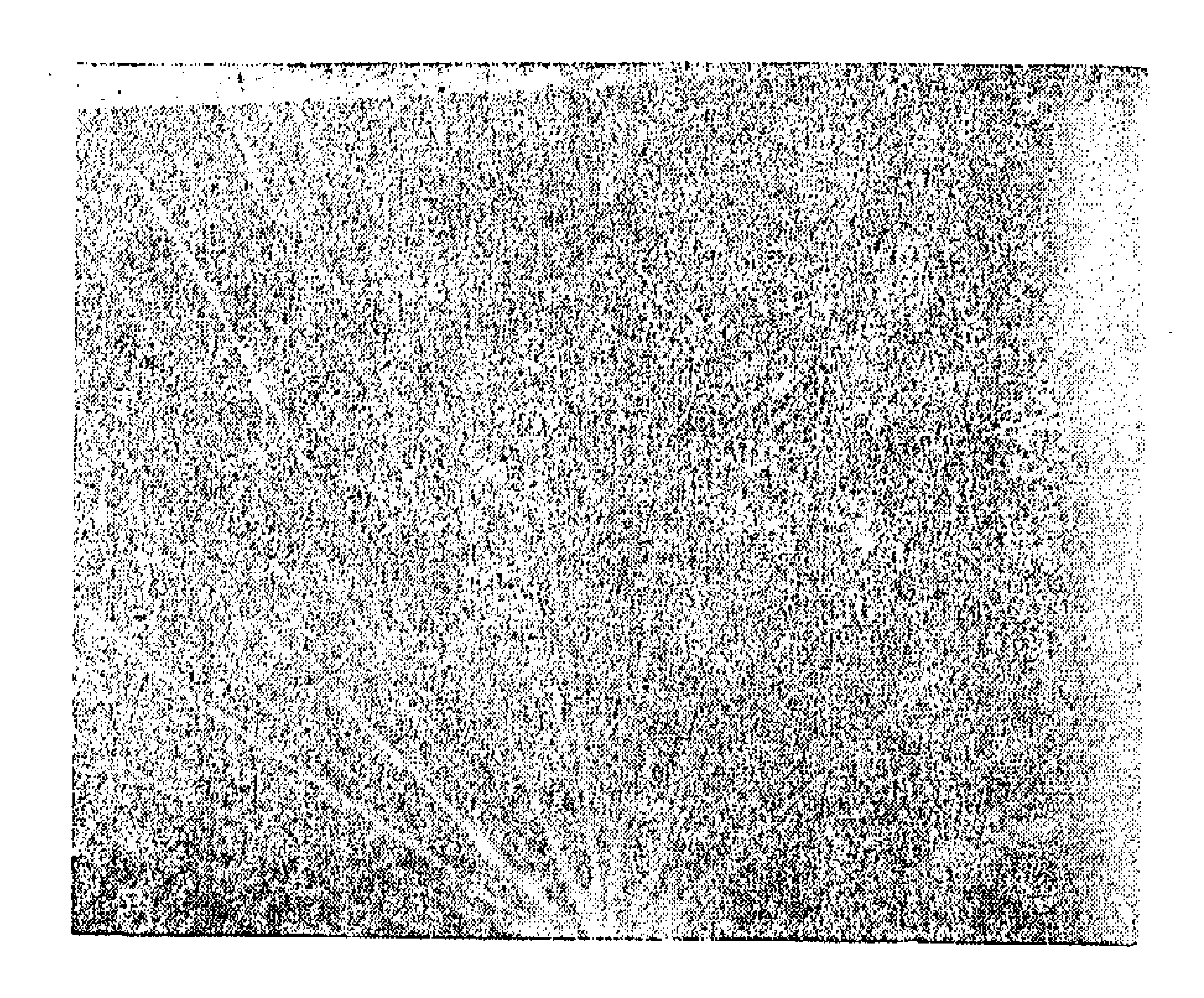
إن نوى أبينا اليورانيوم فيه ثورة . . وعلامة ثورته إشعاع يخرج من جوفه ، مثله فى ذلك كمثل إنسان شره حشر فى جوفه طعاماً أكثر

مما يحمله ، ولكى يرتاح ، كان لابد أن يتقيأ الزائد . . لا فرق هنا بينه وبين نواة ذرة تكدس فيها ما هو فوق طاقتها ، إلا أن الإنسان يتقيأ عجينة ، والنواة تتقيأ إشعاعات تكشفها أجهزتكم ، ولا تراها عيونكم .. إلا إذا أخذتم عينة نقية من ذراتنا المشعة ، ووضعتموها فى ظلام دامس .. عندئذ تشاهدون وهجاً خفيفاً ، وكأنها تكاد تضىء ، ولو لم تمسسها نار .. وما الوهج هنا إلا بلايين المهاجرين الذين ينطلقون فى كل لحظة ، ولآلاف الملايين من السنين .

والمهاجرون هنا أنواع ثلاثة من الإشعاعات ، أطلقتم عليها حروفاً .. فكانت إشعاعات ألفا أو ألف بلغتكم ، وبيتا أو باء ، وجاما أو جيم . . ولكل طبائع وصفات لم تكن معروفة فى بداية اكتشافها ، وعندما اكتشفتم حقيقتها ، ظلت الحروف مستخدمة حتى يومكم هذا ، وكأنما هى جزء من التاريخ .

أما عن إشعاعات ألف . . فهى ليست إشعاعات بالمعنى المفهوم ، فقد تبين فيما بعد أنها تتكون من بروتونين ونيوترونين متماسكين على هيئة نواة صغيرة . . هى نواة ذرة الهليوم التى سبق أن قدمتها إليكم (شكل ١٠) .

إلا أن النواة الخارجة تنطلق عارية بسرعة تروح ما بين ٩٠٠٠ و ١٣,٠٠٠ ميل فى الثانية الواحدة .. وهى لا تستلطف العرى ، ولهذا تقوم بعملية « قرصنة » على المجتمعات الذرية الأخرى ، فتسرق منها إليكتروناً . . ولكن الإليكترون لن ينفعها ، لأنها لا تحب أن تعيش « بالمينى جيب » . . فهذا نصف عرى تستلطفه بعض بنات حواء . . وبنات شيخ قبيلتنا تحب أن تستر نفسها برداء كامل ، لهذا كان لا بد أن « تلطش » إليكتروناً آخر . . وهنا يكتمل كيانها ، وتستر

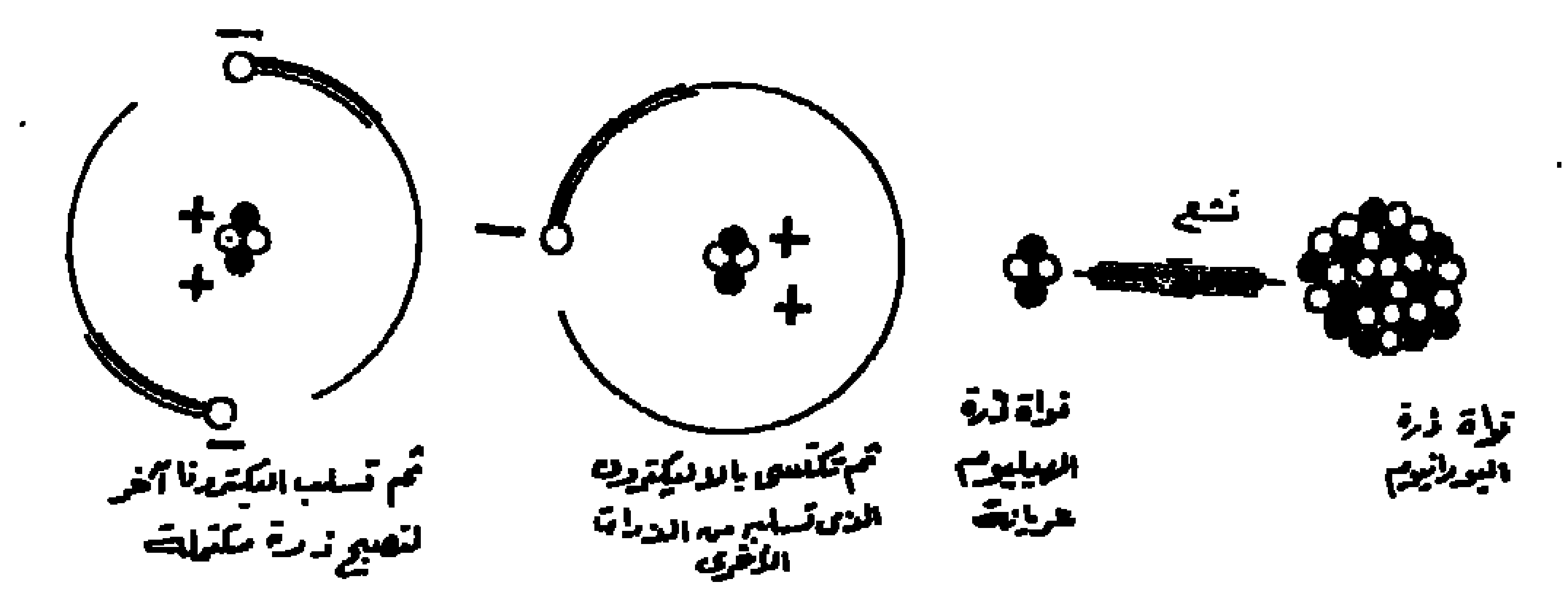


(شكل ١٠) سميت الذرات المشعة بهذا الاسم ، لأنها تطلق من جوفها إشعاعات شتى . . والصورة تبين لنا مسار هذه الإشعاعات فى غرفة الغيوم أو على الألواح الحساسة .

« عورة » نواتها ، وتصبح ذرة متوازنة ، لها قلبها ولها إليكتروناتها (شكل ١١) .

أما إشعاعات بيتا أو باء . . فقد ظهر أنها إليكترونات تخرج من داخل النواة — بعد عملية ولادة — بسرعة ١٢٥ ألف ميل فى الثانية إلى سرعة قريبة من سرعة الضوء . . أى حوالى ١٨٦ ألف ميل فى الثانية .

وأما إشعاعات جاما أو جيم ، فهى ليست جسيمات ، بل أشعة



(شكل ١١) من بين الإشعاعات أو الجسيمات التى تطلقها ذرة اليورانيوم من جوفها أو نواتها أشعة ألفا التى تمثل لنا نواة ذرة الهيليوم (بروتونان + نيوترونان) وهى لاتستطيع أن تبقى بدون ستارة إليكترونية تدثرها ، لهذا تسطو على إليكترونات الذرات الأخرى ، وتسلبها إليكتروناً ثم إليكتروناً ثانياً لتصبح ذرة متكاملة من الهيليوم.

من ذلك النوع الذى تطلقون عليه اسم الموجات الكهرومغناطيسية ، وهى تنطلق من الداخل إلى الخارج بسرعة ١٨٦ ألف ميل فى الثانية . . وأشعة جاما هى نفس الإشعاعات الحارقة المدمرة التى تصاحب انفجار القنابل الذرية . أى أنها شديدة الخطورة عليكم كأحياء لأنها تحرق وتدمر وتقتل . . وبها ترى الناس سكارى ، وماهم بسكارى . ولكن عذابنا شديد !

جهل بالأسباب :

سوف أتعرض بعد ذلك لقضية مثيرة لم تحلوا ألغازها بعد ، وقضيتنا هذه تتناول الأعمار والولادة فى عالم الذرات . .

ولأبدأ معكم بسؤال : هل تستطيعون أن تحددوا عمر إنسان أو أى مخلوق آخر . . فتقولون إنه سيموت فى لحظة كذا من يوم كذا من سنة كذا ؟ !

يتبع ذلك سؤال آخر من واقع عالمنا : هل تستطيعون أن تحددوا متى ستطلق ذرة من الذرات المشعة إشعاعها لكى تتخلص مما يثقل كاهلها ؟

والسؤال الأول لا يحتاج إلى جواب . . فمن المؤكد أنكم لا تستطيعون ذلك . . ومع هذا بمقدوركم أن تحددوا متوسط عمر المخلوقات فتقولوا : إن متوسط العمر لأهل السويد يقع فى حدود ٧٠ عاماً للرجال وثلاثة وسبعين عاماً للنساء . . وفى الهند مثلا يكون متوسط العمر فى حدود ٣٥ ــ ٤٠ عاماً . . ولكن ليس معنى ذلك أن كل فرد فى السويد يعيش هذا العمر ، أو أن كل هندى يموت عند هذه السن المبكرة . . ولكن متوسط العمر هذا يأتى عن طريق إحصائيات لأعمار عدد كبير من السكان . . . كلما زاد العدد ، كان متوسط العمر أكثر مطابقة للواقع .

معنى هذا أنك لا تستطيع أن تأخذ وليداً بطريقة عشوائية ، وتضعه تحت المراقبة ، لترى متى يموت . . فإذا مات بعد أشهر ستة ، فليس معنى هذا أن متوسط العمر فى الدولة أشهر ستة . وإذا مات بعد مائة سنة فليس لزاماً أن يكون متوسط العمر مائة سنة . . إنك لو فعلت هذا ، لكانت تجربتك واستنتاجاتك خاطئة من أساسها ؛ وعليك أن تقرر هذا لأكبر عدد ممكن من السكان ، لتأخذ فكرة عن متوسط الأعمار فى دولة من الدول أو مجتمع من المجتمعات . . ثم تقارن ذلك مع إحصائيات من دول أخرى .

إنكم تتخذون هذه الإحصائيات دليلا هاماً فى حياتكم العلمية والبيولوجية والاقتصادية . . إلخ ، فأحياناً تقولون إن متوسط محصول الفدان كذا قنطاراً ، أو أن متوسط دخل الفرد كذا جنيهاً . . صحيح

أن هناك من يبلغ دخلهم سنوياً عشرات الألوف من الجنيهات ، وغيرهم عشرات الجنيهات . . ولكن من الخطأ أن تأخذ هذا أو ذاك مقياساً لمتوسط الدخل للسكان .

كذلك حال المجتمع الذرى الذى معه تتعاملون من خلال تجاربكم وتحليلاتكم وحساباتكم . . فأنتم لا تستطيعون أن تتعاملوا مع ذرة واحدة لسبب بسيط . . ذلك أنكم لن تروها . . ولن تروا الملايين كذلك . ولو تجمعت فى كتلة واحدة ، ولن تستطيعوا لها وزناً . فلقد أخبرتكم أن الذرة منا ضئيلة غاية الضآلة . . ولا بد أن تحصلوا على نتائجكم من بلايين البلايين ، وبهذا يكون لها هدف ومعنى .

ولأفرض معكم هنا — كمجرد فرض — أنكم قد كبرتم الذرة المشعة لليورانيوم ملايين البلايين من المرات ، ووضعتموها أمام أعينكم تحت المراقبة ، لتروا متى ستطلق من جوفها وليدها أو قيئها أو إشعاعها — كما يتراءى لكم — فإن انتظاركم قد يطول ملايين أو بلايين السنوات . . أو قد تطلقها بالمصادفة بعد لحظة أو دقيقة أو يوم . . إلخ .

ونقول هنا بالمصادفة تطلق . . والمصادفة لفظ تستخدمونه لجهلكم بالأسباب الحقيقية التى تجرى داخل قلوبنا . . إذ لو عرفتموها بالدقة التامة لا ستطعتم أن تقدروا مقدماً ما يحدث للذرة . . كذلك لو عرفتم كل شىء بدقة تامة عما يجرى داخل جسم زيد — أو حتى فى ميكروب — من أحداث وتفاعلات . . إلخ ، فإنكم تستطيعون أن تقدروا مقدما قدره فى هذه الحياة . . وأنه لو مات ميتة طبيعية لاستطعتم أيضاً أن تعرفوا من أى شىء سيموت ، ومتى سيموت !

لكن هذا أو ذاك — على ما يتراءى لى — يقع فيما وراء حدود العلم !

إن القوانين التى استخلصتموها من النظم السارية حولكم قوانين

لا تصلح مع الحالات الفردية . . سواء أكان ذلك فى حالة إليكترون أو جسيم نووى أو نواة ، أو ذرة ، أو ميكروب أو إنسان . . إلخ .. إنها – فى الواقع – قوانين احتمالات لحالات تحدث فى عالمكم أو فى عالمنا أو فى أى عالم آخر !

إلا أن منكم من يرى أنه قد يتوصل يوماً إلى صقل قوانينه أكثر وأكثر حتى تصبح بالغة الدقة والكفاية ، وهنا قد تقترب به من الحقيقة « المطلقة » التى يريد أن يتوصل إليها . . وليكن ذلك فى نواة اليورانيوم التى لا تعرفون مثلا متى ستطلق إشعاعها . . عندئذ لو توصل هؤلاء إلى ما يبغون ، فإنهم لن يستطيعوا أن يضعوا هذه القوانين موضع التنفيذ . . لأن القصور هنا سيكون قصوراً فى أجهزتكم . . فمهما بلغت من الدقة ، فإنها لا تستطيع أن تبين لكم إلا وجها واحداً من الحقيقة . . وليست كلها !

وليس هذا كلاماً من عندى . . فلقد خرج عالم الرياضيات الألمانى هيسنبرج – الذى منح جائزة نوبل فى عام ١٩٣٢ – بنظرية علمية قامت أساساً على معادلات رياضية ، لتبين لكم أنكم لن تستطيعوا أن تؤكدوا شيئاً . . وقد أطلق على نظريته هذه « مبدأ عدم التأكيد » أو « مبدأ الريبة » . . وتحقق هذا المبدأ بعد ذلك عندما أردتم تطبيقه فى حالة الجسيمات الذرية . . وفى الجزيئات والخلايا والمخلوقات وفى أسرار أخرى كثيرة فى هذا الكون العظم – وسوف نعود إلى ذلك عندما نتحدث عن الإليكترون الذى لن تعرفوا حقيقته يوما ما .

إذن . . . عليكم بما شئتم من قوانين متقنة ، وعليكم بعقولكم الذكية الخلاقة . . وعليكم أن تسجلوا ما شئتم على الورق . . ولكنكم لن تستطيعوا أن تتأكدوا مما أملته عليه عقولكم بأجهزة تثبت لكم حقيقتنا

وحقيقة كل شيء . . وهكذا تقدرون على الورق . . وتضحك الأقدار فى أجهزتكم !

لا شك إذن فى أن الأحداث الظاهرة التى تسجلونها لعالمنا — عالم الذرات — وراءها سلاسل متتابعة من أحداث أخرى تجرى فى الخفاء ولو عرفتموها على حقيقتها . فإنها ستوصلكم إلى الحقيقة المطلقة . . وعندئذ ستصبحون فى مرتبة الآلهة . . فهل تصلون ؟ . . لست أدرى !

أعود بكم الآن إلى موضوعنا فأقول : إن ذرات أبينا اليورانيوم تموت ، ولكنها لا تموت كما تموتون . . فهى فى الواقع تفقد شخصياتها تماماً بمجرد أن تطلق من جوفها إشعاعها . . وكأنما « تناسخ » الأرواح الذى ينادى به بعض البشر قد حل بمجتمعاتنا ، ولكن بصورة أكثر واقعية . . لأنه شيء ملموس لعلمائكم . . ذلك أن اليورانيوم يتحول تلقائياً إلى ذرات معدن آخر لا يمت إلى صفات اليورانيوم فى قليل أو كثير . . لقد « مات » فعلا كيورانيوم . .ولكن معظم جسيماته لا تزال باقية فى ذرات أخرى ، لتعطيها صفات أخرى .

دعونى أقص عليكم قصة قصيرة لتفهموا معنى ماذكرت فى الفقرة السابقة . . .

يحكى أن صبية شقراء فاتنة قد وضعت وليداً ، وإذا بها تتحول فجأة إلى عجوز سوداء شمطاء « كالغولة » . . ليس هذا بطبيعة الحال كلام عقلاء ! . .

ويحكى أن ذرة يورانيوم قد « وضعت » نواة ذرة صغيرة (الهيليوم) وإذا هى تتحول فجأة إلى ذرة ثوريوم . . وهذا بطبيعة الحال كلام علماء عقلاء !

أرأيتم إذن عجائب مجتمعاتنا . . وأن ما يحدث فيها لا يمكن أن

يتكرر فى مجتمعاتكم . وإلا كانت كارثة تؤدى إلى الجنون ؟

لقد تحقق إذن حلم الكيميائيين القدماء . . فقد عشت فى مخ واحد من هؤلاء منذ مئات السنين . . وكان دائم التفكير فى شىء اسمه « حجر الفلاسفة » . . وبه يستطيع أن يحول الرصاص أو الحديد أو النحاس إلى ذهب . . وطبعاً لم يتحقق الحلم . . فحجر الفلاسفة خرافة عاشت فى عقولهم . . ولكن أبانا اليورانيوم قد أعاد إلى الأذهان خرافات القدماء على أساس من علم . . وعلى هذا الأساس استطاع علماؤكم أن يحولوا العناصر من صورة إلى أخرى . . وهذا موضوع طويل لن أتعرض له هنا .

إذن هناك إشعاع ، وبه تتحول ذرات العناصر من صورة إلى أخرى إلا أنكم لا تستطيعون أن تحددوا ما هى الذرات التى تطلق إشعاعاتها ثم تموت فى هذه اللحظة . . أو فى لحظة آتية . . تماماً كما لا تستطيعون أن تحددوا من سيموت فى عالمكم فى هذه اللحظة أو فى لحظة آتية . . ولكن من المؤكد أن هناك إشعاعاً « وتناسخاً » ذرياً ، كما أن هناك موتا واختفاء ظاهرياً .

ما أغلى الحرية :

قلنا فيما سبق إن نوى الذرات المشعة غير مستقر ، لكثرة ما تكدس فيه من سكان ، وإن النوى صامد لما يجرى فى داخله من أحداث ، وكأنما يريد أن يحافظ على كيانه ، لتبقى له « شخصيته » وصفاته . . ومع ذلك لا بد أن « يتنزل » لمن استطاع أن يحصل على قوة أو طاقة تؤهله للهروب من هذا الضنك النووى . . ولهذا تسجل أجهزة علمائكم دائماً خروج الحسيمات من نواها كما خرجت غيرها منذ لحظة ماضية أو منذ آلاف الملايين من السنين . . ذلك أن العملية مستمرة ما بقيت على

أرضكم ذرات يورانيوم . . كما أن الموت مستمر ما بقيت عليها خلائق . . إلا أن ما يموت من ذرات أبينا لن يعوض . . ومع أن عملية الإشعاع مستمرة منذ آلاف الملايين من السنين ، لا يزال هناك فائض من اليورانيوم على كوكبكم . ومعنى وجود يورانيوم حتى يومنا هذا ، وللملايين من السنوات القادمة ، أن محاولات الهروب ما زالت قائمة وأن المصادفة السعيدة لم تواتِ من أراد أن يهرب بعد ، برغم محاولاته الجبارة التى استمرت منذ أن تخلق اليورانيوم على كوكبكم .

وإليكم الآن يا بنى الإنسان بعض الأرقام التى حصل عليها علماؤكم ليكون لكم فيها حكم بروية ، وستعلمون بعدها ثمن الحرية ، حتى ولو كان هذا فى جسيمات نووية .

● ان فرصة هروب جسيمات ألفا (أو نوى الهيليوم) لا تتأتى إلا مرة واحدة من بين مائة بليون بليون بليون بليون محاولة (واحد على يمينه ٣٨ صفراً) . . وليس معنى هذا أن على كل من يريد أن يهرب أن يحاول كل هذه المحاولات التى لن تعيها عقولكم . . فالمسألة مسألة مصادفات أو « حظوظ » . . فقد تأتيه تلك الفرصة الوحيدة الآن ، أو بعد سنة أو بلايين السنين . . ولكن عليه أن يحاول وألا ييأس . فلا يأس مع الحياة ، ولا يأس من بلوغ الحرية !

● لقد قدر علماؤكم أن مجتمع الجسيمات النووية فى حركة دائبة مستمرة داخل سجنها . . وأن السرعة التى تنطلق بها تصل إلى ألف مليون سنتيمتر فى الثانية الواحدة . . أى عشرة آلاف كيلو متر . . وهذه فى الواقع سرعة رهيبة للغاية إذا ما قورنت بضآلة السجن النووى الذى تنطلق فيه ، وتضرب حدوده . . ذلك أن قطر نواتها لا يزيد على جزء واحد من مليون مليون جزء من السنتيمتر !

● إن الجسيمات تندفع لتهرب ، وتردها العوائق النووية على أعقابها ، فتعود لتضرب ، فترتد ، وترتد لتضرب . وهكذا تسير الأمور بسرعة رهيبة . . إنكم لو عرفتم شيئا عن مبادئ الحساب البسيط ، فإنكم تستطيعون أن تحصلوا على عدد المحاولات التى تحاولها الجسيمات لكى تهرب . . أى عدد طرقها لأبواب سجنها فى الثانية الواحدة . . ما عليكم إذن إلا أن تقسموا السرعة التى تنطلق بها على قطر سجنها ، تحصلوا بعدها على ألف مليون مليون مليون محاولة فى الثانية الواحدة !

● و بما أن فرصة الهروب تقع فى حدود فرصة واحدة من بين كل مائة بليون بليون بليون بليون فرصة أو محاولة كما سبق وذكرت .. وأنها فى كل ثانية تحاول ألف مليون مليون مليون محاولة .. عندئذ لو قسمتم عدد الفرص المتاحة لها على عدد محاولاتها فى الثانية الواحدة ، فإنكم تحصلون على الزمن الذى يجب عليها أن تقضيه فى صراع مع ضنكها الذى فيه تعيش ، لكى تتمتع بعدها بالحرية ، وتهاجر إلى غير رجعة !

إن نتيجة القسمة تبلغ مائة مليون بليون ثانية ، أو مايعادل ثلاثة آلاف مليون عام فى المتوسط . . وياله من عمر ! . . وياله من صراع ويالها من حرية تستحق كل هذا الكفاح العنيف . . فما أغلى الحرية ولو كان ذلك على مستوى جسيمات نووية .

شيء اسمه عمر النصف :

نعود مرة أخرى إلى الحديث عن الأعمار ، أطال الله أعماركم . . فالأعمار بيد الله كما تقولون . . أو هى عملية تحكمها المصادفة كما يقول علماؤكم . . والمصادفة لفظ بديل للجهل بالأسباب !

ولكن ما هى أعمارنا التى أود أن أحدثكم عنها ؟

أما عن نفسى ، فعمرى من عمر أرضكم ، لأننى ذرة مستقرة ، وليس لديها مشاكل نووية . وسأبقى هكذا إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . وقد تسوقنى المصادفة السيئة لكى أضرب ، ويتفتت قلبى ، وينتهى كيانى . . ولكنها مصادفة نادرة للغاية . . والأعمار بيد الله ولو كان ذلك فى عالمنا . . عالم الذرات !

إن عمر النصف الذى أود أن أتحدث معكم فيه ، لا ينطبق علينا نحن معشر الذرات المستقرات ، ولكنه يتناول حياة الذرات فى تلك القبيلة الثائرة وعلامة ثورتها إشعاع . . إلا أن كل الذرات فى عينة معينة لا تطلق إشعاعاتها فى وقت واحد ، كما أن كل الناس والمخلوقات لا تموت كذلك فى وقت واحد . . إلا إذا أصيبت أرضكم بكارثة كونية تهلك الزرع والضرع . .

معنى هذا أن أعمار الذرات المشعة لعنصر من العناصر تتفاوت تفاوتا كبيراً . . ولكنها تسير على مبدأ . . ومبدؤها أن تطلق نسبة معينة من الذرات إشعاعاتها ، إلا أنكم لن تستطيعوا أن تحددوا ما هى الذرات التى ستطلق إشعاعاتها فى اللحظة التالية ، لأنها عملية تحكمها المصادفة كما تقولون ، أو عملية احتمال . . فاحتمال إطلاق نواة ذرة اليورانيوم لإشعاعها هو ٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٤٨٨ ، أو أن هناك ٤,٨٨ فرص من بين كل مليون مليون مليون فرصة لكى تفعل النواة ذلك .

إن تجاربكم علينا تؤدى إلى نتائج ، والنتائج تتحول إلى معلومات ، والمعلومات إلى نظريات وقوانين . . وعمر النصف قد جاء من كل ذلك . . فهناك معادلة رياضية ، لو أنكم طبقتموها على أى فصيلة من فصائل الذرات المشعة ، لخرجتم بنتيجة تختلف باختلاف شدة الثورة فى النوى .

فكلما زادت الثورة الداخلية عنفاً ، زادت الإشعاعات ، ونقص عمر النصف تبعاً لذلك .

دعوني أوضح لكم بمثال : يقولون إن عمر النصف لذرات اليورانيوم يبلغ ٤٧٠٠ مليون سنة ، وللراديوم ١٦٢٠ سنة ، وللثوريوم ١٤ بليون سنة . . . وهو أطولها عمراً . . أما أقصرها عمراً فنظير للثوريوم اسمه الثوريوم س . . فعمر النصف لذراته لا يتجاوز ثلاثة أجزاء من عشرة ملايين جزء من الثانية !

أرأيتم إذن كيف تتفاوت الأعمار في أفراد قبيلة واحدة ؟ !

ولكن . . مامعنى ذلك حقًّا ؟

معناه أنه لو كان لديكم بليون ذرة من ذرات اليورانيوم ، فإن نصفها يفقد ثورته بعد ٤٧٠٠ مليون عام . . وبعد ٤٧٠٠ مليون عام أخرى يفقد نصف النصف إشعاعاته ، ويبقى الربع مشعًّا .. وبعد ٤٧٠٠ مليون عام ثالثة يبقى الثمن مشعًّا . . وهكذا .

أو دعوني أوضحها لكم بمثال منظور من عالمكم . . لاحظوا شجرة تتخلص من أوراقها إذا حل الخريف والشتاء . . في بداية الأمر يكون تساقط الأوراق كبيراً . . وكلما مر الوقت ، وتناقص عددها على الشجرة ، تناقص التساقط تبعاً لذلك . .

هذه صورة ، وتلك أخرى !

جدود وآباء وأحفاد :

إن أبانا اليورانيوم ، أو اليورانيوم « الأول » كما تطلقون عليه ، ينتشر في طبقات أرضكم بكميات ضئيلة ، عدا مناطق قليلة يتواجد فيها على هيئة خامات غنية ، ومنها حمله العلماء إلى معاملهم ، وبعد

مجهودات مضنية من البحث والتنقية والتحليل والفصل الكيميائى ، وقفوا أمام سر خطير . . إن اليورانيوم ليس وحده فى الخامات ، بل معه أنواع أخرى من ذرات هى الأخرى مشعة . . ولقد فتحت لكم مدام كورى — يرحمها الله ، فقد تسببنا فى موتها بالإشعاعات التى انطلقت عليها — فتحت الباب على مصراعيه بعد أن نجحت فى عزل الراديوم بحالة نقية ، وأرشدت عن وجود عناصر أخرى مشعة ، عزلت منها بدورها عنصراً آخر ، أطلقت عليه « البولونيوم » تكريماً لبلدها بولندا . . فاستحقت على ذلك جائزة نوبل فى عام ١٩١١ . . وقبلها حصلت مع زوجها على نفس الجائزة فى عام ١٩٠٣ لاكتشافها ظاهرة الإشعاع ، ثم لبحوثها القيمة فى هذا المجال .

لقد ظهر أن الراديوم هو الحفيد الثالث لليورانيوم الأول ، وأن البولونيوم هو الحفيد السابع ، ومعنى هذا أن اليورانيوم الأول هو شيخ قبيلة من العناصر المشعة ، لها فروع وحفدة وحفدة حفدة . . إلخ ، تماماً كآدم والبشر ، وإن اختلفت الصور ، بين ذرات وبشر .

ولكى تتعرفوا على جذور القصة ، عليكم أن تحصلوا على قطعة من اليورانيوم الخام ، وخذوا حذركم ، فخطورته تكمن فى إشعاعاته وإشعاعات حفدائه الذين يخرجون من صلبه ، ولهذا فهم يعيشون معه فى نفس العينة . . ولقد أصابوا الرواد الأوائل بإشعاعاتهم ، فظهر فيهم السرطان والحروق « الباردة » . .

وسوف أجنبكم هذه الأخطار ، وأقص عليكم القصة ، كما أزاح علماؤكم عنها الستار ، فظهر أن لكل عنصر من عناصر هذه العائلة المشعة سلوكاً وعمراً وقيتاً إشعاعياً غريباً . . فمنها ما يعيش أقل من جزء من مليون جزء من الثانية ، ومنها ما يعيش آلاف الملايين من السنين ، وما بين ذلك يكون عمر الآخرين . .

يبدأ اليورانيوم ٢٣٨ ؛ وقلت ٢٣٨ ، لأن « شيخنا » هذا له إخوة تطلقون عليهم اسم النظائر المشعة . . والنظائر المشعة متشابهة تماماً فى كل صفاتها وتفاعلاتها وسلوكها . . إلخ ، عدا أمر بسيط . . ذلك أن منها الثقيل قليلا ، أو الخفيف قليلا . . ويرجع ثقلها أو خفتها إلى وجود نيوترون زائد هنا ، ونيوترون ناقص هناك ، والنيوترونات متعادلة ولهذا لا دخل لها فى تحديد صفات هذا أو ذاك ، فالذى يحدد شخصية الذرة منا هو عدد بروتوناتها ، وبقدر ما يكون هناك من بروتونات بقدر ما تكون هناك إليكترونات تطوف برحابها . . ولهذا ، فإن نوى اليورانيوم ونظائره المشعة تحتوى دائماً على ٩٢ بروتوناً ، يدور حولها ٩٢ إليكتروناً . . وسبحان من يخلق من الشبه أربعين كما تقولون . . ولو كان ذلك فى مجتمع ذرى !

فإذا ذكرت لكم اليورانيوم ٢٣٨ ، فلتعلموا ياقوم ، أن فى نواته ٩٢ بروتوناً ، أضيفوا إليها ١٤٦ نيوتروناً فتكون نواة جدنا الأول ..وإذا قلت : إن له نظيراً اسمه اليورانيوم ٢٣٥ . . فمعنى ذلك أن فى نواة هذا النظير ٩٢ بروتوناً ، أضيفوا لها ١٤٣ نيوتروناً ، يخرج لكم ٢٣٥ واحذفوا من هذا النظير نيوتروناً ينتج لكم النظير ٢٣٤ (٩٢ بروتوناً ؛ ١٤٢ نيوترونا) . . وهكذا تسير الأمور !

نعود لنقول : إن اليورانيوم ٢٣٨ يبدأ بالإفراج عن جزء من تكوينه فتخرج منه نواة صغيرة تتكون من بروتونين ونيوترونين (نواة هليوم) وبمجرد أن « يلد » هذه النواة الصغيرة ، يتحول إلى اليورانيوم س ١ كما تطلقون عليه . . إلا أن ابن أبينا الأول قد جاء إلى الوجود بكيان أقل ، فقد نقص جسيمات أربعة ، فأصبح ٢٣٤ بدلا من ٢٣٨ . . وفى نفس الوقت يكون اليورانيوم ٢٣٨ قد هبط سلم العناصر درجتين . . ليس فهم ذلك صعباً . . فقد سبق أن ذكرت أن زيادة بروتون فى

نواة الذرة ترفعها درجة ، ونقصها من نواة ذرة يهبط بها درجة .وقد خرج فى الولادة النووية بروتونان . فيهبط صاحبنا الأول تبعاً لذلك درجتين ، فيصبح فى الكادر العنصرى رقم ٩٠ ، وبكيان جديد . . فى نواته ٩٠ بروتونا يدور حولها ٩٠ إليكترونًا .

إلا أن الأبناء أكثر ثورة على الأوضاع الجديدة من الآباء ، وكأنهم جاءوا إلى الحياة بأوضاع أقل ثباتاً وأكثر ضنكاً ، وكأنما هم يرددون :

هـــذا جناه أبى علىّ   وما جنيت على أحد !

لهذا نراهم يودعون دنياهم ، « وتتقيأ » كل نواة إليكترونًا محملا بشحنة كهربية سالبة ، إلا أن « القىء » الإلكترونى لا يحدث فى كل الذرات الوليدة دفعة واحدة ، بل يسير على المبدأ نفسه . . مبدأ عمر النصف ، وقد تبين أن عمر نصف الأبناء لا يتجاوز ٢٤ يومًا ، فى حين أن عمر نصف الآباء يقدر بـ ٤٧٠٠ مليون عام !

وبمجرد أن تتقيأ كل نواة إليكترونًا ، ترتفع درجتها فى سلم العناصر درجة ، وتتحول إلى عنصر جديد ، وبمواصفات جديدة ، ورقمها ٩١ . . أى أن فى نواتها ٩١ بروتوناً يدور حولها ٩١ إليكترونًا .

وبظهور هذه الحلقة الذرية الجديدة ، أو الجيل الثانى من الذرات يصبح اليورانيوم الأول جدًّا . .وقد تقولون : كيف يصبح جدًّا ، وهو قد تحول إلى ذرات جديدة ، وبمواصفات جديدة ؟ . . إذن . . لا شك أنه قد اختفى من مسرح الأحداث ، لتظهر ذريته .

أعود لأذكركم أن العينات التى يجرى عليها علماؤكم تجاربهم . . تتكون من بلايين البلايين من الذرات . . وفى كل لحظة تموت منها الملايين . . والملايين بالنسبة لبلايين البلايين رقم ضئيل . . ولهذا هناك دائمًا فى العينة أجداد وحفدة !

وكما تسارعون إلى مكاتب الصحة لتسجلوا شهادات الميلاد لمواليدكم كذلك يقوم علماؤكم باختيار الأسماء ، بعد دراسة وافية لمواليدنا الذرية ، ثم يضعونها فى سجلاتهم . . فكان اليورانيوم الأول « الجد » ، واليورانيوم س ١ « الابن » ، واليورانيوم س ٢ « الحفيد » !

البحث . . فى عالمنا :

إلا أن الحفدة أكثر تبرماً بالحياة من الآباء والأجداد . . فهم لا يستطيعون أن يتحملوا الأحداث التى تجرى فى كيانهم ، ولهذا يسارعون بالتخلص من حياتهم ومن كيانهم فيموت نصفهم بعد ٧٠ ثانية فقط وبعد ٧٠ ثانية أخرى يموت نصف النصف . . وهكذا (معادلة عمر النصف) . .

ولقد مات الحفيد ميتة أبيه . . أى أنه قد أطلق مثله إليكتروناً ، وارتفع بذلك درجة ، فأصبح العنصر ٩٢ بدلا من ٩١ . .

غريب هذا الأمر . . فرقم ٩٢ فى سلم العناصر هو اليورانيوم الأول . . فهل بعث الابن والحفيد وعاد اليورانيوم الأول إلى الحياة من جديد ؟

نعم . . لقد بعث وعاد . . ولكن بصورة أخرى تطلقون عليها النظير وهو يختلف عن جدنا الأكبر أو اليورانيوم الأول من حيث الوزن والعمر : أما عن وزنه فيبلغ ٢٣٤ . . ذلك أنه فقد بروتونين ونيوترونين . . أما الإليكترونان فوزنهما ضئيل بالنسبة للأولين . . ولهذا يمكن إهمالهما فلن ينقص ذلك من البروتون أو النيوترون إلا بمقدار ما تنقص ثمرة الطماطم بذرة (وزن البروتون أكبر من وزن الإليكترون بحوالى ألفى مرة) !

أما عن العمر فإن اليورانيوم ٢٣٤ ، أو « اليورانيوم الثانى » ،

أطول عمراً من السابقين . . فعمر النصف هنا يصل إلى ٢٥٠ ألف عام !

ثم ماذا بعد ؟

إن اليورانيوم الثانى يطلق من جوفه جسيم ألفا . . أى يطلق بروتونين ونيوترونين . . فيهبط سلم العناصر درجتين (لفقده بروتونين) ويصبح العنصر ٩٠ . . ولكن باسم جديد ، ووزن جديد ، وعمر جديد فاسمه الأيونيوم، ووزنه ٢٣٠ (٢٣٤ــ ٤=٢٣٠)، وعمرالنصف لذراته ٨٤ ألف عام . . ثم يتقيأ الأيونيوم جسيم ألفا . . ويتحول إلى عنصر الراديوم بكتلة تساوى ٢٢٦ (٢٣٠ ــ ٤ = ٢٢٦) ، وعمرالنصف يقدر بحوالى ١٥٩٠ عاماً . . ويتقيأ هذا جسيم ألفا . . و بعده ألفا . . وبعده ألفا .. وفى كل مرة تنقص نواة العنصر جسيمات أربعة ، وتنقص كتلتها أربع وحدات .. ثم يحدث قىء إليكترونى فى خطوات متتابعة . تتخللها أحيانًا جسيمات ألفا . . وفى نهاية الأمر يودع الثائرون دنياهم ، فتطلق كل نواة جسيم ألفا . . وتتحول إلى رصاص . . أو إن شئم الدقة تتحول إلى نظير للرصاص . . والرصاص خامد ، لا ثورة فيه ولا إشعاع . . وبهذا تنتهى قصة الثائرين فى عالمنا . . بعد أن حدثت الهجرة أو القىء أو الولادة . . عبروا عنها كيف تشاءون ، فلكم لغتكم ، ولنا قوانينا وتقاليدنا !

إنها إذن ذُريات وأعمار تتفاوت بين أفراد قبيلة ثائرة مشعة . . فمن تحكم منها فى قيادته النووية كان له من عمره ما يريد . . ومن كان ضعيفًا ، فإلى الجحيم . . طبقوا هذا على أنفسكم ، وعلى الشعوب ، تخرجوا بالنتيجة نفسها . . فالسماء تحبّ الأقوياء وتحافظ عليهم ، ولا تساند الضعفاء ، فتتركهم لضعفهم ليقضوا على أنفسهم . . هذه من من وجهة نظركم نتيجة ظالمة . . ومن وجهة نظر السماء نتيجة عادلة ،

«المؤمن القوى ، خير عند الله من المؤمن الضعيف» .

إن البقاء للأصلح كيانًا ، وللأكثر صموداً ، وللأكفأ تفكيراً ، وللأحسن عملا . . وللأعظم وعيًا . . ويا ليتكم تعلمون نظم السماء مع كل مخلوقاتها . . عندئذ يكتب لكم النصر المبين !

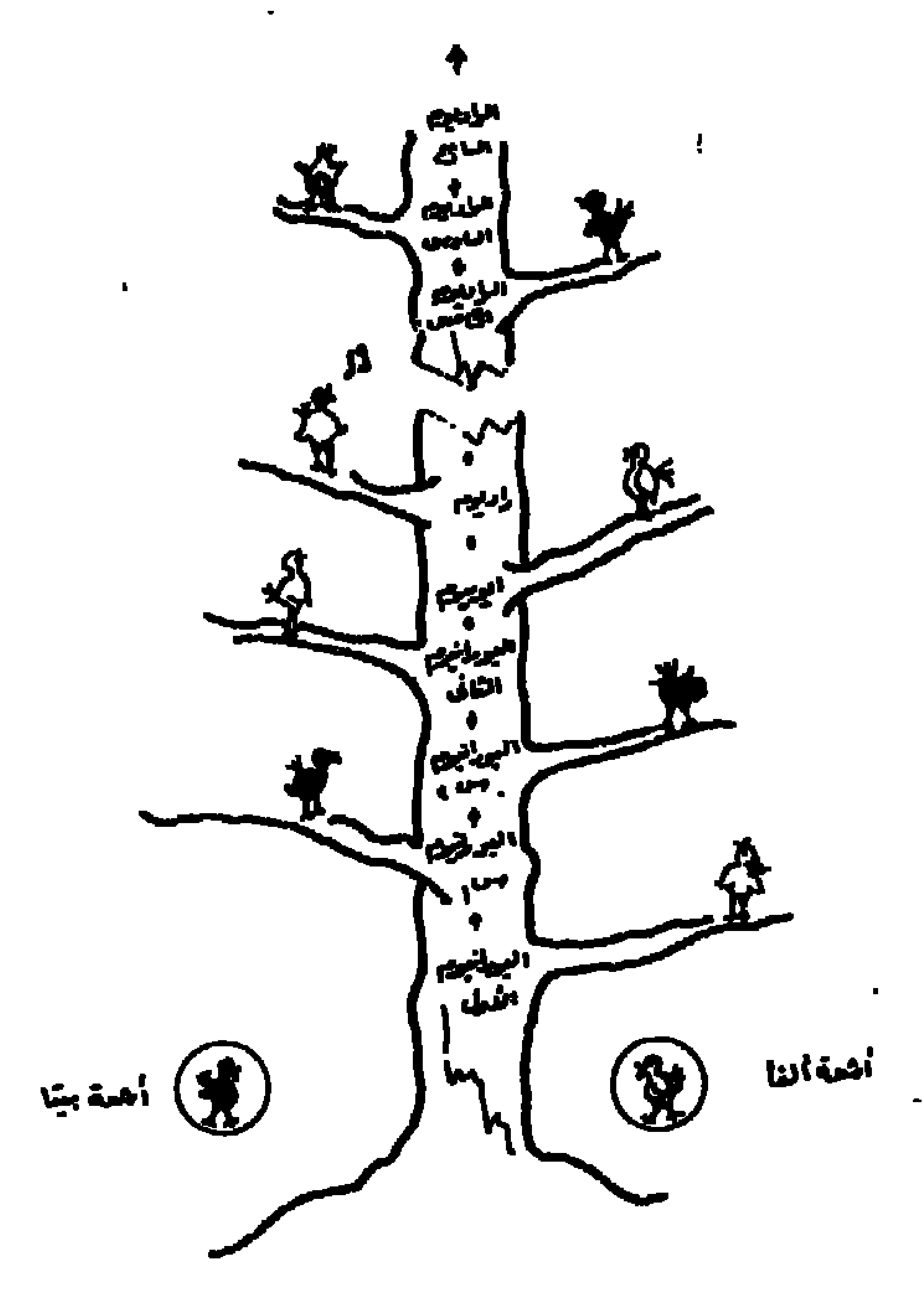
وملخص القول : أن جدنا الأكبر يمثل لنا فرعًا واحداً من ذروع ثلاثة فى شجرة العائلة المشعة ، وأنا لا أستطيع أن أتعرض هنا لكل الفروع . . فلقد أخذتم فكرة عن فرع اليورانيوم الأول ، وذرياته ، وذرية ذرياته بإشعاع إلى يوم الدين !

ويا ليت صاحبكم وصاحبي يوفق فى رسم شجرة عائلتنا بشكل توضيحى لمن أراد منكم أن يتمعن فى صورة أخرى مثيرة عن عالمنا الغريب . . عالم الذرات المشعة ، التى جاءت إلى كوكبكم بضنكها ، وفرجها واتزانها فى جسيمات تهاجر من داخلها (شكل ١٢ ا ، ب) .

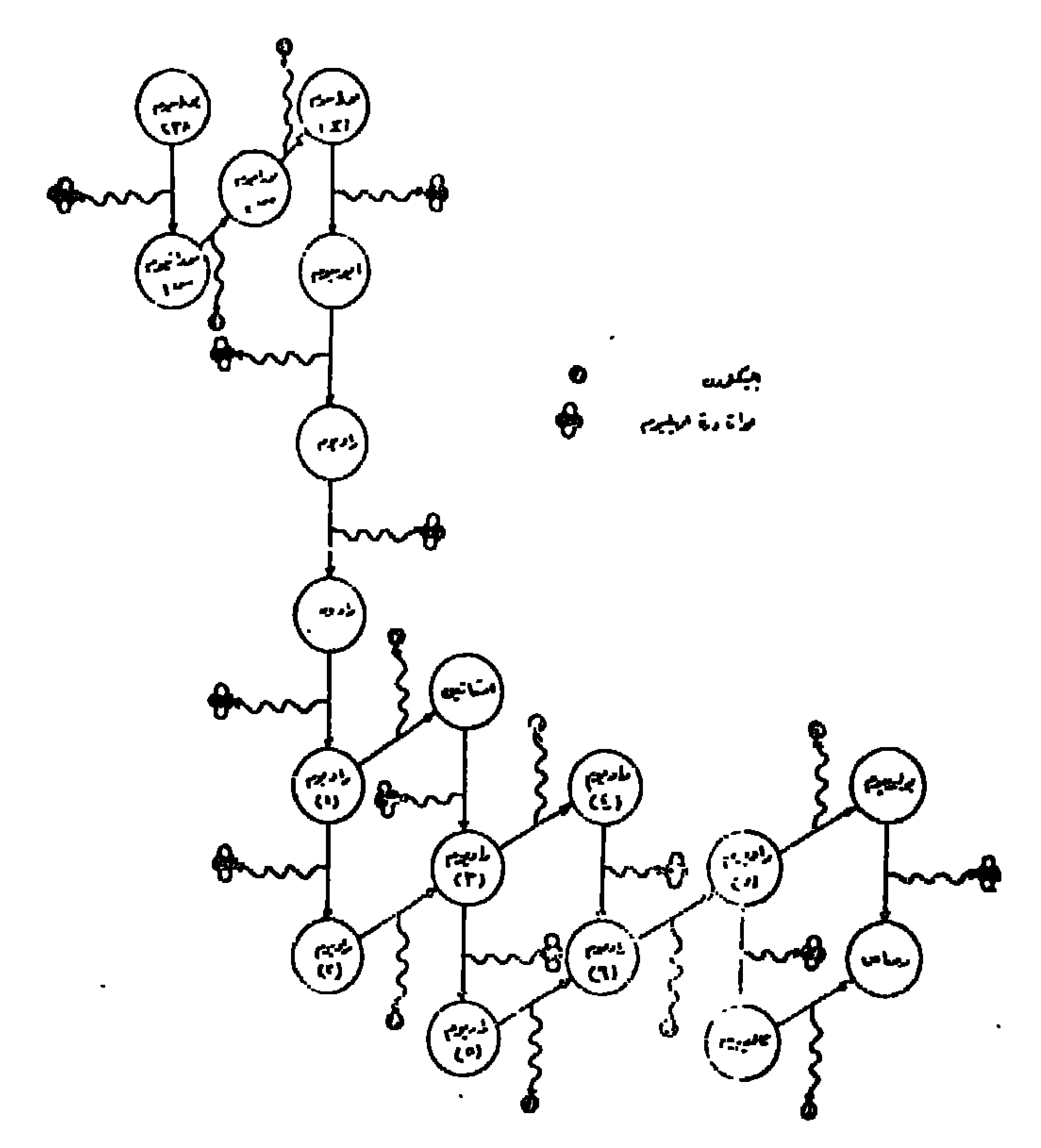
إن أبانا أو جدّنا يموت بهيئته التى وجد عليها ، لتظهر بعد موته أجيال وأجيال ، وكأنما هو المسئول الوحيد عن حفظ كيان عائلته . . فهو دائمًا يغذيها من نفسه وكيانه . . كلما ماتوا أو تحولوا إلى عناصر أخرى ، وهبطوا سلم العناصر درجات ودرجات ، عوض ذلك بذرية كثيرة تستمر بلايين فوق بلايين من السنين .. هذا لو بقى كوكبكم على هيئته المادية كل هذا العمر الطويل ! .

ونهاية المطاف : أنه بعد ولادة ثمانية من نوى الهيليوم ، وقىء ستة من الإليكترونات ، فى أربع عشرة خطوة متتالية ، تتحول الذرات الثائرة إلى نظير للرصاص . . فرع ينتهى بالنظير ٢٠٦ ، وفرع بالنظير ٢٠٧ ، وفرع بالنظير ٢٠٨ .

لقد بدأنا بفرع أبينا اليورانيوم الأول بدرجته الـ ٩٢ ، وفى جوفه



(شكل ١٢ ا) شجرة عائلة اليورانيوم مبسطة (لكنها غير كاملة لعدم وجود حيز كاف يستوعبها) وعندما يشع هذا العنصر إشعاعات ألفا (مثلناها بكتكوت أبيض) أو إشعاعات بيتا (كتكوت أسود) فانه يتحول إلى عدد من العناصر الأخرى المشعة (عن كتاب « لماذا تحطم الذرة » ؟) .



(شكل ١٢ ب) الصورة الكاملة المبسطة للعناصر المشعة التى تخلف اليورانيوم على هيئة ذرية مشعة من عناصر مشعة ... وتنتهى بعد آلاف ملايين السنين إلى رصاص مستقر لا ثورة فيه ولا إشعاع .

٢٣٨ من « السكان » الثائرين على الصنك الذى فيه يعيشون . . وانتهى بنظير للرصاص ، درجته ٨٢ ، وفى جوفه ٢٠٦ من السكان المتوازنين . . أما الفرق (أى الـ ٣٢) ، فقد هاجروا أربعة . . أربعة ، على دفعات ثمانية ، استمرت بلايين السنين !

« وأمرهم شورى بينهم » :

لا أريد هنا أن أنال من كبريائكم كبشر لهم عقول ، فبعقولكم تتدبرون وتستشيرون . . فلا خاب من استشار . . وبهذا تستقيم الأمور . . أموركم وأمورنا !

غريبة هذه الذرة . . فماذا فى حياتها يدعو إلى المشورة ؟ . . هكذا يهيئ لكم كبرياؤكم فتتساءلون . .

ومع أننى ذرة بسيطة متواضعة أعود فأذكركم أن بساطتى قد تاهت فيها العقول . . ومع أننى بغير عقل كعقولكم، فقد خلقت من نظام، وجئت بكيان ، وسرت بقدر . . ثم تركت لقدرى ، لكى أنظم أمرى ، وأصلح شأنى ، فأقيم البناء إذا تصدع ، وأدبر حالى إذا تأزمت الأمور . .

إن النوى فى كياننا هى قيادتنا الواعية ، هى قلبنا المنظم ، وقد يتعرض القلب لغير ما نحب ونرضى ، ولكن علينا أن نصمد ، حتى تصلح أمورنا كما يشاء نظامنا . . نظام السماء .

لأى شىء أهدف بعد هذه المقدمة الغريبة ؟

إن هدفى يتركز على ذلك الإليكترون الذى تتقيؤه نواة الذرة المشعة ، ولقد حير فيكم العقول . . عقول علمائكم ، وإنهم ليعلمون لأسباب لا داعى لذكرها هنا — أن مكانه ليس هناك . . فلكل جسيم قدر ،

ولكلٍّ مكان .. ولا بد أن يكون الجسيم المناسب فى المكان المناسب .. ولو قال علماؤكم غير ذلك ، لكانوا كمن يقول : لقد عقد قوم من بنى البشر اجتماعا هاماً ، وحضره قرد ، ليبدى رأيه فيما غم عليهم من أمور !

ودعونا من البشر والقرود . . فلا شك أنكم بدهشة تتساءلون : ولكن الإليكترون قد خرج من النواة . . فكيف لا يكون مكانه هناك ؟

أقول : لقد خرجت النار من عود الكبريت . . علما بأن النار لم تكن هناك .

وأقول : إن بناء « وطننا » النووى بناء ضئيل غاية الضآلة ، ومع ذلك هو عظيم غاية العظمة ، وعندما تعرض لتكدس الجسيمات فى كيانه ، دون أن يكون له خيار فى ذلك ، ثار على عدم الاستقرار ، ولا بد أن يحدد عدد سكانه ، كما تحاولون تحديد نسلكم ، حتى لا تتكدس أوطانكم . . هذه صورة وتلك أخرى !

إن تحديد النسل فى عالمكم ، يتوقف على مقدار وعيكم وتفتح عقولكم ، فالسماء لا تمطر ذهبا ولا فضة ، ولن يرسل الله لكم موائد عليها فطير وديوك محمرة . . قضى الأمر الذى فيه تأملون ، وعليه تتواكلون !

إننى لا أريد أن أحرجكم ، ولهذا أتركيكم لعقولكم . . ونعود إلى مجتمعنا الذى يحاول أن يتخلص من الزائد . . لتستقر فيه الأمور . . وهذا أمر فى مجتمعاتنا جميل ، ولقد قدمت لكم فيما مضى أصل الحكاية ، لعلكم تتأملون وتعتبرون .

لقد خرجت جسيمات ، وبقيت أخرى ، إلا أن الباقيات تنتابها أمور لا تدركون كنهها ولا مغزاها ، ولكنكم بأجهزتكم تسجلون مظاهرها . . فبعد هجرة من هاجر ، ينتاب الكيان الجديد شىء من

عدم التوازن . ولابد من اتخاذ قرار . فالأمر شورى بينهم !

إن النسبة بين البروتونات والنيوترونات فى النوى بعد الهجرة فى غير المصلحة العامة ، والنوى تريد أن تصلح أمورها . وكأنما الجسيمات فيما بينها تصدر « قراراً » . وقرارها أن ينزل أحد النيوترونات عن شخصيته ، وأن يضحى بكيانه !

وكأنما أحد النيوترونات يتقدم للفدائية — ونحن ولا أنتم تستطيعون تحديد من هو « الفدائى » فى عالمنا — كأنما يتساءل : ولكن . . ماذا أنا فاعل ؟

وكأنما السكان يرددون فى صوت واحد : عليك أن تلد إليكترونا . . وليأخذ منك شحنة كهربية سالبة . ولتقذفه بعيداً . .فى ذلك إنقاذ مؤقت لكياننا !

وكأنما واحد من النيوترونات يتقبل المشورة التى قد تستغرق فى أغلب الأحيان دقائق ، وفى أقسى الظروف أياماً أو سنوات . وبعدها تقذف النواة إليكتروناً محملا بشحنة كهربية سالبة . هى التى سميناها من قبل أشعة بيتا .

بعدها يفقد واحد من النيوترونات شخصيته وتعادله الكهربى ، ويتحول إلى بروتون موجب ، وترتفع الذرة بذلك فى سلم العناصر درجة .

وهكذا يتبين لكم كيف نعيد تنظم الأمور فى كياننا . . ولو إلى حين .

وقد يقفز فصيح هنا ويقول : ولكن النيوترون متعادل . فكيف إذن يستطيع أن يلد شحنة كهربية سالبة يحملها الإليكترون وبها يخرج ، ثم بعدها « يتأهل » بشحنة كهربية موجبة ؟ . . إن الجسيم المتعادل — كما نعلم — لا يحمل شحنة موجبة ولا سالبة .

أجيب عن سؤال الفصيح فأقول : إن فقد الشىء السالب هو الموجب

بعينه ، ولكى تفهم ذلك يافصيح ، أجمع لك بين صورتين من عالمك ومن عالمنا . .

لقد جاء الإنسان إلى هذا الكوكب بخيره وشره ، إذن هو يحمل شيئين متناقضين . . فلو خرج الشر كله ، لأصبح ملاكا ، ولو خرج الخير كله ، لأصبح شيطانـًا !

وعلى هذه الوتيرة أستطرد فأقول : إن النيوترون هنا بمثابة الإنسان ، وهو يحمل فى جنباته شحنة كهربية موجبة (ولتكن بمثابة الخير) ، وشحنة كهربية سالبة (ولتكن بمثابة الشر) . . وهذه لا بد أن تساوى تلك تمامـًا . . إذن فهو متعادل . . ولو خرج الإليكترون بالشحنة السالبة ، لبقيت للنيوترون الشحنة الموجبة ، وهنا يتحول إلى بروتون .

ومما يؤكد ذلك أن النيوترون لا يستطيع أن يعيش خارج نواته أكثر من اثنتى عشرة دقيقة ، برغم أنه بداخلها خالد كخلود الذرة . إلا إذا دعاه « الواجب » النووى أن يفعل شيئا كما رأيتم من قبل .

إذا خرج صاحبنا المتعادل من عالمه ، إلى عالمكم ، فإنه يطلق إليكتروناً ، ويتحول إلى بروتون . . والبروتون جسيم عمره لا نهائى . . ومع خروج الإليكترون يخرج أيضاً شبحنا الذرى الذى سأحدثكم عنه بعد حين .

ولكن . . ماذا عن أشعة جاما أو جيم التى تصاحب هجرة الجسيمات من نواها ؟

الواقع أن هذه ليست جسيماً ماديًّا كالبروتون والإليكترون . . ولكنها طاقة زائدة فى قلوبنا ، أى أنها فوق طاقتنا ، ولا بد أن نخفف العبء الذى يثقل قلوبنا ، فنخرجها على هيئة ومضة من ضوء حارق ، لا تراها عيونكم ، لأن موجتها القصيرة للغاية تقع فيما وراء حدود العين ، كما تقع بعض الموجات الصوتية فيما وراء حدود الأذن ، فتقولون إنها

موجات فوق أو تحت صوتية ، أى أنها فوق إدراك الأذن أو ما دونها .

وكذلك الضوء . . فمنه المنظور وغير المنظور . . المنظور له موجة كهرو ـ مغناطيسية تناسب الحدود التى رسمت لعيونكم ، وفوق ذلك الأشعة تحت الحمراء ، وتحت ذلك الأشعة فوق البنفسجية ، وأشعة إكس التى تستخدمونها فى الكشف والعلاج . . وكل هذه الأنواع من الضوء ـ المنظور وغير المنظور ـ ينتج من الإليكترونات الدائرة حول نوانا ، فإذا أثيرت ، وتحملت مالا تحتمل، فإنها تطلق ضوءاً . . وكلما زادت الإثارة ، قصرت الموجة، وزاد التدمير !

وهذا موضوع طويل لن أحدثكم عنه هنا ، وقد يكون له مجال غير هذا المجال ، ولكنى ذكرته هنا عفواً ، لأقارن بينه وبين ما يخرج من قلوبنا . فأشعة جاما مصدرها القلب ، وقلوبنا ـ كما ذكرت لكم ـ تحمل طاقات لا قبل لكم بها ، فإذا خرجت منها ومضة من ضوء حارق (أشعة جاما) ، كانت أقوى مليون مرة من الطاقة التى يحملها الضوء المنظور !

وهكذا أصبحت للأضواء أقدار فى عالمها كأقدار الناس فى عالمكم . . ولكل ما يناسبه .

ويكفيكم هنا هذا القدر الذى سقته لكم من عالم ثائر . . إنها ثورة القلوب .. لا العقول .. ولكن القصة لم تنته عند هذا الحد . . فعلينا « بالأشباح » التى تخرج من قلوبنا .

قصة الأشباح فى عالمنا

ما أكثر ما يتسلط عليكم فى أرضكم دون أن تدروا ! . . وما أغرب ما يحيط بكم من عوالم دقيقة، تخفى على العيون، وتضن على الأحاسيس! . . وصدقونى لو أخبرتكم عن « أشباح » استطاع علماؤكم أن يثبتوا وجودها بدليل قاطع ، أضاف إلى القوانين العلمية نصراً كبيراً ، فزادها قوة وصلابة . . هذا فى الوقت الذى أراد « شبحنا » أن يهدم قانوناً من أعظم قوانينكم العلمية . . قانون عدم فناء المادة أو الطاقة . . والذى عبر عنه أحد علمائكم الكبار جداً فى معادلة بسيطة لا تزيد على حروف ثلاثة تكتبونها هكذا : ط = ك س ٢ . . حيث ط ترمز إلى الطاقة وك ترمز إلى الكتلة ، س ٢ ترمز إلى مربع سرعة الضوء . . ولن أتعرض لهذه المعادلة هنا ، برغم أهميتها البالغة جداً ، وبها استطاع العلامة ألبرت أينشتاين أن يطور مفاهيمكم عن المادة والطاقة . . فظهر لكم أنها وجهان لشيء واحد ، وأن هذه تساوى تلك . .

إن أشباحنا التى أريد أن أحدثكم عنها ، لا تكف عن اختراق أجسامكم فى كل لحظة تمر من أعماركم . . فنصيب الفرد الواحد منكم فى الثانية الواحدة ٥٠ مليون مليون « شبح » .. تمر فى جسمه من ناحية لتخرج من الناحية الأخرى بالسهولة التى دخلت بها ، ثم تنطلق بعدها فى كون الله الفسيح !

وبالرغم من أن الإنسان الذى يعيش ٦٠ عاماً ، يستقبل فيها أكثر من مائة ألف مليون مليون مليون شبح ، فإن جسمه لا يحتجز إلا شبحاً واحداً من كل هذه الأعداد الرهيبة التى نفذت فيه .. ولا تظنوا

بعد ذلك أن من احتجز منكم شبحاً من أشباحنا في جسمه ، سوف يصاب بمس من الجن كما تقولون ، فإن التي ستصاب بالمس واحدة منا . . ذرة من فصيلتنا . . لأن أشباحنا تخرج من الذرات ، ولا تصيب بمسها إلا ذرات . . ولكل عالم ما يناسبه !

لهذا . . فإن أشباحنا التي سنقدمها هنا ، ليست كالأشباح التي يتحدث عنها عامة الناس ، لأن ذلك لا يدخل في نطاق العلم . . ذلك أن العلم يبحث في أمور أساسية تتعرض للنظم البديعة التي قامت عليها تلك الأكوان ، ولا شأن له بالخرافات التي تتصورها بعض العقول الضعيفة . .

وشبحنا هذا شبح « شرير » . . لأنه سرق شيئاً من نواة الذرة ، وبه خرج متخفياً ، حتى لقد أطلق عليه بعضكم « حالة اللص المتخفي » أي الذي لا تستطيعون به إمساكاً ، وكأنه يلبس « طاقية الإخفاء » !

إليكترون وليد مهرج :

إن قصة شبحنا هذا سوف تبين لكم سرًّا من أروع الأسرار التي يزخر بها عالمنا ، ولتعلموا منها معنى القول « إنا كل شيء خلقناه بقدر » !

إن خروج الإليكترون من النواة المشعة قد وضع علماءكم في مأزق خطير ، أو بمعنى أدق قد ضرب بقوانينهم عرض الحائط . . ذلك أن الإليكترون في خروجه لا يسير على النظام ، والنظام هو القانون الأول للسماء ، والعلماء في حساباتهم وتقديراتهم يؤمنون بالنظم الكونية ؛ ومنها قد استشفوا قوانينها وقوانينهم .

دعوني أبدأ القصة من أولها . . وأظنكم ما زلتم تتذكرون كيف

أن النواة المشعة تستطيع أن تعيد تنظيم جسيماتها ، كلما تأزمت الأمور فى كيانها . . وقد تركت لها مقاليد الأمور لتحول بروتونا إلى نيوترون ، أو نيوتروناً إلى بروتون إذا شاءت .. وعندما يتحول النيوترون إلى بروتون يطلق إليكترونا .. أو ضعوها هكذا :

نيوترون = بروتون + إليكترون

إلا أن العلماء لا يأخذون ذلك قضية مسلمة ، برغم أن هذا هو الواقع فعلا ، بل يمسكون بورق وأقلام ويقدرون الأحداث بحساب ومعادلات ، حتى يتأكدوا أن هذا يطابق ذلك تماماً . .

وأنتم تتخذون مقاييس تقدرون بها الأشياء فى عالمكم . . وزنا كان ذلك أو مساحة أو طولا أو حجما . . إلخ ،إلا أن مقاييسكم لا تستقيم مع عالمنا ، لهذا اتخذ علماؤكم الإليكترون كوحدة واحدة . . وقد تبين من تجاربهم أن وزن النيوترون يساوى ١٨٣٨,٦ قدر وزن الإليكترون . . وأن وزن البروتون ١٨٣٦,١ قدر وزن الإليكترون .

أو دعونى أضعها لكم هكذا ، لتناسب عقلية تلميذ فى المرحلة الأولى من مدارسكم :

نيوترون = بروتون + إليكترون

أو ١٨٣٨,٦ = ١٨٣٦,١ + ١

ولو فحص التلميذ الصغير هذه المسألة ، لبكى وقال إنها خاطئة ذلك أن الجزء الأيمن لا يساوى الأيسر . . فهناك نقص يساوى ١,٥ وحدة كتلة . . فأين ذهبت الكتلة الباقية ، وخصوصاً أن شيئاً لا يأتى من لا شىء ، ولا شىء إلى فناء ؟!

ربما تكون الكتلة الناقصة قد تحولت إلى طاقة على حسب معادلة أينشتاين ، ثم استخدمت النواة الطاقة لتدفع الإليكترون إلى الخارج بقوة . .

لو حدث هذا . لخرجت كل الإليكترونات الوليدة مندفعة بالقوة نفسها ، إلا أنها — أى الإليكترونات — قد خالفت قوانين عالمها فى أمور لا يصح أن تحدث ، مادام هناك نظام تسير عليه كل الجسيمات التى تدخل فى بناء الذرة .

كان من المفروض أن تخرج هذه الكمية المحددة من الطاقة نفسها ، وهناك يستطيع العلماء تسجيلها بأجهزتهم . . ولكنها ظهرت على الأجهزة ، وكأنما تسير على مبدأ «المرجلة» . . فبعض الإليكترونات يخرج كسيحاً ، أى بأقل كمية من الطاقة ، والآخر يخرج «مستأسداً» ، وكأنما حصل على أعظم نصيب . . أو بين ذلك يكون نصيب الإليكترونات الأخرى .

تبين من نتائج التجارب الدقيقة التى أعيدت مرات ومرات ، أنه لا يزال هناك جزء ضائع من الطاقة ، وأن الذى يخرج مستأسداً لم يحمل معه ما ضاع . . هناك إذن « جريمة سرقة » نووية . . فمن يكون « اللص الذرى » إذن ؟

ظهر أيضاً أن الإليكترون الهارب قد أطاح بقانون آخر صلب : قانون عدم فناء كمية التحرك الزاوى . . وتبسيطا لذلك أقول : إن لكل جسيم حركة دوران خاصة به ، فمنها ما ينطلق ويدور يميناً ، ومنها ما يدور يساراً ، وكأنما جسيماتنا راقصات فى مسرح ، تتحرك فيه وتدور بنظام كما يريد لها المخرج ، فتجذب عيونكم لروعة الأداء ، وجمال الحركة . . وكأنما « المخرج » الأعظم قد أقام لنا مسرحاً ، ورسم فيه لكل جسيم دوره فى البناء الذرى ، فيلف فيه حول محوره بحساب ومقدار . . وإنكم لتعبرون عن ذلك بمعادلات رياضية ، حصلتم عليها من تجارب معملية .

والواقع أن الإليكترون الخارج من النواة يحمل معه طاقته ودورانه ، ولو عاد علماؤكم إلى نواة الذرة ، وقدروا أمورها . لوجدوا أنها لم تمنح الإليكترون الخارج ما يرقص به ، أو بمعنى آخر : ما يدور به وقد يرجع ذلك إلى أن الإليكترون قد استغنى عما يرقص به . وخرج بدونه .

وإن من ينادى بذلك فى عالمنا يكون كمن ينادى فى عالمكم بأن كوكبكم لا يدور ، أو أن زيداً يخرج أنغاماً من عود بلاأوتار ، أو بحياة عالم من علمائكم بدون رأس . . . فالدوران صفة لازمة من صفات جسيماتنا . .

إن إليكترونن « اللعين » قد أطاح بقوانينكم ، برغم أنها قد وقفت معكم كالجبل الشامخ ، وأثبتت صحتها فى كل التطبيقات التى تعرضت لها . . ما عدا هذا الإليكترون « الوليد » . .

ليكن هناك استثناء واحد . . فهذا لن يهدم الكون . . أو كما تقولون أنتم أحيانا « معلهش » . . هذه حالة واحدة يمكن التغاضى عنها ، كما يمكن التغاضى عن أخطاء من أخطأ فى مجتمعاتكم فتشفعون له بلفظ « معلهش » أو « ماعليه شىء » !

وآه منكم ومن استثناءاتكم و « معلهشاتكم» . . فلا يمكن أن يكون ذلك فى حساب الخالق فيما خلق ، وإلا كانت الفوضى ، والكون العظيم لا يمكن أن يقوم على استثناءات ولا فوضى . .

إن الفوضويين فى عالمكم — أصحاب المعلهشات والاستثناءات — لن تقف السماء بجوارهم . . هل سمعتم قول الرسول الكريم عندما جاءوه ليتشفعوا لقرشية سرقت ؟ لقد غضب غضباً شديداً وقال ما معناه : أتشفعون فى حدّ من حدود الله ؟ . . إنما أهلك من قبلكم أنهم كانوا

إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد . . والله ، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت ، لقطع محمد يدها . . لقد كان قدوة وأسوة حسنة .

لهذا خذوها نصيحة ذرة قد رأت منكم عجباً . . نصيحتى أن تطبقوا القوانين على الجميع ولا تستثنوا ولا تتهاونوا . . فإن تهاونتم فيها هنتم على أنفسكم ، وعلى غيركم ، ولأتركتكم وشأنكم ، فلكم عقول .. ولنعد إلى حالة السرقة التى تمت فى عالمنا .

شبح على الورق :

لقد تحول علماؤكم إلى خبراء جريمة ، ولكن من نوع جديد ، وهم يريدون أن يضعوا أيديهم على من سرق وخرج . . وجىء بالملفات الذرية ، وأجريت التحريات اللازمة . . فظهرت الومضة فى عقل العالم السويسرى باولى فى عام ١٩٣١ ، وافترض وجود « لص ذرى » .. ولكن على الورق فقط ، وأعطى مواصفاته حتى يمكن الاستدلال عليه، أو الإمساك به . .

وهنا أضحك . . فتهتز إليكترونياتى تبعا لذلك ، وتنطلق منها موجات كهرومغناطيسية تثير صاحبكم الذى أسكن مخه . . أضحك لأن المواصفات لشبح . . لروح بدون جسد . . لطاقة بدون مادة . . فهل تستطيعون الإمساك « بروح » ، أو القبض على شبح ؟

ومع ذلك عدّ علماؤكم افتراض باولى — الحائز على جائزة نوبل — وجود شىء لا يمكن الإمساك به خدعة لكى يتخطى بها صعوبة علمية لا تتمشى مع القوانين .

وبعده . . جاء عالم الذرة الإيطالى فيرمى الحائز على جائزة نوبل فى

عام ١٩٣٨ ، والذى شارك فى صنع القنبلة الذرية بعد ذلك — سامحه الله — جاء وأجرى ما أجرى من حسابات ليحدد صفات أكثر « لجسيمنا » الذى يلبس « طاقية الإخفاء » . . وسجل اسمه فى السجلات الذرية . . فأسماه « النيوترينو » أو اسم « الدلع » أو التصغير للنيوترون الكبير . . وليكن بلغتكم « المتعادل الصغير » . . أى أنه لا يحمل شحنة كهربية يمكن الاستدلال منها عليه ، وليس له وزن لنقيم له وزنا . . ولكنه على أية حال أصغر من النيوترون مليون مرة . . وكتلة النيوترون تساوى ١,٦ من الجزء من مليون مليون مليون مليون جزء من الجرام . . وتصوروا أن الدلوعة — النيوترينو — أصغر من ذلك أيضاً مليون مرة . . لا غرو إذن ، إذا عده العلماء طاقة بدون مادة ، أو « روحا بدون جسد » !

والغريب أن علماءكم بدءوا يضعونه فى حساباتهم ومعادلاتهم ، حتى تكتمل الأمور على الورق .

وتتابعت الأحداث الذرية ، وحصل العلماء على معلومات أكثر ، ولكن أحداً لم يجرؤ أن يصمم تجربة لكى يدلل على وجود شبحنا الذرى.. صحيح أن افتراض وجوده قد حل الإشكالات التى تعرضت لها القوانين.. لكن علماءكم لا يستريحون بطبيعتهم إلا إذا ترجموا ماخطوه على الورق بتجارب هادفة ، علهم يستدلون على صاحبنا ، فيصبح حقيقة لا خيالا . .

لكن ، كيف يستطيع علماؤكم حقاً أن يمسكوا بهذا الشبح الذرى أو اللص المتخفى ؟

إنها عملية عويصة للغاية . . فصاحبنا شىء لا وزن له ، ولا شحنة له ولا يتفاعل مع المادة كما يفعل غيره . . وكأنما هو ليس شيئاً مذكوراً بكل معاييركم !

لقد قدر بعض علمائكم أن جيوشاً رهيبة من هذه الأشباح تستطيع

أن تنفذ ببلايين البلايين من خلال لوح من الرصاص سمكه ٥٠ سنة ضوئية — أى حوالى ٣٠٠ مليون مليون ميل — دون أن تتوقف . . لكن هناك احتمال وحيد . . فقد يحتجز هذا اللوح السميك جداً واحداً من هذه الأشباح . . وإذا احتجزه . . فى أى مكان فى اللوح ؟

هناك فرصة وحيدة . . احتمال وحيد . . لكى تحتجزوا واحداً . . وهكذا يراود الأمل الرؤوس . . ولكنه أمل قريب من منطق المستحيل..

وتمر السنوات بطيئة متثاقلة ، ويقيم علماؤكم مفاعلات ذرية أضخم وأضخم وأضخم . . وفيها تضرب النوى ، وتخرج منها الأشباح بالبلايين مع الخارجين ، ولكنها تنفذ بحرية تامة دون أن يوقفها شىء . . ودون أن تصطدم بجسيم . . ولكن الفرصة النادرة ما زالت قائمة . .

وفى واحدة من التجارب الكثيرة ، ظهر الشبح الذرى . . لقد خرج دون أن يروه . .

وأنا أعلم أنكم تهزون الآن رؤوسكم يمنة ويسرة من حديثى هذا ، فتقولون بدهشة : ظهر . . وخرج . . دون أن يروه ؟ . . تباً للذرة تريد خداعنا !

آسفة . . فالخدع لا تجوز إلا على ضعاف العقول . . فالواعى — بينى وبينكم — لا يخدع ، وإذا خدع مرة ، فلن يخدع أخرى ؛ وإلا عددته وعددتموه إنساناً أبله أحمق !

وأنا لا أريد خداعكم فلأترك صاحبى ليبسط لكم الأمور بقصة ..

رواية . . ورواية :

يحكى أن رجلا اسمه ه. ج. ويلز قد ألف رواية اسمها « الرجل المتخفى » . . ولقد كان لصاحبنا هذا — المتخفى — صولات وجولات فى عالمه ،

دون أن يكشف أحد وجوده ، ولكن أفعاله تدل عليه .

وفى ذات يوم اغتاظ المتخفى من أحد رجال الشرطة ، وهو يقف ببروده المعهود ، وأراد أن يلعب معه ، فضربه بالشلوت ، فاندفع الشرطى إلى الأمام ، وعندما نظر بسرعة إلى الخلف ، لم يجد لدهشته أحداً . . فمن الذى ضربه إذن ؟

كذلك ألفت الطبيعة لنا رواية النيوترينو أو « الجسيم المتخفى » . لتلعب معنا ومع الذرات نفس اللعبة !

أعود لأقول : إن شبحنا يلعب معكم لعبة حقيقية ، لادخل لخيال البشر فى أحداثها . فعلى المنوال نفسه الذى تحرك فيه الشرطى عندما رُكل بقدم خفية ، تحركت الذرة واندفعت ، وكأنما هناك ما يركلها . . وأنتم لاتستطيعون أن تروا الذرة وهى تندفع ، ولكنها ترسم لكم مسارها بين طوفان الذرات الأخرى فى جهاز اسمه غرفة الغيوم ، الذى سبق وتحدثنا عنه .

قد يقول قائل واع لما يقرأ أو يستنتج : ما يدرينا أن الركلة كانت بفعل الإليكترون المندفع منها . . وليس بفعل الشبح أو النيوترينو الذى يبحث عنه العلماء .

الواقع أن ذلك هو ما راود عقول العلماء . . ومن أجل هذا انقسموا إلى فريقين ، وكأنهم « بوليس » سرى ذرى . . وكانت مهمة الفريق الأول أن يقبض على الشبح بما سرق بعد هروبه من النواة المشعة . . أما الفريق الثانى فقد أراد أن يضبط الشبح فى مكان « الجريمة » . . أى عندما يفعل فعلته فى الذرة ، فترتد نتيجة لخروج الإليكترون والشبح من نواته كما ترتد البندقية إلى الخلف عند انطلاق رصاصتها . .

وكان من الممكن أن يكون الأمر ميسوراً إلى حد ما ، لو كان الإليكترون هو المقذوف الوحيد من نواته . . وهنا ترتد الذرة فى عكس

اتجاه خروجه تماماً . . ولكن المشكلة أن الاثنين يخرجان فى اللحظة نفسها .. فإلى أين تتحرك الذرة ، وأنتم لا تعرفون وجهة الشبح أو وجهة الإليكترون ؟ . . إن إثبات ذلك من الصعوبة بمكان ، برغم محاولات علمائكم التى لا تنتهى .

وقام فى عالمكم شىء من الجنون تطلقون عليه حرباً عالمية ، ولما قامت الثانية ، توقف علماؤكم عن كشوفاتهم الرائعة فى أسرار كونى . .ولكن بعد أن عرفوا عنه الكثير ، وعما يحتويه قلبى من طاقات ، شاركوا فى صنع أشنع أدوات الدمار . . فهم يريدون أن يتحكموا فى إطلاق المارد من قمقمه ، ليهدم ويقتل، لا ليبنى ويعمر وينتج .. وقد كان .. ومن يومها سيطر عليكم الخوف والقلق . . فقد يطيش العقل وتنطلق المردة من قماقمها المحبوسة فيها بالمئات ، وهنا يصبح الإنسان « الحكيم » أغبى من نملة أو بعوضة أو صرصور !

وانتهت الحرب . وأنتم تعلمون جيداً ما الذى أنهاها . . قنبلتان صغيرتان بالمقارنة لما نتج بعد ذلك . . وعاد العلماء ولديهم معلومات أكثر ، وأجهزة أدق ، وميزانيات أضخم ، ومفاعلات ذرية أكفأ وبكل هذا نصبوا « السيرك » . . فقد حققت القنبلة بدمارها ما خطوه من قبل بحبر على ورق . .

وسأعود لأحدثكم عن ذلك ، إذا سمح المجال . . مجال الورق .

لقد نصبوا « السيرك » للحصول على أسرار أكثر . . ومن بينها شبحنا الذى لم يظهر . . وقد تكررت المحاولات ، إلى أن اكتشفوا الحقيقة التى راودت أفكارهم .

ولا أريد أن أطيل عليكم . . فقد ظهر أن الذرة التى ضاع منها جزء من الطاقة تندفع بطريقة غريبة ، وكأنما هناك شيئان يخرجان منها

فى وقت واحد معاً . . أحدهما إليكتروننا المعهود ، وهذا يترك أثراً ، وأثره مدروس ومعروف من سنوات طويلة مضت . . والآخر يهرب دون أن يوقفه شىء . . والدليل الوحيد على خروجه هو حركة الذرة الغريبة . . ترى ، هل هو شبحنا الذرى الذى يبحث عنه علماؤكم دون طائل ؟ !

القبض على الشبح :

قد يكون هو . . ولكن علماءكم لا يحبون أن يقفزوا إلى الاستنتاجات قفزاً — فبرغم أن الأمور قد اتضحت بطريق غير مباشر ، أرادوا أن يتأكدوا بطريق مباشر . . وهنا تبرز مهمة الفريق الأول ، الذى يريد أن يوقف النيوترينو « شخصياً » بعد خروجه ، مهما كلفهم ذلك من فكر وتعب ومال .

فى عام ١٩٤٥ ، أى بعد مرور أكثر من أربعة عشر عاماً على الافتراض الذى تقدم به باولى السويسرى وفيرمى الإيطالى ، تكاتف جماعة من العلماء — تحت قيادة العالمين الشابين راينس وكوان — ووهبوا أنفسهم لإثبات وجود النيوترينو . . وصمموا لذلك أجهزة ومعدات بالغة الدقة والتعقيد ، وعليهم أن يسلطوا جيوشا رهيبة من الأشباح التى تخرج من المفاعلات الذرية الجبارة على جسيمات نووية ، لعل « الشبح » يمس واحداً منها فيغيرها من حال إلى حال ، وكأنما قد أصابها « مس من الجن » كما يعبر عامة الناس فى عالمكم عن ذلك !

إن الجسيمات التى تبنى عالمنا لها طباثعها الخاصة بها ، فإذا أردتم أن تعرفوا شيئا عنها ، فلتسلطوا بعضها على بعض ، أو فلتضربوا بعضها ببعض . . عندئذ تبوح لكم بمكنونها ، وتظهر لكم أسرارها بآثار وعلامات

تسجلها أجهزتكم . . ولهذا لن يظهر الشبح المخادع نفسه إلا إذا تفاعل مع شيء . .

والسجلات النووية تحوى الكثير من هذه التفاعلات . . ومن هنا يبدأ العلماء حساباتهم وتقديراتهم ، ليتنبأوا بأشياء ، ثم عليهم أن يصمموا أجهزة ، ويجروا تجارب ، لكي يثبتوا ما تنبأوا به . .

إن « التحريات » التي جمعها راينس وكوان تتلخص في نقاط :

أولاً : هل هناك فرصة لكي « يلبس » الشبح جسيماً ، أو يتفاعل معه ؟ إن الفرصة ضئيلة للغاية . . ومع ذلك هي موجودة . . فقد حسبوا مقدماً أن هنـاك فرصة وحيدة من بين كل ١,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرصة لكي يتفاعل الشبح مع جسيم . . . أى شبح واحد من بين كل ألف بليون بليون بليون شبح !

ثانياً : لقد وضعوا أجهزتهم ومعداتهم الضخمة بالقرب من أحد المفاعلات الذرية الجبارة المقامة بمقاطعة جورجيا بأمريكا ، والتي تنتج الأشباح ببلايين البلايين في كل لحظة . . وعليهم أن يضعوا حاجزاً ضخماً لكي يحجز كل الجسيمات التي تنطلق من المفاعل الذرى فلا يدخل في « المصيدة » — التي نصبوها — إلا سيل نقي من الأشباح .. وقد تأكدوا مقدماً — من خلال الأجهزة الكثيرة الحساسة الضخمة الموضوعة بالعشرات حول المصيدة الجبارة — تأكدوا أنها لا تسجل أى أحداث أخرى من التفاعل الذرى أو النووى . . إن ما يدخل فقط هو بلايين الأشباح التي تنساب في الخفاء من خلال كل الحواجز التي تمنع الجسيمات الأخرى (شكل ١٣) .

ثالثاً : لو حدثت الفرصة السعيدة وضرب الشبح نواة ذرة الإيدروجين



(شكل ١٣) عالم الذرة كوان وهو يقف أمام أجهزة معقدة متصلة بأحد المفاعلات الذرية فى معمل لوس الاموس . . ولقد كللت محاولاته الجبارة لاكتشاف النيوترينو أو ذلك « الشبح الذرى » بالنجاح ، وكان ذلك يوماً مشهوداً فى تاريخ البحوث الذرية .

وهى بروتون « يتيم » — فإنه يحولها إلى نيوترون . . ولكنهم لا يستطيعون أن يبحثوا عن نيوترون وحيد فى وسط بحر من الذرات . . مثلهم فى ذلك كمثل من يبحث عن سمكة وحيدة فى المحيط .

رابعاً : ليس مهماً أن يبحثوا عن النيوترون الذى سيظهر إذا تفاعل الشبح مع البروتون . . بل على الأجهزة المنتشرة حول المصيدة أن تسجل الحدث على هيئة ومضتين من ضوء حارق . . فإذا ظهرت الومضتان كان ذلك دليلا على وجود الشبح !

خامساً : بعد مرور جزء واحد من مائة ألف جزء من الثانية ،

سوف تظهر ومضتان أخريان من ضوء حارق . . وهذا يؤكد أن البروتون قد تحول فعلا إلى نيوترون ، وأن هذا بدوره قد فعل شيئاً فى نوى ذرات أخرى ، ليثبت لكم وجوده .

بعد عشر سنوات كاملة من البحث والتجارب والصيد الذرى ، « قبض » راينس وكوان على « الشبح » .. ليس بأيديهم ، ولكن الأجهزة قد سجلت ومضتين ، تبعتهما ومضتان أخريان ، بالتوقيت المطلوب نفسه ، وبالمواصفات نفسها التى استنتجاها من قبل .

وهكذا ، تنتهى قصة من سرق وخرج متخفياً . . إذ قبض عليه فى عام ١٩٥٥ ، أى بعد مرور ربع قرن من الزمان . . وكان ذلك يوماً مجيداً فى حياة باولى الذى ذكر من قبل مواصفات للشبح ، وأنقذ القوانين من الانهيار . . كما كان يوما مجيداً للعقل البشرى ، الذى يزيح الظلمات عن أسرار الكون .

لماذا ومضتان . . ثم ومضتان ؟ . . هكذا ربما يتساءل نفر منكم وسأجيبهم عن ذلك ، ولكن بعد أن أقدم لكم « محاسن » من ظننتموه قد « سرق » . . ولنذكر « محاسن » أشباحنا ، كما تذكرون محاسن موتاكم .. . فلولا هذه « الأشباح » الذرية ، لأصبحت أرضكم جحيما لا يطاق ، ولارتفعت حرارتها عن معدلها الحالى بنسبة ١٥٪ . . هكذا يقدر علماؤكم . . ولكن الذى يقوم بعلمية « الفريجيدير » أو التبريد الكونى . . هو ذلك النيوترينو الذى ينطلق فى الكون دون أن يترك أثراً !

تقولون : كيف يكون ذلك ؟ . . وأقول : لنبدأ بشمسكم التى تبعث لكم بالضوء والحرارة والأشعة « والأشباح » ، فهى التى ترضع أرضكم بطاقاتها ، كما ترضع الأم وليدها بلبنها ، لتسير الحياة فى أرض ووليد . .

إن التقديرات التى أجراها علماؤكم لما يجرى فى شمسكم من تفاعلات

نووية جبارة . تشير إلى أن حوالى ١٥ ٪ من طاقتها . تحملها أشباحنا . وتنطلق بها فى الكون، دون أن تظهر على أى صورة ملموسة ولا محسوسة، ولولا هذا لارتفعت حرارة الكون كله . . لأن ما يجرى فى شمسكم ، يجرى فى بلايين الشموس التى تنتشر فى السماوات .

وهكذا يتبين لكم أن النيوترينو لم يخلق عبثاً . . ولعلكم ترددون معى : « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . . أرددها بنواتى . . لا بإليكترونانى . . وترددونها بعقولكم . . لا بألسنتكم !

لم يكن هو الشبح :

أشعر أننى قد كذبت عليكم كذبة بيضاء .. لكنى لم أرد بها إلا أن أسير معكم الهوينى ، حتى لا يتعقد الأمر . . ونحن فى حياتنا لا نحب التعقيد . . فكل شىء يسير على سجيته وطبيعته . . وهاهى ذى الطبيعة أمامكم بكل جمالها وسحرها . . ونحن من ورائها !

كذبت عندما قلت إن الذى ظهر كان هو « الشبح » . . والواقع أن علماءكم قد اكتشفوا أن ما ظهر كان ضداً للشبح . . إنه عدوه !

نعود بكم إلى الوراء قليلا . . وأظنكم ما زلتم تتذكرون جسيمات هيديكى التى تنبأ بوجودها ، ووجدوا منها عائلة بأكملها . . إن أحد أفراد هذه العائلة الكبيرة الكارهة للحياة فى عالمكم : المدعو «الميوميزون» يموت ، ولكن بعد أن يترك وراءه إليكتروناً وشبحين !

لقد ظهر أن الشبحين المنطلقين مختلفان . . إن أحدهما هو النيوترينو ، والثانى النيوترينو الضد .

ولكن .. كيف تميزون بين النيوترينو وضده ؟

الجواب عن ذلك غريب : فالشبح يدور فى اتجاه عقرب الساعة وضده

يدور فى عكس اتجاه العقرب . .

نعود إذن إلى التجربة التى ضبط فيها راينس وكوان الشبح . . ونعيد القول بأن ما ضبطاه كان ضد الشبح .

ما نوع الأشباح التى تأتينا من الشمس إذن ؟ . . إنها تجرى ، وتدور فى اتجاه العقرب . . فهى الأشباح ، وليست الأضداد . والشمس هى المصدر الكونى لإنتاج أعداد لا حصر لها من النيوترينو . .ولا تستطيعون أن تجدوا على أرضكم مصدراً دائماً وفعالا لتنتجوا أشباحاً . . ولكنكم تستطيعون إنتاج الأضداد فى مفاعلاتكم الذرية عندما تضربون فيها النوى . . كذلك ينتج الضد من اليورانيوم وعائلته ، عندما تتخلص من جسيماتها الزائدة . . إن الذى يصحب الإليكترون فى خروجه بجزء من الطاقة الضائعة هو النيوترينو الضد . . وعندما يخرجان يتحول النيوترون إلى بروتون . . وترتفع الذرة درجة ، كما سبق وقدمت . . وعلينا أن نضعها فى معادلة هكذا :

نيوترون = بروتون + إليكترون + النيوترينو الضد

ولكن ماذا حدث عندما سلط راينس وكوان النيوترينو الضد على بروتونات الإيدروجين ؟ . . الجواب : أن العملية تصبح عكسية : هكذا :

بروتون + النيوترينو الضد = نيوترون + الإليكترون الضد

ضد . . ضد . . ضد . . ما هذه الأضداد التى يتحدث عنها علماؤكم ؟ . عرفنا أن للشبح ضداً فما هو الإليكترون الضد هذا ؟ . .

علىّ إذن أن أفتح لكم صفحة جديدة من عالم الأضداد فى عالمنا لأطلعكم على قصة أخرى مثيرة . . بدأت بحبر على ورق ، وانتهت . . انتهت بماذا ؟ . . هذا ما سأقصه عليكم . . فإلى هناك .

عالم من الأضداد

يحكى أن عالماً إنجليزياً اسمه ديراك أخذ يحلل سلوك الإليكترون عندما يترك عالم الذرة ، وينطلق حراً فى الفراغ . . وأراد هذا العالم الرياضى أن يزوج نظريتين علميتين أساسيتين بعضهما ببعض عله يخرج بمولود جديد . . ونجح صاحبكم فى التوفيق بين النظريتين : نظرية النسبية لأينشتاين ، ونظرية « الكم » لماكس بلانك . . وهما نظريتان مشهود لهما بالنجاح التام ، حيث إنهما قد فسرا لكم كثيراً من سلوك المادة والطاقة .

ويبدو أن التوفيق بينهما لم يكن « فى الحلال » ! فخرج منهما وليد سرعان ما أضحك علماء الرياضة الآخرين ، وهزّ البعض رؤوسهم أسفاً ، وكأنما يقولون : واحسرتاه على علم الرياضة الذى مرغه ديراك فى التراب ! وقال البعض الآخر : لنعتبر ما خرج به ديراك نكتة أو لغزاً رياضياً ليس له معنى فى العقول .

لماذا إذن كل هذا الهجوم على الرجل المسكين ؟

لأن الإنجليزى قد حصل من معادلاته على قيمتين : قيمة إيجابية أى بالزائد ، وقيمة سالبة ، أى بالناقص . . أما الإيجابية فتتمشى مع منطق المعقول . . والسلبية كلام فارغ غير مقبول ، ولا مهضوم .

كيف يكون ذلك ؟ . . هكذا ربما تتساءلون ، ولأدع صاحبكم وصاحبى « يدردش » معكم « حبتين » ، لعله يسوق لكم شيئا من أمثلة تنطبق على عالمكم الذى فيه تعيشون .

المؤلف بالنيابة : الواقع أن ما خرج به ديراك كان خاصاً بالمادة والطاقة . . والعقل البشرى لا يستطيع أن يستسيغ معنى طاقة سالبة أو وزن سالب ، أو زمن سالب . . إلخ .

منطق المجانين :

لكى نوضح ذلك بأمثلة نقول : إن الإنسان الحى له طاقة إيجابية وهى التى تدفعه لكى يعمل ويتزوج ويشقى أو يسعد . . لست أدرى ! . . فإذا مات توقفت الطاقة تماماً وأصبحت صفراً . . أى أن الميت لا يستطيع أن « يغمز » بإحدى عينيه ، أو أن يحرك لسانه أو شفتيه . . إنه ميت . . وكفى !

إننا لا نستطيع أن نفهم معنى طاقة سالبة . . فهذه لا تعنى شيئاً ، إلا أن يعود الميت إلى الوراء . . فإذا كان شيخاً ، فإنه يعود إلى الشباب والطفولة . . ثم جنيناً فى بطن أمه ، ثم حيواناً منوياً يعود إلى صلب أبيه ، وبويضة تعود إلى مبيض أمه !

هل هذا كلام عقلاء ؟ . .

إن معادلة ديراك الرياضية تشير إلى شىء أقرب إلى هذا .

أو دعونى أسألكم سؤالا : ما رأيكم فى لاعب كرة يضرب الكرة فى اتجاه الجول تماماً دون أن يعوقها عائق . . أى عائق ؟

ستقولون : من الطبيعى أن تندفع الكرة إلى الأمام لتدخل بين الخشبات الثلاث . . وهذا هو المنطق المعقول . ولكن لو طبقنا معادلة ديراك ذات القيمة السالبة ، لكان معنى ذلك أن تندفع الكرة إلى الخلف لتدخل الجول الآخر ! كما لو دفعنا باباً إلى اليسار ، فتحرك إلى اليمين ضد الدفعة . . أو كما لو أتينا بميزان ذى كفتين متوازنتين — أى بدون

أثقال – ثم وضعنا فى إحدى الكفتين بطيخة ذات كتلة سالبة فإن الكفة الخالية هى التى تصبح ثقيلة ثقل البطيخة . . وهنا « تطب » الخالية ، وترتفع التى عليها البطيخة ، ولكن . . ما معنى بطيخة سالبة ؟

أظنكم تقولون : كفى . . كفى . . فلا يمكن أن يكون ذلك كلام عقلاء . . . ثم تستطردون فتقولون : أمجنون هو ليخرج على الناس بهذا الكلام ؟ ! لقد عشنا ورأينا كيف يمسخ علم الرياضيات حقائق الكون الراسخة ويحولها إلى سفسطة لا معنى لها ولا طعم ، وهكذا توصلكم معادلاتكم التى بها تفخرون إلى الحضيض الفكرى .

والواقع أن الرجل كان مندهشاً جداً لمثل هذه النتيجة الغريبة ، ولقد حاول أن يعرف كيف خرجت معادلاته بهذا الهراء . . ولكنه كان واثقاً من نفسه ومن صحة معادلاته . . ووصلت به الجرأة إلى حد القول بأنه ربما يكون لذلك معنى . . صحيح أن النتيجة غير مستساغة عقلياً وغير مقبولة منطقياً ، ومع ذلك يجب ألا نجعل أمور الكون تسير على هوانا .

افتراض جرىء قد يوصل إلى شىء . . أى شىء :

لقد خرج صاحبنا من المأزق – الذى كان بوسعه أن يهمله ، ويحتفظ بالنتيجة الإيجابية – بتخمين جرىء ، ومن ورائه عقل جرىء خيالى كذلك عما يمكن أن تعنيه الطاقة السالبة للإلكترون أو أى شىء آخر . . فربما كان ذلك يعنى وجود جسيم آخر وبصورة عكسية للإليكترون الذى نعرفه فى ذراتنا ، ونديره به أجهزتنا . . أو بمعنى آخر أن للإليكترون « ضد » أو « عدو » !

ربما تقولون : إن معادلاته كانت تبحث فى إليكترون وحيد

يعيش فى فراغ تام . فكيف إذن يخرج الضد ؟

أقول كما قال أو تصور : إن الفراغ الذى يعيش فيه الإليكترون ليس فراغاً ، بل هو ملىء حتى الثمالة بالإليكترونات ذات الطاقات السالبة .

إنه فراغ . . وإنه ملآن ؟ ! . . أو ليس ذلك جنونا وكلاماً فارغاً ؟ . . هكذا ربما تتساءلون !

أقول : صبراً . . فربما كان للكلام الفارغ معنى عندما نترجمه عن معادلات رياضية . . والحكمة فى أفواه المجانين ، كما تقولون ! فالواقع أن هذه طريقة افتراضية للخروج من المأزق أو هو خيال عالم يريد أن يصل إلى شىء !

دعونى أقدم لكم أقرب صورة عما يمكن أن يعنيه هذا الجنون على لسان جورج جاموف عالم الطبيعة الذرية الشهير : « لتوضيح مثل هذه الصورة غير المألوفة ، سوف نفترض وجود سمكة تسكن أعماق المحيط . إن سمكتنا هذه قد ولدت وعاشت طيلة عمرها فى الأعماق ، فلم تر هواء ولا يابسة ولا شيئاً إطلاقاً غير الماء . عندئذ لن تعرف أن ما تعيش فيه هو الماء ، ولو كانت ذكية ذكاء علماء الرياضة أو الطبيعة « المودرن » إذ ليس هناك ما تقارن به بين الماء وغير الماء » !

وعلى الوتيرة نفسها يفترض ديراك وجود محيط مكدس بإليكترونات غريبة ذات طاقات سالبة ، وأن هذا المحيط يمتد حولنا إلى ما لا نهاية فى كل أرجاء الكون ؛ ولهذا لن نحس به ؛ كما لا تحس السمكة « الذكية » بمعنى الوسط الذى تعيش فيه ، وتظن أن الكون كله لا يخرج عن طبيعة هذا الوسط — الذى هو الماء بلغتنا .

كذلك ، لا تستطيع أجهزتنا أن تسجل طاقات سالبة ، لأن كل

ما حولنا موجب ؛ ولأن هذه الأجهزة قد بنيت لتناسب عالمنا .

والسؤال الآن : ماذا لو ترك إليكترون واحد مكانه فى هذا المحيط الغريب الذى يعيش فى خيال ديراك ، ليحل به معادلاته .

تقولون : سوف يكون هناك مكان خال بقدر ما شغل الإليكترون الذى ترك محيطه .

هو يقول : ولكن الإليكترون ذا الطاقة السالبة لن يترك مكانه ويخرج من مخبئه العميق تلقائياً . . إذ لا بد أن نسلط عليه كمية محدودة من الطاقة ، لكى تخرجه من مخبئه وتدفعه إلى أعلى مستوى من الطاقة . . عندئذ تستطيع أجهزتنا أن تسجله ، لأنه خرج من سالبيته إلى إيجابية يمكن قياسها وتسجيلها . وقد قدر ديراك هذه الطاقة مقدماً ولكنه عاد وقال : إن المكان الخالى الذى يتركه الإليكترون ، لن يبقى خالياً كما نتصور . . بل « سيسكنه » عدوه (شكل ١٤) .

وإلى هنا تغم الصورة على عقولنا مرة أخرى ، وعلينا — لكى نزيدها إيضاحاً — أن نعود إلى سمكة جاموف الذكية ، حينما هبطت بجوارها غواصة تخرج منها فقاعات هوائية ترتفع فى الماء إلى أعلى . . عندئذ تظهر الدهشة على السمكة ، لأنها قد تعودت مشاهدة هبوط الأشياء إلى أسفل ، وهذا يتمشى مع قانون الجاذبية . . وقد تكون سمكتنا خارقة الذكاء ، فتقول : حسنا ... لتكن هذه الأجسام الفضية الغريبة — أى فقاعات الهواء بلغتنا وأحاسيسنا — أجساماً ذات كتلة (أو طاقة) سالبة (كالبطيخة التى وضعناها فى كفة « فطبت » الكفة الأخرى) . .

وعلى الوتيرة نفسها يفترض ديراك أن المكان الخالى فى محيطه الافتراضى ذى الطاقة السالبة ، سوف يكتسب كتلة عكسية للسالبية . . وعكس السالب موجب . . إذن لا بد أن يحتل المكان الخالى جسيم كتلته موجبة



(شكل ١٤) العالم الشاب ديراك وهو يتخيل محيطه الذى يحتوى على إليكترونات طاقاتها سالبة . . وعندما يترك أحدهما هذا المحيط ويظهر فى عالمنا على هيئة إليكترون عادى بكمية محددة من الطاقة ترفعه إلى أعلى ، فإن مكانه الخالى لن يصبح خالياً ، بل يحتله البوزيترون أو ضد الإليكترون .

وشحنته موجبة كذلك . . وهو بهذه المواصفات يصبح ضداً للإليكترون . . وأسماه البوزيترون . . أى الجسيم الموجب الذى يحمل شحنة كهربية موجبة فى حين أن الإليكترون يساويه كتلة ؛ ولكنه بشحنة كهربية سالبة .

ويتجول الإليكترون فى الكون ، وقد تشاء الظروف أن يعود إلى مكانه ، وعندما يسقط فى الفجوة التى تركها فى المحيط ذى الطاقة السالبة تخرج ومضتان من ضوء حارق (أشعة جاما) . . وهنا يكون أحدهما قد أفنى الآخر تماماً ، وبهذا تختفى المادة ، لتظهر الطاقة . .

معنى هذا أن الطاقة تتجسد فى الإليكترون وعدوّه ، فيظهران كمادة . . وإذا تقابلا تحولت المادة إلى طاقة .

بينما كان ديراك يناقش نظريته الرياضية الغريبة أمام حشد من العلماء ، لم يحاول أى منهم أن يأخذ كلامه على محمل الجد ؛ فليس من المعقول أن يكون هناك شىء اسمه ضد المادة .. صحيح أن الإليكترون يحمل شحنة كهربية تخالف شحنة عدوه ، ولو كانت المسألة ، مسألة شحنة كهربية ، لتعادلت السالبة فيها مع الإيجابية ، وليبقى الجسيمان على هيئة مادة متعادلة كهربياً ، ولكن الغريب فعلا أن المادة تفنى بعضها إفناء تاماً ، بمعنى أننا لو أتينا بحجر ، ولمسناه بحجر يتكون من ضد المادة ، لاختفى الحجران تماماً ، ولحدث انفجار جبار ، يظهر على هيئة طاقة مدمرة تجرى فى الكون بسرعة الضوء . .

كان هذا فعلا كلاماً غريباً على العقول . . ونسى العلماء كل شىء عن بحث ديراك ، الذى نشره فى عام ١٩٢٩ .

ظهور الإليكترون الضد :

فى عام ١٩٣٢ . . استقبل العالم الأمريكى آندرسون أنباء غريبة من السماء . . أعنى من طبقات الجو العليا ، عندما أرسل بالونات بأجهزة وألواح حساسة لكى يصطاد أنباء جديدة تخرج من نوى الذرات ، وعلى أحد هذه الألواح وجد مسارين لجسيمين وكأنما قد ولدا فى اللحظة نفسها ، وخرجا من المكان نفسه . . إلا أن الجسيمين سارا فى اتجاهين متضادين . . أى أن أحدهما قد اتجه يمينا ، والآخر يساراً . . والواقع أن مجالات مغناطيسية توجههما فى مسيرتهما .. المجال الموجب يجذب الجسيمات ذات الشحنة السالبة ، ويطرد الجسيمات ذات الشحنة الموجبة . . والعكس صحيح .

إن المسيرتين تؤكدان أن الجسيمين متشابهان تماماً ، مع فرق جوهري — ذلك أن أحدهما مشحون بكهربية سالبة ، وهو فى الواقع ليس إلا إليكتروننا المعهود ، لأن مساره من قبل معروف ، ولهذا لا غبار عليه ولا على مسيرته . . والمسيرة الأخرى تؤكد أنها لإليكترون آخر . . ولكنه غريب الأطوار (شكل ١٥) .

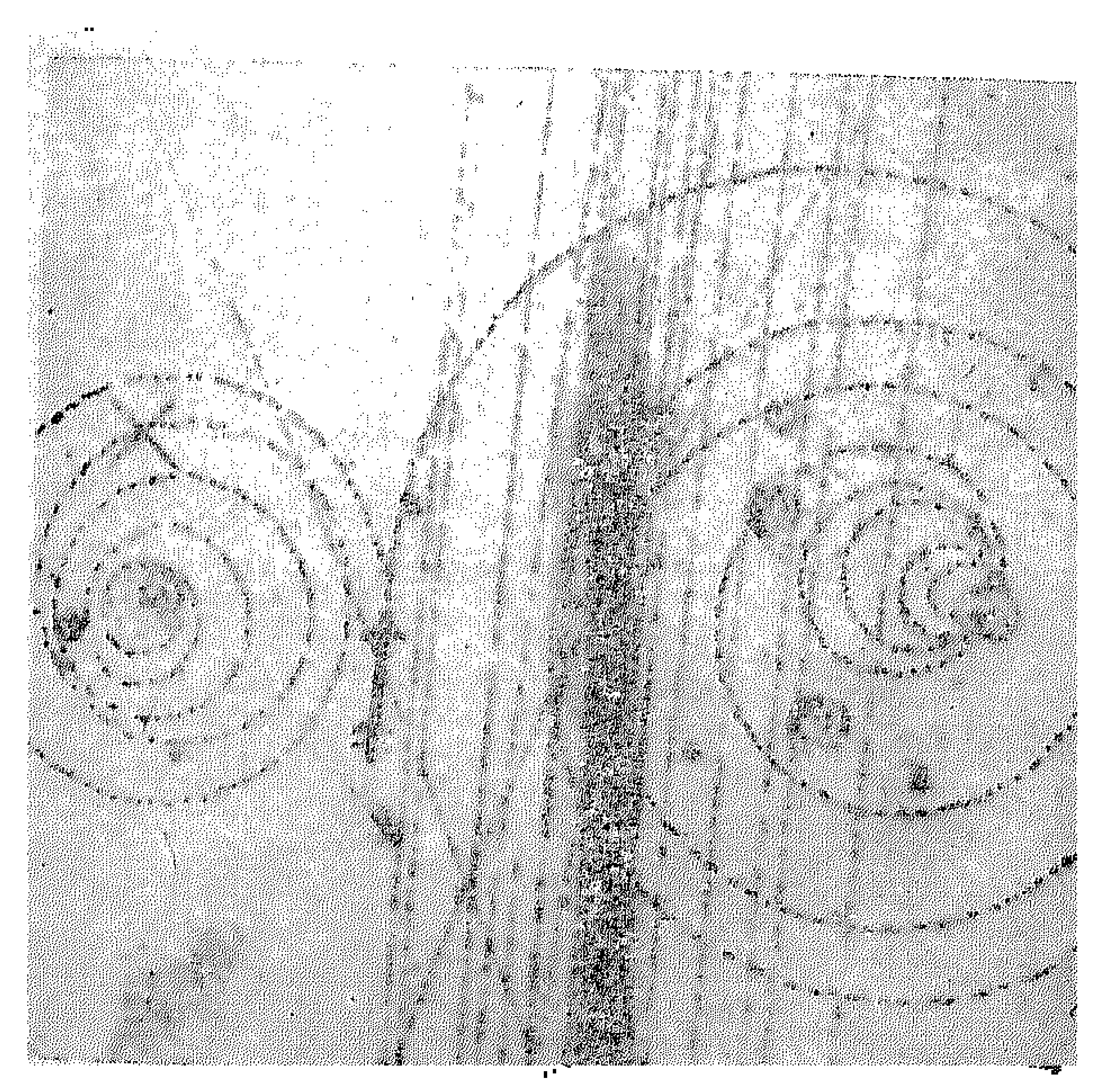
لم يكن آندرسون قد اطلع على نظرية ديراك .. وهنا يأتى بلاكيت الإنجليزى ، فيربط بين النظرية وبين المسارات التى ظهرت على ألواح آندرسون الحساسة ، وكان ذلك يوماً مشهوداً من أيام ديراك ومن . . . (وتعود الذرة مقاطعة لتتحدث) :

ويوماً خالداً كذلك من أيامنا .. ومن أيام العقل البشرى الذى أزاح الغموض عن سر جديد من أسرارنا . . إن الجسيم الذى اتخذ مساراً مضاداً للإليكترون ، لم يكن سوى البوزيترون ، أو ذلك الضد الذى إذا تقابل مع واحد من الإليكترونات التى تطوف برحابى ، فإن هذا يأكل ذاك ، أو يبيده ، ويفنى أحدهما الآخر تماماً كمادة ، لتظهر « روحهما » أو طاقتهما على هيئة ومضتين من ضوء خارق . . تماماً كما تنبأ بذلك صاحبكم ديراك الذى صمد للنقد والتهكم الشديد . . ثم أثبتت الأيام صحة ما خطه من قبل بحبر على ورق !

فى عام ١٩٣٣ . . أى بعد سنة واحدة من الكشف عن وجود البوزيترون كحقيقة واقعة ، منح ديراك جائزة نوبل تقديراً . . ومنحناه نحن معشر الذرات مجداً نفتخر به كما تفتخرون أنتم به . . أولسنا نحن الذين نبنيكم ، ونغذيكم بطاقاتنا الحيوية ، لتنساب على هيئة طاقات فكرية ، تكتشفون بها أسرارنا وأسرار بعض ما فى الكون ؟ !

عودة إلى عالم الأشباح :

بعد أن عرفنا أن للإليكترون عدواً أضفتموه إلى القائمة باسم



(شكل ١٥) عندما تصطدم كمية محددة من الطاقة بهدف مادى ، فإنها تتجسم على هيئة الإليكترون وضده (البوزيترون) .. والصورة تمثل لنا هذه الحادثة الفريدة فى نقطة يشير إليها السهم ، وفيها تجسدت الطاقة ، وولد الإليكترون الذى يتوجه يميناً ويدور بتأثير المجالات المغناطيسية ، والإليكترون الضد ، الذى يتوجه يساراً ويدور كذلك بتأثير المجالات .

البوزيترون . . نعود إذن إلى تجربة راينس وكوان التى اكتشفا بها ضد « الشبح الذرى » أو ضد النيوترينو ، فقد يتوق بعضكم إلى معرفة السر فى ومضتى الضوء اللتين تبعتهما ومضتان أخريان بعد جزء من مائة ألف جزء من الثانية . . وقد تتساءلون : ما دلالة هاتين الومضتين ؟ وكيف عرفا ذلك مقدماً ؟

أقول : إن كل شىء فى عالمنا يسير بحساب ومقدار ، لأننا نتبع قوانيننا ، ونسير على نظمنا بدقة ليس لها مثيل . . وكل ما نطلبه منكم ، لكى نمنحكم المزيد من أسرارنا وطاقاتنا التى تبنون بها حضاراتكم ومدنيتكم الحديثة — أو قد تدمرونها (فهذا يتوقف على كونكم عقلاء أو مجانين) كل ما نطلبه أن تبحثوا وتبحثوا ، ولهذا يعرف من يدرس مجتمعاتنا مقدماً ما قد يحدث للجسيمات التى تكون بناءنا إذا دخل بعضها فى مجال بعضها الآخر ، أو إذا ضرب الجسيمات بعضها ببعض ، أو حتى لو سلطتم شبحاً أو ضده على بروتون أو نيوترون .

إن راينس وكوان كانا يعلمان مقدماً — عن طريق دراسات طويلة — أن الشبح لو مس بروتوناً ، فإنه يغير طبيعته ، ويحوله إلى نيوترون . . ولكنهما لا يستطيعان أن يكتشفا ما حدث ، إلا بدليل ملموس تسجله الأجهزة ، على هيئة ومضات من ضوء لها موجات خاصة .

وتَحَوُّل البروتون الذى يحمل شحنة كهربية موجبة إلى نيوترون بدون شحنة ، معناه أن الأول قد فقد شحنته الموجبة ، وحملها جسيم ، وخرج بها . . وما هو الجسيم ؟ البوزيترون . . الضد الآخر للإليكترون ؛ إلا أن البوزيترون مولود غريب فى عالمنا ، ولا مكان له فيه . . فبمجرد ولادته ، يلتقى مع عدوه فى لحظة خاطفة ، ويفنى أحدهما الآخر ، وتخرج « روحهما » على هيئة ومضتين من ضوء حارق . . أول ومضتين .

وما قصة الومضتين الأخريين ؟

من التحريات الذرية السابقة ، ظهر أن نواة الكادميوم إذا استقبلت نيوتروناً فإنها « تستاء » لذلك كثيراً . لقد « بلعت » شيئاً بالرغم منها ، وهنا تتقيأ شيئاً ، فيخرج من جوفها ومضتان أخريان من ضوء حارق . . وكل هذا يحدث بعد جزء من مائة ألف جزء من الثانية !

وفعلا وضع راينس وكوان ملح الكادميوم فى الماء الذى ضرباه بأضداد الأشباح . . فإذا ظهر نيوترون ، فإنه ينطلق بسرعة ليدخل نواة الكادميوم ، ويعلن عن وجوده بومضتى ضوء . . وبهذا تتحقق قصة الأشباح وضدياتها ، كما تحققت من قبل قصة الإليكترونات وضدياتها .

ولادة غير شرعية :

الله خلق الذرات أنواعاً . . فمنها الثابت على المبدأ ، لأن كل شىء فيه متوازن . . ومعظم عناصر أرضكم ثابتة لا تتغير . . ومنها ما هو غير مستقر ، لأنها حملت ما لا تستطيع أن تتحمل ، ولهذا تتغير من صورة إلى صورة .. ولقد تركت لها السماء حريتها لكى تلقى ما تشاء من أحمالها ، فكانت الإشعاعات التى تطلقها الذرات الكبيرة جداً — ليست فى المقام ، ولكن فيما تكدس فى نواتها من جسيمات شتى .. مثلها فى ذلك كمثل أفراد فى مجتمعاتكم يحملون ما ليس فى مقدورهم . . مسئوليات كان ذلك أو تخصصات . . عندئذ يخفقون ، ولا بد أن يلقوا أحمالهم لغيرهم . . « ورحم الله امرأ عرف قدر نفسه » !

والله خلق الذرات ، وترك لكم الباقى . . وعليكم أن تفعلوا بنا ما شئتم . .

فلتضربونا ، ولتحطمونا . فلن نقف ضد إرادتكم . . فلقد سخرنا الله لكم ، ونحن طوع إرادتكم . . ولكن بالعقول المتفتحة يكون التسخير . . ولن نتجاوب ونبوح بأسرارنا لكل مهرج لا عب زنيم !

وبالعلم والعقل خلق الإنسان ذرات جديدة ، وكأنما عقله جزء من العقل الكونى العظيم . . إلا أن ما خلقه الإنسان ، أو تخلق على يديه قد جاء بطريق غير شرعى . . ولهذا فهو غير مستقر .

أرجعوا عقارب الزمن إلى الوراء قرابة ثلث قرن من الزمان . . حيث بدأ الإنسان لأول مرة « يخلق » عناصر جديدة لم تتواجد من قبل على أرضكم ، وبها فتح الباب على مصراعيه ، ودخل بما تخلق على يديه إلى متاهات وظلمات ، ولكننا كنا بمثابة المصباح الذى يضيء له الطريق ، ويرشده إلى مزيد من أسرار ما كانت لتتكشف على حقيقتها إلا بما تخلق على يديه . . تلك هى الذرات المشعة أو النظائر المشعة التى تستخدمونها فى بحوثكم وطبكم وزراعاتكم وصناعاتكم . . وأضيفوا إلى ذلك ما تشاءون . . فالموضوع جد طويل ، ولن أتعرض له هنا فى مذكراتى .

ولنبدأ القصة ، ليتبين لكم المعنى فيما يقال :

وقفت صبية فى عمر الزهور لتضرب قلوبنا ، علها تحصل على المزيد من أسرارنا وطباثعنا ، والبنت كأمها كما تقولون ، أو كما يقول العوام فيكم : « اكفى الجرة على فمها تطلع البنت لأمها » .. فقد كانت الصبية إيرين بنت مدام كورى – تلك السيدة العظيمة التى وهبت نفسها لكم ولنا – أول من يقوم بتخليق عنصر جديد . .

لقد جاءت « بقمقم » من رصاص ، ووضعت فيه مادة مشعة من التى عزلتها الأم ، ومن فتحة فى القمقم انطلقت جسيمات ألفا وغيرها

لتضرب فى لوح رقيق من الألومنيوم . . والألومنيوم من الذرات المستقرة فى عالمنا منذ أن تخلق مع أرضكم . . إلا أن « البنت الشقية » قد قلبت فيه كيان القلوب ــ قلوب الذرات ؛ واستحقت على ذلك جائزة نوبل فى عام ١٩٣٥ . . فعندما دخلت جسيمات ألفا واستقرت فى النوى تحولت النوى من حال إلى حال . . فأصبحت بعض ذرات الألومنيوم فوسفوراً . . لكنه فوسفور جاء بطريق غير شرعى . . ولهذا ترونه غير مستقر . . ففى قلوب ذراته ثورة وضنك ، بدليل أنها أخذت تطلق من جوفها إشعاعات شتى .

لقد دهشت إيرين وزوجها جوليو ، عندما وجدا أن الفوسفور الجديد ، أخذ يطلق إشعاعاته حتى بعد أن توقف ضربه من مصدر الإشعاعات بمدة طويلة . . وبعد دراسات سريعة ومضنية ، عرفا أنهما قد توصلا إلى تخليق أول عنصر مشع من عنصر غير مشع ، وعرفا أنهما قد استطاعا تحويل عنصر إلى عنصر آخر لأول مرة فى التاريخ . .

وبعدها أصبحت « لعبة » علمائكم أن يضربونا بجسيمات شتى ــ من نفس تكويننا ــ حتى أصبح لكل عنصر طبيعى نظائر مشعة من صنع عقولكم وأيديكم .

وقد يقول عبدة الذهب والفضة : حسناً . . لماذا لا يقوم العلماء إذن بتحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة ليحققوا حلم الكيمائيين القدماء الذين حاولوا وأخفقوا ؟

وإلى عُبَّاد الذهب والفضة أقول : إن تحويل عنصر رخيص إلى عنصر ثمين إنما يجىء بطريق غير شرعى . . ولهذا لن يدوم كمعدن نفيس ، فلكل عمر (عمر النصف الذى تحدثنا عنه) .. بمعنى أن هؤلاء لو حصلوا على عملات صغيرة من النظير المشع للذهب ، فإنها

ستتحول تلقائيًا – عن طريق ما تطلقه من إشعاعات – إلى معدن آخر قد لا يجذب من يكنزون الذهب والفضة . (لا يمكن التفرقة بين الذهب المشع وغير المشع) .

أضيفوا إلى ذلك أن النظائر المشعة التى تتخلق على يدى الإنسان أغلى من الذهب والفضة ، والسبب بسيط ، ذلك أن معظم الجسيمات التى تنطلق إلى قلوبنا ، لن تصيبها ، لأن معظم تكويننا فراغ . . ولهذا فإن ماينتج منها تحصلون عليه بكميات قليلة نادرة . . وقيمة الشيء فى ندرته ، لو كنتم تعلمون !

إعادة التخطيط :

لقد ضرب علماؤكم قلوبنا ، وكدسوها بما هو فوق طاقاتها ، ولهذا تغيرت القلوب . . و « إن الله لا يغير ما بقوم ، حتى يغيروا ما بأنفسهم » وأنتم فى هذا لا تعجبوننى . . فكل أمر تعيدونه إلى ربكم . . وإلا فأين عقولكم ؟ . . لقد خلقكم وترككم لعقولكم . . ونحن هنا أحسن حالا منكم ، لأننا نحاول أن نغير ما بأنفسنا . . ما فى قلوبنا ، حتى نعيد ما أحدثتموه فينا من انقلابات ، أدت إلى فوضى . . ولهذا كان لا بد من « اتخاذ قرارات » . . بعضها ثورى وبعضها يحتاج إلى « دراسات » داخلية على أعلى مستوى من المسئولية النووية » !

ولكى تفهموا الأشياء ، كان لا بد أن أعود بكم إلى أصولها . .

إن نوى ذرات الألومونيوم الطبيعية فيها ٢٧ جسيماً . . منها ١٣ بروتوناً و ١٤ نيوتروناً . . وعندما « يستعمر » جسيم ألفا قلبها (وهو بروتونان ؛ نيوترونان) ، يرتفع عدد سكانها إلى ٣١ جسيماً (١٥ بروتونًا ؛ ١٦ نيوتروناً) .

وهنا يحدث أمر واحد من أمرين :

إما أن تُهجِّر بروتوناً على الفور .. وهنا تتحول إلى سليكون .. أو بمعنى أدق إلى نظير للسيليكون . . والسيليكا إحدى مركبات السيليكون ، وهى تنتشر بكميات ضخمة فى الرمال والأرض والصخور . . إلا أن السيليكون الذى نتج من الألومونيوم له نظير مما خلق الله . . وهو يكون ٣ ٪ من السيليكون الموجود على كوكبكم . . ولهذا فهو ثابت متوازن . . لا ثورة فيه ولا إشعاع .

وإما أن تهجر نيوترونا ، وهنا يتحول الألومنيوم إلى نظير للفوسفور ، ولكنه نظير مشع ، ولا يتواجد فى الطبيعة على هيئته التى تخلق بها على يديكم .

وما دام نظير فوسفورنا مشعاً ، فهذا يعنى أن النوى فيه غير مستقرة ، وعليه أن يراجع حالته الداخلية لكى يتخذ أمراً كان مفعولا .

وكأنما الثائر – محدث النعمة بالثورة – يعود إلى الثوار الحقيقيين فى عالمه ، لكى يستفيد من خبراتهم . . ويرى كيف ينظمون كيانهم .. وكأنما محدث النعمة يقول : على أن أعود إلى أجدادنا الكبار – إلى اليورانيوم المشع وعائلته – لأشاورهم فى الأمر .. فلا خاب من استشار (وهى محادثة خيالية تحمل الواقعية تبسيطا للأمور) .

الفوسفور المشع : أيها الجد العظيم .. لقد ضربنا الإنسان بما يخرج من قلبك ، وتركنا وشأننا ، وبعدها ألمت بنا غمة وكرب عظيم . . إنك أنت الثائر الأول والأعظم على هذا الكوكب . . فهل ترشدنى إلى ما أنا فاعل بكربى ، عله يزول عنى ؟

اليورانيوم : إن ذلك يتوقف على ما تحس به فى داخلك . . فلست أنا طبيب ذرات ، ومع ذلك فلتخبرنى بالضبط ما هو الشىء الذى

يقلقك ، علنى أجد لك مخرجا ؟

الفوسفور المشع : إن مشكلتى فى زيادة عدد بروتوناتى . . وإنها لكارهة بعضها بعضا ، وأنا لا أستطيع أن أتحكم فيها ، والمتعادلون فى عالمى (النيوترونات) أقليّة نسبيًّا . .

اليورانيوم : عليك إذن أن تطرد من الكارهين (البروتونات) ماتشاء . .

الفوسفور : إننى لا أستطيع ذلك ، فهناك حدود لقدرتى وطاقاتى . .

اليورانيوم : حسنا . . سأخبرك بشىء أنظم به أمورى ، عله ينفع فى حالتك . . إننى أطلق من جوفى إشعاعات ألفا ، ولكنك لا تستطيع ذلك . . وأطلق كذلك إشعاعات بيتا (إليكترونات) لكى أوفق بين سكانى . . ويتقدم نيوترون « متطوع » ، ويلد إليكتروناً بشحنة كهربية سالبة ، عندئذ يتحول النيوترون إلى بروتون . . ألا تستطيع أن تفعل ذلك ؟

الفوسفور : قلت « بجلالتك » إن مشكلتى فى عدد بروتوناتى الزائدة ، فكيف تريد منى أن أحول نيوترونا إلى بروتون . . فتزيد مشاكلى ؟

اليورانيوم : إن حالتك لمحيرة حقًّا . . ولكننى أعلم أن السماء قد منحتنا أموراً ننظم بها مجتمعاتنا ، وهى لن تتركنا لضنكنا ، لأننا نسير على قوانينها ، ولا بد لك من حل وعلاج . . لكن ما هو الحل ؟ . . إن هذه حالة شاذة ، ومأزق وضعكم فيه بنو الإنسان . . وليس عندى حالة تشبه حالتك ، وبها أنصحك .

الفوسفور : على كل سأدرس الأمر ، وأنا أتمثل بقول حكيم « جبران » من بنى الإنسان :

ما حك جلدك مثل ظفرك فتولَّ أنت جميع أمرك

ومع ذلك ليس الذنب ذنبهم . . بل ذنب جلالتك وذريتك !

اليورانيوم : تأدب يافوسفور . . كيف تقول ذلك فى حضرتى ؟

الفوسفور : آسف على ما بدر منى ، وقد يكون ذلك لضيق حالى . . إذ لولا وجودكم أنتم ، لما سخركم بنو الإنسان لضربنا بما خرج منكم ، فأذلوا به القلوب ، وقلبوا كيانها . . وأظنك قد استقبلت يوماً موجات كهرومغناطيسية تطلقها ذرات أخرى نقلا على لسان إنسان يقرأ « إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها ، وجعلوا أعزة أهلها أذلة » . . كذلك يكون حالكم معنا . . والسلام على جلالتك ، فقد جاءتنى فكرة لم تطرأ لكم على بال .

اليورانيوم : وما هى أيها الفوسفور الثائر ؟

الفوسفور : إنك تعيد تنظيم أمورك بإطلاق إليكترون من نيوترون ، وسأقوم أنا بعملية عكسية ، علها تنجح . فلماذا لايكون هناك بروتون « متطوع » يقوم بعملية ولادة « لبوزيترون » . . فيتحول البروتون إلى نيوترون . . وبهذا قد تتوازن الأمور ؟ (شكل ١٦) .

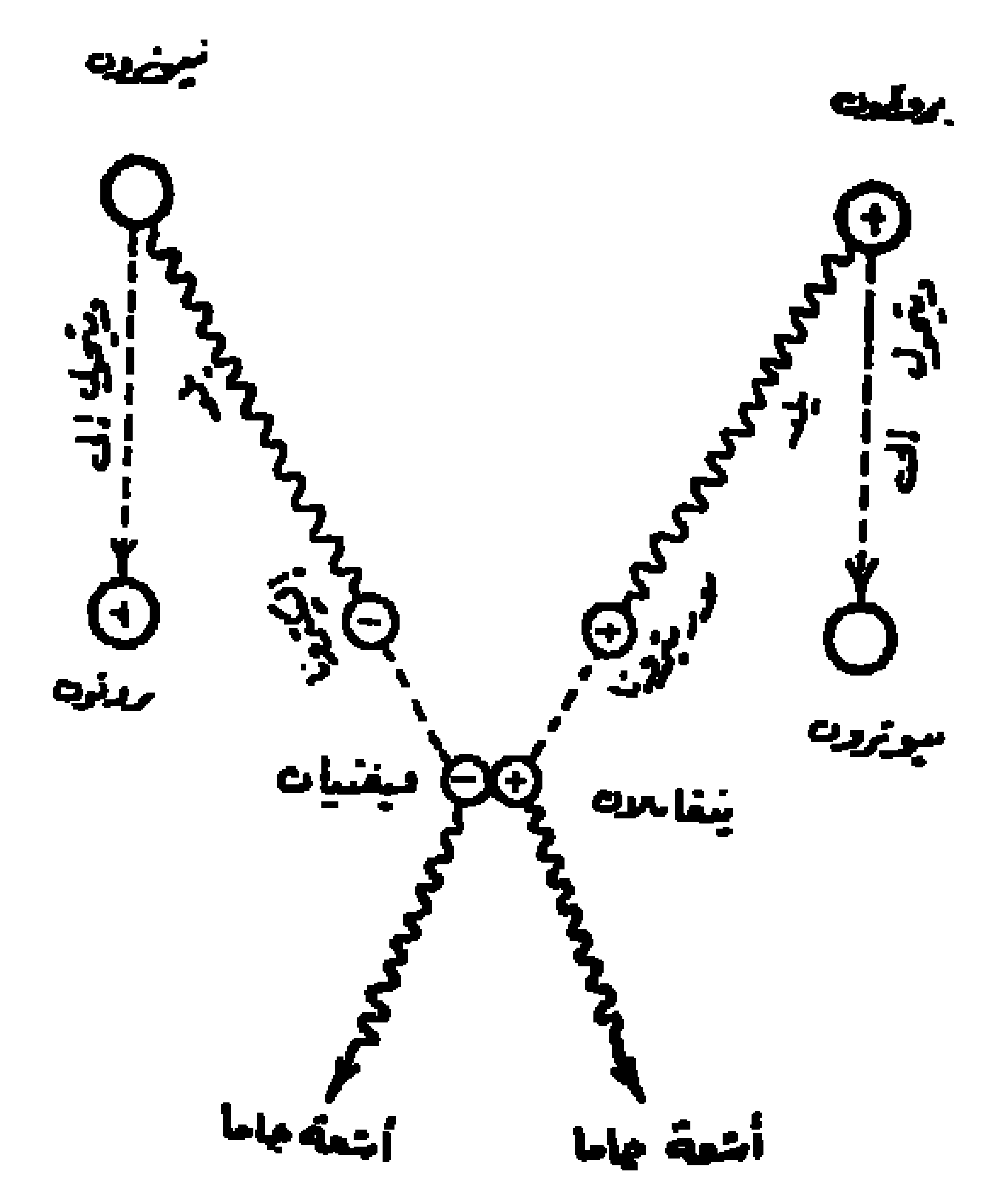
اليورانيوم : وما هو البوزيترون هذا يافوسفور ؟

الفوسفور : إنه عدو أو ضد لمايخرج من جوفك .. إن إليكترونك الذى تطرده ، ألد له بوزيترونا يأكله ويفنيان تماماً كمادة . . وواحدة بواحدة !

وتنتهى هذه المناقشة الغريبة فى عالمى الذرى . . وفعلا يقوم الفوسفور المشع بإطلاق البوزيترون (وهو الذى يحمل الشحنة الموجبة التى كان يمتلكها البروتون — الذى يصبح بدوره نيوتروناً) . . وهنا يهبط الفوسفور

المشع درجة ، ويتحول إلى سيليكون متوازن مستقر ، كالذى خلقه الله بكميات وفيرة على أرضكم .

وهكذا خلق الله مواد مشعة وكدس فيها جسيمات ، فاكتشفتم كيف تدبر أمورها ... فمرة تطلق ألفا ، ومرة تطلق إليكترونًا (بيتا) ومرة تطلق جاما . . وجاء الإنسان أخيراً ، وسعى لتخليق مواد مشعة تطلق من جوفها بوزيترونات . . وهكذا تسعى الذرة . إذا ألمت بها غمة ، لحل مشاكلها .



(شكل ١٦) شكل توضيحى يبين كيف أن البروتون قد يتحول إلى نيوترون لو أنه تخلص من شحنته الكهربية الموجبة بولادة الإليكترون الضد الذى يحملها ويخرج ، وكذلك يتحول النيوترون إلى بروتون عندما يلد إليكترونًا بشحنة كهربية سالبة . . وعندما يتقابل الإليكترون والإليكترون الضد فإنهما يفنيان ويتحولان إلى ومضات ضوئية على هيئة أشعة جاما .

ولا تحسبن بعد ذلك يا بنى الإنسان أنكم قد أتيتم بجديد . . لا جديد تحت الشمس . . فقبل أن تضربونا وتحولونا إلى ذرات مشعة ، سار نفس الشيء منذ آلاف الملايين من السنين فى غلافكم الهوائى . . فهناك على مشارف الفضاء تتعرض أخوات لنا من الذرات لمحن قاسية ، فتنهال عليها الأشعة الكونية بضربات أقوى من ضربات مفاعلاتكم الذرية ملايين المرات ، وكأنما أخواتنا تقف هناك على خط النار ، لتموت نيابة عنا ، وبهذا تحمى كوكبكم من تدمير الأشعة الكونية . .

وقد سبق أن ذكرت لكم أنى تعرضت هناك لمحنة من هذه المحن ، ولكننى استطعت أن أدبر أمرى ، وأعيد تنظيم كيانى ، لأصبح ذرة فى مخ صاحبكم . . علكم تفقهون قولى . . وهذا موضوع طويل سوف أكتبه لكم يوماً إذا شاءت لى الظروف أن أبقى فى مكانى . . وليكن بعنوان « رحلة ذرة » . . رحلة العجائب !

ملخص القول : أن النظائر المشعة الكثيرة جداً ، قد أربت على المئات وكلها كانت من تخليق الإنسان ، ليستخدمها فيما هو مفيد وليكتشف بها أسراراً أخرى ما كانت لتطرأ له على بال .

هل لى ضد فى مكان ما بالكون ؟

« الضد يُظهر حسنه الضد » ، كما تقولون . فلولا النور لما عرفتم الظلام، ولولا الشر لما عرفتم الخير ، ولولا الشيطان لماعرفتم الملاك ! ولولا .. ولولا . . , فما خفى عليكم كان أعظم !

ولكن مادخل هذا فى موضوعى كذرة لا تعرف ما تعرفون ؟

قد يكون لذلك دخل ، وقد لا يكون . . لست أدرى ولا أنتم تدرون ! . . فبعد أن كشف لكم ديراك عن وجود عدو للإليكترون ، ووجدتموه ؛ بدأت الأسئلة الحائرة تلسع عقول العلماء ، وكأنما هى مسامير محماة تطرق رؤوسهم .

لقد عرفنا أن ضد الإليكترون هو البوزيترون . . فهل يمكن أن يكون للبروتون ضد ، وللنيوترون ضد ، ولعائلة الميزونات أضداد . . إلى آخر هذه القائمة أو العائلة الكبيرة من الجسيمات التى خرجت من قلوبنا عندما تحطمت ؟

وإذا كان الأمر كذلك ، فهل يمكن أن يعكس البناء ، فيكون لكل ذرة فى مجتمعاتنا ضد يعيش فى مكان ما بالكون ؟

وإذا كان الأمر كذلك أيضاً، فهل تجتمع الذرات الأضداد لتكون شموساً وكواكب ومجرات كما هو الحال فى أرضكم وشمسكم ومجرتكم ؟

وإذا كان الأمر كذلك أيضاً، فهل يمكن أن تنشأ من المادة الضد حياة ، فتكون هناك مخلوقات عكسية ، بنيت من مادة ضد مادتكم ؟

ثم ماذا يحدث لو جاءكم زائر من الفضاء ، ليأخذ أحدكم بالأحضان

أو لو اقتربت شمس من شمسكم ، أو كوكب من كوكبكم أو مجرة من مجرتكم ؟ وكلها تحمل صفات الضد ؟ .. ثم .. أهى شطحات خيال ذرة ، إن كان للذرة منا خيال ؟ أم هى الحيرة التى يقع فيها الإنسان مع كل كشف جديد ، فيستعين بخياله وعقله ، لكى يرسم صورة للكون الذى فيه يعيش ؟ . . ثم هاهو ذا يريد أن يسبر أعماق الكون ليرى كيف نشأت الأكوان والمخلوقات والذرات ! . . إلخ .

إن علماءكم يقفون على شاطئ بحر من بحور المعرفة ، وهم لايستطيعون أى يغوصوا فيه إلى الأعماق ، لأن البحر عميق عميق ، وقد يجرفهم إلى غرق فكرى ، فإذا الإنسان تائه فى الأعماق . . أعماق بحر المعرفة المفعم بالأسرار !

لهذا تراهم دائما يقفون على الشاطئ .. يلقون فيه بشباكهم ، فيخرج لهم صيد من وراء صيد ، وبصيدهم يسعدون أو يشقون . . لست أدرى .. ! إنما الذى أدريه أن الصيد يقود إلى صيد أكبر . . وأعظم . . وأروع . . فيجذبهم ذلك جذباً . . وقد لا تنفع الشباك مع كل صيد ، لهذا تراهم دائماً متطورين غير جامدين . . إن الصيد يطور أفكارهم . . وأفكارهم تطور شباكهم .. تطور أجهزتهم ومعداتهم وآلاتهم ومعلوماتهم.. وعادة يصلون إلى ما يرضى فيهم غريزة التطلع والكشف والفضول . . ثم يصطدمون بحدود ، قد يتعدونها وقد لا يتعدونها . . كل ذلك مرهون بإرادة الإنسان . . فإرادته من إرادة الله !

دعونى أترجم معنى هذا الكلام من زاويتى الخاصة . .

إن تخليق الإليكترون وعدوه البوزيترون يحتاج إلى كمية محددة من الطاقة ، قدرها علماؤكم مقدماً على الورق . . وهم دائماً يتخذون وحدات معينة يعبرون بها عن المادة والطاقة . . ومن هذا وحدة طاقة

يطلقون عليها « الإليكترون فولت » . .

والإليكترون فولت هو الطاقة التى يكتسبها الإليكترون لينطلق بها إذا وضع فى مجال فرق جهده فولت واحد (والواقع أن ذلك يأتى عن طريق معادلة رياضية) . .

وعلىّ أن أتجنب هذه التعقيدات العلمية التى لا تستسيغها عقولكم ولكنها على أية حال جرعة مُرة لا بد منها لكى نسير بعد ذلك الهوينى فى موضوعنا .

لو اصطدمت كمية محددة من الطاقة تساوى ١,٠٢ مليون إليكترون فولت بهدف مادى ، فإنها تتوقف وتظهر على هيئة مادة . . أى يتخلق منها الإليكترون وعدوه البوزيترون .. وكلاهما جسيم مادى، له وزن.. ولكن علماءكم أحياناً يعبرون عن هذا الجسيم بأنه صورة مكدسة من الطاقة تساوى حوالى نصف مليون إليكترون فولت . وعندما تأكل الجسيمات بعضها بعضاً تتحول المادة إلى طاقة ، تماماً كما عبر عن ذلك أينشتاين فى معادلاته الخاصة بالمادة والطاقة . . فهذه تقود إلى تلك . . وكأنهما وجهان لشىء واحد .

إن أى طاقة أقل من هذا المقدار لا تستطيع أن تقوم بتخليق الجسيمين . . ولكن كلما زادت الطاقة ظهرت جسيمات أكبر وأكبر وأكبر . . وهذا ما سننفذ إليه فى موضوعنا .

إن البروتون أو النيوترون جسيمان كبيران .. أكبر وزنا من الإليكترون أو البوزيترون بحوالى ١٨٤٠ مرة . . وعليه لابد أن تتضاعف الطاقة آلاف المرات لكى يتجسد منها البروتون وضده .. أو النيوترون وضده (ولقد تنبأ ديراك أيضاً بهذا) .

وقدر علماؤكم الطاقة اللازمة للتخليق أو التجسيد بحوالى ستة آلاف مليون

إليكترون فولت (أو ٦ بلايين إليكترون فولت) .. وإلى هنا يقف العلماء حيارى . . « فالعين بصيرة ، واليد قصيرة » كما يقول المتواكلون . . ولكن أين العقل ياقصار النظر ؟ . . وكلامى هنا موجه إلى المتواكلين !

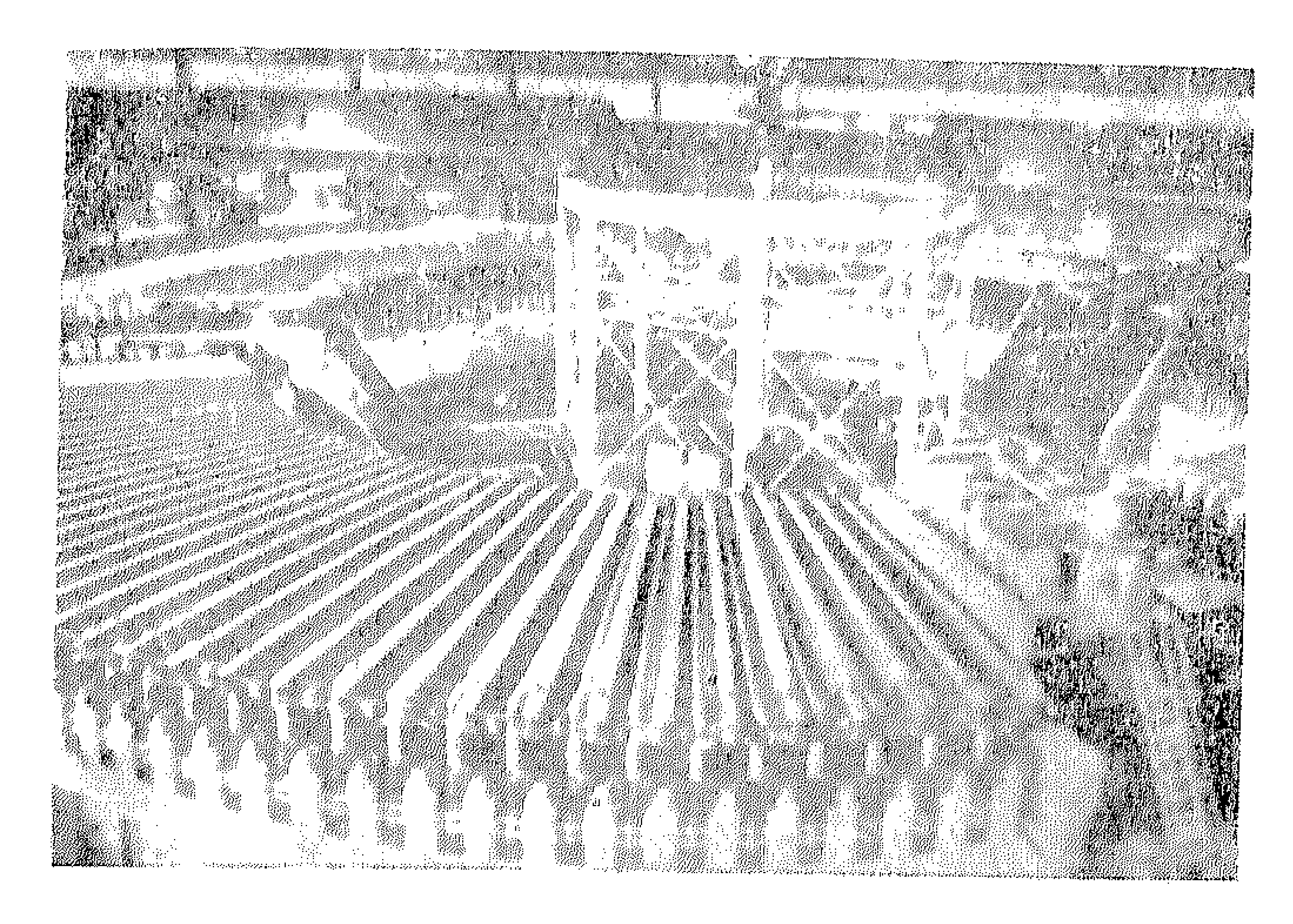
إن الإمكانيات فى الأربعينات من هذا القرن لا تساعدهم فى الحصول على مثل هذه الطاقات الكبيرة . . فهل يعتمدون على السماء ؟ أعنى هل يلجأون إلى طبقات الجو العليا علهم يجدون هذه الطاقات بين الأشعة الكونية التى تنهال على غلافكم الهوائى كجسيمات تحمل معها طاقات ضخمة لا يحلم بها بشر ؟

إن السماء قد تسعفهم وقد لا تسعفهم . . فالأمر يتوقف على المصادفة أو الحظ كما تقولون . . ولو فعلوا ، لكانوا بمثابة الأعرابى الذى يبذر الحب فى الرمال ، وينتظر ما تجود به السماء من أمطار !

وعلماؤكم – والحق يقال – ليسوا متواكلين ، وعليهم أن يلجأوا إلى عقولهم وإمكانياتهم . . لعل الأمور تتطور لصالحهم .

وتمر السنوات . . والإنسان العظيم يطور فى مفاعلاته أو معجلاته الذرية ، أى التى يعجل أو يدفع فيها الجسيمات بسرعة أكبر وأكبر وأكبر ، فتكتسب طاقات أضخم وأضخم وأضخم ، وكأنما المجالات المغناطيسية والكهربائية الجبارة المشيدة فى هذه المعجلات بمثابة السياط التى تلهب « ظهورها » ، لتجرى وتجرى ما شاءت لها قوى الطبيعة التى سخرها الإنسان لإرادته . .

لقد بدأت المعجلات النووية صغيرة ، كما يبدأ كل شىء بداية صغيرة ، ثم أخذت تنمو وتكبر وتتضخم . . بدأت بعشرات ومئات الألوف من الإليكترون فولت ، ثم ارتفعت طاقاتها إلى الملايين ، ثم إلى عشرات الملايين ، ثم إلى مئات الملايين ، ثم إلى البلايين ،



(شكل ١٧) أحد المعجلات الذرية الجبارة التى اكتشف بها العلماء البروتون الضد أو النقيض ، ثم النيوترون الضد بعد ذلك .

ثم إلى عشرات البلايين (شكل ١٧) . . . ولقد أعلن الاتحاد السوفييتى أنه سيبنى معجلا* ذريًّا تصل قوته إلى ٨٠ ألف مليون إليكترون فولت (أو ٨٠ بليوناً) . . وهذا يتكلف عشرات ومئات الملايين من الجنيهات . . كل هذا من أجل ذرة وذرات . . وهكذا يتبين لكم ولى أنه :

* أعلن جماعة من العلماء أنه فى الإمكان التوصل إلى معجلات تبلغ طاقاتها مليون مليون إليكترون فولت .

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم   لم يبن ملك على جهل وإقلال !

إن علماءكم يقولون : إن السماوات ترسل جسيمات تندفع بطاقات رهيبة ، أكبر من طاقات الجسيمات التى تندفع فى معجلاتهم بمئات البلايين من المرات ، حتى لقد سجلوا فى طبقات الجو العليا جسيمات قليلة تندفع بطاقة تقدر بخمسة مليون بليون إليكترون فولت ، ولو أن جسيما من هذه الجسيمات قد أصبح « بلية » صغيرة ، ومرق فى مياه النيل من منبعه حتى مصبه ، ثم تخلى لمياهه عن طاقته ، فإنها كفيلة بجعل كل الماء فيه يغلى من منبعه حتى مصبه !

إن من لا يملك مفاعلات نووية جبارة عليه أن ينتظر حظه . . فقد تأتى المصادفة وقد لا تأتى . . ومن يمتلك خير ممن لا يمتلك ، لأنه يستطيع أن يسخر ما امتلك لإرادته ، فيجنى ثماراً قطوفها دانية . . ذلك أن المعجل النووى يعجل ببلايين الجسيمات لتجرى وتجرى ، حتى تضرب فى الهدف بالتركيز المطلوب . . أضيفوا إلى ذلك أن المعجل النووى محاط من كل جانب بعشرات من « الجواسيس » التى ترقب وتسجل وتحسب ثم تعطى الإنسان صيدها . . وما الجواسيس إلا أجهزة كثيرة لا تطرأ لكم على بال . . وجسيم فى اليد خير من عشرة فى الجو !

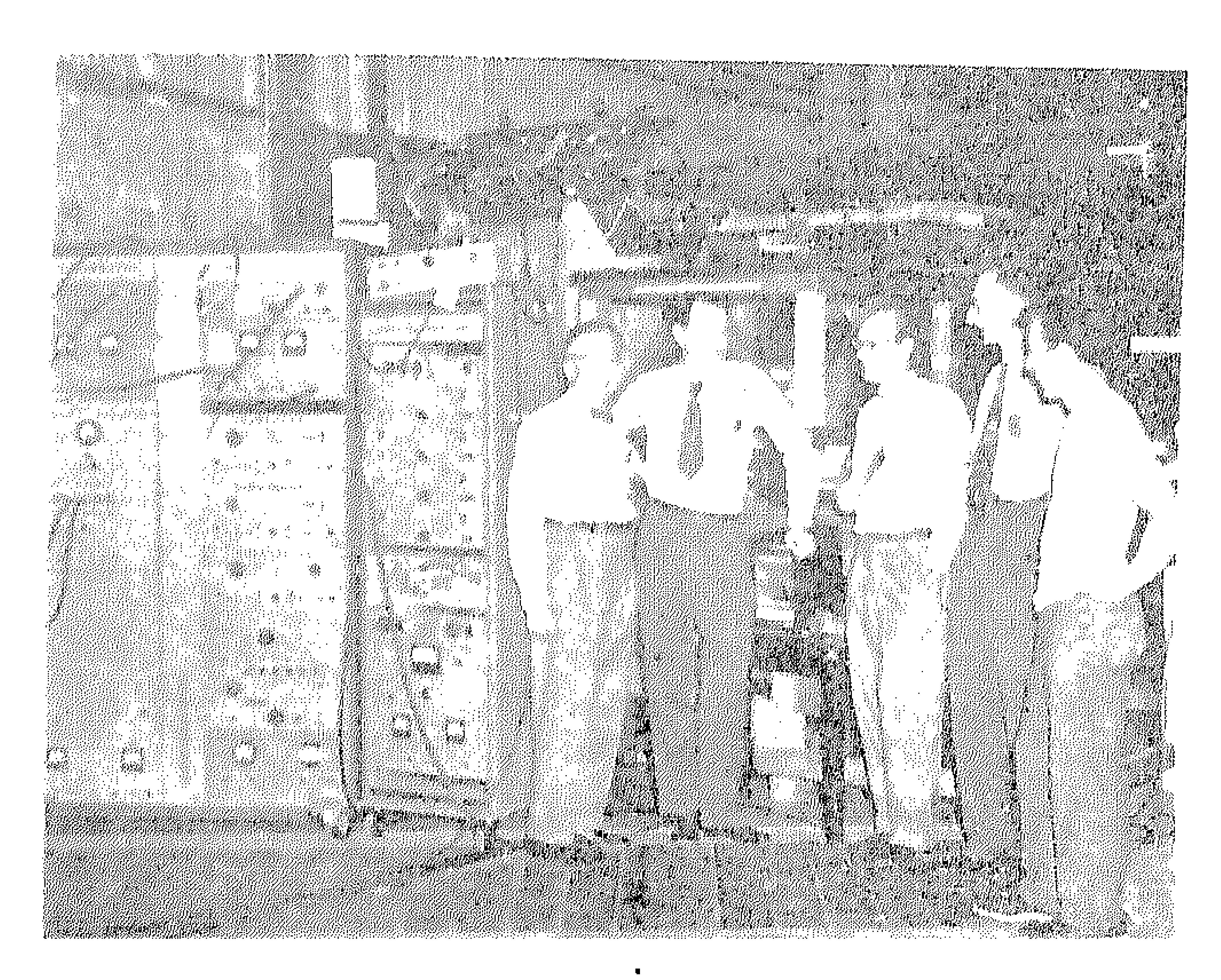
صيد جديد :

إن الدول التى تريد تقدماً علمياً وتكنولوجياً لا تكتفى بالكلام والوعود، لذلك ترونها تمنح علماءها – خيرة من فيها – كل ما يطلبون ، وعندما تيسر لهم حياتهم وأمورهم يقفون من ورائها سنداً . . ولا بد أن يصلوا .

فى عام ١٩٥٥ أعلن أربعة من العلماء أنهم سلطوا جسيمات محملة بطاقات تصل إلى ٦,٢ بلايين إليكترون فولت على هدف . . وبها

ظهر البروتون وضده . . وسرعان ما تقابل الضد مع ضده ، وأفنى كلاهما الآخر ، وخرجت « روحهما » على هيئة طاقات أكبر آلاف المرات من الطاقة التى خرجت من فناء الإليكترون والبوزيترون . (شكل ١٨) .

وفى عام ١٩٥٦ . . ظهر أن للنيوترون ضداً . . وتصادم هذا مع ذاك فأفناه . .



(شكل ١٨) العلماء الخمسة الذين اكتشفوا البروتون الضد ، وهم يقفون أمام لوحات أجهزتهم التى قادتهم إلى هذا الاكتشاف الخطير فى معمل الإشعاعات بجامعة كاليفورنيا (من اليسار إلى اليمين : سيجريه ، ويجاند ، لوفجرن ، شامبراين ، أبسيلا نتس) .

وفى نفس العام اكتشفوا النيوترينو الضد . .
وقبل ذلك أو بعده اكتشفوا جسيمات كثيرة . . ولكل ضد . .
وإنها لأخبار سيئة — بالنسبة لى كذرة . . فهل لى أنا الأخرى ضد ؟

إن ضدى لا يمكن أن يعيش معى على أرضكم . وإلا أكلته وأكلنى ، وفقدت كيانى كمادة . . وإنها لأخبار سيئة لكم ، لأن معنى هذا أن يكون لكم فى مكان ما بالكون ضد . . ولكنه وضع بعيداً . . بعيداً جداً عن كوكبكم وشمسكم .

هل لنا فعلا أضداد ؟

إن أحداً من علمائكم لايعرف ، ولا أنا أعرف . . فربما بدأت الأكوان بداية غريبة . . ربما كانت طاقات منتشرة فى الكون ، ثم تخلقت منها المادة وضدها ، ثم فصل الله بين الأضداد ، وكون منها كواكب وشموساً وأجراماً سماوية ، وباعد بينها ، حتى لا تلتهم بعضها بعضاً ، ويزول الكون .. وهكذا ربما أراد الله أن يكون لكل شيء ضد !

لذلك لا أستطيع أن أعرف بدايتى الأولى ، كما لا يعرف الإنسان ما حدث له فى طفولته الأولى . . وكم كان بودى أن أعرف من أين نشأت ، ولكننى بصراحة لا أعرف . . ولو عرفت لأخبرتكم بالخبر اليقين !

ولكن . . ما هى مواصفات الذرة الضد ؟

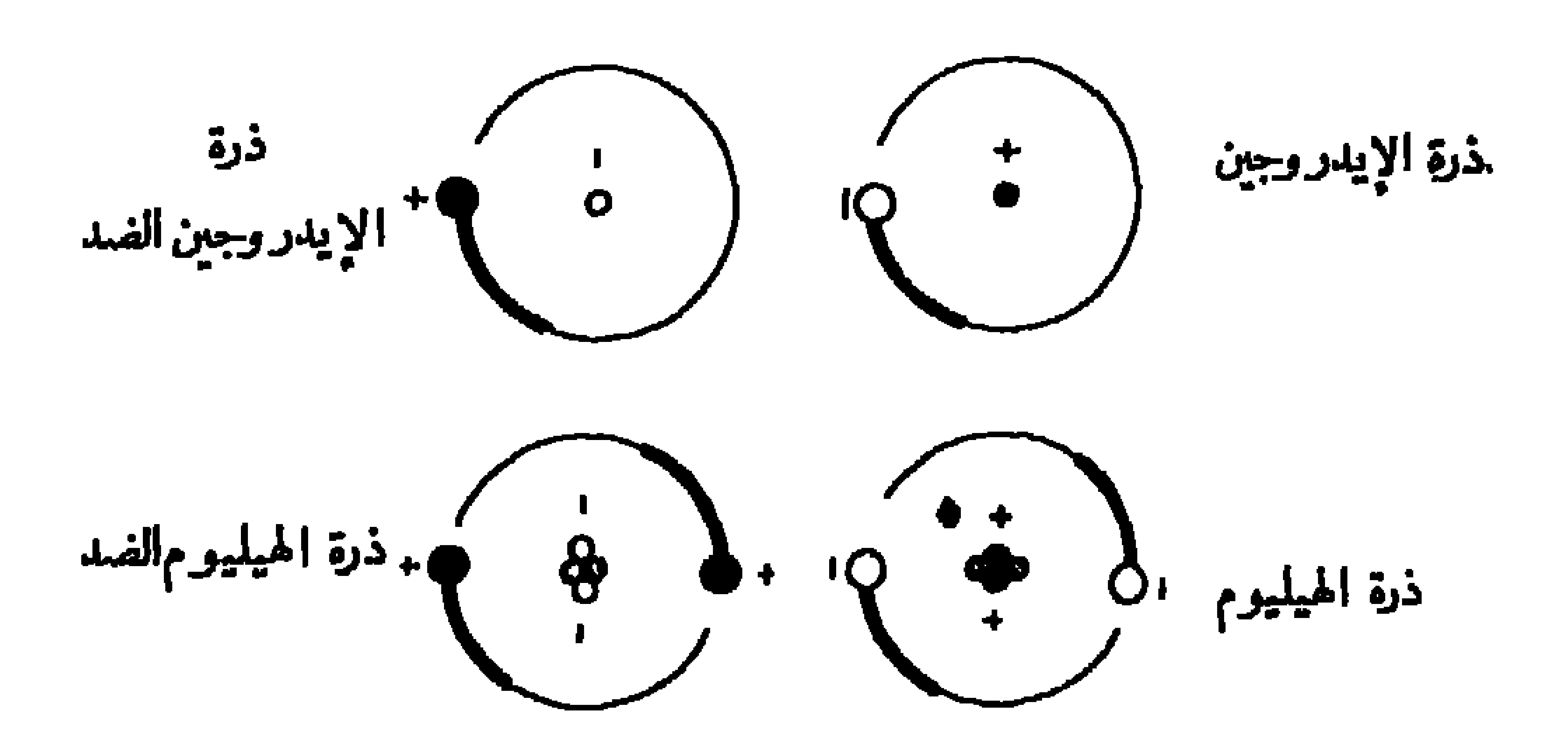
تعلمون مما فات أن نواتى تتكون من بروتونات تحمل شحنة كهربية موجبة ، ومعها نيوترونات متعادلة . . وحولها تدور إليكترونات شحنتها سالبة . .

وما دام علماؤكم قد اكتشفوا البروتون الضد ، بشحنة كهربية سالبة

(عكس بروتوناتى) واكتشفوا النيوترون الضد ، واكتشفوا الإليكترون الضد . . فما معنى هذا ؟

لا أحد يستطيع أن يقول إنه يعرف . . ومع ذلك فمن الممكن أن تكون هناك الذرة الضد . . أى أن نواتها تتكون من البروتونات الضد والنيوترونات الضد ، ويدور حولها الإليكترونات الضد (البوزيترونات) (شكل ١٩) .

إذن . . هل يمكن أن تتكرر عناصر مجموعتكم الشمسية فى مكان آخر بالكون ، فتأخذ صورة عكسية ، ويكون الإيدروجين الضد ، والحديد الضد ، والكربون الضد ، والنحاس الضد . . إلخ . . إلخ .



(شكل ١٩) الذرة والذرة الضد . . لاحظ أن الشحنات الكهربية على الجسيمات قد عكست فى ذرة وضدها . . نواة ذرة الإيدروجين موجبة ، وإليكترونها سالب ، وفى الإيدروجين الضد تصبح النواة سالبة ، والإليكترون موجباً . . وكذا الحال فى ذرة الهيليوم وذرة الهيليوم الضد . . وفى كل الذرات الأخرى .

إن ذلك ليس ببعيد ! . . ولكن أحداً لا يستطيع أن يقدم الدليل على ذلك . وإلى هنا تبلغ حيرتكم مداها . . .. ألم أقل لكم إن من الصيد ما يشقى به الصياد ؟

ربما يقفز فصيح هنا ليقول : إن الإنسان يمتلك تليسكوبات ضخمة يستطيع بها أى يرى نجوماً ومجرات أو أن يستقبل منها موجات برغم أنها تبعد عنه آلاف الملايين من السنوات الضوئية .. أفلا يستطيع إذن أن يميز بين النجم والنجم الضد ؟

لا أحد يستطيع ذلك يافصيح ! . . لأنها تظهر كما لو كانت شمساً أو مجرة قد شيدت من مادة شمسكم نفسها . . وأنتم لا ترونها إلا بما تستقبلون من أضواء تبعثها إليكم .. إذن هناك نور .. وليس للنور ضد . . فوجات النور أو الضوء (الفوتونات) المنبعثة من شمسكم كموجات النور المنبعثة من الشمس الضد !

إن النور مظهر للطاقة . . فهل بدأت الأكوان من نور . . من طاقات ضوئية ؟ . . لست أدرى . . ولا أنتم ، ومع ذلك فـ « الله نور السماوات والأرض » !

هل كل ما ترونه بعيونكم مظهر من مظاهر هذا النور أو هذه الطاقات المكدسة فى الجسيمات ، لتكون المادة التى تبنيكم ، وتبنى كل شىء حولكم ؟

إنها الحيرة التى تجتاح مخ صاحبكم . . فتكثر أسئلته ، وأسئلة كل من ارتضى أن ينفذ إلى أسرار الكون الممثلة فى بنائنا الدقيق الذى بدأت به الأكوان بداياتها . . وهكذا يتبين لكم حقاً المعنى فيما ترددون « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » !

واسمحوا لى أن أستخدم خيالى الذرى كما تستخدمون خيالكم ..

فقد يأتيكم زائر من الفضاء فى صاروخ . . وقد يخرج له صاروخ يحمل إنسانًا ، ليتقابلا فى الفضاء ، ثم يتفاهمان عن بعد بإشارات موجية ، وقد يقتربان ، ويخرج كل من صاروخه ، ليأخذ الآخر بالأحضان . . عندئذ سيختفيان تمامًا كمادة .. وينتج عن ذلك طاقات أضخم من طاقات تفجير قنبلة إيدروجينية جبارة . لقد أكلت مادة الزائر ، مادة صاحبكم ، فكل منهما قد بنيت بطريقة عكسية للأخرى . . ولا أحد يدرى أين المادة . . أو ضدها !

إن علماءكم يتوجهون دائمًا إلى السماء بمناظيرهم الجبارة ، وأجهزة استقبالهم الضخمة ، علهم يشهدون فى مكان ما بالكون العظيم ، نهاية عالمين متضادين ، تقابلا . . فانطبق عليهما القول : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » . . وهنا تعود الأمور إلى أصولها . . إلى طاقات وأضواء تعمى الأبصار !

إن هناك بعض أدلة أولية تشير إلى ذلك ، ولكن الموضوع طويل ومثير ، وقد أعود إليه يومًا لنتحدث عن المزيد* .

---

* انظر كتاب « هل لك فى الكون نقيض ؟ ! » . . للمؤلف ضمن سلسلة « العلم للجميع » .

نهاية المطاف

الواقع أن هذا عنوان سخيف . . ولو أعجبكم ! . . فليست للإنسان نهاية مطاف معنا نحن معشر الذرات !

صحيح أنه اصطاد من كياننا « الضعيف » ما شاءت له إمكانياته أن يصطاد ، حتى لقد بلغ صيده حوالى ٣٣ جسيماً . . لكل عمرٌ ووزن ودوران ومجالات وأقطاب مغناطيسية وتفاعل وسلوك وذرية وأضداد . . إلخ . . إلخ .

ولكن . . ماذا هو فاعل بكل هذا الصيد ؟

لقد اصطاد دارون — صاحب نظرية التطور الشهيرة — من قبل ، أى فى القرن الماضى ، أجناسا كثيرة جداً من أنواع المخلوقات ، وأخذ يصنف صيده ، على أسس علمية ، ثم أخذ يستنتج ويصقل ، حتى وصل فى نهاية الأمر إلى نظريته التى أحدثت فى عالمكم انقلاباً . .

وكأنما التاريخ يعيد نفسه . . فجاء إنسان القرن العشرين بكل إمكانياته ومعداته لكى يصل إلى أساسيات هذه الأكوان . . ولقد كادت أن تنتهى مرحلة الصيد فى عالمنا الذرى ، وعليه أن يسعى لصقل كل هذا فى نظرية أو قوانين ، أو ربما قانون واحد يربط بينها ، كماربط أينشتاين من قبل العلاقة بين المادة والطاقة بقانون واحد يبدو بسيطاً ، ولكنه فى الواقع ضخم وعظيم . .

ولقد كان دارون ومن يسيرون على طريقته أسعد حظاً من علماء الذرة ، ذلك أن من يتعاملون مع العوالم المنظورة يستطيعون أن يفحصوا

وأن يعرفوا عنها الكثير . . وكثيراً ما يضعونها على منضدة التشريح ، لكى يفصصوها إلى ماهو أصغر وأصغر ، وهنا يتبين لهم النظام الداخلى التى تتواجد عليه الكائنات الحية .

ولكن علماء الذرة لا يستطيعون ذلك ، فلا يمكن أن توضع الذرة منا على منضدة تشريح ، ولا أن يمسكوها بملقط ، ولا أن يروا مكوناتها الداخلية ، مهما كانت إمكانياتهم ، ومهما كانت إمكانيات التكبير . .

ومع ذلك هناك طريقة لتشريحنا إلى ماهو أصغر . . فما عليهم إلا أن يضربونا فى معجلاتهم الجبارة ، وعندئذ تتحطم مكوناتنا ، وهنا يخرج الحطام على هيئة جسيمات أنواعها كثيرة . . فمن أين جاءت كل هذه الجسيمات ؟ . . وهل كلها تسكن النواة ؟ أو أنها صور مختلفة لشيء واحد؟ . . أو هل هى لعبة « استغماية » نلعبها معكم ، لنثير عقولكم وحواسكم ؟

ثم إن هذه « الأحجار » أو الجسيمات الأولية التى تبنى بيتنا تفقد نظامها القديم الذى كانت تتواجد عليه فى بيتنا إذا ما تحطمت وخرجت ، مثل بيتنا كمثل جملة مكتوبة هنا بحروفكم . إن نظام الحروف يعطيها معنى . . ولكن إذا تفككت الحروف واختلطت فى علبة صغيرة ، فقدت معناها تماماً . . فهل نحن مكدسون فى النواة كما تتكدس الحروف فى العلبة . . أو كما تتكدس حفنة من الخنافس والجعارين والزنابير فى كيس لتتحرك فيه حركة عشوائية ؟ . . أو هل لنا نظام خاص ، وبناء مشيد على أساس ؟

إلى هنا يقف العلم بإمكانياته الحالية . . ولكن ليس معنى هذا أن يقف علماؤكم مكتوفى الأيدى مطموسى العقول . . بل هم يشحذون أفكارهم

من جديد ، ويمسكون بورق وأقلام ، فيحسبون ويقدرون ، ويخرجون بنظريات ، قد تتحقق ، وقد لا تتحقق . .

والنظريات كثيرة ، وكل نظرية تشير إلى بناء خاص ، ولكل نظرية ما يؤيدها ، وعلى أساسها وضع علماؤكم نماذج لما يمكن أن يكون عليه بناء بيتنا النووى . . فكان نموذج القطرة السائلة ، أى التى تتحرك فيها جسيماتنا كما تتحرك الجزيئات فى قطرة ماء . . وكان نموذج الكرة البلّورية السحابية ، ونموذج البيضة بقشرتها ومحها وصفارها ، والنموذج الكمّى المتغير . . والنموذج المدارى . . إلخ ، ولن أتعرض هنا لكل نموذج بالشرح فالمجال يضيق ويضيق .

ومع ذلك يكفينى واحد — النموذج المدارى — فإن الظن السائد الآن أنه ربما كان أكثر النماذج احتمالا . وقبل أن أعرضه عليكم باختصار أود أن أذكركم بحجم نواتى . . إن حجمها فى حدود جزء أو جزأين من مائة مليون بليون بليون بليون جزء من المليمتر المكعب ، أو إذا كنتم تحبون منطق الأصفار فلا مانع ، ولكنها أصفار على اليسار . . ضعوها هكذا : ١ — ٢٠٫٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠, ٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠ مليمتر مكعب ! !

من البدهيات أن هذا الرقم ليس له معنى فى عقولكم . . ومع ذلك فهو بيت واسع . . كون واسع . . ترقص فيه جسيماتنا !

كأنما النظام يتكرر . . للمجرات السماوية الكبيرة مجرات أصغر تطوف حولها ، وللشموس كواكب تطوف حولها ، وللكواكب أقمار تطوف حولها . . وللنواة فينا إليكترونات تطوف حولها — ثم تنتظم الجسيمات بدورها فى مدارات لتطوف حول مركز فى قلب قلوبنا . . . وقد يكون لكل جسيم ، جسيمات أدق وأدق ، لتطوف فى مدارات أدق

وأدق . . إذن . . فما نهاية المطاف ؟ . . . لست أدرى !

كأنما هناك قلب من داخل قلب . . والقلوب تنبض « بالحيوية » والأسرار والطاقات . . هل هو صندوق حاو ؟ . . صندوق من داخل صندوق من داخل صندوق ؟ ولكن شتان ما بين صورة وصورة !

والواقع أننى أرثى لعلمائكم ، فإن بيتنا النووى لمحير . . ومع ذلك فدعواتى لهم من كل قلبى بالتوفيق . . ولو كنت أعرف ، لساعدتكم فى معرفة مالا تعرفون . .

وهنا قد يقفز فصيح فيقول : تباً لهذه الذرة . . كيف تقول إنها لا تعرف ، علماً بأن المشكلة مشكلتها ، والبناء بناؤها ؟

وآه من فصاحتك يافصيح ! . . الواقع أننى مثلك . . فهل تعرف أنت نفسك ؟ . . هل تعرف ما يجرى فى داخلك ؟ . . وإلا ، فبالله خبرنى هل توصلتم إلى لغز الحياة ، برغم أن الحياة تجرى فى كيانكم ؟ . . هل توصلت إلى سر تلك الكتلة من الخلايا التى تسكن فى رأسك أو الناس والأشياء التى تعيش حولك ، فإذا تغير وجه صاحبك بعد طول غياب ، سارع المخ بمقارنة الصور القديمة بالصورة التى يقف بها أمامك ، فإذا بك تسارع وتقول : لقد تغيرت ! كيف يحدث هذا ، برغم أنك صاحب المخ الذى يفعل هذا !

إن لغز الذرة كلغز الخلية . . كلغز الحياة . . كلغز السماوات . . وهكذا يتبين لك أيها الفصيح أن الكون ملىء بالألغاز والأسرار . . و« لا يزال الرجل عالما ما طلب العلم، حتى إذا ظن أنه قد علم .. فقد جهل » . . ودعك من ذوى الفتاكة ، فلا شأن لى بهم !

* * *

وفى نهاية مطافى معكم ، سوف أعرض عليكم قصة صيد جديد فى عائلة جسيماتنا .

بدأت قصة الصيد هذه فى عام ١٩٦٢ ، عندما قام اثنان من علمائكم الشبان بإجراء تقديرات ومعادلات رياضية معقدة وطويلة ؛ وكأنما هناك حلقة ناقصة يريدان أن يتوصلا إليها ، لتكتمل الصورة ، ثم بعدها يبدأ الإنسان من جديد يراجع ما اصطاد ، عله يصل إلى فكرة تقوده إلى أصول هذه الجسيمات والعلاقة التى تربطها . . وهل نشأت من أصل واحد ، أو أن أصولها مختلفات ؟ !

إن الإنسان فى هذه الحالة يبدو لى كأنه يسير على ما سار عليه علماء النشوء والوراثة والتطور والارتقاء . . ولكن لكل تخصصه . .

الأول يبحث فى أصل ذرة . . والثانى يبحث فى أصل حياة . . وكأنما هم يمتثلون للقول الفصل : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » . . وسواء أكان بدء خلق ذرة أو بدء خلق حياة ، أو بدء خلق كواكب وأجرام سماوية . . فالشىء الذى لا يختلف فيه اثنان أن ذلك سيقود حتماً إلى كشف أسرار تضن على العقول ، أو لا تضن.. ومنها سيتبين سر إعجازه فى خلقه ، أو أن الأشياء لم تخلق عبثا . . بل وراءها نظم وقوانين ، سبحان من أوجدها وأبدعها !

قلت لكم إن العلماء الذين يبحثون فى أسرارى الذرية كمثل علماء النشوء والتطور فى المخلوقات . . فهم يرون أن الحياة التى نعرفها اليوم لها نشأة قديمة جداً . . تقدر بمئات الملايين من السنين . . وكأنما المخلوقات قد سارت فى طريق طويل على هيئة سلسلة حلقاتها متصلات وكأنما كل حلقة تقود إلى الأخرى ، ولكن بدفعة أكثر تطوراً إلى الأمام . . إلا أن هؤلاء العلماء أحيانا يجدون حلقة ناقصة هنا ، وأخرى

ناقصة هناك ، فإذا لم يهتدوا إلى وجود هذه الحلقات الناقصة فى سلسلة التطور الطويلة ، فإن ذلك يكون بمثابة نذير شؤم لهدم الفكرة الرائعة التى ارتسمت فى عقولهم عن تسلسل المخلوقات ، وكأنما هى سيمفونية رائعة . . ولكن ينقصها بعض النغمات أو الألحان !

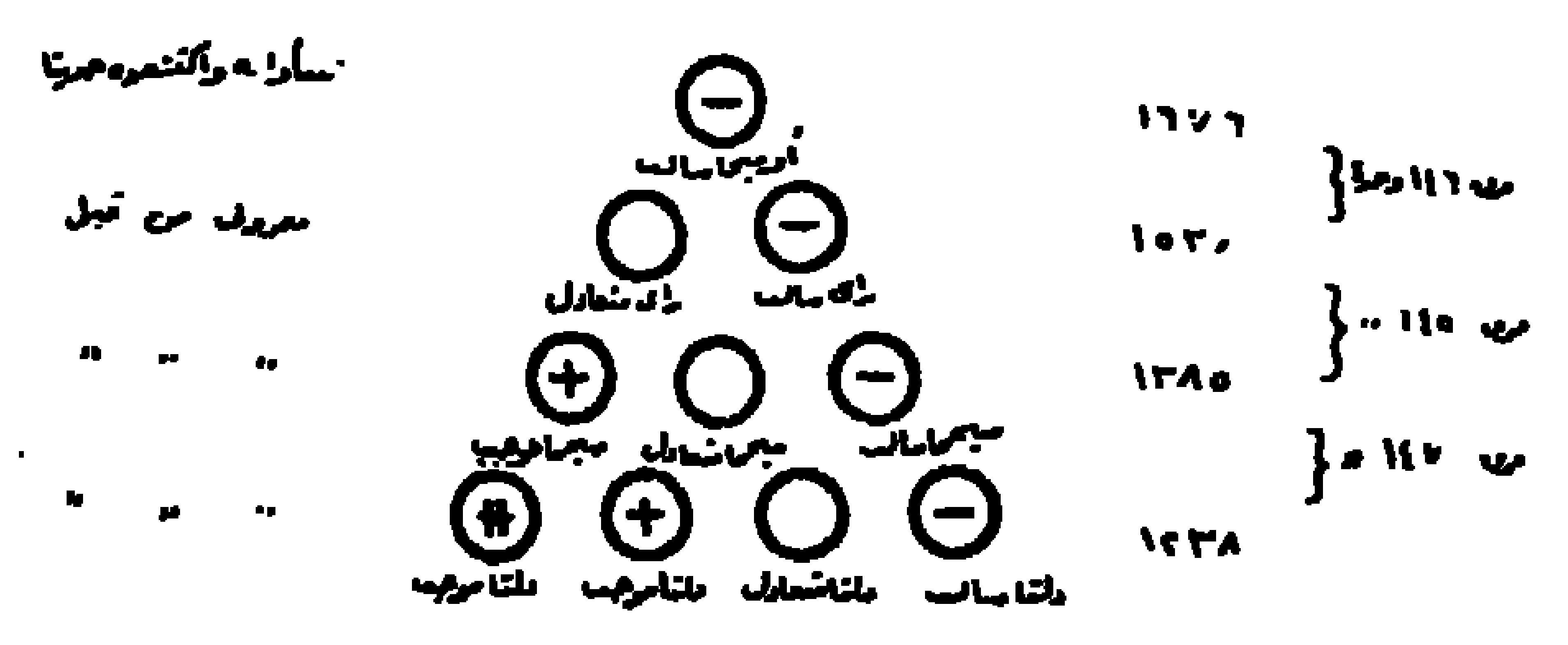
عندئذ يعودون إلى الأرض ، يفتشون بين صخورها وطبقاتها الرسوبية علهم يهتدون إلى الحلقات الناقصة ممثلة فى مخلوقات اندثرت منذ عشرات أو مئات الملايين من السنين . . ولقد وجدوا معظم هذه الحلقات ، وبالمواصفات التى ارتسمت فى عقولهم . . وجدوها على هيئة كائنات قد تركت آثارها ، لتحكى لنا قصة رائعة محبوكة الحلقات !

ويعيد التاريخ نفسه مع علماء الذرة . . وكأنما هناك حلقة ناقصة يمثلها جسيم ظهر بحبر على ورق . . ووضعوه فى القائمة باسم « أوميجا السالب » .. وقدروا وزنه مقدماً بحوالى ١٦٧٦ مرة قدر وزن الإليكترون.. والواقع أن هناك بناء هرمياً من جسيمات قد اكتشفت من قبل ، ودرست خواصها ، ولكن قمة الهرم ما زالت ناقصة ولابد أن يكتشف هذا الجسم ، ليحتل القمة (شكل ٢٠)

الغريب هنا ، أنكم كلما ارتفعتم فى البناء الهرمى درجة ، زاد وزن الجسيمات التى تحتل هذه الدرجات بمقدار ١٤٧ وحدة . . فما معنى هذا ؟ . . لا أحد يعرف !

كل هذا لا يهمكم بقدر ما تهمكم إرادة الإنسان الحقيقية التى جعلها سلاحاً لكى يتوصل إلى ما يريد . . فالصيد ليس صيداً سهلا كما تظنون لأسباب :

● كان لا بد من توضيح مسار الجسيم المرتقب مقدماً ، وقبل أن يموت ، لأن عمره لا يزيد على جزء واحد من مائة ألف مليون جزء من الثانية !



(شكل ٢٠) من هذا الشكل الهرمى لبعض الجسيمات الذرية استطاع العلماء من خلال حسابات رياضية معقدة أن يتنبأوا بوجود جسيم على قمة هذا الهرم أطلقوا عليه اسم أوميجا السالب . . الغريب هنا أننا كلما خطونا من القاعدة إلى القمة زاد وزن كل جسيم فى كل صف بمقدار ١٤٦ وحدة فى المتوسط ، وكأنما هناك سر هائل فى هذا التسلسل العجيب يحاول العلماء التوصل إليه لفهم البناء الذرى على حقيقته ، والحصول على مزيد من الأسرار .

● أوضحت الحسابات أنه سيتحلل إلى جسيمين : الباى السالب الذى سيترك بدوره أثراً ، وجسيم آخر متعادل اسمه « زاى » . . وهذا لن يترك أثراً .

● تم تدريب عدد من الفنيين على تتبع هذه المسارات بين عشرات المسارات الأخرى التى ستتركها بعض الجسيمات على مئات الآلاف من الصور التى ستلتقط ، لعل الجسم المرتقب يظهر فى واحدة . . إن أى أثر قد يبدو للرجل العادى غير ذات قيمة يعنى الكثير جداً بالنسبة للواقفين من وراء الصيد .

● إن حسابات العلماء تشير إلى أن الفرصة التى ستظهر فيها مسار

الجسيم على الأفلام الحساسة ، ستكون فرصة واحدة من بين كل ٥٠ ألف لقطة .

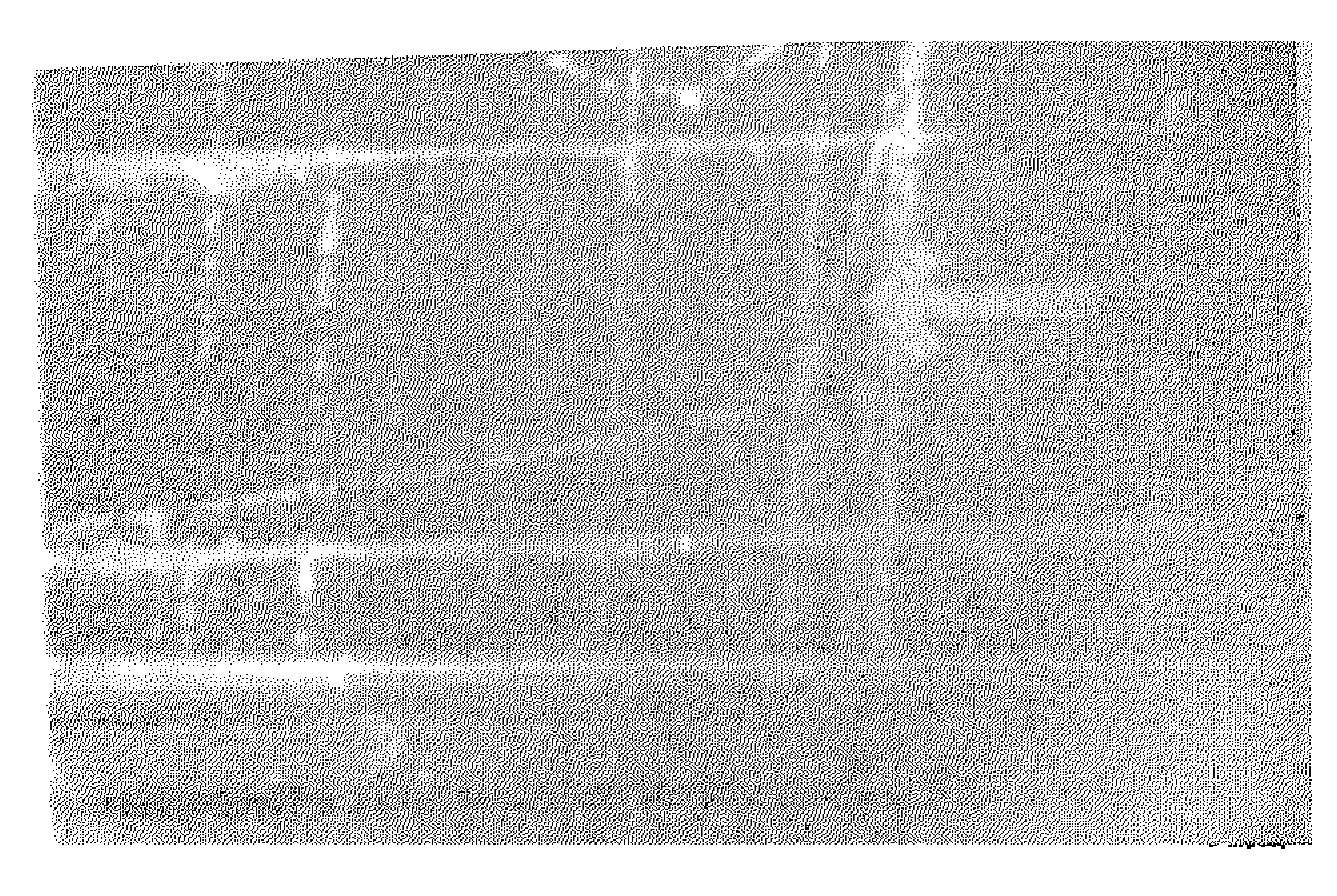
● لهذا سجلت الكاميرات الموضوعة لالتقاط مسار الجسيم المرتقب أكثر من ٣٧٥ ألف لقطة . . استمرت ليلا ونهاراً مدة أشهر ثلاثة ثم فحصت كل صورة بعناية فائقة ، . فلو مر الأثر دون أن يلحظوه ، لكان معنى ذلك ضياع ملايين الجنيهات . . ودعكم من القيمة الحقيقية للكشف الذى ينتظره آلاف العلماء بشغف ، فإن ذلك يعنى الكثير جداً فى تطوير معلوماتهم عن عالمنا الغريب (شكل ٢١) .

● لقد وقف وراء الصيد جيش كامل من العلماء : من بينهم ٢٦ عالماً من علماء الطبيعة الذرية ، ٤٥ من التكنولوجيين المتخصصين فى الكهربا ءوالميكانيكا ، ١٤ مهندساً كهربائياً وميكانيكياً ، و١٨ متخصصاً فى الفحص الفوتوغرافى الدقيق . واثنان من المقررين للبرامج وعلى رأسهم العالمان الذريان رالف شت ونيكولاس ساميوس .

فى تمام الساعة العاشرة والأربعين دقيقة من مساء يوم الجمعة المبارك الموافق ٢٧ يناير عام ١٩٦٤ ، ظهر جسيمنا المرتقب فى اللقطة الـ ٢٥ بعد الـ ٩٧ ألفا (أى رقم ٩٧٠٢٥) . . وترك نفس الآثار التى تنبأ بها العلماء من قبل !

وكان ذلك يوماً خالداً من أيامنا وأيامكم . . وإن هذا يعنى الكثير جداً بالنسبة لعلماء الذرة ، وكأنهم توصلوا إلى الكشف عن حلقة مفقودة فى سلسلة مترابطة لم يفهمها علماؤكم بعد . . وكأنما كشفهم أكثر أهمية من كشف الحلقة أو الحلقات المفقودة بين الإنسان وسائر الحيوانات !

كأنما العلماء الذين يبحثون فى أسرار الكون يحسون إحساساً دفيناً أنه لا بد من وجود قانون موحد ، أو فكرة كونيةواحدة تربط بين كل



(شكل ٢١) صورة تبين اكتشاف مسار الأوميجا السالب كما تنبأ به العلماء ، ويعد هذا الكشف من أخطر الكشوفات الذرية فى النصف الثانى من القرن العشرين . . والواقع أن هذه الصورة لاتقدر بمال ، برغم أنها لاتعنى بالنسبة لنا شيئاً .

هذه القوى والطاقات التى تظهر بأوجه مختلفة . . فمرة على هيئة قوى نووية ، ومرة على هيئة ظواهر كهربية ومغناطيسية ، ومرة على هيئة جاذبية . . إلخ . . فهل أساس كل هذا واحد ، وإن اختلفت الصور ؟

لست أدرى ، ولا هم كذلك . . ولكنهم يحاولون ، كما حاول من قبل أينشتاين صاحب النظرية النسبية لسنوات طويلة وأخفق . .

إن التجارب التى يقوم بها علماؤكم بحثاً عن أصول الأشياء التى تدثرها الطبيعة بغلاف من الكتمان ، قد لا تتضح إلا ببناء معجلات أكبر وأكبر . . عندئذ قد أخرج لهم السر العظيم الذى لا أزال أحتفظ

به فى قلبى . . فى نواتى !

وكأنهم يشعرون أننى عنيدة ، ولهذا يحاولون هذه الأيام أن يضعوا تصميمات لبناء معجل واحد تصل طاقته إلى ٨٠٠ ألف مليون إليكترون فولت ، وسيكلفهم ذلك أكثر من ٣٥٠ مليونا من الجنيهات الإسترلينية ومع أن التكاليف باهظة فإن أسرارى تستحق الكثير . . ولن أبوح بها إلا إذا كانت الضربة شديدة . . ألم أقل لكم إننى عنيدة ؟ . . . ومع ذلك فقد لا أبوح !

لا بد إذن أن يستمر الصيد . . ولكن ، متى سينتهى ؟ . . لست أدرى !

* * *

لقد حدثتكم هنا عن نواتى وما حوت . . عن قلبى وما جمع . . فكان أول حديث لى معكم من القلب للقلب . . وما أجمل ارتباط القلوب ، وما أروع أسرارها .

إننى لا أستطيع أن أحدثكم عن كون آخر يدثر من الخارج نواتى .. إنه مظهرى الخارجى ، وهو ستارتى وجلدى ، الذى يمثل لكم عالماً آخر له طبائعه وسلوكه وقوانينه . . ذلكم هو عالم الإليكترونات الذى تتحكمون فيه ، كما تتحكمون فى « الدلاديل » الذين يطوفون حولكم . . ولهذا فقد سخرتموها بسهولة لخدمتكم فى حين أن قلبى صعب المنال ، ولا يقدر عليه ، إلا من عرف كيف يأسره ويأتيه !

لقد كنت أود فعلا أن أحدثكم عن عالمى الآخر ، ولكن المجال هنا يضيق ، وقد أدفع واحداً من إليكتروناتى يوماً ليكتب « لكم مذكرات إليكترون » . . وهنا تكتمل الصورة فى بنائى . .

وقبل أن أستودعكم الله هنا أقول : سبحان من جمع شمل كونين

مختلفين فى بنائى الدقيق . . نواة بقوانينها ونظمها ، وإليكترونات بقوانينها ونظمها !

وفى نهاية المطاف — ولا نهاية — أحس أن إقامتى فى مخ صاحبكم قد حان أجلها ، إن هناك تفاعلا يجرى ، ولمصلحة صاحبكم لا بد أن يسرى ، وما علىّ إلا أن أطيع القوانين التى جبلنا على احترامها . . وهذا يحتم علىّ أن أترك مكانى لغيرى ، لأسير مع هذا الطوفان من السائل الأحمر الذى يجرى فى عروقه . . ومع أننى أحبه ويحبنى ، ومع أن الفراق صعب ، إلا أن هذا هو حال دنيانا ودنياكم !

إننى لا أعرف إلى أين سترمينى الأقدار . . ما هو مصيرى . . ماهو مصيركم ؟ لست أدرى ولا أنتم تدرون !

فلنطو إذن هذه الصفحات ، فقد حانت نهاية إقامتى . .

وكلمة أخيرة . . إن عقولكم ما زالت قاصرة أمام أسرار هذه الأكوان المتلاطمة . . وكأنما يقول فيها شاعركم :

فصارت عفاء واضمحلت كذرة على الشاطئ المحموم والموج صاخب

ثم أرجوكم أن ترددوا معى . . أرجوكم بعقولكم لا بألسنتكم . . كما أردد ذلك بنواتى . . لا إليكترونانى : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » .

ووداعاً . . وداعاً . . وفقكم الله . . دعوة ذرة . . فهل تستجاب . . هل تستجـ . . تستجا . . تستجـ . . تـ . . . . .

فهرس

الصفحة

تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية

تحت رقم ١٩٧١/١٧١٢

مطابع دار المعارف بمصر

سنة ١٩٧١

